التفسير التربوي للقرآن الكريم

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

أنور الباز

المجلد الثاني

دار النشر للجامعات - مصر

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://www.facebook.com/books4all.net

التفسير التربوي للقرآن الكريم

أنور الباز

المجلد الثاني

دار النشر للجامعات - مصر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الباز ، أنور
التفسير التربوي للقرآن الكريم/ أنور الباز - ط١ - القاهرة
دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧.
٣مج ٢٤سم.
تدمك ٦ ٢٠٣ ٣١٦ ٩٧٧
١ - القرآن - تفسير
أ- العنوان ٢٢٧

تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٥٤٨٨

الترقيم الدولي: ISBN: 977-316-203-6

الكود: ٢/١٩٥

تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلاً) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من الناشر.

دار النشر للجامعات - مصر
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
تليفون: ٦٣٤٧٩٧٦ - تليفاكس: ٦٤٤٠٠٩٤
darannshr@link.net

التفسير التربوي
للقرآن الكريم
(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

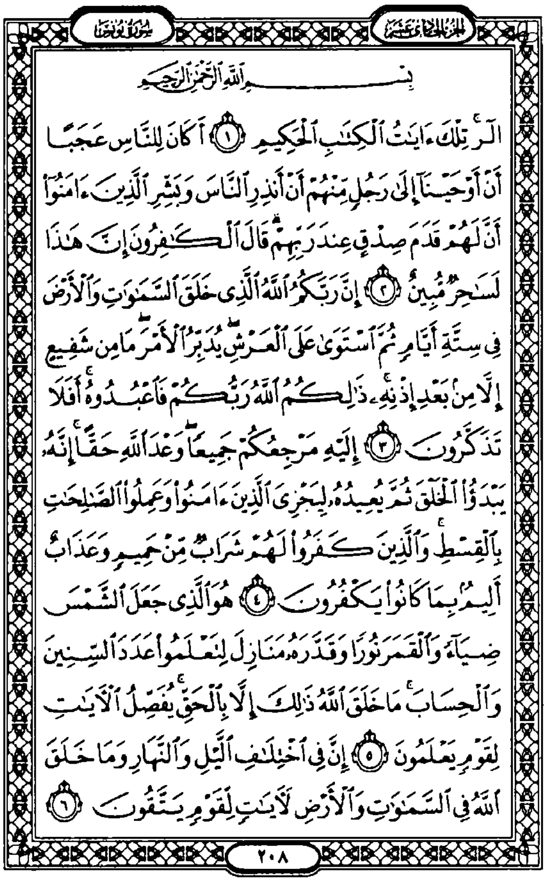

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

٢٠٨

سورة يونس

معانى الكلمات :

الر : إشارة إلى بلاغة القرآن وإعجازه وتحديه للعرب .

قدم صدق : منزلة رفيعة .

استوى على العرش : استواء يليق به سبحانه .

بالقسط: بالعدل .

حميم : ماء قد بلغ غاية الحرارة .

قدّره منازل : صيّر القمر ذا منازل يسير فيها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد بتقرير عقيدة الوحى بشهادة الكتاب الموحى به .

٢ ـ أن نعلم أنه لا شفاعة يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن الله .

٣ ـ أن نتدبر فى ملكوت الله ونشكره على إبداعه فى خلقه .

المحتوى التربوى :

بدأت هذه السورة بثلاثة حروف مقطعة كما بدأت سور: البقرة وآل عمران والأعراف ، وتمثل مبتدأ خبره : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، ثم يأخذ السياق فى عرض عده أمور تتجلى فيها الحكمة التى أشير إليها فى وصف الكتاب . من الوحى إلى الرسول ﷺ ؛ لينذر الناس ويبشر المؤمنين والرد على المعترضين أن يوحى الله إلى بشر ، إلى خلق السموات والأرض وتدبير الأمر فيها ، إلى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب، إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير .

والآيات فى بدايتها تقرر صفة لله الحكيم الذى يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض فى هذه السورة جوانب منها صادقة باقية نجد مصداقها فى كل جيل . والحكيم الذى ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله فى صفحة الكون وتضاعيفه . فى السماء والأرض وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار ، وفى مصارع القرون الأولى ، وفى قصص الرسل فيهم .. وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ويستنكر الله فى الآيات هذا العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحى منذ كانت الرسل ، فلقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة « الإنسان » عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة « الإنسان » الذى يتمثل فيهم. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسولاً لله ، وأن يتصل الله به - عن طريق الوحى ـ فيكلفه هداية الناس ، إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ، ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص .

والهدف من هذا الوحى - أو الاتصال : إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة ، وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهى الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتها على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعاً . فكل الناس فى حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير : والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . مع وضوح قضية الوحى على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمراً عجيباً ﴿ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ولقد كان يختلط عندهم الوحى بالسحر ؛ لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها .

ثم يناقش السياق القضية الأساسية الكبرى فى العقيدة . قضية الربوبية ويلمسها بمنطقها الفطرى البسيط المباشر ؛ فالله هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ، وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل ، وقدر اختلاف الليل والنهار .. هذه الظواهر البارزة التى تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها التدبر الواعى المدرك أن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه ..

أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التى يعللها الذهن باردة جافة ، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ !

إن هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه . شمسه وقمره – ليله ونهاره ، وما فى السموات والأرض من خلق ومن أمم ومن سنن ومن نبات ومن طير ومن حيوان كلها تجرى على تلك السنن .

وربكم الذى يستحق الربوبية والعبودية هو هذا الخالق الذى خلق السموات والأرض خلقهما فى تقدير وحكمة وتدبير ، والأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى ، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ؛ وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح .

ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الخليق بالربوبية ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فهو الذى يستحق الدينونة له دون سواه ..﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة والعبادة هى العبودية ، والدينونة ، والاتباع والطاعة ، مع إفراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الخصائص كلها ؛ لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

ويعرض الله مشاهد الإبداع فى الكون فى خلق الشمس والقمر مؤكداً أنه ما خلق كل هذا عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة ، وإنما خلقهما بالحق الثابت الراسخ ، وهذه المشاهد التى تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر ، إن فى ذلك كله آيات لقوم يتقون ، وتستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص ، وجدان التقوى الذى يدع هذه القلوب تتأثر بمجالى القدرة ومظاهر الإبداع المعروض للأنظار والأسماع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ القرآن الكريم محكم واضح ، لا يدخله شك ، ولا كذب ولا تناقض .

٢ ـ لا يشفع عند الله شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له الله فى الشفاعة .

٣ ـ كل ما خلقه الله – سبحانه وتعالى – فى السموات والأرض فى غاية الإبداع والحكمة، وعلينا أن نشغل أنفسنا بالتفكير فى هذه المخلوقات ؛ لتقوية إيماننا بعظمة الله وقدرته .

٤ ـ بشرى لأهل الإيمان والعمل الصالح بما أعد لهم عند ربهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ (الحزب ٢١)
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢٠٩

معانى الكلمات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون لقاء الله .

دعواهم : دعاؤهم .

لقضى إليهم أجلهم : لأهلكوا وأبيدوا

فى طغيانهم : فى تجاوزهم الحدَّ فى الكفر .

يعمهون : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الضر : الجهد والبلاء والشدة .

دعانا لجنبه : استغاث بالله ليكشف عنه الضر .

القرون : الأمم كقوم نوح وعاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإيمان بالله والرضا بقضائه يكون سبباً فى دخول الجنة .

٢ ـ أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا أو الغفلة عن آيات الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن نستشعر لطف الله وحلمه فى إمهاله للناس ، وعدم عجلته بدعائنا الشر .

المحتوى التربوى :

بعد هذا العرض لصفحة من صفحات الكون المنظور وآيات الله فيه ، هناك من يرون كل هذا ، ثم لا يتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ؛ لأن البشرية لم تبلغ فيه كمالها المنشود ، والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلون ، لا تحرك فيهم قلباً يتدبر ، ولا عقلاً يتفكر ، هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشرى ، ولن يصلوا إلى الجنة التى وُعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حين يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحمده فى رضاء مقيم .

وفى الناحية الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا ، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان تحقيقاً لأمر الله بعمل الصالحات ، وانتظاراً للآخرة الطيبة وطريقها هو الصالحات ، هؤلاء يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذى يصل ما بينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق ، ويهديهم إلى الخير بوحى من حساسية الضمير وتقواه هؤلاء يدخلون الجنة .

وفى الجنة أقصى ما يشغل أهلها هو تسبيح الله وحمده أولاً وأخيراً ، يتخلل ذلك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبين ملائكة الرحمن ، وينطلقون من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ، ويرتفعون عن ضروراتها وحاجاتها ، ويرفرفون فى آفاق الرضا والتسبيح والحمد والسلام .

بعد ذلك يواجه السياق القرآنى تحديهم لرسول الله ﷺ ، وطلبهم تعجيل العذاب الذى يتوعدهم به ، ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة . ويرسم لهم مشهدهم حين يصيبهم الضر فعلاً ، فتتعرى فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها ، فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة ، ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ، ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هى للابتلاء وبعدها الجزاء .

والله ـ سبحانه ـ يقول لهم : إنه لو عجل لهم بالشر الذى يتحدون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذى يطلبونه..لو استجاب الله لهم فى استعجالهم كله لقضى عليهم،وعجل بأجلهم! ولكنه يستبقيهم لما أجلهم له ، ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاءه سيظلون فى عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم .

وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر تكشف عن التناقض فى طبيعة هذا الإنسان الذى يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه .

يقول صاحب الظلال : « إنها صورة مبدعة لنموذج بشرى مكرور ، وإن الإنسان ليظل مدفوعًا مع تيار الحياة ، يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر فى إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً . وساعات الرخاء تُنسى ، والإحساس بالغنى يُطغى ، ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

وبمثل هذه الطبيعة .. طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى إذا ارتفع انطلق واستمر المسرفون فى إسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فماذا كانت نهاية الإسراف فى القرون الأولى ؟ لقد انتهى بهم الإسراف وهو الشرك - إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها فى الجزيرة العربية فى مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ، وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان ، فلقوا جزاء المجرمين .

وإذْ يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون فى مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه .

ويقول صاحب الظلال : « إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التى يقضيها على الأرض ، وبكل شىء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق فى متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذى هو مسؤول عنه وممتحن فيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التحذير من الغفلة عن التفكير فى مخلوقات الله وآياته الكونية ، والركون إلى متع الدنيا الفانية .

٢ ـ الإيمان سبب فى الهداية يوم القيامة إلى الصراط المستقيم وإلى الجنة ونعيمها .

٣ ـ تحية أهل الجنة السلام ، ونطقهم دعاء وتسبيح وحمد ؛ لما يرون من تزايد نعم الله - تعالى - عليهم .

٤ ـ حلم الله - تعالى - ولطفه بعباده ، ومن ذلك : أنه لا يستجيب دعاءهم بالشر على أنفسهم أو غيرهم ويمهل الظالمين منهم ، فلا يعجل لهم بالعقاب .

٥ ـ الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويضرع إليه ، فإذا أنجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه .

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١٠

معانى الكلمات :

لا أدراكم به: لا أعلمكم الله به بواسطتى .

لبثت فيكم : مكثت بينكم .

عمراً : زمناً طويلاً .

لا يفلح المجرمون : لا يفوزون بمطلوب .

اختلفوا : تفرقوا شيعاً وأحزاباً .

لقُضى بينهم : لعجل عقابهم فى الدنيا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد أن القرآن كلام الله ، الموحى إلى رسوله ﷺ ، المتعبد بتلاوته لا يتبدل ولا يتغير.

٢ ـ أن نحذر الكذب على الله أو تكذيب آياته ، فإن ذلك دأب المشركين .

٣ ـ أن نعتقد أن الغيب كله لله لا يطلع عليه أحداً إلا بإذنه لحكمة يعلمها .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتناول السياق عرض نماذج من أعمال المشركين بعد استخلافهم ، فلقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟

طلبوا من الرسول ﷺ قرآناً غير الذى يتلوه ، وطلبوا تبديل بعض أجزائه ، وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية . فما على محمد إلا أن يقبل التحدى ويؤلف قرآنا آخر ، أو يؤلف جزءاً مكان جزء ؟ !

ويقول صاحب الظلال : إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفى بمطالب هذه البشرية فى حياتها الفردية والجماعية ، ويهديها إلى طريق الكمال فى حياة الأرض بقدر ما تطيق ، ثم

إلى الحياة الأخرى فى نهاية المطاف ، ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

ويأمر الله رسوله ﷺ بالرد عليهم بأن الأمر ليس لعبة لاعب ولا مهارة شاعر ، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ، فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه ، وإن هو إلا مبلغ متبع الوحى الذى يأتيه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

إنه وحى من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك ، ولو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . قل لهم هذا ، وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمراً كاملاً من قبل الرسالة ـ أربعين سنة . فلم تحدثهم بشىء من هذا القرآن ؛ لأنك لم تكن تملكه ، لم يكن قد أوحى إليك ، ولو كان فى استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذى قعدك عمراً كاملاً ؛ ألا إنه الوحى الذى لا تملك من أمره شيئاً إلا البلاغ .

وقل لهم : ما كان لى أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول : إنه أوحى إلى الله إلا بالحق : فليس هنالك ما هو أشد ظلماً ممن يفترى على الله كذباً ، أو من يكذب بآيات الله . وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله .

فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ **يقول صاحب المنار** : إن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتابًا ، ولم يلقن من أحد علمًا ، ولم يعرف تشريعًا ، ولم يمارس أساليب البيان من شعر ونثر لا يمكنه أن يأتى من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز .

إنهم المشركون والضالون فى كل وقت لا يفتئون عن إثارة الشبه على المشركين .

ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم فى الأرض ، غير هذا الهزل فى طلب قرآن جديد . فعبدوا الأوثان التى لا تقدر على نفع ولا ضر ، ويدعون أنهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له – وهو العالم المحيط بجميع المعلومات – لم يكن موجوداً فكان خبراً ليس له مخبر عنه ، ويرد عليهم بأسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذى يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقبل أن يمضى فى عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض ، والفطرة فى أصلها كانت على التوحيد ، ثم جدَّ الخلاف بعد حين ، وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعاً إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وبعد هذا التعقيب يمضى فى الاستعراض لما يقول المستخلفون : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أى من الآيات التى اقترحوها ـ تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة من الآيات ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أى هو مختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به يعنى : أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو.

ويقول صاحب **الظلال** بمناسبة قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ : « فكل الآيات التى يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله المبثوثة فى تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل فى الأمم قبلهم غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية وطبيعة معجزتها ؛ فهى ليست معجزة وقتية تنتهى بمشاهد جيل ، إنما هى المعجزة الدائمة التى تخاطب القلب والعقل فى جيل بعد جيل .

ويوجه الله رسوله ﷺ أن يحيلهم على الله الذى يعلم ما فى غيبه ، ويقدر إن كان سيبرز لهم خارقة أو لا يبرز : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وهو جواب فى طيه الإمهال وفى طيه التهديد ، وفى طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية فى جانب الألوهية ، فإن محمداً ﷺ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئاً فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئاً ، فأمرهم موكول إلى الله ، وهكذا يتحدد مقام العبودية فى جانب مقام الألوهية ، ويخط خطًا بارزًا فاصلًا بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الرسول ﷺ متبع لما يُوحى إليه من ربه ، لا يغير ولا يبدل من عند نفسه شيئا ، ولم يكن له قبل نزول الوحى علم بما فى هذا الكتاب .

٢ـ لا يمكن أن يكون القرآن الكريم من كلام البشر ؛ لأنه كتاب عظيم اشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ، والفصحاء والبلغاء ، وأخبر بما فى النفوس وما يحدث فى المستقبل وغير ذلك من أوجه الإعجاز المختلفة .

٣ ـ لا أحد أظلم من رجلين رجل يكذب على الله ـ تعالى ـ وآخر يكّذب بآيات الله تعالى .

٤ ـ إبطال دعوى المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة .

٥ ـ الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله ومن علّمه الله شيئًا منه ، وهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ
ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ
أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ
يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

معانى الكلمات :

ضراء مستهم : مصيبة أصابتهم .

لهم مكر : دفع وطعن واستهزاء .

الله أسرع مكرًا : الله أسرع جزاءً وعقوبة .

يبغون : يُفسدون .

زخرفها : نضارتها وبهجتها .

حصيدًا :كالنبات المحصود بالمناجل .

لم تغن : لم تمكث زروعها .

دار السلام : الجنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان ضعف الإنسان وفقره إلى الله ـ عز وجل ـ وحاجته إليه فى حفظ حياته وبقائه إلى أجله .

٢ ـ أن نخلص الدعاء لله فى حال الرخاء والشدة فهو أصل العبادة ومخها .

٣ ـ بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا فى نضرتها وسرعة زوالها .

المحتوى التربوى :

بعد أن انتهى السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر حين يذوقون الرحمة والنعمة بعد الضر ، كما تحدث عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه ، ويضرب لهم مثلاً مما يقع فى الحياة يصدق ذلك .

يقول صاحب الظلال : «عجيب هذا المخلوق الإنسانى لا يذكر الله إلا فى ساعة العسرة ولا يثوب إلى فطرته ، وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ، ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن ، مجلوة ـ دائماً ـ بجلاء الإيمان .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ .

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه ، فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا : إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا ، وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك فجاءت الرسول ﷺ تناشده الرحمة أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ثم مكرت قريش بآية الله ، وظلت فيما هى فيه ! وهى ظاهرة مطردة فى الإنسان ما لم يعصمه الإيمان .

ولكن الله أسرع مكراً وأقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، فلا شىء منه يخفى ، ولا شىء منه ينسى ، ورسل الله ـ عز وجل ـ تكتب ؛ ولا ندرى ولا نعرف عن ذلك شيئاً لأنه غيب ، فعلينا أن نتركه دون تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح .

ويرسم السياق مشهداً حياً يقرر فيه قدرة الله المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون فى قوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ويصور مشهدهم وهم فى الفلك ، وهى تتحرك بهم فى رخاء ، وهم منعمون فى سرور شامل ، وفجأة تأخذ الغارين الآمنين الفرحين ، ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، يلاطمها الموج ويدور بها كالريشة الضائعة فى الخضم ، فلا مجال للنجاة عندئذ فقط ، وفى وسط هذا الهول المتلاطم ، تحيا فطرتهم وتطهر مما ألم بها من أدران وتنبض الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه .

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج الهادر ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابس فماذا ؟ ! ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

قال **الألوسى** بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ : « هذا وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى . وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر : ٤٣) ، ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح : ١٠) .

ويقول **صاحب الظلال** : « والناس حين يبغون هذا البغى يذوقون عاقبته فى حياتهم الدنيا قبل أن يذوقوا جزاءه فى الدار الآخرة .يذوقون هذه العاقبة فساداً فى الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضّار به .

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم لله ، وإما أن يتعبدهم الطغاة ، والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها فى الأرض ، وربوبية الله وحدها فى حياة البشر ، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة ، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد ، ودنس المستنقع ، وامتهان الكرامة ، وفساد المجتمع ، ودناءة الحياة !

ويضرب الله ـ عز وجل ـ لهم مثل الحياة الدنيا التى لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى .

هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر ، وها هى ذى الأرض كأنها عروس مجلوة ، وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، وفى وسط هذه السطوة ، وفى غمرة هذا الاطمئنان الواثق ، وفى ومضة ، وفى خطفة : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ .

وكأن الله يقول لهم هذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ؛ ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع ، هذه هى لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار .

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ودار السلام التى يدعو إليها الله ، ويهدى من يشاء إلى صراطه المؤدى لها . حينما تنفتح بصيرته ، ويتطلع إلى دار السلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من طبيعة الخلق الرجوع إلى الله فى الشدائد ، مما يؤكد أن الإيمان فطرة فى النفوس .

٢ ـ المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ؛ لأنه لا يملك الأسباب ؛ ولأنه يرجع حتما إلى رب الأرباب .

٣ ـ متاع الدنيا قليل زائل ، فلا نغتر بها وإنما نتخذها فرصة للعمل الصالح وتحقيق السعادة فى دار السلام .

٤ ـ من مكر مكر الله به ، والله أسرع مكراً وأكبر أثراً وضرراً .

٥ ـ التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها .

٦ ـ التحذير من الذنوب ، فإنها سبب الشقاء وسلب النعم .

٧ ـ إخلاص العبد فى الدعاء فى حال الشدة آية على أن التوحيد أصل والشرك طارئ .

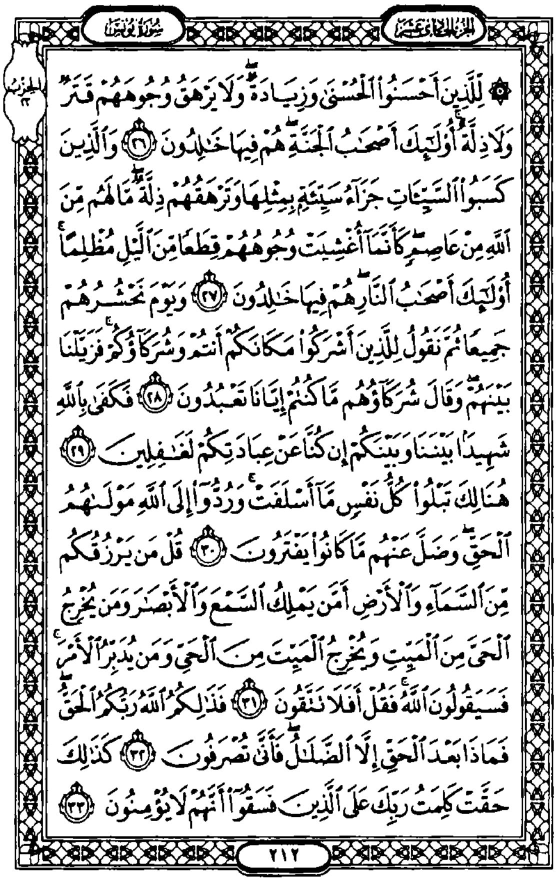
الجزء الحادي عشر — سورة يونس

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

٢١٢

معانى الكلمات :

الحسنى : الجنة .

وزيادة : التمتع بالنظر إلى الرب الكريم .

يرهق : يغشى ويغطى .

قتر : الغبار وكدرة اللون .

ذلة : كآبة الانكسار .

أغشيت : ألبست .

فزيلنا : ميزنا ، وفرقنا .

تبلو : تعلم أو تشاهد .

فأنى تصرفون : كيف تختارون الانصراف عن الحق .

حقت : وجبت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى .

٢ ـ بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران .

٣ ـ تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق واضح له .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات كلها تعطى فى طابعها العام لمسات وجدانية متتابعة تنتهى كلها إلى هدف واحد: مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر والعدل فيه، ويكشف السياق هنا عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين ، ويكشف عن رحمة الله وفضله وعن قسطه وعدله فى جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القانون الكونى المؤدى إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف

قبل أن يفصل فى أمر الخلق ، ولا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . وأولئك أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما الذين كسبوا السيئات لا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء ولكن ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا ﴾ .. ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهم وتركبهم وتكربهم ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ نفاذاً لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق، ويخالف الناموس ، ثم ترسم الآيات صورة حسية للظلام النفسى والكرب والكدرة التى تعلو وجه المكروب المرعوب كأنما أخذ من الليل المظلم قطعًا رقعاً غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه مكسوة بأغشية من هذا الليل البهيم . وذلك جزاء المبعدين فى هذا الظلام ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ ملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وتحكى الآيات قصتهم يوم القيامة ، وموقف الخزى الذى يكونون فيه وهم محشورون جميعاً الكفار والشركاء .. وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم « شركاءهم » تهكماً من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء لله .

وفى موقف الحشر لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء ليبرئوا أنفسهم من الجريمة ، جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وفى هذا الموقف المكشوف والمشهود تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة ، وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل ، وهناك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له أثر .

ومن مشهد الحشر الذى تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن الله هو المهيمن على الموقف وما فيه . ينتقل السياق إلى واقعهم الذى يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التى يعلمونها ، وإلى المشاهد التى يرونها فى الحياة أبل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله .

ويقول صاحب الظلال : ولقد مرّ أن مشركى العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ؛ ليصحح لهم عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى ـ ذلك الخلط والضلال .

إن النفس حين تنفصل عن منهج الله وطاعته ، وحين تستبدبها الأهواء ، والمصالح تعمى عن رؤية الحق حتى لو كان كان أمامها ، بالرغم من إقرارهم بأن الله الذى يرزقهم ، هو الذى منح حاستى السمع والبصر وهو حاستّا الإنسان الرئيستان، بل يرون مشهد الميلاد والإحياء كل يوم، وتدبير أمور الكون ، وكلها أمور متجددة لا تنقطع .

ونعود مرة أخرى إلى بداية السياق لنقف مع بعض الفوائد التربوية للآيات ، فيقول صاحب الأساس فى تفسير الزيادة فى قوله ـ تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ يقول : روى الإمام أحمد عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ناد منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويُجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » [هكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة] .

وروى ابن جرير ، عن عطاء عن كعب بن عجرة ، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله ـ عز وجل » [رواه ابن أبى حاتم] .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ : أى : لا واسطة بين الحق والضلال ، فمن تخطى الحقوق وقع فى الضلال ، فالله الحق وكل معبود سواه باطل ، ورسوله الحق فكل ما يناقض ذلك باطل . ووحيه الحق فكل ما خالفه باطل والعبودية له هى الحق فكل عبودية لغيره باطلة ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الضلال ، والباطل ، عن التوحيد إلى الشرك ، عن اتباع الرسول إلى اتباع الشيطان ، عن اتباع الوحى إلى اتباع الهوى .

لذا وجبت وثبتت كلمة الله على الذين فسقوا وتمردوا فى كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه هى كلمة الله الأزلية أن الفاسق لا يستأهل الهداية ، ولا يهديه الله ـ نسأل الله العافية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجازى الله الذين أحسنوا بما يزيد عن إحسانهم ـ فضلاً من الله وكرما ، والله يحب المحسنين ، بينما الذين عملوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ـ عدلاً من الله ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(الكهف : ٤٩) .

٢ ـ فى عرضات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت ، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف .

٣ ـ التوغل فى الشر والفساد يصبح طبعاً لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به .

٤ ـ ليس بعد الحق إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال .

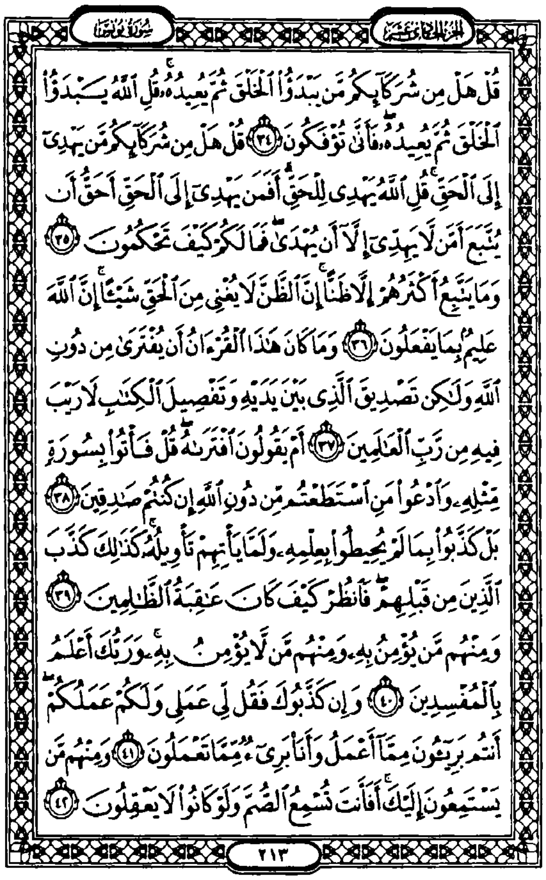

قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا
الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴿٣٤﴾ قل هل من شركائكم من يهدي
إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن
يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴿٣٥﴾
وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله
عليم بما يفعلون ﴿٣٦﴾ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون
الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب
فيه من رب العالمين ﴿٣٧﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة
مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿٣٨﴾
بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب
الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿٣٩﴾
ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم
بالمفسدين ﴿٤٠﴾ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم
أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴿٤١﴾ ومنهم من
يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴿٤٢﴾

٢١٣

معانى الكلمات :

تؤفكون : تصرفون .

لا ريب فيه : لا شك فيه .

يأتيهم تأويله : يتبين لهم عاقبته .

ومنهم من يؤمن به : ومن المكذبين من يؤمن به سراً ، ولكن يجاهر بالكفر به عناداً.

الصم : الذين لا يسمعون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تقرير عقيدة الوحى وإثبات نبوة محمد ﷺ .

٢ ـ إثبات أن القرآن مصدر كل الكتب السماوية قبله من لدن الله ـ تعالى .

٣ ـ أن نعلم أن الظن لا يقبل فى العقائد بل لابد من العلم اليقينى فيها .

المحتوى التربوى :

ويستمر السياق فى عرض مظاهر قدرة الله ، والرد على الذين اتخذوا شركاء من دون الله ، فيوجه إليهم السؤال ارتكاناً على مسلماتهم الأولى ، ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنما يقرره لهم اعتماداً على وضوح الرؤية والنتائج بعد تسليمهم بالمقدمات ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؟ وهم مسلمون بأن الله هو الذى يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، ولكن حكمة الله الخلق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين فى هذه الأرض، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم، وسيرهم على المنهج أو انحرافهم عنه ، إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم ، وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد فى حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته ، ولابد من

تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، هم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحى من الميت ، والحياة الأخرى قريبة الشبه بإخراج الحى من الميت الذى يسلمون به .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ، وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .. فأين تتوجهون بعيداً عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ .

فينزل كتاباً ، ويرسل رسولاً ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ، ويكشف عن آيات الله فى الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة كما هو معهود لكم من رسوله الذى جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؟ ومن هنا تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ ؟

ثم يعقب الله على ما سبق بتقرير واقعهم فى النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد ، فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهى لا تُغنى من الحق شيئاً .

فهم يظنون أن لله شركاء ، ولا يحققون هذا الظن ولا يتمنونه عملاً ولا عقلاً ، وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة .

ولا يمنحون هم هذه الخرافة ، وهم يظنون أن الله لا يوُحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ، وهكذا يعيشون فى مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئاً والله وحده هو الذى يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم .

وتفريعاً على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق فى جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفى التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله وحده وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله ، وتثنى بوصمهم بالتسرع فى الحكم على ما لم يعلموه يقينا أو يحققوه ، وتثلث بإثبات حالتهم فى مواجهة القرآن ، وتثبيت الرسول ﷺ على خطته ـ أياً كانت استجابتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهى بالتيئيس من الفريق الضال والإيمان إلى مصيرهم الذى لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقون بما هم فيه من ضلال .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى العقيدة التى جاء بها لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هى التى تملك الإتيان به هى قدرة الله ، القدرة التى تحيط بالأوائل والأواخر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص .

ويقول صاحب الأساس : ولما نعى الله على السائرين وراء الظنون والأوهام ، ولما كان الطريق للخلاص من ذلك هو القرآن فقد قال الله بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ

مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى ما صح وما استقام فى منطق العقل أن يكون مثل هذا القرآن فى علو أمره ، وإعجازه ، وكثرة معجزاته منسوباً إلى الله كذباً ، فهذا القرآن بفصاحته وبلاغته وحلاوته واشتماله على ما اشتمل عليه لا يكون إلا من عند الله . ولكن أنزل ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المتقدمة ، مصدقاً لها ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع من التحريف والتبديل فيها .

وبهذا تقرر الآيات الثلاث أن الله هو الهادى ، وأن من مظاهر هدايته هذا القرآن ، وأن من يتبع غير هدايته فهو فى ضلال . فيا أيها المتعجبون أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً اعلموا ذلك، فالحجة قائمة عليكم أن هذا القرآن من عند الله ، فلا تتعجبوا ، فإن عجبكم فى غير محله ، وهكذا أقامت الآيات الحجة على الكافرين فى أمر الوحدانية واليوم الآخر والرسول والقرآن ؛ وتوضيح الحق فى هذه الأشياء ضرورى لتحطيم فكرة الكافرين فى العجب من أن ينزل الله وحياً، ويرسل رسوله مبشراً ومنذراً .

ويمضى السياق فى تقرير نبوة النبى ﷺ قال ـ تعالى ـ من خطاب رسوله ليُسلِّيه ويصبِّره على عدم إيمان قومه مع ظهور الأدلة وقوة البراهين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ أى بالقرآن وبالنبى ـ أيضاً إذ الإيمان بواحد يستلزم الإيمان بالثانى ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ ، وهذا إخبار غيب ، ثم كما أخبر ـ تعالى ـ فقد آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر . والله عليم بهؤلاء المعاندين المفسدين ، فإن استمروا فى تكذيبهم لك فلا تحفل بهم وقل : ﴿ لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . فإذا كان هناك عقاب دنيوى تسلم منه ، ويهلكون هم به » .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وهذا الكلام فيه تبشير للنبى ﷺ بأنه مع هذه الحال الحالكة المظلمة سيكون من يؤمن ومن يجدد إيمانكم فى كل الأزمان ويصدق بالقرآن ويذعن له ، فالقرآن باقٍ خالد محفوظ ، ونور يهدى ما بقى الإنسان فى هذه الأرض ... ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ علمًا دقيقًا محيطًا بالذين لا يؤمنون ، وعبر بالمفسدين ؛ لبيان أن فى طلبهم الإفساد فى الأرض ومنع الإصلاح فيها » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يقبل الظن فى العقائد بل لابد من العلم اليقينى فيها .

٢ ـ كراهية القول بالظن والعمل به وفى الحديث:« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » .

٣ ـ من أدلة القرآن على أنه وحى من عند الله تحدى الله العرب بالإتيان بسورة واحدة فى فصاحته وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك .

٤ ـ من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة ، وعدم التناقض معها إذ هى من مصدر واحد وهو الله رب العالمين .

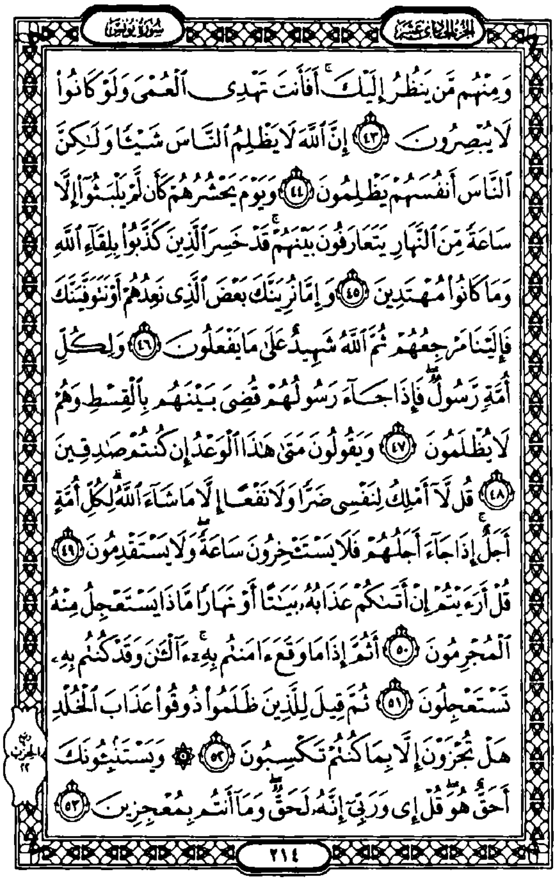
الجزء الحادي عشر — سورة يونس

ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا
لا يبصرون ﴿٤٣﴾ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن
الناس أنفسهم يظلمون ﴿٤٤﴾ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا
ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله
وما كانوا مهتدين ﴿٤٥﴾ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك
فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴿٤٦﴾ ولكل
أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم
لا يظلمون ﴿٤٧﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين
﴿٤٨﴾ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة
أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٤٩﴾
قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه
المجرمون ﴿٥٠﴾ أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به
تستعجلون ﴿٥١﴾ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد
هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴿٥٢﴾ ۞ ويستنبئونك
أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴿٥٣﴾

٢١٤

معانى الكلمات :

ينظر إليك : يشاهد دلائل نبوتك الواضحة .

شهيد : مطلع .

بالقسط : بالعدل .

أجل : مدة معلومة لهلاكهم .

بياتاً : وقت البيات أى ليلاً .

يستنبئونك : يستخبرونك عن العذاب .

إى وربى : نعم وربى .

وما أنتم بمعجزين : وما أنتم بفائتين من عذاب الله بالهرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد من يوم القيامة ونتدبرها ونستعد لها .

٢ ـ أن نحسن العمل فهو معروض على الله يوم القيامة والشهود حجة لنا أو علينا .

٣ ـ أن نعلم علم اليقين أن الله هو الضار النافع، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ولكل إنسان أجل، ولكل أجل كتاب .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات تستعرض حال بعضهم من الرسول ﷺ ، وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يعود السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون إلى الطريق ، إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا ـ **كما يقول صاحب الظلال** : إن هؤلاء لكثير ، فى كل زمان وفى كل مكان ، والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً ؛ لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة لا اتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدى حقيقة وظيفتها . والرسول ﷺ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمى . فذلك من شأن الله وحده ـ عز وجل ـ والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة ، وأعطاهم الأسماع

والأبصار والعقول ليهتدوا بها ؛ فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التى لا تتخلف ولا تحابى ، ولقوا جزاءهم عدلاً ولم يظلمهم الله شيئاً .

وفى هذه الآيات تسرية عن رسول الله ﷺ مما يجده فى نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه فى الجهد، ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمى ، وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل فى اختصاص الله .

وفيها كذلك تحديد حاسم لطبيعة العبودية ومجالها ـ حتى ولو تمثلت فى شخص رسول الله ، فهو عبد من عباد الله لا قدرة له خارج مجال العبودية ، والأمر كله لله .

بعد ذلك يستعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التى تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم ، رحلة سريعة قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصلية ، وترسم الآيات تشبيها للحياة الدنيا وللناس الذين دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف .

وفى ظل المشهد تبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة ، وكذبوا بلقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا فى تلك الرحلة ، بل تلك الومضة ـ فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشىء يلقون به ربهم ؛ ولم يستعدوا كذلك بشىء للإقامة الطويلة فى الدار الباقية : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، ينتقل السياق لتقرير حقيقة مهمة وهى أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذى كلف الرسول ﷺ أن يبلغه لهم ، فى حياته أو بعد وفاته ، فالمرجع إلى الله فى الحالين ، وهو شهيد على يفعلون فى حضور الرسول بالحياة ، وفى غيبته بالوفاة . فلن يضيع شىء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول ﷺ مما يوعدون .

وحقيقة أخرى يقررها السياق وهى أن أمر العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها كله لله ، وأن ليس لك ـ للرسول ﷺ ـ من الأمر شىء .ودورك فيها هو البلاغ، أما ما وراء ذلك فكله لله، وقد ينقضى أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتما على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . هذا له وحده ـ سبحانه ! أما أنت ـ وكل رسول ـ فعليك البلاغ ، ثم يمضى الرسول ويدع الأمر كله لله ، ذلك كى يعلم العبيد مجالهم وكى لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم فى الدعوة ، ومهما تعرضوا فيها من عذاب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ؛ وقد كانوا يسألون فى تحدٍ واستعجال طالبين وقوع ما يوعدهم به النبى ﷺ من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين : والجواب : أن الأمر لله يحقق وعيده فى الوقت الذى يشاؤه وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذى أجله لا يُستعجل .

فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يقول **صاحب الظلال** : الأجل قد ينتهى بالهلاك للحى ، هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية ، وقد ينتهى بالهلاك المعنوى ، هلاك الهزيمة والضياع ، وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائما فتضمحل وتنمحى شخصيتها وتنتهى إلى اندثارها كاملة ، وإن بقيت كأفراد . وكل أولئك وفق سنة الله التى لا تتبدل .

وينقلهم السياق من موقف السائل المستهزئ المتحدى ، إلى موقف المهدَّد الذى قد يفاجئه المحظور فى كل لحظة من الليل أو النهار ، وبينما هم فى مفاجأة السؤال ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلاً ـ وهو لم يقع بعد ـ ولكن كما يقول صاحب الظلال : التصور القرآنى يرسمه واقعاً ، ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ !

فكأنما وقع ، وكأنما قد آمنوا به،وكأنما يخاطبون بهذا التبكيت فى مشهد حاضر يشهدونه الآن! وتتمة المشهد فى ساحة الحساب والعذاب ، وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول ـ إن كان هذا الوعيد حقاً ـ فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين ، والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى يوم القيامة يستقبل الناس ما قضوه فى حياتهم الدنيا وفى قبورهم، كأنه ساعة من نهار .

٢ ـ يوم القيامة لا يعرف القربات بعضهم بعضاً ، ولكن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه مهتماً بما يصير إليه أمره .

٣ ـ كل أمة تعرض يوم القيامة على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر ، شاهد عليها ، وحفظة من الملائكة شهود أيضاً .

٤ ـ لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يملك الضر والنفع إلا هو ، وقد حدد لكل إنسان أجلاً لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

معانى الكلمات :

أسروا الندامة : أخفوا الغم والحسرة .

بالقسط : بالعدل .

موعظة : القرآن .

أذن لكم: أعلمكم بهذا التحليل والتحريم.

تفترون : تكذبون .

شهوداً : رقباء .

تفيضون : تخوضون .

ما يعزب : ما يغيب .

مثقال ذرة : وزن قطعة الهباء . وهو ما يُرى متطايراً فى ضوء الشمس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم علم اليقين أن الذى ينفع الإنسان يوم القيامة ليس حسبه ،ولا ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .

٢ ـ أن نعتقد أن وعد الله حق، وهو القادر العليم، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

٣ ـ أن نوقن أن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، ولا يغيب عن علمه ـ تعالى ـ مثقال ذرة فى أرض أو سماء .

المحتوى التربوى :

بينما يتحدث السياق عن استنباء المشركين للرسول وجوابه عليهم ، إذا نحن فجأة مع السياق فى نقلة من نقلات الأسلوب القرآنى المصورة فى ساحة الحساب والجزاء مبدئياً على وجه الفرض والتقدير : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ فلا يُقبل منها حتى على فرض وجوده معها،ولا تكتمل الآية حتى يكون الغرض قد وقع وقضى الأمر:﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط فى أيديهم:﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

ويأتى التعقيب المؤكد للحشر والحساب ، جولة أخرى مع القدرة فى بعض مجاليها فى السماء والأرض وفى الحياة والموت ؛ جولة عابرة لتوكيد معنى القدرة الكفيلة بتحقيق الوعد ، ثم نداء عام للناس أجمعين للانتفاع بهذا القرآن الذى يحمل لهم الموعظة والهدى وشفاء الصدور .

وبهذا الفضل الذى آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التى أفاضها عليهم من الإيمان فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذى يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة ، إن ذلك هو الفرح العلوى الذى يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها ؛ والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها . إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء إليه مطمحهم أعلى من هذه الأعراض وآفاقهم أسمىْ من دنيا الأرض ، الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هى الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

يقول صاحب الظلال : إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هى التى تحدد مكان الناس فى هذه الأرض ـ فى الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم فى الحياة الأخرى إن الأرزاق المادية ، والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية . . .

إن المنهج الذى يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذى يحدد قيمة الأرزاق المادية فى حياتهم هو الذى يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء كما يجعلها سبباً للرقى الإنسانى ، أو مزلقاً للارتكاس ! ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين فى حياة أهله .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين فى هداه الذى يشفى الصدور ، ويحرر الرقاب ، ويعلى من القيم الإنسانية فى الإنسان ، وفى ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذى أعطاه للناس فى الأرض ؛ وبالتصنيع الذى يوفر الإنتاج المادى وبالتيسيرات المادية التى تقلل من شدة اللوح وبسائر هذه القيم التى تدق الجاهلية حولها الطبول فى الأرض! وبدون وجود تلك القيمة العليا ـ الدين ـ وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم فى إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

ويتعرض السياق للجاهلية وهى تزاول حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند الله ، ولكن وفق أهواء البشر واعتدائهم على خصائص الله ـ سبحانه ـ يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه ، فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذى يتصورون أن يكون فى شأنهم يوم القيامة !! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية !

والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادى الذى أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التى تحكم هذه المصادر، وأقدرهم كذلك على التنويع فى أشكاله ، والتحليل والتركيب فى مادته لتنويع هذه الأشكال وكله فى الكون وفيهم من رزق الله .

ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك.. فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه، وإذا هم يشركون به غيره ، ثم يشقون فى النهاية بهذا كله ، لأنهم لا ينتفعون بهذا الذى هو شفاء لما فى الصدور !

لا يشكرون ، والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذى لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناول قدرته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والسياق يطرح هذا الأنس والأمن والطمأنينة فى جوار الله ليخرج منها إلى طمأنة الرسول ﷺ ومن معه أنهم فى رعاية الله وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون .

ويقول **الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير** : « ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ والاستدراك هنا معناه أنه كان حقا عليهم أن يشكروا ، فاستدرك سبحانه على هذه النتيجة المنطقية وقرر أن أكثرهم عدلوا عنها وانحرفوا عن مسلكها إلى الضلال فكانوا لا يشكرون وجحدوا ، وكان التعبير بالمضارع ؛ لدوام عدم شكرهم وتكرر جحودهم وتجدده آنًا بعد آن » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يوم القيامة يوم الحسرة والندامة يود الكافر فيه لو افتدى نفسه من عذاب الله ولو بملء الأرض ذهباً ، ولكن الله الذى يملك كل شىء ليس فى حاجة إلى فدائهم ، ولن يقبل شيئاً من أحد ؛ لأنه الغنى الحميد .

٢ ـ وعد الله حق ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهو القادر العليم الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٣ ـ القرآن العظيم نعمة كبرى أنعم الله بها على العالمين بما فيه من المواعظ والأحكام والتشريع والأوامر والنواهى وهو شفاء لما فى الصدور ، وبه تحصل الهداية والرحمة للمؤمنين المصدقين بما فيها .

٤ ـ الله يعلم كل ما يأتيه الإنسان من خير أو شر ، ولا يغيب عن علمه ـ تعالى ـ مثقال ذرة فى أرض أو سماء.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ
ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٢١٦

معانى الكلمات :

أولياء الله : الذين يتولونه بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة .

البشرى : ما بُشر به المتقون .

لا تبديل لكلمات الله : لا تغيير ولا إخلاف لموعوده .

يخرصون : يكذبون .

لآيات : لعلامات .

سلطان : حجة وبرهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ولاية الله بطاعته وموافقته فى محابه ومكارهه .

٢ ـ أن نعرف أن الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى لا أهل البدع والمنكرات .

٣ ـ أن نتدبر مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ فى الخلق بغية أن يغمر الإيمان قلوبنا .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى ظل الأنس الربانى ، وفى طمأنينة القرب من الله ، وتعلن إعلانها الجاهر : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا فى كل شأن وفى كل عمل وفى كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، والمؤمنون به الأتقياء المراقبون له فى السر والعلن ، كيف يخافون وكيف يحزنون ؛ وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه وعلام يحزنون ومما يخافون ؟ والبشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذى لا يتبدل ـ لا تبديل لكلمات الله .

ويقول صاحب الظلال : إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان، المتقون حق التقوى ، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه . وهكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله ـ لا كما يفهمه العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء !

وفى ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبى ﷺ وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا فى ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين ـ كما فى الموضع الآخر ؛ لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه فيفرده بالعزة جميعاً ـ وهى أصل لله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه ـ ليجرد منها الناس جميعاً ـ ومشركو قريش العتاة داخلون فى الناس . أما الرسول ﷺ فهو فى الحماية الإلهية التى أضفاها على أوليائه فلا يحزن لما يقولون ، والله معه وهو السميع العليم ، الذى يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمى أولياءه مما يُقال ومما يكاد وفى ملك يده كل من فى السموات وكل من فى الأرض من إنس وجن وملائكة ومن عصاة وتقاة . فكل ذى قوة من خلقه داخل فى سلطانه وملكه .

وهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا فى حقيقتهم شركاء لله فى شىء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة . ويلفت السياق نظرهم إلى بعض مجالى القدرة فى المشاهد الكونية التى يغفل عنها الناس بالتكرار : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

والافتراء على الله بالشركاء يكون بنسبة ولد لله ـ سبحانه ـ وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة فى الدنيا ، وتنتهى بالعذاب فى الآخرة على طريقة القرآن . ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وعقيدة أن الله ـ سبحانه ـ له ولد ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور فى التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التى جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضى هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضى امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد ، والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون ، والولد

تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدى دورها فى عمارة الأرض ـ كما شاء الله ـ وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة . وليس شىء من ذلك كله متعلقا بالذات الإلهية . فلا الحاجة إلى الامتداد ـ ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة، ولا الحاجة إلى النصير،ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شىء مما يخطر على البال متعلقة بذات الله ـ تعالى .

ومن ثم كان الرد على فرية : ﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ .. هو : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون ، ويسمى البرهان سلطاناً ؛ لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان ، وهم ما عندهم من حجة ولا برهان على ما يقولون .

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها ، وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ؛ نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ، لا يفلحون أى فلاح ، لا يفلحون فى شعب أو طريق ، لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة . والفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ، وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشرية إلى أقصى الحيوانية . فذلك فلاح ظاهرى موقوت ، منحرف عن خط الرقى الذى يصل البشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من آمن بربه واتقاه صار من أهل طاعته ومن أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٢ ـ للكون سننه وقوانينه التى لا تتغير ولا تتبدل ، فمن اهتدى بها وصل،لا تبديل لخلق الله .

٣ ـ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله ـ تعالى ـ ناصر دينه ما نصره أهله .

٤ ـ لا تستقيم الحياة بالظن والهوى ، وإنما بالعلم الهادف والعمل الدائب .

٥ ـ علينا أن نتدبر ملكوت الله من ليل ونهار ، وفصول وزروع وأفلاك؛ليغمر الإيمان قلوبنا .

٦ ـ على المؤمن الداعى إلى الله ألا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته ؛ وليعلم أن العزة لله جميعاً وسوف يعزه بها ، ويذل أعداءه .

الجزء الحادى عشر — سورة يونس

الحزب ٢٢

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم
مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ
أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ
إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ
أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ
﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢١٧

معانى الكلمات :

اتل : اقرأ .

كبر عليك : عظم وشق عليك .

مقامى : إقامتى بينكم زمناً طويلاً .

غمة : ضيقاً شديداً .

اقضوا إلىّ : أدوا إلىّ ما تريدونه .

نطبع : نختم .

ملئه : قومه .

لتلفتنا : لتصرفنا وتردنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم .

٢ ـ ذم الاستكبار وأن ندرك أنه سبب كثير من الظلم والإجرام .

٣ ـ أن نوقن أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات طرفاً من قصة نوح ﷺ مع قومه ، وطرفاً من قصة موسى ﷺ مع فرعون وملئه ، تتحقق فيها عاقبة التكذيب ، والقضاء فى أمر الأمة بعد مجىء رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة .

وقد انتهى الدرس الماضى بتكليف الرسول ﷺ أن يُعلن عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء ، ويواصل السياق بتكليف جديد : أن يقص عليهم ﷺ نبأ نوح فيما يختص بتحديه لقومه ، ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلافهم فى الأرض ، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عدداً .

والحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح ، هى الحلقة الأخيرة : حلقة التحدى الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل ، والتكذيب الطويل ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة، ولا من ركب فيها ولا الطوفان ؛ لأن الهدف هو إبراز التحدى والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة .

فيقول نوح عليه السلام لقومه : إن كان الأمر بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائى فيكم ودعوتى لكم ؛ وتذكيرى لكم بآيات الله ، فأنتم وما تريدون ، وأنا ماض فى طريقى ودعوتى لا أعتمد إلا على الله . ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ عليه وحده فهو حسبى دون النصراء والأولياء . فتدبروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين ، وليكن الموقف واضحاً فى نفوسكم ، وما تعتزمونه مقرر لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد ، ونفذوا ما اعتزمتم بشأنى وما دبرتم ولا تمهلونى للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادى ، هو اعتمادى على الله وحده دون سواه.

يقول صاحب الظلال : إنه التحدى الصريح المثير ، الذى لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الثقة من عدته ؛ حتى ليغرى خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح عليه السلام من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟

كان معه الإيمان .. القوة التى تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير ، وكان وراءه الله الذى لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذى يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدى غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً ، إنما هو تحدى القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التى تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة فى رسل الله ، وإنه لينبغى لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض . وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده فى وجه الطاغوت أياً كان ! ولن يضرهم الطاغوت إلاَّ أذى ـ ابتلاء من الله لا عجزاً منه ـ سبحانه ـ عن نصرة أوليائه ، ولا تركاً لهم ليسلمهم إلى أعدائه ، ولكنه الابتلاء الذى يمحص القلوب والصفوف ، ثم تعود الكرة للمؤمنين ـ ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

ثم يخاطبهم قائلاً : إن أعرضتم عنى وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية ، فينقص أجرى بتوليكم ، ولن يزحزحنى هذا عن عقيدتى ، فقد أمرت أن أسلم نفسى كلها لله ، وكانت العاقبة نجاته هو ومن معه فى الفلك ـ وهم المؤمنون ـ واستخلافهم فى الأرض

على قلتهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . لينظر من ينظر : ﴿ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين .

هذه سنة الله فى الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذاهو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهى ماضية فى الطريق ، والله لا يترك أولياءه ـ سبحانه ـ ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه ولكن يعلمهم ويدربهم ويزودهم فى الابتلاء بزاد الطريق .

فأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده على نطاق أوسع مما فى قصة نوح ﷺ .

والحلقة المعروضة هنا من القصة ، مقسمة إلى خمسة مواقف ؛ يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى السورة على النحو الذى عرضت به .

والآيات التى بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هى الآيات التسع المذكورة فى سورة الأعراف ، وكان ردهم ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ و ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

واستنكر عليهم موسى هذا الفهم للحق الذى جاءهم من عند الله ؛ لأن السحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ولا يتضمن منهاجاً تنظيميًا للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس ، وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التى تصدهم عن التسليم بآيات الله : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم ، وتعددت مناهجهم .

٢ ـ إذا اختار الإنسان الكفر طبع الله على قلبه ، فلا يصل إليه نور الإيمان .

٣ ـ ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة .

٤ ـ بيان سنة الله فى البشر ، وهى أن التمادى فى الشر والفساد والظلم يوجب الختم على القلوب ، فيحرم العبد الإيمان والهداية .

٥ ـ تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

معانى الكلمات :

ألقوا :رموا حبالهم وعصيهم على الأرض .

سيبطله : سيمحقه .

ذرية : طائفة .

عال : متكبر .

أن تبوءا لقومكما : أن اتخذا واجعلا لهم .

اطمس على أموالهم : أهلكها .

أشدد على قلوبهم : اطبع عليهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتوكل على الله فى كل أمورنا لتحمل عبء الدعوة إلى الله والقيام بطاعته .

٢ ـ بيان مشروعية التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته .

٣ ـ أن نستعين بالصبر والصلاة عند الشدائد وفى كل الأحوال .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مع أحداث قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه وتعلقهم بحكاية السحر ، وأرادوا ـ فى أغلب الظن ـ أن يغرقوا الجماهير بها ؛ بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ؛ ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً فتبطل دعوته ، وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة .

ونلاحظ فى الآيات هنا اختصاراً فى موقف المباراة؛لأن نهايتها هى المقصودة ، وفى قول موسى: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ .. رد على تهمة السحر التى وجهت إليه ، فالسحر هذا الذى يصنعه هؤلاء، وتتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو

عمل غير صالح ، وقد كان ، وبطل السحر وعلا الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال .

وهنا يبدأ فاصل جديد من القصة يرفع فيه الستار على فئة قليلة : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ آمنت معه لله رب العالمين ، **ويقول صاحب الأساس:** إن للمفسرين فى هذا قولين : فعلى القول الأول يكون المراد ـ والله أعلم ـ أن الذين آمنوا لموسى ، وتحمسوا له ، وأظهروا هذا الإيمان هم الشباب من قومه ، وإن كان كل بنى إسرائيل قد آمنوا لموسى نوع إيمان ، وعلى القول الثانى : يكون الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون هم طائفة الشباب ـ كمؤمن آل فرعون التى تمر قصته فى سورة غافر .

ويقول صاحب الظلال : يلاحظ من قوله ـ تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أن الذين يستجيبون للدعوات الإصلاحية هم الشباب ؛ لسلامة فطرتهم ، فنفوس الشباب أقرب لأن تقبل الحق ، ومن ثّم فعلى أصحاب الحق أن يدركوا معنى النصرة ، وألا يتطلعوا إلى أجيال ليست مرشحة لأن تفعل شيئاً ؛ لأنها تجاوزت دور الفاعلية ، على أن صاحب الدعوة عليه أن يبلّغ دعوته للجميع .

يقول صاحب الأساس : وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين هذا دليل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن وفى هذا درس عظيم ، فبدون التوكل على الله لا تستطيع أمة ولا جماعة ، ولا فرد أن تحقق هدفاً يفرضه الإسلام ، أو تتخلص من أوضاع ظالمة ، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ وتوجهوا إلى الله بالدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أى لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ولا تظفرهم بنا ولا تسلطهم علينا ؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل ، وهناك تفسير آخر لمجاهد وهو : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، ودعوا دعوة أخرى ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى وخلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أى الذين كفروا الحق وستروه ، ودعوا بالعافية والنجاة وهكذا المؤمن كثير الإشفاق ، راغب بفضل الله ، حريص على العافية ، يطلبها من الله ، وإذا وضعه الله فى ظرف قام بأدب الوقت فيه ، من صبر أو تحمل أو قتال ، أو مقابلة بمثل .

والقرآن بين العبادة والتوكل يفيد أنهما مرتبطان ببعضها ، فمن لا عبادة له لا توكل له ، ومن ثم فإن الدعاة والمصلحين والمربيّن عليهم أن يعلقوا قلوب أتباعهم بالعبادة ؛ ويقودوهم عليها ليتحققوا بالتوكل ليستطيعوا تحمل أعباء مراحل الحياة وما فيها .

وينتقل السياق لتوجيه موسى ﷺ إلى التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية **ويقول صاحب الظلال** : وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات ،

ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هى السلاح الأول فى المعركة ، وأن الأداة الحربية فى يد الجندى الخائر العقيدة لا تساوى شيئاً فى ساعة الشدة .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة هذه الآيات : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ أن هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة ، فعلى القول الأول فى تفسير القبلة : نفهم أنّ البيوت تنوب مناب الأماكن العامة ، إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن، فمثلاً فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ـ وخاصة البلدان التى خضعت للأنظمة الشيوعية ـ نجد كلمة الحق محظورة فى المسجد ، ومضيّقاً عليها ، حتى حلقات العلم يحال دونها ، وفى مثل هذا الظرف فالبيوت تقوم مقام المساجد ، والدور العامة ، ولكن لا ننسى أن المساجد هى معاقل الإسلام ، فلا نتخلى عنها إلا كتخلينا عن معقل أو حصن ، وإلا فالأصل أن نحيى المسجد ورسالته ، وإنما هى حالة اضطرار كما هنا ، وهى ترسم الطريق لكل حالة مشابهة .

وهذه التجربة التى يعرضها الله على العصبة المؤمنة ؛ ليكون لها أسوة ليست خاصة لبنى إسرائيل ، فهى إيمانية خالصة ، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين فى المجتمع الجاهلى ، وقد عمّت الفتنة وتجبّر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون فى هذه الفترة .

يقول صاحب الظلال ـ بتصرف : فى دعاء موسى ﷺ على قومه لفتة للدعاة بأن كثيرًا من إضلال الناس عن الله يكون بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الآخرين ، وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم ووجود النعمة فى أيدى المفسدين يزعزع كثيرًا من القلوب التى لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، فيطلب موسى عليه السلام لوقف هذا الإضلال أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب التوكل على الله ـ تعالى ـ لتحمل عبء الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والقيام بطاعته .

٢ ـ مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته .

٣ ـ الاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد ، والحذر من فتنة الأموال وزينة الحياة الدنيا .

٤ ـ جواز الصلاة فى البيوت عند الضرورة (فى تشريع من سبقنا وفى الشريعة الإسلامية كذلك) .

٥ ـ ثقة أهل الحق فى أنفسهم ، وثقتهم فى نصر الله لهم ، وأن الباطل لا أساس له ولا ثبات .

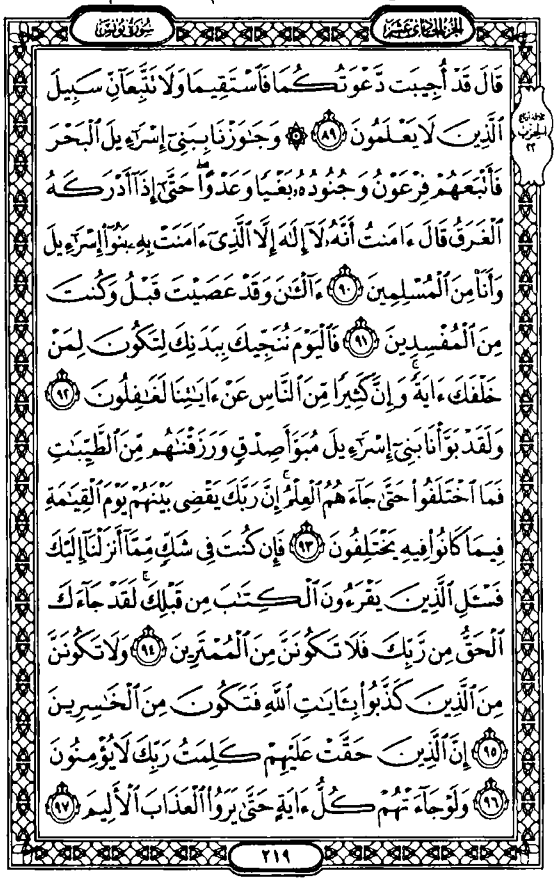
الجزء الحادي عشر — سورة يونس

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ
فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٢١٩

معانى الكلمات :

سبيل : طريق .

أتبعهم : لحقهم .

بغياً وعدوا : ظلماً واعتداءً .

آية : عبرة ونكالاً .

بوأنا : أنزلنا وأسكنا .

مبوأ صدق : منزلاً صالحاً مرضياً .

الممترين : الشاكين ، المضطربين .

حقت : وجبت .

كلمة ربك : بالعذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نجدد التوبة لله ـ دائماً ـ قبل فوات الأوان .

٢ ـ أن نتحرى الكتاب والسنة فى كل قول وعمل ونحذر طرق أهل الضلال .

٣ ـ بيان حرمة الاختلاف فى الدين والتأكيد على وحدة الصف والارتباط بوشائج المحبة فى الدين .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وقد اتجه موسى إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يُرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه الذين يملكون المال والزينة اللذين تضعف إزاءهما قلوب الكافرين فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، فاتجه موسى إلى ربه بدعوه أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشدد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء وقضى الأمر .

ويأتى المشهد التالى بعد الدعاء وهو مشهد التنفيذ **وكما يقول صاحب الظلال** : إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير فى قصة التحدى والتكذيب ، وفيه بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية ، وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التى لاينفع بعدها ندم ولا توبة ، ويصور المشهد صورة البغى والعدو ، ومنها مباشرة إلى مشهد الغرق فى ومضة ومعاينة الموت ، فلقد سقط عن فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى . كل أرديته التى تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد فى استسلام : وقال : ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المسلِّمين !

وهنا لطيفة أوردها **صاحب الأساس** فى التفسير بمناسبة قول فرعون عند الغرق والرد عليه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ قال : قال الألوسى : والقائل له ذلك قيل : هو الله ـ تعالى ، وقيل : هو جبريل ﷺ ، وقيل : إنه ميكائيل ﷺ ، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : قال لى جبريل ﷺ : ما أبغضت شيئاً من خلق الله ـ تعالى ـ ما أبغضت إبليس يوم أُمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون ، فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها فى فيه ، فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً منى ، فأمر ميكائيل فأتاه فقال آلآن وعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : « قال رسول الله ﷺ قال لى جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر ، فأدسّه فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » .

إن إساءة فرعون وعتّوه قد بلغت مبلغاً جسيماً استحق به ما فعله به جبريل .

ويسدل الستار على المشهد النهائى فى المأساة . مأساة البغى والفساد والتحدى والعصيان ، ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بنى إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث فى أجيال ، فلقد بوأهم الله مبوأ صدق ، ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان ؛ فإن السياق لا يطيل فى عرض ما وقع بعد ذلك من بنى إسرائيل .

بعد ذلك يجىء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى الرسول ﷺ تثبيتاً بما حدث للرسل قبله ، وبياناً لعلة تكذيب قومه له أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبينات ، إنما هى سنة الله فى المكذبين من قبلهم ، وسنة الله فى خلق الإنسان باستعداده للخير والشر والهدى والضلال .

وفى الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ؛ فرد عنهم لعلَّ فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان ، وينتهى بالخلاصة المستفادة من ذلك

القصص كله . أن سنة الله التى مضت فى الأولين ماضية فى الآخرين: عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسل ومن معهم من المؤمنين ـ حقاً كتبه الله على نفسه ، وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد .

لقد كان آخر الحديث عن بنى إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرؤونها فى كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ إن كان فى شك مما أنزل إليه من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله . فلديهم عنه علم ، مما يقرؤون .

ولكن الرسول ﷺ لم يكن فى شك مما أنزل الله إليه . أو كما روى عنه ﷺ لا أشك ولا أسأل ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان فى شك والتعقيب عليه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفى هذا ما يكفيه لليقين ؟

فى قوله تعالى : ﴿إِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ يقول الشيخ أبو زهرة : « الشك هو الضيق ، ثم أطلق على التردد بين اليقين والإنكار ، لأنه يحدث فى النفس ضيقًا » .

ولكن هذا التوجيه كما **يقول صاحب الظلال** : يشى بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه فى مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبى طالب ، واشتد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريباً فى مكة بسبب موقف قريش العنيد ، وكل هذه ملابسات تلقى ظلالها على قلب رسول الله ﷺ فيسرى عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ دعاء الرسل على أقوامهم كان غضباً لله ولدينه ، ولم يكن يأساً ولا انتقاماً لأنفسهم .

٢ ـ لا يقبل الله توبة الذين لا يتوبون إلا عند خروج الروح ، أو بعد ظهور علامات الساعة الكبرى .

٣ ـ مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم .

٤ ـ حرمة اتباع طرق أهل الضلال ، وتقليد الجهال والسير وراءهم .

٥ ـ حرمة الاختلاف فى الدين إذا كان يؤدى إلى الانقسام والتعادى والتحارب .

٦ ـ فضل لا إله إلا الله ، فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقولها فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ
جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٢٠

معانى الكلمات :

إلا قوم يونس : لكن قوم يونس .

إلى حين : إلى وقت انقضاء آجالهم .

يجعل الرجس : يجعل العذاب .

النذر : جميع نذير أى الرسل .

خلوا من قبلهم : مضوا من الأمم .

حنيفاً : مائلاً عن الأديان الباطلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن سنن الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابى أحداً .

٢ ـ أن نوقن أن الله ـ عز وجل ـ يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعدله .

٣ ـ أن نتفكر فى نعم الله وآياته فإن ذلك مما يزيد الإيمان .

المحتوى التربوى :

كما عرضت الآيات سنن الله العامة فى هلاك الأمم التى لم ينفعها إيمانها ؛ لأنها آمنت بعد وقوع العذاب فلم يأت عن اختيار ، يعرض هنا فى هذه الآيات نموذجاً لقرية نفعها إيمانها وهى قرية يونس ﷺ والآية تشير إلى أن قوم يونس كان يتهددهم عذاب مخز ، فلما آمنوا قبل وقوع العذاب كشفه الله عنهم ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل ، ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم ـ وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه .

ويقول صاحب الظلال : حسبنا هنا أن ندرك أمرين مهمين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق .

وثانيهما : أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى ، بل مضت ونفذت ؛ لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء ، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول ، فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها.

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان ، وهى أن الله ـ عز وجل ـ لو شاء لخلق هذا الجنس البشرى خلقة أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً وهو طريق الإيمان ـ كالملائكة مثلاً ، أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده إلى الإيمان ، ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة فى اختياره ولكن الإيمان متروك للاختيار ، لا يكره الرسول عليه أحداً ، لأنه لا مجال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ .

وهو سؤال للإنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون ، ويطرح السياق قضية أخرى ثابتة من سنن الله العامة وهى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وفق سننه الماضية التى بيناها ، فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت فى الطريق الآخر الذى لا يؤدى إليه ؛ لا لأنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص ، بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فى الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه .

ويدل على هذا عقب الآية فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجس عليهم والرجس أبشع الدنس الروحى،فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران ، ويزيد الأمر إيضاحاً بأن الآيات والنذر لا تُغنى عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهى معروضة أمامهم فى السموات والأرض .

ويقول صاحب الظلال : إن النظر إلى ما فى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ؛ زاد من الاستجابات والتأثرات ؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود ؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود ، وذلك كله فى الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله.

ولكن ماذا تجدى الآيات والنذر إذا استغفلت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقى فى الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنسانى بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟ !

ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما فى السموات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآنى لاستحياء القلب الإنسانى ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب ، ولكن أولئك المكذبين من الجاهلين العرب ـ وأمثالهم ـ لا يتدبرون ولا يستجيبون . فماذا ينتظرون ؟

إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف ، وقد ينظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لابد لهم من النكال ، وعلى الطرف الآخر تبقى البذرة المؤمنة وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب ، وتأتى خاتمة السورة بتكليف من الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ أن يعلن القواعد الرئيسية للعقيدة والتى دار حولها سياق السورة كلها ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . وأمره أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة : أنه ماضٍ فى خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ومن الحكاية إلى الأمر المباشر يأمره أن يقيم وجهه للدين حنيفاً متوجهاً إليه خالصاً له ، وينهاه عن الشرك ويأمره ألا يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ؛ لأنه إن فعل ذلك فهو إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابى وعدله لا يلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من حكمة الله ـ تعالى ـ أنه جعل الإنسان حراً مختاراً ؛ ليكون إما كافراً وإما مؤمناً .

٢ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعدله ، ولكنه لا يحاسب الناس إلا على ما عملوا من خير أو شر ، وإيمان أو كفر .

٣ ـ ضرورة التفكر فى نعم الله ، ودلائل قدرته من مطر ، وثمار ، وزروع ، وأزاهير ، وغير ذلك مما يقوى الإيمان .

٤ ـ لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه ، فلذا لا ينبغى للداعى أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا ؛ لأن الله كتب عذابهم أزلاً وقضى به .

٥ ـ على المؤمن ألا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس .

٦ ـ لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أراده الله له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾
٢٢١

معانى الكلمات :

إن يمسسك : وإن يصبك .

بوكيل : بحفيظ .

أحكمت آياته : نظمت .

فصلت : فرقت فى التنزيل بالحكمة ولم تتنزل جملة واحدة.

من لدن : من عند .

أجل مسمى : الموت .

يثنون صدورهم : يطوونها على الكفر والعداوة .

ليستخفوا منه : جهلاً منهم باطلاعه عليهم .

يستغشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يوقن المسلم أن الخير كله بيد الله ، وأن الضر ملازم لسنن الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه .

٢ ـ أن يتعهد المسلم نفسه بالاستغفار والتوبة ، فهما طريقان للحياة السعيدة والرزق الموفور والأجر العظيم فى الآخرة .

٣ ـ أن يصنع المرء المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فلن يضيع عند الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات فى ختامها الحديث عن سنن الله الجارية ، وهى أن الضر ملازم لهذه السنن حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك ، فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته ، فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر ـ إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة ، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته ، فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه فهذا الفضل يصيب من عباده من كانوا يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذى يغفر ما مضى

حتى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم .

هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة يكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس ويقف بها فى وجه القوة والكثرة فى قوة وصرامة ؛ لأنها الدعوة وتكاليفها ، والحق وما ينبغى له من قوة ومن يقين ، ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ فالرسول ليس موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم وإلى قدر الله بهم فى النهاية ، والختام خطاب إلى الرسول ﷺ باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه .

الرسول مكلف بالدعوة وهذا الدعوة يقول عنها **الشيخ أبو زهرة** : « إن الدعوة ليست أمرًا هينًا ، ولكن يكتنفها المشاق والصعاب ، فعلاج النفوس ليس أمرًا قريب المنال لما يتعرض له أهل الحق من سفاهة السفهاء » .

(الآيات من ١ ـ ٥) سورة هود

هذه السورة مكية بجملتها ، وتتضمن فى آياتها الأولى عرض الحقائق الأساسية فى العقيدة الإسلامية : توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد فى البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب فى دار العمل والابتلاء، مع تعريف الناس بربهم الحق ، وصفاته المؤثرة فى وجودهم وفى وجود الكون من حولهم ، وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاها فى حياة البشرية ،وتوكيد الدينونة لله فى الآخرة كالدينونة له ـ سبحانه ـ فى الحياة الدنيا .

وتشمل الآيات الأولى التى بين أيدينا جملة من الحقائق الاعتقادية الأساسية : وهى وإثبات الوحى والرسالة ، والعبودية لله وحده بلا شريك ، جزاء الله فى الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة ، جزاء الله فى الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله ـ عصاه ـ وطائعين ، قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

وتتحدث الآيات عن القرآن الكريم الذى أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء،دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها ، وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله ـ سبحانه ، وليس هو الرسول يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة هكذا جاءت من لدنه على النحو الذى أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

وماذا تضمنت ؟ إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة ، ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ فهى الرسالة ، وما تضمنته من

نذارة وبشارة ، ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فهى العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونية ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ فهو الجزاء للتائبين المستغفرين ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ فهو الوعيد للمتولين ، ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ فهى الرجعة إلى الله فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهى القدرة المطلقة والسلطان الشامل .

هذا هو الكتاب ، وهذه هى آيات الكتاب ؛ فهذه هى القضايا المهمة التى جاء ليقررها ويقيم عليها بناءه كله بعد تقريرها ، وما كان لدين الله أن يقوم فى الأرض ، وأن يقيم نظاماً للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد التى يقوم عليها البناء.

وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فُصلت من لدن حكيم خبير ، يمضى السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسى الذى يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له ، وهى إحناء رؤوسهم ، وثنى صدورهم للتخفى، ويكشف عن العبث فى تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم فى أخفى أوضاعهم؛ وكل دابة فى الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق .

والآيتان الكريمتان تستحضران مشهداً فريداً ترتجف له القلوب حين تتدبره وتتصوره ! ويالها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشرى حضور الله ـ سبحانه ـ وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله ، ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله ﷺ يسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم ـ استخفاء من الله ـ الذى كانوا يحسون فى أعماقهم أنه قائل هذا الكلام ، وذلك كما ظهر منهم فى بعض الأحيان !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الاستغفار والتوبة طريقان إلى حياة سعيدة ، ورزق واسع ، وثواب فى الآخرة عظيم .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ مطلع على عباده لا يخفى عليه شىء من أمرهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون.

٣ ـ المعروف لا يضيع عند الله ـ تعالى ـ إذا كان صاحبه من أهل التوحيد ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾.

٤ ـ مرجع الناس إلى ربهم شاؤوا ، أم أبوا والجزاء عادل ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

٥ ـ وجوب استشعار مراقبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى السر والعلن ، وما يترتب على ذلك من إحسان العمل .

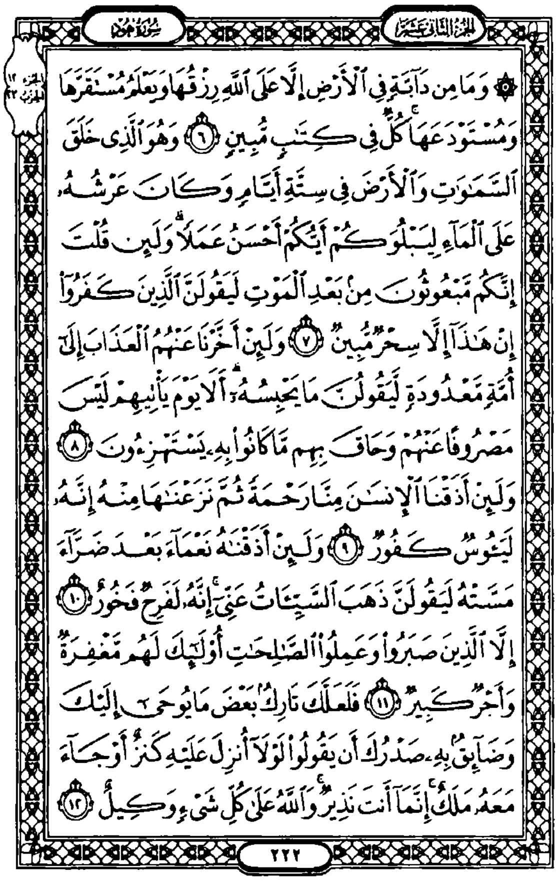
الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ
إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

٢٢٢

معانى الكلمات :

دابة : كل شىء يدب على الأرض .

يعلم مستقرها : موقع استقرارها فى أى مكان .

ليبلوكم : ليختبركم .

أحسن عملاً : أكثر طاعة لله .

أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة .

حاق بهم : نزل بهم .

رحمة : غنى وصحة .

إنه ليؤوس : شديد اليأس والقنوط .

ضراء : فقر وشدة .

فخور : متفاخر على الناس بما أوتى .

إلا : لكن . **وكيل** : قائم به حافظ له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نوقن بأن الله متكفل بالأرزاق ، وأن نثق أنها مضمونة .

٢ ـ أن نعلم أن كل شىء عند الله بمقدار ـ لا سيما الأرزاق والآجال .

٣ ـ أن نعلم أن الدنيا دار ابتلاء واختبار قبل دخول الجنة أو النار .

المحتوى التربوى :

تسوق هذه الآيات فى بدايتها صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب .. هذه الدواب ـ وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان أو حيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التى تملأ وجه البسيطة ، وتكمن فى باطنها ، وتخفى فى دروبها ومساربها . ما من دابة من هذه الدواب التى لا يحيط بها حصر ، ولا يكاد يلُم بها إحصاء إلا وعند الله علمها ، وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، من أين تجىء وأين تذهب ، وكل منها كل من أفرادها مُقيد فى هذا العلم الدقيق .

ثم يمضى السياق فى تعريف البشر بربهم ، واطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . فى خلق السموات والأرض بنظام خاص فى أطوار أو آماد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام تحدثنا عنه فى سورة يونس والجديد هنا فى خلق السموات والأرض أى إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه . كان هناك الماء ، وكان عرش الله ـ سبحانه ـ على الماء .

يقول صاحب الظلال : « .. جهز الخالق هذه الأرض وهذه السموات بما يصلح لحياة هذا الجنس ، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات ؛ وبنى فطرته على ذات القانون الذى يحكم الكون ، وترك له جانباً اختيارياً فى حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه ، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، يبلوهم لا للعلم فهو يعلم ؛ ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم ، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله .

ومن ثم يبدو هذا التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً فى هذا الجو . بعدما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض . أصيل فى نظام الكون وسنن الوجود ويبدو المكذبون به غير مدركين للحقائق الكبيرة فى تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجؤون » .

وشأنهم فى التكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم فى مسألة العذاب الدنيوى ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت .

ويقول صاحب الظلال : إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة ، وإذا ما أبطأ فهى حكمة ورحمة ؛ ليؤمن من يتهيأ للإيمان . وفى فترة التأجيل التى صرف الله العذاب فيها عن مشركى قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء ، وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد فى الإسلام ، وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن .. ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون .

وترسم الآيات صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه ، فلا يتذكر ما مضى ، ولا يفكر فيما يلى ، فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له ، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل فى الشدة ويصبر ويؤمل فى رحمة الله ويرجو فرجه ، ولا يقتصد فى فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على النعمة كما صبروا على الشدة ، ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فى الحالين . فى الشدة بالاحتمال والصبر ، وفى النعمة بالشكر والبر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بما صبروا على الضراء ، وبما شكروا فى السراء .

يقول الشيخ أبو زهرة : « يدل اقتران العمل الصالح بالصبر على أن العمل الصالح يحتاج إلى تحمل بعض المشاق ، كما قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ولكن أولئك الجاهلين بحكمة الخلق وبسنن الكون ـ الذين لا يدركون حكمة إرسال الرسل من البشر فيطلبون أن يكون الرسول ملكاً أو أن يصاحبه ملك ولا يقدرون قيمة الرسالة ويطلبون أن يكون للرسول كنز ! أولئك المكذبون المعاندون الذين يلجون فى التكذيب والعناد . واجبك تجاههم أن تنذرهم ، ولا يضيق صدرك بما يقولون، وتوكل على الله، فالله هو الموكل بهم، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون ، ولست أنت موكلاً بكفرهم أو إيمانهم إنما أنت نذير .

يقول صاحب الأساس : « بعد أن بيّن الله ـ عز وجل ـ لنا فى هذا المقطع أن القرآن أنزل من أجل أن يُعبد الله ، وبعد أن عرّفنا الله على ذاته ، وبيّن لنا حكمة خلق السموات والأرض ، وموقف أهل الكفر والإيمان فى الشدة والرخاء ؛ يخاطب رسوله ﷺ ليثبته على التمسك بالقرآن ، فلا تثنيه مواقف الكافرين عن أخذ القرآن جميعه ؛ لأن أى إخلال فى تطبيق القرآن كله إخلال بعبادة الله ، وإخلال فى تحقيق الحكمة من خلق السموات والأرض ، ونزول عن الخلق الأعلى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ متكفل بأرزاق المخلوقات جميعها ، فعلى الإنسان أن يكون على ثقة من أن رزقه مضمون عند الله ـ تعالى ـ فلا يكتسبه إلا من حلال مع الرضا به ، والإنفاق منه فى وجوه الخير.

٢ ـ الله قدر الأرزاق والآجال والأعمال قبل خلق السموات والأرض ، فكل شىء عنده بمقدار .

٣ ـ الدنيا دار ابتلاء واختبار يظهر فيها المحسن من المسىء ؛ ليستحق كل إنسان جزاءه العادل فى الآخرة .

٤ ـ المؤمنون يغير الإيمان من طبيعتهم فيصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير فى النعماء .

أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات
وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾
فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله
إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾ من كان يريد الحياة
الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون
﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط
ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أفمن كان
على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب
موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به
من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق
من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿١٧﴾ ومن
أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون
على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على
ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴿١٨﴾ الذين يصدون
عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ﴿١٩﴾

٢٢٣

معانى الكلمات :

افتراه : اختلقه ونسبه إلى الله كذباً .

لا يبخسون : لا يُنقص من أجورهم شيئاً .

حبط : لم يقبل .

بينة : يقين وبرهان واضح .

شاهد : يشهد للقرآن بالصدق .

مرية منه : شك من تنزيله من عند الله .

الأشهاد : الملائكة والنبيون .

يبغونها عوجاً : يطلبونها معوجة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان ولاية الله لرسوله وتسديده له وتأييده .

٢ ـ بيان ما كان عليه المشركون من عناد فى الحق ومكابرة .

٣ ـ بيان سنة الله فى خلقه وهى أن أكثرهم لا يؤمنون .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق عرض افتراءات الكافرين ، فهم هنا يقولون : إن القرآن مفترى ، فتحداهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، ويستعينوا بمن يشاؤون فى هذا الافتراء ، ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة فى سورة يونس ، فما بالك التحدى بعد ذلك بعشر سور ؟

يقول صاحب الظلال : قال المفسرون القدامى : إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور ، وحقيقة إن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور ، فقد كانت تنزل

الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته ، وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود ، والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أن يجد لهذا العدد ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ علة ، فأجهد نفسه طويلاً ـ رحمة الله عليه ـ ليقول : إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً ، فتحداهم بعشر ، لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر سور نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدى إلى عشر سور كالتى ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى .

ونحسب ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ؛ لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور دون ترتيب زمنى ، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من القرآن ـ كله أو بعضه أو سورة منه على السواء ، فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره .

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على النحو الذى نزل به ، متضمناً ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم فى نفوسهم وفى معاشهم .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ، ويواجه مثل تلك المواقف التى تنزل فيها ليواجهها ، وليوجهها ، والذين يتلمسون معانى القرآن ودلالاته ، وهم قاعدون ، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئًا من هذه القعدة الباردة الساكنة بعيدًا عن المعركة ، وبعيدًا عن الحركة ، إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبدًا ، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله والدينونة للطاغوت من دون الله » .

ويعقب على هذا التقرير الذى لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً عند غير المكابرين ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ بعد هذا التحدى والعجز ودلالته التى لاسبيل إلى مواجهتها بغير التسليم ؟ ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون .

لقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به فى هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ؛ لهذا يعقب السياق بقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية ؛ **ويقول صاحب**

الظلال : إن للجهد فى هذه الأرض ثمرته سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة ، فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله فى هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد ـ فى أجل محدود ـ ولكن ليس له فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً ، فكل عمل الدنيا يلقاه فى الدنيا ، ولكنه باطل فى الآخرة لا يُقام له فيها وزن وحابط ، وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم فى الدنيا وهو مؤدٍ إلى الهلاك !

بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله ﷺ وما جاءه من الحق ، وإلى هذا القرآن الذى يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله ، ويعقد بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين موازنة فى صورة حسية مشهودة ، تصور الفارق البعيد بين الفريقين فى طبيعتهما ، وفى موقفهما وحالهما فى الدنيا والآخرة سواء .

ويمضى السياق يواجه الذين يكفرون به ، ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله ـ سبحانه ـ وعلى رسوله ﷺ وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب سواء بقولهم : إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله ، هؤلاء يعرضون فى مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، وفى الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعيم ، والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون ، فهو الخزى والتشهير ـ إذن ـ فى ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه فى شأنهم إلى جانب ذلك الخزى والتشهير على رؤوس الأشهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أهل الكفر والرياء يُعطون بحسناتهم فى الدنيا من سعة الرزق ، وطيب العيش ، وليس لهم حظ فى الآخرة ، وكذلك كل من كانت الدنيا همه ونيته ومطلبه ، جازاه الله بحسناته فيها ، ثم لا يكون له حسنة يُعطى بها جزاء فى الآخرة .

٢ ـ كل من كذب بالقرآن أو بشىء منه ـ من جميع أهل الأرض ممن بلغه القرآن من بنى آدم ـ فالنار موعده وبئس المصير .

٣ ـ الكافر لا ينتفع من عمله فى الدنيا ـ ولو كان صالحاً ، والخسران لازم له .

٤ ـ بيان سنة الله فى الناس وهى أن أكثرهم لا يؤمنون .

الجزء الثاني عشر — سورة هود

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ
ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

ربع الحزب ٢٣

٢٢٤

معانى الكلمات :

معجزين : فائتين من عذاب الله .

أولياء : أنصار .

لا جرم : حقا أو لا محالة .

أخبتوا إلى ربهم : اطمأنوا إلى وعده .

الملأ : الأشراف والسادة .

بادى الرأى : ظاهر الرأى من غير تعمق وتثبت .

أرأيتم : أخبرونى .

فعميت عليكم : أخفيت عليكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الكافرين والكاذبين ليسوا بمعجزين لله فى الأرض ، إنما يمهلهم الله ليوم الحساب .

٢ ـ أن نعرف المفهوم الحقيقى للسعادة والخسارة ، فنعمل للجنة ونحذر من النار .

٣ ـ أن نوقن بأن دعوة كل الرسل واحدة ومتواصلة فكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن أولئك الظالمين الذين يفترون الكذب على ربهم ؛ ليضلوا ويصدوا عن سبيل الله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فلا يريدون الاستقامة ، إنما يريدونها عوجاً والتواء وانحرافاً، وهؤلاء لم يكن أمرهم معجزاً لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب فى الدنيا : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، ينصرونهم أو يمنعونهم من الله ، إنما تركهم لعذاب الآخرة ؛ ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فقد عاشوا معطلى المدارك مغلقى البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : وهى أفدح الخسارة، فالذى يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها، وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها فى الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التى تتمثل فى الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل فى الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع ـ مع المتاع بها ـ إلى ما هو أرقى وأسمى ، وذلك حين كفروا بالآخرة، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه ، وخسروا أنفسهم فى الآخرة بهذا الخزى الذى ينالهم ، وبهذا العذاب الذى ينتظرهم ، وهؤلاء لا تعدل خسارتهم أى خسارة وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى ، وفى الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون ، ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ فالقضية فى وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر ، فهى بديهية لا تقتضى التفكير .

وينتقل السياق إلى الخط القصصى فى سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى ، ويشير إلى الخط التاريخى ؛ لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالى بهذا الترتيب ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص فى السياق ، وأوله فى التاريخ ، ونجد أن الألفاظ تكاد تكون ذاتها التى أرسل بها محمد ﷺ والتى تضمنها الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؛ وهذه المقاربة فى السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة .

ودعاهم فصدوا عن سبيل الله ؛ واسترذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، **ويعلق ابن كثير** على ردّ الكافرين الوارد أمامنا فى الآيات قائلاً : هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً إنما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ـ عن صفات النبى ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ،فقال هرقل : هم أتباع الرسل ، وقولهم ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ ليس بمذمة ولا عيب ؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق ـ والحالة هذه ـ لكل ذى ذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبى أو عيى والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، إنما جاؤوا بأمر جلّى واضح ، وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم » أى ما تردّد ولا تروى ؛ لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع ، وقولهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن

فَضۡلِۭ ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم فى ريبهم يترددّون ، فى ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأرذلون ، وفى الآخرة هم الأخسرون .

وعن المسبب فى معظم أتباع الرسل كانوا من الفقراء **يقول صاحب الظلال** : « لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التى تحرر الناس من العبودية للكبراء ، ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ، ولأنهم لا يخافون العقيدة فى الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير ، واستعبادها للخرافات الوثنية فى شتى صورها ، وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة للبشر » .

يتلقى نوح عليه السلام الاتهام والإعراض والاستكبار ، فى سماحة النبى وفى استعلائه وفى ثقته بالحق الذى جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذى أرسله ، وفى وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه فى شعوره ، فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعى كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها .

﴿ يَـٰقَوۡمِ ﴾ فى سماحة ومودة ، بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم ، إنكم تعترضون فتقولون : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا ﴾ فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربى ، بيّن فى نفس مستيقن فى شعورى ، وهى خاصية لم توهبوها . وإن كان الله آتانى رحمة من عنده باختيارى للرسالة ، أو آتانى من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة .

وهذه رحمة ـ ولا شك عظيمة ـ ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية؛ لأنكم غير متهيئين لإدراكها إنه ما كان لى وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الكافر ميت موتاً معنوياً ، فلذا هو لا يسمع ولا يبصر ، والمسلم حيٌّ فلذا هو يسمع الحق ويبصره .

٢ ـ الخسارة الحقيقية هى خسارة الآخرة بدخول النار .

٣ ـ السعادة الحقيقية هى الفوز برضا الله ـ عز وجل ـ ودخول الجنة ، ورؤية الله ـ عز وجل .

٤ ـ دعوة الرسل واحدة من لدن آدم حتى رسول الله ﷺ وهى دعوة العباد لعبادة الله الواحد .

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٢٥

معانى الكلمات :

ينصرنى من الله : يمنعنى من عذابه .

خزائن الله : خزائن رزقه وماله .

تزدرى أعينكم : تستحقرهم .

ما أنتم بمعجزين : ما أنتم بفائتين من عذاب الله بالهرب.

فعلىّ إجرامى : فعلىّ عقاب ذنوبى .

فلا تبتئس : فلا تحزن .

يغويكم : يضلكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن موازين الله فى المفاضلة بين خلقه هى التقوى والعمل الصالح .

٢ ـ أن نتجرد فى عرض الدعوة بدون زخرف أو طلاء يصورها فى غير حقيقتها .

٣ ـ أن نوقن بأن إرادة الله قبل كل إرادة ، وإذا انتهى القضاء امتنع الدعاء .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات عرض قصة نوح عليه السلام فيقول لهم : يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لى عند الناس إلا أن يؤمنوا ، إننى لا أطلب مالاً على الدعوة حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفى بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندى سواء . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء .

على الداعية أن ينظر لقصة نوح عليه السلام ويتدبرها فسيجد أن عليه :

ـ مكاشفة المدعوين بأن هذه الدعوة ليست مغنما ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ .

ـ تصحيح الفهم لدى المدعوين أن هذه ليست لتشريف نفسه ـ فقد شرفه الله باتخاذه رسولا ـ وأنها ليست لجلب مغانم له ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾.

ـ رد الحساب والجزاء لله فى الدنيا والآخرة ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ .

ـ حسن الدعوة وتخير الألفاظ مع المدعوين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فنسب الإجرام للنبى على سبيل المشاكلة ليستميل قلوب المدعوين .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ، فكانوا يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد !لقد جهلوا القيم الحقيقية التى يُقدر بها الناس فى ميزان الله ، وجهلوا كذلك أن مرد الناس كلهم إلى الله ، والله ـ عز وجل ـ رب الفقراء والأغنياء ورب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقَّوم الناس بقيم أخرى ، ويزنهم بميزان واحد هو الإيمان ، فهؤلاء المؤمنون فى حماية الله ورعايته .

ويسألهم من يعصمنى من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده ـ وهم أكرم عليه ـ وأقررت القيم الأرضية الزائفة التى أرسلنى الله لأعدِّلها لا لأتبعها .

ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء ، وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة ، ويقدمها فى معرض التذكير ؛ ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدرى أمامهم القيم الظاهرية فنفى عن نفسه ادعاء الثراء أو القدرة على الإثراء ، ونفى معرفته بالغيب فلا يعلمه إلا الله ، ونفى كونه ملكاً وأثبت صفته البشرية الإنسانية .

وهكذا ينفى نوح ﷺ عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه فى الرسول والرسالة ، ويردهم فى نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ورده إلى الحقيقة المجردة ، فيعطى أصحاب الدعوة فى أجيالها جميعاً ، نموذجاً للداعية ، ودرساً فى مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم ، مع المودة التى لا تنحنى معها الرؤوس !

وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة فأخذتهم العزة بالإثم ، فإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ، أما نوح ﷺ فلا يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم وإرشادهم فهو ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وسنته هى التى تنفذ ، وما يملك هو أن يردها أو يحولها .

فأخبرهم أنه إذا كانت سنة الله تقتضى أن تهلكوا بغوايتكم ، فإنها ستمضى ، مهما بذلت لكم من النصح ، فإنه لن ينفعكم ، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم ـ دائما ـ فى قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ، ولا مفر لكم من لقائه ، وحسابه وجزائه .

وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق إلى استقبال مشركى قريش لمثل هذه القصة التى تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن الرسول ﷺ يفترى هذا القصص فيرد هذا القول قبل أن يمضى فى استكمال قصة نوح .

ثم يمضى السياق فى قصة نوح ؛ يعرض مشهداً ثانياً ـ مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره ، فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ؛ هكذا أوحى إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لا تفيد ، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء ، فما هم بضاريك بشىء ، ولا تدعو لهدايتهم فإنهم لا خير فيهم ، دع أمرهم فقد انتهى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم ، فلا تخاطبنى فيهم ولا دعاء لهدايتهم ولا دعاء عليهم ، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحى ـ فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء .

يقول القاسمى فى محاسن التأويل : بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إياهم ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم ، وحان وقت الانتقام منهم ، وقيل : المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ؛ لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا أهلاً لشفقتك ولا لرحمتنا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا .

١ ـ كُرْه الشىء يجعل صاحبه لا يراه ولا يسمعه ولا يفهم ما يقال له فيه .

٢ ـ كراهية أخذ أجر على ممارسة الدعوة والتربية والتعليم الدينى .

٣ ـ علم الغيب استأثر الله ـ تعالى ـ به دون سائر خلقه إلا من علمه الله شيئاً منه فإنه يعلمه .

٤ ـ حرمة غمط الناس وازدرائهم والسخرية منهم .

٥ ـ إرادة الله ـ تعالى ـ قبل كل إرادة ، وما شاءه الله يكون وما لم يشأه لم يكن .

٦ ـ تقرير مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله ، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى .

٧ ـ كراهية الحزن والأسى على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد .

الجزء الثانى عشر — سورة هود

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا
فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ
تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)
قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)

٢٢٦

معانى الكلمات :

ملأ : جماعة .

سخروا منه : استهزؤوا به .

يحل : ينزل .

فار التنور : نبع الماء بشدة من فرن الخبز المعروف .

سآوى : سألتجئ .

لا عاصم : لا مانع ولا حافظ .

أقلعى : أمسكى عن إنزال المطر .

غيض الماء : نقص وذهب .

استوت على الجودى : استقرت على جبل .

بُعداً : هلاكاً وسحقاً .

أحكم الحاكمين : أعلمهم وأعدلهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن قدرة الله لا يعجزها شيء فى الأرض ولا فى السماء .

٢ ـ أن نعلم أن الإنسان لا ينجيه من عذاب الله إلا إيمانه وعمله الصالح .

٣ ـ أن نطيع الوالدين ، فعقوقهما سبب الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

تتوالى مشاهد القصة ، وتتحدث الآيات هنا عن مشهد نوح عليه السلام وهو يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم ، **ويقول صاحب الظلال** : والتعبير بالمضارع فعل الحاضر، هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه مائلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير يصنع الفلك. ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر . شأنهم ـ دائماً ـ فى

إدراك الظواهر ، فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم فى اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية .

ويأتى مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وللمفسرين هنا أقوال فبعضهم قال : المراد بالتنّور الإشعار باشتداد الأمر وصعوبته ففى الكلام كناية ، وبعضهم قال : المراد به تنّور خبز بعينه ، وبعضهم قال : المراد به وجه الأرض ، والظاهر أنها علامة لنوح من الله ، فإذا كان الأمر كذلك فهو تنّور بعينه .

وأمره الله أن يحمل فى السفينة من كل زوجين اثنين ، وأهله إلا من سبق القول عليه أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته ، جلّ خالق العباد عن أن يقع فى الكون خلاف ما أراد ، ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أى واحمل مع المؤمنين من أهلك من آمن من غيرهم ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى نزر يسير مع طول المدة والمُقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما سنرى فى سورة « العنكبوت » .

وليس هنالك من رواية عن رسولنا ﷺ فى تحديد عدد من ركب فى السفينة ، ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ ، أى مسّمين الله ، أو قائلين : بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، أى : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسُّوها .

ثم يأتى المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان : فإذا السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال ، وفى هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه فى معزل عنهم وليس معهم ، وتستيقظ فى كيانه الأبوة الملهوفة ، ويهتف بالولد الشارد : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، **وكما يقول صاحب الظلال** : ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المفردة لا تقدر مدى الهول الشامل : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ ثم ها هى ذى الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

قال القاسمى : فى محاسن التأويل : « أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم وهم المؤمنون ، يعنى السفينة ، أو لاعاصم ، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله » فلا جبال ولا مخابئ ولا حامٍ ولا واقٍ إلا من رحم الله ، وفى لحظة تتغير صفحة المشهد ، فها هو ذا الموج الغامر يبلغ كل شيء : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وترسم الآيات أخيراً نهاية قصة الطوفان بأمر الله للأرض أن تنشق وتبتلع ماءها وتتشربه وللسماء أن تمسك مطرها ، ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أى شرع فى النقص ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أى أنجز ما وعد

الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفى ذلك إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار ، أمر - تعالى - الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر فنضب الماء ، وقضى الله أمره بإنجاء من نجا وإهلاك من هلك .

إن قضية الولاء لله ، والبراء من كل صور الشرك لا يناقض البشرية وما فيها من عواطف وخلجات بشرية ، فهذا نوح الشديد الذى قال : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ (نوح : ٢٦) .

هذا نوح يطلب النجاة لابنه ، وتأمل ذلك وقوله تعالى عنه : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ (نوح : ٢٧) فهو هنا يعلل سبب الدعاء عليهم بأنهم لا يتناسلون إلا كفارا ، ويحتمل أنه دعا بهذا الدعاء بعد أن أخبره الله أن ابنه ليس من أهله الناجين ، لذا فقد دعا لمن آمن أهله ولمن دخل بيته ، وذلك فى قول الله تعالى : ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ (نوح : ٢٨) .

وحملت شفقة الأبوة ، وعطف الرحم والقرابة نوحًا عليه السلام أن يطلب نجاة ابنه ، لشدة تعلقه به، واهتمامه بأمره وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة الإلهية وحسن السؤال فقال : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ، ولم يقل : لا تخلف وعدك بإنجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ؛ وغفل لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه - تعالى - بقوله : ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف به بالاسترحام وعرض بقوله : ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أى أنت العالم العادل والحكيم الذى لا يخلف وعده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ - قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء، وكل شىء مسخر بأمر الله ومشيئته .

٢ - لا ينفع الإنسان عند الله - تعالى - ولا ينجيه من عذابه إلا إيمانه وعمله الصالح ، فهذا ابن نوح الذى لم يؤمن قد أغرقه مع المغرقين ، وتلك امرأته الكافرة أغرقت كسائر الكافرين .

٣ - من السنة التسمية فى ابتداء الأمور ، وعند ركوب السفينة والسيارة وسائر وسائل المواصلات .

٤ - عقوق الوالدين كثيراً ما يسبب الهلاك فى الدنيا ، أما عذاب الآخرة فهو لازم له .

٥ - الآيات تشير إلى عظمة الرب - تعالى - وإطاعة كل الخلق أمره حتى الأرض والسماء .

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن
ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦)
قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا
تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح
اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك
وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (٤٨) تلك
من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك
من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩) وإلى عاد
أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره إن أنتم إلا مفترون (٥٠) يا قوم لا أسألكم عليه
أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون (٥١)
ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء
عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا
مجرمين (٥٢) قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن
بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٣)

٢٢٧

معانى الكلمات :

اهبط : انزل من السفينة .

بركات : خيرات ثابتة نامية .

أنباء : أخبار .

مفترون : كاذبون على الله .

فطرنى : خلقنى وأبدعنى .

السماء : المطر .

مدراراً : غزيراً .

بينة : برهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة السنن الجارية التى لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد ، والعاقبة للمتقين .

٢ ـ أن ندرك أهمية الصبر وكونه من أسباب النصر .

٣ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة فهما من أسباب تيسير الرزق .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يأتى الرد نوحاً بالحقيقة التى غفل عنها ، فالأهل ـ عند الله وفى دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة ، وهذا الولد لم يكن مؤمناً ، فليس إذن من أهله وهو النبى المؤمن جاءه الرد هكذا فى قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد ، لأن نوحاً دعا دعاء من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد، فقال له : إنى أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أُول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن ويخشى أن يكون قد زل فى حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته ، وأدركت رحمة الله نوحاً ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم ، وكانت خاتمة المطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من

ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم .. ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا فى مقدمة السورة ،فجاء القصص ليترجمها فى الواقع المشهود .

ومن ثم يجىء التعقيب ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيتحقق هذا التعقيب ـ **كما يقول صاحب الظلال** : من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة :

* حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون ، فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبى ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً فى محيطه . إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

* وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى ، فهى هى ، والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

* وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التى لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة فى جيل .

* وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبى وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

* وحقيقة السنن الجارية التى لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد : ﴿ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم الناجون وهم المستخلفون .

* وحقيقة الرابطة التى تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل ، إنها العقيدة الواحدة التى تربط المؤمنين كلهم فى الإيمان بإله واحد ورب واحد يلتقون فى الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

المثل الذى ضرب فى هذه السورة وهو نوح وابنه ليس هو المثل الوحيد بل قد ضرب القرآن أمثلة أخرى :

ـ وهى إبراهيم مع أبيه .

ـ إبراهيم مع قومه .

ـ نوح مع زوجته ولوط مع زوجته .

ـ امرأة فرعون مع زوجها .

ـ أصحاب الكهف مع أقوامهم .

وغير ذلك من الأمثلة يتعلو عقيدة الولاء والبراء وذلك يجب أن يكون ديدن المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

ومضى قوم نوح فى التاريخ . الأكثرون والمكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا فى الأرض تحقيقاً لسنة الله ووعده : ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . ولقد كان وعد الله لنوح : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ ، فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله ، وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ـ ومن بعدهم ثمود ـ ممن حقت عليهم كلمة الله : ﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ويعرض السياق قصة عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، أرسل الله إليهم أخاهم هوداً كما أرسل نوحاً إلى قومه ، وبنفس التودد ، والتذكير بالأواصر التى تجمعهم نصحهم كما نصح نوح قومه ، فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه ، وكانوا قد انحرفوا ـ كما أسلفنا ـ عن عبادة الله الواحد التى هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة .

لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التى جاء بها كل رسول ، ووضح لهم أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصح والهداية أجراً ، إنما أجره على الله الذى خلقه فهو به كفيل .

ووجههم إلى الاستغفار والتوبة ، ويكرر السياق التعبير ذاته الذى ورد فى أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد ﷺ وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين فنصحهم أن يستغفروا الله مما هم فيه من المعاصى ، وأرشدهم إلى التوبة حتى ينزل عليهم المطر مدراراً ويعطيهم أكثر من ذلك فقال لهم : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : تلك كانت دعوة هود ـ ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة ربما لأن الطوفان كان قريباً منهم ، وكان فى ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكرهم به فى سورة أخرى ـ فأما قومه فظنوا به الظنون : ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من إعجاز القرآن الكريم إخباره بالغيوب السالفة ، وقصص الأولين التى لم يكن للرسول ﷺ ولا لأحد من قومه علم بها قبل نزول هذا القرآن .

٢ ـ الصبر من أسباب النصر .

٣ ـ من وظيفة الرسل: النصح والبلاغ من الله ـ تعالى ـ إلى الناس، ابتغاء ثواب الله ورضوانه.

٤ ـ الاستغفار يكفر الذنوب السابقة ، والتوبة والرجوع إلى طاعة الله تكف عن الذنوب مستقبلا ، ومن اتصف بهاتين الصفتين (الاستغفار والتوبة) يسر الله له رزقه ، وسهل عليه أمره ، وحفظ شأنه .

الجزء الثاني عشر — سورة هود

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

الحزب ٢٣

٢٢٨

معانى الكلمات :

اعتراك : أصابك .

بسوء : بجنون .

فكيدونى : فاحتالوا فى كيدى .

لا تنظرون : لا تمهلونى .

آخذ بناصيتها :مالكها وقادر عليها .

حفيظ : رقيب مسيطر .

جبار : متعاظم متكبر .

عنيد : طاغ معاند للحق .

بعداً لعاد : هلاكاً وسحقاً لهم .

مريب : موقع فى القلق والشك .

الهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهى التوحيد ، ودينهم واحد وهو الإسلام .

٢ ـ أن نعلم أن الإيمان أساس الأعمال الصالحة .

٣ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة فهما سبيل الاستقامة على أوامر الله ـ عز وجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن أعلن قوم هود أنهم لن يستجيبوا له ولن يصدقوه ، واتهموه بالجنون لم يبق لهود ﷺ إلا التحدى ، وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه ، وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين،وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم ـ إن أصروا على التكذيب.

ويعلن فى انتفاضة ثائرة التبرؤ من القوم ، وقد كان منهم وكان أخاهم . وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً ، وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة، وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم فى وجوههم ، كى لا تبقى فى أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم .

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه ، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه ! ثم يخبرهم فى جلاء ووضوح أنهم مهما أنكروا وكذبوا ، فحقيقة ربوبية الله له ولهم قائمة ، فالله رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ولا توجد دابة على هذه الأرض إلا وهو آخذ بناصيتها، بما فيها الدواب من الناس، قاهر وغالب ومهيمن عليهم فى قوة واستقامة وتصميم .

وهذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه ، لا تدع فى قلبه مجالاً للشك فى عاقبة أمره ؛ ولا مجالاً للتردد عن المضى فى طريقه ، وتلك هى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبداً ؛ وعند هذا الحد من التحدى بقوة الله، وإبراز هذه القوة فى صورتها القاهرة الحاسمة، يأخذ هود فى الإنذار والوعيد .

فيخبرهم أنه أدى واجب الله عليه فى الإبلاغ ، وها هو ينفض يده من أمرهم ليواجهوا قوة الله ـ عز وجل،وما لهم به من قوة، وذهابهم لا يترك فى كون الله فراغاً ولا نقصاً والله ـ عز وجل ـ يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليهم فلا يفلتون ولا يعجزون الله هرباً وكانت هذه هى الكلمات الفاصلة ؛ وانتهى معهم الجدل والكلام ليحق الوعيد والإنذار .

ولما جاء أمر الله بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجيناً هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .

والآن وقد هلكت عاد ، يُشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللعنة والطرد فى تقرير وتكرار وتوكيد ، وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد .. كانت هى قضية الحاكمية والاتباع ، قضية المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل ـ لأنه أمر الله ، ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان .. فى كل رسالة وعلى يد كل رسول .

يقول صاحب الظلال : « الواقع أنه لوكانت حقيقة العبادة هى مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التى بذلها الرسول صلوات الله وسلامه عليهم ، وما استحقت كل هذه الآلام التى تعرض على مدار الزمان ! إنما الذى استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده فى كل أمر .

ولقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد .. هكذا مشيعين باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة .

ومرة أخرى نتواصل مع السياق وهو يعرض قصة جديدة للجاهلية تعقب الإسلام ، والشرك يعقب التوحيد ـ فثمود كعاد هم من ذرارى المسلمين الذين نجوا فى السفينة مع نوح ـ ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ؛ حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد .

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التى طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التى ترى فى الرشد ضلالاً ؛ وفى الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذى كان مرجواً فى قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره .

ويقول صاحب الظلال ـ معلقاً : إن القلب البشرى حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد فى ضلاله وشروده ، حتى إن الحق البسيط الفطرى المنطقى ليبدو عنده عجيبة العجائب التى يعجز عن تصورها ، بينما هو يستسيغ الانحراف الذى لا يستند إلى منطق فطرى أو منطق عقلى على الإطلاق !

وصالح عليه السلام يناديهم بما فى نشأتهم ووجودهم فى الأرض من دليل فطرى منطقى لا يملكون له رداً ، وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشؤوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التى يستمتعون بها فى الأرض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ دعوة الرسل جميعاً واحدة (هى عقيدة التوحيد) ، ودينهم جميعاً واحد هو الإسلام .

٢ ـ الإيمان هو أساس قبول الأعمال الصالحة .

٣ ـ حسن التوكل على الله ؛ لأن كل الخلق تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه .

٤ ـ تقديم الاستغفار على التوبة فى الآيات سره أن المرء لا يقلع عن ذنبه حتى يعترف به .

٥ ـ وحدة الوسيلة والغاية عند كافة الرسل فالوسيلة عبادة الله وحده ، والغاية رضا الله والجنة .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ
سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

معانى الكلمات :

أرأيتم : أخبرونى .

بينة : يقين وبرهان .

تخسير : خسران إن عصيته .

عقروها : ذبحوها .

الصيحة : صوت مهلك من السماء .

جاثمين : هامدين .

بعجل حنيذ : بعجل مشوى .

أوجس : شعر بالخوف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ العبرّة والعظة من ثبات الأنبياء على الحق وصبرهم على إيذاء أقوامهم .

٢ ـ أن نتعلم آداب استقبال الضيف ووجوب إكرامه من سيدنا إبراهيم .

٣ ـ أن نوقن أن مشيئة الله وقدرته لا تقيدها نواميس ولا تبدلها .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق مع أحداث قصة صالح عليه السلام وهو يقول لقومه كما قال جده نوح : يا قوم : ماذا ترون إن كنت أجد فى نفسى حقيقة ربى واضحة بينة ، تجعلنى على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتانى منه رحمة فاختارنى لرسالته وأمدنى بالخصائص التى تؤهلنى لها ، فمن ينصرنى من الله إن أنا عصيت فقصرت فى إبلاغكم دعوته ، احتفاظا برجائكم فىّ ؟ أفنافعى هذا الرجاء وناصرى من الله ؟ كلا : ما تزيدوننى إلا خسارة على خسارة .. غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ويمضى السياق ولا يذكر صفة لهذه الناقة التى أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة ، ولكن فى إضافتها لله ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ ، وفى تخصيصها لهم : ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ ما يشير إلى أنها

كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله ولكنهم عقروها ، فضربوا قوائمها بالسيف على هذا النحو . وهذا دليل على فساد قلوبهم واستهتارهم ، لذا جاءهم أمر الله وهو الإنذار أو الهلاك ـ فلما جاء موعد تحقيق الأمر ـ نجى الله صالحاً والذين آمنوا معه برحمة من الله خاصة ومباشرة ، نُجّىَ من الموت ومن خزى ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين فى دورهم بعد الصاعقة المدوية التى تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر،ولا يهون من يتولاه ويرعاه، ثم يعود السياق إلى مشهدهم معّجباً منهم ، ومن سرعة زوالهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ كأن لم يقيموا ويتمتعوا ؛ ثم الخاتمة المعهودة فى هذه السورة : تسجيل الذنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ !

فنجد فى قصة صالح عليه السلام أن القوم واجهوا الآية الخارقة التى طلبوها،لا بالإيمان والتصديق، ولكن بالجحود وعقر الناقة .

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كانوا يؤمنوا فهاا هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التى طلبوا ، فما أغنت معهم شيئًا ، إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول ، ولكن الجاهلية هى التى تطمس على القلوب والعقول .

ويعرض السياق فيما يعرض الأمم التى بوركت والأمم التى كتب عليها العذاب من عهد نوح ، ويلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحقق فيه البركات ، وفى الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفى قصتى إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح : وقيل : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد كانت البركات فى إبراهيم وعقبه من ولديه : إسحاق وأبنائه أنبياء بنى إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين .

ويتحدث السياق هنا عن البشرى التى جاءت بها الملائكة لسيدنا إبراهيم ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا فى موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم ! والرسل : الملائكة وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل ـ مع المفسرين ـ فى تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل .

وتحكى القصة أن إبراهيم عليه السلام كان قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق ، وعبر الأردن ، وسكن فى أرض كنعان فى البادية ـ وعلى عادة البدو فى إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً : ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض ﴿ فَلَمَّا

رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم ، فيدرك إبراهيم ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ، وبشرت الملائكة زوجة إبراهيم بإسحاق ، وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده وهو يعقوب .

ويقول صاحب الظلال : ولا عجب من أمر الله ، فالعادة حين تجرى بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل ، وعندما يشاء الله لحكمة يريدها ـ وهى هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ـ يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التى لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجرى به العادة فى أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث فى الوجود . والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله ـ سبحانه ـ فى كتابه وقوله الفصل ، وليس للعقل البشرى قول فى ذلك القول وحتى الذين يقيدون مشيئته بما يقرره الله ـ سبحانه ـ أنه ناموسه لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك! فمشيئة الله ـ سبحانه ـ طليقة وراء ما قرره الله ـ سبحانه ـ من نواميس . ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس .

يقول صاحب الظلال : نعم إن الله سبحانه يُجرى هذا الكون وفق النواميس التى قدرها له ، ولكنّ هذا شىء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شىء آخر ، إن الناموس يجرى وينفذ بقدر من الله فى كل مرة ينفذ فيها فهو لا يجرى ولا ينفذ آلياً فإذا قدرالله فى مرة أن يجرى الناموس بصورة أخرى غير التى جرى بها فى مرات سابقة كان ما قدره الله ، ولم يقف الناموس فى وجه هذا القدر الجديد ، ذلك أن الناموس الذى تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس فى كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الداعى إلى الله أن يتمسك بدعوة الحق مهما لاقى فى سبيلها من آلام ومتاعب ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

٢ ـ السلام خير تحية ، وحسن إكرام الضيف ، شيمة الدعاة الكرام إلى الله ، وهما وسيلتان للداعية فى جمع القلوب على الدعوة .

٣ ـ استحباب تبشير المؤمن بما هو خير له وبالرؤيا الصالحة .

٤ ـ مشروعية خدمة أهل البيت لضيوفهم ، ووجوب إكرام الضيف وفى الحديث الصحيح : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

معانى الكلمات :

مجيد : الممجد فى ذاته وصفاته.

الروع : الخوف والفزع .

لحليم : متأنّ غير عجول .

أواه : كثير التأوه من خوف الله .

منيب : راجع إلى الله .

سىء بهم : حزن بسببهم .

ضاق بهم ذرعاً : ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم .

يوم عصيب : شره شديد .

يهرعون : يسرعون.

بقطع من الليل : بطائفة منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ العبرة والعظة من خلق سيدنا إبراهيم الذى اتصف بالحلم والأناة والتأوه والإنابة إلى الله .

٢ ـ بيان مشروعية الجدال فى الحق عمن يُرجى له الخير من الناس دون أن يؤدى إلى تفرق مذموم .

٣ ـ أن نوقن أن قدر الله وقضاءه لا يُرد فما حكم الله به لابد واقع .

المحتوى التربوى :

نتواصل مع الآيات وإلى هنا كان إبراهيم عليه السلام قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التى حملوها إليه، ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه ـ وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال ، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودودة لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً .

وتصف الآيات إبراهيم الحليم الذى يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور ، والأوّاه الذى يتضرع فى الدعاء من التقوى ، والمنيب الذى يعود سريعاً إلى ربه ، وهذه الصفات كلها دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة فى مصير قوم لوط ؛ وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل؛ لأن النص القرآنى لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضى وأنه لم يعد للجدال مجال .

ويقول صاحب الظلال : ويسكت السياق ـ وقد سكت ولا شك إبراهيم ، ويسدل على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط ، وقوم لوط فى مدن الأردن : عمورية وسدوم .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ .. لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبينِ . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التى تهتدى إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كى تمتد الحياة بالنسل ما شاء الله لها ، والتى تجد اللذة الحقيقية فى تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة ، وهى تشير إلى أن المرض النفسى يُعدى كالمرض الجسدى . وأنه يمكن أن يَروجَ مرض نفسى كهذا نتيجة لاختلاف المقاييس فى بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيىء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة ! على الرغم من مصادمته للفطرة ، التى يحكمها الناموس الذى يحكم الحياة .

ويقول صاحب الظلال : ولقد نجد أحياناً لذة فى الموت ـ فى سبيل غاية أسمى الحياة الدنيا ولكنها ليست لذة حسية ، إنما هى معنوية اعتبارية وأن هذه ليست مصادمة للحياة ، إنما هى إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر ، وليست فى شىء من ذلك العمل الشاذ الذى يعدم الحياة وخلاياها .

سىء لوط بأضيافه ، وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه، ويدرك الفضيحة التى ستناله فى أضيافه ﴿ وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ! وبدأ اليوم العصيب ! ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ فى حالة تشبه الحمى ، هرعوا إليه يهددونه فى ضيفه وكرامته ، فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال ، وعنده منه فى داره بناته ، فهن حاضرات إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة .

فى خطاب لوط لقومه نلحظ أنه فيهم الفطرة السليمة وعرض عليهم أن يتزوجوا من بناته ، ولما لم يستجيبوا لم ييأس الداعية بل لجأ إلى مروءتهم وقال : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ ﴾ .

وأسقط فى يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له قوة فى هذا اليوم العصيب ، وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة .. ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد . ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه ـ كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد » !

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده ، كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه ، وأنبؤوه نبأهم ؛ لينجو مع أهل بيته الطاهرين إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسقين .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

فأمر ألا يلتفت منهم أحد ، أى لا يتخلف ولا يعود ؟ لأن الصبح موعدهم مع الهلاك ، فكل من بقى فى المدينة فهو هالك مع الهالكين ، ولتقريب الموعد وتأكيده يطرح سؤالاً لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق ، فالموعد مع مطلع الصبح ، ثم يهلك الله القوم ـ بقوته ـ ما لم تكن قوة لوط التى تمناها فاعلة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ قدرة الله ـ تعالى ـ على خلق ما شاء من عباده فى أى وقت شاء .

٢ ـ مشروعية الجدال عمن يُرجى له الخير من الناس ، وذلك فى غير الحدود الشرعية إذا رفعت إلى الحاكم .

٣ ـ قضاء الله لا يُرد ـ أى ما حكم الله به لا بد واقع .

٤ ـ فضيلة إكرام الضيف وحمايته من كل ما يسوء .

٥ ـ أسوأ الحياة ألا يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

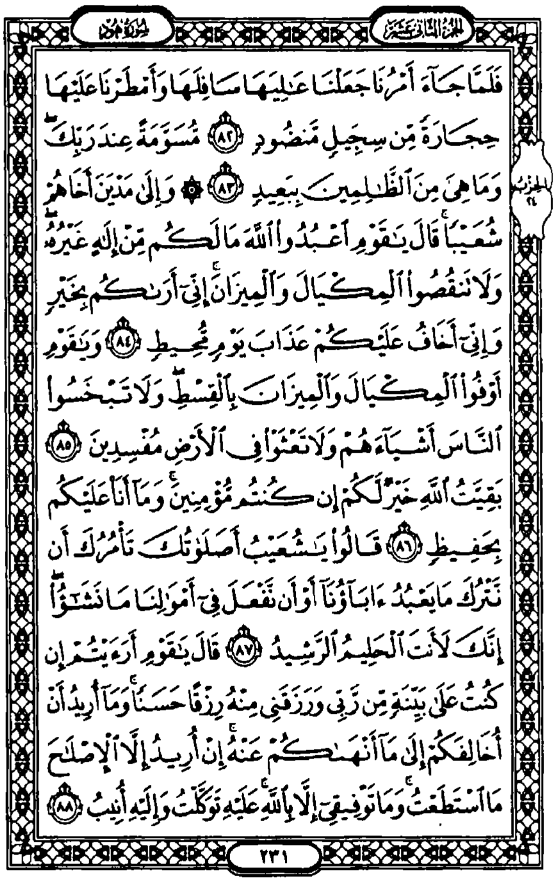
الجزء الثاني عشر — سورة هود

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)

٢٣١

معانى الكلمات :

سجيل : طين أوقد عليه بالنار كالفخار .

منضود : متتابع .

مسومة : معلمة للعذاب.

أراكم بخير : بغنى وسعة .

يوم محيط : مهلك .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

ألا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد .

بقية الله : ما أبقاه لكم الله من الحلال .

بحفيظ : برقيب .

أرأيتم : أخبرونى .

أنيب : أرجع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن دعوة الرسل واحدة كلها تدعو إلى توحيد الله ـ تعالى ـ ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإسعاد الإنسان بعد نجاته من النار .

٢ ـ أن نرضى بالحلال ـ وإن قل ، ونسخط الحرام ـ وإن كثر .

٣ ـ ألا نبخس الناس أشياءهم وأن نوفى الناس حقوقهم فى الكيل والميزان وكل ما عداه .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات لترسم المشهد الأخير ـ مشهد الدمار المروع ، فلما جاء موعد تنفيذ الأمر : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ .. وهى صورة للتدمير الكامل الذى يقلب كل شىء ويغير المعالم ويمحوها ، وجعل عاليها سافلها أشبه شىء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، والصورة التى ترسمها الآيات هنا لهذه النازلة التى أصابت قوم لوط أشبه شىء ببعض الظواهر البركانية التى تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل ، وعند ربك للظالمين كثير !!!

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب فى قومه أهل مدين ، ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى وهى قضية الأمانة والعدالة فى التعامل بين الناس ، وهى وثيقة الصلة بالعقيدة فى الله والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره ، وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله !

والقضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة ـ بعد قضية العقيدة والدينونة ـ أوهى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة ، فقد كان أهل مدين ـ وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام ـ ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم أى : ينقصونهم قيمة أشيائهم فى المعاملات ، وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف ، كما كانوا ـ بحكم موقع بلادهم ـ يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها ويتحكموا فى طرق القوافل ، ويفرضوا ما يشاؤون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى هذه السورة ، ومن ثم تبدو علاقة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول ، فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس ، وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء .

ويقول صاحب الظلال : « إن المعاملات والأخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة .. هذه هى نظرة الإسلام ، وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم !

وينصح شعيب قومه قائلاً : إن الله قد رزقكم رزقاً حسناً ، فلستم فى حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان . بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش فى المعاملة ، أو غصب فى الأخذ والعطاء .

﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ ، ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه فى صورة إيجابية بعد صورة النهى السلبية : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ وإيفاء المكيال والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة ، ونصح بما هو أعم من المكيلات والموزونات فقال لهم : ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ .

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال : وردوا عليه رد التهكم والمعاندة بلا معرفة ولا فقه ، **وكما يقول صاحب الظلال** : هم لا يدركون ـ أولا يريدون أن يدركوا ـ أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة ، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شؤون الحياة والتعامل، فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم ، يتلطف فى إشعارهم فى أنه على بينة من ربه كما يجده فى ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول ؛ لأنه أوتى من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة فى المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها ؛ لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ، فهو لا يبغى كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم؛ فلن ينهاهم عن شىء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هى دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس ، وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون .

فى دعوة شعيب لقومه نموذج عملى للداعية ؛ بأن يكون قريبًا من قومه حتى يروا موطن القدوة فيه ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وأن يذكرهم بجوانب الخير فيهم ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ وأن لا يبغى من دعوتهم ثمنًا ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ ، وأن يبشرهم ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وأن ينذرهم ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وحدة دعوة الرسل وهى البداية بتوحيد الله ـ تعالى ـ أولاً ، ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لإكمال لسعادة الإنسان بعد نجاته من الخسران .

٢ ـ حرمة نقص الكيل والوزن أشد حرمة .

٣ ـ وجوب الرضا بالحلال وإن قل ، وسخط الحرام وإن كثر .

٤ ـ حرمة بخس الناس حقوقهم كأجور العمال ، وأسعار البضائع ونحو ذلك .

٥ ـ حرمة السعى بالفساد فى الأرض بأى نوع من الفساد ، وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى .

٦ ـ كراهية إتيان الشىء بعد النهى عنه ، وترك الشىء بعد الأمر به والحث عليه مصداقاً لقوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف) .

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

٢٣٢

معانى الكلمات :

لا يجرمنكم : لا يحملنكم .

شقاقى : خلافى .

ودود : محب لهم .

رهطك : جماعتك وعشيرتك .

وراءكم ظهرياً : منبوذاً وراء ظهوركم ، منسياً .

مكانتكم : حالتكم ، أو غاية تمكنكم من أمركم .

جاثمين : هامدين .

بعدت ثمود : هلكت .

رشيد : سديد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتبر بما حدث للأمم السابقة ويكون لنا فى قصصهم عبرة وآية .

٢ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة دائماً لنيل رضا الله تعالى .

٣ ـ أن نصبر وقت الأزمة ونعلم أن اشتدادها مؤذن بانفراجها .

المحتوى التربوى :

بعد أن تلطف شعيب عليه السلام مع قومه ، أخذهم فى واد آخر من التذكير ، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، فقد يفعل هذا فى مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلى اللين الذى يحتاج إلى رشد وتفكير ، ودعاهم ألا يحملهم الخلاف معه والعناد فى مواجهته على اللجاج فى التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبهم ما أصاب الأقوام قبلهم وهؤلاء قوم لوط قريب منهم فى المكان والزمان ، فمدين كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم ـ وهم فى مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم فى رحمة الله والقرب منه بأدق الألفاظ وأحناها ، وهكذا يطوف بهم فى مجالات العظة والتذكر والخوف

والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين ، ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم فى الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عن تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب .

ويعلق صاحب الظلال على سلوكهم قائلاً : « وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العليا ، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه. أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها، ولا ظل فى تلك النفوس الفارغة الخاوية .

وعندئذ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة فى هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون ، ويلقى كلمته الفاصلة الأخيرة ، ويفاصل قومه على أساس العقيدة ؛ ويخلى بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذى ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذى يختارون .

ويعلق صاحب الظلال على رد شعيب عليه السلام على قومه : ﴿ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ... الآية قائلاً : « إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يُستباح جلاله ـ سبحانه ـ ووقاره . الغضبة التى لا يقوم إلى جوارها شىء من الاعتزاز بنسبه ورهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذى يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه ـ الذين افترق طريقهم عن طريقه ـ وهذا هو الإيمان فى حقيقته ، إن المؤمن لا يعتز إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هى لربه ودينه ، وهذا هو مفرق الطريق فى الحقيقة بين التصور الإسلامى والتصور الجاهلى فى كل أزمانه وبيئاته!

ومن هذه الغضبة لله ، والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدى الذى يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم ـ بعد أن كان واحداً منهم ، ويفترق الطريقان فلا يلتقيان .

فى قوله تعالى عن لسان شعيب : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ نلاحظ أسلوب الداعى هود لقومه فهو يستميلهم لا لينفر عنهم ، ولم يتهمهم بالكذب بل أرجأ ذلك كى يروه بعيونهم ، وذلك الأسلوب دأب الأنبياء فجاء على لسان نوح عليه السلام ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ

مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾ ، وجاء فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ (سبأ : ٢٥) وجاء تعليل ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

ويسدل الستار هنا على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة ، وعلى هذا الافتراق ، ليُرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التى أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر ، وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد .

وتأتى خاتمة ذلك القصص بالإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين اتبعوا أمره ، ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذى السلطان المزعوم وكبراء قومه .

ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما فى أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط . ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ ۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٍ ﴾ .

ولما كانوا تبعاً لفرعون فى هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، دون أن يكون لهم رأى ، مستهينين بأنفسهم ، متخلفين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق .. لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً ، هذا الذى لم يكن أمره برشيد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الاعتبار بما حدث للأمم السابقة ،حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيصيبنا ما أصابهم .

٢ ـ أهمية الاستغفار والتوبة لنيل رضا الله ـ سبحانه وتعالى .

٣ ـ الذين يتبعون الضالين من الناس فى الدنيا سوف يتبعونهم يوم القيامة إلى نار جهنم .

٤ ـ اشتداد الأزمات مؤذن بقرب انفراجها .

٥ ـ التحذير من اتباع رؤساء الشر وأئمة الفتن والضلال .

الجزء الثاني عشر — سورة هود

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ
ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

٢٣٣

معانى الكلمات :

أوردهم : أدخلهم .

الورد المورود : المدخل المدخول فيه وهو النار .

الرفد المرفود : العطاء المعطى لهم وهو اللعنة .

حصيد : لا أثر له كالزرع المحصود .

غير تتبيب : غير تخسير وإهلاك .

لأجل معدود : وقت معلوم .

زفير : إخراج شديد للنَّفس من الصدر .

غير مجذوذ : غير مقطوع لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سنة الله الكونية فى إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين .

٢ ـ أن نعرف معيار الشقاء والسعادة الحقيقى لا الظاهرى .

٣ ـ أن نؤمن بطلاقة القدرة التى لا تقيدها السنن الكونية .

المحتوى التربوى :

فى الآيات وتواصلاً مع قصة موسى عليه السلام مع فرعون يقرر السياق أن فرعون ، سيقدم قومه يوم القيامة ويكونون له تبعاً ، وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى ووعداً عن المستقبل ، إذا بالمشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى ، فأوردهم النار ، كما يورد الراعى قطيع الغنم ، ألم يكونوا قطيعا يسيرُ بدون تفكير ، فأوردهم النار ويا بؤساه من ورد لا يروى غلة ، ولا يشفى صَدراً ، إنما يشوى البطون والقلوب . ويُسخر منها ويُتهكم عليها : ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ .

فهذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً ، فها هو ذا رفده لمن تبعه ، النار ، وبئس الورد المورود . وبئس الرفد المرفود .

ويأتى التعقيب على أحداث هذا القصص ، ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون فى لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وما حل بهم من قبل فى الدنيا يخايل للأنظار فى هذا الموقع .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحى ينبئك بهذا الغيب المطمور وذلك بعض أغراض القصص فى القرآن ، فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ، وتكرار الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم : إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصمهم من الله ، فها هى ذى العاقبة تصدق النذر ، فلا تغنى عنهم آلهتهم شيئاً ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودماراً ذلك أنهم اعتمدوا عليهم .

فزادوا استهتاراً وتكذيباً ، فزادهم الله نكالاً وتدميراً ، فهذا معنى ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾ فهم لا يملكون لهم ضراً ، كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً ، ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد .

ويقول الله عز وجل لنبيه كذلك الذى قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهى ظالمة مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح ، وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون .

وذلك الأخذ الأليم الشديد فى الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أى الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذى يأخذ القرى بظلمها فى هذه الحياة سيأخذها بذنوبها فى الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب .

والذين لا يخافون الآخرة لا تتفتح قلوبهم وتظل صماء ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب فى هذه الدنيا ، وحتى العبر التى تمر فى هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً .

ويصف المولى عز وجل هذا اليوم الذى يجتمع فيه الخلق جميعاً على غير إرادة منهم والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن يشاء فيخرج من صمته بإذنه .. ثم تبدأ عملية التوزيع ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

ومن خلال الآيات نشهد : ﴿ ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ نشهدهم فى النار مكروبى الأنفاس ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ من الحر والضيق . ونشهد ﴿ ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ فى الجنة لهم فيها عطاءٌ دائم غير مقطوع ولا ممنوع . وهؤلاء خالدون حيث هم ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ، ولقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين ، وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله فى النهاية .

يقول صاحب الأساس بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبى ﷺ : فقلت : يارسول الله ، علام نعمل ؟ على شىء قد فُرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : « على شىء قد فرغ منه يا عمر وجَرَتَ ، به الأقلام ، ولكن كلّ ميسَّر لما خلق له » .

ونعود إلى السياق فنجده زاد فى حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم فى الجنة ، وهو مطلق فرض ، يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحداً من عباده ، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بتكذيب الرسل ، وكفرهم بربهم ، وارتكابهم الذنوب والمعاصى .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

٣ ـ إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين من سنن الله الكونية التى لا تتخلف .

٤ ـ فى يوم القيامة لا يتكلم أحد ، ولا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله ـ تعالى ـ

٥ ـ الشقاء الحقيقى فى دخول النار ، والسعادة الحقيقية فى دخول الجنة .

٦ ـ إرادة الله مطلقة ، لو شاء أن يخرج أهل النار لأخرجهم منها ، ولو شاء أن يخرج أهل الجنة لأخرجهم إلا أنه حكم بما أخبر به وهو العزيز الحكيم .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

معانى الكلمات :

فلا تك فى مرية : فلا تكن فى شك .

مريب : موقع فى الشك .

لا تطغوا : لا تجاوزوا حدود الله .

لا تركنوا : لا تمل قلوبكم بالمحبة .

زلفاً من الليل : ساعات منه قريبة من النهار .

القرون : الأمم .

أولو بقية : أصحاب فضل وخير .

ما أترفوا فيه : ما أنعموا فيه من الخصب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن سنن الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى دينه وفى وعده ووعيده .

٢ ـ أن ندرك مفهوم الاستقامة ونلتزم بها دون إفراط ولا تفريط .

٣- أن نحافظ على الصلوات فى أوقاتها ، ونتصبر بها على الاستقامة على طريق الدعوة .

المحتوى التربوى :

بعد هذا الاستطراد إلى المصير فى الآخرة ، فى الآيات السابقة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام فى الدنيا ، والتشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك ، يعود السياق بما يُستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ﷺ والقلة المؤمنة معه فى مكة ـ تسرية وتثبيتاً ـ وإلى المكذبين من قومه بياناً وتحذيراً ، فليس هناك شك فى أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون ـ شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر ، ونصيبهم الذى يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى ـ بعد اختلافهم فى دينهم ـ لأمر قد شاءه الله فى إنظارهم .

ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفى الموعد المحدود ، ولم يؤخر عنهم العذاب ؛ لأنهم على الحق ، فهم على الباطل الذى كان عليه آباؤهم بكل تأكيد .

ويقول صاحب الظلال : « ولحكمة ما سبقت فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتاباً ، والذين لهم كتاب من اتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذى أنزل فيه ، والأمر ليس كذلك فى الخوارق المادية التى لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها ، وإما ألا يؤمن فيأخذه العذاب .

والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجىء الكتاب الخير ، مصدقاً لما بين يديه فيصبح هو الكتاب الخير للناس جميعاً يُدعى إليه الناس جميعاً، ويحاسب على أساسه الناس جميعاً ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل ، إنهم أى قوم موسى ، ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ من كتاب موسى، لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .

وإن كان العذاب قد أُجل ، فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها سيوفيهم بها العليم الخبير ، ولن تضيع .

وبعد ذلك البيان والتوكيد يُلقى فى النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى دينه وفى وعده ووعيده ، وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم ـ كما أمروا ـ لا يغلون فى الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحق سنة الله عندما يريد .

ويقول صاحب الظلال : « والاستقامة هى الاعتدال والمضى على النهج دون انحراف ، وهو فى حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ،والتحرى الدائم لحدود الطريق ، وضبط انفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً، ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة.

ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير ، وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء .

والاستقامة على الطريق فى مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زارعين، والله ـ سبحانه ـ يرشد رسوله ﷺ ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى حين يفنى كل زاد ، والذى يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب، ينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية النكدة الكنود .

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة ـ أى أدائها كاملة مستوفاة ـ بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل الحسنات ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهى داخلة فيه بالأولوية . لأن الصلاة هى الحسنة التى تذهب السيئة بهذا التحديد ـ كما ذهب بعض المفسرين ـ

والاستقامة إحسان ، وإقامة الصلاة فى أوقاتها إحسان ، والصبر على كيد التكذيب إحسان ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ثم يعود السياق إلى التعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفى إلى أنه لو كان فى هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد فى الأرض، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذى حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بظلم إذا كان أهلها مصلحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إذا كان الرسول ﷺ قد أُمر بالاستقامة على أمر الله ، وهو أفضل من استقام على الدين ، فإن جميع الخلق أولى بهذا الأمر ؛ لذلك ورد فى الحديث الجامع : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

٢ ـ من ركن إلى ظالم ومال قلبه إليه استحق العذاب ، وكان شريكاً للظالم فى ظلمه ، وسلط الله هذا الظالم عليه .

٣ ـ أهمية المحافظة على الصلوات فى أوقاتها تامة كاملة فى خشوع ، وأن الطاعات يمحو الله بها السيئات .

٤ ـ حرمة الغلو وتجاوز ما حد الله تعالى فى شرعه .

٥ ـ حرمة مداهنة المشركين أو الرضا بهم أو بعملهم ، لأن الرضا بالكفر كفر .

٦ ـ وجوب الصبر والإحسان فهما من أفضل الأعمال .

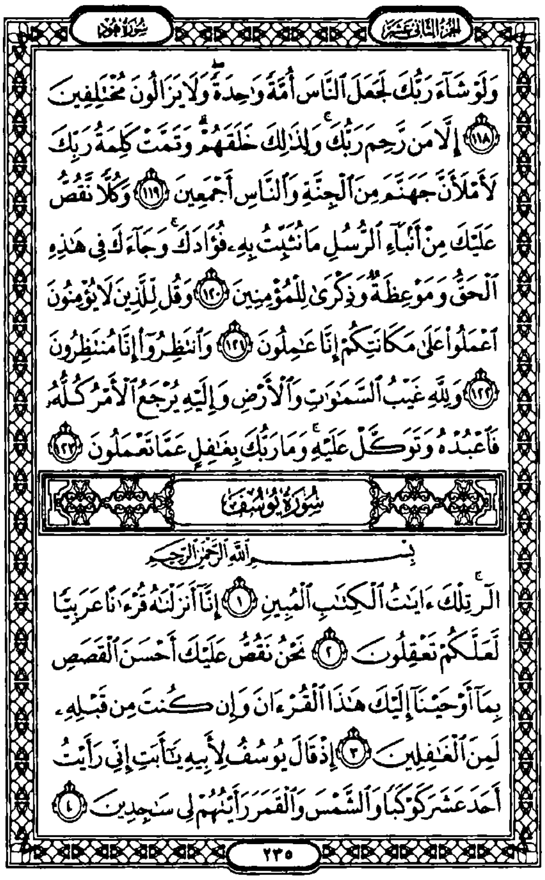
الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
(١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ
(١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

٢٣٥

معانى الكلمات :

معانى المفردات :

أمة واحدة : أهل دين واحد .

مكانتكم : حالتكم .

الر : حروف للتحدى والإعجاز .

نقص عليك : على الرسول ﷺ .

رأيت : فى المنام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أن الأمر كله لله عز وجل ، لذا فهو أحق بالعبادة والتوكل عليه .

٢ ـ أن نقف على الدروس والعبر من القصص القرآنى ، فإنه نزل بحكمة .

٣ ـ أن نأخذ الحيطة والحذر فى الأمور الهامة أخذاً بالأسباب .

المحتوى التربوى :

ويأتى التعقيب الأخير فى سورة هود عن اختلاف البشر إلى الهدى والضلال ، وسنة الله المستقيمة فى اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك ، ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد ، ولكن شاء أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهات حياته ، وهكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته فى أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقى جزاء منهجه الذى اختار .

والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه فى خاصة نفسه للمؤمنين ، فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ،

وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم فى غيب الله ، ثم ليعبد الله ، وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون .

ومن بعد ذلك كله الأمر لله . أمر الرسول والمؤمنين ، وأمر هذا الخلق كله ما كان فى غيبه وما سيكون ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ ﴾ فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ فهو الولى وحده والنصير ، وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد .

وهكذا تختم السورة التى بدئت بالتوحيد فى العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله فى النهاية ، بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده والرجعة إليه فى نهاية المطاف ، وذلك بعد طول التطواف فى آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون .

فى قوله : ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المؤمنة التى تتحرك به ، لتحقيق مدلوله فى عالم الواقع لا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية ، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البيانى .

(سورة يوسف ١-٤)

تبدأ السورة بهذه الأحرف وما من جنسها وهى قريبة للناس متداولة بينهم هى هى بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الحرف العربية المعروفة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ وتدركون أن الذى يصنع الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أبداً أن يكون بشراً ، فلابد عقلاً أن يكون القرآن وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة .

ويقول صاحب الظلال : ولما كان جسّم هذه الصورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب على وجه التخصيص ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ .

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص ـ وهو أحسن القصص ـ وهو جزء من القرآن الموحى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ فقد كنت أحد الأميين فى قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق .

ويبدو هنا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى فى سورة البقرة ، ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ ، ونلاحظ أن المقدمة ذكرت أن الله عز وجل يقص فى هذا القرآن أحسن القصص ، وكيف أن محمداً ﷺ كان قبل الوحى غافلاً ، فلم يكن متعلماً ولا مقبلاً على التعلم ،

وقد وصف القرآن فى هذه المقدمة بالبيان ، فأن يكون كتاب هذا شأنه فى مثل هذا البيان ، وفى مثل هذا الحسن ، وفى اختيار القصة الهادفة ، وأن يكون منزلاً على مثل محمد ﷺ فى أميته ، وعدم تعلمه ، إنَّ هذا كله لا يمكن أن يكون ، لولا أن هذا القرآن من عند الله ، فالسورة إذن تعالج موضوع الريب والشك بشكل مختلف عما عالجته سور أخرى .

وتبدأ أحداث القصة ، لنرى يوسف الصبى يقص رؤياه على أبيه ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من روع الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام ـ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به ـ أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر فى حجره أن بين يديه يطوعها ، ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة فى صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً ، والسياق يروى فى صيغة الإيضاح المؤكدة عنه ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ .

ثم يعيد لفظ رأى ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ . لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام ، لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ، ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها ، أما تمامه فلا يظهر إلا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب ، ولهذا كما سيأتى نصحه بألا يقص رؤياه على أخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير ـ غير الشقيق ـ فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم ، فتمتلئ نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوؤه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ثبوت الرؤيا شرعاً ومشروعية تعبيرها .

٢ ـ مشروعية الحذر والأخذ بالحيطة فى الأمور الهامة .

٣ ـ بيان فائدة القصص القرآنى وهى أمور منها :

أ ـ تثبيت قلب النبى ﷺ .

ب ـ إيجاد مواعظ وعبر المؤمنين .

جـ ـ تقرير نبوة الرسول ﷺ .

د ـ التذكر الدائم المستمر لما نزل بالأقوام السابقة .

٤ ـ علم الغيب لله وحده لا يعلمه غيره .

٥ ـ وجوب عبادة الله تعالى والتوكل عليه .

٦ ـ رؤيا الأنبياء حق ، والرؤيا للمؤمن من المبشرات وهى نوع من الوحى .

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟
يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

الحزب ٢٤

٢٣٦

معانى الكلمات :

فيكيدوا لك كيداً : فيحتالوا فى هلالك حسداً .

مبين : ظاهر العداوة .

يجتبيك : يختارك .

غيابة الجب : ما غاب وأظلم من قعر البئر

السيارة : المسافرين .

يرتع : يأكل ما لذ وطاب .

غافلون : مشغولون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتجنب الحسد ؛ لأنه أصل الشرور والكوارث البشرية .

٢ ـ أن نقف على الدروس المستفادة من الآيات .

٣ ـ تقرير قاعدة : أخف الضررين أولى بالأخذ والاتباع .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق فى عرض مشاهد القصص القرآنى ، فبعد أن قص يوسف القصة على أبيه ، أحس يعقوب أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، ويتجه خاطره إلى أن هذا الشأن فى وادى الدين والصلاح والمعرفة ؛ بحكم جو النبوة الذى يعيش فيه ، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذى يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة فى بيت إبراهيم فقال له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق هذا طبيعى ، ولكن الذى يستوقف النظر قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ .. يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « والتأويل هو معرفة المآل ، فما الآحاديث ؟ أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذى تنتهى إليه ، منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوى البصائر المدركة النافذة ، وجاء التعقيب : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . مناسباً لهذا فى جو الحكمة والتعليم ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل فى حياة يوسف فيما بعد ؟

كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب ، على أية حال لقد رأى يوسف رؤياه هذه ، وسنرى فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا .

فى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ **يقول صاحب المنار** بتصرف: فى قصة يوسف أنواع من الدلائل على قدرة الله وحكمته فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه فى غيابة الجب ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز أمانته لما آمنه على بيته ، ولو لم تراوده امرأة العزيز لما ظهرت أمانته ولو لم يتحب فى سعيها لما وضع فى السجن ، ولو لم يوضع فى السجن لما عرف الملك صدقه فى رؤياه وعفته ، ولو لم يعلم الساقى تعبيره للرؤيا ما أنقذ مصر وأبويه وإخوته من الجوع .

ويعقب هذا المشهد السابق مشهدٌ آخر : مشهد إخوة يوسف يتآمرون ولقد كان قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقلب عن الآيات ويسأل ويهتم ، وتحكى الآيات عن إخوة يوسف يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم ـ أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له .

ويغلى الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع، وتتضخم فى حسهم أشياءصغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى إزهاق روح غلام برىء لا يملك دفعاً عن نفسه ، وهو لهم أخ ، وهم أبناء نبى ـ وإن لم يكونوا هم أنبياء ـ يهون هذا ، وتتضخم فى أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازى القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله .

ويتدبرون الأمر ويقررون إلقاء يوسف فى غياهب الجب بعد التداول وينشدون التوبة بعد ذلك ، **ويعلق صاحب الظلال** ـ قائلاً على قصدهم هذا : « والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا ، إنما تكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التى تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ؛ فليست بالتوبة ، إنما هى تبرير لارتكاب الجريمة ، بزينة الشيطان !

وها هم أولا عند أبيهم ، يراودونه فى اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة . وهاهم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به وبيوسف فقالوا له ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أى محبون له كل خير مشفقون عليه أن يمسه أدنى سوء .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ أى يرتع فى البادية يأكل الفواكه ويشرب الألبان ويأكل اللحوم ، ويلعب بما نعلب به من السباق والمناضلة ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من كل ما قد يضره أو يسوء إليه . فأجابهم ﷺ قائلاً : ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ ﴾ أى إنه ليوقعنى فى الحزن وآلامه ذهابكم به ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ فى رتعكم ولعبكم فأجابوه قائلين : ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ لئن غلبنا الذئب ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا الخاسرون كل شىء ، فلا نصلح لشىء أبداً !

وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج ، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضى مشيئته!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحسد سبب لكثير من الكوارث البشرية .

٢ ـ ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون .

٣ ـ يجب على الوالدين أن يسويا بين أبنائهم جميعاً فى المعاملة قدر الاستطاعة ، وألا يفضلا أحداً عن الآخر ، حتى لا تتولد فى نفوس الباقين الغيرة البغضية ، وتحل الكراهية بينهم محل الحب والمودة .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

معانى الكلمات :

أجمعوا : عزموا .

متاعنا : ثيابنا .

سولت : زينت .

واردهم : من يتقدم الرفقة ليستقى لهم .

أسروه : أخفاه الوارد عن بقية الرفقة .

أكرمى مثواه : أحسنى معاملته .

غالب على أمره : لا يقهره شىء ولا يدفعه عنه أحد .

بلغ أشده : بلغ رشده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد أن لطف الله ورحمته وعنايته تكون لأهل طاعته وأصفيائه من خلقه .

٢ ـ أن نتحلى بالصبر الجميل فهو نعم عاقبة الأمور .

٣ ـ أن نستعين بالله عز وجل على كل ما أهمّنا ، فإنه نعم المعين .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تميط اللثام عن الجريمة النكراء لإخوة يوسف ، والله سبحانه يُلقى فى روع الغلام أنها محنة وتنتهى ، وأنه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو، ويواجه يوسف محنته فى غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله فى روعه ويطمئنه ؛ حتى يأذن الله بالفرج ، ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع .

يقول صاحب الظلال : « لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التى يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية

الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا فى الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذى حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاؤوا على قميصه بدم كذب لطخوه به فى غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب .

قال الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « قالوا أمرين كاذبين :

الأمر الأول : أنهم ذهبوا يتسابقون ، وتركوه عند متاعهم .

الأمر الثانى : أنهم قالوا : إن الذئب أكله ، وما أكله ذئب ، إنما أكله الحسد والحقد الدفين .

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرا ، وأنه سيصبر متحملا متجملا مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب .

وتعود الآيات سريعًا إلى يوسف فى الجب ، لقد كان الجب على طريق القوافل ، التى تبحث عن الماء فى مظانه ، فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون فى بعض الأحيان جافاً كذلك ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ وأرسلوا من يرد لهم الماء ، ويجد يوسف ، ويأسروه بضاعة ، وعزموا على بيعه رقيقاً ، ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار ثم باعوه بثمن قليل ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ ، لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه ، وقبل أن نسدل الستار على هذا المشهد من حياة يوسف عليه السلام نقف على بعض اللطائف والفوائد فى الآيات السابقة يقول القاسمى فى محاسن التأويل : قال المهايمى : إن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب ، وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، بمن يراعيه ، إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من الممكور به ، وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلاً يفعل الخيانة ، وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان وإن كان نبيّاً يُخلق أولاً على طبع البشرية وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا يُغنى من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصير .

وفى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى .

وقال المهايمى : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب ، وأنه ينتظر للشدة ، وأن من خرج لطلب شىء قد يجد ما لم يكن فى خاطره، وأن الشىء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه، وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة وبالعكس .

ونتابع مع السياق ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق ، ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير ـ والخير يتوسم فى الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح ـ فإذا هو يوصى به امرأته خيراً ، وهنا يبدأ أول خيط فى تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتى حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التى لا يقف لها إلا من رحم الله ، إنها محنة التعرض للغواية فى جو القصور ، وفى جو ما يسمونه الطبقة الراقية ، وما يغشاها من استهتار وفجور .. ويخرج يوسف منها سليماً معافى فى خلقه ودينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها .

لعل من لطائف إتيان قصة يوسف مرة واحدة سرد المحن التى تعرض لها يوسف عليه السلام ـ وهى عديدة ـ ليستبين لنا أن أكثر الناس ـ ابتلاء هم الأنبياء فالأمثل ثم الأمثل ، ولكن هذه المحن عندما يزيل ظلامها بريق الأمل ، وتنكشف يسعد صاحبها ولكنّ يوسف الصديق الذى وهبه الله المنحة بعد المحنة فتولى خزائن الأرض ليقى البلاد المحنة التى ألمت بها وبالأمم المجاورة ـ موطن إخوته وأبيه .

ولنر فى تلك القصة جوانب السمو فى الخلق النبوى عند يوسف عليه السلام ؛ إذا بعد حلول النعمة طلب من الله الوفاة ، وتلك خصائص النبوة وسجاياها فى أن تفضل ما عند الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لطف الله ورحمته وعنايته بأهل طاعته وأصفيائه من خلقه .

٢ ـ لا يغرنك بكاء المتظلم ، فرب ظالم وهو باك ، كما فعل إخوة يوسف .

٣ ـ آفة الكذب النسيان ، فقد وضع إخوة يوسف دم شاة على قميص يوسف ، ونسوا أن يمزقوه أو يخرقوه مما دل على كذبهم .

٤ ـ من غالب الله غُلب ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ
وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا
ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ
قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ
أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

الحزب ٢٤

معانى الكلمات :

راودته : تحايلت لمواقعته إياها .

هيت لك : أقبل ، أسرع .

معاذ الله : أعوذ بالله .

همّ بها : هم الطباع البشرية مع عصمة الله له من الخطأ .

استبقا الباب : تسابقا إليه يريد الخروج وهى تمنعه .

قدت قميصه : قطعته وشقته .

ألفيا سيدها : وجدا زوجها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بعصمة الله لأنبيائه ، وحفظه لهم من ارتكاب الفواحش .

٢ ـ أن نحذر خلوة غير المحارم فهى من خطوات الشيطان التى تفضى إلى انتهاك المحارم .

٣ ـ ألا ننساق وراء الإسرائيليات فى تفسيرها لقصة سيدنا يوسف .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن المحنة الثانية فى حياة يوسف عليه السلام ، وهى أشد وأعمق من المحنة الأولى ، تجيئه وقد أوتى صحة الحكم وأوتى العلم ـ رحمة من الله ـ ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذى سجله الله له فى قرآنه .

ويتحدث صاحب **الظلال** عن هذه المحنة قائلاً : « إن التجربة التى مر بها يوسف ـ لم تكن فقط فى مواجهة المراودة فى هذا المشهد الذى يصوره السياق ، إنما كانت فى حياة يوسف فترة مراهقته كلها فى جو هذا القصر ، مع هذه المرأة وهى بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصر ، وجو البيئة التى يصورها قول الزوج ، أما الحالة التى وجد فيها امرأته مع يوسف :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

وحتى لا نخوض فى التفاسير والآراء المتباينة فى قصة المراودة ورد الفعل نقول : إن النص صريح وقاطع فى أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبى ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود ، فلم تكن هناك استجابة فى أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق البواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذى يتجمل القرآن فى حكايته وروايته : « وقالت : هيت لك » .

وكانت نهاية الموقف النجاة بعد الاعتصام بالله فى النهاية عقبة النجاة مع عرض لحظات الضعف بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً .

فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يقول **صاحب الظلال** : « وهو نهاية موقف طويل من الإغراء بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة غالبًا ؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضًا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك » .

قال الزمخشرى فى الكشاف : « كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية قلت : لو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته » .

ويمضى السياق يستعرض الأحداث فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق وهى عدت خلفه لتمسك به ، وهى ما تزال فى هياجها الحيوانى ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ نتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وتقع المفاجأة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذى يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى ، ولكنها امرأة تعشق ، فهى تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون . ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ويجهر يوسف بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل ، وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته هذا النزاع .

وتعليقاً على عصمة الأنبياء يقول أبو السعود فى محاسن التأويل : « وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى » .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد ـ الذى حسم فى النزاع ـ أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قده من قُبل ، على الرغم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثَمَّ قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها .

وبعد ذلك فقد تبين لسيدها حسب الشهادة المبينة على منطق الواقع أنها هى التى راودت ، وهى التى دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية فى الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هى اليوم شاخصة .. رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع، وهذا هم المهم كله . وهكذا إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. فهى اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق.والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله فيما يشبه الثناء.. والتفاته إلى يوسف البرئ : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ فأهمله ولا تُعِرْه اهتماماً ولا تتحدث به، وهذا هو المهم .. محافظة على الظواهر ! وعظة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ .

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور فى طريقها . فهكذا تمضى الأمور فى القصور، ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . وما يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستوراً وبخاصة فى هذه الأوساط ، الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن ، ولأول مرة نعرف أن المرأة هى امرأة العزيز ، وأن الرجل الذى اشتراه من مصر وهو عزيز مصر ـ أى كبير وزرائها ـ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ عصمة الله ـ تعالى ـ لأنبيائه ، وحفظه إياهم من ارتكاب الفواحش والذنوب.

٢ ـ حرم الإسلام الخلوة بالنساء الأجنبيات وغير المحرمات » منعاً للفواحش وصيانة للأسرةوحفظاً للكرامة والشرف .

٣ ـ مقابلة الإحسان بالإحسان ، وعدم الخيانة لمن أكرمنا وائتمننا على ماله أو عرضه .

٤ ـ الحذر من الشيطان ووساوسه ، ومن النفس الأمارة بالسوء وشهواتها المحرمة .

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

٢٣٩

معانى الكلمات :

أكبرنه : دهشن برؤية جماله .

حاش لله : تنزيهاً لله عن العجز .

فاستعصم : فامتنع امتناعاً شديداً .

أَصْبُ إليهن : أميل إلى إجابتهن .

بدا : ظهر .

أعصر خمراً : أعصر عنباً يتحول لخمر أسقيه للملك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما كان من قبل نساء المدينة وما فعلته امرأة العزيز معهن .

٢ ـ أن نحذر من فتنة الجمال ؛ إذ هى أفظع فتنة يمر بها إنسان .

٣ ـ أن نستشعر همّ الدعوة إلى دين الله وإن كنا فى حالك الشدة .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات ما كان من قبل نساء المدينة ، وما فعلته امرأة العزيز معهن عندما سمعت بتشنيعهن عليها ، فقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها ، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة العليا ، فهن اللواتى يدعين إلى المآدب فى القصور ، وهن اللواتى يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا ، فأعدت لهن هذا المتكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى الطعام .

وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف فأمرته أن يخرج عليهن ليرينه فيعجبن برؤيته ، فيذهلن عن أنفسهن ويقطعن أيديهن بدل الفاكهة التى يقطعنها للأكل ، وبذلك تكون قد دفعت عن نفسها المعرة الملامة ، وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة

المفاجئة ، ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ ﴾ وهى كلمة تنزيه ، تقال فى هذا الموضع ، تعبيراً عن الدهشة بصنع الله ، ونفين عن يوسف ﷺ البشرية ، وأثبتن له الملكية لجماله .

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، فقالت فى استعلاء وعلى غير حياء ـ أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ، والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها ، وإن كان استعصى قياده مرة ، فهى تملك هذا القياد مرة أخرى ، قالت : فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب ، ولقد بهرنى مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام ، تريد أن تقول : إنه عانى الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ، وبالغ فى الامتناع والتحفظ ، ولا يزال مستزيداً منهما ، ثم قالت تتوعده إذا لم يفعل ما تطلب من إعطائها مرادها منه بالسجن ، وسيكون من المذلين المهانين مع السراق والسفاك فى السجن ، ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير أميراً ، فليكن فى السجن على الحصير حسيراً .

فلما سمع يوسف تهديدها ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ قال أبو السعود : « هذا فزع منه ﷺ إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخير إنه والنجاة من الشرور على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن ؛ بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت ، لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن فأجاب الله دعاءه ، وعصمه عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك ، والله تعالى يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء ، وهكذا اجتاز يوسف ﷺ محنته الثانية ، وظهر لهم من المصلحة بعد ما رؤوا الشواهد على براءته ، ليسجننه إلى زمان ؛ لإبداء عذر الحال ، وإرخاء الستر على القيل والقال ، وللإيهام أنهم سجنوه لأنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه لذلك .

وتأتى المحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة فى حياة يوسف ، وهى محنة السجن بعد ظهور البراءة والسجن للبرىء المظلوم أقسى ، وإن كان فى طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى » .

ودخل يوسف ﷺ السجن ، ودخل معه السجن بتقدير الله الخفى الذى يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق : فتيان مملوكان تبين فيما بعد أنهما من فتيان ملك مصر .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « هبطت الفتنة فى نفوس النسوة ، ولكن صداها كان يتردد بين الناس ، وخصوصا النساء ، وقد آمن الملك بحقيقتين : عفة يوسف ، وإغواء امرأته ، وانضم من كن يلمنها ، وتشايع الخبر فى المدينة ، فرأوا أن من حسن السياسة أن يسجن يوسف ليبعد عامل الاستهواء ، ولينس الناس هذه السيرة ...

وكان تأكيد السجن ؛ لأنه لم يكن منطقيا أن يسجن وهو البرىء ، ولكن لأنهم وجدوه إطفاء لهذه الشائعة التى هزت مقومات المجتمع، وأشاعت القول بالفاحشة .. عن أكبر سيدة فى مصر،

فكان التأكيد بالسجن ليقاوم منطق البراءة الذى يوجب الثناء وطيب الجزاء ، يدل العقاب ، والإلقاء فى غياهب السجن » .

ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف فى السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ووجعله موضع ثقة المسجونين ، وفيهم الكثيرون مما ساقهم سوء الطالع مثله فى القصر أو الحاشية،فغضب عليهم فى نزوة عارضة، فألقى بهم فى السجن ، يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف فى السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه ، فكل منهما قص عليه رؤيا رآها ، ويطلب كلاهما إليه تعبيرها، لما يتوسمانه فيه الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك ؛ فالساقى قد رأى أنه يعصر خمراً ـ يعنى عنبًا ـ والآخر هو الخباز ، رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً والطير تأكل منه .

قال صاحب الظلال : « وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية ويصبحون فراعين ، ويبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ؛ لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء ، وهو وآباؤه من قبله ، وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه » .

ويبدو فى طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله فى الحديث فى رفق لطيف ، وهى سمة هذه الشخصية البارزة فى القصة بطولها .

ويأتى التوكيد الموحى بالثقة بأن الرجل على علم لدنى ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى ، وهذا فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف ـ وهى كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ تجىء فى اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ، ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ، وليعلل بها هذا العلم اللدنى الذى سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه .

وهذا العلم أوحى الله به إلى يوسف وعلل هذا العلم فقال : إنى رفضت واجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ اللجوء إلى الله فى الشدائد ، والضراعة إليه عند الحاجة أدعى لاستجابة الدعاء .

٢ ـ عظمة بلاء الأنبياء وما أصابهم من شدائد ، وكل إنسان يبتليه الله على قدر دينه .

٣ ـ الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء أعظم أركان الإيمان

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ
سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

٢٤٠

معانى الكلمات :

صاحبى السجن : ساكنى السجن .

أرباب : آلهة .

سلطان : حجة وبرهان .

القيم : المستقيم ، أو الثابت بالبراهين .

ربه : سيده .

تستفتيان : تسألان عنه .

عجاف : مهازيل ضعاف جداً .

تعبرون : تعلمون تفسيرها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مقومات العقيدة التى قالها يوسف ﷺ فى هذه الآيات .

٢ ـ أن نؤمن بأن الحكم لا يكون إلا لله .

٣ ـ أن نتعلم فن الدعوة من يوسف ﷺ .

المحتوى التربوى :

يمضى يوسف ﷺ بعد بيان معالم الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التى يتبعها هو وآباؤه ، فهى ملة التوحيد الخالص الذى لا يشرك بالله شيئاً قط ، والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل فى متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه ، ففى فطرتهم أصوله وهواتفه ، وفى الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفى رسالات الرسل بيانه وتقريره ، ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه .

ثم يتوغل فى قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما .

ويرسم يوسف ﷺ بكلمات قليلة كل معالم هذا الدين ، وكل مقدمات هذه العقيدة ، إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة ، وهو لا يدعوهما إليه دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية .

ويبدأ بسؤال يهجم على الفطرة فى أعماقها ، **يقول صاحب الظلال** : « إن الفطرة تعرف لها إلها واحداً ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ إن الذى يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار ، ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر فى الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر فى حياة الناس ، وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا ، إن الرب لابد أن يكون إلها يملك أمر هذا الكون ويسيره ، ولا ينبغى أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره ، والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء .. » .

ثم يخطو يوسف ﷺ خطوة أخرى فى تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية ، فما هذه الأرباب سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله ـ ليست من الربوبية فى شىء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شىء .

وهنا يضرب يوسف ﷺ ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين : لمن ينبغى أن يكون السلطان ، لمن ينبغى أن يكون الحكم ، لمن ينبغى أن تكون الطاعة والعبادة ؟

فالحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ؛ إذْ الحاكمية من خصائص الألوهية ، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو حزب ، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعاً فى صورة منظمة عالمية ، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحا .

ويوسف ﷺ يجعل اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم ، فالعبادة ـ أى الدينونة ـ لا تقوم إذا كان الحكم لغيره ، ويقرر يوسف ﷺ أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيق لاختصاصه بالعبادة ـ هو وحده الدين القيم ، فلا دين قيما سوى هذا الدين ، ولكن أكثر الناس يجهلون العلم بهذا ، والذى لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه .

إن صاحب العقيدة الصحيحة إذا تمكنت منه ، وخالطت لحمه ودمه ووجدانه لا تمنعه المحن من أن ينشر دعوته ، فالسجن وهو ابتلاء شديد لم يعفه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة والأوضاع الفاسدة .

لقد شهد السجن انطلاق الدعوة ، وظهور نعمة الله فى تعبير للرؤى ، وتأكيد لبراءته .

يقول صاحب المنار : « ومن العجيب أن هذه الحقيقة التى بينها القرآن فى مئات من الآيات البينات تتلى فى السور الكثيرة بالأساليب البليغة ، صار بجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن ؛ فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله ، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا إليه جميع الأمم ، فهم يزعمون أن البشر نشؤوا على الأديان الوثنية حتى كان أول من دعاهم إلى التوحيد إبراهيم ﷺ من زهاء أربعة آلاف سنة،والقرآن حجة عليهم بتصريحه أن الله تعالى أرسل فى جميع الأمم رسلا دعوهم إلى التوحيد».

وإلى هنا يبلغ يوسف ما يريد من الدرس الذى ألقاه ، ثم يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقا به ، ولم يعين من هو صاحب البشرى ، ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء ، ولكنه أكد لهما الأمر واثقاً من العلم الذى وهبه الله له ، وقضى الأمر وهو كائن كما قضاه الله .

وقال يوسف ﷺ للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل وهو الساقى ؛ اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك عسى أن يخلصنى مما ظلمت به ، وشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك ، فمكث يوسف ﷺ فى السجن بضع سنين .

ولما دنا الفرج من يوسف ﷺبرحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى ملك مصررؤيا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك .

والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث : رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك وطلب تأويلها فى كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر وخارج مصر ، وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الخضوع لله وحده والدينونة لله وحده .

٢ ـ يجب أن يختار الداعية الوقت المناسب لدعوته ، وأن يكون المدعوون على حالة تؤهلهم لقبول الدعوة .

٣ ـ السعى فى الأسباب مطلوب إسلامياً ، ولا ينافى التوكل على الله .

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ
مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي
بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ
ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

٢٤١

معانى الكلمات :

أضغاث أحلام : تغاليطها وأباطيلها .

ادَّكر بعد أمة : تذكر بعد مدة طويلة .

دأبا : دائبين مستمرين .

فذروه : فاتركوه .

تحصنون : تخبئونه من البذور للزراعة .

يغاث الناس : ينزل المطر فتخصب أراضيهم .

يعصرون : ما يمكن عصره كالزيتون .

حصحص الحق : ظهر الحق وانكشف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على عجز الملأ ، وتفسير يوسف عليه السلام للرؤيا .

٢ ـ أن نتعرف على تبرئة يوسف عليه السلام .

٣ ـ أن نعلم أن الله جل وعلا جاعل لكل ضيق مخرجاً ، وأن من يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

المحتوى التربوى :

طلب الملك تأويل رؤياه ، فعجز الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم ، وصرف الحديث عنه ، فقالوا : إنها أخلاط أحلام مضطربة ، وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل ، أو أنها أحلام باطلة ولا تأويل لها ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة .

وهنا تذكر أحد صاحبيه فى السجن الذى نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف فى دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب ، هنا تذكر الرجل الذى أوّل له رؤياه ورؤيا

صاحبه ، فتحقق التأويل ، فقال للملك والذين جمعهم لذلك : أنا أخبركم بأمر هذه الرؤيا ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف الصديق إلى السجن ، فبعثوا فجاءه فقال : يا يوسف أيها الصديق ، وذكر المنام الذى رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف ﷺ ، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال : يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ؛ لأنها تثير الأرض التى تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر .

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين ، فقال : مهما استغللتم فى هذه السبع ـ السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله ؛ ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً لا تسرفوا فيه ؛ لتنتفعوا فى السبع الشداد ، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السمان ؛ لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء ، إلا قليلاً مما يحفظونه ويصونونه من التهامها .

ثم بشرهم بعد الجدب بعام رخاء يعقبهم بعد ذلك بالغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم ، من زيت ونحوه وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً .

وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ، فهو إذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف ، فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخىّ رغيد .

وينتقل السياق فجأة لنسمع رغبة الملك فى رؤية يوسف وأمره فى أن يأتوه به ، ونجد يوسف يرد على رسول الملك الذى لا نعرف : إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة ، أو رسولا تنفيذيا مكلفا بمثل هذا الشأن ، نجد يوسف السجين الذى طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحاً فى موقفه ، وتعلن براءته على الأشهاد من الوشايات والدسائس والغمز فى الظلام .

يقول صاحب الظلال : « لقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب فى قلبه السكينة والثقة والطمأنينة ، فلم يعد معجلاً ولا عجولا ، إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح فى الفارق بين الموقفين : الموقف الذى يقول يوسف فيه للفتى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، والموقف الذى يقول له فيه : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ والفارق بين الموقفين بعيد » .

وقال الفخر الرازى : واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه :

الأول : « إنه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة ، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة ...

الثانى : إن الإنسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة إذا طلبه الملك ، وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج وعرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا .

الثالث : عن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ؛ إذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفاً أن يذكر ما سبق .

الرابع : .. كان غرضه ﷺ من ذلك ألا يبقى فى قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جارياً مجرى التلافى لما صدر من التوسل إليه فى قوله : ﴿ ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليظهر أيضاً هذا المعنى لذلك الشرابى ، فإنه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا » .

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك يستجوبهن ، فقال مخاطبا لهن كلهن وهو يريد امرأة العزيز : ما شأنكن وخبركن إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ فقال النسوة جوابا للملك : حاشا لله أن يكون يوسف متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء .

وهنا تتقدم امرأة العزيز لتبرئ ساحته وتقول : إنه لصادق فى قوله من أمر مراودتى له ، وإنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى .

٢ ـ أهمية الادخار فى وقت اليسر والرخاء لأوقات العسر والشدة .

٣ ـ مكافأة المحسنين ، وتبرئة المظلومين ، وتقدير العلماء وأصحاب الفضل ، وشرعية دفاع المتهم عن نفسه ، والتقى الأمين لا يضيع الله سعيه .

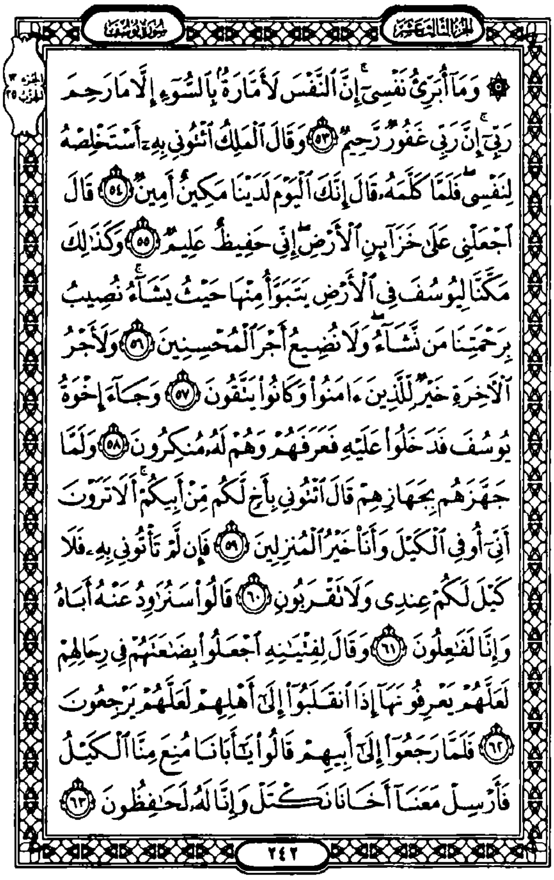
الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ
لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ
ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ
ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ
فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

٢٤٢

معانى الكلمات :

لأمارة : لكثيرة الأمر .

مكين : ذو مكانة رفيعة .

يتبوأ منها : يتخذ منها منزلا .

جهزهم بجهازهم : أعطاهم ما هم فى حاجة إليه .

سنراود عنه أباه : سنجتهد فى طلبه منه .

بضاعتهم : ثمن ما اشتروه من الطعام .

رحالهم: أوعيتهم التى فيها الطعام وغيره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على طلب يوسف الولاية من سلطة كافرة .

٢ ـ أن نعلم كيفية تمكين الله ليوسف عليه السلام فى الأرض ، والدلالات الإيمانية على ذلك .

٣ ـ أن نعرف ما جرى من أحداث بين يوسف عليه السلام وإخوته .

المحتوى التربوى :

ما زال السياق يتحدث عن امرأة العزيز وهى فى حضرة الملك تعترف بما فعلته فى حق يوسف عليه السلام وتقول : إنها لا تبرئ نفسها مع ذلك من الخيانة ، فإنها قد خانته حين فر منها ، وقالت ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ ﴾ وأودعته السجن ، وتريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس : ﴿ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف واستغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت .

وتبدأ مرحلة التمكين والرخاء والعز ، فلقد تبينت للملك براءة يوسف وتبين له معها علمه فى تفسير الرؤيا ، وحكمته فى طلب تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه وهو لا يتهافت على لقاء الملك وأى ملك ؟ ملك مصر ، ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى

سمعته ، المسجون ظلماً ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه .

كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه ، فطلبه الملك ليستخلصه لنفسه ويجعله بمكان المستشار والنجىّ والصديق .

يقول صاحب الظلال : « فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقو السراح ـ فيضعوا النير فى أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتوا على نظرة رضا وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء ، يا ليت رجالا من هؤلاء يقرؤون هذا القرآن ، ويقرؤون قصة يوسف ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادى ـ أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء » .

فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه ، فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفى أمان ، وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفى حماه ، وطالب يوسف عليه السلام بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء فى الأزمة القادمة التى أول بها رؤيا الملك،خيراً مما ينهض بها أحد فى البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلاداً من الخراب .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعا له ، وتحت أمره وطاعته ؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم ، وعن قتادة : هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه ، وإذا علم النبى أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع » .

ويقول صاحب الظلال : « وهنا تعرض شبهة : أليس فى قول يوسف عليه السلام : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أمران محظوران فى النظام الإسلامى :

أولهما : طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه » . (متفق عليه) .

وثانيهما : تزكية النفس ، وهى محظورة بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؟ ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت فى النظام الإسلامى الذى تقرر على عهد محمد رسول الله ﷺ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام ، والمسائل التنظيمية فى هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة فى كل رسالة وعلى يد كل رسول .

وقد نشأ الفقه فى مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع فى مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية ، كذلك لم يكن الفقه الإسلامى هو الذى أنشأ المجتمع المسلم ، إنما كان

المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى».

ومكن الله ليوسف فى أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء ، ويتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ، وأعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد بعد صبره على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، وما ادخره الله لنبيه يوسف ﷺ فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل .

وباشر يوسف ﷺ الوزارة بمصر ، ومضت السبع السنين المخصبة ، ثم تلتها سنين الجدب ، وعم القحط بلاد مصر بكاملها ووصل إلى بلاد كنعان ، وكان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب ﷺ عنده بنيامين شقيق يوسف ﷺ ، فلما دخلوا على يوسف عرفهم حين نظر إليهم ، وهم لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقوه وهو صغير فباعوه للسيارة .

ولما وفاهم كيلهم ، وحمل لكل واحد بعيره بعد أن أكرمهم غاية الإكرام ، ولا شك أنه قد سألهم عن أحوالهم فأخبروه عن أبيهم وأولاده بالتفصيل ، فقال : ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ، وقد رأيتم أننى أوفى الكيل للمشترين ، فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم،ورأيتم أننى أكرم النزلاء فلا خوف عليه ، بل سيلقى منى الإكرام المعهود . قالوا : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه .

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاؤوا بها .

ويبدو أنهم فى دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم ، فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم ، وهم يعدونه بحفظه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

٢ ـ ضرورة حسن اختيار ولى الأمر لكل إنسان للمكان المناسب له ، والإفادة من خبرة وكفاءة ذوى الخبرة والكفاءة .

٣ ـ أهمية الادخار فى حياة الأفراد.

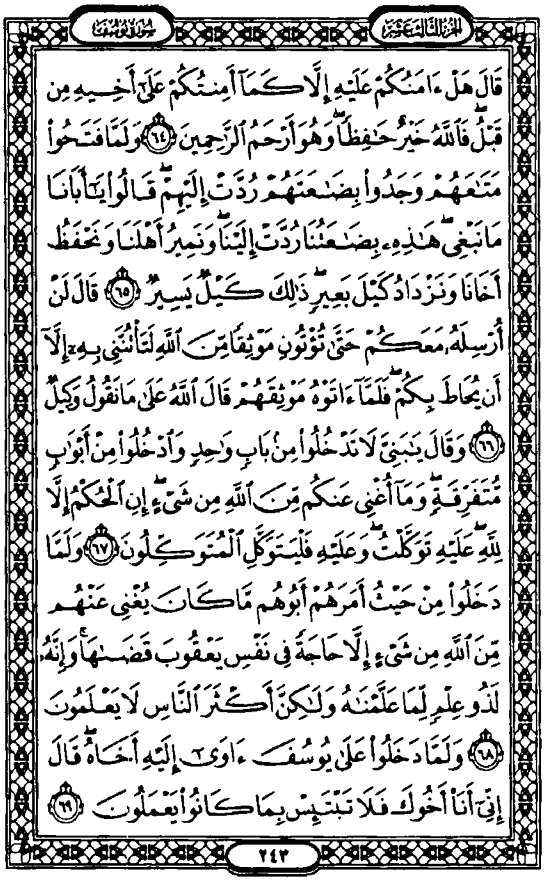
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
٢٤٣

معانى الكلمات :

أخيه : يوسف .

متاعهم : طعامهم أو رحالهم .

ما نبغى : ما نطلب الإحسان بعد ذلك .

نمير أهلنا: نجلب لأهلنا الطعام من مصر .

موثقا : عهدًا مؤكدا باليمين .

يحاط بكم : تهلكوا جميعاً أو تغلبوا .

آوى : ضم .

تبتئس : تحزن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم حسن التدبير من يوسف عليه السلام حتى يأتى بأخيه .

٢ ـ أن نعلم مدى ثقة يعقوب فى ربه عز وجل .

٣ ـ أن نعرف أن أخذ الحيطة أمر مطلوب .

المحتوى التربوى :

يبين السياق رد يعقوب على أولاده عندما رجعوا من مصر ، وطلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين فى المرة القادمة ، وإذا به يجهر بها أثاره وعدهم بحفظه من شجون فقال : فخلونى من وعودكم وخلونى من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدى والرحمة بى ، وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال ، فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها بعد أن أوفى لهم الكيل ، وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، واتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلا على أنهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين .

ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم ، ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم ، وهو ميسور لهم حين يرافقهم .

ويبدو من قولهم : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أن يوسف ﷺ كان يعطى كل واحد وسق بعير ـ وهو معروف ـ ولم يكن يبيع كل مشتر ما يريد ، وكان ذلك من الحكمة فى سنوات الجدب ، كى يظل هناك قوت للجميع : واستسلم الرجل على كره ، ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقى شرطاً ، أى لتقسمن لى بالله قسما يربطكم أن تردوا علىّ ولدى، إلا إذا غلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدى مدافعتكم عنه إذا أخذت المسالك كلها عليكم ، فأقسموا زيادة فى التوكيد والتذكير .

وقال لهم أبوهم : ألا يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة ؛ لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعس للحاكم فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد وزى متحد على بلد هم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد ، وكانت المدن وقتئذ مبوبّة لا ينفذ إليها من أبوابها ، وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع فى التنبه واتباع البصر . وقيل : ينهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، والله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ، فهذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، وحكم الله القدرى يمضى فى الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار ، وإلى جانبه حكم الله الذى ينفذه الناس عن رضا منهم واختيار ، وهو الحكم الشرعى المتمثل فى الأوامر والنواهى وهذا كذلك لا يكون إلا لله شأنه شأن حكمه القدرى الذى عنته هذه الآية .

وسار الركب ونفذوا وصية أبيهم ، فيم كانت هذه الوصية ؟ ثم قال لهم أبوهم : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ ؟

قال صاحب الظلال : « تضرب الروايات والتفاسير فى هذا وتبدىء وتعيد بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآنى الحكيم ، فلو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال ـ ولكنه قال فقط : ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ فينبغى أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظاً بالجو الذى أراده ، والجو يوحى بأنه كان يخشى شيئاً عليهم ، ويرى فى دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشىء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شىء ، فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه ، إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة ، فقد علمه الله هذا فتعلم : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال الإمام الفخر الرازى : « اعلم بأن الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى ، وأن الحذر لا ينجى من القدر ، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة ، ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ؛ ثم إنه مع ذلك ينبغى أن يكون حازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ، ولا يحصل فى الوجود إلا ما أراده الله ، فقوله عليه السلام : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، وقوله : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شىء سوى الله تعالى .

وقول القائل : كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين ؟ فهذا السؤال غير مختص به ، وذلك لأنه لا نزاع فى أنه لابد من إقامة الطاعات ، والاحتراز عن المعاصى والسيئات مع أننا نعتقد أن السعيد من سُعِد فى بطن أمه ، وأن الشقى من شقى فكذا هاهنا ، نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول فى النار ، مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى .

فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة ، وبعد ذلك السعى البليغ والجهد الجهيد ، فإنه يعلم أن كل ما يدخل فى الوجود فلابد أن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته .

ويخبر السياق بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه بنيامين . إما على الطعام ، أو فى المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، ولا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرص الآباء على الأبناء ، وحسن رعايتهم ونصحهم بما يضمن لهم الأمن والسلامة والسعادة .

٢ ـ الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب ويأخذ بها .

٣ ـ الحذر لا ينجى من القدر ، والحكم لله وحده .

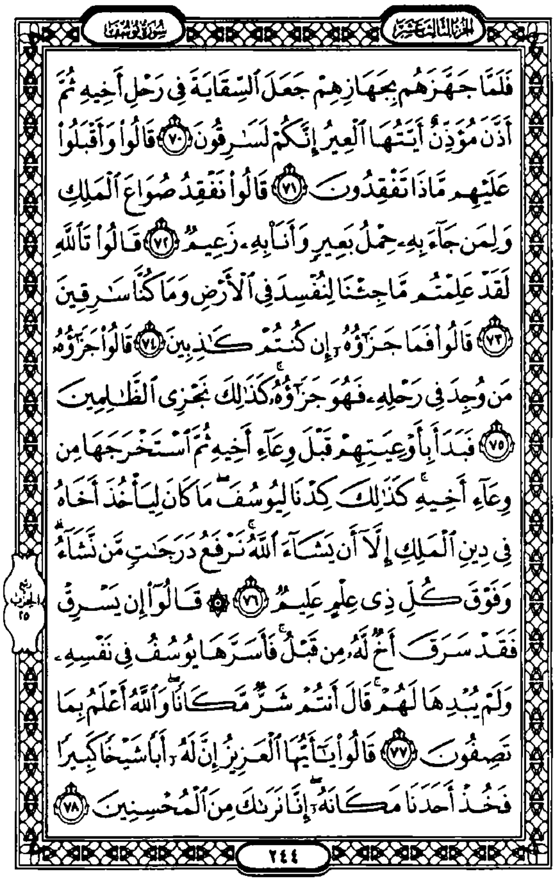

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢٤٤

معانى الكلمات :

السقاية : إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل .

أذن مؤذن : نادى مناد .

العير : القافلة فيها الأحمال .

صواع الملك : مكيال وهو السقاية .

زعيم : كفيل أؤديه إليه .

فهو جزاؤه : السارق جزاء المسروق .

كدنا ليوسف : دبرنا لتحصيل غرضه .

مكانه : بدلا منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حيلة يوسف ﷺ فى أخذه أخاه إليه .

٢ ـ أن نعلم مدلول الدين فى المفهوم الإسلامى .

٣ ـ أن نتعرف على كوامن الحق عند إخوة يوسف ﷺ.

المحتوى التربوى :

يطوى السياق فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير ، فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس فى كل زمان ومكان .

ومن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك ـ وهى عادة من الذهب ـ وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعة ، ثم ينادى منادٍ بصوت مرتفع ، فى صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون : ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة ـ

وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب ويسألون ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذى أذاع بالإعلان : ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا ، وهى مكافأة ثمينة فى هذه الظروف ، فهى حمل بعير من القمح العزيز : ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ أى كفيل أن أؤديه لمن جاء به ، فتعجبوا أن يرمى أمثالهم بمثل هذه التهمة ، مع ما دل عليه حالهم من أمانتهم ؛ إذ ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم كما تذكر التوراة الحالية ، لذلك قالوا : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا أنه ليس من سجايانا الإفساد والسرقة ، وما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف فقد كان المتبع فى دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل ما يسرق ، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق ، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه ، وقرروا جزاء السارق أخذه رقيقاً وهذا جزاء الظالمين بالسرقة لا غير .

وكان هذا الحوار على مرأى ومسمع من يوسف ، فأمر بالتفتيش ، وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه ، كى لا يثير شبهة فى نتيجة التفتيش ، وأخرج الصواع من رحل أخيه ؛ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاما لهم بما يعتقدونه .

ويخبر الله سبحانه بأن هذا ما دبره ليوسف عليه السلام ، فلم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر ، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة ، وليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا النص يحدد مدلول كلمة « الدين » ـ فى هذا الموضع تحديداً دقيقاً .. إنه يعنى : نظام الملك وشرعه ، ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه فى جزاء سرقته ، إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه، وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم، فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك فى رحل أخيه ، وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها الدين .

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعنى فى تصور الجماهير . إلا الاعتقاد والشعائر . ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعنى دائماً : الدينونة لله وحده بالتزام شرعه ، ورفض ما يشرعه غيره ، وإفراده سبحانه بالألوهية فى الأرض ، مثل إفراده بالألوهية فى السماء ، وتقرير ربوبيته وحده للناس : أى حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره ، وكان مفرق الطريق دائماً من هم فى دين الله ومن هم فى دين الملك ، أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه ، أو يشركون فيدينون لله فى الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله فى النظام والشرائع ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن بدهيات العقيدة الإسلامية تماما » .

ونعود إلى إخوة يوسف وقد حرك الحرج الذى يلاقونه كوامن حقدهم على أخى يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب ، فقالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ، وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا فى تعلات وحكايات وأساطير ، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم فى يوسف ، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التى تحرجهم ، وتبرؤوا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ، لقد قذفوا بها يوسف وأخاه .

وأسر يوسف هذه الفعلة وحفظها فى نفسه، ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه، إنما قال لهم : إنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف ـ وهى حقيقة لا شتمة ، والله هو العالم بحقيقة ما تقولون ، وأراد بذلك قطع الجدل فى الاتهام الذى أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع .

وقال الفخر الرازى فى قوله تعالى :﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ : أى أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه فى الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهمًا ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة .

ويمضى السياق وقد عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه ؛ عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم وتذكروا العهد الذى أخذوه على أنفسهم ، فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ، ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يرفع الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده درجات فى العلم .

٢ ـ مدلول الدين يعنى الدينونة لله فى كل شؤون الحياة .

٣ ـ جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الصلاح واستخراج الحقوق .

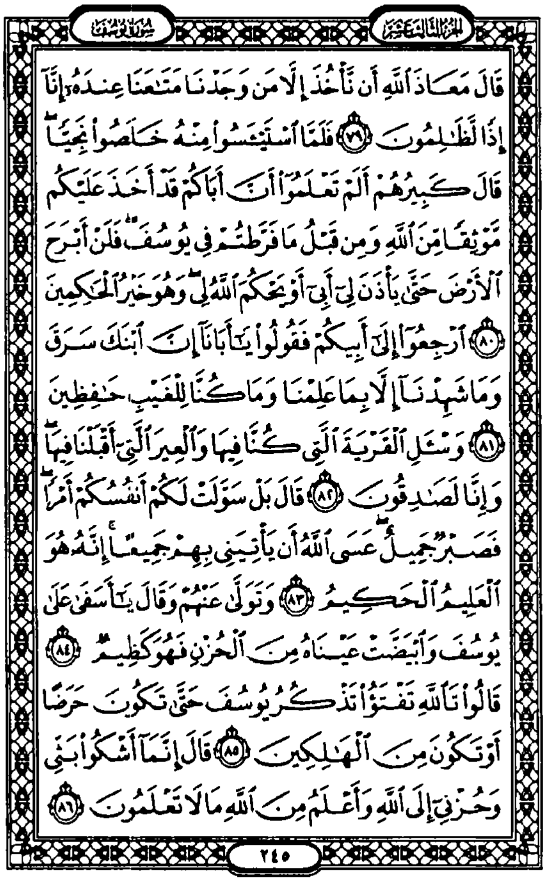

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٢٤٥

معانى الكلمات :

معاذ الله : نعوذ بالله معاذا ونعتصم به .

استيأسوا منه : يئسوا من إجابته .

خلصوا نجيا: انفردوا متناجين متشاورين .

فرطتم : قصرتم .

يا أسفى : يا حزنى الشديد .

ابيضت عيناه : أصابتهما غشاوة فابيضتا .

كظيم : ممتلئ من الغيظ .

حرضا : تصير مريضاً مقتربا من الهلاك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أمر المناجاة بين إخوة يوسف وما آل إليه .

٢ ـ أن نعلم أن القلب المؤمن مهما يُصب فله أمل لا ينقطع فى الله عز وجل .

٣ ـ أن ندرك قيمة الإيمان بالله عز وجل .

المحتوى التربوى :

يخبر السياق بأن يوسف ﷺ رفض عرض إخوته من أخذ أحدهم بدلا منه ، واستعاذ بالله أن يأخذ إلا من وجد المتاع عنده ، دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه ، وما نريد أن نكون ظالمين ، وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف ، وعرفوا ألا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه ويتناجون ، والسياق لا يكشف أقوالهم جميعاً ، إنما يثبت آخرها الذى يكشف عما انتهوا إليه ؛ فكبيرهم يذكرهم بالعهد المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل ،

ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليهما قراره الجازم : ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع .

قال أبو السعود : « وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذ بالله لما طلبوه ، الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل منه ، ومن تسميته ظلما » .

ويمضى السياق فيخبر عن كبيرهم أنه طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق فأخذ بما سرق ، ذلك ما علموه شهدوا به ، أما إن كان بريئا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب ، كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها ، وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة فى السنين العجاف .

واستنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر ، وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به ، ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به فى مواقع الخلاف .

ويطوى السياق الطريق بهم حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع فلا نسمع إلا رده قصيراً سريعاً ، شجيا وجيعا ، ولكنّ وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع ، ويقول الكلمة ذاتها يوم فقد يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه ، فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك ، فالله تعالى هو الذى يعلم حاله، ويعلم ما وراء الأحداث والامتحانات،ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج .

يقول صاحب الظلال : « هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته ، ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار » .

ويأتى السياق بالصورة المؤثرة للوالد المفجوع ، يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعته فى ولده الحبيب .. يوسف .. الذى لم ينسه ، ولم تهوّن من مصيبته السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل ، ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : كيف جاز لنبى الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ قلت : الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال : « إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون » .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

ويخبر السياق عن قولة أبناء يعقوب لأبيهم : تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى ، فيوسف ميؤوس منه قد ذهب ولن يعود .

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون .

يقول صاحب الظلال : « وفى هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل فى وجه هذا الواقع الثقيل ، إن هذا كله لا يؤثر شيئاً فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور وهذه قيمة الإيمان بالله » .

قال الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير: فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ « هذه الجملة تحوى فى نفسه كل الرجاء الذى يرجوه والأمل الذى يأمله ، وفيه دلالة على أنه يعلم أن الله كاشف كربه ، مزيل همه ، وهو من علم الله تعالى ، لا من علم أحد ، يعلمه بالإلهام أولاً ، وبرجائه فى الله ثانياً ، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثاً ، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين ، وتأويل الرؤيا أن يكون فى ظل يوسف ، وهو فى عز مكين ، وإن ذلك واقع لا محالة . وقد بنى على هذا الأمل ، وذلك الرجاء أن كلفهم بالبحث من يوسف وأخيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الحرص على رضا الوالدين ، فرضاهما من رضا الله عز وجل .

٢ ـ أهمية الصدق فى القول ، والدفاع عن النفس بالحق ، وفضيلة الرجاء فى الله وهى من صفات الإيمان .

٣ ـ الشكوى لغير الله مذلة ، والشكوى لله عزة ورجاء وقوة إيمان .

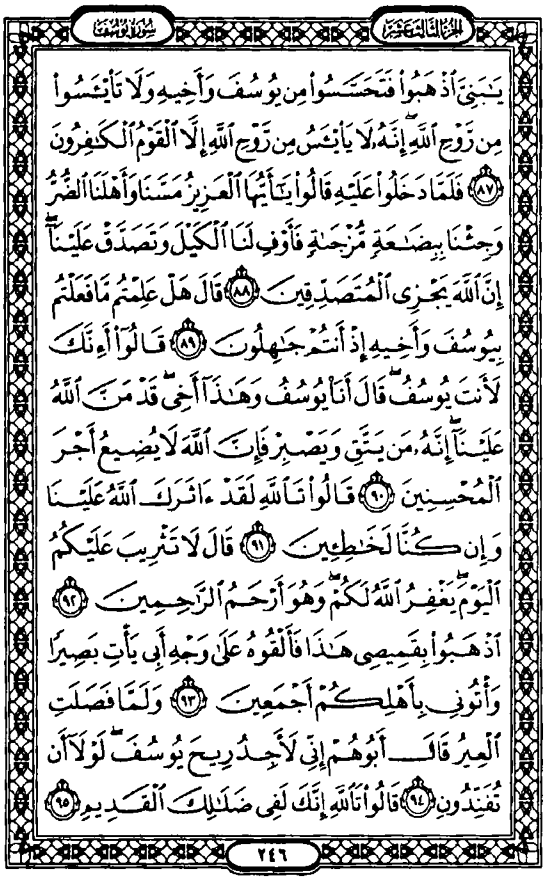

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥

٢٤٦

معانى الكلمات :

فتحسسوا عن يوسف : فتعرفوا من خبر يوسف .

روح الله : رحمته وفرجه .

الضر : الهزال من شدة الجوع .

ببضاعة مزجاة : بأثمان رديئة كاسدة .

آثرك : اختارك وفضلك .

لا تثريب : لا تأنيب ولا لوم .

فصلت العير : فارقت القافلة .

تفندون : تسفهونى أو تكذبونى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المؤمن فى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه .

٢ ـ أن نعرف أن النعمة ابتلاء كما أن الشدة ابتلاء .

٣ ـ أن نؤمن بأن الاعتراف بالخطأ فضيلة .

المحتوى التربوى :

يخبر السياق عن توجيه يعقوب عليه السلام إلى تلمس يوسف وأخيه ، وألا ييأسوا من رحمة الله فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائماً منظور ، فيقول لهم : ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ بحواسكم فى لطف وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته ، وكلمة روح فيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله الندى .

والمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ، ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق ، وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه ، وفى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو فى مضايق الشدة ومخانق الكروب .

يقول الفخر الرازى : « واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً ، والله أعلم » .

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاؤوا ببضاعة رديئة هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد ، يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يعهد فى أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام ، فقالوا : يا أيها الملك القادر الممتنع ، مسنا وأهلنا الشدة من الجدب ، وجئنا بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاره ، استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعا لهيبة الملك ، واستجلابا لرأفته وحنانه ، فأتمم لنا الكيل ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد، وتصدق علينا بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضا، والله يثيب المتصدقين أحسن المثوبة .

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى فى تمثيل دورالعزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته فقد انتهت الدروس ، وجاء وقت المفاجأة الكبرى ، فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله ، وقال يوسف مجيبا لهم : ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وكيف فرقتم بينه وبين أبيه وأخيه ، وما حملكم على هذا إلا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه .

ورن فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته ، ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر ، والآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير ، فيسألون : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ ويجيب فى مفاجأة : أنا يوسف ، ويذكرفى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء .

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا ، إليهم وقد أساؤوا ، حليما بهم وقد جهلوا ، كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم ، فاعترفوا بالخطيئة ، وأقروا بالذنب، وقرروا ما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان يقابله يوسف بالصفح والعفو ، وإنهاء الموقف المخجل شيمة الرجل الكريم ، وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة إنه كان من المحسنين ، فقال: لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم ، فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين .

ويعلق الشيخ محمد أبو زهرة على موقف إخوة يوسف فى زهرة التفاسير قائلا : « يشتد الإحساس بالخطأ إذ أظهرت النتائج غير الحسنة ؛ ولذلك أحس الإخوة بظلم ما فعلوا : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ .

قالوا مقسمين على حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن الله آثر بالفضل والإحسان والتوفيق يوسف ﷺ ، فقد أعطاه النجاة من الموت والرق ، وأعطاه السلطان على مصر ، خير بلاد الأرض تجاورهم ، فكان هو ملكًا عزيزا ، وهم دونه ، وأكدوا أن الله آثره ، بـ (اللام) ، و (ق) ، وبـ (القسم) .

الحقيقة الثانية : أنهم أحسوا بأنهم كانوا آثمين ؛ ولذا قالوا : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ ، ﴿ وَإِن ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وإنه الحال والشأن كنا لخاطئين ، والخاطئ هو الواقع فى الإثم ، أو الخطيئة ، وقد أكدوا إثمهم أولاً بـ (إنْ) المخففة من الثقيلة ، ﴿ كُنَّا ﴾ الدالة على استمرار خطئهم و (لام التوكيد) فى ﴿ لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ وهذا اعتراف خطير بالذنب ، وهو أول خطوات التوبة .

قال بعض المفسرين : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسىء إلينا وأن نحسن إليه ، ونصفى له الود ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية ، وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فإننا نحرم من الثواب الذى أعده الله للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ويحول الحديث إلى شأن آخر ، شأن أبيه الذى ابيضت عيناه من الحزن ، فهو معجل إلى تبشيره ، معجل إلى لقائه، معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، فأراد يوسف تبشير أبيه بحياته وتصديقه بإرسال حلة من حلله التى كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون فى مقابلة القميص الأول جالب الحزن وغشاوة العين ، والإلقاء على وجهه مبالغة فى تقريبه منه لما ناله من ضعف البصر ، فترجع إليه قوة بصره بانتعاش قلبه بشمه واطمئنان على سلامته ، وللمفرحات تأثير عظيم فى صحة الجسم ، وأمرهم بأن يأتوا بأهليهم أجمعين .

ولما خرجت العير من مصر قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تقولوا شيخ خرف لصدقتهم معى ما أجده من ريح الغائب البعيد يقول القاسمى : « كناية عن تحقق وجوده بما ألقى الله فى روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته ، وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى بنيه عن الاستيئاس من روح الله ، وإذا دنا أجل الضراء وأخذت تهب نسائم الفرج حاملة عرْفَ السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس فى نهاية الشدة زهرَ الفرج .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ عدم اليأس من رحمة الله ، ومحاولات البحث المتكررة عما نفقده من أشياء أو أشخاص .

٢ ـ طاعة الوالدين عبادة لله ، ورقة يوسف ﷺ وشفقته على أبيه وإخوته .

٣ ـ التقوى والصبر من أسباب النجاح ورفع الدرجات ، والرجوع إلى الحق فضيلة .

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ الحزب ٢٥
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

معانى الكلمات :

ارتد : رجع وصار .

آوى : ضم .

العرش : سرير الملك .

تأويل : تفسير .

نزغ : أفسد وأغرى .

فاطر : يا مبدع ومخترع .

أجمعوا أمرهم: عزموا على الكيد ليوسف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التبشير بالخير عنوان حياة المسلم وخطواته .

٢ ـ أن نعرف كيف يكون لقاء الأحبة .

٣ ـ أن نؤمن أن رؤيا الأنبياء حق .

المحتوى التربوى :

تقع المفاجأة ، مفاجأة القميص ، وهو دليل على يوسف وقرب لقياه ، ومفاجأة ارتداد البصر بعدما ابيضت عيناه ، وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه ، تلك التى حدثهم بها من قبل فلم يفهموه ، فقال : أعلم أن الله سيرده إلىّ، وعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ، وطلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة وعدهم بذلك . قال المهايمى : « صرحوا بالذنوب دون الله لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره ، وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربّى بها الكل » .

وفى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا ، وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلبا من غيره ، أو أنه أفضل وأقرب للإجابة مما عداه .

ويخبر تعالى عن ورود يعقوب على يوسف عليهما السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف ﷺ باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب ﷺ ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه وهو الأشبه ، والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما فى مركبه .

قالوا : وعنى بأبويه والده وخالته وكانت أمه قد ماتت قديما وهى نفساء بأخيه بنيامين ، وتنزيل الخالة منزلة الأم، بكونها مثلها فى زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب .

يقول صاحب الظلال : « ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام ، وبعد اليأس والقنوط ، وبعد الألم والضيق ، وبعد الامتحان والابتلاء ، وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد ، يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع ، ويا له من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة ، ذلك فى ضمير الغيب ، وهذا فى واقع الحياة ، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه » .

قال بعض اليمانيين : « يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه على حسن التعظيم باللقاء وكذا يأتى مثله فى التشييع ، ومنه ما روى فى تشييع الضيف .. ويستدل مما روى أن رفعهما على العرش ـ وهو السرير الرفيع ـ جواز اتخاذه ، ورفع الغير تعظيما للمرفوع ، ويستدل من قوله : ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدينة ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية .. وفى الحديث : « من بدا جفا » أى : من حل بالبادية ، وفى آخر : « إن الجفا والقسوة فى الفدادين » ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن » .

ويذكر السياق قول يوسف ﷺ : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أى : من القحط وأصناف المكاره ، وأجلس أبويه معه على سرير ملكه تكريما لهما، وسجد له أبوه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشرـ تحية وتكرمة له ، وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندهم .

ويتذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه فى سجود إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذى يجلس عليه ـ كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، قد جعلها الله صدقا مطابقا للواقع فى الحس ، ويذكر نعمة الله عليه وقد أحسن به إذ نجاه من العبودية ، وجعل الملك مطيعا له مفوضا إليه خزائن الأرض ، وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، وفخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر ، وفيه إشارة إلى النعمة فى الانطلاق من الحبس .

ويذكر يوسف عليه السلام من نعمة ربه أنه جاء بهم من البادية وقد كانوا أصحاب مواش من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى بالحسد ، والنعمة بعد البلاء أحسن موقعا ، ويقول عليه السلام : إن ربى لطيف التدبير والرفق بى ، وهو العليم بوجوه المصالح والحكيم فى أفعاله وأقضيته .

ويتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر ، كل دعوته وهو فى أبهة السلطان ، وفى فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين ، بعد أن أتاه المكانة والسلطان والمال وذلك من نعمة الدنيا ، وعلمه تأويل الأحاديث بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها وذلك من نعمة العلم .

وهكذا يتوارى كل شيء ويبدو مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

وهذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم ، بل من الغيب الذى لا يعلموه ، ويقول الله عز وجل لرسوله ﷺ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك ، وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذى تحدثت عنه القصة فى مواضعه، ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحى وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التى تحرك القلوب أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

يقول الشيخ أبو زهرة : نبأ يوسف تسلية لابن عمه محمد ﷺ يتسلى به إذ يرجو النصر ، وإن كان الشرك هو الظاهر ، عفهذا غلام ملقى فى الجب ثم يباع ويشترى ، وتنكشف الأمور بعد سجنه عن ملك عادل يسوس أخصب أرض الشرق نماء وثروة ، إن من يحكم الأمور بتدبيرها ليس ببعيد عليه أن يخرجك من وسط بأس قومك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، والأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله بل هو من شروطه .

٢ ـ الاعتراف بالخطأ والاستغفار من الذنب .

٣ ـ طلب الدعاء من الوالدين ، واستجابة الله تعالى لدعاء الوالدين لأبنائهما .

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى
إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

٢٤٨

معانى الكلمات :

غاشية : عقوبة تغشاهم وتحيط بهم .

بغتة : فجأة .

بصيرة : حجة واضحة .

استيأس الرسل : يئسوا من النصر لطول المدة .

بأسنا : عذابنا .

عبرة : عظة وتذكرة .

يفترى : يختلق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال الناس مع آيات الله .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله فى رسالاته .

٣ ـ أن نتعلم بعض العبر من إيراد القصص القرآنى .

المحتوى التربوى :

لقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه ، رغبة فى إيصال الخير الذى جاء به إليهم ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة ، ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهى إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ؛ لأنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين ، فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة فى الآفاق ، وإنك لغنى عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية ، وإن شأنهم فى الإعراض عنها لعجيب ، وهى تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل ، تذكرهم بآيات الله وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم وهى مبذولة للعالمين .

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة فى تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر فى السموات وفى الأرض ، يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف

النهار وهى ناطقة تكاد تدعو الناس إليها ، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ، ويمرون عليها ولا يلتفتون إليها ، لذلك لا يؤمن الأكثرون .

وما المراد بالناس هنا ؟ أراد بهم العرب قبل ظهور الإسلام أم الناس أجمعون ؟ لا مانع من إرادة أحد العرضين أو إرادتهما معا بمعنى شمول الكلمة لكل ما تدل عليه من ناس : عرب وعجم .

وحتى الذين يؤمنون كثير منهم يتدسس الشرك إلى قلوبهم ، فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفى عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وتدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره ، فإنها تشير إلى ما يتخلل الأفئدة ، ويتغمس به الأكثرون من الشرك الخفى الذى لا يشعر صاحبه به غالبا ، والرياء كله شرك ، ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقا كما يحب الله .

وما الذى ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة فى صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التى لا يسألون عليها أجراً ؟ ماذا ينتظرون ؟ أيأمن هؤلاء عاقبة هذه الغفلة ، فإن عذاب الله الذى لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تشملهم وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون .

والدعوة إلى الإيمان والتوحيد هى طريق محمد ﷺ يدعو إلى دين الله وتوحيده ومعرفته بصفات كماله ، ونعوت جلاله بالحجة الواضحة الغير عمياء ، وسيرة أتباعه ﷺ الدعوة إلى الله، ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعاليمه ، وقال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة ، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها ، ويزيد بيانا للأمور التى يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حين يسأل عن شىء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال ، والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين علماوعملا ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعم الهلاك ، ويعظم البلاء .

ويلفت السياق إلى سنة الله فى رسالاته ، وإلى بعض آيات الله فى الأرض من مصائر السابقين ، ومحمد ﷺ ليس بدعا من الرسل ، ورسالاته ليست بدعا من الرسالات ، وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة فى الأرض ، والنظر فى آثار الغابرين يهز القلوب حتى قلوب المتجبرين ، ولحظات الاسترجاع الخيالى لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ، وتصورهم أحياء يروحون فى هذه الأمكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون ، ثم إذا هم ساكنون لا حس ولا حركة ، ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين

والحين ليدركوا أن مصيرهم كمصيرهم وأن سنة الله الواضحة الآثار فى آثار الغابرين ستنالهم ، وأن عاقبتهم فى هذه الأرض إلى ذهاب والدار الآخرة خير من هذه الدار التى ليس فيها قرار ، فتدبروا سنن الله فى الغابرين ؟ حتى تعقلوا فتؤثرون المتاع الباقى على المتاع القصير .

يقول صاحب الظلال : « الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف أيضًا ، ومن ثم لا تنضم إليها إلا الصفوة المختارة فى الجيل كله التى تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بعد جهاد يطول أو يقصر ، وعندئذٍ فقط تدخل الجماهير فى دين الله أفواجًا .

ثم يصور ساعات الحرج القاسية فى حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التى يتحقق فيها وعد الله وتمضى فيها سنته التى لا تتخلف ولا تحيد ، إنها صورة ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق فى حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود ، وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل فى قوته ، إنها ساعات حرجة والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر ، والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم فى هذه الأرض ، وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أى كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ، وهى سنة الله فى الدعوات ، لابد من الشدائد ، ولابد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة ، ثم يجىء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التى يتعلق بها الناس ، ولا يرد عذاب الله عن القوم الكافرين إذا نزل بهم .وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن ، وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس ، ثم كانت العاقبة خيرًا للذين اتقوا ، وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب ، فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى ، فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة .

وفى محاسن التأويل : تأمل هذه القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معوّل عليها ، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويا :

١ ـ الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك وهو واحد لا شريك له .

٢ ـ الدعوة إلى الله طريقة الرسول ﷺ وسيرة أتباعه .

٣ ـ فى قصص القرآن تسلية لأصحاب الدعوات ، وتثبيت للقلوب ، وعظة لمن يتعظ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

سورة الرعد

معانى الكلمات :

بغير عمد : بغير دعائم وأعمدة تقيمها .

يدبر الأمر : يصرف العوالم كلها بقدرته وحكمته .

مد الأرض : جعلها منبسطة .

رواسى : جبالا ثوابت .

زوجين : نوعين وصنفين .

قطع : بقاع مختلفة الطبائع والصفات .

نخيل صنوان : نخلات يجمعها أصل واحد .

الأغلال : الأطواق من الحديد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بوجود الله تعالى ووحدانيته .

٢ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرته تعالى . فى الأرض والإنسان .

٣ ـ أن نعلم أن من مقتضيات القدرة بعث الناس ومرجعهم إلى الخالق .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحى بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه ، وتلك هى قاعدة بقية القضايا من توحيد لله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح فى الحياة ، فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحى من عنده سبحانه إلى رسوله ﷺ .

وتقدم الكلام عن الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة وصياغة القرآن من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحى الله ، لا من عمل مخلوق كائنًا من كان ، ويكون قوله : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ ومراداً به القرآن كله ، أى هو الحق البالغ فى اتصافه بهذه

الصفة ، فالقرآن كله حق ، وهو منزل من الله على محمد ﷺ ، ومع هذا فإن أكثر الناس لا يؤمنون بأن هذا القرآن من عند الله أنزله على محمد عبده ورسوله ﷺ.

ويبدأ السياق فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحى لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس ، وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم ، وبدأ الكون كله قبلهم ، وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم .

ويخبر سبحانه عن كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه الذى بقدرته رفع السموات عن الأرض ارتفاعا لا ينال ولا يدرك مداه ، والسموات أيا كان مدلولها وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها فى شتى العصور معروضة على الأنظار ، هائلة ـ ولا شك ـ حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة ، وهى هكذا لا تستند إلى شيء مرفوعة بغير عمد مكشوفة ترونها ، وهذه هى اللمسة الأولى فى مجال الكون الهائل وهى بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنسانى ، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد ـ أو حتى بعمد ـ إلا الله .

ومن هذا المنظور الهائل الذى يراه الناس إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك ، والأبصار ، ثم استولى عليه بالحفظ والتدبير أو استوى أمره ، أو أقبل على خلق العرش ، وهو يُمرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، وهى لمسة فى العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى فى العلو المنظور .

ومن هذا الاستعلاء المطلق إلى التسخير ، تسخير الشمس والقمر ، وتسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة ، فذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفلى ، وكل يجرى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، والاقتصار على الشمس والقمر ؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرهما ، فتسخير غيرهما يكون بطريق الأولى ، والأمر كله على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ومن تدبير الأمر أنه يفصل الآيات وينظمها وينسقها ، ويعرض كلاً منها فى حينه ، ولعلته ، ولغايته ، وهذا التدبير والتقدير والإحكام ، ذلك كله يوحى بأن لابد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ؛ لتقدير أعمال البشر ومجازاتهم عليها ، فذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير .

وبعد ذلك يهبط الخط التصويرى الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى، والخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه ، لا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته ، إنما هى مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة ، ثم يرسم خط الرواسى الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية فى الأرض ، ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك ،

وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض من كل صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف .

وتتمثل الثانية فى ظاهرتى الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشى ذاك فى انتظام عجيب ، هو ذاته مثار تأمل فى مشاهد الطبيعة ، والنظام الدقيق الذى لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل فى ناموس هذا الكون ، وتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه وهذا كله آيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لابد له من قادر حكيم.

وهناك فى الأرض بقاع مختلفة يجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً ، وفيها بساتين كثيرة من العنب ، وفى هذه البقاع أنواع الزروع والحبوب ، والنخيل منها ما ينبت منه من أصل واحد (نخلتان فأكثر) ومنها ما ينبت من نخلة واحدة ، والكل يسقى بماء واحد ، والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفة الطعوم ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار ، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد .

فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ **يقول صاحب الظلال** : « من منا لم يذق الطعوم مختلفات فى نبت البقعة الواحدة ، فكم منا التفت هذه اللفتة التى وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدًا أبدًا ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون والنفس ، وهى لا تنفد ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود » .

ثم يخاطب الله عز وجل النبى ﷺ بأنك إن كنت تعجب من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه والذى خلق هذا الكون قادر على إعادة الأناسى فى بعث جديد ، إنما هو الكفر بربهم الذى خلقهم ودبر أمرهم وإنما هى أغلال العقل والقلب ، فالجزاء هو الأغلال فى الأعناق ، والجزاء هو النار خالدين فيها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القرآن الكريم هو الحق الذى لا يحتمل الشك والتردد .

٢ ـ الكون وما فيه يشهد على وجود الخالق المبدع الحكيم ، وكل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى .

٣ ـ الله تعالى قادر على إحياء الإنسان بعد موته لمحاسبته ومجازاته .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٢٥٠

معانى الكلمات :

المثلات : العقوبات الفاضحات لأمثالهم .

آية : معجزة .

ما تغيض الأرحام : ما تنقصه أو تسقطه .

سارب : ذاهب فى طريقه ظاهرًا .

معقبات : ملائكة يعقب بعضهم بعضا .

من وال : من ناصر .

السحاب الثقال : المحملة بالماء والمثقلة به .

شديد المحال:المكايدة أو القوة أو العقوبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف الكافرين المستهزئين بالرسول وإنذاره مستعجلين نزول العذاب .

٢ ـ أن نعلم بعض مظاهر قدرة الله عز وجل فى البرق والسحاب والرعد .

٣ ـ أن نؤمن أن دون تغيير للنفس لا يطمع الإنسان بأحسن ، ودون تغيير لأنفس الأمة لا تطمع الأمة بأحسن .

المحتوى التربوى :

هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلقا جديداً وعجبهم هذا هو العجب ، هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله بدلا من أن يطلبوا هدايته ويرجو رحمته ، وكما أنهم لا ينظرون فى آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة فى السماء والأرض ، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ، وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم .

وهم فى غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بنى البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر ، والله بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة ، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة ، ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجون ، ولا يلجون من الباب المفتوح ، والسياق يقدم هنا

مغفرة الله على عقابه ، فى مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية ، ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذى يريده الله لهم ، والشر الذى يريدونه لأنفسهم .

ثم يمضى السياق فى التعجيب من أمر القوم ، الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية ، فيطلبون آية واحدة ينزلها الله على رسوله ، آية واحدة والكون حولهم كله آيات ، إنهم يطلبون خارقة ، والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه إنما يبعث بها الله معه حين يرى بحكمته أنها لازمة والرسول ﷺ ما هو إلا منذر ومحذر ومبصر ، وقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية ، أما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد .

وتبدأ جولة جديدة فى الأنفس والمشاعر والأحياء ، ويذهب الخيال يتتبع كل أنثى فى هذا الكون المترامى الأطراف ، كل أنثى ، كل أنثى فى الوبر والمدر فى البدو والحضر ، فى البيوت والكهوف والمسارب والغابات، ويتصور علم الله مطلا على كل حمل فى أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد فى تلك الأرحام ، وكل شىء عند الله بقدر وحدٍّ لا يجاوزه حسب قابليته ، وقد خص الله كل مكوَّن بوقت وحال معينين ، وهيأ لوجوده وبقائه أسبابا مسوقة إليه تقتضى ذلك ، ويذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب ظاهر . فى هذا الكون الهائل ، ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار ، والحفظة من الملائكة التى تتعقب كل إنسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتى هى من أمر الله لا يتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف أكثر من أنها ﴿ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ فلا نتعرض نحن لها : ما هى ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذى هو المقصود هنا وقد جاء التعبير بقدره .

ويلوح السياق بوعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسنته القويمة ؛ حل بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهى قوتهم ويسلط عليهم عدوهم .

قال القاشانى :لابد فى تغيير النعم إلى النقم من استحقاق جلى أو خفى .

يقول صاحب الظلال : « وإنها لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم ، والنص صريح لا يحتمل التأويل ، وهو يحمل كذلك ـ إلى جانب التبعة ـ دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه » .

وبعد تقرير هذا المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما بقوم إلى السوء ؛ لأنهم ـ حسب المفهوم من الآية ـ غيروا ما بأنفسهم إلى أسوأ فأراد لهم الله السوء .

ثم يأخذ السياق فى جولة جديدة فى واد آخر تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق ، ولما خوف تعالى العباد بإنزال ما لا مرد له ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان ، وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس وسواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئا ، والسياق يحشدها هنا ، ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعوة الحق الدعاء الذى لا يستجاب .

ويضم هيئة أخرى : هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطا كفية ليبلغه فاتحا فاه يتلقف منه قطرة ، هذه كلها لا تتجمع فى النص اتفاقا أو جزافا ، إنما تتجمع لتلقى كلها ظلالها على المشهد ، وتلفه فى جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع فى سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفيا للشركاء المدعاة ، وإرهابا من عقبى الشرك بالله .

ويخبر الله تعالى أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب ، خوفا للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ، ويطمع فى رزق الله ، والله عز وجل هو كذلك الذى ينشئ السحاب الثقال بالماء ، فوفق ناموسه فى خلقه هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار .

والرعد الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق ، والرعد هذا الصوت المقرقع المدوى ، ويرسل الصواعق نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر فى آخر الزمان ، ويكمل جو الرهبة .

والعجيب أنه فى هول البرق والرعد والصواعق ، وفى رحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه ، فى هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل فى الله صاحب كل هذه القوى ، وباعث كل هذه الأصوات التى ترتفع على كل جدال وكل محال والله شديد الأخذ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - من رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يعجل بعقابهم كما طلبوا .

٢ - إن الله لا يغير أحوال قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

٣ - لا يخفى على الله شىء وكل شىء عنده بمقدار وبأجل .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى
ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

سجدة

معانى الكلمات :

دعوة الحق : كلمة التوحيد .

لله يسجد : لأمره تعالى ينقاد ويخضع .

الغدو : أول النهار ، جمع غدوة .

الآصال : آخر النهار ، جمع أصيل .

زبداً : هو الغثاء (الرغوة) الطافى عند إذابة المعادن .

جفاء : مرميا به مطروحا أو متفرقا .

بئس المهاد : بئس الفراش والمستقر جهنم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن دعوة الله هى الحق ، وكل المخلوقات تسجد لله طوعا وكرها .

٢ ـ أن نؤمن بأن الله وحده هو مالك كل شىء .

٣ ـ أن نتيقن أن الحق هو الباقى فى الأرض والباطل ما يلبث أن يذهب ويزول .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن دعوة الله هى وحدها الحق ، وما عداها باطل ذاهب ، لا ينال صاحبه منه إلا العناء ، والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف ، فدعوة واحدة هى الحق ، وهى التى تحق ، وهى التى تستجاب ، إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه ، وما عداها باطل وما عداها ضائع ، وما عداها هباء ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟

انظروا هذا واحد منهم ، ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه ، وفمه مفتوح يلهث بالدعاء ، يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه ، وما هو ببالغه بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء ، وفى أى جو لا يبلغ هذا الداعى اللاهف

اللاهث قطرة من ماء ؟ فى جو البرق والرعد والسحاب الثقال ، التى تجرى هناك بأمر الله الواحد القهار .

وفى الوقت الذى يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء إذ كل من فى الكون يعنو لله ، وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته، مسيرون وفق ناموسه، المؤمن منهم يخضع طاعة وإيمانا، وغير المؤمن يخضع أخذاً وإرغاما ، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذى سنه للحياة ، فلا ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل طائعين وكارهين ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تنصب على مشيئته فى الامتداد والتقلص والفىء والزوال .

وفى جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية ، فما يجدر بالمشرك بالله فى مثل هذا الجو إلا التهكم، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء ، ويقرر الله تعالى أنه لا إله إلا هو ؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ، ولا لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضراً ، فهل يستوى من عبد هذه مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له ، فهو على نور من ربه ؟

يقول صاحب الظلال : « والفرق بين الحق والباطل واضح : وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور ، وفى ذكر الأعمى والبصير إليهم وإلى المؤمنين ، فالعمى وحده هو الذى يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذى يحس بأثره كل من فى السموات والأرض.

ثم نمضى مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح للخير الهادئ والشر المتنفج ، والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار ، ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء ؛ فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع ، وبالمعدن الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة ، وأن ذلك ماكث فى الأرض باق بقاء ظاهراً ، يثبت الماء فى مناقعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار .

وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله ، وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن ، فإنه ـ وإن علا وارتفع وانتفخ إلا أنه أخيراً يضمحل ، وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم ، إلا أنها فى الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شىء من الشبهات ؛ لأنه لا بقاء إلا للنافع وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه .

وقال النسفى : « قال الجمهور : وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب، والحق والباطل، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأدوية للقلوب ، ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافى المنتفع به مثل الحق ، فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء ، كذلك تذهب هواجس النفس ويبقى الحق كما هو .

وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية ، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص ، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب ، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب ، وبعضها آلة الدفع فى الحرب ، وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل » .

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال ويؤلف جانبا من المشهد الكونى العام المذكور فى السورة ، وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار ، وأن تسيل هذه الأودية بقدرها كل بحسبه ، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء .

والذى ورد فى الآية كما يقول صاحب الظلال : « مثل الحق والباطل فى هذه الحياة فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا ، ولكنه بعد زبد أو خبث ، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه ، والحق يظل هادئا ساكنا ، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقى فى الأرض كالماء المحيى والمعدن الصريح ينفع الناس ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ، وكذلك يقرر مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات ، ومصائر الأعمال والأقوال ، وهو الله الواحد القهار المدبر للكون والحياة ، العليم بالظاهر والباطن ، والحق والباطل والباقى والزائل .

فمن استجاب لله فله الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما فى الأرض ومثله معه أن يفتدى به ، وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذى يسوء ، وإنما هى جهنم لهم مهاد وبالسوء المهاد !

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المشركون الذين يعبدون مع الله آلهة غيره لا ينتفعون بهم أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة .

٢ ـ كل شىء فى ملك الله خاضع لسلطانه، يسجد له طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين .

٣ ـ الحق الثابت باق نافع مثمر ؛ والباطل زائل لأنه حقير لا قيمة له ولا دوام .

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

معانى الكلمات :

يتذكر : يتعظ .

ابتغاء : طلب .

يدرؤون : يدفعون ويجازون .

عقبى الدار : عاقبتها المحمودة وهى الجنات .

سوء الدار : عاقبتها السيئة وهى النار .

يقدر : يضيقه على من يشاء لحكمة .

متاع : شىء قليل ذاهب زائل .

أناب : رجع بقلبه إلى الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المؤمن يبصر ويعلم ويعمل ، والكافر ميت أعمى لا يعلم ولا يعمل .

٢ ـ أن نعلم أن الغنى والفقر يقعان حسب علم الله تعالى امتحانا وابتلاء .

٣ ـ أن نعرف فضل ذكر الله وسكون القلب إليه .

المحتوى التربوى :

بعد المشاهد الهائلة فى آفاق الكون وفى أعماق الغيب ، وفى أغوار النفس يأخذ السياق فى لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد .

ويبدأ السياق بلمسة فى طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثانى عمى . وفى طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء ، فالمقابل لمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم ، إنما المقابل هو الأعمى ، وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب وتجسيم الفروق ، وهو الحق فى الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف ، فالعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى ،

والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ، والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك، واستخلاق القلوب،وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع، ويتعظ بمثل هذه المقارنة الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر .

ويصف الله تعالى أصحاب العقول والقلوب المدركة بأنهم يوفون بعهد الله ، وعهد الله مطلق ـ يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق ، والعهد الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان وتترتب على العهد الإلهى والميثاق الربانى كل العهود والمواثيق مع البشر، سواء مع الرسل أو مع الناس ، ذوى قرابة أو أجانب ، أفراداً أم جماعات ، فالذى يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود ، وهذه هى القاعدة الضخمة الأولى التى يقوم عليها بنيان الحياة وكله يقررها فى إجمال ؛ فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه ، فهى الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة ، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء .

ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب فى نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة ، فهى خشية الله ومخافة العقاب الذى يسوء فى يوم لقائه الرهيب ، وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب ، وهم الصابرون .

يقول صاحب الظلال : « والصبر ألوان ، وللصبر مقتضيات ، صبر على تكاليف الميثاق من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد .. إلخ ، وصبر على النعماء والبأساء ، وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ، وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم ، وهى تضيق الصدور .. وصبر وصبر وصبر كله ابتغاء وجه ربهم ، لا تحرجاً من أن يقول الناس : جزعوا ، ولا تجملا ليقول الناس : صبروا ، ولا رجاء فى نفع من وراء الصبر ، ودفعا لضر يأتى به الجزع، ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله ، والصبر على نعمته وبلواه ، صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضا والاقتناع .. » .

وإقامة الصلاة داخلة فى الوفاء بعهد الله وميثاقه،ولكنه يبرزها ؛لأنها الركن الأول لهذا الوفاء ، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله ، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه.

والإنفاق سرا وعلانية فرضا ونفلا داخل فى وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وفى الوفاء بتكاليف الميثاق ، ولكنه يبرزها ؛ لأنها الصلة بين عباد الله ، التى تجمعهم فى الله وهم فى نطاق الحياة ، والتى تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس آخذها من الغل ، وتجعل الحياة فى المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله ، وفى الإنفاق سراً وعلانية ،

السر حيث تصان الكرامة وتطلب المروءة ، وتتحرج النفس من الإعلان ، والعلانية حيث تطلب الأسوة وتنفذ الشريعة ويطاع القانون ، ولكل موضعه فى الحياة .

وأولو الألباب يقابلون السيئة بالحسنة فى التعاملات اليومية لا فى دين الله ، ومقابلة السيئة بالحسنة تكسر شره النفوس ، وتوجهها إلى الخير ، وتطفئ جذوة الشر وترد نزغ الشيطان ، ومن ثم تدفع ـ السيئة فى النهاية،ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين، فأما فى دين الله فلا ، وهؤلاء لهم عاقبة الدنيا وهى الجنة لأنها مرجع أهلها ، وهى جنات إقامة يخلدون فيها ، ويجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه لترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا ، تدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة ، وبما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

ويذكر الله تعالى حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مآلهم فى الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون،وهم المبعدون المطرودون ولهم الطرد ،وسوء العاقبة وجهنم وبئس القرار .

وهؤلاء المبعدون فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل،فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم، مع أن الله هو الذى يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق ، فالأمر كله إليه فى الأولى والآخرة على السواء ، ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض وهو الذى أعطاهم إياه ، ويحكى السياق طلب المشركين من النبى ﷺ أن تكون له آية كناقة صالح أو عصا موسى ليؤمنوا به والله يضل من يشاء إضلاله ، ويهدى إلى الحق وطريق الإسلام من رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه .

أما المؤمنون فقلوبهم تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، وهذا الاطمئنان فى تلك القلوب حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله ، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ؛ لأنها لا تنقل بالكلمات إنما تسرى فى القلب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لا يعتبر بالقرآن ولا ينتفع بمواعظه إلا أهل الإيمان ، وأصحاب العقول الصحيحة السليمة .

٢ ـ الله سبحانه يقدر أرزاق عباده بحكمة وتدبير .

٣ ـ من آثار ذكر الله ـ تعالى ـ سكون النفس ، وطمأنينة القلب ، والرضا بالله مولى ونصيرا ، فعلى المسلم أن يكثر من ذكر الله ـ تعالى ـ فى جميع أحواله .

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)
وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا
أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ
وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم
بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)

٢٥٣

معانى الكلمات :

طوبى لهم : عيش طيب لهم فى الآخرة .

مآب : مرجع .

ييأس : يعلم ويتبين .

قارعة : داهية تصيبهم بصنوف البلايا .

فأمليت : فأمهلت .

تنبئونه : تخبرون الله .

بظاهر من القول : بظن باطل لا حقيقة له .

واق : حافظ وعاصم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بوعد الله تعالى للمؤمنين بحسن العاقبة .

٢ ـ أن نعلم فضل القرآن وعظمته .

٣ ـ أن نتعرف على موقف الكافرين من رسول الله ﷺ وسوء عاقبتهم .

المحتوى التربوى :

هؤلاء المنيبون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله مآبهم عنده ، كما أحسنوا الإنابة إليه ، وكما أحسنوا العمل فى الحياة ، فلهم طوبى ، حال من الحسن الطيب يعجز البيان عن وصفها أو شجرة فى الجنة وحسن منقلب وهو الجنة دار السلام والنعيم المقيم ، وقيل : طوبى شجرة فى الجنة كل شجرة الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة ، وقال غير واحد من السلف : إن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها .

أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان ، فهم فى قلق يطلبون الخوارق والمعجزات ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريبا ، فقد

خلت من قبلهم الأمم ، وخلت من قبلهم الرسل ، فإذا كفروا هم فلتمض على نهجك ولتتوكل على الله .

والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن ، العظيم الرحمة ، الذى تطمئن القلوب بذكره ، واستشعار رحمته الكبرى وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه ، وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن ، ولو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به ، جاحدون له ، ولله الأمر كله ، ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم ، فما أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ، وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعاً على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد ، أو لقهرهم على الهدى بأمر قدرى منه ، ولكنه لم يرد هذا ولا ذاك ، لأنه خلق هذا الإنسان لمهمة خاصة يعلم سبحانه أنها تقتضى خلقته على هذا النحو الذى كان ، فليدعوهم إذن لأمر الله ، وبسبب تكذيب هؤلاء الكافرين لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، والله لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ، ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

والأمثلة حاضرة ، وفى مصارع الغابرين عبرة بعد الإنظار والإمهال ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له فى تكذيب من كذّبه ، واقتراحهم عليه الآيات ، وقد أنظرهم الله وأجلهم ثم أخذهم .

قال النسفى : « وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسلية » فقد فهم النسفى إذن أن هذا ردّ على اقتراحهم المذكور فى بداية هذا المقطع ، فطلب الآية فيه التنقيص للرسول ﷺ والاستهزاء بصدقه ، ومن ثم لفت الله نظرهم إلى هذا ولفت نظرهم إلى ما أنزله الله من عقوبات بأمثالهم ليريهم خطأ هذا الذى هم عليه ، وأنه إن كانت سنته الإملاء ، فسنته بعد الإملاء الأخذ ، وفى ذلك تهديد ووعيد وردّ .

ثم تأتى الآية اللاحقة ، وفيها ذكر قيوميته تعالى ، وذكر استحقاقهم العقوبة بشركهم ، وذكر سنته فيمن يريد إضلاله ، وفى ذلك آيات لمريد الإيمان ، فالله سبحانه رقيب على كل نفس مسيطر

عليها على كل حال ، عالم بما كسبت فى السر والجهر ، ولتتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا ، مراقبا يحاسبها بما كسبت ، ومن ؟ إنه الله فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهى فى ذاتها حق .

أفذلك كذلك ؟ ثم يجعلون لله شركاء ؟! هنا يبدو تصرفهم مستنكرا مستغربا فى ظل هذا المشهد المرهوب ، أفمن هو حفيظ عليه رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر لا تخفى عليه خافية هو كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها ، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟

والأصنام التى عبدوها مع الله ، يقول سبحانه لنبيه ﷺ : أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يُعَرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ، أم تنبئونه بشركاء لا يعلمهم فى الأرض ، وهو العالم بما فى السموات والأرض فإذا لم يعلمهم ، عُلِمَ أنهم ليسوا بشىء ، فالله تعالى لا تخفى عليه خافية ، أم أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، فأى سخف هذا السخف ؟ أن يعطى لشىء اسم ليس له حقيقة ، ويعامل على أساس أن اسمه حقيقة .

فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم ، ومن تقتضى سنة الله ضلاله؛ لأنه سار فى طريق الضلال فلن يهديه أحد ؛ لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد .

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هى العذاب ، إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع ، وإلا فجفاف القلوب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب، ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب ، والمدخر مع هذا الخزى فى الدنيا أشق من هذا بكثير ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبداً فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، وهذا العذاب يتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود ، وما لهم من الله من حافظ من عذابه ومن نكاله ، فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القرآن الكريم مفضل على سائر الكتب وهو معجزة باقية إلى يوم القيامة .

٢ ـ لا توكل إلا على الله ولا توبة لأحد إلا إليه .

٣ ـ الله تعالى هو القائم على كل نفس فهو الإله الحق وما عداه باطل لا حقيقة له .

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦)
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)
يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ (٣٩)
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٤٢)

٢٥٤

معانى الكلمات :

دائم : لا ينقطع .

مآب : المرجع .

ولى : ناصر .

واق : مانع من عذابه .

لكل أجل كتاب : لكل وقت حكم معين .

أم الكتاب : اللوح المحفوظ أو العلم الإلهى .

لا معقب لحكمه : لا راد ولا مبطل له .

عقبى الدار : العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما أعده الله تعالى للمؤمنين فى جنات النعيم ، وما توعد الله به المشركين بالعذاب الأليم .

٢ ـ أن نعلم أن القضاء والحكم فى الإسلام مصدره الأول القرآن الكريم ثم السنة لبيانها للقرآن .

٣ ـ أن نؤمن بانتصار الإسلام وانتشاره فى ظرف ربع قرن أكبر دليل على أنه حق .

المحتوى التربوى :

يصور السياق ما أعده الله تعالى للمؤمنين فى جنات النعيم ، فالمتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم فى مأمن من العذاب ، بل لهم فوق الأمن الجنة التى وعدوها ، وهذه الجنة ثمرها دائم الوجود لا ينقطع ، وظلها دائم لا ينسخ كما ينسخ فى الدنيا بالشمس ، ففواكهها ومطاعمها ومشاربها ورَوْحها كل ذلك لا انقطاع ولا فناء ، وهذه الجنة الموصوفة عقبى المتقين ومنتهى أمرهم ، أما منتهى الكافرين فالنار .

ويمضى السياق مع قضية الوحى وقضية التوحيد معاً يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ، ومن الرسول ﷺ ، ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذى جاء به الرسل كافة ، ومحا ما شاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته ، فليقف عند ما أنزل عليه ، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب فى كبيرة ولا صغيرة ، أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ .

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب فى الاستمساك بدينه ، يجد فى هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية فى عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التى سبقته وكتبها ، ودروسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التى تربط المؤمنين بالله جميعا ، فمن ثم يفرحون ويؤمنون ، والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية فى القلوب الصافية ، وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له ، ومن أحزابهم ـ وهم كفرتهم الذين يتحزبون ضد هذا الدين ـ من ينكر بعضه ويقر بعضه ، كما يفعل المبشرون والمستشرقون فى عصرنا ، لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعانى مما هو ثابت فى كتبهم ، ولكنهم يجعلونه مستمداً من كتبهم ، وينكرون نبوة النبى عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع .

لله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب ، وقد أمر الرسول ﷺ أن يعلن منهجه فى مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذى أنزل إليه من ربه ، سواء فرح به أهل الكتاب كله، أم أنكر فريق منهم بعضه ، ذلك أن ما أنزل إليه الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماما ، وإليه يرجع ما دام حكم الله الأخير فى العقيدة .

قال النسفى : « ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ، مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده ، والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء ، فإذا كان مضمون هذا الوحى كمضمون كل وحى سابق ، فكيف ينكر هذا الدين وكيف يكفر بهذا الرسول ، ثم ختم الله الرد الثالث بتثبيت الرسول ﷺ على الحق الموحى إليه ، وأن عليه ألا يبالى باقتراحاتهم وإنكارهم ومجادلاتهم ، فقال : ولئن اتبعت آراءهم بعد ما جاءك من العلم الثابت من الله المؤيد بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، مالك من الله من ناصر ينصرك ولا واق يقيك منه ، وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين ، وألا يزلزل المؤمن عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فإن رسول الله ﷺ من شدة الثبات بمكان .

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول ﷺ ، فقد كان الرسل كلهم بشراً ، وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله ووفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء ، وإذا كان هناك خلاف جزئى بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتابا ، وهذا هو الكتاب الأخير ، فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته ، وعنده أصل الكتاب المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه فعنه صدر الكتاب كله ، وسواء أخذهم الله فى حياة الرسول ﷺ بشىء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه قبل ذلك ، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية » .

يقول صاحب الظلال : « وفى هذا التوجيه الحاسم ما فيه من بيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة ، إن الدعاة إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا تكاليف الدعوة فى كل مراحلها ، وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله ، كما أنه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة ، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة ، إذا رأوا قدر الله يبطئ بهم عن الغلب الظاهر والتمكين فى الأرض إنهم دعاة وليسوا إلا دعاة » .

ويد الله القوية البادية الآثار فيما حولهم ، فهى تأتى الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنقص من قوتها ، وتنقص من ثرائها ، وتنقص من قدرها ، وتحصرها فى رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد ، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ، ولابد له من نفاذ ، وقد حكم الله لرسوله ﷺ ودينه بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ، فلا أحد يستطيع أن يحول دون هذا ، ولقد كان هذا كله مما هو مذكور فى التاريخ من غلبة المسلمين على قلة العَدَد والعُدد ، واندحار الكفر على كثرة العَدَد والعُدد ، وحيث أقام المسلمون دينهم كان لهم هذا ، والله سريع الحساب فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم بالقهر والغلبة .

وفى هذا السياق ـ سياق التبشير بانتشار الإسلام ـ يذكرنا الله عز وجل بالمكر الهائل الذى يقابل به أعداء الله هذا الدين ، فيبشر المؤمنين ويقوى ثقتهم به جل جلاله ، فقد مكر كفار الأمم الخالية بأنبيائهم ، والمكر: إرادة المكروه فى خفية ، ومكر الله بهم ، وإذا كان الأمر كذلك فمكرهم لا قيمة له ، ثم فسر سبحانه كيف أن المكر له فهو يعلم ما تكسب كل نفس فيوفيها جزاءها من حيث لا تحتسب وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة الحميدة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ فى الجنة من الفواكه والثمرات والأطعمة والمشروبات ما لا ينقطع ولا يفنى .

٢ ـ ظهور الإسلام على الشرك ، وتحقيق وعد الله ـ تعالى ـ للمؤمنين بنصره .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ عالم : بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله .

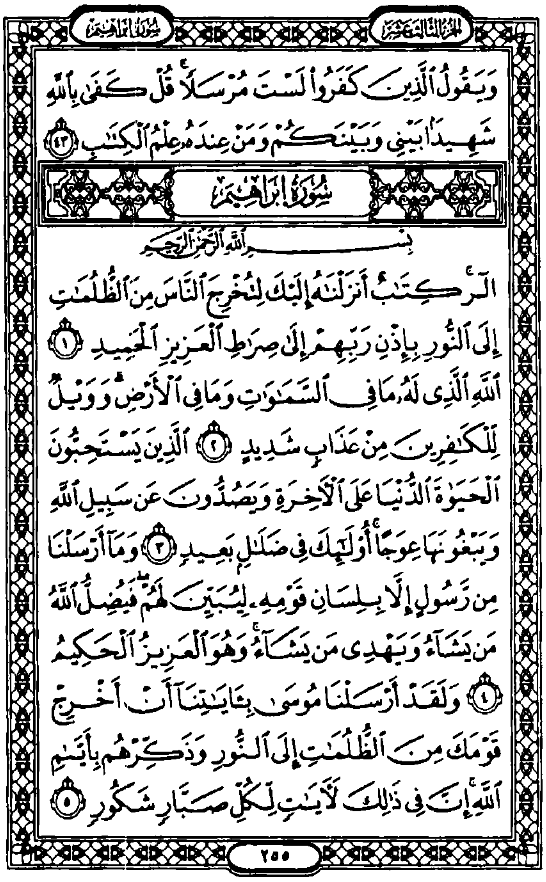

معانى الكلمات :

بإذن ربهم : بأمره أو بتيسيره وتوفيقه لهم .

العزيز : الغالب أو الذى لا مثل له .

الحميد : المحمود .

ويل : هلاك أو حسرة أو واد فى جهنم .

تستحبون : يختارون ويفضلون .

يبغونها عوجا : يطلبونها ذات اعوجاج .

بلسان : بلغة .

بأيام الله : ما أصاب به الأمم السابقة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم وظيفة الرسول ﷺ ومن قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ ـ أن نؤمن أن الله ـ تعالى ـ هو المالك لما فى السموات والأرض .

٣ ـ أن نتعرف على أيام الله تعالى فى الأمم السابقة .

المحتوى التربوى :

يختم الله عز وجل سورة الرعد بحكاية إنكار الكفار للرسالة ، وقد بدأها بإثبات الرسالة ، فيلتقى البدء والختام ، ويشهد الله مكتفيا بشهادته ، وهو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب ، وتنتهى السورة وقد طوفت بالقلب البشرى فى أرجاء الكون وأرجاء النفس ، وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله والتى يحسم بها كل جدل ، وينتهى بعدها كل كلام .

سورة إبراهيم .

هذه السورة مكية ، موضوعها الأساس هو موضوع السور المكية الغالب : العقيدة فى أصولها الكبيرة : الوحى والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

فهذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف التى بدئت بها هذه السورة ، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ لم تنشئه أنت ، أنزلناه إليك لغاية : لتخرج هذه البشرية ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ، ظلمات الوهم والخرافة ، وظلمات الأوضاع والتقاليد ، وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة ، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين ؛ لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور ، النور الذى يكشف هذه الظلمات ، يكشفها فى عالم الضمير وفى دنيا التفكير ، ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد ، والإيمان بالله نور يشرق فى القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشرى .

يقول صاحب الظلال : « والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق ، ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب ، غبش الأوهام وضباب الأطماع ، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار ، والإيمان بالله نور تشرق به الحياة ، فإذا الناس كلهم عباد متساوون ، تربط بينهم آصرتهم فى الله ، وتتمحض دينونتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة ، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة ... والإيمان بالله نور ، نور العدل ، ونور الحرية ، ونور المعرفة ، ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته فى السراء والضراء ... والإيمان بالله وحده إلها وربا ، منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير ، وتسكب فيه النور ، منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد والاستعلاء على حاكمية العبيد » .

وليس فى قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان ، أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التى اقتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول ، فالله هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم إلى صراط العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق فى خبره ، والله عز وجل مالك ما فى السموات وما فى الأرض ، الغنى عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه .

ويمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد ، جزاء كفرهم هذه النعمة ، نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويقدمونها ويؤثرونها عليها ،ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة ، وتركوها وراء ظهورهم ، ويصدون عن سبيل الله واتباع الرسل ، ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ، وهى مستقيمة فى نفسها ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد عن الحق ، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح .

ولكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة ، وقد أرسل النبى ﷺ بلسان قومه ـ وإن كان رسولا إلى الناس كافة ـ لأن قومه وهم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر ،

وعمره ﷺ محدود ، وتنتهى مهمة الرسول ـ كل رسول ، عند البيان ، أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال فلا قدرة له عليه ، إنما هو من شأن الله ، وهو القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير .

وكذلك كانت رسالة موسى بلسان قومه ، والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى ، والصادر لمحمد عليهما صلاة الله وسلامه ـ فإذا الأمر هناك ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ و ، الأمر هنا ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة،ولكن الغاية واحدة ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ .

وكل الأيام أيام الله ، ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التى يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ، كما سيجىء فى حكاية تذكير موسى لقومه ، وقد ذكرهم بأيام لهم ، وأيام الأقوام : نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، فهذه هى الأيام .

قال القاسمى : « أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط ، ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ؛ لأنها تعظم بها الأيام ، وقيل : أيامه نعماؤه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلا لها ، وقيل : هى أعم من النعماء والبلاء ، والوجه الأول أولى فيما أراه لاختصاص كل آية بمقام » .

وقال ابن كثير : ﴿ بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم » .

وفيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبرة لكل صبار فى الضراء ، شكور فى السراء .

وفى هذه الأيام ما هو بؤس فهو آية للصبر ، وفيها ما هونعمى فهو آية للشكر ، والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ، كما يجد فيها تسرية وتذكيراً .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربوياً :

١ ـ رسالة كل رسول كانت خاصة بقومه ، أما رسالة محمد ﷺ فهى رسالة عامة للعالمين إلى يوم القيامة .

٢ ـ أثر القرآن الكريم والرسول ﷺ فى إخراج الناس مما كانوا فيه من الضلال إلى الهدى .

٣ ـ الله سبحانه وتعالى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث بأمره تعالى .

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

حزب ٢٦

٢٥٦

معانى الكلمات :

يسومونكم : يذيقونكم ويكلفونكم .

يستحيون نساءكم : يستبقون بناتكم للخدمة .

بلاء : ابتلاء واختبار بالنعم والنقم .

تأذن : أعلم إعلاما لا شبهة معه .

نبأ : خبر .

فردوا أيديهم فى أفواههم : عضوا على أصابعهم .

فاطر : خالق ومبدع ومخترع .

بسلطان : بحجة وبرهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف دعا موسى قومه وكيف ندعو الناس .

٢ ـ أن نؤمن بوعد الله تعالى بالمزيد من النعم لمن شكر نعم الله عليه .

٣ ـ أن نعرف من قصص الغابرين ففيه هداية لمن أراد أن يستقيم .

المحتوى التربوى :

راح موسى يؤدى رسالته ، ويذكر قومه ، يذكرهم بنعمة الله عليهم ، نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوما ، أى يوالون به ويتابعون ، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع ، ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم ، فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر لتشكر .

وفى هذا بلاء بالعذاب أولاً لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان ، وإلا فما هو صبر مشكور ، ذلك الاستسلام للذل والهوان ، وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر ، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى فى مقابل النجاة .

ويمضى موسى فى البيان لقومه ، بعدما ذكرهم بأيامه ، ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة ، وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة ، يمضى ليبين لهم ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران .

يقول صاحب الظلال : « نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق ، فلابد أن يتحقق على أية حال ، فإذا أردنا أن نرى مصداقها فى الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيراً فى تلمس الأسباب ، إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس فى النفس البشرية ، فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعى فى الفطرة المستقيمة ، هذه واحدة والأخرى أن النفس التى تشكر الله على نعمته ، تراقبه فى التصرف بهذه النعمة بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق،وبلا استخدام للنعمة فى الأذى والشر والدنس والفساد، وهذه وتلك مما يزكى النفس ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح فى النعمة بما ينميها ويبارك فيها ، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عونا ، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات فى أمان » .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها ، أو بإنكار أن الله واهبها ، والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة عينا بذهابها ، أو سحق آثارها فى الشعور ، وقد يكون عذابًا مؤجلا إلى أجله فى الدنيا أو فى الآخرة كما يشاء الله ، ولكنه واقع ؛ لأن الكفر بنعمة الله لا يمضى بلا جزاء ، وذلك الشكر لا تعود على الله عائدته ، وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره ، فالله غنى بذاته محمود بذاته ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها، فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

ويستمر موسى فى بيانه وتذكيره لقومه ، ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات ، وهذا التذكير من قول موسى ، ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر فى عرض قصة الرسل والرسالات فى جميع أزمانها ، قصة الرسل والرسالات وحقيقتها فى مواجهة الجاهلية ، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان .

وهنا نشهد الرسل الكرام فى موكب الإيمان يواجهون البشرية متجمعة فى جاهليتها حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها ، والرسل كثير ، وهناك غير من جاء ذكرهم فى القرآن ما بين ثمود وقوم موسى ، والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة فى دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به ، وقد جاؤوا قومهم بالبينات الواضحات التى لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم ، فردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه ، وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التى لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعانا منهم فى الجهر بالكفر .

ولما كان الذى يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده ، فإن الشك فى هذه الحقيقة الناطقة التى تدركها الفطرة ، وتدل عليها آيات الله المبثوثة فى ظاهر الكون المتجلية فى صفحاته، يبدو مستنكراً قبيحا ، وقد استنكر الرسل هذا الشك ، والسموات والأرض شاهدان .

وقالت رسلهم : أفى الله شك والسموات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما إبداعا ، وأنشأهما إنشاء ؟ قالت رسلهم هذا القول ؛ لأن السموات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، فمجرد الإشارة إليهما يكفى ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئًا ؛ لأنها وحدها تكفى ، ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر فى دعوتهم إلى الإيمان ، وفى إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ، ويتقون العذاب .

والدعوة أصلًا دعوة إلى الإيمان المؤدى إلى المغفرة ، ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة ؛ لتتجلى نعمة الله ومنته وعندئذ يبدو عجيبًا أن يدعى قوم إلى المغفرة ، فيكون هذا تلقيهم للدعوة فهو لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب ، إنما يمن عليكم منة فيؤخركم إلى أجل مسمى ، إما فى هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم ؛ وهى رحمة وسماحة تحسبان فى باب النعم،فهل هذا هو جواب دعوة الرحيم المنان ؟!

وهنا يرجع القوم فى جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول بأنهم بشر مثلهم ، وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة فى الرسل المختارين ، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة فى تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم ، ولا يسألون أنفسهم لماذا يرغب الرسل فى تحويلهم ؟! وبطبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات فى العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم : ما قيمته ؟ ما حقيقته ؟ ماذا يساوى فى معرض النقد والتفكير ؟! وبطبيعة الجمود العقلى كذلك لا يفكرون فى الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق، وآية تدلهم على فضل الأنبياء عليهم بالنبوة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إنكار نعم الله ، وعدم شكره عليها كفر بالنعم يشبه الكفر بالله ـ عز وجل .

٢ ـ شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه يزيدها ويحفظها .

٣ ـ اختبار الله ـ تعالى ـ لعباده يكون بالحسنات والطيبات والنعم ، كما يكون بالسيئات والمحن والشدائد .

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
(١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
(١٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨)

٢٥٧

معانى الكلمات :

يمّن : يتفضل .

ملتنا : ديننا .

استفتحوا : طلب الرسل من الله النصر .

خاب كل جبار : خسر وهلك كل متعاظم متكبر .

عنيد : معاند للحق ، مخالف له .

صديد : ما يسيل من أجساد أهل النار .

يتجرعه : يحاول بلعه بصعوبة .

يسيغه : يبتلعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف ما كان أهل الكفر يقابلون به رسل الله والدعاة إليه ـ سبحانه ، وما كانت الرسل ترد به عليهم .

٢ ـ أن نستشعر وجوب التوكل على الله ـ تعالى ، وعدم صحة التوكل على غيره .

٣ ـ أن نعلم خيبة وخسران عامة أهل الشرك والكفر والظلم .

المحتوى التربوى :

يرد الرسل فلا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله فى اختيار رسل من البشر ، وفى منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى ، وهى منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم ، ولكن كذلك على البشرية التى تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى ـ مهمة الاتصال والتلقى من الملأ الأعلى ، وهى منة على البشرية بتذكير الفطرة التى ران عليها الركام ؛ لتخرج من الظلمات إلى النور ، ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقى ، فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المنفتحة ثم هى المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة

للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ، واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد فى الدينونة للعبيد،الذل الذى يحنى هامة إنسان لعبد مثله ، والتبدد الذى يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله .

فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله ؛ ليفرقوا فى مداركهم بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية .

ويطلق الرسل حقيقة دائمة بأنهم ما يعتمدون على قوة غير قوته ـ تعالى ، فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يتلفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونا إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ، ويسألون للتقرير والتوكيد : ما الذى لا يجعلنا لا نتوكل على الله وهو الذى هدانا إلى سواء السبيل ؟ إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه، المالئ يديه من وليه وناصره ، المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر وأن يعين ، وماذا يهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر ؛ إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

يقول صاحب الظلال : « والقلب الذى يحس أن يد الله ـ سبحانه ـ تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله،لا يخطئ الشعور بوجوده ـ سبحانه ـ وألوهيته القاهرة المسيطرة، وهو شعور لا مجال معه للتردد فى المضى فى الطريق ، أياً كانت العقبات فى الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التى تتربص فى هذا الطريق ، ومن ثم هذا الربط فى رد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ـ بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه فى مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ، ثم إصرارهم على المضى فى طريقهم فى وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة ؛ حقيقة الارتباط فى قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله لهم وبين بديهية التوكل عليه ـ لا يستشعرها إلا القلوب التى تزاول الحركة فعلاً فى مواجهة طاغوت الجاهلية ، والتى تستشعر فى أعماقها يد الله ، وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد ؟! » .

ولنصبرن : لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه ، لا يجادل ولا يناقش ، ولا يفكر ولا يتعقل ؛ لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة ، وهنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية ، والجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها ، لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا فى ملتهم ، وأن يذوبوا فى مجتمعهم ، فلا يبقى لهم كيان مستقل ، وتتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة التى لا تقف لها قوة البشر المهازيل ـ وإن كانوا طغاة متجبرين ؛ ليتمكن المؤمنون فى الأرض ، وليتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين ولنهلكن الظالمين .

وهذا الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقام الله ، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر ، وخاف وعيده، فحسب حسابه، واتقى أسبابه فلم يفسد فى الأرض، ولم يظلم فى الناس، ويقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة فى صف ، ويقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله ـ سبحانه ـ فى صف ، ودعا كلاهما بالنصر والفتح ، وكانت العاقبة كما يجب أن تكون من نصر الرسل وإنجاز الوعد لهم ، وخيبة أعدائهم من المتكبرين على طاعة الله وعبادته المعاندين للحق .

يقف الجبار العنيد فى هذا المشهد ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم ، يسقاه بعنف فيتجرعه ـ غصبا وكرها ، لا يكاد يبتلعه لقذارته ومرارته ، ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ؛ ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ، ومن ورائه عذاب غليظ .

وفى ظل هذا المصير يجيء التعقيب مثلا مصوراً فى مشهد يضرب الذين كفروا ، ولفتة إلى قدرة الله على أن يذهب المكذبين ويأتى بخلق جديد .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع به أصلا هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ فى تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا .

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار ، فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل الباعث ، وتصل بالباعث بالله مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام ، فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل ، فالعمل حركة آلية لا يفترق فيه الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

ويتفق التعقيب فى ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف إلى بعيد ، وفى توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أهمية الصبر والتوكل على الله فى جميع الأمور .

٢ ـ الجبارون المعاندون للحق يخذلهم الله يوم القيامة ويدخلهم جهنم .

٣ ـ لا ثواب فى الآخرة للكافرين على ما عملوا فى الدنيا ؛ لأنها على غير أساس الإيمان الذى تقبل به الأعمال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
(٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ
لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ
فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)

معانى الكلمات :

بعزيز : بشديد .

برزوا : خرجوا من القبور للحساب .

مغنون عنا : دافعون عنا .

محيص : منجى ومهرب .

سلطان : تسلط أو حجة .

بمصرخكم : بمغيثكم ومخلصكم من العذاب .

كلمة طيبة : كلمة التوحيد .

فرعها : غصنها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله ـ تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن فى يوم القيامة لا يغنى أحد عن أحد ، ويتبرأ الكبراء الضالون ممن تبعهم .

٣ ـ أن نؤمن بحسن ثواب المؤمنين يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يقول ـ تعالى ـ مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ؛ بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس ، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبرارى وصحارى وقفار وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها قادراً على إعادة الخلائق مدة أخرى يوم القيامة للحساب ؟

يقول صاحب **الظلال** : « والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السموات والأرض ، هو انتقال طبيعى فى المنهج القرآنى ، كما أنه انتقال طبيعى فى مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج القرآنى .

إن بين فطرة الكائن الإنسانى وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة ، إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه . والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيحاءات هم أفراد معطلو الفطرة ، فى كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية ، كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها ، كما تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، واللسان بالبكم ، إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقى ، ومن باب أولى لا تصلح للقيادة والزعامة ... إن خلق السموات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يوحى بالثبات ، فالحق ثابت مستقر » .

وفى ضوء مصير المعاندين الجبارين فى معركة الحق والباطل يجىء التهديد باستخلاف جنس غير هذا الجنس فى الأرض ، واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس ، وما ذلك على الله بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره .

وانتقل السياق من الدنيا إلى الآخرة ، فالطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ومعهم الشيطان ، ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات .. وبرزوا جميعا مكشوفين ـ وهم مكشوفون لله ـ دائما ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ .

برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار : والضعفاء هم الضعفاء ، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة ، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله ، والضعف ليس عذرا ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله .

يقول صاحب الظلال : « إن المستضعفين كثرة والطواغيت قلة ، فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان ، إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ، فهى دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت ، فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان ، إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء ، وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة » .

وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة ، والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم : إن كنا لكم متابعين مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ؟ فَقالت القادة لهم : لو كان الله هدانا لهديناكم ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على

الكافرين ، فليس لهم خلاص مما هم فيه إن هم صبروا عليه أو جزعوا منه ، وهو رد يبدو فيه البرم والضيق فعلام تلموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد؟إننا لم نهتد ونضلكم، ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ، وقد حق علينا العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله ، لقد انتهى كل شىء ، ولم يعد هناك مفر ولا محيص .

وبعد ما قضى الله بين عباده ، يخبر ـ سبحانه ـ عما خطب به إبليس أتباعه من الكافرين فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ، حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : إن وعد الله كان حقا ، على ألسنة رسله ، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعدًا حقا وخبراً صدقا ، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ، ثم قال : وما كان لى عليكم فيها دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ إلا بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه فلا تلومونى اليوم ، ولوموا أنفسكم فإن الذنب لكم ، وما أنا بنافعكم ومنقذكم مما أنتم فيه ، وما أنتم بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب بسبب ما أشركتمونى من قبل ، والظالمون لهم بإعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل عذاب أليم ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتهم الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون بإذن ربهم، والملائكة تحييهم وتكرمهم بالسلام .

وفى ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، والمؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت كاملا حسنا ، ويضرب الله الأمثال ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه فى زحمة الحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القادر على الإيجاد قادر على الإفناء وقادر على الإحياء بعد الموت .

٢ ـ فى يوم القيامة يتبرأ الكبراء الضالون ممن تبعهم فى ضلالهم .

٣ ـ علينا الحذر من وسوسة الشيطان وتزيينه .

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

معانى الكلمات :

تؤتى أكلها : تعطى ثمرها الذى يؤكل .

كلمة خبيثة : كلمة الكفر والضلال .

اجتثت : اقتلعت .

دار البوار : دار الهلاك (جهنم) .

يصلونها : يدخلونها .

أنداداً : أمثالا من الأوثان .

لا خلال : لا صداقة ولا موادة .

دائبين : دائمين فى منافعهما لكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن كلمة الإيمان لها أثرها فى زيادة الأعمال .

٢ ـ أن نؤمن بأن فى القبر سؤالا ونعيما وعذابا .

٣ ـ أن نتعرف على بعض الدلائل على وجود الخالق ـ سبحانه .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيمثل كفر الكافر بأنه لا أصل له ولا ثبات ، وشبه بشجرة الحنظل وقد استؤصلت فلا أصل لها ولا ثبات ، كذلك كفر الكافر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شىء .

يقول صاحب الظلال : « إن الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق كالشجرة الطيبة ـ ثابتة سامقة مثمرة ، ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان وإن خيل إلى البعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان ـ سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ـ وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها فى الفضاء ـ مثمرة لا ينقطع ثمرها ؛ لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن .

وإن الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ كالشجرة الخبيثة ، قد تهيج وتتعالى وتتشابك ، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض ، وما هى إلا فترة ، ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء ، ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع ، إنما هو الواقع فى الحياة ، ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان ، والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق » .

ويضرب الله الأمثال للناس ، وهى أمثال مصداقها واقع فى الأرض ولكن الناس كثيراً ما ينسونه فى زحمة الحياة .

وفى ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة يتم تثبيت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة فى الضمائر،الثابتة فى الفطر المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقى فى الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ، وبوعده للحق بالنصر فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ، وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب ، ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم ، والله بإرادته المطلقة يفعل ما يشاء .

يقول القاسمى : « القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه ، وتثبيتهم به فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلّوا ، كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر » .

ويعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ﷺ بعدما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل ـ أولئك الذين أنعم الله عليهم ـ فيما أنعم ـ برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان ، أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك مثلهم مثل السادة من كل قوم ، وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم وأنزلوهم بها ، وبئس القرار فيها من قرار .

لقد استبدلوا بنعمة ودعوته كفراً ، وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها ، وجعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ، ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته ـ سبحانه ، جعلوا هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذى لا يتعدد ولا تتفرق به السبل .

يقول صاحب الظلال : « والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمداً إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخاذ هذه الأنداد من دون الله ، فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم فى كل زمان ـ لا فى زمن الجاهلية الأولى ، ولكن فى زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق فى أى صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحى الله ، عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة ... فيا أيها الرسول قل للقوم : تمتعوا قليلاً فى هذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله » .

والعاقبة معروفة فإن المصير إلى النار ، ودعهم وانصرف عنهم إلى عبادى الذين آمنوا انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة ، الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر ، انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله ، وقل لهم : أن يشكروا ربهم بإقامة الصلاة ، فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله ، وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق ـ سراً وعلانية ، سراً حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخراً وتظاهراً ومباهاة ، وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع ، وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال ، قل لهم : أن ينفقوا ليربوا رصيدهم المدخر من قبل أن يأتى يوم لا تنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال .

ويعدد ـ تعالى ـ نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا والأرض فراشا ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى ، ما بين ثمار وزروع ، مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجرى عليه بأمر الله ـ تعالى ؛ وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ، وسخر الأنهار رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع وسخر الشمس والقمر يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ، وسخر الليل والنهار يتعاقبان خلفه لمعاشكم وسباتكم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ كلمة الإيمان والتوحيد ثابتة فى قلب المؤمن ينتفع بآثارها فى حياته وعند مماته .

٢ ـ كل كلمة خبيثة لا يقبل من صاحبها عمل ، ويعجز عن الإجابة عند سؤال الملكين .

٣ ـ أهمية أداء الصلاة على الوجه الأكمل ، والإنفاق من نعم الله فى السر والعلانية .

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

٢٦٠

معانى الكلمات :

لا تحصوها : لا تطيقوا عدها .

اجنبنى : أبعدنى ونجنى .

إنهن : الأصنام .

تهوى إليهم : تسرع إليهم شوقا ووداداً .

وهب لى : أعطانى .

تشخص فيه الأبصار : ترتفع دون أن تطرف من شدة الهول .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف بعض نعم الله علينا .

٢ ـ أن نعلم شيئا من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

٣ ـ أن نؤمن بأن الله لا يغفل عن أفعال الظلمة وإنما يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

المحتوى التربوى :

بعدما عرض السياق الخطوط العريضة فى صفحة الآلاء المديدة ، وأن فى كل خط من النقط ما لا يحصى ، وقد آتى الله عباده من كل ما سألوه من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ، ونعمة الله أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ـ أو كل البشر ـ وكلهم محدودون بين حدين من الزمان بدأ ونهاية وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان ، ونعم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان ، وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادًا ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا .

وحين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له إما مباشرة وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله معين بقدرة الله ذلول له بتسخير الله حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر ، لابد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع ـ دائما ـ إلى ربه المنعم : حين يكون فى الشدة ليبدله منها يسراً ، وحين يكون فى الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء إبراهيم ، ويأتى به السياق فى مشهد خاشع يظلله الشكر، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء فى نعمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء ، والسياق يصور إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله ، فيصوره فى هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ؛ ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ، ويرد الغافلين إلى الذكر ، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون .

ويبدأ إبراهيم دعاءه ، وقد دعا لمكة بالأمن ، ونعمة الأمن ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه ، والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها ، وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أنداداً ، وصدوا عن سبيل الله ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن أن يباعده الله ويباعد بنيه عن عبادة الأصنام .

ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه ، فهو يستعين بربه بهذا الدعاء ويستهديه ؛ ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله ، وإنها النعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده ، فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء ، يدعوا إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ، ومن فتنوا بها ، ومن افتتنوا وهم خلق كثير .

ثم يتابع الدعاء ، فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فهو منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ـ آصرة العقيدة ، وأما من عصانى منهم فأفوض أمره إليك ، وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته .

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها لماذا ؟ لإقامة

الصلاة ، فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان ، وأن يجعل وفوداً من الناس تأوى إليهم ، وأن يرزقهم من الثمرات فتجلبها إليهم التجار لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور من الشكر منهم لله .

ويعقب إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر ، فقد وهبه الذرية على حافة العمر ، وهبة الذرية على الكبر أوقع فى النفس ، فالذرية امتداد ، وما أجلَّ الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد ، وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته ، ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر ، الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صادق ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه ، ويختم إبراهيم دعاه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ، ثم مغفرة الله فى تقصيره .

يقول صاحب الظلال : « نلمح تكرار إبراهيم ﷺ فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة « ربنا »،أو «رب » فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزىً ، وإنه لا يذكر الله ـ سبحانه ـ بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية ، فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات ، إنما الذى كان موضع جدل هو قضية الربوبية ، قضية الدينونة فى واقع الحياة الأرضية ، وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان ... » .

ويكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله،ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ، والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التى لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها . أخذهم فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوته مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ نعم الله ـ تعالى ـ علينا كثيرة ، وفضله علينا عظيم .

٢ ـ أهمية الدعاء بالخير للنفس وللأهل ولجميع المسلمين ، ومشروعية الإلحاح فى الدعاء ، وإظهار التذلل لله تعالى .

٣ ـ المسلمون تحن قلوبهم شوقا إلى بيت الله الحرام واستجابة لدعاء سيدنا إبراهيم ﷺ.

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

٢٦١

معانى الكلمات :

مهطعين : مسرعين إلى الداعى بذلة .

مقنعى رؤوسهم : رافعى رؤوسهم .

هواء : خالية لا تعى .

مقرنين : مقرونا بعضهم مع بعض .

الأصفاد : القيود .

سرابيلهم : قمصانهم أو ثيابهم .

تغشى : تغطى .

بلاغ للناس : كفاية فى العظة والتذكير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال الظالمين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم حال المشركين مع رسول الله .

٣ ـ أن نؤمن بيوم القيامة وما فيه من مشاهد مفزعة .

المحتوى التربوى :

يرسم السياق مشهداً للقوم فى زحمة الهول ، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون إلى شىء ، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا ، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم ، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهى هواء خواء .

هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه ، والذى ينتظرهم بعد الإمهال هناك ، فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك ، ويتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون : ربنا الآن ، وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا ، ويطلبون الإمهال إلى أمد الزمان معلوم غير بعيد ، حتى يجيبوا دعوة التوحيد ويتبعوا المرسلين منه ـ تعالى ـ فيعملوا بما بلغوه من شرائع .

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب ، كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون ، وكأننا فى الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها ، فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم فى تلك الحياة فيقول : كيف ترون الآن ؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟ ! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلا بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم ، فهذا عجيب أن تروا مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء ، وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

يقول صاحب الظلال : « وإن هذا المثل ليتجدد فى الحياة ويقع كل حين فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم ، وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم ، ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ، ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ، فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التى يسكنونها ، والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين وتصور مصائرهم للناظرين ، ثم يؤخذون أخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين » .

ثم يلتفت السياق إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتدبيرهم الشر فى كل نواحى الحياة ، فيلقى فى الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير ، والله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأخير حتى ليؤدى إلى زوال الجبال ، أثقل شىء وأصلب شىء ، وأبعد شىء عن تصور التحرك والزوال ، فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا ، وليس بعيداً عن متناول القدرة ، بل إنه لحاضر عند الله يفعل به كيفما يشاء ، وما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر ، وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر ، فلا يدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو ، والظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله ـ تعالى ـ يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم تحقيقا لعدل الله فى الجزاء .

وهذا الجزاء سيكون لا محالة حاصلاً يوم تبدل الأرض وتكون على غير الصفة المألوفة المعروفة ، ولا ندرى نحن كيف يتم هذا ، ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التى تبدل الأرض وتبدل السموات ، فى مقابل ذلك المكر الذى مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير ، وفجأة نرى ذلك قد تحقق ، وأنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق ، ليسوا فى دورهم وليسوا فى قبورهم ، إنما هم فى العراء أمام الواحد القهار ، ولفظة القهار هنا تشترك فى ظل التهديد بالقوة القاهرة التى لا يقف لها كيد الجبابرة ، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولا أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت : فمشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين فى الوثاق ، يمرون صفا وراء صف ،

مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار، ويضاف إلى قرنهم فى الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهى فى ذات الوقت قذرة سوداء من قطران ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار ، فثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران ، وهو الذى تطلى به الإبل ، وهو ألصق شىء بالنار .

ويفعل الله بالمجرمين ما يفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت ، أو كل نفس من مجرمة ومطيعة سيجازيها لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم ، فسيثيب المؤمنين على طاعتهم ، والله ـ عز وجل ـ يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ، والسرعة فى الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم ، فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ـ ذلا وألما وسرعة حساب .

وفى النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن فى إعلان عام جهير الصوت على الصدى ؛ لتبليغ البشرية كلها فى كل مكان ، والغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هى يعلم الناس ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فهذه هى قاعدة دين الله التى يقوم عليها منهجه فى الحياة .

يقول صاحب الظلال : « وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم ، المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره ، فالإله هو الذى يستحق أن يكون ربا ـ أى حاكما وسيداً ومتصرفا ومشرعا وموجها ـ وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد ، وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء ، إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ، وليس مجرد عقيدة مستكنة فى الضمائر ، وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ شدة أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من فزع للكافرين والعاصين .

٢ ـ تحقيق وعد الله ـ تعالى ـ بنصرة أنبيائه ورسله والمؤمنين .

٣ ـ القرآن الكريم بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ، وفيه الهداية والدلائل على أنه لا إله إلا الله .

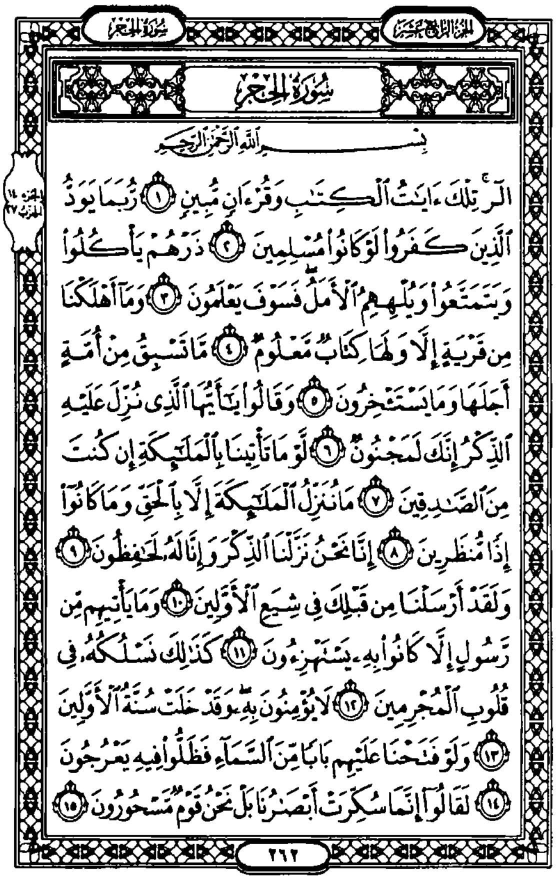
سورة الحجر
بسم الله الرحمن الرحيم
الٓر تلك ءايٰت الكتٰب وقرءان مبين ﴿١﴾ ربما يود
الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿٢﴾ ذرهم يأكلوا
ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴿٣﴾ وما أهلكنا
من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴿٤﴾ ما تسبق من أمة
أجلها وما يستـٔخرون ﴿٥﴾ وقالوا يٰأيها الذى نزل عليه
الذكر إنك لمجنون ﴿٦﴾ لو ما تأتينا بالملٰئكة إن كنت
من الصٰدقين ﴿٧﴾ ما ننزل الملٰئكة إلا بالحق وما كانوا
إذا منظرين ﴿٨﴾ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحٰفظون ﴿٩﴾
ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ﴿١٠﴾ وما يأتيهم من
رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴿١١﴾ كذٰلك نسلكه فى
قلوب المجرمين ﴿١٢﴾ لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين
﴿١٣﴾ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون
﴿١٤﴾ لقالوا إنما سكرت أبصٰرنا بل نحن قوم مسحورون ﴿١٥﴾
٢٦٢

سورة الحجر

معانى الكلمات :

يود : يتمنى .

ذرهم : اتركهم .

كتاب : أجل مقدور مكتوب فى اللوح المحفوظ .

شيع الأولين : فرق الأمم السابقين .

نسلكه : نُدْخِلُ الذكر مُسْتَهْزَأً به .

يعرجون : يصعدون فيرون الملائكة والعجائب .

سكرت أبصارنا : سدت عيوننا .

قوم مسحورون : أصابنا محمد بسحره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نوضح مكانة القرآن ، والله هو الحافظ له .

٢ ـ أن نعلم حال الكافرين مع الرسول ﷺ .

٣ ـ أن نتعرف على حال الكافرين فى العناد وأنهم لا يؤمنون .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مكية بجملتها نزلت بعد سورة يوسف فى الفترة الحرجة ، ما بين عام الحزن وعام الهجرة ، وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة ، وحاجاتها ومقتضياتها الحركية ، إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ، وتوجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة معه ، توجيها واقعيا مباشرا وتجاهد المكذبين جهاداً كبيرًا، كما هى طبيعة هذا القرآن ووظيفته .

وتبدأ السورة بالحديث عن طبيعة الكتاب الذى يكذب به المشركون ، وتهددهم بيوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين ، كما تكشف لهم عن سبب إرجاء هذا اليوم عنهم ، فهو موقوت بأجل معلوم ، ويذكر تحدياتهم واستهزاءهم وطلبهم الملائكة ، ثم تهددهم بأن نزول الملائكة يكون معه

الهلاك والتدمير ، وأخيراً تكشف عن العلة الحقيقية للتكذيب ، إنها ليست نقص الدليل ولكنه العناد الأصيل .

وهذه الأحرف ونظائرها هى الكتاب وهى القرآن ، هذه الأحرف التى فى متناول الجميع ، هى تلك الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول ، هذه الأحرف التى لا مدلول لها فى ذاتها هى القرآن الواضح الكاشف المبين ، فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين ، فسيأتى يوم يودون فيه لو كان غير ما كانوا ، ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا ، وفى هذا تبشير للنبى ﷺ بظهور دينه ، وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين ، لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره رغم الملحدين .

ويأتى تهديد لهم شديد ووعيد أكيد بأن يتركوا فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع ، يتركوا فى هذه الدوامة : الأمل يلهى والمطامع تغر ، والعمر يمضى والفرصة تضيع .

يقول صاحب الأساس : « فهمنا من الآية أن الأكل والتمتع فى الدنيا والأمل هى كل شىء بالنسبة للكافر ، وأن هذه القضايا الثلاث تشغلهم عن كل شىء ، وإذا تأملنا حال الكافرين ، وحاولنا أن نلخص أحوالهم لم نجد أبلغ مما وصفهم القرآن به ، وفى ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، إذ مثل هذه الإحاطة فى النفس البشرية ، وهذا البيان البليغ يخرجان عن طوق البشر ، وفى الآية تنبيه عظيم للمؤمنين على أن إيثار التلذذ والتمتع والانشغال بالآمال الكاذبة ، وما يؤدى إلى طول الأمل وإلى أن تصبح هذه الأخلاق عميقة الجذور فى النفس والقلب ، كل ذلك ليس من أخلاق المؤمن ، كما أن أمر الرسول ﷺ بتركهم يشير إلى أن الواجب فى حق هؤلاء ازدراؤهم واحتقار ما هم فيه ، وأى ازدراء أكبر من أن يؤمر المكلف بالتبليغ أن يترك مَنْ هذا شأنه ، وفى عصرنا حيث تعتبر قضية الطعام والمتاع ميزان التقدم ، وحيث تقوم الحركات السياسية كلها على تعليق نفس الإنسان بالآمال الدنيوية ندرك أهمية هذا التوجيه فى التربية الإسلامية » .

وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يدع هؤلاء الكافرين لما هم فيه ذكر تعليلات ذلك الأمر : فالله ـ عز وجل ـ ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم، فإذا كانت سنة الله كذلك فهؤلاء الكافرون المعاندون لك يا محمد سيأتيهم أجلهم ، ومن ثم فدعهم فيما هم فيه ونحن نتولى شأنهم .

وعلة أخرى للأمر بتركهم : هى أقوالهم المتعنتة التى تخرجهم عن طور استحقاق الدعوة والإنذار ؛ لأن أقوالهم تخرجهم عن الاتزان والإنصاف ، فقد قالوا : يامَنْ تدعى إنزال الذكر عليك إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ، فهلا آتيتنا بالملائكة يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت صادقا .

وقوم هذا منطقهم : السباب ، واقتراح خرق نظام الكون، لا يستحقون الاهتمام وإنما الترك ، ومع ذلك فقد رد الله عليهم أقوالهم بأن الملائكة ما تنزل إلا ملتبسة بالحق والحكمة ، إما بالرسالة وإما بالعذاب ، والعذاب له أجل والرسالة لها أهلها ، ولو نزَّل الله الملائكة ما كانوا منظرين ولما تأخر عذابهم ، وهذا ردٌّ على طلبهم تنزل الملائكة ، وأما اتهامهم رسول الله ﷺ بالجنون بسبب تنزل الذكر عليه ، فالرد عليه بأن الله هو الذى نزل القرآن وهو حافظه من التغيير والتبديل فى كل وقت بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فوقع التحريف ، ولم يكل حفظ القرآن إلى غيره .

ويعزى الله ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ فيخبره أنه ليس بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب ، فهكذا المكذبون دائما فى عنادهم الذميم ، وعلى هذا النحو الذى تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم ، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به ، وعلى هذا النحو يجرى هذا التكذيب فى قلوبهم التى لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال ، جزاء ما أعرضت وأجرمت فى حق الرسل المختارين نسلكه فى قلوبهم مكذبا بما فيه مستهزأ به ؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو ، سواء فى هذا الجيل أم فى الأجيال الخالية أم فى الأجيال اللاحقة فالمكذبون من طينة واحدة .

ويخبر ـ تعالى ـ عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق : أنه لو فتح لهم بابا من السماء ، فجعلوا يصعدون فيه ، لما صدقوا بذلك ، بل قالوا : سدت أبصارنا وعميت وسحرنا ساحر ، ويكفى تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزرى ، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء ، ويثبت أن ليس الذى ينقصهم هو دلائل الإيمان ، وليس الذى يمنعهم أن الملائكة لا تنزل ، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة ، إنما هم قوم مكابرون ، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف ، والشواهد الكونية أظهر وأوضح من عروجهم إلى السماء ، وهى تخاطب كل فطرة غيره معطلة خطابًا هامسًا وجاهرا ، باطنا وظاهراً ، بما لا تملك هذه الفطرة معه إلا المعرفة والإقرار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المكذبون لرسل الله فى شتى الأزمان والعصور طريقتهم واحدة فى العناد ، وسنة الله فيهم الإهلاك والتعذيب ؛ ليكونوا عبرة لمن بعدهم .

٢ ـ القرآن الكريم كتاب معجز ، تكفل الله بحفظه .

٣ ـ لكل أمة أجل محدد ، وكذلك لكل فرد لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

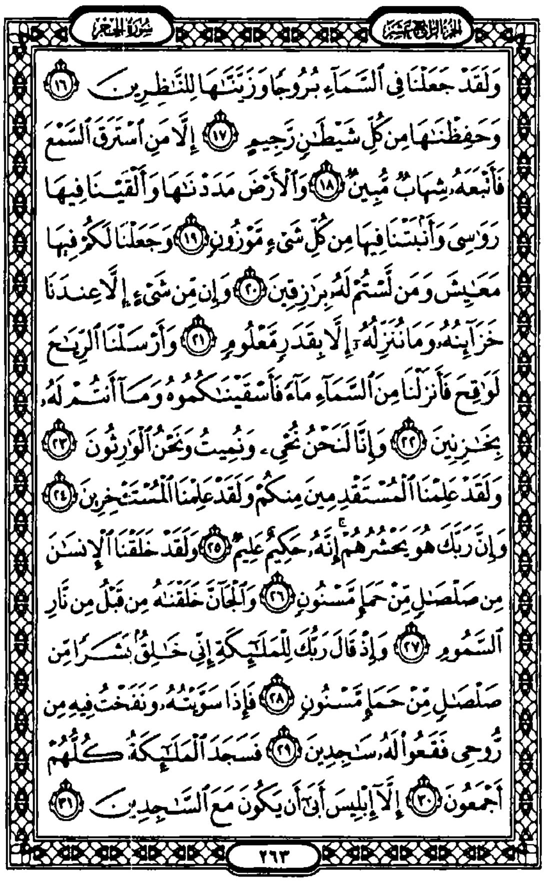
الجزء الرابع عشر | سورة الحجر

ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين (١٦)
وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) إلا من استرق السمع
فأتبعه شهاب مبين (١٨) والأرض مددناها وألقينا فيها
رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها
معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) وإن من شيء إلا عندنا
خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) وأرسلنا الرياح
لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له
بخازنين (٢٢) وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون (٢٣)
ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين (٢٤)
وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (٢٥) ولقد خلقنا الإنسان
من صلصال من حمإ مسنون (٢٦) والجان خلقناه من قبل من نار
السموم (٢٧) وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من
صلصال من حمإ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم
أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١)

٢٦٣

معانى الكلمات :

بروجا : منازل للكواكب السيارة .

استرق السمع : خطف المسموع من الملأ الأعلى .

شهاب : شعلة نار ساقطة من السماء .

موزون : مقدر بميزان الحكمة .

صلصال : طين يابس كالفخار .

حمأ : طين أسود متغير .

مسنون : مصور صورة إنسان أجوف .

نار السموم : الريح الحارة القاتلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله ـ تعالى .

٢ ـ أن نعلم قصة البشرية الكبرى ممثلة فى خلق آدم عليه السلام وعدوه اللدود إبليس اللعين .

المحتوى التربوى :

من مشهد المكابرة وكان ميدانه السماء ، إلى معرض الآيات الكونية مبدوءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد البعث والحشر ، وتنطق بآيات القدرة المبدعة ، وتشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ، وتكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما تكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير ، والبروج قد تكون هى النجوم بضخامتها والكواكب بضخامتها وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها، وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة، وشاهدة بالإبداع الجميل ، وإن نظرة واحدة شاعرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه .

ومع الزينة الحفظ والطهارة للسماء لا ينالها ولا يدنسها ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته ، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها ، أما السماء ـ وهى

رمز للسمو والارتفاع فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها إلا محاولة منه ترد كلما حاولها.

وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأى شيء يسترق ؟ كل هذا غيب من غيب ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص ، ولا جدوى فى الخوض فيه ؛ لأنه لا يزيد شيئاً فى العقيدة ، ولا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة ، ثم لا يضيف إليه ـ إدراكا جديداً لحقيقة جديدة ؛ فلنعلم أن لا سبيل فى السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعلوّ مصون لا يناله دنس ولا رجس ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد .

ويأتى ذكر الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ، وما فيها من رواسٍ ، وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء ، وكل شيء مقدر بقدر ، فهو موزون بميزان الحكمة لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان بحيث لا يطغى نوع على نوع ، أو على بقية الأنواع ، أو جنس على جنس أو على بقية الأجناس ، وجعل فى الأرض ما يعاش به ، وجعل الناس فيها من ليسوا له برازقين من الأنعام والدواب ، وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به ، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم على حسب المشيئة والحكمة البالغة والرحمة ، وأرسل الرياح تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر .

يقول صاحب الأساس : « لقد عرف الناس فى عصرنا أن السحاب أنواع ، بعضه فيه كهربائية سالبة ، وبعضه فيه كهربائية موجبة ، وأن للرياح دوراً فى الجمع بين أنواع السحاب » .

وهذا الماء جعلناه لكم سقيا بأن أنزلناه لكم عذبا منتفعا به ، وأنتم لستم بقادرين ـ حتى على خزنه ، **قال ابن كثير**: « ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع فى الأرض ، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا ، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار ، وغير ذلك ليبقى لهم فى طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم » .

ويقول صاحب الأساس : « ويحتمل معنى آخر يذكره المفسرون .. ، وهو أن مجموع الماء الموجود فى الأرض لا يزيد ولا ينقص ، ومن ثم فحبس هذا الماء على الأرض وفى جوها ما كان ليكون لولا أن الله جعل هذه الأرض على ما هى عليه ، فالآية قد يراد بها هذا ؛ أى وما أنتم بحابسين هذا الماء على الأرض وجوها حتى لا يفر من جو الأرض، ولكن الله هو الذى فعل لكم ذلك » .

ويتم السياق رجع كل شيء إلى الله ، فيرد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور ، فالحياة والموت بيد الله ، وهو الوارث بعد الحياة ، ويعلم من كتب عليهم أن يستقدموا فيتوفوا ، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا فى الوفاة ، وأنه هو الذى يحشرهم فى النهاية ،

وإليه المصير ، يقدر لكل أمة أجلها بحكمته ، ويعلم متى تموت ومتى تحشر ، وما بين ذلك من أمور .

ونجىء إلى قصة البشرية الكبرى : قصة الفطرة الأولى قصة الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة ، قصة آدم . مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟

ولقد مرت هذه القصة معروضة مرتين من قبل فى سورة البقرة وفى سورة الأعراف ، ونقطة التركيز فى السياق هنا هى سر التكوين فى آدم ، وسر الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة فى كيان الإنسان ، ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، فيقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال ـ وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن ، والنار الموسومة بأنها شعواء سامة ، وطبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم ، من نار الريح الشديد الحَرّ .

ويذكر ـ تعالى ـ تنويهه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس ـ عدوّه ـ عن السجود له من بين سائر الملائكة ـ حسدا وكفرا ، وعناداً واستكباراً .

يقول صاحب الظلال : « وإبليس خلق آخر غير الملائكة ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، أما الاستثناء هنا فليس على وجهه ، إنما هو كما نقول حضر بنو فلان إلا أحمد وليس منهم ، إنما هو معهم فى كل مكان أو ملابسة ، وأما أن الأمر المذكور للملائكة ... فكيف شمل إبليس ؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحا فى سورة الأعراف ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ وأسلوب القرآن يكتفى بالدلالة اللاحقة فى كثير من المواضع ، فقول الله ـ تعالى ـ له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ قاطع فى أن الأمر قد صدر له ، وليس من الضرورى أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة ، فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم فى ملابسة ما ، وقد يصدر إليه منفردا ، ولا يذكر تهوينا لشأنه وإظهاراً للملائكة فى الموقف ، ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة وهذا ما نختاره » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ حفظ الله السماء من الشياطين الذين كانوا يتسمعون إلى أخبار الملأ الأعلى .

٢ ـ قدرة الله ـ تعالى ـ الباهرة التى نرى آثارها فى جميع ما حولنا من مخلوقات الله ـ تعالى .

٣ ـ يجب أن نتفكر فى كل ما حولنا ؛ ليزداد إيماننا بعظمة الله وحكمته .

سورة الحجر — الجزء الرابع عشر

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمۡ أَكُن
لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ (٣٣) قَالَ
فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِىٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغۡوَيۡتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٣٩)
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ
مُسۡتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٣)
لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ (٤٤) إِنَّ
ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦)
وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
(٤٧) لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ (٤٨)
۞ نَبِّئۡ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى
هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ (٥١)

الحزب ٢٧

٢٦٤

معانى الكلمات :

رجيم: مطرود من الرحمة مرجوم بالشهب.

الوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى .

صراط علىّ : حق علىّ مراعاته .

سلطان : تسلط وقدرة على الإغواء .

جزء مقسوم : فريق معين متميز عن غيره .

غل : حقد وضغينة وعداوة .

نصب : تعب وإعياء .

نبئ : أخبر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف إبليس من السجود لآدم وعصيانه لأمر الله .

٢ ـ أن نعلم عداوة إبليس لآدم وذريته .

٣ ـ أن نؤمن بالعذاب والنعيم فى الآخرة ، وأن الجنة للمتقين وجهنم للكافرين .

المحتوى التربوى :

يوجه السؤال إلى إبليس ما الغرض من إبائك السجود ؟ وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان فى ذلك المخلوق من نار السموم ، وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التى تلابس هذا الطين ، وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه فى عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ، وكان ما ينبغى أن يكون ، فكان جزاء العصيان والشرود أن أمر إبليس أمراً كونيا لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه مرجوم وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به لاحقة ، متواترة عليه إلى يوم القيامة .

عندئذ تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر ، فطلب النظرة إلى يوم البعث ؛ لا ليندم على خطيئته فى حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم ، ولكن لينتقم من آدم وذريته ـ جزاء ما لعنه الله وطرده ـ يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله فى تبجح نكير ، وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة ، إنها الأرض ، وحدد عدته فيها إنه التزيين ، تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه ، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله وتظهره فى غير حقيقته ورداته ، فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ، وليحذروا كلما وجدوا فى أمر تزييناً ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء ، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان ـ بشرطه هو ـ على عباد الله المخلصين من سبيل ، والله يتخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه .

ويقول الله ـ تعالى ـ له متهدداً ومتوعداً : إن مرجعكم كلكم إلىَّ ، فأجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذه سنة وهى السنة التى ارتضتها الإرادة قانوناً وحكما فى الهدى والضلال ، وعباد الله المخلصون ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ؛ ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك فى حمى ؛ ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله ، إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين ، والشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع ، فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع .

وأما العاقبة ، عاقبة الغاوين فهى معلنة فى الساحة منذ البدء ، فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات ، والغواية ألوان وأشكال ، ولكل باب منهم جزء مقسوم بحسب ما يكونون وما يعملون .

وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين ، والمتقون هم الذين يرقبون الله ، ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه ، ولعل العيون فى الجنات تقابل فى المشهد تلك الأبواب فى جهنم ، وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين فى مقابل الخوف والفزع هناك ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، فى مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا ، جزاء ما خانوا فى الأرض واتقوا ، فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم .

يقول صاحب الظلال : « ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التى وعد بها المتقون ، وبين الاتجاه إلى جهنم التى وعد بها الغاوون ، هو الدينونة لله وحده ـ التى يعبر عنها فى القرآن دائما بالعبادة ـ أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة ، والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله ـ سبحانه ، ولا صفاته أى إنه لم يكن يلحد فى الله من ناحية العقيدة ، إنما الذى فعله هو

الخروج على الدينونة لله ، وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين ... ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ، واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع ، فالدينونة لله كل لا يتجزأ ... ، وهذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر فى هذه الأرض ، ولا تحويلهم خلقا آخر ، ومن ثم يعترف لهم بأنه كان فى صدورهم غل فى الدنيا ، وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التى لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها ؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتنصرف إلى الحب فى الله والكره فى الله ، وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ولكنهم فى الجنة وقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها فى الحياة ، ينزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم ، ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود » .

ويقول صاحب الأساس : « إن الشيطان قد يحرش بين المؤمنين ، فيقع بينهم ما يقع ، فإذا دخلوا فى طور سيئ جرهم ذلك إلى ماهوا أسوأ ، وهكذا ، فإذا كانت لهم نية صالحة فى قضية يحتملها الاجتهاد ، فإنه يرجى للجميع النجاة ، ولكن بعد وقفة ، أفلا تكفى هذه الوقفة كى يبتعد الإنسان عن كل موطن يؤدى إلى أن يكون فى قلبه غل على إخوانه ، أو أن يكون سببا فى إيجاد غل فى قلب غيره عليه » .

ويجىء الأمر للرسول ﷺ بعد ذكر جزاء الغاوين ، وجزاء المتقين ، ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب جريا على الأصل الذى ارتضت مشيئته ، فقد كتب على نفسه الرحمة ، وإنما يذكر العذاب وحده أحيانا ، أو يقدم فى النص لحكمة خاصة فى السياق تقتضى إفراده بالذكر أو تقديمه .

وتأتى الآيات بعد ذلك بنماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة فى قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، وتجىء قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط ، وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط فى مواضع متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذى وردت فيه ، ووردت قصة لوط وحده فى مواضع أخرى ، وقد مرت حلقة من قصة لوط فى الأعراف ، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط فى هود ... وليس المقصود هو القصة بترتيبها الذى وقعت به ، ولكن تصديق النذير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - عداوة إبليس لآدم وذريته من قديم الزمان ، ووجوب الحذر من كيده .

٢ - الشيطان وأعوانه ليس لهم سلطة ولا قدرة على عباد الله المخلصين .

٣ - يجب على المسلم أن يجمع بين الرجاء والخوف .

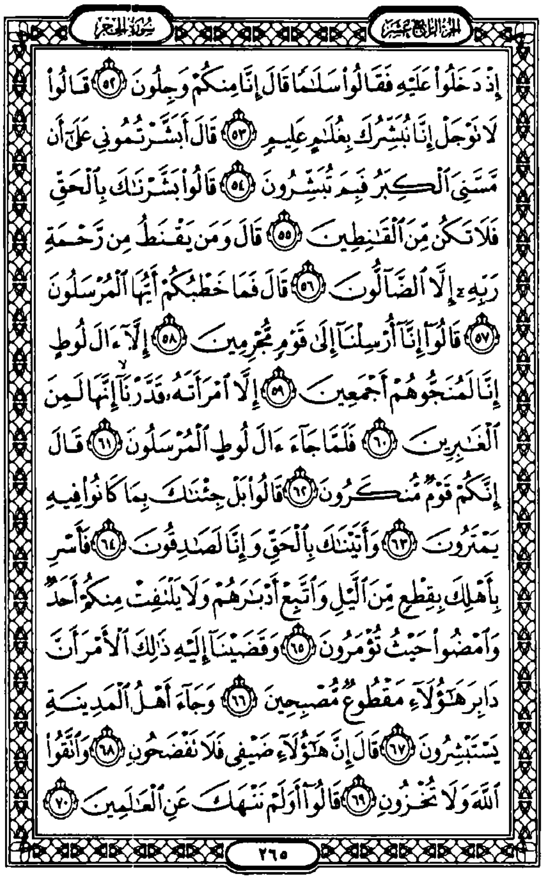

الجزء الرابع عشر سورة الحجر

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن
مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

٢٦٥

معانى الكلمات :

وجلون : خائفون فزعون .

القانطين : الآيسين من الخير أو الولد .

خطبكم : شأنكم .

الغابرين : الباقين فى العذاب مع غيرها .

يمترون : يشكون .

بقطع : بطائفة .

قضينا إليه : أوحينا إليه .

دابر هؤلاء : آخرهم ، والمراد جميعهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام من أضيافه من الملائكة .

٢ ـ أن نعرف سبب إرسال الملائكة إلى قوم لوط عليه السلام .

٣ ـ أن نعرف موقف أهل سدوم من أضياف سيدنا لوط عليه السلام .

المحتوى التربوى :

يقول ـ تعالى ـ أخبر أمتك عن أضياف إبراهيم ؛ لأن هذا الإخبار يدلهم على سنة الله فى أوليائه ، وعلى سنته فى أعدائه فى الدنيا بعد أن عرفوا من قصة آدم عليه السلام ونهايتها سنته فى أوليائه وأعدائه فى الآخرة ، كما أن فى هذا الإخبار تعريفا لهم على سنته فى إنزال الملائكة الذى اقترحه الكافرون فى أول السورة ، فهو ينزلهم إما لتكريم رسول أو لتعذيب المكذبين .

فالسياق يذكر ضيف إبراهيم وكيف دخلوا عليه فقالوا نسلم سلاما ، ولما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة وهو العجل الحنيذ قال : إنا منكم خائفون ، فردوا عليه لا تخف ، وعجلوا له البشرى بغلام عليم ، واستبعد إبراهيم فى أول الأمر أن يرزق بولد فقد مسه الكبر ، وزوجته كذلك عجوز عقيم ، فرده الملائكة إلى اليقين وأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً ،

وبشارة بعد بشارة ، فلا تكن من اليائسين ، فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

يقول صاحب الظلال : « وبرزت كلمة « الرحمة » فى حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة فى هذا السياق ، وبرزت معها الحقيقة الكلية : إنه لا يقنط من رحمه ربه إلا الضالون ، الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته ، فأما القلب الندى بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل فى ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر ، فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين ، وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود » .

وهنا ـ وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته ، ولا يعرض السياق لجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له فى سورة هود ، بل يصل إخبار الملائكة له ، بالنبأ كله ، وذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامرأته وقومه ، وينتهى بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط .

ويعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاؤوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم ـ بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ؛ تصديقا لوعد الله ، وتوكيداً لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء ، وجاؤوا لوطا فأنكرهم، فقال : لا أعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايمى : « أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى ، والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم » .

قالها ضيق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم فجرة فاحشون ، إنكم قوم منكرون أن تجيؤوا إلى هذه القرية وأهلها ـ مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون ، وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه ، وهو فى حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم فى وجه قومه ، فجاءه التوكيد بعد التوكيد لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه .

فهم ما جاؤوا إلا بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ، وأنهم ما جاؤوا إلا بالحق وأنهم صادقون ، ثم يذكر ـ تعالى ـ عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشى وراءهم ؛ ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزو ، وإنما يكون ساقة ، يُزجى الضعيف ويحمل

المنقطع ، ولوط ﷺ يكون فى مؤخرتهم يفقدهم ولا يدع أحداً منهم يتخلف أو يتلكأ أو يلتفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلكؤون ، وكان الموعد هو الصبح ، والصبح قريب .

وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير : إن آخر هؤلاء القوم ـ وهو دابرهم ـ مقطوع فى الصباح ، وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم ، والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التى لا تبقى أحدا ، فلا بد من الحرص واليقظة كى لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين .

ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها ، لقد تسامعوا بأن فى بيت لوط شبانا صباح الوجوه ، ففرحوا بأن هناك صيداً ، والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذى وصل إليه القوم فى الدنس والفجور فى الفاحشة الشاذة المريضة ، يكشف عن هذا المدى فى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، وهذه العلانية الفاضحة فى طلب هذا المنكر ـ فوق المنكر ذاته ـ شىء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع ، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة فى الخفاء ، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس ، وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية ، بل حين تكون شرعية ، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك ، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ؛ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه ، فهؤلاء ضيفه ؛ ومن أساء إلى ضيفه فقد أساء إليه، فقال لقومه : لا تؤذونى بإذلال ضيفى وإهانته، فكان الرد الجافى : أو ما نهيناك أن تضيف أحداً أو تدفع عن أحد ؟ !

لقد سلك النبى لوط ﷺ مع قومه كل سبيل ، ولم ييأس فقد خاطب فيهم المروءة والنبل ، لأنه لم يكن يأوى إلى ركن شديد فى قومه ، وعندما يأس من استدرار المروءة فيهم ، خاطب فيهم فطرتهم المرتكسة ليوقظها لكن هذه الفطرة قد ماتت

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ مشروعية السلام لمن يدخل على الإنسان ووجوب الرد عليه .

٢ ـ يجب على الزائر أن يفصح عن الغرض من زيارته بعد أن يعرف صاحب البيت بنفسه .

٣ ـ الإسراع بتبليغ الأخبار السارة ، واللطف فى توصيل الأخبار السيئة .

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٧٧) وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨)
فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ (٧٩) وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ
(٨١) وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٨٤)
وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ
ٱلۡعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ
وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٨٨) وَقُلۡ إِنِّيٓ
أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ (٩٠)

٢٦٦

معانى الكلمات :

سكرتهم : غوايتهم وضلالتهم .

يعمهون : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

سجيل : طين متحجر طبخ بالنار .

للمتوسمين : للمتأملين المتفرسين .

أزواجاً : أصنافاً .

اخفض جناحك : تواضع وألن جانبك .

المقتسمين : أهل الكتاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جزاء قوم لوط وما نزل بهم من العذاب .

٢ ـ أن نعلم جزاء قوم شعيب ، وقوم صالح وكلهم كانوا ظالمين .

٣ ـ أن نؤمن بقدرة الله ، وأن الساعة آتية لا محالة .

المحتوى التربوى :

يمضى لوط فى محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليمة إلى الجنس الآخر ، إلى الإناث اللواتى جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق فى نظام الحياة ؛ ليكون النسل الذى تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معاً ـ فى الحالات الطبيعية ـ ليكون هذا ضماناً لامتداد الحياة ، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة .

يمضى لوط فى محاولته هذه لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا ، وإنما يرشدهم إلى نسائهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة ، فهو يلوح لهم بالطريق الطبيعى ـ الذى ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة ، وبينما هذا المشهد معروض ، القوم فى سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون ، ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش

وجدانهم ، ويحرك دواعى الفطرة السليمة فيهم ، وهم فى سعارهم مندفعون ، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم البلاء ، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر .

ثم تكون الخاتمة ، وتحق عليهم كلمة الله ، وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة ، وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف ، وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيخ فى الأرض .

يقول صاحب الظلال : « إننا نعلم علم اليقين أن الظواهر الكونية كلها تجرى وفق ناموس الله الذى أودعه هذا الكون ، ولكن كل ظاهرة وكل حدث فى هذا الكون لا يقع بأية حتمية إنما يقع وفق قدر خاص به ، بلا تعارض بين ثبات الناموس وجريان المشيئة بقدر خاص لكل حدث كذلك نحن نعلم علم اليقين أن الله ـ سبحانه ـ يجرى فى حالات معينة أقداراً معينة لوجهة معينة، وليس من الضرورى أن يكون ذلك الذى دمر قرى لوط زلزال أو بركان عادى ، فقد يريد الله أن ينزل بهم ما يشاء ، وقتما يشاء ، فيكون ما يشاء ، وفق ما يشاء ، وهذا هو المنهج الإيمانى فى تفسير معجزات الرسل أجمعين » .

وقرى لوط تقع فى طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس إلى اليوم ، وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة فى مصارع الغابرين ، وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقى والتدبر واليقين ، وهكذا صدق النذير ، وكان نزول الملائكة إيذانا بعذاب الله الذى لا يرد ولا يمهل ولا يحيد .

كذلك كان الحال مع قوم شعيب أصحاب الشجر الملتف الكثيف الذين ظلموا بشركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا قال ـ تعالى : إنها بطريق ظاهر مبين غير مندثر ، ووقوع القرى الداثرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة .

أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وهى ظاهرة إلى اليوم ، فقد نحتوها فى الصخر فى ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيدى والحضارة وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح ، ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ، فلما كذبه قومه قيل : إنهم كذبوا المرسلين ، توحيداً للرسالة وللرسل وللمكذبين ، فى كل أعصار التاريخ ، وفى كل جوانب الأرض على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام ، وآية

صالح كانت الناقة ، ولكن الآيات فى هذا الكون والأنفس كثيرة ، وكلها معروضة للأنظار والأفكار ، وقد أعرضوا عن آيات الله كلها .

وتأتى اللمحة الخاطفة من أمنهم فى البيوت الحصينة التى نحتوها فى صلب الجبال ، إلى الصيحة التى تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك الخاطف ، هذه اللمحة تلمس القلب البشرى لمسة عنيفة ، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة فى صلب الصخور ، وما يبلغ الاطمئنان بالناس فى وقت الصباح المشرق الوديع ، وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم فى ديارهم الحصينة آمنون ، فإذا كل شىء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل جهد لا يغنى صاحبه شيئا متى جاء أمر الله .

ويأتى التعقيب بتقرير الحق الذى تقوم به السموات والأرض ، والذى به كان خلقهما وما بينهما ، ويتصل الحق الذى خلق الله به السموات والأرض وما بينهما بالساعة الآتية لا ريب فيها ، فهى آتية لا تتخلف ، وهى جزء من الحق الذى قام به الوجود ، فهى فى ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتحق الحق ، فلا تشغل قلبك بالحنق والحقد ، وأعرض عنهم إعراضا جميلاً بحلم وإغضاء ، والله ـ تعالى ـ هو الخلاق الذى خلق كل شىء ، العليم بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم ، وهو يحكم بينكم ، وفى هذا تقرير للمعاد .

يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التى جاء بها الرسول ، وذلك القرآن الذى أوتيه ، والمثانى الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع ، فهى تثنى وتكرر فى الصلاة ، أو يثنى فيها على الله ، والقرآن العظيم ـ سائر القرآن ، ومن أوتى هذا لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشىء زائل فى هذه الأرض من أعراضها الزوائل ، ولا إلى ما متع به أهلها فلا يغمطهم بما هم فيه ولا تذهب نفسه حسرات ـ حزنا عليهم فى تكذيبهم لك ، وألن جانبك للمؤمنين ، وأخبر الناس أنك النذير من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حلَّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء،فكأنهم كانوا لا يكذبون بشىء إلا أقسموا عليه.

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ فى الزواج عفة وطهارة ، وصيانة للكرامة وللأسرة ، وللحقوق .

٢ ـ للمؤمن فراسة ونظر ثاقب وبصيرة ملهمة ؛ لأنه يرى بنور الله .

٣ ـ يجب أن نتعظ بمن سبقنا ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين .

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٢٦٧

معانى الكلمات :

عضين : أجزاء وأعضاء .

فاصدع : فاجهر .

اليقين : الموت المتيقن .

أمر الله : الساعة أو العذاب .

بالروح : بالوحى .

خصيم : شديد الخصومة بالباطل .

تريحون : تردونها آخر النهار .

تسرحون : تخرجونها أول النهار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الرسول ﷺ معصوم بالله من أذى الناس وشرهم .

٢ ـ أن نعلم أن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء .

٣ ـ أن نستشعر قدرة الله ، ونتعرف على بعض مظاهرها .

المحتوى التربوى :

يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضى فى طريقه ، يجهر بما أمره الله أن يبلغه ، ويسمى هذا الجهر صدعاً ـ أى شقا ـ دلالة على القوة والنفاذ ، لا يقعده عن الجهر والمضى شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم ، ولا استهزاء مستهزئ فقد كفاه الله شر المستهزئين ، والرسول ﷺ يستر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق ، فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعباد من سوء ما يسمع من القوم ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذى ما بعده يقين ـ الأجل ـ فيمضى إلى جوار ربه الكريم .

يقول صاحب الظلال : « إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ، والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها ضرورة فى الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوى النافذ هو الذى يهز الفطرة الغافية ، ويوقظ المشاعر المتلبدة ، ويقيم الحجة على الناس ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال : ٤٢) أما التدسس الناعم بهذه العقيدة ، وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانباً ويكتم جانبا ؛ لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ، فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية ، والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعنى الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة .. » .

سورة النحل

تلم هذه السورة بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد ﷺ ، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم ، وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان ، وجزاء هذا كله عند الله ، ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها » .

وتبدأ السورة بالتوحيد ، وأدواته هى آيات الله فى الخلق ، وآياته فى النعمة ، وعلمه الشامل فى السر والعلانية ، والدنيا والآخرة ، ولقد كان مشركو مكة يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء ، وزادوا استهتاراً ، وحسبوا أن محمداً ﷺ يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ؛ ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ، ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن ، وجاء مطلع السورة حاسماً جازما : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يوحى بصدور الأمر وتوجه الإرادة ، وهذا يكفى لتحققه فى الموعد الذى قدره الله لوقوعه ، فلا تستعجلوه فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء ، فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضى وانتهى ، وأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى عما يشركون به بكل صوره وأشكاله ، الناشئة عن هبوط فى التصور والتفكير .

والله ـ عز وجل ـ لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم ، فهو ينزل الملائكة بالوحى أو بالقرآن ، وهو من الوحى ؛ وسمى الوحى والقرآن روحا لأنه يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد ، أو لأنه يحيى القلوب الميتة ، والملائكة

تنزل على الأنبياء لينذروا بالوحدانية فى الألوهية ، روح العقيدة ، وحياة النفس ، ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيى والاتجاه المدمر ، فالنفس التى لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة ؛ ولذا كان الإنذار ليتقى الناس عقوبة الله لمن خالف أمره وعبد غيره .

ثم يأخذ فى عرض الآيات ـ آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ، وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم ، يعرضها فوجاً فوجاً ، ومجموعة مجموعة بادئا بخلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، فيخبر ـ تعالى ـ عن خلقه العالم العلوى وهو السموات ، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث ، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له .

ثم نبه على خلق جنس الإنسان وأنه من نطفة ضعيفة مهينة ، فلما استقل ودَرَج إذا هو يخاصم ربه ـ تعالى ـ ويكذبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً .

ويأخذ السياق فى استعراض خلق الله الذى سُخر للإنسان ، ويبدأ بالأنعام ، وهى الإبل والبقر والغنم ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر ، وتلبية لأشواقهم كذلك، ففى الأنعام دفء ومنافع وأكل وشرب ـ كما أشرنا ، وفيها كذلك جمال عند الإراحة فى المساء وعند السروح فى الصباح ، جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة ، وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة .

قال النسفى : « منَّ الله تعالى بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها ؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشى ؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس.. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ـ أهمية الاشتغال بذكر الله ، وتحميده وتسبيحه ، وعبادته التى هى الصلاة .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ منزه عن كل نقص وعن الشريك وهو المستقل بالخلق وحده ، ويستحق أن يعبد وحده دون سواه .

٣ ـ فى جميع مخلوقات الله دلائل على قدرته ووحدانيته وفيها منافع كثيرة للناس .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم
بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ
الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

٢٦٨

معانى الكلمات :

أثقالكم : أمتعتكم الثقيلة الحمل .

بشق الأنفس : بمشقتها وتعبها .

قصد السبيل : بيان الطريق الواضح المستقيم .

جائر : مائل عن الحق منحرف عنه .

تسيمون : ترعون دوابكم .

ذرأ : خلق وأبدع .

مواخر : تشق الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض دلائل قدرة الله ـ تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن هناك من مخلوقات الله ما لم يصل إليه العقل البشرى .

٣ ـ أن نؤمن أن طريق الحق يوصل إلى مرضاة الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى استعراض خلق الله الذى سخره للإنسان فيذكر أن من الأنعام من تحمل الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها إلى بلد بعيدة لا يصل إليها المريد إلا بعد جهد جهيد ، وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ، ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم .

وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة ، وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة ،

وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات ، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

ويعقب السياق بما يجعل المجال مفتوحاً فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود الهيئة ، وخارج حدود الزمان الذى يظلهم ، فوراء الموجود فى كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعاودها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها ، ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها .

يقول صاحب الظلال : « إن الإسلام عقيدة مفتوحه مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدرات الحياة كلها ، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله ـ بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة » .

ولما ذكر فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هى موصلة إليه ، فقال : إن طريق الحق على الله ، فإن ثم طرقا تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وعداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أى : حائد مائل زائغ عن الحق ، ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئة ، ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال ، فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر ، وكلاهما لا يخرج على مشيئته الله ، التى قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

ولما ذكر ـ سبحانه ـ ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء عما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أى : جعله عذبا زلالا ، يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحا أجاجا ، وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم ، ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى ، والزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب ، وغيرها من أشجار الثمار يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، والذين يتفكرون هم الذين يدركون

حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالتها على الخالق ، وعلى وحدانية ذاته ، ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره، أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية فى الصباح والمساء ، فى الصيف والشتاء فلا توقظ تطلعهم ، ولا تثير استطلاعهم ، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

وينبه ـ تعالى ـ عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام ، فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات فى أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله ـ تعالى ـ فيه ، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، وفى هذا دلالات على قدرة الله الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

ونبه ـ سبحانه ـ على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، وفى ذلك لآية ودليل لقوم يذكرون ولا ينسون أن يد القدرة هى التى خبأت لهم هذه الكنوز ، فيشكرون الله ـ عز وجل .

ويخبر ـ تعالى ـ عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره وتشقه بجؤجئها وهو صدرها المسنم ـ الذى أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك ، إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام ، ويوجهنا السياق أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه ـ إلى ابتغاء فضل الله ورزقه ، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال فى ذلك الملح الأجاج .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن نؤمن بقدرة الله ـ تعالى ـ فيما نشاهده فى هذا الكون .

٢ ـ لا يوصل إلى الله ومرضاته إلا طريق الحق ، وهى طريق الإسلام .

٣ ـ المياه من النعم العظيمة التى يجب أن نصونها ، ونحافظ عليها من التلوث والإسراف .

٤ ـ الحث على طلب الرزق والسعى على المعاش وشكر الله على نعمه .

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

معانى الكلمات :

رواسى : جبالا ثوابت .

تميد : تتحرك وتضطرب .

علامات : معالم للطرق تهتدون بها .

لا تحصوها : لا تطيقوا حصرها .

لا جرم : لا محالة .

أساطير الأولين: أباطيل السابقين فى كتبهم.

أوزارهم : آثامهم وذنوبهم .

القواعد : العمد والدعائم والأساس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض دلائل قدرة الله ـ تعالى ـ فيما نشاهده فى هذا الكون .

٢ـ أن نعلم أن أى عاقل لا يمكن أن يسوى بين الله ـ تعالى ـ وبين من هو دونه من المخلوقات.

٣ ـ أن نعلم أن المرء سوف يتحمل خطيئة ضلاله فى نفسه وخطيئة إغوائه لغيره ، واقتداء غيره به .

المحتوى التربوى :

يذكر الله ـ تعالى ـ الأرض وما جعل فيها من الرواسى الشامخات ، والعلم الحديث يعلل وجودها ، ولكنه لا يذكر وظيفتها التى يذكرها القرآن هنا ، يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه ، وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات ، ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض ؛ لتقر الأرض ولا تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك .

وفى مقابل الجبال الرواسى يوجه النظر إلى الأنهار الجوارى ، والسبل السوالك ، والأنهار ذات علاقة طبيعية فى المشهد بالجبال ، ففى الجبال فى الغالب تكون منابع الأنهار ، حيث مساقط ـ الأمطار ، والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار ، وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال ، وإلى جوار ذلك معالم الطرق التى يهتدى بها السالكون فى الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات ، وفى السماء من النجم الذى يهدى السالكين فى البر والبحر سواء .

ثم قال ـ تعالى ـ منبها على عظمته ، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان ، التى لا تخلق شيئا ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ ، ويأتى التعقيب يجىء فى أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه، فهل هنالك إلا جواب واحد : لا وكلا : أفيجوز أن يسوى إنسان فى حسه وتقديره ، بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق ـ لا كبيراً ولا صغيرا ؟ وهذا الأمر يحتاج إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين .

ثم نبههم الله ـ تعالى ـ على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فالله ـ تعالى ـ يتجاوز عنا ، ولو طالبنا بشكر جميع نعمه لعجزنا عن القيام بذلك ، ولو أمرنا به لضعفنا وتركنا ، ولو عذبنا لعذبنا وهو غير ظالم لنا ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازى على اليسير ، والخالق يعلم ما خلق يعلم الخافى والظاهر ، فكيف يسوونه فى حسهم وتقديره هم بتلك الآلهة المدعاة ، وهم لا يخلقون شيئاً ولا يعلمون شيئا ، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق ، ومن ثم فهم لا يشعرون .

يقول صاحب الظلال : « والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لابد أن يعلم موعد البعث ، لأن البعث تكملة للخلق ، وعنده يستوفى الأحياء جزاءهم على ما قدموا ، فالآلهة التى لا تعلم متى يبعث عبادها هى آلهة لا تستحق التأليه ، بل هى سخرية الساخرين ، فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق » .

ويقرر السياق وحدة الألوهية،ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة، فالجحود صفة كامنة فيهم تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون ، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم ، ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة ، بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء ، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ، ويتجلى عدله فى الجزاء ، والله الذى خلق هؤلاء الكافرين يعلم ما يسرون وما يعلنون ، يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم ، والقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم ، ومن ثم فهم مكرهون من الله لاستكبارهم الذى يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم .

وهؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التى لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا عما أنزل الله لم يجيبوا الجواب الطبيعى المباشر ، فيتلوا شيئاً من القرآن أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء فى

النقل ولو لم يعتقدوه ، إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون عن القرآن ما هو إلا : حكايات وهمية حافلة بالخرافة ، هكذا يصفون هذا القرآن الذى يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ويؤدى بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته ، وبئس شيئا يزورونه ذلك .

وقد كانت حرب داعية منظمة تديرها قريش على الدعوة ، ويديرها أمثال قريش فى كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان ؛ لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من يتكر ، وليسوا أول من يمكر ، والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم ، ومصيرهم يوم القيامة ، بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا فى الآخرة جزاءهم، والتعبير يصور هذا المكر فى صورة بناء ذى قواعد وأركان وسقف ، إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته ، ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره ، فقلع الله بنيانهم من قواعده وأسسه ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم ، والإتيان يتجوز به عن الإهلاك ، وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ويزلزلهم من تحت أرجلهم فالقواعد التى تحمل البناء تتحطم وتتهدم من أساسها والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم ، وإذا البناء الذى بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه ، إذا هو مقبرتهم التى تحتويهم ، ومهلكتهم التى تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهو الذى اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته .

إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ، وهو مشهد مكرر فى الزمان قبل قريش وبعدها ، ودعوة الله ماضية فى طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدبر المدبرون ، وهذا يقع فى الدنيا ، وهكذا يضرب الله مثلا لهؤلاء الذين يحتالون كل حيلة فى إضلال الناس وإحالتهم إلى الكفر بكل وسيلة ، ويبين ما يفعل بهم فى الدنيا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا ينبغى العبادة إلا لله ـ تعالى ـ دون ما سواه ؛ لأنه هو الذى يخلق وغيره مخلوقون .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزى كل عامل بعمله يوم الحساب .

٣ ـ كل إنسان ضلَّ عن الحق وأضل غيره ، فسوف يتحمل ذنبه وذنب إغوائه غيره ، ولا يخفف عمن أطاعه من العذاب شيئاً .

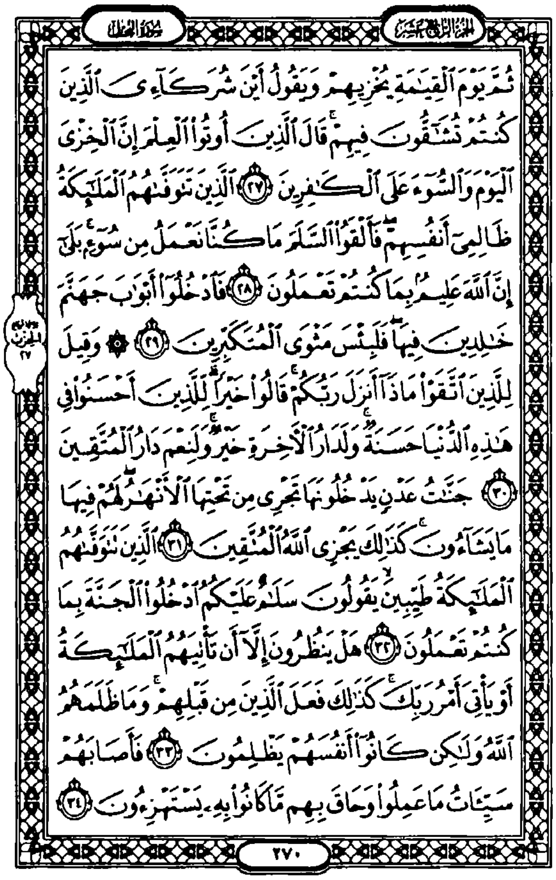
الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ الحزب ٢٧
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧٠

معانى الكلمات :

يخزيهم : يذلهم ويهينهم بالعذاب .

تشاقون فيهم: تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم .

الخزى: الذل والهوان .

السوء : العذاب .

فألقوا السلم : فأظهروا الاستسلام .

مثوى المتكبرين : مأواهم ومقامهم ومنزلهم .

طيبين : طاهرين من دنس الشرك .

حاق بهم: نزل بهم العذاب جزاء كفرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الخزى من الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لأهل الشرك به والمعاصى .

٢ ـ أن نؤمن بقدرة الله واستسلام الظلمة عند الموت وانهزامهم وكذبهم .

٣ ـ أن نعلم أن البشرى لأهل الإيمان والتقوى عند الموت ، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم فى جوار رب العالمين .

المحتوى التربوى :

يرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزى ، وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر ، وجاؤوا إلى صاحب الخلق والأمر ، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب : أين شركائى الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين ، وتجادلون فيهم المقرين والموحدين ؟

ويسكت القوم من خزى لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين ، وقد أذن الله لهم أن يكونوا فى هذا اليوم متكلمين ظاهرين ، مخبرين عن الحق فى الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ : إن الفضيحة والعذاب اليوم بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه .

ويعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة ، يعود بهم إلى ساعة الاحتضار ، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين ، وبما أوردوها موارد الهلاك ، وبما قادوها فى النهاية إلى النار والعذاب ، ويرسم مشهدهم فى ساعة الاحتضار ، وهم قريبو عهد بالأرض ، وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد ، فإذا هم قد أظهروا السمع والطاعة والانقياد ، وإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام ، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ، ثم يكذبون فيقولون:﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين.

ويجيئهم الجواب : ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ من العليم بما كان منهم ، فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه ، ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين ، بأن يدخلوا أبواب جهنم مخلدين فيها ، ولبئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، ويأتى أجسادهم فى قبورهم من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم .

وعلى الجانب الآخر الذين اتقوا يقابلون المنكرين المستكبرين فى المبدأ والمصير ، فالمتقون يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهى وتوجيه وتشريع ، فيلخصون الأمر كله فى كلمة : ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله ، فيقولون : من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا ، ودار الآخرة نعم الدار لمن اتقى ربه ، ويفصل ما أجمل عن هذه الدار ، فإذا هى جنات عدن للإقامة ، تجرى من تحتها الأنهار رخاء : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هى الحياة الدنيا ، وكذلك يجزى الله المتقين .

ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين ، فإذا هم فى مشهد الاحتضار ، وهو مشهد هين لين كريم ، فهم طيبون مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة وهم على أعتاب الآخرة ، جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون .

وفى ظل المشهد بشقيه ، مشهد الاحتضار ومشهد البعث ، يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش : ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم ،

وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة ، وماذا ينتظرهم يوم يبعثهم الله أوليس فى مصيرهم المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلا فى ذلك المشهدين عبرة وغناء .

وعجيب أمر الناس ، فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم ، ثم يظلون سادرين فى الطريق غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضى وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطى دائماً نتائجها ، وأن الأعمال تلقى دائماً جزاءها ، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم ، وبما تمادى فيه هؤلاء المشركون ظلموا أنفسهم وذلك بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ؛ وما ظلمهم الله لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرساله رسله وإنزال كتبه ، وأحاط بهم من العذاب الأليم ، ما كانوا به يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله ، وما قسا الله عليهم فى عقوبة ، إنما قست عليهم سيئات أعمالهم ؛ لأنهم أصيبوا بها ـ أى نتائجها الطبيعية وجرائرها .

يقول صاحب الظلال : « ولهذا التعبير وأمثاله دلالة ، فإنهم لا يُعاقبون بشىء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية ، وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية ، وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية فى دركات المقام المهين ، والعذاب الأليم » .

فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ كلمة ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ **يقول الإمام فخر الدين الرازى** : « كلمة طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الطيبة ، مبرئين عن الأخلاق المذمومة » .

وفى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ **يقول أيضا الإمام فخر الدين الرازى**:« هذه الشبهه الثانية لمنكرى النبوة ـ بعد قولهم إن هذا الذكر أساطير الأولين ـ فإنهم طلبوا من النبى ﷺ أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد فى ادعاء النبوة ، ويحتمل أن يقال : إن الكفار لا ينزجرون عن أقوالهم الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ثبوت عذاب القبر ، ومجىء الملائكة عند الاحتضار ساعة خروج الروح لقبض الأرواح.

٢ ـ من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الدار الآخرة خير من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن
شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ
كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ
لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٢٧١

معانى الكلمات :

اجتنبوا الطاغوت : اجتنبوا كل معبود باطل وكل داع إلى ضلالة .

حقت : ثبتت ووجبت .

جهد أيمانهم : مجتهدين فى الحلف بأوكد الأيمان وأقواها .

لنبوئنهم : لننزلنهم .

حسنة : داراً أو عطية حسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف يعتذر المشركون يوم القيامة ، وكيف يرد الله ـ عز وجل ـ عليهم كذبهم .

٢ ـ أن نؤمن بأن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

٣ ـ أن نعلم ما حدث لرسول الله ﷺ ولأصحابه فى مكة من الظلم لإقامة دينه ، وما جازاهم به فى الدنيا ، وما ينتظرهم من ثواب عظيم فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يخبر الله ـ تعالى ـ عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر ، وهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التى يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله ـ إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله ، فى زعمهم ـ ألا يفعلوا شيئا من هذا لمنعهم من فعله ، وهذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية ، وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التى وهبها له الله لاستخدامها فى الحياة .

قال صاحب الأساس : « إن من أدق مواضيع المعرفة معرفة شمول الإرادة الإلهية ، ومعرفة أن الإنسان مختار ، وأنه لا تنافى بين عموم الإرادة الإلهية واختيار الإنسان ، وأن صفة الإرادة لله غير أوامره وغير رضاه ، فالله يأمر ولا يرضى إلا عما يأمر به ، فهناك تلازم بين الرضا والأمر ، وليس هناك تلازم بين الرضا والإرادة، إن كل شىء بإرادة الله،وهذا لا يتنافى مع اختيار الإنسان؛ لأن قدرة الله على وفق إرادته ، وإرادته على وفق علمه ، والعلم كاشف لا مجبر .

فالله ـ عز وجل ـ علم أزلا أن فلانا سيفعل ، وعلمه ليس مجبراً ، فأراد ذلك فأبرزه بقدرته ، فكونه أراده وأبرزه بقدرته لا يعنى أنه أجبر ؛ لأنه لو لم يرده لم يكن ، ولو لم يبرزه لم يوجد ، فهو وحده الخالق ، على أن ما ذكرناه من ترتيب الإرادة على العلم إنما هو لمجرد الإفهام ، وليس هناك ترتيب فى الأزل ، فالله علم أزلا وأراد أزلا » .

فمشيئته ـ تعالى ـ الشرعية منتفية،لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدرا ، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه ـ تعالى ـ خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ولم يجعل الله ـ عز وجل ـ الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى ، وشهوة وسلطان ، وفريق استجاب ، وفريق شرد فى طريق الضلال ، ويأتى التعقيب بالخطاب إلى الرسول ﷺ يقرر سنة الله فى الهدى والضلال ، فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ ، أما الهدى أو الضلال فيمضى وفق سنة الله ، وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ؛ فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لا يهديه ، لأن لله سننا تعطى نتائجها ، وهكذا شاء والله فعال لما يشاء ، وليس لهم من ناصر ينصرهم من دون الله .

ثم يخبر ـ تعالى ـ عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور ، يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات ، وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى ، وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم ، وأن إيجاد شىء لا يكلف تلك القدرة شيئا ، فيكفى أن تتوجه الإرادة إلى كون الشىء ليكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله فى البعث ، وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه ، فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر ، وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه فى

هذه الأرض ؛ لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل فى هذه الديار ، حتى يتم الجزاء فى الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك ، والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها فى نفوس القوم من شبهات ، فيبدأ بالتقرير بأن هذا وعد الله ، ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال ، وأكثر الناس لا يعلمون حقيقة وعد الله .

ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد ، فقال : إنه ليبين للناس ما كانوا يختلفون فيه من كل شىء ، وليعلم الكافرون كذبهم فيما ادعوا أنهم على الهدى ، وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفى الآخرة ، وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد ، الأمر بعد ذلك هين فسبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء وهنا يأمر الله ـ عز وجل ـ بما يريده دفعة واحدة فإذا هو كائن ، فهو تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه ـ تعالى ـ لا يمانع ولا يخالف ؛ لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

ويعرض السياق فى الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين الصادقين ، الذين يحملهم يقينهم فى الله والآخرة على هجر الديار والأموال فى الله ، وفى سبيل الله ، وهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم ، هؤلاء يرجون فى الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا ، وكل ما تركوا ، وقد عانوا الظلم وفارقوه، فإذا كانوا قد خسروا الديار فالله يعوضهم خيراً منها فى الدنيا، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع ، فإنهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد ، فصاروا أمراء حكاما ، وكل منهم للمتقين إماما .

وأخبر ـ تعالى ـ أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا ، لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخره الله لمن وصفهم بأنهم صبروا على أذى من آذاهم من قومهم ، متوكلين على الله الذين أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ البعث حق وضرورة ؛ لينال كل إنسان جزاء ما قدم من عمل فى هذه الحياة .

٢ ـ كل شىء يوجد وينفذ بأمر الله وإرادته فلا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به .

٣ ـ عظم جزاء المهاجرين فى سبيل الله لإعلان دينه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ
يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ
اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

الحزب ٢٨ سجدة

٢٧٢

معانى الكلمات :

بالبينات : أرسلهم الله بالمعجزات .

والزبر : وكتب الشرائع والتكاليف .

يخسف : يغيب .

تقلبهم : أسفارهم ومتاجرهم ومعاشهم .

بمعجزين : بفائتين من عذاب الله بالهرب .

يتفيأ ظلاله : يميل ظله وينتقل من جانب إلى آخر .

واصبا : دائماً خالصاً أو واجبا .

تجأرون : تلحون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن رسل الله بشر وكان معهم من الكتب والمعجزات الواضحة الملزمة الحجة .

٢ ـ أن نستشعر دلائل الإيمان فى الكائنات التى لها ظلال متقلبة عن اليمين والشمال وأنها صاغرة أمام رب العالمين ذليلة له .

٣ ـ أن نعلم أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر ، فإليه وحده الملجأ ، ومنه النجاة .

المحتوى التربوى :

لما بعث الله محمداً ﷺ رسوله ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكرت منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقا آخر ، رجالا مختارين أوحينا إليهم ، كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك ، فاسألوا أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة أم خلقًا آخر ، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون ذلك ، أرسلناهم بالبينات وبالكتب المتفرقة ، وأنزلنا إليك القرآن لتوضح للناس ما نزل إليهم من ربهم سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا فى كتابهم، فجاء القرآن ليفصل فى هذا الخلاف، وليبين لهم وجه الحق فيه، أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول ﷺ يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله ، لعلهم

يتفكرون فى آيات الله وآيات القرآن ، فإنه يدعو دائماً إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

ويختم هذا الدرس الذى بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون ، ينتهى بلمسة وجدانية بعد لمسة : أولاهما للتخويف من مكر الله الذى لا يأمنه أحد فى ساعة من ليل أو نهار ، والثانية لمشاركة هذا الوجود فى عبادة الله وتسبيحه ، فليس إلا الإنسان هو الذى يستكبر ويمكر ، وكل ما حوله يحمد ويسبح .

يقول صاحب الظلال : « وأعجب العجب فى البشر أن يد الله تعمل من حولهم ، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغنى عنهم مكرهم وتدبيرهم ، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم ، وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله فى صحوهم أو فى منامهم ، فى غفلتهم أو فى استيقاظهم والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع، الذى لا يغفل عنه إلا الخاسرون » .

ويخبر سبحانه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بمن تقدمهم أو يأتيهم العذاب بغتة من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد ، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة ، فما هم بمعجزين لله ، ولا يبعد عليه مكانهم فى حل أو ترحال أو يأخذهم وهم خائفون ، فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم ، فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رءوف رحيم .

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون فى مكرهم سادرون فى غيهم لا يثوبون ولا يتقون ، ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحى بالإيمان ويوحى بالخشوع والخضوع لله، والدينونة له سبحانه ،وكل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال بكرة وعشيا ، فإنه ساجد بظله لله تعالى وهو صاغر خاضع خاشع طائع .

ويضم إلى مشهد الظلال ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، ويضيف إلى هذا الحشد الكونى الملائكة ، فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب ، ومعهم الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره ، والمنكرون المستكبرون من بنى الإنسان وحدهم شواذ فى هذا المقام العجيب ، ويشير إلى المنكرين المستكبرين ليفردهم فى النهاية بالإنكار والاستكبار فى مشهد الوجود .

يقول صاحب الأساس : « يفهم من ظاهر الآية أن فى السموات دواب ، كما فى الأرض دواب ، وفى عصرنا يزداد الكلام على احتمالات وجود حياة فى أجرام كجرم أرضنا ، ونحن الآن

لانستطيع أن نجزم بشيء ، ولكن على فرض اكتشاف جرم فيه حياة ، فإن الآية يمكن أن تحمل عليهم،أما إذا لم يتبين مثل ذلك فالآية تحمل على أن المذكور فيها يراد به دواب الجنة والله أعلم ».

ويقرر سبحانه أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ، وله كل ما فى السموات والأرض وله الدين دائما ، واصلا منذ ما وجد الدين فلا دين إلا دينه ، ولا يجوز أن يكون فى قلب الإنسان رهبة إلا من الله ، وإذا وجدت بحكم الجبلة فعليه أن يدافعها ، وإذا كان الملك له سبحانه ، وعلى الكل طاعته ، فكيف يتقى غيره والخوف ليس إلا منه ؟!

ثم أخبر تعالى أن ما بالعباد من رزق ونعمة ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه لهم قال : أى شيء اتصل بكم من نعمة : عافية ، وغنى ، وخصب ، فهو من الله فكيف تشركون معه غيره وإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه ، وتسألونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به عند الضر لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، وإذا مسكم الضر من مرض، وفقر ، وجدب ، وخذلان ، ومصائب ، وخوف وغير ذلك ، فإلى الله ترفعون أصواتكم إليه بالدعاء والاستغاثة ، فلا تتضرعون إلا إليه لعلمكم الفطرى أنه هو الوحيد القادر .

وإذا كشف الضر فإذا البعض يرجع إلى كفره ، فهم يوحدون فى الشدائد ، ويشركون فى رخاء أقام الحجة على التوحيد أولاً بالوحى ، ثم بخضوع كل شيء له إذ ما من شيء يشذ عن النظام الذى خلقه ، ثم بكون النعم كلها منه ، فهو الذى أوجدها وسخرها وأنعم بها ، ثم بالالتجاء إليه وحده عند الشدة لما ركبت عليه الفطرة البشرية .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أو شاب الشرك ، مع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده طالما ينجيهم من الضر المحيق ... نموذج متكرر فى البشرية ، ففى الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه ، وفى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا بشرًا ، كما كان محمد ﷺ كذلك ، حتى يتمكنوا من تبليغ رسالة ربهم إلى الناس .

٢ ـ الرسول ﷺ أعلم الناس وأكثرهم اتباعا لما أنزل عليه وهو سيد ولد آدم .

٣ ـ السنة النبوية الشريفة تفصيل لما أجمله القرآن ، وتوضيح لما فيه ، ونحن مطالبون بالعمل بالقرآن والسنة جميعاً .

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٥٥﴾ ويجعلون
لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم
تفترون ﴿٥٦﴾ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون
﴿٥٧﴾ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم
﴿٥٨﴾ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون
أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴿٥٩﴾ للذين لا يؤمنون
بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم
﴿٦٠﴾ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن
يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون
ساعة ولا يستقدمون ﴿٦١﴾ ويجعلون لله ما يكرهون
وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن
لهم النار وأنهم مفرطون ﴿٦٢﴾ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من
قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم
عذاب أليم ﴿٦٣﴾ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم
الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿٦٤﴾

٢٧٣

معانى الكلمات :

تفترون : تكذبون على الله .

كظيم : ممتلئ غما وغيظا فى أعماق نفسه .

يتوارى : يستخفى .

يدسه : يخفيه فيدفنه حيا .

هون : هوان وذل .

مثل السوء : صفته القبيحة من الجهل والكفر .

مفرطون : معجل بهم إلى النار .

زين : سوّل وسهل وأغرى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما افتراه كفار الجزيرة العربية على الله تعالى قبل الإسلام .

٢ ـ أن نستشعر رحمة الله تعالى ولطفه بعباده فى أنه لم يؤاخذهم بأعمالهم ، ولكنه أجلهم إلى وقت معين تقتضيه حكمته .

٣ ـ أن نتذكر نعمة الله تعالى فى إرسال الرسل .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن القلوب فى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو فى الشرك به ، وتبدو كذلك فى صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ، ولو لم تدع باسم الإله ، ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم فى ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ، ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة فى بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من

مرض أو شدة أو كرب ، فهؤلاء أشد انحرافا من مشركى الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذى رأيناه .

وإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها ، أو يبيحونها للذكور دون الإناث باسم الآلهة المدعاة ؛ التى لا يعلمون عنها شيئا ، إنما هى أوهام موروثة من الجاهلية الأولى ، والله هو الذى رزقهم هذه النعمة التى يجعلون لما لا يعلمون نصيبا منها ، فليست هى من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هى من رزق الله ، الذى يدعوهم إلى توحيده فيشركون سواه .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تبدو المفارقة فى تصورهم وفى تصرفهم على السواء .. الرزق كله من الله ، والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة ، وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه،وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ، وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفا على ما يشبه آلهة الجاهلية » . وهذا افتراء يحطم العقيدة من أساسها ؛ لأنه يحطم عقيدة التوحيد ، ومن ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم .

ويخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وعبدوها معه ، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ،ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ، وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات ، والإبقاء عليهن فى الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة ، ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات ؛ إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن وقد يقعن فى السبى عند الغار فيجلبن العار ، أو يعشن كلًّا على أهليهن فيجلبن الفقر ، والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله ، إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ، ولا يصيب أحداً إلا ما كتب له ، ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله .

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية ، فإذا بشر أحدهم بالأنثى ترى وجهه مسوداً كئيبا من الهم ، ساكتا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يكره أن يراه الناس فيستخفى منهم من أجل سوء المبشَّر به ، ومن أجل تعييرهم ، ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به على هون وذل ، أم يئده بأن يدفنها حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية ؟ أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ! فبئس ما قالوا وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه .

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم وحدهم صفة النقص أى صفة السوء ، وهى هنا الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق ، ولله وحده الكمال المطلق من كل وجه ، ومن ذلك الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين ، وهو الغالب فى تنفيذ ما أراد ، الحكيم فى إمهال العباد ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ويُنْظِر إلى أجل مسمى عنده تقتضيه الحكمة، أو إلى يوم القيامة ، وإذًا فهو لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً ، وإذا جاء أجلهم الذى سماه لهم ، حقت عليهم كلمة الله سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه ، والساعة : المدة القليلة .

ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم ؛ فهم ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، ويكرهون أن يكون لأحدهم شريك فى ماله ويجعلون لله شريكا فى ملكه ، ويكرهون أن يستخف أحد برسلهم وهم يستخفون برسل الله ، ويستهزئون بهم ويكرهون أراذل المال ويجعلونها له ، ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، فقد أقاموا الله بالمقام الأدنى من أنفسهم وأصنامهم، ويقولون الكذب وهو أن لهم الجنة عند الله، والحق أن لهم النار فهى التى يستحقونها ، وهؤلاء مقدمون عند الله ، ولكن إلى النار معجلون إليها .

ويذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا ، فكذبت الرسل ، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل ، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ، وهم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصا ، ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم .

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هى الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم ، إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك فى صورة من الصور ومن تشبيه وتمثيل ، كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه ، وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً .

١ ـ متاع الدنيا قليل ، وعمر الإنسان فيها قصير ، والعاقل من اتخذها وسيلة للنعيم الدائم فى الآخرة .

٢ ـ الله تعالى منزه عن الشريك والولد ، تقدس وتعالى عن مشابهة المخلوقات .

٣ ـ الله رحيم بعباده ، ولولا ذلك لعامل الظالمين بالعقوبة ، ولما ترك دابة تدب على ظهر الأرض .

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا
فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ
الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
٢٧٤

معانى الكلمات :

لعبرة : لعظة ودلالة على قدرة الله .

فرث : مافى البطن والأمعاء من زبل أو ثفل .

سائغاً : لذيذاً حلوا .

سكراً : خمراً .

أوحى ربك إلى النحل : ألهمها وأرشدها أو سخرها .

بيوتا : أوكاراً تبنيها لتضع فيها عسلها .

أرذل العمر : أخسه .

حفدة : خدما وأعوانا ، أو أولاد أولاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأمل بعض مظاهر الكون ونتفكر فيه .

٢ ـ أن نتعرف على عالم النحل الذى يخرج العسل الذى فيه شفاء للناس .

٣ ـ أن نعلم دلائل قدرة الله ونعمه العظيمة تذكرنا الآيات بنعمة الزواج والإنجاب .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق فى استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله فى الكون ، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله ، وقد ذكر فى الآية السابقة إنزال الكتاب ـ وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح ـ فهو يتبعه بإنزال الماء فى السماء ، وفيه حياة الأجسام ، والماء حياة كل حى ، والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها ، والذى يحول الموت إلى حياة هو الذى يستحق أن يكون إلها ، وفى ذلك لآية لقوم يسمعون ، فيتدبرون ما يسمعون ، فهذه القضية ، قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه إليها الأنظار كثيراً ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

وعبرة أخرى فى الأنعام تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب ، فهذا اللبن الذى تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم ، والفرث ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم ، هذا الدم الذى يذهب إلى كل خلية فى الجسم فإذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذى لا يدرى أحد كيف يكون .

يقول صاحب الأساس : « إن آلية تشكل الحليب كما يتحدث عنه العلم الحديث على الشكل التالى : بعد أن يتمثل الطعام ، ويصل إلى الأمعاء ، تمتص الزغيبات المعوية ما فيه من غذاء ، مبقية الفضلات ـ وهى الفرث ـ فى الأمعاء ، فيلقى الغذاء فى الدم ، وهذه أول تصفية ، ثم يمر الدم وهو يحمل الغذاء على الغدد اللبنية ، فتفرز هذه الغدد الحليب من الدم ليذهب إلى الثدى ، وتلك التصفية الثانية ، وهكذا من بين فرث ودم يخرج الحليب ، هذا الذى ذكره القرآن قبل أن يصل العلم إلى مثل هذه الدقة فى تحديد آلية الوصول إلى الحليب يدل بما لا يقبل جدلا على أن منزل هذا القرآن هو العليم بكل شىء » .

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ، ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة ، من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلِّها ، بل فيه توطئة لتحريمها ، وفى هذا آية لقوم يعقلون ، فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذى يستحق العبودية له وهو الله .

ثم ذكر الله تعالى بآية أخرى ونعمة أخرى ، فقد ألهم وهدى وأرشد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورصها ، بحيث لا يكون بينها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى لها مذللة سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها من فراخ وعسل ، فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتقىء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

ويخرج من بطونها عسل مختلف ألوانه ، ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها، وفى هذا العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ، وقد ألفت المؤلفات الكثيرة ، شرقية وغربية فى العسل كدواء ، وفى مجموع ما مّر من هداية النحل إلى الشفاء بما خرج منه لآية ، ولكن لقوم يتفكرون أما الذى لا يتفكر فإنه قد أعمته الألفة عن رؤية الآية فلم يعد يشعر بما تدل عليه .

ثم أخبر تعالى عن تصرفه فى عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم والضعف فى الخلقة لينسى ما يعلم ، أولئلا يعلم زيادة علم على علمه ، فالله عليم بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل ، أو إلى الإفناء من الإحياء ، قدير على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء ، بعد أن ذكرهم هنا بكمال قدرته وتصرفه وعجزهم وقهرهم تحت سلطانه ، ليدركوا افتقارهم فى كل حال إليه ، فهم مفتقرون إلى نعمه ، مفتقرون إليه .

ويبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، فقال تعالى منكراً عليهم : إنكم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم ، وما بالكم تردون جزءاً من مال الله الذى رزقكم إياه على آلهتكم المدعاة ؟ أفتجاوزن النعمة بالشرك ، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب تجعلون له شركاء والله أحق أن ينزه عن هذا ؟ !

ويذكر تعالى نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، والإنسان الفانى يحس الامتداد فى الأبناء والحفدة ، ولمس هذا الجانب فى النفس يثير أشد الحساسية .

ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين ، ليعقب عليها بسؤال استنكارى : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيشركون به ويخالفون عن أمره ، وهذه النعم كلها من عطائه ، وهى آيات على ألوهيته ، وهى واقعة فى حياتهم ، تُلابسهم فى كل آن : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ وهى حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جعل الله القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، يترعرع فيها الإيمان ، ويثمر الأعمال الصالحة .

٢ ـ من عجائب قدرة الله ـ تعالى ـ إخراج اللبن الخالص من بين فرث ودم فى باطن الحيوان ، وقد جعله الله غذاء طيبا للإنسان ، وكذلك كل مستخرجاته ، فما أكثر نعم الله علينا ، وما أعظم دلائل قدرته .

٣ ـ فى النحل كثير من عجائب قدرة الله ـ تعالى ـ وهى تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ومن الشجر .

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا الحزب ٢٨
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

معانى الكلمات :

أبكم : أخرس لا ينطق .

كل : عبء يعوله غيره .

كلمح البصر : مثل النظر بسرعة خاطفة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ضلال المشركين فى عبادتهم لغير الله .

٢ ـ أن نؤمن بكمال علمه تعالى وقدرته على الأشياء ، واختصاصه بعلم الغيب وقرب قيام الساعة .

٣ ـ أن نعلم قدرة الله المطلقة فى خلق الإنسان وإعطائه وسائل العلم من نعمة السمع والبصر والعقل .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « إنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقا ، وما هو بقادر فى يوم من الأيام ، ولا فى حال من الأحوال ، ويدعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال ، وإنه ليس لله مثال حتى تضربوا له الأمثال » .

ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق ، وللملوك العاجز الذى لا يملك لهم ولا يكسب ، لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها ، حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم له عبيد .

ويأتى مثل يضربه الله لهم من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شىء ، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف ، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شىء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد ؟

والمثل الثانى يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذى لا يدرى شيئا ولا يعود بخير ، والرجل القوى المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير ، ولا يسوى عاقل بين هذا وذاك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادى إلى الصراط المستقيم ؟

ولما كان هذان المثلان قد ذكرا من باب تقريب المعانى إلى الأذهان ، وقد يترتب عليه فى الأذهان الكليلة تصور لا يليق بالعظمة ، أتبع الله بآية تتحدث عن عظمة الله بما يخلع القلوب ، فيخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء ، فى علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بذلك فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء .

يقول صاحب الظلال : « وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التى لقيت جدلا شديداً فى كل عصر ، ومع كل رسول ، وهى غيب من غيب الله الذى يختص بعلمه .. وإن البشر ليقفون أمام ستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضى ، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة ، وإن أعلم العلماء من بنى البشر ليقف مكانه لا يدرى ماذا سيكون اللحظة التالية فى ذات نفسه ، أيرتد نفسه الذى خرج أم يذهب فلا يعود ، وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب ، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدرى متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة ، وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، ويخلفوا وراءهم ما بدؤوه يتمه الخلف حتى يأتيهم ما خبئ لهم خلف الستار الرهيب.

والساعة من هذا الغيب المستور، ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت ، ولما سارت الحياة وفق الخط الذى رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود» .

وسبحانه إذا أراد شيئا فإنما يقول له : كن فيكون ما يريد كطرف العين ، وأمر الساعة فى قرب كونها ، وسرعة قيامها ، مع أنها تغيير لنظام الكون كله إلا كرجع طرف أو الأمر أقرب من ذلك ، والله يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، وهذا بعض مقدوراته .

ويقرب القرآن الأمر بعرض مثل صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عن تصورهم وهو يقع فى كل لحظة من ليل أو نهار ، فيذكر تعالى منته على عباده ، فى إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات،والأفئدة ـ وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا ، كلما كبر زيد فى سماعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده .

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، وكما جاء فى الحديث الصحيح : « إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا لله وما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله ـ عز وجل ـ مستعينا بالله فى ذلك كله ، والله ـ جل جلاله ـ ركّب هذه الأشياء لإزالة الجهل الذى ولدتم عليه ، واجتلاب العلم الذى يوصل إلى شكر المنعم ، وعبادته والقيام بحقوقه ، فماذا فعل الناس فيها ؟ استعملها الكثيرون فأفادتهم ولكن لم يحققوا بها ما خلقت له ، وهو الوصول إلى الشكر ، والقليل هم الذين شكروا .

ثم لفت نظرهم إلى آيات من آيات الله إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى ، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك ، والمؤمن هو الذى يرى آيات الله فى هذه الظاهرة .

يقول صاحب **الظلال** : « فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر ، وتستجيش الضمائر ، وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ، والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول فى بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضىء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نعم الله علينا كثيرة وفضله علينا عظيم ، ومن تلك النعم نعمة السمع البصر والعقل .

٢ ـ قيام الساعة قريب ، وعلى المرء حسن الاستعداد لها .

٣ ـ إذا أخلص العبد الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله ، أى ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله ومستعيناً بالله فى ذلك كله ، شاكراً له فضله ونعمه .

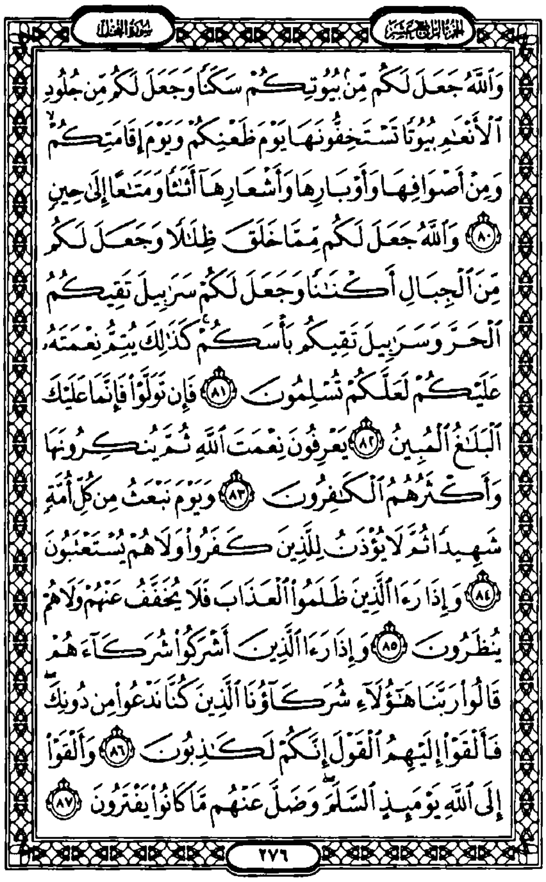

معانى الكلمات :

تستخفونه : تجدونها خفيفة الحمل .

ظعنكم : ترحالكم .

أثاثا : متاعا لبيوتكم كالفرش .

ظلالا : أشياء تستظلون بها .

أكنانا : أماكن تسكنون فيها .

سرابيل : ما يلبس من ثياب أو درع .

يستعتبون : يطلب منهم إرضاء ربهم .

السلم : الاستسلام والانقياد لحكمه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم نعم الله علينا وهى كثيرة لا تحصى .

٢ ـ أن نؤمن بأن الرسل عليهم السلام ليس عليهم إلا البلاغ وقد فعلوا .

٣ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد بعث الناس يوم القيامة ، والظالم لا يخفف عنه العذاب يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده ، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع .

يقول صاحب الظلال : « السكن والطمأنينة فى البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة ، وذكرها فى السياق يجىء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر ، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة ... فهكذا يريد الإسلام البيت مكانا للسكينة النفسية

والاطمئنان الشعورى ، هكذا يريده مريحا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر ، فليس البيت مكانا للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ؛ ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه ، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد ـ بغير حق ـ باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله فى غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذى يريده الإسلام للبيوت » .

ويستعرض السياق من نعمة الأنعام ما يلبى الضرورات وما يلبى الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث ، والمتاع ولو أنه يطلق على ما فى الأرحال من فرش وأغطية وأدوات إلا أنه يشى بالتمتع والارتياح ، ويرق التعبير فى جو السكن والطمأنينة، وهو يشير إلى الظلال والأكنان فى الجبال ، وإلى السرابيل تقى فى الحر وتقى فى الحرب ، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف وهذا ما يقى الحر ، والدروع من الحديد المصفى والزَّرد وغير ذلك وهذا ما يقى الحرب ، وهكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ، ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته ، والإسلام استسلام وسكن وركون .

فإن أسلموا فيها ، وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ ، وليكونن إذاً جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التى لا تقبل النكران ، فهم يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ، وأكثرهم الكافرون .

ويخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، ويبدأ السياق بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم فى الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم فى حجة ولا استشفاع ، ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب ، ورأى الذين كفروا وأشركوا العذاب بأن يدخلوا النار ، فلا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ولاهم يمهلون قبله لا يؤخر عنهم ولا يفتر .

ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم فى ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقرون فيقولون :

ربنا ، واليوم لا يقولون عن هؤلاء : إنهم شركاء لله ، إنما يقولون : هؤلاء شركاؤنا التى جعلناها شركاء نعبدها من دونك ، ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فتبرأت منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إليها ، فقالت لهم الآلهة : كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كذبتهم آلهتهم لأنها كانت جماداً لا تعرف مَنْ عبدها ، أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك .

وإلقاء السلم يعنى : الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار فى الدنيا ، أى وألقى الذين كفروا يومئذ السلم لله أن استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، أسلموا حيث لا ينفعهم إسلامهم ، وتركوا الإسلام حين كانوا مكلفين به ، وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئا يعتمدون عليه فى موقفهم العصيب ، وبطل عنهم ما كانوا يفترون من أن لله شركاء ، وأنهم ينصرون ويشفعون ، لقد ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ، لقد استسلموا لحكم الله بعد إبائهم فى الدنيا ، فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ (المجادلة : ١٨) .

فالجواب كما قال القاشانى : « إن ذلك بحسب المواقف ، فالإنكار فى المواقف الأولى وقت قوة هيئات الرذائل ، وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه ، ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه .

والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شرار النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى فيعترف وينقاد ، هذا إذا كان الاستعلام والإنكار لنفوس بعينها ، وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم ، والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت ، وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نعم الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ، ويجب على المسلم أن يقوم بشكر الله عليها .

٢ ـ كل نبى يشهد يوم القيامة على أمته بما أجابته فيما بلغها .

٣ ـ ليس فى يوم القيامة اعتذار للكافرين ولا طلب استرضاء لله ، ولا شفاعة ولا تخفيف عذاب ، ولا إمهال ، بل هو أخذ سريع للكافرين بلا حساب .

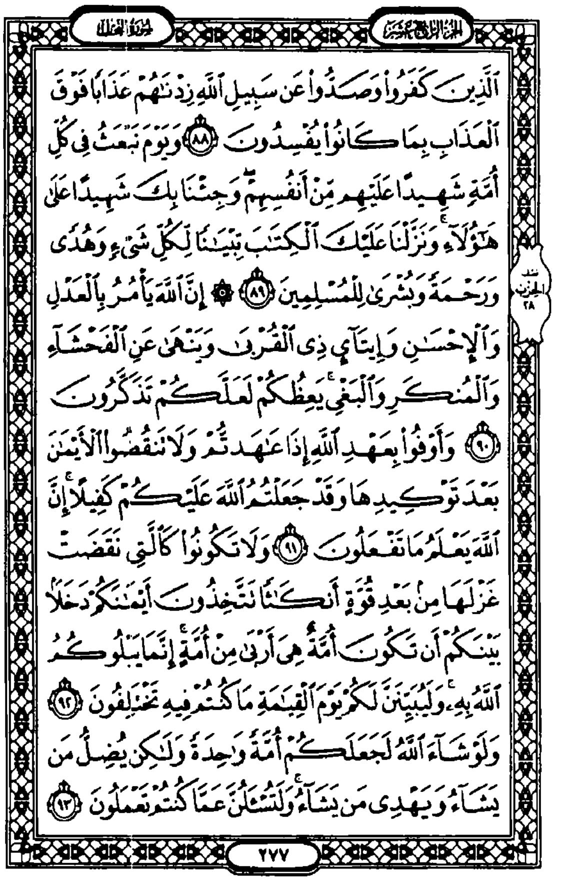
الجزء الرابع عشر — سورة النحل

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (الحزب ٢٨)
وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٧٧

معانى الكلمات :

الفحشاء : الذنوب القبيحة جداً .

البغى : التجبر والتطاول على الناس .

كفيلاً : شاهداً ، رقيبا ضامنا .

قوة : إبرام وإحكام .

أنكاثا : محلول الفتل .

دخلا : مفسدة وخيانة وخديعة .

أمة : جماعة .

أربى : أكثر وأعز وأوفر مالا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن للكافرين الذين منعوا الناس عن دين الله عقابًا أليما .

٢ ـ أن نؤمن بأن القرآن أنزل تبيانا لكل شىء من أمور الدين والدنيا .

٣ ـ أن نعلم أن فى القيامة يوم الفصل بين العباد .

المحتوى التربوى :

يبين الله ـ عز وجل ـ جزاء الذين جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله ، فقال : الذين كفروا فى أنفسهم ، وحملوا غيرهم على الكفر ومنعوهم من الدخول فى الإسلام ، والكفر فساد ، والتكفير فساد ، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم ، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقا ، ذلك شأن عام جميع الأقوام .

ثم يخصص السياق موقفا خاصا للرسول ﷺ مع قومه ، ففى ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذى يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، ويبرز السياق شأن الرسول مع مشركى قريش يوم يُبعث من كل أمة

شهيد عليهم من جنسهم ، ويؤتى بالرسول ﷺ شهيداً على أمته ، فاذكر يا محمد ﷺ ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع .

ثم ذكر الله ما شرف به رسوله ﷺ فى الدنيا من إنزال هذا القرآن عليه ، وقد بين لنا فى هذا القرآن كل علم وكل شىء ، فما من قضية من القضايا التى يحتاجها الإنسان كفرد ، والإنسانية كلها إلا ولله فيها الحكم الحق ، ومجموع هذه الأحكام هى الإسلام ، **يقول صاحب الأساس** : « وإن أعظم ما وقع فيه المسلمون من أخطاء خطآن : **الخطأ الأول** : هو نسيانهم أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها الحكم الحق ، وأنه لا يسع المسلم أن يخرج عن حكم الله أو يتخلى عنه، ونتج عن هذا أن كثيرا من أبناء المسلمين ـ حكومات وأفراداً ـ أخذوا يستوردون الأفكار والعادات والقوانين والدساتير بدون قيود .

الخطأ الثانى : إنه قد غاب عن كثير من المسلمين أن القرآن إنما كان تبيانا لكل شىء بأن ذكر الحكم صراحة ، أو دل على الطريق الذى يسلك للوصول إلى الحكم من سنة أو قياس أو إجماع ، ومن ثم قامت مدارس الاجتهاد التى تضع نظريات استنباط الحكم وألفت الكتب الكثيرة التى تتحدث عن الأحكام ، فأخطأ بعض الناس بأن نظروا إلى عمل الأئمة المجتهدين ومدارسهم على أنه خارج عن الدين أو زائد عليه » .

ثم أكمل الله وصف كتابه بعد أن بين أنه تبيان لكل شىء ، أنه فيه دلالة إلى الحق ، ورحمة للمسلمين وبشارة لهم بالجنة ، فلا عذر لمعتذر ، فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتى اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون .

فبعد أن أقام الله الحجة على الخلق بوجوب الدخول فى الإسلام كله ، وذكرهم بما أعده للكافرين والمسلمين يوم القيامة، وأقام الحجة على مجىء يوم القيامة، يقرر القرآن ويوجه ويربى ، ويذكر بجوانب من الإسلام ينبغى الدخول فيها ، فيأتى الأمر بالعدل فى كل شىء ؛ فى أداء الحقوق ، والقيام بالواجبات ، فيحدد الحقوق ، ويحدد الواجبات ؛ فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، فلا عدل إلا ما أمر به ، ولا يتحقق العدل فى الحياة البشرية إلا بإقامة كتابه وسنة رسوله ﷺ ويندب إلى الإحسان وهو : معنى زائد على العدل ، فالعدل فى كل شىء حسن ، والإحسان فعل الأحسن، ويأمر بصلة الأرحام ، وإعطاء ذى القرابة بأن توصل رحمه وهى مقصودة بذاتها فى شريعة الله .

وينهى عن الذنوب المفرطة فى القبح ، وعن المنكر الذى تنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والبغى وهو العدوان على الناس ، سواء كان العدوان ماديا كأكل أموالهم ظلما أو

معنويا بالتطاول على الناس كبراً أو عُجْبا ، والله يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر لعلكم تتعظون بمواعظ الله إليه .

ويأمر سبحانه بالإيفاء بعهد الله ، وأعظم العهود هو البيعة لرسول الله ﷺ ثم لخلفائه الراشدين ولأئمة العدل ، ويدخل فى الآية كل عهد التزم به المسلمون ، ويأمر بالمحافظة على الأيمان بعد توثيقها وتأكيدها باسم الله ، والمراد بالأيمان هنا : الأيمان الداخلة فى العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ، وهذه الأيمان المؤكدة الله شاهد ورقيب على أصحابها والله يعلم بركم وحنثكم فيجازيكم به ، ولا تكونوا فى نقض الأيمان ، كالمرأة التى تنحى على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فتجعله أنقاضا ، فلا تتخذوا أيمانكم خديعة ومكراً ومفسدة وخيانة ، بسبب أن تكون أمة هى أزيد عدداً وأوفر مالا من الأمة التى عاقدتموها ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، وينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك .

والله ـ عز وجل ـ إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر ـ وهو أعلم ـ أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتم من أيمان الحلف ، أم تغترون بالكثرة أو بالثروة فتنقضون وتنكثون ، وليبين لكم إذا جازاكم يوم القيامة على أعمالكم بالثواب والعقاب ﴿ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، فاحذروا أن تخالفوا دين الله وشرعه ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة حنيفة مسلمة متصافية لا تباغض بينها ولا شحناء ، والله يضل من علم منه اختيار الضلالة ، ويهدى من علم منه اختيار الهداية ، ومن ثم لم تكونوا أمة واحدة ، واقتضى ذلك تحالفات وعهوداً ، وغير ذلك ولتسألن يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير ، و السؤال سؤال تبكيت ومجازاة ، لا استفسار وتفهم ، وهو المنفى فى غير هذه الآية ، أو فى موقف دون موقف ، وكل مسؤول عما يعمل ، فلا يكون الاختلاف فى العقيدة سببا فى نقض العهود ، فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله ، والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ تشريف النبى ﷺ وتكريمه ومقامه الرفيع بشهادته على أمته وشفاعته للخلق .

٢ ـ الإسلام دين العدل والاعتدال والتوسط فلا إفراط ولا تفريط .

٣ ـ أهمية إتقان الأعمال ، وحرص الإسلام على إجادتها ، ورفع كفاءة العاملين .

٤ ـ حرص الإسلام على إشاعة الحب والمودة فى المجتمع المسلم .

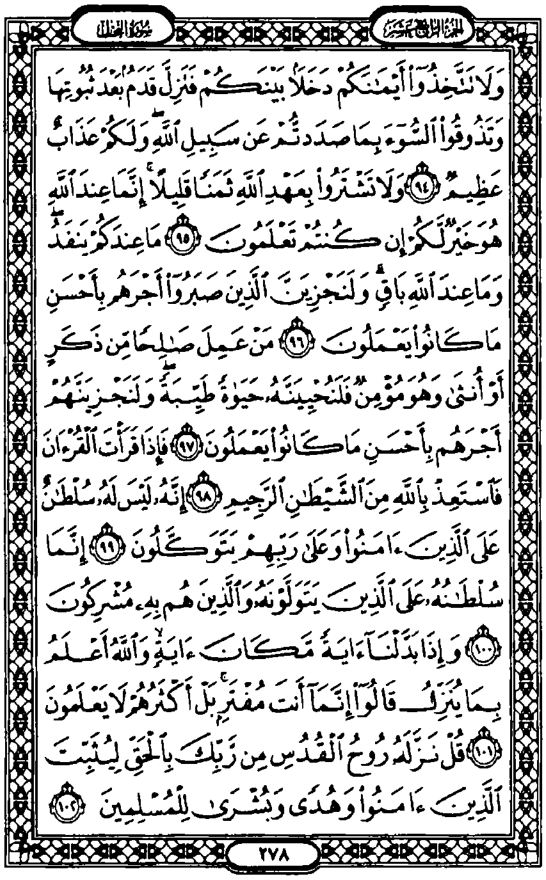
الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ
﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

٢٧٨

معانى الكلمات :

ينفد : يفنى ويذهب .

الرجيم : المطرود من رحمة الله .

سلطان : تسلط .

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيراً لهم .

هم به : هم بسببه .

مفتر : كذاب .

روح القدس : الروح المطهر جبريل عليه السلام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف جزاء الصابرين على الطاعات وعلى تحمل الأذى فى سبيل عقيدتهم .

٢ ـ أن نعلم أن كل عمل صالح يقرب من الله ويحقق السعادة فى الدنيا والآخرة مطلوب .

٣ ـ أن نتعلم الحذر من وساوس الشيطان والترغيب فى الاستعاذة بالله منه فى كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة.

المحتوى التربوى :

كرر الله ـ سبحانه ـ النهى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومكراً ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لشناعة الفعل ، ولئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، وهذا مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام .

قال صاحب الظلال : « واتخاذ الأيمان غشا وخداعا يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين : فالذى يقسم وهو يعلم أنه خادع فى قسمه ، لا يمكن أن تثبت له

عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث .. . ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم ، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التى نشأت عن تمسكهم بعهودهم، ولقد ترك القرآن وسنة الرسول ﷺ فى نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاما فى هذه الناحية ، ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز .

روى أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأجل (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها » فرجع معاوية بالجيش ، والروايات عن حفظ العهود ـ مهما تكن المصلحة القريبة فى نقضها ـ متواترة مشهورة .

وقد ترك هذا القرآن فى النفوس ذلك الطابع الإسلامى البارز ، وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ، ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذى يجره نقضه ضئيلا هزيلا ، وما عند الله على الوفاء عظيما جزيلا ، ويذكر بأن عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، وجزاء الله وثوابه خير لمن رجاه ، وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده ، وكل ما فى الدنيا يفرغ وينقضى فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ، وما عند الله من ثواب فى الجنة دائم لا ينقطع ، لا يحول ولا يزول ، ويقوى الله العزائم على الوفاء والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجراً حسنا ، ويأتى هذا الوعد فى معرض القسم من الرب عز وجل أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم ويتجاوز عما وقع منهم من عمل سيئ ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

وبمناسبة العمل والجزاء يعقب بأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى الدنيا ، والأجر الحسن الكامل فى الآخرة .

قال ابن كثير : « هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بنى آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة،والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت ».

قال المهايمى : « فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره ؛ إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته ، والكافر لا يهنأ عيشه

بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات ، ويجزون بالأحسن فى الآخرة ، فلا يقال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى » .

قال القاسمى : « وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان ، والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء ، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له ، والاستكانة إلى معبود واحد ، والتنوّر بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها ، هذا فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى » .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم ؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند إرادة غيره أولى ، وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته فكيف بسائر أمته ؟ والأمر فى الآية للندب .

والذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه وينقادوا إليه ، وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ، ويثوبون إلى ربهم من قريب ، إنما سلطانه على أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به .

ويخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها ، قالوا للرسول ﷺ : أنت كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقد قال تعالى مجيبا لهم ؛ قل : ما يمكن أن يكون هذا افتراء ، وقد نزله جبريل عليه السلام من ربك لا من عندك بالحق والصدق والعدل ، ليثبت المؤمنين فيصدقوا بما نزل أولا ، وثانيا : وتخبت له قلوبهم ، وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدين الإسلامى يسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات .

٢ ـ الإسلام يحث على العمل للدنيا ، والاستعداد للآخرة .

٣ ـ الشيطان ضعيف لا يثبت أمام قوة الإيمان .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ
﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

معانى الكلمات :

يلحدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يعلمه .

أعجمى : غير عربى .

استحبوا : اختاروا وفضلوا .

طبع : ختم .

لا جرم : حقا أو لا محالة .

فتنوا : ابتلوا وعذبوا لإسلامهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على اتهام المشركين لرسول الله ﷺ ورد الله تعالى عنه .

٢ ـ أن نعلم أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لا يهديهم الله إلى طريق النجاة .

٣ ـ أن نتيقن أن الله يتولى الصالحين وينصرهم ويغفر لهم ويرحمهم .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق فرية أخرى للكافرين بزعمهم أن الذى يعلم الرسول ﷺ هذا القرآن إنما هو بشر ، سموه باسمه ، واختلفت الروايات فى تعيينه ، قيل : كانوا يشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه .

ولهذا قال الله ـ تعالى ـ رادا عليهم فى افترائهم : كيف يمكن لمن لسانه أعجمى أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربى المبين ؟ وهذا المقالة منهم يصعب حملها على الجد ، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذى كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه ، وإلا فكيف يقولون ـ وهم أخبر بقيمة

هذا الكتاب وإعجازه ـ إن أعجمياً يملك أن يعلم محمداً هذا الكتاب ، ولئن كان قادراً على مثله ليظهرن به نفسه .

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول : إن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة فى أمر هذا الكتاب ، ولا يهديهم إلى الحقيقة فى شىء ما ، بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ، ولهم بعد ذلك الضلال المقيم والعذاب الأليم ، ثم يثنى بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون ، ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين ، فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ، والرسول ﷺ أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا .

ولما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين فى المحاماة عن الدين، تأثره ببيان ما للردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد بهذه الآيات ، واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله ، فإنه إذا وافق المشركين بلفظ لتعرضه قوىٍّ وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه ، إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أى طاب به نفسا واعتقده ، استحبابا للحياة الدنيا الفانية .

أى إيثاراً لها على الآخرة الباقية ، فذاك الذى له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ؛ من غضب الله عليهم أولا وعذابه العظيم لهم وهو عذاب النار ثانيا ، وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثا ، ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها فلم ينفتح لهم طريق الفهم ، وعلى سمعهم وأبصارهم بسد طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب،فلم يؤثر فيهم شىء من أسباب الهداية من طريق الباطل من فيض العلم وإشراق النور ، ولا من طريق الظاهر بطريق التعلم والتعليم والاعتبار من آثار الصنع ، وخامسا بكونهم هم الغافلين بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه ، وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب .

وجلى أن كل نقمة من هذه الخمس على انفرادها من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات فكيف بها كلها ؟

قال الرازى : « ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه ، فلهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ » أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفذوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شىء إلا فى وبال التحسرات .

قال ابن كثير : « فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، وعن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرها ،

وجاء معتذرا إلى النبى ﷺ فأنزل الله هذه الآية ، ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على الكفر إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يستقتل ، كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها ، ﷺ وأرضاه .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ، ولو أفضى إلى قتله ، كما قال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى أحد الصحابة: إنه أسرته الروم فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال: تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى .

فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت . فقال : إذاً أقتلك . قال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بِقِدرٍ وفى رواية : ببقرة من نحاس ، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها ، فرفع البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له : إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة ، تلقى فى هذه القدر الساعة فى الله ، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله .

وفى بعض الروايات : إنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلَّ لى ولكن لم أكن لأشمتك فىَّ ، فقال له الملك : فقبِّل رأسى وأنا أطلقك . فقال : وتطلق معى جميع أسارى المسلمون ؟ قال نعم : فقبل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ﷺ : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله حذافة ، وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه .

ويذكر السياق من كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، وقد وافقوهم على الفتنة ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، ثم جاهدوا معهم الكافرين وصبروا ، فأخبر الله أنه بعد إجابتهم إلى الفتنة غفور لهم رحيم بهم يوم معادهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ لا يهدى من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ .

٢ ـ من كفر مكرها بالتلفظ باللسان فقط وقلبه مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، فليس بكافر ، ولا إثم عليه .

٣ ـ شدة إيذاء المسلمين الأوائل وصبرهم وتحملهم ، ثم جهادهم حتى حملوا إلينا هذا الدين العظيم لنقوم بدورنا .

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ
الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا
أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ
إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

٢٨٠

معانى الكلمات :

رغداً : طيبا واسعا أو هنيئا لا تعب فيه .

الدم : الدم المسفوح السائل .

لحم الخنزير : أى الخنزير بجميع أجزائه ومثله الكلب .

اضطر : دعته الضرورة إلى التناول منه .

غير باغ : لا يطلب المحرم للتلذذ به .

ولا عاد : ولا يزيد عن قدر الضرورة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم ما حرمه الله تعالى على الناس .

٣ ـ أن نؤمن بأن المشركين لن يفوزوا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق يوم القيامة الذى تشغل فيه كل نفس بأمرها ، لا تتلفت إلى سواها ، هذا اليوم الذى من مشاهده دفاع كل نفس عن ذاتها لا يهمها أمر غيرها،وتعطى كل نفس جزاء ما عملت، وهو تعبير يلقى ظل الهول الذى كل امرئ مشغول بنفسه ، يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب ، ولا غناء فى انشغال ولا جدال ، إنما هو الجزاء ، كل نفس وما كسبت ، وهم لا يظلمون .

ثم يضرب الله تعالى مثلا لتصوير حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم ؛ لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم .

قال صاحب الظلال : « وهى حال أشبه شىء بحال مكة ، جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلداً حراما من دخلها فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته

وحمايته آمنون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم فى واد قفر جدب غير ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد» .

والمثل الذى يضربه الله منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم ، مثل القرية التى كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله فألبسها الله الخوف وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شىء ، ويأتيها رزقها من كل مكان ، وألبسها الخوف وذلك بأنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوة سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل ما لهم فى سفال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم .

يقول صاحب **الظلال** : « ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ؛ لأن الذوق أعمق أثراً فى الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم،ولذعه وتأثيره وتغلغله فى النفوس ، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التى تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون » .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن احتاج فى غير بغى ولا عدوان ، فالله يغفر هذا الاضطرار ، ولا يعاقب رحمة منه تعالى .

يقول **الفخر الرازى** : « إنه تعالى حصر المحرمات فى هذه الأشياء الأربعة فى هذه السورة ؛ لأن لفظة « إنما » تفيد الحصر وحصرها أيضا فى هذه الأربعة فى سورة الأنعام فى قوله : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ ﴾ (الأنعام ١٤٥) ، وهاتان السورتان مكيتان .

وحصرها أيضا فى هذه الأربعة فى سورة البقرة ؛ لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت فى سورة البقرة ، وحصرها أيضاً فى سورة المائدة ، فإنه تعالى قال فى أول هذه السورة : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة : ١) فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم ، وأجمعوا على أن المراد بقوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ هو قوله تعالى فى تلك السورة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٣) فذكر تلك الأربعة المذكورة فى تلك السور الثلاث .

ثم قال : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ (المائدة : ٣) وهذه الأشياء داخلة فى الميتة ، ثم قال : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (المائدة : ٣) وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٣) .

فثبت أن هذه السور الأربع دالة على حصر المحرمات فى هذه الأربع : سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان ، فإن سورة البقرة مدنية ، وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة ،

فمن أنكر حصر التحريم فى هذه الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة ، كان فى محل أن يخشى عليه ؛ لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات فى هذه الأربع كان شرعا ثابتا فى أول أمر مكة ، وآخرها وأول المدينة وآخرها ، وأنه تعالى أعاد هذا البيان فى هذه السور الأربع قطعا للأعذار ، وإزالة للشبهة ، والله أعلم » .

ذلك حد الحلال والحرام الذى شرعه الله فى المطعومات ، فلا تخالفوه اتباعا لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله ، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله ، فهما تشريع ، والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر ، وما يدعى أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال وهذا حرام ، فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هى الكذب عينه ، الذى تفترونه على الله ، والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل فى الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران ، ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله ، وبغير نص فى شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح فى هذه الأرض أو عند الله.

فأما ما حرمه الله على اليهود فى قوله من قبل فى سورة الأنعام ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ (الأنعام : ١٤٦) فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسرى على المسلمين .

ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله ، فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله فاستحقوا ذلك ، أى استحقوا ما حرمناه عليهم عقوبة لهم على معاصيهم ، فموضوع التحريم والتحليل من أخطر المواضيع فى الحياة البشرية ، ومن ثم فإن الله عز وجل هو الذى يحل ويحرم وقد جعل الله عز وجل التحريم والتحليل النابعين عن الهوى من عمل الشيطان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل إنسان يوم القيامة يكون مشغولا بنفسه فقط ، لا يدافع إلا عنها .

٢ ـ أحل الله الأكل من الرزق الحلال الطيب ، وحرم ما فيه مضرة وأذى فى الدين أو الدنيا .

٣ ـ على المؤمن أن يشكر ربه على ما أنعم به عليه ربه ، فإن الشكر يزيد النعم ويبارك فيها .

٤ ـ من يسر الإسلام وسماحته أنه لا يؤاخذ المضطر إذا أكل من شىء محرم بقدر الضرورة .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

معانى الكلمات :

بجهالة : بجهل وسفه وعناد .

أمة : معلما للخير أو مؤمنا وحده أو إماماً.

قانتا لله : مطيعا خاضعا له تعالى .

حنيفا : مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

اجتباه : اصطفاه واختاره للنبوة .

ملة إبراهيم : شريعته وهى التوحيد .

جُعل السبت : فرض تعظيمه .

ضيق : ضيق صدر وحرج .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عفو الله ـ تعالى ـ عمن يعمل المعاصى والسيئات بجهل وسفه ثم رجع إلى الله تائبا.

٢ ـ أن نعلم أن الله فرض تعظيم يوم السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه ، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

٣ ـ أن يعلم المسلم أن الله معه فلا يحزن على من خالفه ، ولا يغتم من مكروه ، فإن الله كافية وناصره .

المحتوى التربوى :

أخبر تعالى هذه الأمة عن سنته فى حق العصاة : أن من تاب منهم إليه تاب الله عليه تكرما وامتنانًا ، فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية ، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح ، فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله، والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين .

وبمناسبة ما حرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركى قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم ﷺ يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التى لم تكن على عهد إبراهيم .

والقرآن الكريم يصوره ﷺ نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله ، ويقول عنه هنا : إنه كان أمة ، واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة ، ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به فى الخير ، وهما قريبان فالإمام الذى يهدى إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته ، فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه لا فرد واحد ، وهو قانت لله طائع خاشع عابد ، وهو حنيف متجه إلى الحق مائل إليه ، وما كان من المشركين فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ، وهو شاكر لأنعم الله بالقول والعمل ، لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ، ويكفرونها عملاً ويشركون فى رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء ، وقد اختصه الله واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام لله وحده بالعبادة والشريعة ، وقد جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج إليه فى إكمال حياته الطيبة ؛ من نبوة وأموال وأولاد ، وذكر حسن وخلود على ألسنة أهل التوحيد، وقبول فى قلوب الناس جميعا ، وهو فى الآخرة لمن أهل الجنة . هذا هو النموذج للمسلم الكامل ، وما أعطاه الله نموذجًا للحياة الطيبة التى وعدها عباده الصالحين ، هذا النموذج مستجمع لخصال الخير : خاشع ، مطيع ، مائل عن كل دين إلا دين الإسلام ، موحِّد ، شاكرللنعمة ، مستقيم على صراط الله ، صالح ، وجزاؤه الحياة الطيبة فى الدنيا ، والجزاء الحسن فى الآخرة ، هذا هو النموذج الكامل للمسلم ، والنموذج الكامل للدخول فى الإسلام كله ، ومن ثم جعله الله قدوة لرسوله محمد ﷺ ، وهذا كذلك من إكرامه فى الدنيا ، ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ .

وإذاً فالنموذج للمسلم الكامل إبراهيم ﷺ ، وبعثة رسولنا ﷺ إنما هى تجديد لدين إبراهيم، وإحياء له فى التوحيد والقدوة ، وأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه ؛ وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم ، وإنما فرض تعظيم يوم السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه ، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وارث ملة إبراهيم ﷺ ، الداعية إلى الإسلام ، وهو خطاب لكل فرد من أمته يعلمه كيفية الدعوة إلى الإسلام ، وذلك يكون بالمقالة الصحيحة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، أو بالخطاب المناسب لكل إنسان بحسبه ، أو بالقدر الذى بينه فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعدادالنفوس لها .

وبالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، ولا يفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية ، فإن الرفق فى

الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتى هى أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق ، والجدل بالحسنى يشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها ، والاهتداء إليها فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأية ، وهزيمة الرأى الآخر ، ويشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين ، فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله ، فهو يعلم الشقى منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة ، فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالاعتداء عمل مادى يدفع بمثله إعزازًا لكرامة الحق ، ودفعا لغلبة الباطل على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، والدفع عن الدعوة فى حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون فى أنفس الناس ، والمؤمنون بالله أمناء على إقامة الحق فى هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ويعتدى عليهم فلا يردون ؟ !

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، فى الحالات التى قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرا ، وأكثر فائدة للدعوة ، ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه ؛ فهو الذى يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله ، ويوصى القرآن الرسول ﷺ وهى وصيته لكل داعية من بعده ـ ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجب يؤديه ، وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين، وهو مخلص فى دعوته لا يبتغى من ورائها شيئا لنفسه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالعنف ولا بالغلظة .

٢ ـ المجادلة والمناظرة للخصوم يجب أن تكون عند الضرورة .

٣ ـ العدل فى القصاص من غير ظلم أو زيادة ، والصبر والعفو أفضل وبخاصة عند المقدرة .

٤ ـ الله تعالى ـ يؤيد المتقين والمحسنين بنصره ومعونته ، وهدايته وتوفيقه .

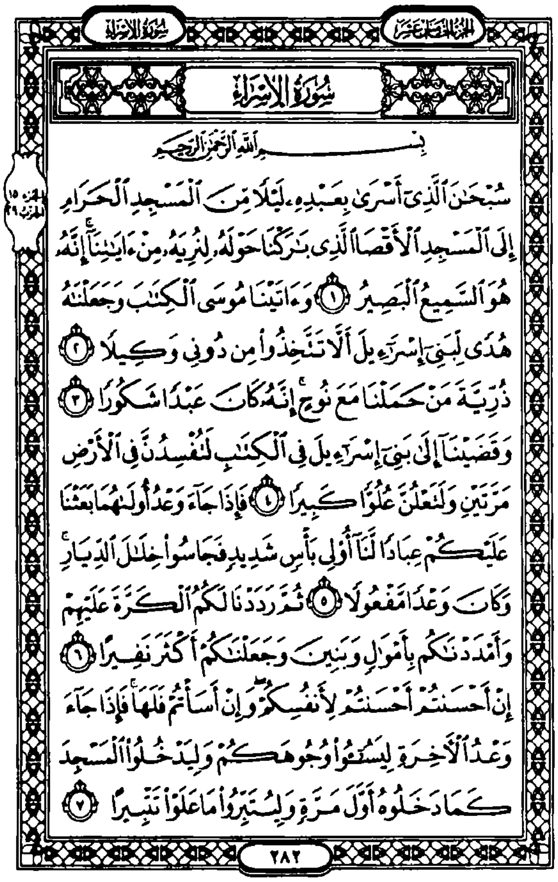

سورة الإسراء

معانى الكلمات :

سبحان : تنزيها لله . **أسرى** : جعل البراق يسرى به ﷺ ليلاً .

آياتنا : عجائب قدرتنا . **فجاسوا** : فترددوا لطلبكم باستقصاء .

خلال : وسط . **الكرة** : الدولة والغلبة .

أكثر نفيرا : أكثر عدداً أو عشيرة من أعدائكم .

ليسوؤوا وجوهكم : ليحزنوكم حزنا يظهر على وجوهكم .

ليتبروا : ليهلكوا ويدمروا .

ما علوا : ما استولوا عليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حكمة الإسراء بالنبى ﷺ .

٢ ـ أن نعلم أهمية المسجد الأقصى فى مسيرة الدعوة الإسلامية .

٣ ـ أن نقف على إفساد بنى إسرائيل فى الأرض وعقاب الله لهم .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات بالحديث عن معجزة الإسراء التى كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهى لخاتم الأنبياء والمرسلين ودليلا واضحا على قدرة الله عز وجل ـ فى صنع العجائب والغرائب ، حيث نقله ـ تعالى ـ بقدرته ليلا فى وقت قصير بالبراق من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس (تلك معجزة الإسراء) ثم صعد به إلى السماء ليطلعه على عجائب قدرته (وتلك معجزة المعراج) .

وتذكر صفة العبودية فى مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التى لم يبلغها بشر ؛ وذلك كى لا ننسى هذه الصفة، ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا ، **يقول صاحب الظلال** : « وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا ، فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان » .

قال الشوكانى : « الذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ثم إلى السموات ، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآنى وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة » .

والإسراء آية صاحبتها آيات ، وما أحسن ما قاله ابن إسحاق : « كان فى مسراه ﷺ وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به ـ سبحانه وتعالى ـ كيف شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ورحلة الإسراء نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر ، والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة ، والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التى أسكنها الله بنى إسرائيل ثم أخرجهم منها .

وينتقل السياق إلى ذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل عليه من إنذار لبنى إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر ـ نوح ـ العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه فى السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون ، ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعد الله ألا يعذب الله قوما حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويذكرهم فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده ، فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان ، وفى ذلك الكتاب الذى آتاه الله لموسى ليكون هدى لبنى إسرائيل ، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم فى الأرض ، وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم ، وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد فى الأرض ، تصديقا لسنة الله الجارية التى لا تتخلف .

ولقد قضى الله لبنى إسرائيل فى الكتاب الذى آتاه موسى أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون فى الأرض المقدسة ويسيطرون ، وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإنسان سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا ؛ المرة الأولى : يعلون فى

الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس شديد، وأولى بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيب ، وكان وعداً مفعولا لا يخلف ولا يكذب .

يقول صاحب الظلال : « حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ، فرجعوا إلى ربهم،وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم، وحتى إذ استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا فى الأرض أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين ثم تتكرر القصة من جديد » .

ولم يذكر السياق ما وقع من بنى إسرائيل بعد الكرة من إفساد فى الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل ، ويثبت ما يسلطه عليهم فى المرة الآخرة بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها ، ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار .

ولقد صدقت النبوة ووقع الوعد ، فسلط الله على بنى إسرائيل من قهرهم أول مرة ... ثم سلط عليهم من شردهم فى الأرض ودمر مملكتهم تدميراً ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بنى إسرائيل ؛ لأن النص عليها لا يزيد فى العبرة شيئا ، والعبرة هى المطلوبة هنا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ معجزة الإسراء والعروج من المعجزات التى أيد الله بها نبيه ﷺ وهى من دلائل قدرة الله ، وحبه لنبيه ﷺ .

٢ ـ العبودية لله أرقى درجات القرب من الله تعالى .

٣ ـ النعمة تقتضى شكراً ، فإذ يقص الله علينا ما عاقب به بنى إسرائيل لكفرهم ، فإنه يعرفنا بذلك على سنته فيمن لم يشكر .

وفى ذلك تربية لهذه الأمة التى سيعطيها الله بيت المقدس وما حوله ، والتى أنزل عليها كتابا هاديا ، وأرسل لها رسولا بالآيات ألا تكفر النعمة فتسلب ، وكفرانها بالنعمة إنما هو بكفرها بمحمد ﷺ وكفرها بدينه وعدم التزامها بشريعته .

٤ ـ ضرورة العمل من أجل تحرير المسجد الأقصى وإعادته .

٥ ـ البعد عن الإفساد فى الأرض حتى لا ننال العقاب الإلهى .

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ
ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا
يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

معانى الكلمات :

حصيرا : سجنا .

محونا : طمسنا .

مبصرة : يبصر الإنسان بها .

طائر : عمله .

حسيبا : حاسبا .

وزر : ذنب .

مترفيها : متنعميها .

القرون : الجيل من الناس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أن الجزاء ثمرة طبيعية للعمل .

٢ ـ أن نعلم فضل القرآن وأنه هداية للتى هى أقوم .

٣ ـ أن نتعرف على سنة الله فى إهلاك الأمم .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول أن الدمار قد يكون طريقا للرحمة إن أفيد منه عبرة .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين ، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة «إسرائيل » التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات ، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقا لوعد الله القاطع ، وفاقا لسنته التى لا تتخلف ، وإن غداً لناظره قريب .

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين فى الآخرة وجعل جهنم تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ، وتتسع فلا يند عنها أحد .

وينتقل السياق إلى القرآن ، القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، وهكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدى إليه البشر فى كل زمان ومكان .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة البسيطة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء .

يهدى للتى هى أقوم فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء ولا تسهل وتترخص حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ولا تميل مع المودة والشنآن ، ولا تصرفها المصالح والأغراض .

ويهدى للتى هى أقوم فى تبنى الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها ، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووئام .

ويبشر القرآن الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم أجراً كبيراً ألا وهو الجنة . كما يخبر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن الله تعالى هيأ لهم عذابا أليما فى جهنم ، وهذه هى قاعدته الأصيلة فى العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثانى مقطوع لا ركيزة له ، وبهما معا تسير الحياة على التى هى أقوم .

ويخبر السياق عن الإنسان فى ضعفه وقلة إدراكه لعواقب الأمور من أنه إذا ضجر أو غضب يدعو على نفسه وأهله بالشر غير مفكر فى عاقبة دعائه لو استجاب الله تعالى له ، يدعو بالشر كدعائه بالخير ، ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها ، فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادئ الهادى ؟ ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان بين هدى القرآن وهوى الإنسان .

ثم ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية فى هذا الوجود ، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم ، وجهدهم وجزاءهم ، وكسبهم وحسابهم ، فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد الارتباط بالنواميس الكونية الكبرى ، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف .

فالناموس الكونى الذى يحكم الليل والنهار يرتبط به سعى الناس للكسب وعلم السنين للحساب ، ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر ، وترتبط به عواقب

الهدى والضلال ، وفردية التبعة فلا تزرُ وازرة وزر أخرى ، ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولا ، وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة ، والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء فى الدنيا والآخرة ، كلها تمضى وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل ، ونظام لا يتحول فليس شىء وليس أمر فى هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف ، ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل ، وهى عليه شاهد ودليل .

ثم تذكر الآيات أن كل إنسان مسؤول عن عمله الذى سيكون محدداً لمصيره فى الآخرة ، فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه ، فعمله مكشوف لا يملك إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه ، وبذلك الناموس الكونى الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء ، فهى التبعة الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله، ولا يسأل حميم حميما .

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة فى صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذى أخذه على بنى آدم فى ظهور آبائهم ، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين ، وهى منة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب .

كذلك تمضى سنة الله فى إهلاك القرى وأخذ أهلها فى الدنيا ، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك ، وهى المسؤولة عما يحل بها ؛ لأنها لم تضرب على أيدى المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين .

يقول صاحب الظلال : « وهنا تبرز تبعة الجماعة فى ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التى لا مفر منها ، وعدم الضرب على أيدى المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا ، هذه السنة قد مضت فى الأولين من بعد نوح ، قرنا من بعد قرن كلما فشت الذنوب فى أمة انتهت بها إلى ذلك المصير » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ القرآن الكريم يهدى إلى أحسن الطرق وأعدلها .

٢ ـ توجيه النظر إلى الآيات الكونية واستخراج الحكمة من إيجادها .

٣ ـ كل إنسان مسجل عليه عمله ، ومسؤول عنه وحده .

٤ ـ الفسق وعدم الطاعة يؤديان إلى إهلاك الأمم .

٥ ـ للحياة البشرية نواميس لا تتخلف وسنن لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾
۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا (الحزب ٢٩)
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

معانى الكلمات :

يصلى : يدخل .

مدحورا : مطروداً .

محظورا : ممنوعا .

مخذولا : غير منصور .

قضى : أمر وألزم .

أف: كلمة تضجر وكراهية وضيق .

تنهر : تزجر .

اخفض : ألن .

للأوابين : للتوابين .

كفورا : شديد الجحود لنعمة الله عليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الحياة للآخرة هى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله .

٢ ـ أن نتعرف على أهمية إخلاص العبادة لله وحده والإحسان إلى الوالدين .

٣ ـ أن نتنبه إلى البذل والإنفاق وبخاصة على الأقارب والمساكين وأبناء السبيل .

٤ ـ أن نحذر من التبذير والإسراف .

المحتوى التربوى :

إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التى يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره فى الآخرة جهنم عن استحقاق ، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزغات ، ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدى بهم إلى جهنم .

والذى يريد الآخرة لابد أن يسعى لها سعيها فيؤدى تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقيم سعيه لها على الإيمان وليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والسعى للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع فى الأرض هو

الهدف والغاية ، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبداً لهذا المتاع ، وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموما مدحورا ، فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهى إليها مشكورا يتلقى التكريم فى الملأ الأعلى جزاء السعى الكريم لهدف كريم .

يقول صاحب الظلال : « إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذى خلقه فسواه وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه » .

على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله ، وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، والتفاوت فى الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة ، فكيف بهم فى المجال الواسع ، كيف بهم فى الآخرة التى لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟ فمن شاء التفاوت الحق ومن شاء التفاضل الضخم فهو هناك فى الآخرة ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

ثم ينتقل السياق إلى درس تربط فيه قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة فى وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج فى الأسرة وفى الجماعة وفى الحياة .

يبدأ الدرس بالنهى عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ولكن وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه ، فالاعتقاد مسألة شخصية ، مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التى تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن يقعد مذموما بالفعلة الذميمة التى أقدم عليها مخذولا لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه .

ويأتى أمر التوحيد بعد النهى عن الشرك أمرًا فى صورة قضاء،فهو أمر حتمى حتمية القضاء، وإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد ، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال .

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة ، هى رابطة الأسرة ، ومن ثم بربط السياق بر الوالدين بعبادة الله ، قال القاشانى :

« قرن ـ سبحانه وتعالى ـ إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيراً ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك ، وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية ، والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنى عن ذلك ، فأهم الواجبات بعد التوحيد إذاً إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن » .

ويستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء ، ذلك أن الحياة وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام إلى الذرية إلى الناشئة الجديدة إلى الجيل

المقبل ، وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء ، إلى الأبوة ، إلى الحياة المولية ، إلى الجيل الذاهب ، ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات ، لتتذكر واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال ، وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان ، ويخص سبحانه حالة الكبر ، والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ، فإذا كانا كلَّيْنِ على ولدهما ، ولا كافل لهما غيره فهما عنده فى بيته وكنفه وذلك أشق عليه ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره شىء منهما أف ، وهى أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق وما يشى بالإهانة وسوء الأدب، فمرتبة القول الحسن وما يشى بالإكرام والاحترام أعلى إيجابية .

ويبلغ التعبير أقصاه ويمس شغاف القلب وحنايا الوجدان بأن يجعل الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ولا يرفض أمراً ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام .

قال الزمخشرى : « لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها ، وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك » .

فهى الذكرى الحانية ، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان ، وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل .

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة فى السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذى يعلم النوايا ، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال ليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطئ أو يقصر، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير، وما دام القلب صالحًا ، فإن باب المغفرة مفتوح .

ثم يمضى السياق بعد بر الوالدين إلى ذوى القربى أجمعين ، ويصل بهم المساكين وابن السبيل متوسعا فى القربات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الكبير .

وينهى القرآن عن التبذير ، وليس هو الكثرة والقلة فى الإنفاق ، إنما هو موضع الإنفاق ، ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين لأنهم ينفقون فى الباطل والشر والمعصية فهم رفقاء الشياطين وصحابهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفاضل الحق فى الحرص على الآخرة لا فى متاع الدنيا القليل الهزيل .

٢ ـ وجوب توحيد الله والإحسان إلى الوالدين .

٣ ـ الحث على الإنفاق والتحذير من التبذير .

٤ ـ حق النعمة أن تؤدى فى طاعة الله تعالى .

وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا
ميسورا ﴿٢٨﴾ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها
كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴿٢٩﴾ إن ربك يبسط الرزق
لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴿٣٠﴾ ولا تقتلوا
أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان
خطئا كبيرا ﴿٣١﴾ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء
سبيلا ﴿٣٢﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن
قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في
القتل إنه كان منصورا ﴿٣٣﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي
هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان
مسئولا ﴿٣٤﴾ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم
ذلك خير وأحسن تأويلا ﴿٣٥﴾ ولا تقف ما ليس لك به علم
إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴿٣٦﴾
ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ
الجبال طولا ﴿٣٧﴾ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴿٣٨﴾

معانى الكلمات :

ميسورا : سهلا . **محسورا** : منقطعا .

يبسط : يوسع ويكثر . **يقدر** : يضيق .

إملاق : فقر . **خطئا** : إثما . **أشده** : قوته .
القسطاس : الميزان .

تأويلا : عاقبة . **تقف** : تتبع .

مرحا : فخرا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التوازن هو قاعدة الإسلام الكبرى .

٢ ـ أن نعرف أن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة .

٣ ـ أن نسلم بحرمة العرض والنفس والمال خاصة مال اليتيم .

٤ ـ أن نحرص على أمانة التعامل ونظافة القلب .

٥ ـ أن نعلم أن عقيدة الإسلام عقيدة الوضوح فلا يقوم شىء فيها على الظن .

٦ ـ أن نجتنب ذميم الفعال .

المحتوى التربوى :

إذا لم يجد إنسان ما يؤدى به حق ذوى القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم فليعدهم إلى ميسرة ، وليقل لهم قولا لينا ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق فى سكوته ، ففى القول الميسور عوض وأمل وتجمل .

والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن ، والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير ، فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئا ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور ، والحسير فى اللغة : الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفا وعجزا ، فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف ، وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفة الحسير ملوما فى الحالتين على البخل وعلى السرف، وخير الأمور الوسط.

ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرازق هو الله يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر .

ولما قرر السياق أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، كان من المناسب أن يتبعه بالنهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق ، فما دام الرزق بيد الله فلا علاقة إذن بين الفقر وكثرة النسل أو نوع النسل ، إنما الأمر كله لله .

يقول صاحب الظلال : « إن انحراف العقيدة وفسادها ينشئ آثاره فى حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدية ، وتصحيح العقيدة ينشئ آثاره فى صحة المشاعر وسلامتها ، وفى سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها ، وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة فى واقع الجماعة الإنسانية ، وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة » .

وينتقل السياق من النهى عن قتل الأولاد إلى النهى عن الزنا ، وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة ـ وقد توسط النهى عن الزنا بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس لذات الصلة وذات المناسبة ؛ ففى الزنا قتل من نواحى شتى ، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده ، فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة أو حياة مهينة ، فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء .

وهو قتل فى صورة أخرى ، قتل للجماعة التى يفشو فيها فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد ، وهو قتل للجماعة من جانب آخر ؛ إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى إليها ، والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة .

يقول صاحب الظلال : « وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث ، وقد يغر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما ، ولكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها ، أما فى الأمم الفتية كالولايات المتحدة فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ، ولكن سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة ، فلا يقوى على احتمال آثار السن كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده » .

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا وهى مبالغة فى التحرز ؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان ، ويختم النهى عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهى عن قتل النفس إلا بالحق .

يقول صاحب الظلال : « والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلى الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفى الحدود التى يرسمها ، وكل نفس هى حرم لا يمس وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذى يبيح قتل النفس محدود لا غموض فيه ، وليس متروكا للرأى ولا متأثراً بالهوى ، وقد جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فأما الأولى : فهى القصاص العادل الذى إن قتل نفسا فقد ضمن الحياة لنفوس .

وأما الثانية : فهى دفع للفساد القاتل فى انتشار الفاحشة .

وأما الثالثة : فهى دفع للفساد الروحى الذى يشيع الفوضى فى الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذى اختاره الله لها، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة ، والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الاسلام لم يجبر عليه ، ودخل فى جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها .

تلك الأسباب الثلاثة المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوما بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه ـ وهو أقرب عاصب إليه ـ سلطانا على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية ، فهو صاحب الأمر فى التصرف فى القاتل ، لأن دمه له ، وفى مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف فى القتل ، فهو منصور بقضاء الله له وتأييد الشرع ونصرة الحاكم فليكن عادلا فى قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه .

وبعد أن ينتهى السياق من حرمة العرض والنفس يتحدث عن حرمة مال اليتيم وحرمة العهد ، ويشدد فى مال اليتيم ، ويبرز النهى عن مجرد قربه إلا بالتى هى أحسن ، ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، ومن ثم جاء النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، فى صيغة الجمع ؛ لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ؛ ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقا ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ يسأل الله جل جلاله عن الوفاء، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وينتقل السياق فى تناسق ملحوظ من الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان ، وهذا الإيفاء أمانة فى التعامل ونظافة فى القلب ، يستقيم بهما التعامل فى الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة فى النفوس ، وتتم بهما البركة فى الحياة ، وذلك خير فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة .

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شىء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة ، فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

وتختم هذه الأوامر والنواهى المرتبطة بعقيدة التوحيد بالنهى عن الكبر الفارغ والخيلاء الكاذبة ، وهو نهى عن ذميم الأفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيئ منها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ينبغى للمؤمن أن يصل رحمه وأن يعطى المحتاجين ، فإن لم يستطع فإنه يردهم بالقول الحسن .

٢ ـ الإسراف والبخل يؤديان إلى الحسرة والملامة .

٣ ـ حرص الإسلام على طهارة المجتمع من القبائح والمنكرات ، وصيانته لحقوق الإنسان .

٤ ـ النهى عن ذميم الفعال والصفات .

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم
بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾
قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ
ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا
مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا
﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ
إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

٢٨٦

معانى الكلمات :

مدحورا : مطرودا .

أصفاكم : فضلكم وخصكم .

صرفنا : كررنا .

نفورا : تباعدًا وإعراضا .

ابتغوا : طلبوا .

سبيلا : طريقا .

حجابا : ساترا .

أكنة : أغطية .

وقرا : صمما .

مسحورا : مغلوبا على عقله بالسحر .

رفاتا : أجزاء مفتتة أو ترابا أو غبارا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التوحيد هو عماد الدين وأساسه .

٢ ـ أن نقف على مواعظ القرآن وأمثاله وقصصه للتذكر والاعتبار .

٣ ـ أن نتيقن أن أصحاب الهوى لا يثبتون أمام الحق .

المحتوى التربوى :

تختم الأوامر والنواهى بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك وهو ختام يشبه الابتداء، فتجىء محبوكة الطرفين، موصولة بالقاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء الحياة، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه .

وينتقل السياق إلى درس جديد يبدأ وينتهى باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان ما فيها من اضطراب وتهافت ، وتقرير وحدة الاتجاه الكونى إلى الخالق الواحد ، ووحدة المصير والرجعة إلى الله فى الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن فى السموات ومن فى الأرض ، ووحدة التصرف فى شؤون الخلائق بلا معقب ، وإذا كان الله هو واهب البنين والبنات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟ ! وهذا ادعاء مستنكر من الأساس ، وقول

عظيم فى شناعته وبشاعته ، وعظيم فى جرأته ووقاحته ، عظيم فى ضخامة الافتراء فيه ، عظيم فى خروجه عن التصور والتصديق .

ويمضى السياق ليقرر أن القرآن قد جاء بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقا شتى ، وأساليب متنوعة ، ورسائل متعددة ليذكروا ، فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلالتها ، ولكنهم يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن . نفورا من العقيدة التى جاء بها ، ونفوراً من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التى يستمسكون بها ، عقائد الشرك والوهم والترهات.

ويقرر السياق أن الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلا ، والقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله ـ كما يقولون ـ والآلهة التى يدعونها إن هى إلا خلق من خلق الله .

ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح له ويجد الوسيلة إليه ، وهو تعبير تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتنتفض روحا حية تسبح الله ، فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية ، ترتفع فى جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كونى فريد ، حين يتصور القلب ، كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض وكل سابحة فى الماء والهواء ، ومعها سكان السماء ؛ كلها تسبح الله وتتوجه إليه فى علاه ، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب فى كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئا ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا سمعه يسبح لله وينبض بالحياة يقول صاحب **الظلال** : « وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ويتوجه بالتسبيح فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية فى ضمير هذا الوجود ، النابضة فى كل متحرك وساكن ، وفى كل شىء فى هذا الوجود » .

وفى ظل هذا الموكب الكونى المسبح يبدو تقصير البشر وهم أولى من كل شىء فى هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد ، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر .

ويتتابع السياق فيذكر أن القوم كانت تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيما نعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلوه ، وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من

القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ، ثم يغلبهم التأثر به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذى يخلب القلوب والألباب ، ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم فى مكانتهم وفى امتيازاتهم وفى كبريائهم فينفرون منها .

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ، والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد ، فهم يستكثرون فى دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئا غير بشرى ، ويحسون دبيبه الخفى فى مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر يرجعون إليه هذه الغرابة فى قوله ، وهذا التميز فى حديثه ، وهذا التفوق فى نظمه ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ولا خلق آخر من خلق الله . ولو أنصفوا لقالوا إنك رسول ولست بمسحور ولكنهم ضلوا فلم يهتدوا وحاروا فلم يجدوا طريقا يسلكونه لا إلى الهدى ولا إلى تعليل موقفهم المريب .

وينتقل السياق إلى تكذيب المشركين بالبعث وكفرهم بالآخرة ، فقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر ، ولقد عرضها القرآن الكريم فى هذا الضوء مرات ، ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ، فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام .

ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى ، وأنه لا شىء أمام القدرة الإلهية أعسر من شىء وأداة الخلق واحدة فى كل شىء كن فيكون ، فيستوى إذن أن يكون الشىء سهلا ، وأن يكون صعبا فى نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ استنكار فكرة الولد والشريك مع الله ، فالله هو الواحد الأحد .

٢ ـ الكون كله يسبح لله وعلى الإنسان أن ينسجم مع الكون .

٣ ـ لا يتأثر بالقرآن وما فيه من مواعظ وأحكام إلا من هداه الله وشرح صدره للإيمان .

٤ ـ قضية البعث بسيطة عند من يتصور طبيعة الحياة والموت وطبيعة البعث والحشر .

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

الحزب ٢٩

قل كونوا حجارة أو حديدا ﴿٥٠﴾ أو خلقا مما يكبر في
صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة
فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن
يكون قريبا ﴿٥١﴾ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده
وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴿٥٢﴾ وقل لعبادي يقولوا التي هي
أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان
عدوا مبينا ﴿٥٣﴾ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ
يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴿٥٤﴾ وربك أعلم
بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض
وآتينا داوود زبورا ﴿٥٥﴾ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا
يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴿٥٦﴾ أولئك الذين
يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون
رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴿٥٧﴾
وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة
أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا ﴿٥٨﴾

٢٨٧

معانى الكلمات :

يكبر : يعظم .

فطر : خلق وأبدع .

ينغضون : يحركون استهزاء .

ينزغ : يفسد ويهيج .

تحويلا : نقله إلى غيركم ممن لم يعبدهم .

الوسيلة : القربة بالطاعة والعبادة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حتمية البعث والجزاء .

٢ ـ أن نتعرف على الأسلوب الهادئ الخالى من الغلظة والشدة .

٣ ـ أن نتعلم أن العبادة لا تتم إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يبتعد الإنسان عما نهى الله عنه ، وبالرجاء يكثر من الطاعات .

٤ ـ أن نعلم أن ما يقع للناس من إهلاك أو تعذيب أو قتل أو مجاعات أو غيرها ، فإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم.

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى الرد على ذلك التعجب من استبعاد وقوع المعاد فيأمر الله جل جلاله نبيه ﷺ أن يجيبهم بأن العظام والرفات فيها الرائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة فكونوا حجارة أو حديداً أو خلقا آخر أوغل فى البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر فى صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة ، فسيبعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدى ، وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفى هذا إيماء من بعيد إلى ما فى تصورهم من جمود وتحجر .

ويمضى السياق فيذكر سؤال المستنكرين للبعث من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما ، أو خلقا آخر أشد إيغالا فى الموت والخمود ؟

ويأتى الرد فيرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح ، فالذى أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء ، ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون ويحركون رؤوسهم علوا أو سفلا ، استنكارا واستهزاء ، ويتساءلون عن موعده متى هو ؟ استبعادا لهذا الحادث واستنكارا ، وما كان لهم أن يسألوا سؤالهم فهو غيب والغيب لا يعلمه إلا الله وحده ، وما كان للرسول أن يعلم موعده تحديداً ، ولكن لعله أقرب مما يظنون ، وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم فى غفلتهم يكذبون ويستهزئون .

ثم يرسم السياق مشهداً سريعا لذلك اليوم ، وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يلبون دعوة الداعى ، وألسنتهم تلهج بحمد الله ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب!

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا : الحمد لله الحمد لله ! ويومئذ تنطوى الحياة الدنيا كما ينطوى الظل ، وتظنون إن لبثتم فى الدنيا إلا قليلا ، وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها فى نفوس المخاطبين ، فإذا هى قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها فى النفس وصورها فى الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل .

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتهكمين المتهجمين ، يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول ﷺ أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى ، فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه . بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة .

يقول صاحب **الظلال** : « الشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء ، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم ، فالشيطان يتلمس سقطات فمه

وعثرات لسانه فيغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته » .

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المصير كله بيد الله وحده إن شاء رحم وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل إن هو إلا رسول،والعلم المطلق لله وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أوعذابهم .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض ، وهو تفضيل يعلم الله أسبابه ، ويذكر السياق نموذجًا من عطاء الله لأحد أنبيائه وهو من مظاهر التفضيل فقد آتى داود زبورا ، والكتب أبقى من الخوارق المادية التى يراها بعض الناس فى ظرف معين من الزمان .

وينتهى الدرس بتحدى الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم ، ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذى يحذره من يعلم حقيقته ويخشاه ؛ فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه .

وهكذا يبدأ الدرس ويختم ببيان تهافت عقائد الشرك فى كل صورها ، وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .

ويستطرد السياق إلى بيان المصير النهائى للبشر جميعا ـ كما قدره الله فى علمه وقضائه ـ وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب ، فلا يبقى حى إلا ويلاقى نهايته على أى الوجهين : الهلاك حتف أنفه أو الهلاك بالعذاب ، فما من قرية إلا وسيهلكها الله ؛ بأن يبيد أهلها جميعا أو يعذبهم عذابا شديدا إما بقتل أو ابتلاء بما شاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم وعدم استجابتهم لنبيهم ﷺ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله قادر على إعادتنا كما خلقنا أول مرة .

٢ ـ اختيار أحسن ما يقال ، فالكلمة الطيبة تحفظ حرم الأخوة آمنا .

٣ ـ على قدر الخوف والرجاء تكون العبادة لله .

٤ ـ ما ينزل بالناس من العذاب بسبب ظلمهم لأنفسهم .

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

معانى الكلمات :

مبصرة : آية بينة واضحة .

أحاط : علمًا وقدرة فيهم فى قبضة الله .

الشجرة الملعونة : شجرة الزقوم .

لأحتنكن : لأستولين أو لأستأصلن .

استفزز : استعجل واستخفَّ وأزعج .

أجلب عليهم : صح عليهم وسقهم .

بخيلك ورجلك : بكل راكب وماشٍ فى معاصى الله .

يزجى : يجرى ويسير ويسوق برفق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن نزول العذاب نتيجة الجحود والنكران .

٢ ـ أن نطلع على الحرب الدائرة علينا من قبل إبليس وأتباعه .

٣ ـ أن نعلم أنه لا سلطان للشيطان على القلب الموصول بالله .

٤ ـ فى لحظات الكرب والشدة ينسى كل سند ومجير إلا الله وحده .

المحتوى التربوى :

قد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل ، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب ، ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ، أما الجاحدون فقد كذبوا بها فى زمانهم .

يقول صاحب الأساس : « إن سنة الله فى الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ، ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال ، وذكر من تلك الآيات التى اقترحها الأولون ، ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا : ناقة صالح لأن آثار هلاك ثمود معروفة معلومة ، وقد ذكر ابن كثير أن

الكوفة قد رجفت على عهد ابن مسعود ﷺ فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روى أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب ﷺ مرات فقال عمر: أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن » .

ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق ، فمعجزة الإسراء هى القرآن ، وهو كتاب يرسم منهجا كاملا للحياة ، ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبى الفطرة القويمة ، ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة ، أما الخارقة المادية فهى تخاطب جيلا واحداً من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

وهذه التجارب البشرية التى ضرب السياق المثل لها بثمود ، اقتضت أن تجىء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق ؛ لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها ، ولأنها رسالة الرشد البشرى تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته ، والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التى وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج ، فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة ، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء ، فلقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينا ، ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فتنة للناس وابتلاء لإيمانهم .

أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه ، ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه فى رؤياه الكاشفة الصادقة ، ومنه شجرة الزقوم التى يخوف الله بها المكذبين .

وفى ظل الرؤيا التى رآها الرسول ﷺ واطلع فيها على ما اطلع من عوالم ، والشجرة الملعونة التى يطعم منها أتباع الشياطين ، يجىء مشهد إبليس الملعون ، يهدد ويتوعد بإغواء الضالين ، ثم يكشف السياق عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ؛ ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها عن إصرار سابق قديم ، فحسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله فى هذا الطين .

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول فى تبجح : أترى هذا المخلوق الذى جعلته أكرم منى عندك ؟ لئن تأخرت إلى يوم القيامة فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم فى قبضة يدى أصرف أمرهم .

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بنى الإنسان ، ويمضى السياق فيجسم وسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهى المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريق المعارك والمبارزات

يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال .

ويتابع السياق رسم صورة المعركة القائمة ، فيصور شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة ، وإبليس مأذون فى أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة؛ كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، وهى الثغرة التى يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التى يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيزين لها الخطيئة وهو يلوح بها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة .

ويجنب السياق أقواما ـ هم عباد الله أحداث هذه المعركة الصاخبة لأنهم مذودون بحصانة تمنعهم سطوة إبليس .

يقول صاحب الظلال : « فمتى اتصل القلب بالله واتجه إليه بالعبادة ، متى ارتبط بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، متى أيقظ فى روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت ، فلا سلطان ـ حينئذ ـ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذه الروح المشرقة بنور الإيمان ، والله يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان » .

ثم ينتقل فيعرض مشهد الفلك فى البحر نموذجا للخطاب للحظات الشدة والحرج ؛ لأن الشعور بيد الله فى الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة فى الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبون بهذه النقطة على كف الرحمن .

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخائفة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة فى الفلك ـ صغيرا كان أو كبيراً ـ حتى عابرات المحيط الجبارة التى تبدو فى بعض اللحظات كالريشة فى مهب الرياح على ثبج الموج الجبار ، ويشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك فى البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله ، فالرحمة هى أظهر ما تستشعره القلوب فى هذا الأوان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ من رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده أنه يخوفهم ببعض آياته ومظاهر نقمه ليرجعوا إليه تائبين .

٢ ـ الحسد من الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فمن أراد الهداية عليه أن يبتعد عنه .

٣ ـ الحذر من الشيطان وإغوائه .

٤ ـ لا سلطان للشيطان على القلب الموصول بالله .

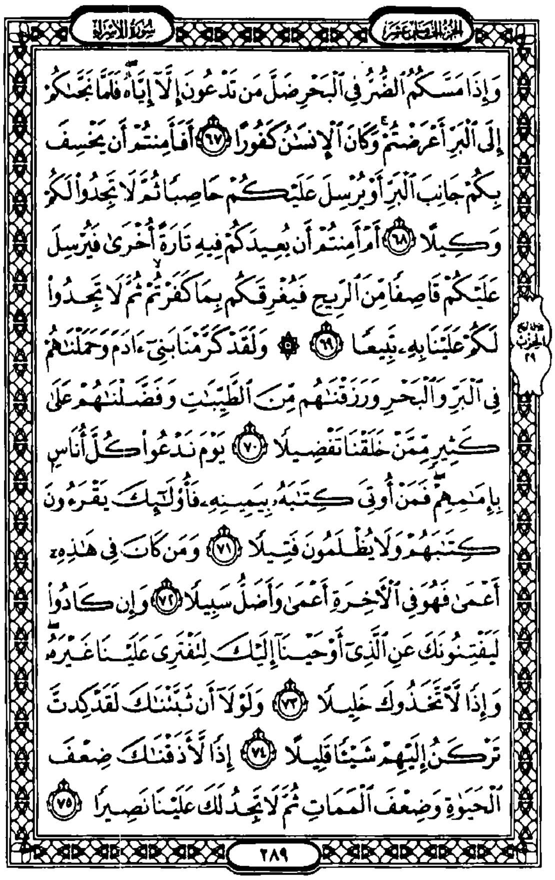
الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم
إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا (٦٧) أفأمنتم أن يخسف
بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم
وكيلا (٦٨) أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل
عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا
لكم علينا به تبيعا (٦٩) ۞ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم
في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠) يوم ندعوا كل أناس
بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون
كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان في هذه
أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢) وإن كادوا
ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره
وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت
تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف
الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥)

٢٨٩

معانى الكلمات :

يخسف بكم : يغيب بكم تحت التراب .

حاصبا : ريحا شديدة ترمى بالحصباء .

قاصفا : عاصفا شديداً مهلكا .

تبيعا : نصيراً .

فتيلا : قدر الخيط المستطيل فى شق نواة البلح .

ليفتنونك : ليصرفونك .

تفترى : تختلق .

تركن : تميل .

ضعف الحياة : عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن من الغفلة أن يعرض البشر عن الله وهم فى قبضته فى كل لحظة وفى كل بقعة .

٢ ـ أن نقف على تكريم الله لبنى آدم .

٣ ـ أن نعرف أن الإنسان يتحمل تبعة اتجاهه وعمله ، ومن العدل أن يلقى ثمرة عمله فى دار الحساب .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من الإزجاء الرخى للاضطراب العتى ، حين ينسى الركب فى الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده فى لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه ، ولكن الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلى الغمرة وتمس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطى على فطرته التى جلاها الخطر إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذى تركوه فى البحر وهو يلاحقهم فى البر ، أو وهم يعودون إليه فى البحر ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا فى جوار الله

وحماه ، لا فى البحر ولا فى البر ؛ لا فى الموجة الرخية والريح المواتية ولا فى الملجأ الحصين والمنزل المريح .

ويقرر السياق أن البشر فى قبضة الله فى كل لحظة وفى كل بقعة ، إنهم فى قبضته فى البر كما هم فى قبضته فى البحر ، فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلا يحميهم ويدفع عنهم ؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة، تقصف الصوارى وتحطم السفين ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم ؟ ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا ، ثم يأمنوا أخذه وكيده وهم يتوجهون إليه وحده فى الشدة ثم ينسونه بعد النجاة ، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله .

ويعلن السياق تكريم الله لبنى آدم ، هذا المخلوق البشرى على كثير من خلقه ، كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان ، وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته ، والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشىء ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك ؛ وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق ـ جل شأنه ـ تكريم هذا الإنسان ، وكرَّمه بإعلان هذا التكريم كله فى كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقى فى الأرض ـ القرآن .

ويتابع السياق حديثه عن هذا التكريم بأن تم حملهم فى البر والبحر بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهى ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية فى البر والبحر ، ولكن الإنسان مذود بالقدرة على الحياة فيها ومذود كذلك بالاستعدادات التى تمكن من استخدامها ، وكله من فضل الله .

والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة ، فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التى رزقها إلا حين يحرمها ، فعندئذٍ يعرف قيمة ما يستمتع به ، ولكن سرعان ما يعود فينسى ، هذه الشمس ، هذا الهواء ، هذا الماء ، هذه الصحة ، هذه القدرة على الحركة ، هذه الحواس ، هذا العقل ، هذه المطاعم والمشارب والمشاهد ، هذا الكون الطويل العريض الذى استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه .

هذا الإنسان فضله الله بهذا الاستخلاف فى ملك الأرض الطويل العريض ، وبما ركب فى فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنسانى فذاً بين الخلائق فى ملك الله ، ومن التكريم أن

يكون الإنسان قيماً على نفسه ، محتملا تبعة اتجاهه وعمله ، فهذه هى الصفة الأولى التى بها كان الإنسان إنسانا ، حرية الاتجاه وفردية التبعة ، وبهذا استخلف فى دار العمل ، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله فى دار الحساب .

ويصور السياق مشهد الخلائق محشورة، وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذى اتبعته ، أو الرسول الذى اقتدت به ، أو الإمام الذى ائتمت به فى الحياة الدنيا ؛ تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها فى الدار الآخرة ، فمن أوتى كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئا ، ولو قدر الخيط الذى يتوسط النواة.

ومن عمى فى الدنيا عن دلائل الهدى فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الخير ، وأشد ضلالا ، وجزاؤه معروف ، ولكن السياق يرسمه فى المشهد المزدحم الهائل ، أعمى ضالا يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدى به ، ويدعه كذلك لا يقرر فى شأنه أمرا ؛ لأن مشهد العمى والضلال فى ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر فى القلوب .

وينتقل السياق فيعدد محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأدها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ليفترى عليه غيره ، وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى .. منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء .

والسياق يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ؛ ليذكر فضل الله على الرسول فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا ، وللقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة والممات دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الأمن والقرار لا يكونان إلا فى جوار الله وحماه لا فى البر ولا فى البحر .

٢ ـ الإنسان ضعيف بالقياس إلى العوامل الطبيعية ، ولكنه مذود بالقدرة على الحياة فيها واستخدامها .

٣ ـ من العدل أن يلقى الإنسان جزاء اتجاهه وثمرة عمله .

٤ ـ الله ـ تعالى ـ تكفل بنصرة نبيه ﷺ وإظهار دينه على من عاداه وخالفه فى مشارق الأرض ومغاربها .

الجزء الخامس عشر سورة الإسراء
وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ
الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ
نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن
لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا
﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
٢٩٠

معانى الكلمات :

يستفزونك : يستخفونك ويزعجونك .

تحويلا : تبديلا وتغييراً .

دلوك الشمس : بعد أو عند زوالها عن كبد السماء .

غسق : ظلمة أو شدة الظلمة .

نافلة : فريضة زائدة .

سلطانا : قهراً وعزاً .

زهق : بطل .

نأى بجانبه : لوى جانبه تكبراً وعنادا .

شاكلته : طريقته .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الاتصال بالله هو السلاح الذى يعصم من الفتن ويكفل النصر والسلطان .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وعذاب ونقمة على من يكذبون به .

٣ ـ أن نقف على صفة الإنسان فى حالتى الرحمة والعذاب .

٤ ـ أن نعلم أن علم الإنسان ضئيل .

المحتوى التربوى :

هذا الدرس الأخير فى سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسى للسورة ، شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه، والقرآن الذى جاء به وخصائص هذا القرآن .

وقد بدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجه من مكة وعصمة الله له من فتنتهم ومن استفزازهم؛لما سبق فى علمه ـ تعالى ـ من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإبادة كالأمم قبلهم ، ولو أخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفقاً لسنة الله التى لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من الأقوام .

هذه المحاولات التى عصم الله منها رسوله ، هى محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات ـ دائما ، محاولة إغرائهم لينحرفوا ـ ولو قليلا ـ عن استقامة الدعوة وصلابتها ، ويرضوا بالحلول الوسط التى يغرونهم بها فى مقابل مغانم كثيرة .

يقول صاحب الظلال : « والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها ، فالذى ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذى يسكت عن طرف منها مهما ضؤل لا يمكن أن يكون مؤمنا بدعوته حق الإيمان ، فكل جانب من جوانب الدعوة فى نظر المؤمن هو حق كالآخر ، وليس فيها فاضل ومفضول ، وليس فيها ضرورى ونافلة ، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه ، وهى كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه ،كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره .

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات فإذا سلَّموا فى الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها،والتسليم فى جانب - ولو ضئيل - من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها- هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان فى نصرة الدعوة ، والله وحده هو الذى يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم ، ومتى دبت الهزيمة فى أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرا» .

لذلك امتن الله على رسوله ﷺ أن ثبته على ما أوحى الله ، وعصمه من فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم - ولو قليلا - ورحمه من عاقبة هذا الركون ، وعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرًا ، ولو أخرجوا الرسول ﷺ عنوة وقسراً لحل بهم الهلاك فهذه سنة الله النافذة ، ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول أمام اعتبار فردى ، وإنما هى سنن مطردة ، ومضت سنة الله فى طريقها لا تتحول .

بعد ذلك يوجه الله رسوله ﷺ إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه والمضى فى طريقه بأن يقيم الصلاة ما بين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ، ويقرأ قرآن الفجر ، ولهذين الأوانين خاصيتهما ، ولهما وقعهما العميق فى النفس ، فإن مقدم الليل وزحف الظلام كمطلع النور وانكشاف الظلمة كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر فى نواميس الكون التى لا تفتر لحظة ولا تختل مرة ، وللقرآن - كما للصلاة - إيقاعه فى الحس فى مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحه بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة .

يقول صاحب الظلال : « هذا هو الطريق المؤدى إلى المقام المحمود ، وإذا كان الرسول ﷺ يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به فى درجاتهم ، فهذا هو الطريق ، وهذا هو زاد الطريق .

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله ، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذى جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله ، والدعوة قد تغزوا قلوب ذوى السلطان والجاه فيصبحون لها جندا وخدما فيفلحون ، ولكنها هى لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهى من أمر الله ، وهى أعلى من ذوى السلطان والجاه ، وبهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجىء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل واندحاره وجلائه ، فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة ؛ لأنه لا يحمل عناصر البقاء فى ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ، فإذا تخلخلت تلك العوامل ووهت هذه

الأسناد تهاوى وانهار ، فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده ، وثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء ؛ لأنه من عند الله الذى جعل الحق من أسمائه وهو الحى الباقى الذى لا يزول » .

ويمضى السياق فيذكر أن فى القرآن شفاء ، وفى القرآن رحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح ، وطمأنينة واطمئنان ؛ وفى القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ، وفى القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان ، وفى القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة فى الشعور والتفكير ، فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة ، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدى ، وفى القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التى تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها ، فتعيش الجماعة فى ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة فى سلامة وأمن وطمأنينة .

أما الظالمون فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة ، وهم فى غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم فى الدنيا مغلوبون من أهل القرآن فهم خاسرون ، وفى الآخرة معذبون بكفرهم به فهم خاسرون ، وحين يترك الإنسان لنزعاته واندفاعاته فهو فى حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ، وهو فى حال الشدة يائس من رحمة الله ، تظلم فى وجهه فجاج الحياة .

ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ، والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله ، ويأتى السؤال عن الروح ما هو ؟ والمنهج الذى سار عليه القرآن ـ وهو المنهج الأقوم ـ أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله اختص بعلمه دون سواه ، والله يمتن على رسوله ﷺ بهذا الفضل ؛ فضل إنزال الوحى واستبقاء ما أوحى به إليه والمنن على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن فى رحمة وهداية ونعمة ، أجيالا بعد أجيال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ كل جانب من جوانب الدعوة فى نظر المؤمن هو حق كالآخر ، وليس فيها فاضل ومفضول .

٢ ـ متى دبت الهزيمة فى أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرا .

٣ ـ بالصلاة والقرآن والتهجد به والصلة الدائبة بالله يكون الطريق المؤدية إلى المقام الأسمى عند الله .

٤ ـ صاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله .

٥ ـ فى القرآن شفاء ورحمة .

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل
لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ
ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

معانى الكلمات :

ظهيرا : معينا .

صرفنا : رددنا وكررنا بأساليب مختلفة .

مثل : معنى غريب بديع .

كفورا : شديد الجحود للحق .

ينبوعا : عينا لا يجف ماؤها .

كسفا : قطعا .

قبيلا : جماعة أو مقابلة وعيانا .

زخرف : ذهب .

ترقى : تصعد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن القرآن - كسائر ما يبدعه الله - يعجز المخلوقون أن يصنعوه أو يضاهوه .

٢ - أن نعرف أن الخارقة ليست من صنع الرسول ولا هى من شأنه ؛ إنما هى من أمر الله .

٣ - أن نعلم أن المكابرة تقود إلى الجحود والنكران .

المحتوى التربوى :

وكما أن الروح من الأسرار التى اختص الله بها ، فالقرآن من صنع الله الذى لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن - وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفى - أن يأتوا بمثله ، ولو تظاهروا وتعاونوا فى هذه المحاولة ، فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها ، إنما هو - كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه ، هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل ، منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التى تصرف النفس البشرية فى كل أطوارها وأحوالها ، والتى تصرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها وأطوارها ، ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة علاجا متكاملا متناسق الخطوات

فى كل جانب ، فى الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ، ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة فى حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته ، ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد ، وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد .

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنسان والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به .

ويلتفت السياق إلى إعراض الكافرين وبيان ما فى اقتراحاتهم من عنت وجهالة ، وقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذى يعرفونه جيداً بالخبرة الطويلة ، ما يدلهم على صدقه وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين ، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف ، وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنا كأمانته .

ولا يخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه ، وبحكمته وجلاله ، فالذى اقترحته قريش فيها ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله ـ تعالى ـ المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض ، وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر لمصالح يعلمها هو ـ جلت عظمته ، ولا يعلمها الخلق ، فليس مقترحهم هذا من العجز فى شىء مع أن مثله لا تثبت به النبوة ، فإننا نعلم أن أناساً قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء .

وفيما اقترحته قريش ما يناقض إرادة الله ـ سبحانه ؛ فإن طلب إنزال السماء قطعا مقتضٍ لهلاك العالم بحذافيره ، والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم ، ومما اقترحوا ما هو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلا ؛ وهو طلب الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون فلا يجوز طلبه وليس من أنواع المعجز .

ومما اقترحوه ما لا يصلح للأنبياء ، ولو حصل لم يكن معجزا وهوقولهم وهو طلبهم أن يكون للنبى ﷺ بيت من ذهب ، فإن هذا غير صالح للأنبياء وليس بمعجز لحصول مثله عند أشباه فرعون ، ومما اقترحوه ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل وأردفوه بما لا يجوز بأن يرقى فى السماء،ولا يكفى أن يعرج إليها وهم ينظرونه،بل لابد أن يعود إليهم ومعه كتاب يقرؤون فيه على ما ذكر فى الرواية : من الله العظيم إلى فلان وفلان لقوم من قريش بأسمائهم ، أما بعد ، فإن محمداً رسولى فآمنوا به ، والصعود فى السماء لا مزية فيه ؛ لأنهم لن يؤمنوا بالصعود هذا ، فلو

كان لكان عبثا ، وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ؛ لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل والوحى مختص بالأنبياء ، والكفار عنه معزولون ، فلم يكن شىء مما اقترحوه فى الآيات معجزا ، وإنما هى أمور مستحيلة فى نفسها أو لأمر آخر .

وتبدو طفولة الإدراك والتصور ، كما يبدو التعنت فى هذه المقترحات الساذجة ، وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء ، أو بين تفجير الينبوع من الأرض ومجىء الله ـ سبحانه ـ والملائكة قبيلا ، والذى يجمع فى تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق ، فإذا جاءهم بها نظروا فى الإيمان له والتصديق به ، وغفلوا عن الخارقة الباقية فى القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه ، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس .

ويبين السياق أن الخارقة ليست من صنع الرسول، ولا هى من شأنه ، إنما هى من أمر الله ـ سبحانه ـ وفق تقديره وحكمته ، وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها ، فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به ، فهو يقف عند حدود بشريته،ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه .

ويمضى السياق ليذكر أن الشبهة التى عرضت للأقوام ـ من قبل أن يأتيهم محمد ﷺ ومن بعد ما جاءهم ، والتى صدتهم عن الإيمان بالرسل وما معهم من الهدى ـ أنهم استبعدوا أن يكون الرسول بشرا ولا يكون ملكا ، وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولا من عند الله، كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار فى الأرض وهم فى صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة .

وما دامت هذه سنة الله فى خلقه ، فهو يأمر الرسول ﷺ أن ينهى معهم الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف فى أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعا ، وهو قول يحمل رائحة التهديد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القرآن منهج حياة كامل والنظم البشرية متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته .

٢ ـ ليس من العقل أن نسعى فى طلب ما نعجز عنه .

٣ ـ المكابرة والعناد يؤديان إلى ضلال سعى الإنسان .

٤ ـ التفاهم حسب سنة الله لا يتم إلا بين المتجانسين ، فإذا اختلفت الأجناس فلا تفاهم إلا أن يشاء الله .

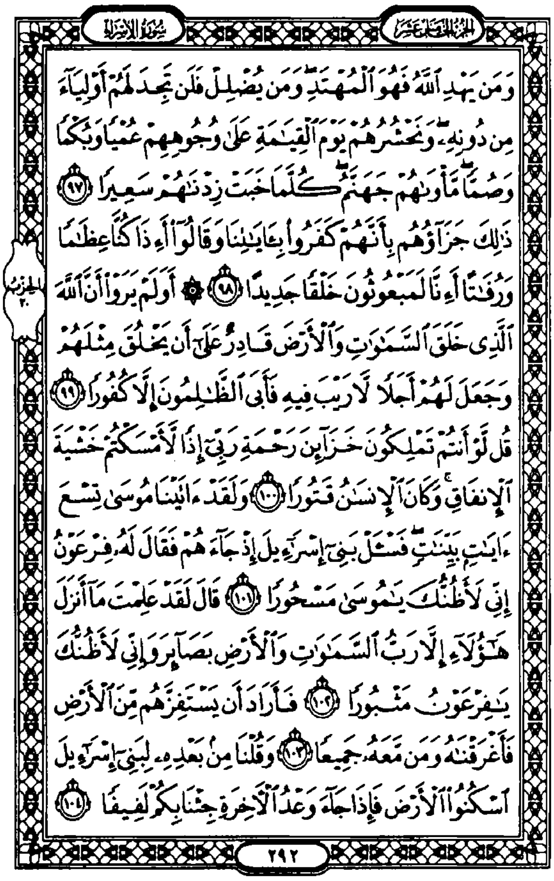
الجزء الخامس عشر سورة الإسراء

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢٩٢

معانى الكلمات :

خبت : سكن لهيبها .

سعيرا : لهبا وتوقدا .

رفاتا : أجزاء مفتتة أو غباراً أو ترابا .

لا ريب : لا شك .

قتورا : مبالغا فى البخل .

بصائر : بينات تبصِّر من يشهدها .

مثبورا : هالكا أو مصروفا عن الخير .

لفيفا : جميعا مختلطين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإنسان مهيأ للهدى والضلال .

٢ ـ أن نقف على صفة الإنسان من حيث البخل والجزع والهلع .

٣ ـ أن نعلم أن المؤمن قوى بالحق .

٤ ـ أن نعرف عاقبة الطغيان عندما يفكر فى الرد على كلمة الحق .

المحتوى التربوى :

لقد جعل الله للهدى والضلال سننا وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها ، ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال وفق ما يحاوله لنفسه من السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال ، فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله وهذا هو المهتدى حقا ؛ لأنه اتبع هدى الله ، والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله .

ويرسم السياق عاقبة الضالين فى مشهد من مشاهد القيامة مخيف ، فالله ـ جل جلاله ـ يحشرهم يوم القيامة فى صورة مهينة مزعجة على وجوههم يتكفؤون مطموسين محرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام ـ جزاء ما عطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى ، ومأواهم جهنم فى النهاية ، لا تبرد ولا تفتر .

وهى نهاية مفزعة وجزاء مخيف ، ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله واستنكروا البعث ـ واستبعدوا وقوعه ، والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأنما الدنيا التى كانوا فيها قد انطوت صفحتها ، وصارت ماضيا بعيدا ، وذلك على طريقة القرآن فى تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها فى القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان .

ثم يعود السياق ليجادلهم بالمنطق الواقعى الذى يرونه فيغفلونه ، فأية غرابة فى البعث ؛ والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذاً على أن يعيدهم أحياء ، وجعل لهم أجلا أنظرهم إليه وأخرهم إلى موعده ولكن كفروا فكان جزاؤهم عادلا بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ، ووضوح الآيات .

ويمضى السياق فى رده على أولئك الذين يقترحون على الرسول ﷺ تلك المقترحات المتعنتة ؛ من بيوت الزخرف وجنات النخيل والأعناب والينابيع المتفجرة أنهم بخلاء أشحاء حتى لو أن رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفا من نفادها ، ورحمة الله لا تنفد ولا تغيض .

ويقول القاسمى : « وذكر هذا المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان تذكيرا له بنقصه وضعفه، وإشفاقه وحرصه ليعلم أنه غير مخلوق سدى يخَلَّى بينه وبين ما تتقاضاه به نفسه وهواه ، والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله مما يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ، ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم ما لا نفاد له من خزائنه لضننتم بها ، مما يدلكم على أنه هو مالك الملك » .

والله ـ تعالى ـ يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، ورحمة الله وسعت كل شىء ، ولا يخشى نفادها ولا نقصها ، والله ـ جل وعز ـ ينفرد بملك هذه الخزائن كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض ؛ كى تتجلى لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملأى ، فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ وحقيقة ما يدعوهم إليه .

وينتقل السياق فيذكر أن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان فى القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى قد أوتى تسع آيات بينات . وهى : اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ـ ثم كذب بها فرعون وملؤه فحل بهم الهلاك جميعا ، واسأل بنى إسرائيل فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون من اتهام الثانى للأول بأنه مغلوب على عقله بالسحر .

يقول صاحب الظلال : « كلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر فى عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدرى ما يقول ، فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعانى، ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية ، فأما موسى فهو قوى بالحق الذى أرسل به مشرقا منيرا، مطمئن إلى نصرة الله له وأخذه للطغاة».

وقد أوتى موسى عليه السلام آيات آخر كثيرة ، منها : ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ، وتظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها ـ كفراً وجحوداً ، ولهذا قال موسى لفرعون : لقد علمت أن الذى أنزل هذه الآيات التسع رب العالمين رب السموات والأرض بينات مكشوفات ، ولكنك معاند ومكابر ، وإنى لأظنك هالكا ومدمَّراً جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق .

وعندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم ، فكذلك يفكر الطغاة فى الرد على كلمة الحق ، وعندئذ تحق على الطاغية كلمة الله ، وتجرى سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين فكان الإغراق لفرعون ومن معه ، وإسكان الأرض لبنى إسرائيل ، وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات ، وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم ـ وقد عرفنا كيف كان مصيرهم فى أول السورة ـ أما هنا فهو يكلهم هم وأعداءهم إلى جزاء الآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله .

٢ ـ الشح من طبع الإنسان إلا أن يعالجه بالإيمان والتقوى فيقيه الله منه .

٣ ـ المعجزات والخوارق لا تنشئ الإيمان فى القلوب الجاحدة .

٤ ـ الله ينتصر لأوليائه ، ويهلك أعداءه .

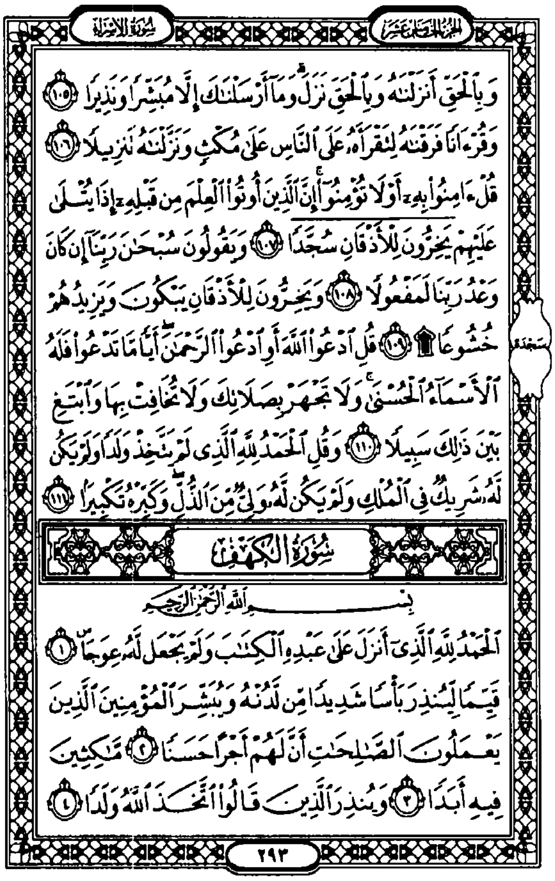
الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴿١٠٥﴾
وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴿١٠٦﴾
قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴿١٠٧﴾ ويقولون سبحان ربنا إن كان
وعد ربنا لمفعولا ﴿١٠٨﴾ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم
خشوعا ۩ ﴿١٠٩﴾ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله
الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ
بين ذلك سبيلا ﴿١١٠﴾ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن
له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴿١١١﴾

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴿١﴾
قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ﴿٢﴾ ماكثين
فيه أبدا ﴿٣﴾ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴿٤﴾

٢٩٣

معانى الكلمات :

فرقناه : فصلناه أو أنزلناه مفرقا .

مكث : تأن وتمهل .

تخافت : تسر .

عوجا : اختلالا واختلافا وانحرافاً .

قيما : مستقيما معتدلا .

بأسا : عذابا .

ماكثين : باقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على حكمة نزول القرآن مفرقا .

٢ ـ أن نقف على تأثير القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه .

٣ ـ أن نعلم أنه لا لبس فى العقيدة ولا غموض .

٤ ـ أن نعلم الغرض من إنزال القرآن الكريم .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن هذا القرآن قد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقا ليقرأ على مهل فى الزمن الطويل ، لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، ويقيم لها نظاما ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل ، ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى ، والتربية تتم فى الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية فى الزمن الطويل ، جاء ليكون

منهجا عمليا يتحقق جزءاً جزءا فى مرحلة الإعداد ، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى . وتلك حكمة نزوله متفرقا ، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى .

قال صاحب الظلال : « ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى ، تلقوه توجيها يطبق فى واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهى ، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة ، ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير ؛ فتكيفوا به فى حياتهم اليومية ، تكيفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم ، وفى بيوتهم ومعاشهم ، فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، وما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود ﷺ : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق ، فنزل ليقر الحق فى الأرض ويثبته ، وبالحق نزل ، فالحق مادته والحق غايته ، ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه ، والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذى جاء به .

وهنا يأمر الرسول ﷺ أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم ، إن شاؤوا آمنوا بالقرآن وإن شاؤوا لم يؤمنوا ، وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم ، ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا .

يقول صاحب الظلال : « وهو مشهد موح يلمس الوجدان ، مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن فيخشعون ولا يتمالكون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجدا ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله ، وصدق وعده ، ويغلبهم التأثر فلا تكفى الألفاظ فى تصوير ما يجيش فى صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذى لا تصوره الألفاظ فوق ما استقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المنفتحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته .

وقد عدَّ الإمام الغزالى فى الإحياء من آداب ظاهر التلاوة البكاء قال : « البكاء مستحب مع القراءة ، قال رسول الله ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين

أحدكم ، فليبك قلبه » ، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن ، فمن الحزن ينشأ البكاء ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب » .

ثم يعقب السياق عليه بتركهم يدعون الله بما شاؤوا من الأسماء فكلها أسماؤه فما شاؤوا منها فليدعوه بها ، ويؤمر الرسول ﷺ أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو نفور وابتعاد، والتوسط أليق بالوقوف فى حضرة الله .

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد لا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولى والنصير وهو العلى الكبير .

سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، وكان البدء بدءاً فيه استقامة ، وفيه صرامة ، وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب على عبده بهذه الاستقامة لا عوج فيه ولا التواء ، ولا مداراة ولا مداورة .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس فى العقيدة ولا غموض : الله هو الذى أنزل الكتاب والحمد له على تنزيله ، ومحمد هو عبد الله ، فالكل إذن عبيد ، وليس لله من ولد ولا شريك ، والكتاب لا عوج له قيما ، يتكرر معنى الاستقامة مرة عن طريق نفى العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة توكيداً لهذا المعنى وتشديداً فيه ، والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : ليخوف به من لم يؤمن ، ويبشر المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح بأن لهم مثوبة جميلة عندالله ، وينذر مشركى العرب الذين قالوا باتخاذ الله ولدا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جاء القرآن ليتخذ شرعة ومنهاجا فى واقع الحياة لا تسلية وتلهية .

٢ ـ تأثير القرآن ، لا يكون إلا فى أصحاب القلوب المنفتحة لاستقبال فيضه .

٣ ـ الفضل يرجع لله فله الحمد فى الأولى والآخرة .

٤ ـ سلوك الطريق الواضحة أساس عقيدة الإسلام فى منطق الداعى .

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

٢٩٤

معانى الكلمات :

كبرت : عظمت فى القبح .

أسفا : غضبا وحزنا .

تبلوهم : تختبرهم .

صعيدا جرزا : ترابا أجرد لا نبات فيه .

حسبت : ظننت .

الرقيم : الكتاب .

أمدا : مدة أو غاية .

ربطنا : شددنا .

شططا : بعدا عن الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم أن نحكم بما نعلم ولا نتعداه .

٢ ـ أن نقف على قصة فتية الكهف واختيارهم الكهف على زينة الحياة .

٣ ـ أن نعلم أن العقيدة والتضحية أمران متلازمان .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فى كشف المنهج الفاسد الذى يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها قضية العقيدة ، فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافا ، وتشترك الألفاظ بنظمها فى العبرة وجرسها فى النطق فى تفظيع هذه الكلمة التى يقولونها ، فهو يبدأ بكلمة «كبرت» لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بها ، ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزاً لضميرها فى الجملة : « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها .

ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجا كأنها تنطلق منها جزافا وتندفع منها اندفاعا ، وتشارك لفظة أفواههم بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها بفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد : « أفوا ... » ثم تتوالى الهاءان فيمتلئ الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة : « أفواههم » ، وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة فى تصوير المعنى ورسم الظل .

ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفى والاستثناء ، ويختار للنفى كلمة «إن» لا كلمة «ما» لأن فى الأولى صرامة بالسكوت الواضح ، وفى لفظ «ما» شىء من الليونة بالمد ، وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة .

ويمضى السياق فيما يشبه الإنكار يقول للرسول ﷺ : لعلك قاتل نفسك أسفا وحزنا عليهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم وتأسف ، فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع وأموال وأولاد ، جعلناه اختباراً وامتحانا لأهلها ليتبين من يحسن منهم العمل فى الدنيا ، ويستحق نعمتها كما يستحق نعيم الآخرة ، والله يعلم ولكنه يجزى على ما يصدر من العباد فعلاً ، وما يتحقق منهم فى الحياة عملا ، ويسكت عمن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح ، ونهاية هذه الزينة محتومة فستعود الأرض مجردة منها، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل القيامة سطحا أجرد خشنا جدبا .

وينتقل السياق إلى قصة أصحاب الكهف ، فتعرض القصة نموذجا للإيمان فى النفوس المؤمنة ، كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس ، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ويشملها بالرحمة .

يقول صاحب الأساس: « إن قصة أهل الكهف نموذج لطلاب الآخرة العازفين عن زينة الحياة الدنيا ، ونموذج للدخول فى الإسلام كله فى أيام الفتنة ، ولقد رأينا كيف أن أهل الكهف اعتزلوا وأووا إلى الكهف داعين إلى الله عز وجل هذا الدعاء الذى قصه الله علينا ، وهو دعاء الفارين بدينهم من الفتن .

والطريقة التى اتبعت فى عرض هذه القصة هى طريقة التلخيص الإجمالى أولا ، ثم العرض التفصيلى أخيراً ، فنعرف أن أصحاب الكهف فتية ـ لا نعلم عددهم ـ آووا إلى الكهف وهم مؤمنون ، وأنه ضرب على آذانهم فى الكهف فناموا سنين معدودة ـ لا نعلم عددها ، وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة ، وأنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم ، ثم لبثوا فى الكهف ، فبعثوا

ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء ، وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله ، وفى صفحات هذا الكون من العجائب ، وفى ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم .

ثم يبدأ العرض التفصيلى ، فيذكر أنهم فتية فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار فى جبل ليختفوا عن قومهم .

يقول ابن كثير : « ذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ـ وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ ، الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا » .

هؤلاء الفتية ألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فهم يدبرون أمرهم ، وربط على قلوبهم فإذا هى ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى عرفت ، معتزة بالإيمان الذى اختارت ، فعزموا على المواجهة وثبتوا على إيمانهم بالله رب السموات والأرض ـ فرب هذا الكون كله واحد لا شريك له ـ ولم يتجاوزوا الحق ويحيدوا عن الصواب .

ويعلنون المواجهة فى استنكارهم على قومهم المنهج الذى يسلكونه فى تكوين العقيدة ، وطريق الاعتقاد ينبغى أن يكون للإنسان فيه دليل قوى يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول ، وإلا فهو الكذب الشنيع ؛ لأنه الكذب على الله . وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما ، لا تردد فيه ولا تلعثم ، إنهم فتية أشداء فى أجسامهم ، أشداء فى إيمانهم ، أشداء فى استنكار ما عليه قومهم .

وقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بالوحى والإلهام عندما كانت المفارقة الفكرية بينهم وبين قومهم ، واعتزالهم لهؤلاء الأقوام أن يجعلهم آية لمن بعدهم فألهمهم أن يأووا إلى الكهف .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدنيا دار اختبار وابتلاء ، لا دار قرار وجزاء ، والعاقل يتخذها طريقا إلى الجنة .

٢ ـ الله عز وجل ـ يرعى النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ويشملها الرحمة ، فحمى الله أوسع .

٣ ـ المؤمن معتز بإيمانه ، ثابت عليه لا يتردد ولا يتلعثم مهما بلغت قوة الباطل .

٤ ـ المؤمن ليس سلبيا ، بل يتخذ كل سبل المواجهة فى الذب عن عقيدته .

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا
﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ
مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

معانى الكلمات :

مرفقا : ما ينتفع به فى العيش .

تزاور : تميل .

تقرض : تبتعد .

الوصيد : فناء الكهف أو عتبة بابه .

رعبا : خوفا وفزعا .

ورق : فضة مضروبة نقودا .

يظهر : يطلع أو يغلب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلحظ أثر الإيمان العميق لأصحاب الكهف .

٢ ـ أن نتفكر فى قدرة الله ، وأنها لا يعجزها شىء .

٣ ـ أهل الإيمان قوم عمليون ، يتركون البحث فيما لا طائل تحته .

المحتوى التربوى :

إن فتية الكهف تبين لهم الهدى فى وسطٍ ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله ، والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم .

وهنا ينكشف العجب فى شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة ، هؤلاء الذين

يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستروحون رحمة ، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ، ولفظة «ينشر» تلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتنزاح ، وإن الجدران الصلبة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق ، إنه الإيمان .

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالما آخر فى جنبات القلب المغمور بالإيمان المأنوس بالرحمن ، عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

يقول القاسمى : « زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقا ، وهو خطأ ، فإنها تشير إلى التأسى بأهل الكهف فى الاعتزال ، إذا اضطهد المرء فى دينه وأريد على الشرك ، وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة الإمام الغزالى فى إحيائه : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون ، وإنما اعتزلوا الكفار، ولا ريب فى مشروعيته فراراً فى الفتن» .

ويرفع الستار على مشهد آخر والفتية فى الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس ، وهو مشهد تصويرى عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية فى الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك ، والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة ، وتغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم فى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .

ويأتى أحد التعليقات القرآنية التى تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب فى اللحظة المناسبة فيشير إلى أن وضعهم هكذا فى الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها ، وهم فى مكانهم لا يموتون ولا يتحركون ـ هو من آيات الله ، ومن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدى حقا ، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهى ، فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعدها هاديا .

ثم يمضى السياق يكمل المشهد العجيب ؛ وهم يقلبون من جنب إلى جنب فى نومتهم الطويلة ، فيحسبهم الرائى أيقاظا وهم رقود ، وكلبهم ـ على عادة الكلاب ـ باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم ، وهم فى هيئتهم هذه يثيرون الرعب فى قلب من يطلع عليهم ، إذ يراهم نيامًا كالأيقاظ ، ينقلبون ولا يستيقظون ، ذلك من تدبير الله كى لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم .

وفجأة تدب فيهم الحياة،والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس، إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم إلى الآخر فيسأل كم لبثتم ؟ وكان الجواب يوما أو بعض يوم ، ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التى لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله ـ شأن المؤمن فى كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا فى شأن عملى ، فهم جائعون ، ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة إذن فليبعثوا بأحدهم ليختر أطيب طعام فى المدينة ليأتهم بشىء منه .

ونشهد الفتية يتناجون فيما بينهم حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبأهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان فى المدينة فيقتلوهم رجما ، أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب ، فيوصوا الرسول المبعوث أن يكون حذراً لبقا .

كل هذا الحذر وهم لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد زالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التى اعترت الفتية بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ، وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون وأنهم أعجوبة فى نظر الناس وحسهم ، ولن يمكن للناس أن يعاملوهم كبشر عاديين ، وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد ، كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية ، فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

هذا وبين المشاهد فجوة أعرض عنها السياق ، ليتجول الخيال فى مساحة فسيحة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن فى يقين من نصرة الله لأوليائه ، وأنه جاعل لهم من كل ضيق فرجا ومخرجا .

٢ ـ قدرة الله لا يعجزها شىء ، ودلائل قدرته تزيد فى عمق الإيمان .

٣ ـ وجوب طلب الحلال فى الطعام والشراب وغيرهما .

٤ ـ الأخذ بالحيطة من أسباب الفلاح .

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٩٦

معانى الكلمات :

أعثرنا : أطلعنا .

رجما بالغيب : قولا بالظن من غير يقين .

تمار : تجادل .

رشدا : هداية .

لبثوا : مكثوا .

ملتحدا : ملجأ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موضع العبرة فى خاتمة فتية الكهف .

٢ ـ أن نعلم من منهج الإسلام صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد .

٣ ـ أن ننتهى عن الجدل فى غيب الماضى ، وأن نحسب حساب الغيب فى أمر المستقبل .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق القرآنى المشهد الأخير ؛ مشهد وفاتهم ، ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب ، وتكمن فى خاتمة هؤلاء الفتية ودلالتها على البعث بمثل واقعى قريب محسوس ، يقرب إلى الناس قضية البعث فيعلمون أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، وعلى هذا النحو بعث الفتية من نومتهم فأعثر قومهم عليهم .

ويعرض موقف الناس خارج الكهف يتنازعون فى شأنهم ، على أى دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال ، فقد قال بعضهم : سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم فربهم أعلم بما كانوا عليه من عقيدة ، وقال أصحاب السلطان ـ فى ذلك الأوان:

لنتخذن عليهم معبدا على طريقة اليهود والنصارى فى اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين ، وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى . اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وينتقل السياق إلى مشهد آخر لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار ، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم جيلا بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون .

ولا ضرورة للجدل الطويل حول عددهم والعبرة حاصلة بالقليل وبالكثير ، لذا يوجه القرآن إلى ترك الجدل فى هذه القضية وإلى عدم استفتاء أحد المتجادلين فى شأنهم ؛ تمشيا مع منهج الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد ، وفى ألا يقفو المسلم ما ليس به علم وثيق ، وهذا الحادث غيب موكول إلى علم فليترك إلى علم الله .

يقول ابن تيمية فى قاعدة له فى التفسير : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام مقام حكاية الأقوال ، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذه ؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فيقال فى مثل هذا ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فبهذا قال : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل ، ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ؛ لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافا فى مسألة ، ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا » .

وينتقل السياق من النهى عن الجدل فى غيب الماضى إلى النهى عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، فالإنسان لا يدرى ما يكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه ، فكل حركة وكل نأمة ، بل كل نفس من أنفاس الحى مرهون بإرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ، وعقله مهما علم قاصر كليل، فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غداً ، وغداً فى غيب الله ، وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر فى أمر المستقبل ، ولا يدبر له ، بل معناه أن يحسب حساب الغيب، وحساب المشيئة التى تدبره، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ؛ لأن الأمر لله أولا وأخيراً .

ويأتى الإرشاد بأنك إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه ، وإذا سئلت عن شىء لا تعلمه فأسأل الله فيه ، وتوجه إليه أن يوفقك للصواب والرشد من هذا النهج الذى يصل القلب دائما بالله فى كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

وتجىء كلمة «عسى» وكلمة «لأقرب» للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال .

وإلى هنا لم نكن نعلم كم لبث الفتية فى الكهف ، فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين ، وهو أنهم لبثوا ثلاثمائة من السنين وازدادوا تسعا ، وهذا فصل الخطاب يقرره عالم غيب السموات والأرض ما أبصره وما أسمعه سبحانه! فلا جدال بعد هذا ولا مراء .

ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها ، وبتوجيه الرسول ﷺ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب والاتجاه إلى الله وحده فليس من حمى إلا حماه .

قال ابن جرير : « يقول الله تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين ، وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم ولا مغير لما أوعد الله بكلماته التى أنزلها عليك ، وإن أنت لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتم به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلا تئل إليه ؛ لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه .. »

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ استغلال الوقت والطاقة فيما يفيد بتعلم فقه الأولويات .

٢ ـ على المسلم أن يسعى السعى الحثيث ، وهو يستشعر أن يد الله فوق يده فيقوى بالاعتماد عليه .

٣ ـ ليس من حمى إلا حمى الله ، فقد فر إليه أهل الكهف فشملهم برحمته .

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة
الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان
أمره فرطا (٢٨) وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن
شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها
وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس
الشراب وساءت مرتفقا (٢٩) إن الذين آمنوا وعملوا
الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (٣٠) أولئك
لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور
من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين
فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١) ۞ واضرب
لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما
بنخل وجعلنا بينهما زرعا (٣٢) كلتا الجنتين آتت أكلها ولم
تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا (٣٣) وكان له ثمر فقال
لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا (٣٤)

الحزب ٣٠

معانى الكلمات :

اصبر نفسك : ثبت نفسك .

لا تعد : لا تصرف .

فرطا : إسرافا .

سرادقها : لهيبها أوما يحيط بها .

مرتفقا : متكأ .

آرائك : أسرة .

سندس وإستبرق : حرير رقيق وسميك .

حففنا : أحطنا ولففنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الدعوات لا تقوم إلا على القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له لا تبغى جاها ولا انتفاعا .

٢ ـ أن نعلم أن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها إنما هى ملك لله ، والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها .

٣ ـ أن نتذكر أن القيم الحقيقية ليست هى المال أو الجاه أو السلطان أو اللذائذ ، والمتاع فى هذه الحياة ، إنما هى فى القرب من الله .

المحتوى التربوى :

يروى أن أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع فى إيمان رؤوس قريش ، أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء النفر ؛ لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذى السادة من كبراء قريش .

ويروى أن الرسول ﷺ طمع فى إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ، لتعلن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذى لا يخطئ ، وهذا هو الحق ، فمن شاء بعد هذا البيان أن يؤمن أو يكفر فليفعل ، فالإسلام لا يتملق أحدًا ، ولا يزن الناس بموازين غير ميزانه ، فلا تمل ولا تستعجل ، فالله غايتهم يتجهون إليه بالغداة والعشى لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة ، فاصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات .

يقول صاحب الظلال : « الدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا ، إنما تبتغى وجهه وترجو رضاه » .

فلا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه الزينة لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالى الذى يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تطع الكافرين فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء ، لا تطع من أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد فى قلبه متسع لله ، والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم .

يقول صاحب الظلال : « الحق لا ينثنى ولا ينحنى ، إنما يسير فى طريقه قيما لا عوج فيه ، قويا لا ضعف فيه ، صريحا لا مداورة فيه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ، ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها ، إنما هى ملك لله ، والله غنى عن العالمين ، والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هى بلا تحوير ، والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين » .

ثم يعرض السياق ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين فى مشهد من مشاهد القيامة ؛ فهناك نار معدة ومحضرة ، فهى لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنا لإعدادها ، ومع أن خلق

أى شىء لا يقتضى إلا كلمة الإرادة : كن فيكون ، والتعبير هنا بلفظ ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يلقى ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ، والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال .

وهى نار ذات سرادق يحيط بالظالمين فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل فى النجاة والإفلات ، ولا مطمع فى منقذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح ، فإن استغاثوا من الحريق والظمأ ، أغيثوا بماء كدردىّ الزيت المغلى فى قول ، وكالصديد الساخن فى قول ، يشوى الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التى تتجرعه ، فبئس هذا الشراب الذى يغاث به الملهوفون من الحريق ، ويا لسوء النار ـ وسرادقها مكانا للارتفاق والاتكاء ، وفى ذكر الارتفاق فى سرادق النار تهكم مرير ، فما هم هنالك للارتفاق إنما هم للاشتواء .

وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات عدن للإقامة ، تجرى من تحتهم الأنهار بالرى وبهجة المنظر واعتدال النسيم ، وهم هنالك للارتفاق حقا ، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وهم رافلون فى ألوان من الحرير من سندس ناعم خفيف ، ومن إستبرق مخمل كثيف ، تزيد عليهما أساور من ذهب للزينة والمتاع ، فنعم الثواب .

ثم تجىء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنسانى لطائفة من الناس .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين فى ازدهار وفخامة ؛ فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر ، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال ، وكل جنة آتت أكلها ، ولم تمنع أو تنقص من ثمرها شيئا .

وصاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى تذهله الثروة وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة ، فتمتلئ نفسه بجنتيه ، ويزدهيه النظر إليهما فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير ، فيراجعه الكلام تعييراً له بالفقر ، وفخرا عليه بالمال والجاه والأنصار والحشم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لقد جاء الإسلام ليسوى بين الرؤوس ، ولا ينفع الإنسان إلا عمله .

٢ ـ الذى يترفع على المؤمنين لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

٣ ـ ترسم قصة الرجلين نموذجين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله .

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٢٩٨

معانى الكلمات :

تبيد : تهلك وتفنى .

منقلبا : مرجعا .

حسبانا : عذابا كالصواعق .

صعيدا زلقا: ترابا أملس لا تثبت فيه قدم .

غورا : غائرا .

خاوية : ساقطة .

هشيما : يابسا متفتتا .

تذروه : تفرقه وتنسفه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف يكون الرجل المؤمن معتزا بإيمانه وعقيدته .

٢ ـ أن نعلم عاقبة الغرور والبغى .

٣ ـ أن نعلم ألا قوة إلا قوة الله ، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه هو خير الثواب .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن صاحب الجنتين فيصوره وهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ، وقد نسى الله ، ونسى أن يشكره على ما أعطاه ، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، أنكر قيام الساعة أصلا ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ، أليس من أصحاب الجنان فى الدنيا فلابد أن يكون جنابه ملحوظا فى الآخرة .

إنه الغرور يخيل لذوى الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى ، فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلابد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ .

فأما صاحبه الفقير الذى لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر ، فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى ، معتز بعقيدته وإيمانه ، معتز بالله الذى تعنو له الجباه ، فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب فى حق المنعم ، وينذره عاقبة البطر والكبر ، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار .

وهذا الرجل الفقير نفسه مطمئنة ، فهى تحس ـ كما قال **الإمام أبو زهرة** :

أولا : بأن الله هو الخالق ، وأنه خلق الإنسان من تراب وأنه الواحد الأحد .

ثانيا : وأنه هو المعطى ، والمعطى يستحق الشكر .

ثالثا : والتفويض إلى الله ، والإحساس بأن كل شىء عطاء منه بعد اتخاذ الأسباب .

رابعا : وبأنه موضع الرجاء على أن يفوض الأمر إليه ، وأن من أعطى يمنع إذا اغتر من أعطاه ، ورغب عن طاعته ، وأن عليه أن يتذكر المنع عند العطاء ، وأن يتذكر حاله إذا فقد النصير وهذا جوابه لما حاوره صاحبه مفاخرا .

يقول **صاحب الظلال** : « وهكذا تنتفض عزة الإيمان فى النفس المؤمنة فلا تبالى المال والنفر ، ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم فى الحق ولا تجامل فيه الأصحاب ، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع فى فضل الله ، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين » .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار ، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن ؛ الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شىء ، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب ، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته ، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى .

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفا وندما ، وجلال الله يظلل الموقف حيث تتوارى قدرة الإنسان .

يقول صاحب الأساس : « القصة تبين أن الاغترار بزينة الحياة الدنيا يؤدى إلى الكفر كما تبين جهل من يتصور أن إعطاء الله الحياة الدنيا علامة كرامة دائما ، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون ، وفى خاتمة القصة إذا تصبح الجنة صعيدا زلقا تذكير بالنهاية الكلية للدنيا كلها ، وللأرض كلها يوم القيامة ، وندم صاحب الجنة فى هذا المقام أقل بكثير من الندم يوم القيامة .

وقد رأينا فى القصة كيف كانت الحياة الدنيا مزينة للكافر ، وكيف كان يسخر من المؤمن ، ويترفع عليه ويفتخر ، وقد عرضت لنا القصة نوعا من أنواع فوقية المؤمن على الكافر ، حتى فى الحياة الدنيا فضلا عن الآخرة ، ومن ثم ختمت القصة بقوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ وكل ذلك يخدم موضوع الدخول فى الإسلام كله ؛ إذ العبرة للخواتيم ، والخواتيم لأهل الإيمان».

وأمام هذا المشهد يضرب مثلا للحياة الدنيا كلها ، فإذا هى كتلك الجنة المضروبة مثلا ، قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار ، فالمشهد قصير خاطف يلقى فى النفس ظل الفناء والزوال ، فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ولكنه يختلط به نبات الأرض ، والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشيما تذروه الرياح ، وما بين ثلاث جمل قصار ينتهى شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشاهد بالتعقيب الذى تدل عليه الفاء ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فـ ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فـ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ فما أقصرها حياة ، وما أهونها حياة .

يقول القاسمى : « وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو ، ثم يزولون زوال النبات ، والله قادر على كل من الإنشاء والإفناء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يكون ذاكراً لربه ، وقدرته التى تسيطر على أقدار الناس والحياة .

٢ ـ شكر النعمة حق واجب للمنعم .

٣ ـ ما عند الله خير من أعراض الدنيا .

٤ ـ الحياة كتلك الجنة المضروبة مثلا قصيرة لا بقاء لها ولا قرار .

٥ ـ يزول الكافر عن شرفه المزعوم كما يزول النبات بعد نموه .

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ الحزب ٣٠
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

معانى الكلمات :

بارزة : ظاهرة .

مشفقين : خائفين .

ويلتنا : هلاكنا .

يغادر : يترك .

أحصى : عدّ وأثبت .

عضدا : أعوانا وأنصارا .

موبقا : مهلكا .

مصرفا : مكانا ينصرفون إليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الوزن الحق للباقيات الصالحات يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم أن سجل الأعمال شامل دقيق ، ولا يملك صاحبه تفلتا ولا هربا .

٣ ـ أن نعلم أن تلبية دواعى المعصية بمثابة اتخاذ إبليس وذريته أولياء .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التى يتعبدها الناس فى الأرض ، والقيم الباقية التى تستحق الاهتمام ، فيقرر أن المال والبنين زينة الحياة ، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة فى حدود الطيبات ، ولكنه يعطيها القيمة التى تستحقها الزينة فى ميزان الخلود ولا يزيد ، فهما زينة ولكنهما ليسا قيمة ، فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما فى الحياة ، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال ، والأقوال ، والعبادات .

يقول صاحب **الظلال** : « إذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين ، فإن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا ، عندما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء » .

وينتقل السياق من الحديث عن الباقيات الصالحات ليصف اليوم الذى يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب ، يعرضه فى مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه الطبيعة ، ويرتسم الهول فيه وعلى صفحاتها وعلى صفحات القلوب ، مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان وكذلك تنكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية .

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التى لا تخبئ شيئا ولا تخفى أحدًا إلى الحشر الجامع الذى لا يخلف أحداً ، ومن هذا الحشر إلى العرض الشامل .

هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفى أحدا ، وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب ، فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه ، ونرى الخزى على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه .

وإننا نكاد نلمح الخزى على الوجوه ، والذل فى الملامح ، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : هأنتم قد جئتم إلينا فرادى كما خلقناكم فرادى ، وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون .

ويوضع أمامهم سجل أعمالهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق ، وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذى لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة ، ثم هم يدعون بالويل دعوة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هربا ، ولا مغالطة ولا مداورة ، عمله حاضر وهو ملاق جزاء عادلا من الله العادل .

وينبه السياق إلى أن هؤلاء المجرمين الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم ، ولكنهم تولوه ، فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب ، فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس ، واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبية دواعى المعصية والتولى عن دواعى الطاعة .

ويأتى الاستنكار لهذا الولاء فلماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة ، فالله لم يشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه ، والله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم قوة وإنما هم خلق من خلق الله لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم ـ سبحانه ، فهو المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومدبرها ومقدرها ، ليس معه فى ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير .

فهل يتخذ الله ـ سبحانه غير المضلين عضدا ؟ تعالى الله الغنى عن العالمين ذو القوة المتين ، إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها ، فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهما منهم أن للشيطان علما خفيا وقوة خارقة والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين ، فلو أنه ـ على سبيل الفرض والجدل ـ كان متخذا له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين ، وهذا هو الظل الذى يراد أن يلقيه التعبير .

وعلق الشيخ أبو زهرة قائلا : « وهذا النص السامى يشير أولاً : إلى وجوب الحذر من إغواء إبليس وذريته وبيان أنهم لا قوة لهم إلا بضعف نفوسكم واستحذائها فليس لهم قوة ذاتية ، إنما قوتهم من ضعفكم ، ويشير ثانيا : إلى أنه لا إرادة لهم فى شىء فى الوجود إلا ما تكسبه الأنفس الضالة ، ويؤكد ثالثا : إلى أن الله وحده خالق كل شىء » .

ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ، ومصير المجرمين وهم فى الموقف الذى لا تجدى فيه دعوى بلا برهان ، والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ، ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا ، وإنهم لفى ذهول ينسون أنها الآخرة ، فينادون لكن الشركاء لا يجيبون ، وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا فى الموقف المرهوب ، وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ، ولا هؤلاء:إنها النار .

ويعاين المجرمون جهنم حين يجاء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، وتمتلئ نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يقعوا فيها ، وما أشق توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا ألا نجاة منها ولا محيص .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على المسلم أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وأن يعمل الصالحات ليوم الحساب .

٢ ـ الكل يجازى على عمله يوم القيامة ؛ ولا يظلم ربك أحدا .

٣ ـ على المسلم أن يحاذر عداوة إبليس ويتخذه عدوا .

٤ ـ لا يستحق العبادة أحد سوى الله ، ومن كفر فإن جهنم مثواه .

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ
الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

٣٠٠

معانى الكلمات :

صرفنا : كررنا بأساليب مختلفة .

قبلا : أنواعا وألوانا أو مقابلة ومواجهة .

ليدحضوا : ليبطلوا ويزيلوا .

أكنة : أغطية كثيرة مانعة .

وقرا : صمما .

موئلا : ملجأ ومخلصا .

مجمع : ملتقى .

حقبا : زمنا طويلا .

سربا : منفذا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم أهل الحق أن أهل الباطل أكثر خصومة فى باطلهم ، وعليهم أن يعدوا العدة .

٢ ـ أن نعلم أن الرسل لم يرسلوا إلا مبشرين للمؤمنين ومخوفين للكافرين .

٣ ـ أن نعلم أن الظالم من أعرض عن آيات ربه ونسى ذنوبه .

٤ ـ أن نعلم أن من رحمة الله تأخير العذاب حتى يراجع العاصى نفسه .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى إقامة الحجة على المشركين ؛ فقد كان لهم عن النار مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ويذكر الله عز وجل نعمته على خلقه بهذا القرآن ، وطبيعة الإنسان التى تصرفه عن الاستفادة الكاملة من هذا القرآن ، وكان الإنسان أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدًا بعد واحد ، خصومة ومماراة بالباطل .

جاءت هذه الآية بعد أن بين الله عاقبة الذين اتخذوا الشياطين أولياء ، مبينا فيها أنه قد وضح لهم فى هذا القرآن الأمور ، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هداه الله وبصره ، فكم من مثل ضربه الله لينقل الإنسان إلى الحال الأعلى ، ورأينا نموذجا على جدال الإنسان بالباطل فى بعض هذه الأمثال .

يقول صاحب الظلال : « ويعبر السياق عن الإنسان فى هذا المقام بأنه « شىء» وأنه أكثر شىء جدلا ؛ ذلك كى يطامن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلا ، بعد ما صرف الله فى هذا القرآن من كل مثل » .

ثم يعرض الشبهة التى تعلق بها من لم يؤمنوا ـ وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات، فلقد جاءهم من الهدى ما يكفى للاهتداء ، بحيث لا يبقى مانع يمنع من الإيمان ، ولكنها الطبيعة الحجود التى لا تصدق إلا إذا هلكت ، أو رأت عذاب الآخرة ، فهى لا تصدق ما أنذرها به الرسل حتى يقع ، فكانوا يطلبون أن يحل بهم ماحل بالمكذبين من قبلهم من هلاك ـ استبعادًا لوقوعه واستهزاء ـ أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أن سيقع بهم ، وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون .

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل ، فأخذ المكذبين بالهلاك ـ كما جرت سنة الله فى الأولين بعد مجىء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب ، كله من أمر الله أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون ، ويجادل الكافرون يحاولون غلبة الحق وإبطاله ، والحق واضح ، ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه ، وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعًا ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .

وهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به ؛ لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل فى آذانهم كالصمم ، فلا يستمعون إليه . وقدر عليهم الضلال ـ بسبب استهزائهم وإعراضهم ـ فلن يهتدوا إذًا أبدًا ، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى .

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم ، ويؤخر عنهم الهلاك الذى يستعجلون به ، ولكنه لن يهملهم فلهم موعد ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل ، موعد فى الدنيا يحل فيه شىء من العذاب ، وموعد فى الآخرة يوقون فيه الحساب .

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم ، لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم لحكمه اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ، بل جعل لهم موعدًا آخر لا يخلفونه ، فلا يغرنهم إمهال الله فإن موعدهم بعد ذلك آت ، وسنة الله لا تتخلف ، والله لا يخلف الميعاد .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ أن هذا المقطع جاء فى وسط السورة بعد ضرب أمثال كثيرة ، فكأن هذا المقطع جاء ليقرر مجموعة الأوامر التى تعالج الأمراض .. التى تنبع كلها من موضوع تزيين الحياة الدنيا ، فالشيطان هو الذى يزين الحياة الدنيا هو الإيمان بالله ، والاستغفار ، والاهتداء بهدى القرآن فآمنوا واستغفروا ، واهتدوا ، وهذا كله يقتضى تسليما لله ـ تعالى ـ يتمثل بالتسليم لهذا القرآن فلا تجادلوا واستسلموا » .

ثم يعرض السياق حلقة من سيرة موسى ﷺ لا تذكر فى القرآن إلا فى هذا الموضع ، والقرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه إلا بأنه مجمع البحرين ، ولا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى ، ولا يذكر شيئا عن العبد الصالح الذى لقيه موسى ، من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبى أو رسول ؟ أم عالم ؟ أو ولى ؟

ونحن نقف عند نصوص القصة فى القرآن ، ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة .

ونفهم من سياق القصة أنه كان لموسى ﷺ هدف فى رحلته ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما كان الزمن الذى ينفقه فى الوصول ، وقد أمر بحمل مملوح معه ، وسار هو وفتاه حتى بلغا مجمعا البحرين فجعل يسير فيه ، والماء مثل الطاق لا يلتئم بعده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الإنسان أن يقلل من غروره ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله .

٢ ـ على المسلم ألا ينس ذنوبه ، ولا يغتر بإمهال الله .

٣ ـ الإيمان والاستغفار سمة خاصة للمؤمنين .

٤ ـ إهلاك الظالمين سنة الله التى لا تتخلف .

٥ ـ القرآن ليس تسلية وتلهية بل عظة وادكار .

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

معانى الكلمات :

نصبا : تعبا شديدا .

أوينا : التجأنا .

نبغ : نطلب .

ارتدا : رجعا .

رشدا : صوابا .

إمرا : عظيما منكرا أو عجبا .

ترهقنى : تحملنى .

نكرا : منكرا فظيعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الأدب اللائق مع المعلم ، فيجب أن تراعى منازل الناس .

٢ ـ الحمية التى تأخذ المصلح تفوت خيرا كثيراً .

٣ ـ على المسلمين فى تهاونهم أن يلتفوا على قواعد متفق عليها ، رجاء ثمرة هذه التعاون واستمراره .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن قصة موسى ، فيعلن أنه لما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغداة ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فأخبره الفتى بالأمر الذى جرى ، فقد كان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذى حدده ربه له للقاء عبده الصالح وأنه هنالك عند الصخرة ، ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه ، ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح فى المشاهد التالية للقصة.

ويلقى موسى ﷺ الخضر ، ويسأله أن يتبعه على أن يتعلم منه ؛ يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

قال ابن كثير : « سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم » .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدنى بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده ، للحكمة التى أرادها ، ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا ؛ لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلى ، وبالأحكام الظاهرة ، ولابد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار ؛ لذلك يخشى العبد الصالح الذى أوتى العلم اللدنى على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته ، ويعزم موسى على الصبر والطاعة ويستعين الله ويقدم مشيئته .

قال صاحب الكشاف : « رجا موسى ﷺ لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقا بمشيئة الله ؛ علما منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبى المعصوم الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برئ من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين » .

ويذكر الخضر شرط صحبته قبل بدأ الرحلة بعدما قبله متعلما ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شىء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها ويرضى موسى .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ فى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام أن الخضر اشترط على موسى شروطًا للسير والصحبة ، فلما أخلَّ بها موسى ﷺ تم الفراق ، وفى كثير من المراحل أو الأحيان لا يجمع المسلمين سلطة تنفيذية تجب طاعتها شرعا ، فعلى المسلمين فى هذه الحالة أن يعملوا مع بعضهم متعاونين لتحقيق الأهداف المفروضة ، وقد جرت العادة أن يلتقى هؤلاء المتعاونون على قواعد متفق عليها ، تحكمهم مع بعضهم ، وعلى أنظمة متفق عليها يلتزمون بها ، وعلى ضوء ذلك يكون السير ، ومن قصة موسى مع الخضر نفهم أنه إذا كان السير مشروطا

بشرط ، وحدث إخلال بهذا الشرط ، فإن المخل بالشرط يفارق ، ذلك حق للطرف الآخر إلا إذا تنازل عن حقه » .

ونقف أمام المشهد الأول لهما ؛ فإذا بهما قد انطلقا لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه ، فركبا فى سفينة تحملها وتحمل معهما ركابا ، وهم فى وسط اللجة ، ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ، وظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدى بهم إلى هذا الشر ، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسى موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر المنطق العقلى ، ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ، ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه أمام غرابتها ، ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعمًا غير التصور النظرى ، ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذقتها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكرا ، وفى صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قال منذ البداية، ويعتذر موسى بنسيانه، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير ، ويقبل الرجل اعتذاره ، فنجدنا أمام المشهد الثانى :

وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها ، فهذه قتل نفس قتل عمد لا مجرد احتمال ، وهى فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده ، فليس ناسيا فى هذه المرة ولا غافلا ، ولكنه قاصد ، قاصد أن ينكر هذا النكر الذى لا يصبر على وقوعه ، ولا يتأول له أسبابا ، والغلام فى نظره برىء لم يرتكب ما يوجب القتل ، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذا على ما يصدر منه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا مانع من أن يذهب العالم إلى من هو أعلم منه ؛ ليزداد منه علما ومعرفة .

٢ ـ العلم الربانى هو ثمرة الإخلاص والتقوى ، ويسمى « العلم اللدنى » يورثه الله لمن أخلص العبودية له .

٣ـ المؤمن يرى بنور الله ، والاعتذار عند الخطأ لا يقلل من قيمة الإنسان .

٤ ـ التواضع والملاطفة فى مخاطبة العلماء والفضلاء .

٥ ـ التعاون المثمر لا يكون إلا عن اتفاق على قواعد مقرره تحكمهم .

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

الجزء ١٦ الحزب ٣١
۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

٣٠٢

معانى الكلمات :

استطعما : طلبا طعاما .

أبوا : امتنعوا .

ينقض : ينهدم ويسقط بسرعة .

تأويل : تفسير .

غصبا : استلابا بغير حق .

يرهق : يكلف .

رحما : رحمة وعطفا وبرا .

أشدهما : قوتها وكمال عقلهما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يرضى المؤمن بقضاء الله تعالى ، وإن كان ظاهره ضارا .

٢ ـ أن نعلم حسن تدبير الله تعالى لأوليائه بما ظاهره عذاب ولكن فى باطنه رحمة .

٣ ـ أن نتعلم أن نكون كالشجرة تُرمى بالحجر فترمى بالثمر .

المحتوى التربوى :

مرة أخرى يرد العبدُ الصالحُ موسى ﷺ إلى شرطه الذى شرط ، ووعده الذى وعد ، ويذكره بما قال له أول مرة ، والتجربة تصدقه بعد التجربة ، وفى هذه المرة يعين أنه قال له على وجه التعيين والتحديد عدم استطاعته ، فلم يقتنع وطلب الصحبة وقبل الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسى ما تعهد به بعد التذكير والتفكير ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث ؛ فقد انطلقا إلى قرية ، وطلبا الضيافة ، فامتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذى هو حق ضيافتهما عليهم ، فكان أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعا ، ولا يستضيفون ضيفا ، ثم يجد أن جداراً مائلا يهم أن ينقض ، والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : ﴿ يُرِيدُ أن يَنقَضَّ ﴾ فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل .

وهنا يشعر موسى بالتناقض فى الموقف ، ما الذى يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جدارا يهم بالانقضاض فى قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما ؟ فلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه ؟ وواجهه بأنه كان ينبغى ألا يعمل لهم مجانا .

وكانت هى الفاصلة ، فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال وإلى هنا كان موسى ﷺ أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سرّا ، وموقفنا منها ، كموقف موسى ، فكل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل غامض مجهول فى سياق القرآن ثم يأخذ السر فى التجلى ، ويأتى تفسير ما أشكل أمره على موسى ﷺ ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الخضر ﷺ على باطنه فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، وبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا ، وكان الضرر الصغير الذى أصابها اتقاء للضرر الكبير الذى يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

والغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ ، تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا ، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه فى طريقه ، فأراد الله ووجه إرادة العبد الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفا خيرا منه ، وأرحم بوالديه ، وما فعله الخضر من قتل الغلام فهو مخصوص به ، ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر ﷺ لم يجز له ذلك .

وأما الجدار الذى أتعب الرجل نفسه فى إقامته ، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية ـ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما ـ كان يخبئ تحته كنزًا ، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة ، ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه ، ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته ، ثم ينفض الرجل يده من الأمر ،

فهى رحمة الله التى اقتضت هذا التصرف ، وهو أمر الله لا أمره ، فقد أطلعه على الغيب فى هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه .

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذى لا يطلع عليه أحدًا إلا من ارتضى .

وفى دهشة السر المكشوف ، والستر المرفوع يختفى الرجل من السياق كما بدا ، لقد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار ، وهكذا ترتبط قصة موسى والعبد الصالح بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله ، الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر .

يقول صاحب الأساس : « رأينا فى القصة أن الحكم أثر العلم ، فبدون علم يصعب على الإنسان أن يعطى حكم الله مُراعىً فيه كل شىء ، وبقدر إحاطة العلم يكون الإدراك لحكم الله فى الموضوع المطروح أصح ، ورأينا فى القصة من أدب الرسالة والنبوة والولاية ومن أدب الصحبة والخدمة الكثير ، ورأينا كيفية العلاقة الراقية التى يكون عليها أحباب الله دون مجاملة على حساب دين الله ، ورأينا حكمة الله إذ يختار لنبوته ورسالته ، ولايته من ليس لهم حظوظ نفسية أو دنيوية ورأينا عطاء الله الذى لا نهاية له ؛ فكم أعطى الله موسى مما قد يتصور ناس أنه لا مزيد عليه ، وإذا به يعطى خضرا فى جوانب أكثر مما أعطاه موسى ..

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ بدون علم يصعب على الإنسان أن يعطى حكم الله مراعىً فيه كل شىء .

٢ ـ العلاقة التى يكون عليها أحباب الله علاقة راقية دون مجاملة على حساب دين الله .

٣ ـ صلاح الأبناء بصلاح الآباء ، فتقوى الوالد وإن مات أمان لضعف المولود .

٤ ـ إن فى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام درسا بليغا ، فإذا كان الله لا يعجز أن يجعل عبدا زمن موسى أعلم من موسى فى جوانب ، أفيعجزه أن يجعل محمداً ﷺ أعلم من موسى وأرقى ، وأن يعطيه ختم النبوة ، ويكرمه بالإسلام الناسخ لكل دين ، والقرآن الذى هو أشرف من كل كتاب ، تعالى الله أن يعجزه شىء من ذلك .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

معانى الكلمات :

سببا : علما وطريقا.

حمئة : ذات حمأة وهى الطين الأسود .

نكرا : فظيعا منكرا .

خبرا : علما شاملا .

خرجا : قدرا من المال تستعين به فى البناء .

زبر الحديد : قطع الحديد العظيمة .

الصدفين : جانبى الجبلين .

قطرا : نحاسا مذابا .

نقبا : خرقا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هو آيات وعبر وأحكام وآداب تجلت فى سياق الوقائع .

٢ ـ أن نتعلم تنشيط الهمم لرفع العوائق .

٣ ـ أن نتعلم تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره .

المحتوى التربوى :

يبدأ الحديث عن ذى القرنين بذكر شىء ، عنه ، فلقد مكن الله له فى الأرض ، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ، ويسر له أسباب الحكم والفتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع ، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة ، ومضى فى وجه ما هو ميسر له.

يقول صاحب الأساس : « وهذه قصة مسلم أتاه الله عز وجل من الملك الكثير ، ومكنه فى الأرض تمكينا كبيرا ، وجعله يسخر الأسباب كلها ، فلا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام لا يعنى التمكين فى الأرض ، بل على العكس من ذلك فإن التمكين يكون أكبر ، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام يعنى ترك الأسباب والبعد عنها ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدخول

فى الإسلام يعنى اتباع الأسباب كلها مع التوفيق الربانى لاستعمالها فى محلها ، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام يحرم الإنسان رزقا ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدخول فى الإسلام يرافقه الرزق الحسن، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام ينقص من قدر الإنسان، بل يكمله .

والمسلمون مكلفون بإقامة الإسلام ضمن عالم الأسباب ، قد يمدهم الله بالخوارق ، ولكن التكليف على أساس عالم الأسباب اللازمة والمستطاعة لإقامة الشىء الذى كلفوا به ، فهم مكلفون أن تكون كلمة الله هى العليا فى العالمين ، فعليهم أن يعملوا من أجل إيجاد الأسباب التى توصل إلى ذلك » .

ويذكر السياق أن الله أعطى لذى القرنين من كل شىء سببا ، وقد اتبع الأسباب الموصلة إلى الغايات فسلكها ، وسار فى طريقه إلى الغرب ، والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المياه فرأى الشمس تغرب فيه ، ويتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده ، وكل قول غير هذا ليس مأمونا ؛ لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح ، ولكنه غرّب ووجد الشمس تغرب فى عين حمأة حيث تكثر الأعشاب ، ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوما ، وقد أمكنه الله منهم وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة فى شأنهم بالقتل وغيره ، وأعلن ذو القرنين دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة التى دان له أهلها وسلطه الله عليها ، أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا ، لا نظير له فيما يعرفه البشر ، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن والتكريم .

قال صاحب الظلال : « هذا هو دستور الحكم الصالح فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء ، وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنا ، ومكانا كريما وعونا وتيسيرًا ، ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة ، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج » .

ويعود ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ممكنا له فى الأرض، ميسرة له الأسباب، حتى إذا بلغ مطلع الشمس ، وما قيل عن مغرب الشمس ، يقال عن مطلعه ، فالقرآن لم يحدد المكان ولكنه وصف طبيعة وحال القوم الذى وجدهم ذو القرنين هناك ، والمشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر ، وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين بين السدين ، ولا ما هما هذان السدان ، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو بين

سدين صناعيين تفصلهما فجوة أو ممرٌ، فوجد هنالك قوما متخلفين ، وعندما وجدوه فاتحًا قويا ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح ، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم ، وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .

ويرد عليهم ذو القرنين عرضهم بأن الذى أعطاه له الله من الملك والتمكين خير له من الذى تجمعونه ، ولكن ساعدونى بعملكم وآلات البناء ، فجمعوا له قطع الحديد ، وكوموها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبح الجبلان كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم بينهما ، وأصبح الركام بمساواة القمتين ، وطلب منهم أن ينفخوا على النار لتسخين الحديد ، حتى صار الحديد من شدة توهجه واحمراره نارا ، وطلب نحاسا مذابا ، ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ، فما استطاعوا أن يتسوروه أو ينفذوا منه ، وتعذر عليهم أن يهاجموا هؤلاء القوم الضعاف المتخلفين .

ومن فوائد ما ذكرنا ما **قاله القاسمى** : « من فوائدها : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكا ومالا ، لما له من خفى الحكم وباهر القدرة ، فلا إله سواه ، ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل ، ومنها : تنشيط الهمم لرفع العوائق ، وأنه متى تيسرت الأسباب ، فلا ينبغى أن يعود ركوب البحر ولا اجتياز الفقر عذراً فى الخمول والرضاء بالدون ، بل ينبغى أن ينشط ، ويمثل فى مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء ، ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغى أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسىء بقدر إساءته » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر .

٢ ـ وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال .

٣ ـ على صاحب المكانة والمنصب التعفف عن أموال الناس ، ففى ذلك حفظ كرامته ، وزيادة الشغف بمحبته .

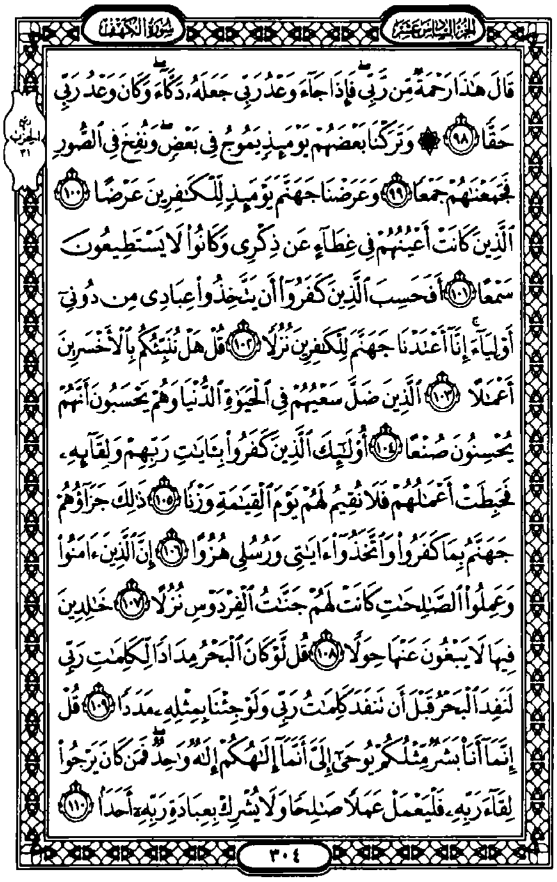
الجزء السادس عشر — سورة الكهف

قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي
حقا ﴿٩٨﴾ ۞ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور
فجمعناهم جمعا ﴿٩٩﴾ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴿١٠٠﴾
الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون
سمعا ﴿١٠١﴾ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني
أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴿١٠٢﴾ قل هل ننبئكم بالأخسرين
أعمالا ﴿١٠٣﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا ﴿١٠٤﴾ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه
فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴿١٠٥﴾ ذلك جزاؤهم
جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴿١٠٦﴾ إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴿١٠٧﴾ خالدين
فيها لا يبغون عنها حولا ﴿١٠٨﴾ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي
لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴿١٠٩﴾ قل
إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو
لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴿١١٠﴾

الحزب ٣١

٣٠٤

معانى الكلمات :

دكاء : مسوى بالأرض .

يموج : يختلط ويضطرب .

غطاء : غشاء غليظ وستر كثيف .

وزنا : مقدارًا واعتبارًا .

مدادا : هو المادة التى يكتب بها .

نفد : فنى وفرغ .

مددا : عونا وزيادة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتطلع إلى الدار الآخرة ؛ لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى .

٢ ـ أن نتعرف على أكثر الناس خسارة .

٣ ـ أن نتعلم كيف يكون طريق السير إلى الله .

المحتوى التربوى :

نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه ، وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا.

يقول صاحب الظلال : « بذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح يمكنه الله فى الأرض وييسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ويتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى واستغلال

الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة ، معاملة الرقيق ، ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه ، غنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققة الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله » .

ونعود إلى سياق السورة ، فنجده يعقب على ذكر ذى القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة ، وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض ، ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون فى غير نظام وفى غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج ، ثم إذا نفخة التجمع والنظام فإذا هم فى الصف فى نظام ، ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن فى أسماعهم صمما . إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله ، فما يستطيعون اليوم إعراضا ، لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعًا ، فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاءً وفاقًا ، والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة ، ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة من الكافرين ، أفحسب هؤلاء أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصارًا من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان جهنم نزلا ، ويا له من نزل مهيأ للاستقبال لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار ، فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار .

ثم تختم السورة بالإيقاعات الأخيرة تلخص خطوطها الكثيرة وتجمع إيقاعاتها المتفرقة ، فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازين كما هى فى عرف الضالين ، وكما هى على وجه اليقين ، قيم الأعمال وقيم الأشخاص الذين يوجد من هم أشد منهم خسرانا ، وهم الذين ضل سعيهم فى الدنيا ولم يؤد بهم إلى الهدى، ومن غفلتهم أنهم ماضون فى هذا السعى الخائب الضال، ينفقون حياتهم فيه هدرا ، هؤلاء هم الذين كفروا وجحدوا آيات ربهم فبطلت أعمالهم لكفرهم، فلم يكن لهم مقدار ولا اعتبار ، فهم مهملون لا قيمة لهم ولا وزن ، ولهم بعد ذلك جزاؤهم جهنم بكفرهم .

ويتم التعاون فى المشهد بعرض كفة المؤمنين فى الميزان وقيمتهم بأن كان لهم نزل فى جنات الفردوس فى مقابل ذلك النزل فى نار جهنم وشتان شتان .

يقول صاحب الظلال : « هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع فى قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تحتاج إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة ، فهم خالدون

فى جنات الفردوس ، ولكن النفس البشرية تمل الاطراد وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ، وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه ، وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه ، بل قد تنتهى إلى الضيق به والرغبة فى الفرار منه .

هذه هى الفطرة التى فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره فى هذه الخلافة ، فهذا الدور يقتضى تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها فى علم الله ، ومن ثم ركز فى الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل ؛ وذلك كى يندفع الإنسان فى طريقه ، يغير فى واقع الحياة ، ويبدع فى نظم المجتمع وأشكال المادة ، ومن وراء هذا التغير ترتقى الحياة وتتطور ، وتتصل شيئا فشيئا إلى الكمال المقدر لها فى علم الله ، أما إذا غلب الركود والجمود ، فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيذان بالموت فى حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هى الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان فى الأرض ، فأما فى الجنة وهى دار الكمال المطلق فإن هذه الفطرة لا تقابلها وظيفة، فبارئ هذه النفس يحول رغباتها، فلا تعود تبغى التحول عن الجنة، وذلك فى مقابل الخلود الذى لا تحول له ولا نفاد .

وأما الإيقاع الثانى فيصور العلم البشرى المحدود بالقياس إلى العلم الإلهى الذى ليس له حدود ، ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس .. والسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ، فإذا البحر ينفد ، وكلمات الله لا تنفد، ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد..

وينطلق الإيقاع الثالث والأخير فيرسم أعلى أفق للبشرية، وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة، فالرسول بشر يتلقى وحيه من مولاه ، فمن كان يتطلع إلى القرب ، فليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها : إخلاص لله وعمل صالح ، هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

يقول ابن كثير : « هذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصا لله ، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ هلاك أصحاب الأهواء الذين يعبدون الله بغير ما شرع ، وأعمالهم مآلها إلى البوار .

٢ ـ لا قيمة ولا ثقل ولا وزن لعمل لا يوافق رضا الله تعالى وقبوله له ، ولا وزن لصاحبه عند الله .

٣ ـ على من يتطلع إلى لقاء ربه أن يكون عمله خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله ﷺ .

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

سورة مريم

معانى الكلمات :

كهيعص : من الحروف التى يتكون منها القرآن .

وهن : ضعف .

اشتعل : فشا وانتشر .

شقيا : خائبا فى وقت ما .

رضيا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

عتيا : حالة لا سبيل إلى مداواتها .

سويا : سليما لا خرس بك ولا مرض .

أوحى : أشار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة زكريا عليه السلام.

٢ ـ أن نعلم أن الدعاء كلما كان سرا بين العبد وربه كان أقرب إلى القبول .

٣ ـ أن نتعلم أن يبحث عن الأسباب ، فطلب معرفة السبب الذى يتأتى به الفعل غير قادح فى صاحبه .

المحتوى التربوى :

هذه الأحرف المتقطعة التى تبدأ بها بعض السور نماذج من الحروف التى يتألف منها هذا القرآن ، وسياق السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية ، والقصص مادة هذه السورة تبدأ القصة الأولى ، قصة زكريا . وتبدأ القصة بمشهد الدعاء ، دعاء زكريا لربه فى ضراعة وفى خفية وهو يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه فى قرب واتصال ، بلا واسطة حتى ولا حرف النداء .

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم واشتعال الرأس كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ، ثم يعقب عليه معترفا بأن الله قد عوده أن يستجيب له إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو فى فتوته وقوته ، فما أحوجه

الآن فى هرمه وكبره أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه ، وذكر ما يخشاه فهو يخشى من بعده ، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه ، وتراثه هو دعوته التى يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل ـ وأهله الذين يرعاهم ، وماله الذى يحسن تدبيره وإنفاقه فى وجهه ، وهو يخشى الموالى من وائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته ، ولم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لورثته وخلافته ، وما يطلبه فهو الولى الصالح الذى يحسن الوراثة .

ولا ينسى زكريا عليه السلام أن يصور أمله فى ذلك الوريث الذى يرجوه فى كبرته وهو : أن يكون مرضيا عندك ، وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه لا جبارًا ولا غليظا ، ولا متبطرًا ولا طموعا ، ذلك دعاء زكريا عليه السلام فى ضراعة وخفية ، ثم ترتسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضا ، فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى ويعجل له البشرى ، ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره به وهم اسم فذ مسبوق .

وقال القاسمى : « سورة مريم سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق ، **وقال المهايمى** : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت ، وتظهر له الكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ، وهى مكية النزول ، واستثنى بعضهم منها آية الأولى السجدة والآية الثانية : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ .

وقد روى محمد بن إسحق : فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه وآياتها ثمانون وتسعون » .

يقول صاحب الظلال : « إنه فيض الكريم غدقه على عبده الذى دعاه فى ضراعة ، وناجاه فى خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو ، والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالى من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال ، والقيام على الأهل بما يرضى الله ، وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه » .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله ، وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذى يواجهه ليطمئن قلبه ، وهى حالة نفسية طبيعية فى مثل موقف زكريا النبى الصالح الإنسان الذى لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله .

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل ، ويذكر بمثل قريب فى نفسه : فى خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن ، وهو مثل لكل حى ولكل شىء فى هذا الوجود ، وليس فى الخلق هين وصعب على الله ، وسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد ، وجعل الشيخ الفانى لا ينسل ، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل ، وهو أهون فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء ، وإن كان كل شىء هينا على القدرة : إعادة وإنشاء .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : لِمَ طلب أولا وهو وامرأته على صفة الفنىّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب ؟ قلت: ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنى عن الأسباب » .

وقال أبو السعود « إنما قاله ﷺ ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران ، استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها ، واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا ، وفضله مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعادا له » .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا ﷺ على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلا ، فأعطاه الله تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة ، ويؤدى بها حق الشكر لله الذى وهبه على الكبر غلاما ، وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوىّ معا فى جوارحه ، لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

وكان ذلك ؛ فخرج على قومه من المحراب الذى بشر فيه بالولد ، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة أن يسبحوا فى الغداة والعشى موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرا لله على ما أولاه ؛ ذلك ليعيشوا فى مثل الجو الذى يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

يقول صاحب الأساس : « قصة زكريا تمهيدٌ للحدث الكبير حدث قصة مريم ، ولكنها مقدمة علمتنا الكثير : علمتنا كيف يحرص الرسول على استمرار الهدى ، وعلمتنا أن الجيل اللاحق قد ينحرف فيحتاج إلى نبى جديد ، وبعد محمد ﷺ لا نبوة ولكنه التجديد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ استحباب الخضوع فى الدعاء وإظهار الذلة والمسكنة والتوسل إلى الله بنعمه فيه ، وأن يكون سرا بين العبد وربه .

٢ ـ الخوف على تراث العقيدة ودين الله سمة الصالحين .

٣ ـ ليس فى الخلق هين وصعب على الله .

٤ ـ ضرورة الحرص على شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه .

سورة مريم — الجزء السادس عشر

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي
أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ
بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

نصف الحزب ٣١

٣٠٦

معانى الكلمات :

الكتاب : التوراة .

بقوة : بجد وعزم .

زكاة : بركة أو طهارة .

انتبذت : اعتزلت وانفردت .

روحنا : جبريل عليه السلام .

تمثل : تصور .

بغيا : فاجرة تطلب الشهوة من أى رجل كان .

سريا : نهرا صغيرا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف ينبغى أن يؤخذ الكتاب .

٢ ـ أن نتعلم كيف تكون خصائص وأخلاق الأنبياء والصالحين .

٣ ـ أن نتعرف على حرية المشيئة الإلهية ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس .

المحتوى التربوى :

يترك السياق زكريا فى صمته وتسبيحه ، ويسدل عليه الستار فى هذا المشهد ويطوى صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ، يناديه ربه من الملأ الأعلى ، فلقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيا .

ويبدأ النداء العلوى ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة ؛ لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا فى أن يجعل له من ذريته وليا ، يحسن الخلافة بعده فى العقيدة وفى العشيرة ، فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى ، أمانة الرسالة وقد ورث أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء ، وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ، ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى : آتاه الحكمة صبيا فكان فذا فى زاده ، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده ، فالحكمة تأتى متأخرة ، ولكن يحيى قد زود بها صبيا ، وآتاه الحنان والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير فى رفق ، وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهرها ويزكيها ، وكان موصولا بالله متحرجا معه مراقبا له ؛ يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه ، ذلك هو الزاد الذى آتاه الله يحيى فى صباه ، ليخلف آباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا ، فاستجاب له ربه ووهب له غلاما زكيا .

وينتقل السياق إلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى ، إنها قصة ميلاد عيسى ، وقد تدرج السياق من القصة الأولى ، ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ، وهى أعجب وأغرب .

والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، ويخرج القصة فى مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات ، التى تهز من يقرؤها هزاً كأنما يشهدها.

ويأتى المشهد الأول ليصور: فتاة عذراء قديسة ، وهبتها أمها فى بطنها لخدمة المعبد ، لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة ، وها هى ذى تخلو إلى نفسها بشأن من شؤونها التى تقتضى التوارى من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم ، وهى فى خلوتها مطمئنة إلى انفرادها ، ولكن ها هى ذى تفاجأ مفاجأة عينية ؛ إنه رجل مكتمل سوى .

وها هى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى ، وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل ، وهذا الرجل السوى ـ الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما ، وهما فى خلوة وهذه هى الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ، فتسأل فى صراحة : كيف ؟ هكذا فى صراحة ، وبالألفاظ المكشوفة ، فهى والرجل فى خلوة ، وما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاما ؟ وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها بأنه رسول ربها ، ولا أنه مرسل ليهب لها غلاما طاهرا غير مدنس المولد ولا مدنس السيرة ؛ ليطمئن بالها، لا فالحياء هنا لا يجدى، والصراحة أولى ..كيف؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر ، وما هى بغى فتقبل الفعلة التى تجىء منها بغلام .

والروح يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه ، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبنى إسرائيل أولا وللبشرية جميعا، وبذلك انتهى الحوار وتحقق وقوع الغلام .

وقال الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وقد كانت مريم العذراء البتول فى كربين :

الكرب الأول : احتملته ورضيته بحكم الفطرة وهو كره الولادة .

الكرب الثانى : العار الذى زعمته ويستقبلها ؛ فإنها البريئة الطاهرة تستقبل اتهاما وهى البريئة وذلك عبؤه على البرىء ثقيل؛ ولذا قالت: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ ».

ثم تمضى القصة فى مشهد جديد فتعرض هذه العذراء الحائرة فى موقف آخر أشد هولا ، وهذه هى الهزة الثالثة ، والسياق لم يذكر كيف حملته ولا كم حملته ، هل كان حملا عاديا ، أم اختصرت مراحله اختصارا ، ليس فى النص ما يدل على إحدى الحالتين فلا يجرى طويلا وراء تحقيق القصة التى لا سند لنا فيها ، ولنشهد مريم وهى وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية ، تواجه المخاض الذى جاءها إلى جذع النخلة ، واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها ، وهى وحيدة فريدة تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض ، ولا علم لها بشىء ولا معين لها فى شىء .

وإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، وتلمس مواقع الألم فيها وهى تتمنى لو كانت لم تخلق ولم تك شيئا ، وفى حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى ؛ طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها ، يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ، ويدلها على حجتها وبرهانها ، ويقول لها : لا تحزنى ، فلم ينسك ربك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولًا ساريا ـ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من سيل ما فى الجبل ، وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا فهذا طعام وذاك شراب والطعام الحلو مناسب للنفساء ، والرطب والتمر من أجود طعام النفساء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإيجابية فى اتباع تعاليم الدين والدعوة إليه .

٢ ـ التقوى والرقة والطهارة والعفة من الوسائل التى تعين على تبليغ الدعوة .

٣ ـ اللجوء إلى الله عند الشدة والتوكل عليه يحمى المؤمنين من الفزع والشدائد .

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

معانى الكلمات :

قرى : طيبى .

صوما : صمتا .

المهد : الفراش .

مباركا : كثير النفع .

يمترون : يشكون أو يختلفون .

قضى : أراد .

الأحزاب : الفرق .

مبين : ظاهر واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التدابير الإلهية خير للمسلم فى كل الأحوال .

٢ ـ أن نقف على قدرة الله تعالى فى إنطاقه عيسى عليه السلام وهو فى المهد .

٣ ـ أن نؤمن أن عيسى عليه السلام روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن مريم ، وقد جاءها الأمر بتحريك النخلة فتساقط عليها ثمرها الناضج فتأكل منه وتشرب من الماء فتتقوى بذلك على ما هى فيه من آلام الوضع ، ثم طلب منها ألا تتكلم أحدًا ، وإنما تكتفى بالإشارة وانقطعت للعبادة ، ونحسبها قد دهشت طويلا ، وبهتت طويلا ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا ، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها ، وإلى أن حجتها معها .. هذا الطفل الذى ينطق فى المهد ، فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها .

وتأتى بطفلها قومها ولنشهد هذا المشهد المثير ونحن نتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم ـ ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود ـ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة لله للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة.. يرونها تحمل طفلا ، فتنطلق ألسنتهم بالتقريع والتأنيب فظيعا مستنكرا ، ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير فينادونها يا أخت النبى الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده ، والذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل ، فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها وذلك الفعل الذى تقارفينه ، وأنت من بيت طيب طاهر ، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك ؟

وعندما وصل التقريع مداه ، وأمسى التأنيب فوق الطاقة والاحتمال أشارت إلى طفلها ، ولك أن تتخيل العجب والغيظ الذى ساورهم ، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ، ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها ، فتصمت ، وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها .

والسياق لا يمهلهم طويلا فى عجبهم وغيظهم ، ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى ، فيتكلم عيسى عليه السلام ، ويعلن عبوديته لله ، فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلها كما تدعى فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة ، ويعلن أن الله جعله نبيا لا ولدًا ولا شريكا ، وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته ، فله إذن حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويبعث ، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ، ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

تأتى هذه العجيبة على لسان ينطق بالحق قويا نفاذا ، يجوب قضاء الجو ، يشرق ويغرب ويصعد إلى السماء ، وألسنة الباطل من حوله لا تملك قوام حركة ولا نزعة حياة ، فالكل مشدوه إلى ما يرى ، مشدود إلى ما يسمع ، أقعده باطله إلى الأرض وعيسى عليه السلام يرفع رأس أمه حتى تطاول السماء أمام قوم قد جروا وراء خبث طويتهم ، فوضعوا رؤوسهم تحت أنقاض باطلهم .

ولا يزيد السياق القرآنى شيئا على هذا المشهد ، لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة ، ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم ، وابنها العجيب ، ولا متى كانت نبوته التى أشار إليها ، ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود فى هذا الموضع ، وحين يصل به الساق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود فى أنسب موضع من السياق بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه فى مولده ، ذلك هو فى حقيقته وذلك واقع نشأته، ذلك هو يقول قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون ، يقولها لسانه

ويقولها فالله تعالى عما يقولون علوا كبيرًا ليس من شأنه أن يتخذ ولداً ، والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة ، والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معيناً ، والكائنات كلها توجد بكلمة كن ، ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين،وينتهى ما يقوله عيسى عليه السلام ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ، فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير .

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب فى أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكرًا نابيا فى ظل هذه الحقيقة الناصعة :

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعًا من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفًا فاختلفوا فى عيسى اختلافًا شديدًا ، وقال كل فرقة فيه قولاً .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين ، فويل لهم من هذا المشهد فى يوم عظيم ، المشهد الذى يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة فى حضرة الجبار الذى أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق فى التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى فى الدنيا ، وهم فى ذلك المشهد أسمع الناس ، وأبصر الناس ، فما أعجب حالهم إلا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع شىء ، وأبصر شىء يوم يكون السمع والبصر ، وسيلة للخزى ، وإسماعهم ما يكرهون ، وتبصيرهم ما يتقون فى مشهد يوم عظيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله عز وجل يؤيد أولياءه ، فما عليهم من خوف ولا بأس .

٢ ـ ضرورة البر بالوالدين ، والعطف عليهما ، اعترافا بفضلهما .

٣ ـ كل ما يقدره الله ـ تعالى ـ فلا بد من نفاذه فى الوقت الذى يأذن الله له بالنفاد فيه ، فيصير شهادة بعد أن غيبا .

٤ ـ الأخذ بالأسباب فريضة إيمانية وضرورة حياتية .

الجزء السادس عشر — سورة مريم

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي
يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

٣٠٨

معانى الكلمات :

أنذر : خوّف .

صديقا : مستقيما فى أحواله .

يغنى : ينفع أو يدفع .

عصيا : مستكبرا عن طاعة ربه .

أرجمنّك : أقتلك .

اهجرنى : اجتنبنى وفارقنى .

حفيا : لطيفا براً .

مخلصا : أخلصه الله واصطفاه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر رهبة الموقف يوم الحسرة والوقوف أمام الله .

٢ ـ أن نتعرف على أسلوب الدعوة المستقيم .

٣ ـ أن نقف على عداوة الشيطان لبنى آدم ، وعصيانه لربه .

٤ ـ أن نتعلم كيف يكون الولاء والبراء فى سبيل العقيدة .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيطلب تخويف المختلفين من اليوم الذى تشتد فيه الحسرات حتى لكأنما اليوم محضٌ للحسرة لا شىء فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه ، البارزة فيه ، يقول : أنذرهم هذا اليوم الذى لا تنفع فيه الحسرات ، وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التى هم فيها سادرون ، أنذرهم ذلك اليوم الذى لا شك فيه ، فكل ما على الأرض ، ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد .

وتنتهى قصة عيسى ﷺ بما وراءها من تعقيب ،فتليها قصة إبراهيم ، ويصف الله إبراهيم ﷺ بأنه كان صديقا نبيا ، ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق ، وأنه كثير التصديق، وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم .

ويركز السياق على الخطاب الدعوى لإبراهيم ﷺ ، فنلمس اللطف فى إبراهيم وهو يتوجه إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلمه إياه ، وهو يتحبب إليه فيخاطبه ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ ويسأله ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان ، إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى ، وأن يرفعها إلى مقام الإشارات وأسنى ، فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان ، بل إلى ما هو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا ؛ إذا كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام .

قال أبو السعود : « ولقد سلك ﷺ فى دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل ؛ لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد ، حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم ، مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام ، الخالق الرازق ، المحيى المميت ، المثيب المعاقب .

ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة ، وغرض صحيح ، والشيء لو كان حيا مميزا سميعا بصيراً قادراً على النفع والضر، مطيقًا بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكنا ، لا ستنكف العقل السليم عن عبادته ، وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة ، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ ! » .

ثم ثنى ﷺ بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : عندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه ، ثم ثلث ﷺ بتثبيطه ونهيه عما كان بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن هو عدوك الذى ورطك فى هذه الضلالة ، فأنت إن حققت النظر عابد للشيطان ، ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص، ثم ربع ﷺ بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه ذكر الخوف والمس ، ونكّر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ توسلا إليه واستعطافا .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد : أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؛ وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟ ! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع ، فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلا ، استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة فاحذرنى واتركنى زمانا طويلا .

يقول صاحب الظلال : « بهذه الجهالة تلّقى الرجل الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب والمهذب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر » .

ولم يغضب إبراهيم الحليم ، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه بل قال : لا ينالك منى مكروه ولا أذى ، وذلك لحرمة الأبوة ، ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى ، وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله ، وأعبد ربى وحده لا شريك له ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة ، وأدعو ربى وحده راجيا بسبب دعائى ـ ألا يجعلنى شقيا .

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيدا بل وهب له ذرية وعوضه خيرا فوهب له إسحاق ويعقوب ونسلهم ، والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة فى جو السورة ؛ ولأنها هبة الله التى تعوض إبراهيم عن أهله ودياره وتؤنسه فى وحدته واعتزاله ، فكانوا صادقين فى دعوتهم مسموعى الكلمة فى قومهم ، يؤخذ قولهم بالطاعة والتبجيل .

ثم يمضى السياق مع ذرية إبراهيم مستطردًا مع فرع إسحاق فيذكر موسى وهارون ، ويصف موسى أنه كان مخلصا ، استخلصه الله له ومحضه لدعوته وكان رسولا ، والرسول صاحب دعوة مأمور بإبلاغها للناس والنبى لا يكلف إبلاغ الناس دعوة ، إنما هو فى ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الدعاة إلى الله أن يسلكوا مسلك اللطف واللين فى تبليغ دعوتهم .

٢ ـ ولاية الله ورسوله والمؤمنين والبراءة من الكافرين واجب المسلمين ، ولا يخيب من كان الله وليه .

٣ ـ الترغيب فى حسن الأحدوثة بأن يكون للمرء حسن ثناء بين الناس لما يقدم من جميل .

وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن
رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ
صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ
إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا
(٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

٣٠٩

معانى الكلمات :

نجيا : مناجيا بغير واسطة ملك . **مرضيا** : نال رضا الله .

اجتبينا : اصطفينا . **بكيا** : باكين من خشية الله . **غيا** : خسارا يوم القيامة .

لغوا : كلاما ساقطا لا معنى له . **تقيا** : مطيعا لله ومراقبا له . **نسيا** : ما نسيك ربك يا محمد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر ظل الرحمة الذى يظلل جو الآيات من خلال نعم الله على أنبيائهم.

٢ ـ أن نقف على المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية .

٣ ـ أن نعلم ضرورة الاتعاظ بما نزل بالسابقين من عقاب حتى لا يصيبنا ما أصابهم .

المحتوى التربوى :

يبين الله عز وجل فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك ، وتقريبه إليه لدرجة الكلام ، الكلام القريب فى صورة مناجاة ، ونحن لا ندرى كيف كان هذا الكلام ، وكيف أدركه موسى ، أكان صوتا تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنسانى كله ، ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشرى لتلقى كلام الله الأزلى ، إنما نؤمن أنه كان ، وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله علوى على علويته ، ومن قبل كان الإنسان إنسانا بنفخة من روح الله .ويذكر بموسى فى مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إليه أن يعينه به ، وظل الرحمة هو الذى يظلل جو السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، فيذكر إسماعيل أبا العرب ، وينوه من صفات إسماعيل بأنه كان صادق الوعد ، وصدق الوعد صفة كل نبى وكل صالح ، فلا بد أن هذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص ، ويذكر السياق من أركان العقيدة التى جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله ، ثم يثبت له أن كان عند ربه مرضيا ، والرضا سمة من سمات هذه السورة البارزة فى جوها وهى شبيهة بسمة الرحمة، وبينهما قرابة .

وأخيرا يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس ، ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس ، ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم ، وليس من أنبياء بنى إسرائيل فلم يرد ذكره فى كتبهم ، والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا ، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا ، فأعلى قدره ورفع ذكره .

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ؛ ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل ، فإذا المفارقة شاسعة والهوة عميقة ، والفارق بعيد بين السلف والخلف والسياق يقف فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية ، فآدم يشمل الجميع ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين ، ويعقوب يشمل شجرة بنى إسرائيل ، وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم ، صفتهم البارزة أنهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ، ويخرون سجداً وبكيا .

ويقول الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وإن هؤلاء الأنبياء المصطفين والتابعين الأبرار قد صفت نفوسهم واستقامت قلوبهم ، وصغت إلى الحق أفئدتهم فكانوا إذا تليت عليهم آياته فى كتبه الذى أنزلها الرحمن خروا ساجدين باكين ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ **سجدًا** : جمع ساجد ، **وبكيًا** جمع باك ، أى أنهم لفرط تأثرهم بآيات الرحمة التى تنزل من عند الرحمن ، ولذا اختير ذلك الوصف ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فى التعبير عن الذات ، فهم يبكون لشعورهم برحمة الله ، ويسجدون شكرا لله تعالى على ما أنعم ، وإن ذلك كان من شأن الصالحين ، فكان أبو بكر بكَّاءً عند تلاوة القرآن الكريم ، وكان الإمام الشافعى إذا صلى بالناس بكى وبكوا عند تلاوته حتى سمى القارئ البكَّاء ، ومن كان من الصالحين لا تدمع عيناه يبكى قلبه ، وإن ذلك من الوعى الطيب ، إذ يحسّ السامع للتلاوة ، بأنه يسمع الله تعالى ينادى فيرتجف ويقشعر بدنه ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) .

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله ، خلف من بعدهم خلف بعيدون عن الله ، تركوا الصلاة وجحدوها ، واتبعوا شهواتهم واستغرقوا فيها ، فما أشد المفارقة وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء ، ومن ثم كان التهديد لهؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين ، يتهددهم بالغى ، والغى بالشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمة ، فالتوبة التى تنشئ الإيمان الصالح فتحقق مدلولها الإيجابى الواضح تنجى من ذلك المصير ، فلا يلقى أصحابها غيا ، إنما يدخلون الجنة للإقامة ، الجنة التى وعد الرحمن عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها ، ووعد الله واقع لا يضيع .

ثم يرسم السياق صورة للجنة ومن فيها : فلا فضول فى الحديث ولا ضجة ولا جدال ، وإنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضى ، صوت السلام ، والرزق فى هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد ، ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد ، فما يليق الطلب ولا القلق فى هذا الجو الراضى الناعم الأمين ، ومن شاء الوراثة ، فالطريق معروف التوبة والإيمان والعمل الصالح ، أما وراثة النسب فلا تجدى .

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها ، ونفى الشبيه والنظير ، وتتضافر الروايات على أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول ﷺ ردا على استبطائه للوحى فترة لم يأت فيها جبريل ، فاستوحش نفسه ، واشتاقت للاتصال بالحبيب ، فكلف جبريل أن يقول هذا ، فالله هو الذى يملك كل شىء من أمرنا ، وهو لا ينسى شيئا ، إنما ينزل الوحى عندما تقتضى حكمته أن ينزل .

قال صاحب الأساس : « رأينا أن الحكمة فى إرسال الرسل إما لإرجاع الناس عن الكفر ، وإما للفصل فى اختلافاتهم ، وإما لتجديد حيوية السير إلى الله بالعودة إلى الله ، وبترك الشهوات المحرمة ، وقد كفر الناس قبل بعثة رسول الله ﷺ واختلفوا اختلافات كثيرة ؛ وتركوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، فبعث الله محمدا ﷺ وأنزل معه الكتاب ، فدعا إلى الإيمان ، وحكم فى الاختلاف ، وربى الناس على إقامة الصلوات وترك الشهوات المحرمة » .

ويقول الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وصف الله تعالى الأخلاف الذين انحرفوا بسبب هذا الانحراف ونتيجته ، فقال عز من قائل : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ، وذكر أسباب انحرافهم فحصره فى أمرين أو ذكر أن أكبر أسبابه أمران :

الأمر الأول : أنهم ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، ومعنى إضاعة الصلاة إضاعة الدين ؛ لأنها عمود كل دين ، وكما قال النبى ﷺ «لا دين من غير الصلاة » ، فهى سمة الدين وشعاره ، ومعنى إضاعتها إهمالها ، أو الصلاة من غير إقامتها على وجهها ، أو الصلاة فقدت الخشوع والخضوع ، وهذا لبابها ، أو الإتيان بصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر بل تلابسها .

الأمر الثانى : هو اتباع الشهوات ، فإنه سيطرت الشهوات على النفس ، وصارت سيدا مطاعا انحرف الاعتقاد تبعا لها ، وحينئذ يتخذون إلههم هواهم وكان معبودهم وسرى ذلك إلى كل أعمالهم .

وقد نبه سبحانه إلى النتيجة من ذلك فقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ الغى ضد الرشاد وهو الغواية ، وهى تنكب الطريق المستقيم ، وإن اتباع الشهوات وجعل الأهواء لها السلطان الأكمل سبيل الفساد والغواية ، وبها تنكب الرشاد ، وذلك أن الهدى والعقل نقيضان لا يجتمعان فى قلب واحد ، فإذا كان سلطان الهوى ذهب العقل وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ ﴾ هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل وقوله تعالى : ﴿ يَلْقَوْنَ ﴾ ، أى يجدون أمامهم وهو نتيجة طبيعية لترك الصلاة واتباع الشهوات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ مسؤولية كل إنسان عن أهله ، وضرورة البدء بهم فى الدعوة إلى الخير وإلى عبادة الله .

٢ ـ أهمية الصلاة والزكاة من بين العبادات ، وأنهما يجمعان بين أصول العبادات البدنية والمالية .

٣ ـ التوبة المقبولة هى التى تنشئ الإيمان والعمل الصالح .

الجزء السادس عشر — سورة مريم

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن
كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٣١٠

معانى الكلمات :

سميا : شبيها .

جثيا : باركين على ركبهم .

لننزعن : لنأخذن .

شيعة : فرقة وجماعة .

عتيا : عصيانا أو جراءة .

صليا : دخولا .

رئيا : منظرا وهيبة .

فليمدد : فليمهل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أن تكاليف العبادة هى تكاليف المثول بين يدى المعبود والثبات فى هذا المرتقى العالى .

٢ ـ أن نقف على مصائر البشر فى مواقف القيامة .

٣ ـ أن نعلم أن أهل العقيدة هم أهل القرب من الله والجزاء الأوفى يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى إعلان الربوبية لله دون سواه ، فلا ربوبية لغيره ، ولا شرك فى هذا الكون الكبير ، وإذا كان الله هو رب السموات والأرض وما بينهما فينبغى الخضوع له ، والاصطبار على عبادته .

يقول صاحب الظلال : « اعبده واصطبر على تكاليف العبادة ، وهى تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدى المعبود والثبات فى هذا المرتقى العالى ، اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء والتلقى فى ذلك الأفق العلوى ، إنها مشقة ، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ،

ومن كل هاتف ، ومن كل التفات ، وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق ، ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة وإلا بالتجرد لها والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة ، وخالجة بالله ، فهى لا تفشى سرها ولا تمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعا » .

والعبادة فى الإسلام ليست مجرد الشعائر ، إنما هى كل نشاط : كل حركة ، كل خالجة ، كل نية ، كل اتجاه ، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان فى هذا كله إلى الله وحده دون سواه ، مشقة تحتاج إلى اصطبار ، إنه منهج حياة كامل يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر فى كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ؛ فيرتفع فى نشاطه كله إلى أفق العبادة والطاهر الوضيء ، وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة ، والله هو الواحد الذى يعبد فى هذا الوجود ، والذى تتجه إليه الفطر والقلوب ، فهل تعرف له نظيرًا ؟ تعالى الله عن السمى والنظير .

ويأتى الدرس الأخير فيمضى فى جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث ، ويعرض فى مشاهد القيامة مصائر البشر فى مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال ، يشارك فيها الكون كله ؛ وسمواته وأرضه ، إنسه وجنه، مؤمنوه وكافروه .

وينتقل السياق بمشاهده بين الدنيا والآخرة فإذا هما متصلتان ، تعرض المقدمة هنا فى هذه الأرض ، وتعرض نتيجتها هنالك فى العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات مما يلقى فى الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

ويبدأ المشهد بذكر ما يقوله الإنسان عن البعث ، ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر فى عصور مختلفة ، فكأنما هى شبهة الإنسان واعتراضه المتكرر فى جميع الأجيال ، وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر.

ويكون التعقيب على هذا الإنكار فيقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله أنهم سيحشرون ، ولن يكونوا وحدهم بل هم والشياطين ، وبينهما صلة التابع والمتبوع والقائد والمقود .

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوّ الخزى والمهانة والذلة والضعفة ، وهى صورة رهيبة ، وهذه الجموع التى لا يحصيها العدد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر فى كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها وهم جاثون على ركبهم فى ذلة وفزع ، وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ،يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتوا وتجبرا ، يتبعه صورة القذف فى النار ، والله يعلم من هم أولى بها صليا فلا يؤخذ أحد جزافا .

إن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب ، فهم يردون فيدنون ويمرون بها ، وهى تتأجج وتتميز وتتلمظ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون ، ثم تكون النجاة لهم فتزحزح عنهم ويبقى أهل الظلم والعدوان.

ومن هذا المشهد إلى مشهد فى الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ويعيرونهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمتهم فى عالم الفناء ؛ فهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله على عهد الرسول ﷺ ، فيقولون للمؤمنين الفقراء : الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ، أم الفقراء الذين يلتقون حوله أيهم خير مقاما وأحسن نديا ؟ وهذا منطق الأرض ، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان .

يقول صاحب الظلال : « وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء ، ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ، وينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع ، ومن يشتهى الزينة والزخرف ، ومن يطلب المال والمتاع » .

ويعقب السياق على قولة الكافرين التياهين والمتباهين بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين ، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم ، ولم يعصمهم شىء من الله حين كتب عليهم الهلاك ، ويعقب السياق بتلك اللفتة ، ثم يأمر الرسول ﷺ أن يدعو عليهم فى صورة مباهلة ، بأن من كان من الفريقين فى الضلالة فليزده الله مما هو فيه ، حتى يأتى وعده فى الدنيا أو فى الآخرة ، فإن كانوا يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد ﷺ لأنهم أغنى وأبهى فليكن ، وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالا ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداء ، حتى إذا وقع ما يعدهم من عذاب الضالين فى الدنيا على أيدى المؤمنين أو عذابهم يوم الدين ، فعندئذ سيعرفون أى الفريقين شر مكانا وأضعف جندا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب عبادة الله والصبر عليها حتى الموت .

٢ ـ الله القادر على خلق الناس من عدم ، قادر على إعادتهم وإحيائهم بعد موتهم ؛ ليحاسبهم ويجازيهم على ما عملوا فى هذه الدنيا ؛ فينجى المؤمنين ، ويعذب الكافرين .

٣ ـ متاع الدنيا زائل ، وثواب الله خير وأبقى ؛ فعلينا أن نتخذ هذا المتاع وسيلة لإرضاء الله تعالى .

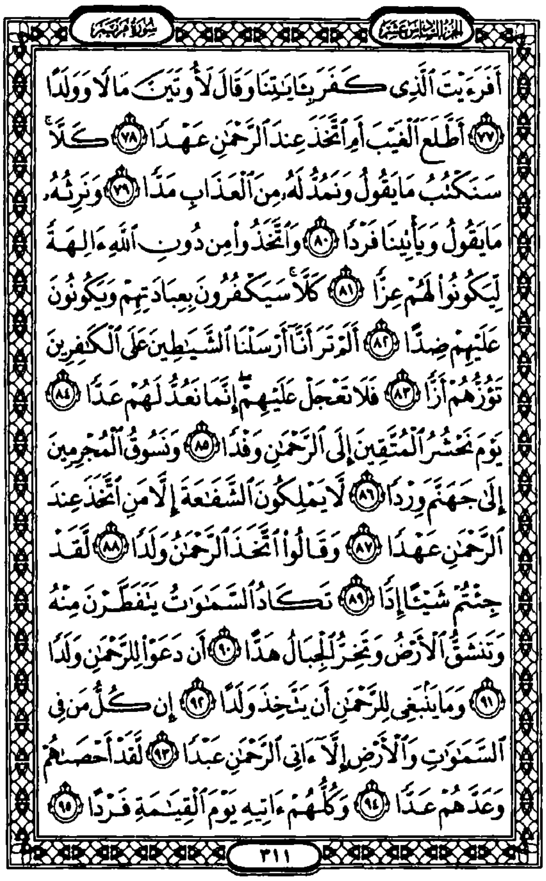
الجزء السادس عشر سورة مريم

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

٣١١

معانى الكلمات :

نمد : نزيد .

فردا : وحيدا .

عزا : شفعاء وأنصارا .

ضدا : ذلا وهوانا أو خصما .

تؤز : تغرى بالمعاصى .

وفدا : راكبين كما تأتى الوفود إلى الملوك .

وردا : عطاشا

إدا : منكرا فظيعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن علم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة .

٢ ـ أن نقف على كرامة المتقين ، ومهانة المجرمين .

٣ ـ أن نعلم إحاطة الله بخلقه ومعرفته لعدوهم فلا يغيب عن علمه أحد منهم ، ولا يتخلف عن موقف القيامة فرد منهم ؛ إذ الكل يأتيه فردا .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « العلة الأساسية فى الانحراف : هى الكفر باليوم الآخر ، فإذا أقيمت الحجة على الناس به ، فروا من الحجة ، ورفضوا الإسلام بحجة أن الكفر وأهله أجود عيشا وأعظم جاها ، وهو منطق أعوج ، إذ الغنى والفقر لا يتعلقان بحق وباطل ، فاللص والغشاش والمرابى قد يكونون أكثر الناس مالا وجاها ، فهل يعطى ذلك أفعالهم قيمة عليا ؟ فمنطق الكافرين هذا منطق سفه لا منطق عقل وعلم ، وإذ يبطل الله حجتهم وكلامهم فيما مر ، فإنه سيبطل دعوى أخرى لهم فيما سيأتى ؛ إذ يرى بعضهم أن إمداد الله له فى الدنيا دليل على

كرامته على الله ، ومن ثم فإنه حتى فى حالة وجود يوم آخر ، فإنه يزعم أن له كرامة عند الله فيه ، وبمثل هذا المنطق يعرض عن الإسلام ، ويحارب أهله ويرفض القرآن » .

ومن ثم يستعرض السياق قولة العاص بن وائل نموذجا من تهكم الكفار ؛ واستخفافهم بالبعث ، والقرآن يعجب من أمره ويستنكر ادعاءه الذى رواه البخارى ومسلم وأحمد ، واللفظ له عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قنيا وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا ، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت: لا ، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيتك ، فأنزل الله ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ » .

فهل اطلع على الغيب فهو يعرف ما هنالك أم كان له عهد عند الله فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب ، كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، إنما هو يكفر ويسخر ، فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين الساخرين فسنكتب ما يقول ، ونسجله ليوم الحساب ، فلا ينسى ولا يقبل المغالطة ، وهو تعبير تصويرى للتهديد ، وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة ، ونزيد له من العذاب ونطلبه عليه ولا نقطعه عنه .

ويستمر السياق فى التهديد على طريقة التصوير أيضا ، فسنأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ، وسيأتينا وحده لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجرداً ضعيفا وحيدا فريدا .

ويستطرد السياق فى استعراض ظواهر الكفر والشرك ، فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة والغلب والنصرة ، وكان فيهم من يعبد الملائكة ، ومن يعبد الجن ، ويستنصرونهم ويتقون بهم ، كلا فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ويبرؤون إلى الله منهم بالتبرؤ والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليقودونهم إلى المعاصى فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم فى إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم ، فلا تتعجل عليهم ، ولا يضق صدرك بهم ، فإنهم ممهلون إلى أجل قريب ، وكل شىء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود ، والتعبير يصور دقة الحساب تصويرا محسوسا ، فالعد من الذات الإلهية معدود ، وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير ، إن الذى يحس أن رئيسه فى الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش فى قلق وحسبان .. فكيف بالله المنتقم الجبار .

وفى مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب ؛ فأما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفدا فى كرامة وحسن استقبال ، وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان ، ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملا صالحا فهو عهد له عند الله يستوفيه ، وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعداً .

ثم يستطرد السياق إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين ، ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله ، والمشركون من اليهود : عزير ابن الله ، والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله ، فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التى تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره ، هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السموات والأرض والجبال والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق باتخاذ الرحمن ولدا حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع فقد أتوا شيئا عظيما ، ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه ، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ، وتجافى ما وقر فى ضميره وما استقر فى كيانه ، وتهز القاعدة التى قام عليها ، واطمأن إليها .

وفى وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب : إن كل من فى السموات والأرض إلا يأتى عبدا ، يأتى معبوده خاضعا طائعا ، فلا ولد ولا شريك إنما خلق وعبيد ، وإن الكيان البشرى وهو يتصور مدلول هذا البيان ، فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد ، فعين الله على كل فرد ، وكل فرد يقدم وحيدا لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد ، حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان .

قال الزمخشرى : « كلهم متقلبون فى ملكوته مقهورون بقهره ، وهو مهيمن عليهم محيط بهم ، ويعمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم ، لا يفوته شىء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ يوم القيامة لا يغنى أحد عن أحد ولا ينفع أحد أحدا .

٢ ـ ضرورة الاتعاظ بما نزل بالسابقين من عقاب حتى لا نصير إلى ما صاروا إليه .

٣ ـ الغيرة على دين الله والدعوة إليه مطلوبة .

الجزء السادس عشر — سورة طه

إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم
الرحمن ودا ﴿٩٦﴾ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به
المتقين وتنذر به قوما لدا ﴿٩٧﴾ وكم أهلكنا قبلهم
من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴿٩٨﴾

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى ﴿٢﴾ إلا تذكرة
لمن يخشى ﴿٣﴾ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴿٤﴾
الرحمن على العرش استوى ﴿٥﴾ له ما في السموات وما في
الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴿٦﴾ وإن تجهر بالقول
فإنه يعلم السر وأخفى ﴿٧﴾ الله لا إله إلا هو له الأسماء
الحسنى ﴿٨﴾ وهل أتاك حديث موسى ﴿٩﴾ إذ رءا نارا
فقال لأهله امكثوا إني ءانست نارا لعلي ءاتيكم منها بقبس
أو أجد على النار هدى ﴿١٠﴾ فلما أتاها نودي يا موسى ﴿١١﴾
إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴿١٢﴾

الحزب ٣٢

٣١٢

معانى الكلمات :

ودا : مودة .

لدا : شديد الخصومة .

ركزا : صوتا خفيا .

الثرى : التراب .

آنس : أبصر .

قبس : شعلة من نار مأخوذة على رأس عود .

المقدس : المطهر المبارك .

طوى : الوادى المسمى طوى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على محبة الله لأوليائه ممن آمن وعمل صالحا .

٢ ـ أن نتعرف على وظيفة الرسول وحدود تكاليفه .

٣ ـ أن نعلم ما كان من أمر مناجاة الله لموسى عليه السلام .

المحتوى التربوى :

فى وسط الوحدة والوحشة والرهبة ترفرف على المؤمنين ظلال ندية من الود السامى ، ود الرحمن ، والتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضا يلمس النفوس ، وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس ، فيمتلئ به الكون كله ويفيض .

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ،

فقال : يا جبريل ، إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » .

وهذه البشرى للمؤمنين المتقين ، والإنذار الذى سبقه للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن ، ولقد يسره الله بلسان نبيه ﷺ وهو اللسان العربى المبين ليقرؤوه .

وتختم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلا ، ويرتعش له الوجدان طويلا ، ولا ينتهى الخيال من استعراضه ، وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق ، وكأنما يأخذ بك إلى وادى الردى ، ويقفك على مصارع القرون ، وفى ذلك الوادى الذى لا يكاد يحده البصر ، يسبح خيالك مع الشخوص التى كانت تدب وتتحرك والحياة التى كانت تنبض وتمرح ، ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا حس ولا حركة ، ولا صوت ، انظر وتلفت ، تسمع وأنصت ، فلا ترى إلا السكون العميق والصمت الرهيب ، وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت .

سورة طه

تبدأ هذه السورة وتختم خطابا للرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه ، إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به ، إنما هى الدعوة والتذكرة وهى التبشير والإنذار ، وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره ، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم ، فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ولا يشقى ؛ لأنهم يكذبون ويكفرون .

تبدأ السورة بالحروف المقطعة ، ويُختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك ، ويتلو هذين الحرفين حديث القرآن فى صورة خطاب إلى الرسول ﷺ ، أنه ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه ، ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ويشق عليك ، فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا ما فى وسعك ، ولا يفرض عليك إلا ما فى طوقك والتعبد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به ، فلست مكلفًا أن تحملهم على الإيمان حملا ، ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ، وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار ، والذى يخشى يتذكر حين يذكر ، ويتقى ربه فيستغفر وعند هذا تنتهى وظيفة الرسول ﷺ ، فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس ، إنما ذلك إلى الله الذى أنزل هذا القرآن

وهو المهيمن على الكون كله ، والذى نزل القرآن هو الذى خلق السموات والأرض وهو الرحمن فما نزله على عبده ليشقى ، وهو المهيمن على الكون كله فهو على العرش قد علا وارتفع بما يليق به دون كيفية .

قال ابن كثير : « والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ولا تمثيل » .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة ، فلله ما فى الوجود كله وهو أكبر مما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى ، وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه ، والخطاب للرسول ﷺ لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السر وأخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه وعلمه بسره ونجواه ويطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته ، وملكيته وعلمه ، وله الأسماء الحسنى ، ثم يقص الله على رسوله حديث موسى وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه له ، فها هو ذا موسى عليه السلام فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور ، ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبى الله شعيب ، وقد خطر له أن يفارق شعيبًا ويستقل بنفسه وبزوجه، ويعود إلى البلد الذى نشأ فيه ، وفى عودته ضل طريقه نعرف هذا من بحثه عن النار ؛ لتكشف له الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ،ومن يهديه إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ويطلب هاديا فى السرى ، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى ، وجد المناداة الإلهية ، فكانت تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار ، الجلال الذى تتضاءل فى ظله الأرض والسموات ، نودى بطريقة ما ، فتلقى بطريقة ما ، فذلك من أمر الله الذى نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عنه ، نودى يا موسى إنك فى الحضرة العلوية فتجرد بقدميك ، وفى الوادى الذى تتجلى عليه الطلعة المقدسة فلا تطأه بنعليك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وظيفة الرسول ﷺ تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين فما عليه إلا البلاغ .

٢ ـ لا ينتفع بالقرآن ومواعظه وأحكامه إلا من كان فى قلبه خشية لله ، وميل إلى الهداية .

٣ ـ رعاية الرجل لأهله ، وسعيه فى قضاء مصالحهم .

٤ ـ ينبغى مراقبة الله ، فعلمه محيط بكل شىء .

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

معانى الكلمات :

يصد : يصرف .

تردى : تهلك .

أتوكأ : أعتمد .

أهش بها : أهز بها ورق الشجر اليابس فيتساقط .

مآرب : حاجات .

جناحك : جنبك .

بيضاء : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

أزرى : ظهرى وقوتى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أسس رسالة الله الواحدة .

٢ ـ أن نعرف أن لذة القرب لا يشعر بها إلا من عايشها .

٣ ـ أن نقف على قدرة الله تعالى وتأييده رسله بالمعجزات والبراهين الدالة على صدقهم .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق التكريم لموسى والاختيار لحمل الرسالة ثم أتى التنبيه للتلقى ، ويتم التلخيص لما يوحى فى ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة، وهى أسس رسالة الله الواحدة ؛ فالألوهية الواحدة فهى قوام العقيدة ، والله فى ندائه لموسى ﷺ يؤكدها بكل المؤكدات ، بالإثبات المؤكد ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ وبالقصر المستفاد من النفى والاستثناء : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه ، وعلى الألوهية تترتب العبادة ، والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة ، ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ؛ لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله ، وأما الساعة فهى الموعد

المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذى تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير فى الطريق وهى تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق ، والله سبحانه يؤكد مجيئها ، وأنه يكاد يخفيها ليجزى كل عامل بعمله .

والفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ، وأنه لابد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق فى الجزاء على الأعمال ، واتباع الهوى هو الذى ينشئ التكذيب بالساعة .

ويتلقى موسى سؤالا لا يحتاج إلى جواب : سؤالا عما فى يمينه ، ولم يكن عن وظيفة العصا فى يده ، ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، إنما عن وظيفتها معه فأجاب بأقصى ما يعرفه عن تلك العصا : أنه يتوكأ عليها ، و يضرب بها أوراق الشجر ؛ لتتساقط فتأكلها الغنم ، وأنه يستخدمها فى أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا فى يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيد للتكليف بالمهمة الكبرى، ووقعت المعجزة الخارقة التى تقع فى كل لحظة ، ولكن الناس لا ينتبهون إليها ، وقعت معجزة الحياة ، فإذا العصا حية تسعى ، وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف ، فطُمئن فاطمأن والتقط الحية ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ، عصا ، ووقعت المعجزة فى صورتها الأخرى ، صورة سلب الحياة من الحى ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان من قبل أن تدركه المعجزة الأولى .

وصدر الأمر العلوى مرة أخرى إلى عبده موسى بضم يده إلى جناحه ، ووضعها تحت إبطه ، والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة فى هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا مرض أو آفة ، ولكن آية أخرى مع آية العصا ، ليرى موسى من آيات ربه الكبرى فيشهد وقوعها بنفسه تحت بصره وحسه ، فيطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة ، مهمة الذهاب إلى فرعون ودعوته ، وإنه ليعرف من هو فرعون ، فقد ربى فى قصره وشهد طغيانه وجبروته ، وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال، وهو اللحظة فى حضرة ربه ، يحس الرضا والتكريم والحفاوة ، فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره ، وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ، ويجعله دافعا للحياة لا عبئًا يثقل خطا الحياة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره ، وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح ، وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك ، وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟ !

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله ، وقد روى أنه كانت بلسانه حبسه، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، وقد دعا ربه فى أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر ، ثم أخذ يحدد ويفصل ما يعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله ؛ هارون أخيه ، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ، ويتروى معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذى هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير ، والذكر الكثير والاتصال الكثير بالسميع البصير ، فموسى ﷺ يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ، ويحل عقدة من لسانه ، ويعينه بوزير من أهله ، كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعدًا له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير ، والتلقى الكثير من السميع البصير الذى يعرف الحال ، ويطلع على الضعف والقصور ، ويعلم الحاجة إلى العون والتدبير .

لقد أطال موسى سؤله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير ، وربه يسمع له وهو ضعيف فى حضرته ، ناداه وناجاه ، فها هو ذا الكريم المنادى لا يخجل ضيفه ، ولا يرد سائله ، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة هكذا مرة واحدة فى كلمة واحدة ، فيها إجمال يغنى من التفصيل ، وفيها إنجاز لا وعدٌ ولا تأجيل كل ما سألته أعطيته ، وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه يا موسى ، وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

قال صاحب الأساس : « من كلام موسى ﷺ عندما سأل الله أن يؤيده بأخيه نفهم أدب الأخوة فى الله والغاية منها ، فالأدب شد الأزر ، والاشتراك فى الأمر ، والهدف ذكر الله وتسبيحه ، فما لم يتحقق بالأخوة كثرة الذكر لا تكون أخوة خالصة فى الله وإذا كان لها هدف آخر غير ذلك فليست أخوة فى الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المتعة والراحة والأمن والطمأنينة لا تكون إلا فى رحاب الله من خلال طاعته .

٢ ـ لا خوف ولا فزع فى الطريق إلى الله ، فالله عز وجل يؤيد رسله والمؤمنين .

٣ ـ على المسلم أن يعد للأمر عدته ، ويستعين بما يساعده على الوصول إلى غايته .

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا
فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ
الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

معانى الكلمات :

التابوت : الصندوق .

اليم : النهر .

تصنع : تربى .

يكفل : يضم ويحفظ .

تقر : تُسرُّ .

فتناك : خلصناك .

تنيا : تفترا .

يفرط : يعجل الأذى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لابد منه .

٢ ـ أن نراعى الحكمة فى دعوة الناس إلى ربهم .

٣ ـ أن نتعلم عدم المؤاخذة على الخوف حيث وجدت أسبابه .

المحتوى التربوى :

طال التجلى وطال النجاء ، وأجيب السؤال وقضيت الحاجة ، وفضل الله لا خازن له ، ورحمة الله لا ممسك لها ، فهو يغمر عبده بمزيد من فضله ، وفيض من رضاه ، فيستبقيه فى حضرته ليزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته ، وكل لحظة تمر وهو فى هذا المقام الوضيء هى متاع ونعمى وزاد ورصيد .

إن موسى ذاهب لمواجهة أقوى ملك فى الأرض وأطغى جبار ، إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ، ثم مع قومه بنى إسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل ، وأفسد فطرتهم ، وربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد ، وأنه لم

يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد ، وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرب على الميثاق وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف ، وكان تحت سلطان فرعون وفى متناوله وهو مجرد من كل عدة ، ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ؛ لأن يد القدرة كانت تسنده وعين القدرة كانت ترعاه فى كل خطاه ، فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده وربه معه، قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة فى طريقها معك منذ زمان فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف ، فلقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك وألهمناها ما يلهم فى مثل حالها ، ذلك الإلهام ، قذف بالطفل فى التابوت ، وقذف فى اليم بالتابوت ، وإلقاء للتابوت على الساحل ، حركات كلها عنف وكلها خشونة ، ثم يتسلمه عدو لى وعدو له .

فى زحمة هذه المخاوف كلها تجعل القدرة القادرة من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات ، وتتحطم عليها الأمواج ، وتعجز قوى الشر والطغيان أن تمس حاملها بسوء ولو كان طفلا رضيعا لا يصول ولا يجول ، بل لا يملك أن يقول .

وكان من تدبير الله أن جعل الطفل لا يقبل ثدى المرضعات ، وفرعون وزوجه وقد تبينا الطفل يبحثان له عن مرضع ، فيتابع الناس ، وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم . هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجىء لهم بأمه فيلقم ثديها ، وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه ، ويكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف .

ومنة أخرى : حين قتل المصرى وكان ينوى دفعه ، وتحرج ضميره من اندفاعه ، فهداه ربه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم ، وكانت التربية فى هذا الموقف العسر بالخوف والهرب من القصاص والغربة ومفارقة الأهل والوطن ، وبالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، وجاز الامتحان وتهيأت الظروف والأحوال فى مصر ، وبلغ العذاب ببنى إسرائيل مداه ، فى ذلك الوقت جىء بموسى من أرض مدين خالصًا مستخلصا ممحضا لله ولرسالته ودعوته ، ليس به شىء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا .

ويأتى الأمر العلى لمن صنع على عين الله واستخلص لرسالته : اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتى وحججى وبراهينى ومعجزاتى ولا تبطئا ولا تفترا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ، فقولا له القول اللين ، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة ، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان ، راجين أن يتذكر ويخشى .

يقول صاحب الظلال : « الداعية الذى ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها فى وجه الجحود والإنكار والأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لابد منه » .

ويطوى السياق المسافات والأبعاد والأزمان ، فإذا هارون مع موسى ، وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون ، ومن التسرع فى أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه ، هنا يجيئهما الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ، ولا خشية معه بأنه معهما ، وكان هذا الإجمال يكفى ، ولكنه يزيدهما طمأنينة ولمسا بالحس للمعونة ، فما يملك فرعون والله معهما يسمع ويرى ، ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال ، فيذهبا إلى فرعون ، وكان البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما أنهما من عند رب الناس ، ثم كان الإيضاح لموضوع الرسالة وهو استنقاذ بنى إسرائيل والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة ؛ ثم كان الاستشهاد على صدق رسالتهما بمجيئهما بآية من رب العالمين ، وكان الترغيب والاستحالة بالسلام عليه إن اتبع الهدى .

ثم كان التهديد والتحذير غير المباشرين كى لا يثيرا كبرياءه وطغيانه ، فقد أخبرهما الله أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، فلعله لا يكون ممن كذب وتولى ، هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون ، وهكذا رسم لهما الطريق ، ودبر لهما الأمر ليمضيا آمنين عارفين هاديين .

وهنا يسدل الستار ليرفع ، فإذا هما أمام الطاغية فى حوار وجدال ، لقد أتيا فرعون ، ويبدأ المشهد بما دام بينه وبين موسى عليه السلام من حوار ، ويسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : من ربكما الذى تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بنى إسرائيل ؟

يقول صاحب الظلال : « والوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها .. » .

ويثنى فرعون بسؤال آخر : ما شأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ رحمة الله تعالى ورعايته لكل من يحمل دعوته ولعباده المؤمنين .

٢ ـ حنان الأمومة وشدة عاطفتها نحو أبنائها ، مما يوجب على الأبناء مراعاة حق الوالدين وإكرامهما .

٣ ـ الدعوة إلى الله تتطلب من الداعية أن يكون لطيفا فى دعوته ، رفيقا بمن يدعوه .

الجزء السادس عشر — سورة طه

قال علمها عند ربى فى كتب لا يضل ربى ولا ينسى ﴿٥٢﴾
الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل
من السماء ماء فأخرجنا به أزوجا من نبات شتى ﴿٥٣﴾ كلوا
وارعوا أنعمكم إن فى ذلك لأيت لأولى النهى ﴿٥٤﴾ ۞ منها
خلقنكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿٥٥﴾ ولقد
أرينه ءايتنا كلها فكذب وأبى ﴿٥٦﴾ قال أجئتنا لتخرجنا
من أرضنا بسحرك يموسى ﴿٥٧﴾ فلنأتينك بسحر مثله
فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا
سوى ﴿٥٨﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى
﴿٥٩﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴿٦٠﴾ قال لهم
موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب
وقد خاب من افترى ﴿٦١﴾ فتنزعوا أمرهم بينهم وأسروا
النجوى ﴿٦٢﴾ قالوا إن هذن لسحرن يريدان أن يخرجاكم
من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴿٦٣﴾ فأجمعوا
كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴿٦٤﴾

الحزب ٣٢

٣١٥

معانى الكلمات

سلك : جعل .

سبلا : طرقا .

أزواجا : أصنافا وأنواعا .

النهى : العقول السليمة .

آياتنا : معجزاتنا .

سوى : وسطا .

فيسحتكم : فيهلككم .

المثلى : الفضلى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التى تدل على قدرة الخالق وألوهيته .

٢ ـ أن نقف على كبر فرعون وصلفه وطغيانه .

٣ ـ أن نعلم مشروعية المباراة لإظهار الحق وإبطال الباطل .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيحيل موسى جواب السؤال إلى ربه الذى لا يفوت علمه شىء ولا ينسى شيئا ، فهو الذى يعلم شأن تلك القرون كلها فى ماضيها وفى مستقبلها ، والغيب لله والتصرف فى شأن البشر لله ، ويستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله فى الكون وآلائه على بنى الإنسان فيختار بعض هذه الآثار المحبطة ، فالأرض كلها مهد للبشر فى كل مكان وزمان ، مهد كمهد الطفل وما البشر إلا أطفال هذه الأرض ، يضمهم حضنها ويغذوهم درها ، وهى ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة ، جعلها الخالق كذلك يوم أعطى كل شىء خلقه .

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهدا ، شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء ، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ، فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة ، وقد شاء الخالق

المدبر أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء ، وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها ، والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث الواحدة ، وأحيانا يكون اللقاح فى نبتة الفصائل والأنواع ، وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ويكمل السياق حكاية قول موسى مباشرة بقول من الله جل وعلا : من هذه الأرض التى جعلناها لكم مهدا ، وسلكنا لكم فيها سبلا ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى للأكل والمرعى ، من هذه الأرض خلقناكم ، وفى هذه الأرض يعيدكم ، ومنها يخرجكم بعد موتكم .

فالإنسان ـ كما ذكر **الشيخ أبو زهرة** : « عظامه ولحمه نبت من تراب ، فآدم أبوه ، وأبو الخليقة خلق من طين ثم كان غذاء ذريته من نبات الأرض الذى ينبت فى الطين ، ومن حيوان الأرض الذى يتغذى من نباتها ، وهكذا كان لحمه ، ولقد كان خطاب الله تعالى لفرعون الذى استكبر واستعلى ليخفف من غلوائه » .

ومع رؤية فرعون الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى عليه السلام فيما حوله ، وآيتى العصا واليد يحملها هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما فى الكون منها أكبر وأبقى ، وهكذا لم يمض فرعون فى الجدل ، لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة وسلطانه فيه قوى ، وهو يستمد حجته من آيات الله فى الكون ، ومن آياته الخاصة معه ؛ إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذى يجعل العصا حية تسعى ، ويجعل اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون ؛ لأنه منتشر فى ذلك الوقت فى مصر ، وإذا كان ما أقدم عليه موسى هو السحر فما أسهل الرد عليه ، فإن عند فرعون سحرا مثل هذا السحر .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفى وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم ، ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة فى الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق، فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا ، سحر نأتى بسحر مثله ، كلام نأتى بكلام من نوعه ، صلاح نتظاهر بالصلاح ، عمل طيب نرائى بعمل طيب ، ولا يدركون أن للعقائد رصيدا من الإيمان ، ورصيدا من عون الله ، فهى تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال » .

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد المباراة مع السحرة ، وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدى ، وشدد عليه فى عدم إخلاف الموعد زيادة فى التحدى ، وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف مبالغة فى التحدى ، وقبل موسى عليه السلام تحدى فرعون له ، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس فى مصر زينتهم ، ويتجمعون فى الميادين والأماكن

المكشوفة ، وطلب أن يجمع الناس ضحى ؛ ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا ، فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت فى أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا فى يوم العيد .

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان فى الميدان ، ويسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة ، ويحمل السياق كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه ، وما دبر هو ومستشاروه يحمله فى آية واحدة قصيرة فى ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى ﷺ قبل الدخول فى المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء ، والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها ، ويبدو أن هذا الذى كان ، فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج فى الأمر ، وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى .

وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون فى المترددين الخوف من موسى وهارون اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ، مما يوجب مواجهتهما يدًا واحدة بلا تردد ولا نزاع ، واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذى يغلب فيها الفالح الناجح .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم ، وفى ماهم عليه من عقيدة وفكرة، وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع ،وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله ، ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى » .

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون ، فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ، ويجمع كيده ثم يأتى، ويحشر السحرة ويجمع الناس، ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ ! إنها الهيبة التى ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من كان الله معه فلا يخاف من شىء ولا يحزن على شىء .

٢ ـ حرمة الكذب على الله تعالى ، وإنه ذنب عظيم يسبب دمار الكاذب وخسرانه .

٣ ـ للعقائد رصيد من الإيمان ، ورصيد من عون الله وهى غالبة لمن يقف ضدها فلا خوف على أصحابها .

الجزء السادس عشر — سورة طه

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ
كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا
عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

٣١٦

معانى الكلمات :

أوجس : أحس .

الأعلى : الفائز .

تلقف : تبتلع .

نؤثر : نختار .

فطرنا : أوجدنا .

أبقى : أدوم ثوابًا .

خالدين : ماكثين .

تزكى : طهَّر نفسه من دنس الشرك والكفر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن شجاعة المؤمن لا يرهبها خوف بقتل ولا بصلب .

٢ ـ أن نعرف أن عذاب الدنيا يتحمل ويصبر عليه بالنظر إلى عذاب الآخرة .

٣ ـ أن نقف على جزاء كل من الكفر والمعاصى والإيمان والعمل الصالح فى الدار الآخرة

المحتوى التربوى :

كانت استثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات ، وإقدام السحرة وهى دعوة؟ الميدان إلى النزال ، يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدى ، وقبل موسى التحدى وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة ، ولكن ماذا ؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى أوجس فى نفسه خيفة ومعه ربه يسمع ويرى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى ، فلا تخف فأنت الأعلى ؛ معك الحق ومعهم الباطل ، معك العقيدة ومعهم الحرفة ، معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة،أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا.

لا تخف وألق ما فى يمينك تبتلع ما صنعوا ، وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التى لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ، ولكنها تدمغ الباطل فى النهاية فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى ووقعت المفاجأة الكبرى ، ويصور السياق وقع المفاجأة فى نفوسهم فى صورة تحول كامل فى مشاعرهم ووجدانهم وقد انبعث النور وأشرق الظلال ، فلمسة الإيمان للقلب البشرى تحوله فى لحظة من الكفر إلى الإيمان، ولكن أنى للطغاة أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ورأوا الأتباع ينقادون الإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ، وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان .

وعدل فرعون إلى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة ، فتهددهم وتوعدهم على تصديقهم له وإيمانهم به ، ويلتفت إلى سر استسلامهم فى نظره وهو أنه الذى علمهم السحر ، وكان التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة ، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ، وكان تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والتصليب فى جذوع النخل ، والاستعلاء بالقوة الغاشمة قوة الوحوش فى الغابة ، القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب .

ولكن كان قد فات الأوان ، وكانت اللمسة الإيمانية قد وصلت قوية قويمة وقد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض ، وما بها من عرض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه .

إنها لمسة الإيمان فى القلوب التى كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعد القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هى بعد لحظة تواجهه فى قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه ، وهانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل ، فلن يختاروا فرعون على ما حصل لهم من الهدى واليقين ، وكيف يختارون فرعون على خالقهم الذى أنشأهم من العدم والمستحق للعبادة والخضوع .

وبلغ القلب تقواه فثبتت كلمات الحق على لسانه ، وارتعدت فرائص الباطل أمام عينيه ، فكان كل شىء هينا ، وكل عظيم حقيرا ، وأضحى فرعون فى سلطانه كحشرة فى ترابها ، وأمست الدنيا عجوزا لا يلتفت إليها ، وكيف يهتز قلب له أمل بالله أمام باطل ربط حبائله بكيد شيطان ، فليقض فرعون ما هو قاض فما له سلطان إلا سلطان دنياه وهى هينة قصيرة ، وما تفعل دنيا بقوم قد اتصلوا برب الدنيا ، لا يملكون له عصيانا ، يرجون عفوه وغفرانه ، والله أبقى مغنمًا وجزاء ، وخير قسمة وجوارًا .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلى ، فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى ، فها هى ذى صورة لمن يأتى ربه مجرما هى أشد عذابا وأدوم ، فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حى فيتمتع ، إنها هو العذاب فى جهنم الذى لا ينتهى إلى موت ولا ولا ينتهى إلى حياة ، وفى الجانب الآخر الدرجات العلا ، جنات للإقامة ندية بها يجرى تحت غرفاتها من أنهار ، وذلك جزاء من تطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيمان القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصح ، وبرجاء الإيمان العميق ، ومضى هذا المشهد فى تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض وعلى الطمع فى المثوبة والخوف من السلطان ، وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الإعلان القوى إلا فى ظلال الإيمان .

يقول صاحب الأساس : « رأينا نموذجا على الإيمان الصادق بالله ورسوله ، ونموذجا عن الإيمان اليقينى باليوم الآخر ، وما هى آثار ذلك ، فهؤلاء سحرة فرعون عندما خالط الإيمان بالله واليوم الآخر قلوبهم ،أعلنوا إيمانهم فى وجه فرعون واستهانوا بكل عقوباته واتهاماته وتهديداته، ولم يبق فى قلوبهم إلا الرغبة فى رضوان الله ونيل ثوابه وإذا كان السياق قد قص علينا ما يفعل الإيمان ، فقد قص علينا كذلك من خبر فرعون ما عرفنا به أن عدم الإيمان بوحى الله ليس إلا أثر الكبر والعنجهية .

ورأينا كيف أن السحرة تذكروا فلم يكن الوحى شقاء لموسى ولا لهم ، فالشقاء : هو بقاء الإنسان على الكفر ورفضه للحق ، والعبرة بالخواتيم فى الدنيا والآخرة ، ولئن كانت خاتمة السحرة شهادة ، فإنها سعادة إذ هى أمنية المؤمنين وقد نالوا رضوان الله ، ولكن كيف كانت عاقبة فرعون ، وماذا أعد له فى الآخرة ؟ إنه لا سعادة بدون هداية ، ولا شقاء معها ، ولا فلاح بدون إيمان ولا شقاء معه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ألا ييأس المسلم إذا لم يهتد بدعوته ، وعليه مواصلة جهاده فى الأمل مستخدما كل ما فى إمكانه .

٢ ـ لا يؤثر الكفر على الإيمان والباطل على الحق والخرافة على الدين الصحيح إلا أحمق جاهل .

٣ ـ الآخرة خير وأبقى ، وما عند الله ما له من نفاد .

٤ ـ قوة القلب ويقينه أبلغ عوامل الانتصار .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ
جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ
يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ
الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم
مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا
أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

نصف الحزب ٣٢

معانى الكلمات :

يبسا : يابسا لا ماء فيه ولا طين .

دركا : إدراكا ولحاقا أو تبعة .

غشى : علا وغمر .

المن : مادة صمغية حلوة كالعسل .

السلوى : الطائر المعروف بالسمان .

فتنا : ابتلينا .

ملكنا : قدرتنا وطاقتنا .

أوزارًا : أثقالا أو آثاما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن النصر لا يتحقق فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير .

٢ ـ أن نعرف أن الإيمان الكامل أثر عن الإيمان والعمل الصالح والتوبة .

٣ ـ أن نتعلم أن غدر بنى إسرائيل ونقضهم العهود طبيعة متأصلة فيهم من قديم الزمان

المحتوى التربوى :

يرفع الستار على حلقة من القصة جديدة ؛ إنه مشهد انتصار الحق والإيمان فى واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارها فى عالم الفكرة والعقيدة ، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ، وانتصار الإيمان فى قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد ، فالآن ينتصر الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان فى الواقع المشهود ، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير .

وما يستعلى أصحاب الحق فى الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق فى الباطن ، فللحق والإيمان حقيقة متى تجسمت فى المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس فى صورتها الواقعية ، فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم فى الحق ، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء فى مظهر الحق والإيمان .

يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان فى النفس ، وحقيقة الحق فى القلب فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان ، وهذا هو الذى كان فى موقف موسى عليه السلام من السحر والسحرة ، وفى موقف السحرة من فرعون وملئه ، ومن ثم انتصر الحق فى الأرض كما يعرضه هذا المشهد فى سياق السورة .

ولا يطيل السياق فى مشهد الخروج والوقوف أمام البحر ، بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة ؛ لأن مقدماته كانت فى الضمائر والقلوب ، وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله من بنى إسرائيل ليلاً ، فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل ، مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذى اتخذ له طريقا يابسا فيه ، ويد القدرة التى أجرت الماء وفق الناموس الذى أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه .

ويتبع فرعون بجنوده موسى ويجمل السياق كذلك ما غشى فرعون وقومه ولا يفصله ، ليبقى وقعه فى النفس شاملا مهولا ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال والبحر ، وكلاهما ضلال يؤدى إلى البوار ، ونقف أمام العبرة التى يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه فى القلوب ، فلقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان ، فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئا سوى اتباع الوحى والسرى ليلا ، ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين فى عالم الواقع ، ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان فى نفوس الذين لا يملكون قوة سواها ، بعد أن استعلن الإيمان فى وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ، ولا يرهب وعيده ولا يرغب فى شىء مما فى يده ، وبلغت المعركة بين الإيمان والطغيان فى عالم القلب إلى هذا الحد ، تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وفى ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كى لا ينسوا ولا يبطروا ، ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذى كان لهم فى المعركة فضمنوا به النصر والنجاح ، فلقد جاوزوا منطقة الخطر، وانطلقوا ناجين ناحية الطور ، ونزل عليهم المن والسلوى فى الصحراء ، قريب المتناول سهل التناول .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأكلوا من الطيبات التى يسرها لهم ، وتنذرهم من الطغيان فيها بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذى هم خارجون له ، والتكليف الذى يعدهم ربهم لتلقيه ، ويسميه طغيانا وهم قريبو العهد بالطغيان ، ولقد هوى فرعون منذ قليل ، هوى عن عرشه وهوى فى الماء ، والهوّى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالى ، وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع .

يقول صاحب الظلال : « والتوبة ليست كلمة تقال ، إنما هى عزيمة فى القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح ، ويتجلى أثرها فى السلوك العملى فى عالم الواقع ، فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان وصدقه العمل ، فهنا يأخذ الإنسان فى الطريق على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح ، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل » .

ويرفع مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن وقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل فهو إليها مشتاق عجول ، ووقف فى حضرة مولاه ، وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده حين تركهم فى أسفل الجبل ، وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه ، فما يكاد موسى يتركهم فى رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار ، ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى ، وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى ، ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء .

وينهى السياق موقف المفاجأة على عجل ويطويه ليصور انفعال موسى عليه السلام مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة وفى نفسه حزن وغضب ، وراح يوبخ قومه ويسألهم فى حزن وغضب أما وعدكم ربكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة ؛ وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد ، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت ، ويؤنبهم فى استنكار : أطال عليكم انتظار ما وعد الله ؟ فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله ، أتعمدتم حلول الغضب فأخلفتم موعدى .

وعندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب : بأن الأمر كان أكبر من طاقتنا وما كان الإخلاف فى قدرتنا ، وأخبروه عن تورعهم المزعوم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فألقيناها عنا ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ تحريم الإسراف والظلم وكفر النعم .

٢ ـ ذم العجلة وبيان آثارها الضارة .

٣ ـ الحث على طلب رضا الله تعالى ولكن بما يجب أن يتقرب إليه به .

٤ ـ مشروعية الغضب لله تعالى والحزن على ترك عبادته بمخالفة أمره ونهيه .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

معانى الكلمات :

جسدا : مجسداً .

نبرح : نترك .

منعك : حملك .

ترقب : تحفظ .

سولت : زينت .

لا مساس : لا تمسنى ولا أمسك .

ظلت : بقيت .

وسع : أحاط وأحصى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن روح الورع لا تكفى بل ينبغى معها العلم والوعى .

٢ ـ أن نقف على فن العتاب والاعتذار .

٣ ـ أن نربى أنفسنا على الغيرة والغضب لدين الله عز وجل .

المحتوى التربوى :

صاغ السامرى من الحلى عجلا وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ، والجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه ، وما كاد القوم يرون عجلا ذهبا يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من الذل،وعكفوا على عجل الذهب ، وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : إن العجل إلههم وإله موسى ، راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا ، وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه .

يقول صاحب الأساس : « فيما فعله السامرى وقصه الله علينا درس بليغ جداً ، فقد استغل السامرى روح الورع التى رباها موسى ﷺ فى أتباعه ليوجهها توجيها سيئا يخدم أغراضه الكافرة ، وذلك قد يحدث دائما إذا لم يوجد علم ووعى ، وكل فرد من المسلمين على غاية من العلم والوعى فإن استعدادهم للفتنة يبقى قائما ، وقد تكون الفتنة باسم الدين نفسه » .

ولقد نصح لهم هارون ﷺ وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ ، ونبههم إلى أن هذا ابتلاء وفتنة لكم وربكم الرحمن ، ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل ، ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ومن نبيهم بطاعته ، فلن يتركوا عبادته حتى يسمعوا كلام موسى فيه ، ويرجع موسى فى ثورته إلى قومه ، والتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب يأخذ بشعر رأسه وبلحيته فى انفعال وثورة يؤنبه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته .

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون ، فهو يطلع أخاه عليه ويعرض له وجهة نظره فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعًا بعضها مع العجل وبعضها مع نصيحة هارون ، وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا ، فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ، وعندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها .

يقول صاحب الظلال : « إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ؛ لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم ، فأما السامرى فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثانى ، فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك ، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً » .

اتجه موسى إلى السامرى ، وسأله عن شأنه وقصته ، وأجاب السامرى فقال : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون فقبضت قبضة من أثر فرسه فألقيتها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار أو إنها هى التى أحالت كوم الذهب عجلا له خوار ، والقرآن يحكى عن السامرى مجرد حكاية ، ونميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامرى وتملصًا من تبعة ما حدث ، وأنه هو صنع العجل من الذهب الذى قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التى أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت فى فراغه فتحدث صوتا كالخوار .

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى ﷺ بالطرد من جماعة بنى إسرائيل مدة حياته ، ووكل أمره بعد ذلك إلى الله ، وواجهه بعنف فى أمر إلهه الذى صنعه بيده ؛ ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلها ، فهو لا يحمى صانعه ، ولا يدفع عن نفسه ، فكما أخذ ومس ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبته فى الدنيا أن يذهب مطرودًا لا يمسه أحد لا بسوء ولا بخبر، ولا تمس أحداً، وكانت هذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى ، عقوبة العزل ، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدًا .

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله ، وفى حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى فى الماء ، والعنف إحدى سمات موسى ﷺ وهو هنا غضبة لله ولدين الله حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ،يعلن موسى ﷺ حقيقة العقيدة،فليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو فلا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شىء فقير إليه ، عبد لربه الذى هو عالم بكل شىء .

يقول صاحب الظلال « وينتهى بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى فى هذه السورة ، تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده ، حتى عندما يبتلون فيخطئون ، ولا يزيد السياق شيئا من مراحل القصة بعد هذا ؛ لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بنى إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان ، وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين ، فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة فى هذا الجو الظليل » .

وتنتهى القصة فى السورة بالإشارة إلى العبرة والعظة ، فالقرآن ليس تاريخا يكتب بل منهجًا يهدى إلى صراط مستقيم ، فتكفى اللمحة الدالة ، واللفتة الهادية ، وما يضير بعد أن تلقى الروح فى الجسد ، وتعطى البصيرة للبصر ، والإحساس بعد الموات ، وهل التاريخ إلا ذخيرة أيام ذهبت لأيام تستقبل ، وهل ينتفع البدن بغير ما يفيد ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ معصية الرسول تؤدى إلى فتنة العاصى فى دينه ودنياه .

٢ ـ قد يخطئ المجتهد وله أجر اجتهاده ، وقد يصيب وله أجران .

٣ ـ مشروعية هجرة المبتدع ونفيه وطرده ، فلا يسمح لأحد بالاتصال به والقرب منه إذا كان فى ذلك فائدة .

كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا
ذكرا (٩٩) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا
(١٠٠) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا (١٠١) يوم ينفخ
في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا (١٠٢) يتخافتون
بينهم إن لبثتم إلا عشرا (١٠٣) نحن أعلم بما يقولون إذ يقول
أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما (١٠٤) ويسألونك عن الجبال
فقل ينسفها ربي نسفا (١٠٥) فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦)
لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (١٠٧) يومئذ يتبعون الداعي
لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا
(١٠٨) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له
قولا (١٠٩) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به
علما (١١٠) ۞ وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من
حمل ظلما (١١١) ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا
يخاف ظلما ولا هضما (١١٢) وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا
وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (١١٣)

الحزب ٣٢

معانى الكلمات :

وزرا : حملا ثقيلا .

أمثلهم : أعدلهم .

قاعا : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء .

صفصفا : أرضا مستوية .

عنت : ذلت .

الحى : الدائم الحياة .

القيوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .

هضما : نقصا من ثوابه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن القرآن ذكر للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين .

٢ ـ أن نقف على حال المجرمين يوم القيامة الذين أعرضوا عن القرآن الكريم .

٣ ـ أن نعلم أن لا نجاة إلا للمتقين ، ويوم القيامة لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق بالحديث عن القرآن ، والقصص الذى أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق، نقصه عليك فى القرآن ذكرا فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات فى القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً فى يوم القيامة ، فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله ، ويا لسوئها من أحمال ، فإذا نفخ فى البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم ، يتخافتون بينهم بالحديث لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساعة الحشر .

وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام وقد تضاءلت الحياة الدنيا فى حسهم وقصرت أيامها فى مشاعرهم فليست فى حسهم سوى أيام قلائل ، فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر فليست إلا يوما ، وهكذا تنزوى تلك الأعمار التى عاشوها على الأرض وتنطوى ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة فى الزمان ، وشيئا ضئيلا فى القيمة ، فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة ، ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التى لا نهاية لها ، والتى تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه فى الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومذاك ، فإذا الجواب يصور درجة الهول الذى يواجهونه ، ويتجلى المشهد الرهيب ؛ فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ، وإذا هى قاع بعد ارتفاع ، قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض .

وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ، وتنصت الجموع المحتشدة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعى إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين لا يلتفتون ولا يتخلفون ، وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ، ويعبر عن استسلامهم بأنهم يتبعون داعيهم ، حيثما أمروا بادروا إليه ؛ ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم ، وقال محمد بن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت فيؤمونه لا يميلون عنه .

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكوت الغامر والجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التى لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع فالكلام همس والسؤال تخافت والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، قد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القيوم الذى لا ينام وهو قيم على كل شىء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل فى نفسه الذى كل شىء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وجلال الحى القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : « آتى العرش وأخر لله ساجداً ، ويَفْتَح علىّ بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، واشفع تشفع » قال : « فيحدّ لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود » فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

والعلم كله لله فهو يحيط علما بالخلائق كلهم ، وهم لا يحيطون به علما ، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة ، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفى الصحيح : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ، والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله وهو مشرك به .

لما ذكر الظالمين ووعيدهم ، ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهم أنهم لا يُظلمون ولا يهضمون ، فلا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ، وهم مطمئنون لا يخشون ظلما فى الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات ، إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه فى حضرة الرحمن .

وهكذا يطرح السؤال ويكون الجواب خاطفا للفكر والشعور منتزعًا للقلب والإحساس ، فأى هول أعظم من هذا الهول الذى يزيل كل عظيم ظنناه ، ويرقب الكافر نفسه ، صامته مستسلمة لا تلتفت إلى شىء ولا ترعوى على شىء ، شاةً فى قطيع لا يتخلف عن أمر راعيه ، لا شفاعة ولا ندامة بل حساب عسير وعذاب مرير ، وخيبة لا صلاح بعدها ، كل هذا والمؤمن قرير العين ساكن الفؤاد مستجمع النفس له شفاعة ولا يخاف ظلما ولا هضما .

ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولا عى ، ونوعنا فى القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى فيتركون المآثم والمحارم والفواحش ، أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة فينزجروا ويوجد لديهم الطاعة وفعل القربات .

وهكذا يخيم الجلال على السياق كله فينتفض القلب خاشعا متبتلا ، ويهب من سكونه المخزى ، وركونه المزرى ، وإيمانه المدعى على أنباء قد قصت ، وعلى إعراض يعقبه حمل أوزار ، ويوم يكون فيه الحشر للمجرمين صغاراً محتقرين لا يرفعون أنفا كما كانوا فى الدنيا ، ولا تأخذهم عزة قد سيطرت عليهم فى باطلهم فأضلتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أيام الحياة مهما طالت فهى قصيرة إلى جانب الآخرة ، والفالح من أخذها زادا ليوم القيامة .

٢ ـ لا ينجو إلا المتقون يوم القيامة .

٣ ـ بيان خيبة المشركين وفوز الموحدين يوم القيامة .

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن
يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ
ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ
لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا
جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن
ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾

معانى الكلمات :

يقضى : يفرغ .

أبى : امتنع .

تضحى : تبرز للشمس .

يبلى : يزول .

طفقا : شرعا .

يخصف : يلصق ويلزق .

فغوى : فضل .

ضنكا : ضيقة شديدة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الحكمة من إنزال القرآن باللسان العربى وتصريف الوعيد فيه .

٢ ـ أن نقف على عداوة الشيطان لآدم وذريته .

٣ ـ أن نعلم سوء حال المعرضين عن هداية الله .

المحتوى التربوى :

لقد كان الرسول ﷺ يلاحق الوحى فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهى الوحى مخافة أن ينسى ، وكان ذلك يشق عليه فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التى يحملها ، فتعالى الله الملك الحق الذى تعنو له الوجوه ، ويخيب فى حضرته الظالمون ويأمن فى ظله المؤمنون الصالحون ، هو منزل هذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك فقد نزل القرآن لحكمة ولن يضيعه ، إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم وأنت مطمئن إلى ما يعطيك لا تخشى عليه الذهاب ، وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقى الذى ينفع ولا يضيع ويثمر ولا يخيب .

ثم تجىء قصة آدم بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر فى قصة آدم نقطة النسيان ، وتجىء فى السورة التى تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر فى قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه ، ثم يعقبها مشهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة ، وكأنها هى العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت فى السياق ، عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذى لابد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، وهذا هو المقياس الذى لا يخطئ فى قياس الرقى البشرى ، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى فى سلم الرقى البشرى .

وها هى ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى ، فقد نسى آدم ﷺ ما عهد إليه ربه ، وأمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس ، وتأتى رعاية الله وعنايته فينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه ، فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان كلها تنتظر هناك خارج الجنة ، وأنت فى حمى منها كلها ما دمت فى رحاب الفردوس ، فعدم الجوع والعرى والظمأ والحر هذا كله مضمون لك ما دمت فى رحابها .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب ، وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء ، والرغبة فى السلطان ، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان ولم يزل به وزوجته حتى أكلا من شجرة الخلد والملك المزعومين ، فبدت السوءات والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة وأخذا يلصقان من ورق الجنة عليهما ، وعصى آدم بارتكاب المنهى عنه وغوى بترك المأمور به .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله بعدما عصاه ، فقد كانت هذه التجربة الأولى ، فاصطفاه ربه بعد ما استغفر آدم وندم واعتذر ، ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها ، ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى ، وأعلنت الخصومة فى الثقلين ، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم : إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى ، فقد درى وعلم .

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السموات والأرضون وشهده الملائكة أجمعون ، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم ، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجازٍ كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى .

فمن اتبع الهدى فهو فى أمان من الضلال والشقاء فى الدنيا والآخرة ، ومن خالف أمر ربه وانقطع عن الاتصال به فله معيشة بائسة فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وشك وحيرة فلا يزال فى ريبة يتردد .

يقول صاحب الظلال : « ما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا فى رحاب الله ، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان ، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر فى يوم القيامة أعمى .

وهكذا يوضح السياق مفهوم السعادة والشقاء ، ويصحح المفاهيم الخاطئة فى هذا الأمر ، فالشقاء الحقيقى شقاء الآخرة ، والشقاء الحقيقى فى ترك الهدى مهما ظن ظان أن السعادة فى غير ذلك .

يقول صاحب الأساس : « إنه عندما يترك الخلق دين الله يصبح بعضهم لبعض عدواً ، ويصبح الإنسان لنفسه عدوا ؛ إذ يتناقض مع فطرته ، وفى ذلك الشقاء الحقيقى ، إن دين الله هو الذى يجعل الإنسان صديقا مع نفسه ، وهو الذى يوجد صيغة للتعايش المريح بين الخلق ، ومن ثم نلاحظ أن التشريعات الإسلامية منصبة على إبعاد المؤمنين عن كل خلاف يهدف إلى قطع الخصومات والمنازعات بين الناس ، وعلى الإنسان أن يتعظ ويعمل من أجل الخلاص من هذا الشقاء باتباع وحى الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الترغيب فى طلب العلم وإشعار النفس بالجهل والحاجة إلى هذا العلم .

٢ ـ الجنة لا نصب فيها ولا تعب إنما ذلك فى الأرض ، والعاقل من يتعب لراحته الأبدية .

٣ ـ الشقاوة والمعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكر ربه .

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

٣٢١

معانى الكلمات :

أسرف : جاوز الحد .

لزاما : لازما .

تمدن : تطل .

اصطبر : داوم .

تخزى : تفضح .

متربص : منتظر مصيره .

الصراط السوى : الطريق المستقيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة .

٢ ـ أن نتعلم الصبر على دعوة الله عز وجل .

٣ ـ أن نتعلم الرضا بما قسمه الله وعدم التطلع إلى ما عند الآخرين .

المحتوى التربوى :

يمضي السياق بعد ذكر ضلال الضال ومعيشته الضنك فى الدنيا ، فذكرت أن هذا المعرض سيحشر أعمى يوم القيامة ، وذلك ضلال من نوع ضلاله فى الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر فى الأولى حتى إذا سأل لم هذا العمى فى يوم الحشر ؟ كان الجواب لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر ، وأسرف فى إنفاق بصره فى غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا ، فلا جرم أن يعيش معيشة ضنكا ، ويحشر يوم القيامة أعمى .

و يأخذ السياق جولة حول مصارع الغابرين ، وهى أقرب فى الزمان من القيامة ، وهى واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار ، وحين تجول العين والقلب فى مصارع القرون ، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب ، وعندئذ يدرك يد القدرة التى أخذت القرون الأولى وهى قادرة على أن تأخذ ما يليها ، وعندئذ يعى معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار ، فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفى مصارع القرون ما يهدى أولى الألباب ، ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا لحكمة عليا ، لحل بهم ما حل بالقرون الأولى ، ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل قد قدر .

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، ممهلين لا مهملين ، فلا عليك يا محمد منهم ولا مما أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هى الفتنة وما أعطاكه الله إنعاما فهو خير مما أعطاهم ابتلاء ، فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، واتجه إلى ربك سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فى هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ، وفى هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار ، كن موصولا بالله على مدار اليوم .

يقول صاحب الظلال : « إن التسبيح بالله اتصال ، والنفس التى تتصل تطمئن وترضى ، ترضى وهى فى ذلك الجوار الرضى ، وتطمئن وهى فى ذلك الحمى الآمن ، فالرضا ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع فى حنايا القلب » .

اتجه إلى ربك ولا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم ، وما هم فيه من النعم ، فإنما هو زهرة ، والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق ، فإنما نمتعهم بها ابتلاء ، فنكشف عن معادنهم بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع ، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل ، ورزق ربك خير فهو رزق للنعمة لا للفتنة ، رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

يقول صاحب الظلال : « وما هى دعوة للزهد فى طيبات الحياة الدنيا ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية ، وبالصلة بالله والرضا به ، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهر الأنظار » .

وأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى فى الحياة ، وما أروع الحياة فى ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله ، واصطبر على إقامتها كاملة ، وعلى تحقيق آثارها ، إن الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر ، وهذه هى آثارها الصحيحة ، وهى فى حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذى تثمر فيه ثمارها ، هذه فى المشاعر والسلوك ، وإلا فما هى صلاة مقامة إنما هى حركات وكلمات ، وإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب فلا تكلفك الطلب ، إنما هى العبادة تستجيش وجدان التقوى ، فالإنسان هو الرباح فى دنياه وآخراه ، يعبد فيرضى ويطمئن فيستريح ، ويعبد فيجزى الجزاء الأوفى والله غنى عن العالمين .

ويعود السياق بالحديث قرب ختام السورة إلى أولئك الكبراء المتعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول ﷺ بعد ما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه ، وهذا القرآن يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله ، فليس إلا التعنت وإلا المكابرة ، وإلا فآية القرآن كافية ، وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجمل فى الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين ﷺ ، وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم ، إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم الذى يذلون فيه ويخزون فلعلهم حينذاك قائلون : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ؟ وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذى ينتظرهم يؤمر الرسول ﷺ أن ينفض يده منهم فلا يشقى بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير، فليتربصوا هم كيف يشاؤون .

وبذلك تختم السورة التى بدأت بنفى إرادة الشقاء عن النبى ﷺ من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن فهو تذكرة لمن يخشى ، والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق ، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة ، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة ، والعاقبة بيد الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب الصبر على تبليغ دعوة الله ، وسلوك أحسن المسالك إليها .

٢ ـ الرضا بما قسمه الله من رزق انتظارًا لرزق الآخرة الآخرة الخالد الباقى .

٣ ـ الذلة والخزى تصيب أهل النار يوم القيامة لما فرطوا فيه من الإيمان والعمل الصالح .

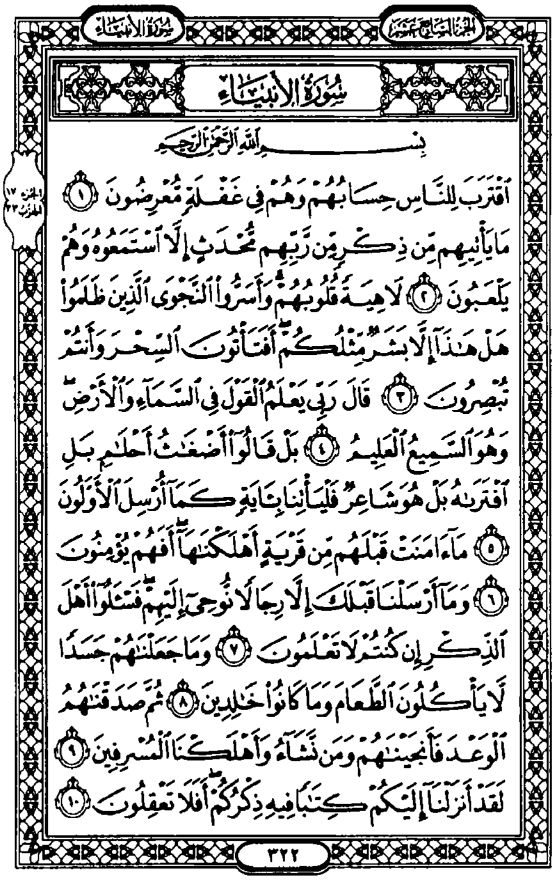

سورة الأنبياء

معانى الكلمات :

غفلة : لهو ونسيان .

ذكر : قرآن .

محدث : جديد .

لاهية : غافلة .

أضغاث : خرافات .

افتراه : وضعه .

صدقناهم : حققنا لهم .

ذكركم : شرفكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أهمية القلوب فهى موضع التأمل والتدبر والتفكير .

٢ ـ أن نعلم ما كان عليه المشركون من غفلة ولهو وإعراض .

٣ ـ أن نعلم أن الإنسان فى حاجة إلى تذكير دائم بيوم القيامة وعلينا البلاغ .

المحتوى التربوى :

يعالج سياق السورة موضوع العقيدة بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها ، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ، وهى تقوم على الحق الذى قامت عليه السموات والأرض، وعلى الجد الذى تدبر به السموات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا ، ولم يشب خلقه باطل .

ويبدأ السياق بمطلع قوى الضربات يهز القلوب هزا ، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق وهى عنه غافلة لاهية ، مطلع قوى يهز الغافلين هزا والحساب يقترب وهم فى غفلة ، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى ، والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته ، وكلما

جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار واستمعوه وهم هازلون يلعبون ، لا تلتفت إليه قلوبهم ، والقلوب هى موضع التأمل والتدبر والتفكير .

يقول صاحب الظلال : « وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ومنهاجا للعمل ، وقانونا للتعامل ـ باللعب ، ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة ، وأمثال هؤلاء موجودون فى كل زمان ، فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التى يرسمها القرآن ، والتى تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ لا هدف له ولا قوام ... فهذا فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة التى تكفن ميتتها باللهو ، وتوارى خمودها بالاستهتار ، ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة » .

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قال الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « الضمير الفاعل لـ ﴿ ٱلْقَوْلَ ﴾ يعود على النبى ﷺ ؛ لأنه المذكور قبل ذلك ؛ إذ هو الرسول الأخير الذى خاطب المشركين وأسروا له النجوى وخرجوا إليه بالطعن فيه وصرف الذين اتبعوه عنه ، فهو يبين فى هذا أن الذى يأتمرون به من نجوى أو جهر يعلمه الله وهو فى معنى التفويض إليه سبحانه ؛ لأنه رسوله الذى أرسله ، وكل كيد له هو لتعويق الرسالة فهو حافظه وكالئه ، وهو الذى يحمى الذين اتبعوه عن فتنة القول الذى يدبره هؤلاء المشركون » .

وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن ، فكانوا يلجؤون فى مقاومة تأثيره الطاغى إلى التعلات ، يقولون : إن محمدًا بشر ، فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر ، فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون ؟ !

عند ذلك وكل الرسول ﷺ أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله بنجواهم التى أداروها بينهم خفية ، وأطلعه على كيدهم الذى يتقون به القرآن ، وأثره ، فهو الذى يعلم القول فى السماء ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه ، فقالوا : إنه سحر ، وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها ، وقالوا : إنه شاعر ، وقالوا : إنه افتراه وزعم أنه وحى من عند الله ، وينتقلون من ادعاء إلى ادعاء حائرين ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التى جاء بها الأولون ، ولقد جاءت الخوارق من قبل وتكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين،فما بال هؤلاء سيؤمنون وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين.

واقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحى فيدعون به الناس وما كانوا إلا رجالا ذوى أجساد، وأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية،

وهم بحكم بشريتهم يكونوا خالدين ، وليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل إن كانوا هم لا يعلمون .

يقول صاحب الظلال : «لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم ، وسلوكهم العملى نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس ، فالكلمة الحية الواقعية هى التى تؤثر وتهدى ؛ لأن الناس يرونها ممثلة فى شخص مترجمة إلى حياة ، وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه ، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول ، لما بينه وبينهم من قطيعة فى الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله ، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة ، فالكلمة البسيطة التى يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل هى الكلمة المثمرة التى تحرك الآخرين إلى العمل ».

تلك سنة الله فى اختيار الرسل ، ومثلها سنته فى إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين ، فهى كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم ، وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيمانا حقيقيا يصدقه العمل ، فصدقهم وعده ، وأهلك الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

ثم أرسل إليهم كتابا يشرفهم ؛ لأنه بلغتهم ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة فى الأرض وذكر فى الناس، وهو مفتوح للعقول تتدبره ، وترتفع به فى سلم البشرية ، ومعجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التى تنقضى فى جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا ، فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية ، فتعرفه لهم وتذكرهم به ، ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قرونا طويلة ، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب ، حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلا للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون ، وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضرورة الاستعداد ليوم القيامة بالإيمان والطاعة قبل فوات الأوان .

٢ ـ على الداعية أن يصدق فعله قوله حتى لا تقف كلماته على أبواب الآذان .

٣ ـ باتباع القرآن يرتفع قدر الإنسان .

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

٣٢٣

معانى الكلمات :

قصمنا : أهلكنا .

أحسوا : أدركوا .

أترفتم : نعمتم .

حصيدا : مثل النبات المحصود .

خامدين : ميتين .

نقذف : نرمى .

فيدمغه : فيمحوه .

يستحسرون : يتركون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على عاقبة الظالمين .

٢ ـ أن نعلم أن الحق قائم والباطل إلى زوال .

٣ ـ أن نعلم أن وحدة النظام دالة على وحدة المنظم، ووحدة الوجود دالة على وحدة الموجد .

المحتوى التربوى :

لقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن ولا يأتيهم بالخارقة التى يطلبونها ، فلا يأخذهم وفق سنته القاصمة كالقرى التى كذبت فاستؤصلت ، وهنا يعرض مشهد حيًّا من القصم والاستئصال ، والقصم أشد حركات القطع ؛ فالدمار يحل بالديار والدَّيار ، والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور .

ثم ننظر فنشهد حركة القوم فى تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفئران فى المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود ، يسارعون بالخروج من القرية ركضا وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله ، كأنما الركض ينجيهم من بأس الله ، وكأنما هم أسرع عدواً فلا يلحق بهم حيث يركضون ، ولكنها حركة الفأر فى المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

عندئذ يتلقون التهكم المرير : لا تركضوا من قريتكم ، وعودوا إلى متاعكم الهنىء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح ، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟ ! وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب ، إنما هو التهكم والاستهزاء ! عند ذلك يفيقون فيشعرون بألا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط ، وأنه لا ينفعهم ركض ولا ينقذهم فرار ، فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار ، ولكن قد فات الأوان ، فليقولوا ما يشاؤون ، فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس ، وياله من حصيد آدمى لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة وتضطرب فيه الحياة .

ثم يربط السياق بين العقيدة التى سبق الحديث عنها ، وسننها التى تجرى عليها ، والتى تأخذ المكذبين بها ، يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ؛ فلقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعبا ولا لهواً ، ودبره بحكمة لا جزافا ولا هوى ، وبالجد الذى خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف ، فالجد أصيل فى طبيعة هذا الكون ، أصيل فى تدبيره ، أصيل فى العقيدة التى أرادها الله للناس ، أصيل فى الحساب الذى يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوًا لاتخذه من لدنه لهواً ذاتيا لا يتعلق بشىء من مخلوقاته الحادثة الفانية ، ولن يكون ، لأن الله ـ سبحانه ـ لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلا ، وإنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض .

وغلبة الحق وزهوق الباطل تجرى به السنة ويقتضيه الناموس ، فالحق قذيفة فى يد القدرة تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه فإذا هو زاهق هالك ذاهب ، هذه هى السنة المقررة ، فالحق أصيل فى طبيعة الكون ، عميق فى تكوين الوجود ، والباطل منفى عن خلقة هذا الكون أصلا ، طارئ لا أصالة فيه ولا سلطان له يطارده الله ويقذف عليه بالحق فيدمغه ، ولا بقاء لشىء يطارده الله .

يقول صاحب الظلال: « لقد يخيل للناس أحيانا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التى يقررها العليم الخبير ، وذلك فى الفترات التى يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب ، وإن هى إلا فترة من الزمان يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء ثم تجرى السنة الأزلية الباقية التى قام عليها بناء السماء والأرض ، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء ، والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك فى صدق وعده ، وفى نصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فيدمغه ، وإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينا من الدهر وعرفوا أنها الفتنة ، وأدركوا أنه الابتلاء ، وأحسوا أن ربهم يربيهم ؛ لأن فيهم ضعفا أو نقصا ، وهو يريد أن يعدهم لاستقبال

الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء .

ثم يعرض لهم نموذجا من نماذج الطاعة والعبادة فى مقابل عصيانهم وإعراضهم ، نموذجا ممن هم أقرب منهم إلى الله ، ومع هذا ، فالملائكة دائبون على طاعته وعبادته ، لا يفترون ولا يقصرون .

ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود فى نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد ، ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب ، ويأتى السؤال عن اتخاذهم آلهة سؤال استنكار للواقع منهم ، ووصف الآلهة بأنهم يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الآلهة .

وهناك الدليل الكونى المستمد من واقع الوجود ، فالكون قائم على الناموس الواحد الذى يربط بين أجزائه جميعا ، وهذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد ، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ، ولتعددت النواميس تبعا لها ولانعدمت الوحدة التى تنسق الجهاز الكونى كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق، هذا التناسق الملحوظ الذى لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وهم يصفون الله تعالى بأن له شركاء ، تنزه الله المتعالى المسيطر فهو رب العرش والعرش رمز السيطرة والملك والاستعلاء ، ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ، ومن الذى يسأله وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، فسبحانه هو أولى بألا يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ولا يجوز عليه خطأ،والذى يعلم كل شىء ويدبر كل شىء ويسيطر على كل شىء لا يسأل وغيره مسؤول.

وإلى جانب الدليل الكونى المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلى الذى يستندون إليه فى دعوى الشرك التى لا تعتمد على دليل ، فهذا القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ﷺ وذكر من سبقه من الرسل ، وليس فيما جاؤوا به ذكر الشركاء ، ولكنهم لا يعلمون فهم معرضون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الجد أصيل فى هذا الكون ، والجدية طبع فى المؤمن .

٢ ـ الحق قذيفة فى يد القدرة تتسلمها اليد المؤمنة عندما تستكمل النقص وتعالج الضعف .

٣ ـ الإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله تعالى .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ
بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ
ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ
ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٣٢٤

معانى الكلمات :

مشفقون : خائفون حذرون .

رتقا : متصلتين .

ففتقناهما : ففصلنا بينهما .

رواسى : جبالا ثوابت .

تميد : تضطرب .

فجاجا : طرقا .

فلك : مدار .

فتنة : امتحانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده والإيمان به وطاعته .

٢ ـ أن نقف على دقة النظام الإلهى وعظيم العلم والحكمة له سبحانه وتعالى .

٣ ـ أن نعلم العلة من وجود الخير والشر فى هذه الحياة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن التوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس ، لا تبديل فيها ولا تحويل ، توحيد الإله وتوحيد المعبود فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ، ولا مجال للشرك فى الألوهية ولا فى العبادة .

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً ، وهى إحدى مقولات الجاهلية السخيفة ، والذى يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب فى بنوة الملائكة ، وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة ، فهم ليسوا بنات الله ـ كما يزعمون ـ بل عباد مكرمون عند الله ، لا يقترحون عليه شيئا تأدبا وطاعة وإجلالا ، إنما يعملون بأمره لا يناقشون ، وعلم الله بهم محيط ، ولا يتقدمون

بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضى أن يقبل الشفاعة فيه ، وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته ، وهم لا يدعون الألوهية قطعا ، ولو ادعوها ـ جدلا ـ لكان جزاؤهم جزاء من يدعى الألوهية كائنا من كان ، وهو جهنم ، فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ولكل أحد ، ولكل شىء فى هذا الوجود ، وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله مشفقين من خشيته ، بينما المشركون يتطاولون ويدعون .

ثم يجول السياق بالقلب البشرى فى مجالى الكون الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب ، فالسموات والأرض الجميع كان متصلا بعضه ببعض متلاصقًا متراكمًا ، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعا والأرض سبعا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، لذا نبه أنه عز وجل جعل من الماء الحياة فأصل كل الأحياء منه ، ويستنكر ألا يؤمنوا بها ، وهم يرونها مبثوثة فى الوجود ، وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم .

ثم يمضى فى عرض مشاهد الكون الهائلة ، فيقرر أن هذه الجبال الرواسى تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب ، وهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها ، وذكر الفجاج فى الجبال ، وهى الفجوات بين حواجزها العالية ، وتتخذ سبلا وطرقا ، ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولا ، ثم يشير من طرف خفى إلى شأن آخر فى عالم العقيدة ، فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان كما يهتدون فى فجاج الجبال .

ويقرر القرآن أن السماء سقف محفوظ ، محفوظ من الخلل بالنظام الكونى الدقيق ، ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزا للعلو الذى تتنزل منه آيات الله ، ومحفوظ من التغير بالمؤثرات ، مهما تطاول الزمان والكافرون ، عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ؛ بالشمس والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ، على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به ، همه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ !

وقرئ ﴿ عَنْ ءَايَتِهَا ﴾ على التوحيد اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على الخالق معرضون .

ويقرر السياق أن الليل والنهار ظاهرتان كونيتان ، والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض وبالحياة كلها ، والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التى لا تختل مرة ، وبهذا الاطراد الذى لا يكف لحظة جدير بأن يهدى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير ؛ فقد خلق الليل فى ظلامه وسكونه ، والنهار بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر .

وجعل للشمس نورا يخصها وفلكا بذاته ، وزمانا على حدة ، وحركة وسيراً خاصا ، وجعل القمر بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ، وكل من الشمس والقمر فى فلك يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة .

وفى نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون فى خلقه وتكوينه وتصريفه ، ونواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها ؛ فكل حادث فهو فان ، وكل ما له بدء فله نهاية ، وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

ويقرر السياق موت الجميع فهذا هو الناموس الذى يحكم الحياة ، وهذه هى السنة التى ليس لها استثناء ، ولابد من استعراض هذه الحقيقة فى النفس، حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ، ثم تأتى نهايتها حتما ، يموت الصالحون ويموت الطالحون ، يموت المجاهدون ويموت القاعدون ، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق .

وأنَّ ما يصيب الإنسان فى أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنة له وابتلاء ، والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره عن الضرّ ، ومدى ثقته فى الله ، والابتلاء بالخيرا أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ، فكثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ولكنَّ قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جميع المخلوقات لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يقصرون فيها ، فليتعلم الإنسان أن يكون مثلهم .

٢ ـ الكون كتاب الله المشهود دليل لمن تدبره على الخالق الواحد الفرد الصمد .

٣ ـ الحياة فى الأرض موقوتة محدودة ، والعاقل من يقتنص بالدنيا الآخرة .

٤ ـ اليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر ، والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ (٤١) قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ
ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ (٤٢) أَمۡ
لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ
أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ (٤٣) بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤)

معانى الكلمات :

هزء : محل استهزاء .

عجل : استعجال .

آياتى : انتقامى .

يكفون : يمنعون .

بغتة : فجأة .

تبهتهم : تدهشهم .

يكلؤكم : يحرسكم .

يصحبون : ينصرون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على سخافة العقول الكافرة .

٢ ـ أن نقف على قدرة الله القاهرة .

٣ ـ أن نعلم أن طول العمر والرزق الواسع كثيراً ما يسبب الغرور لصاحبه .

المحتوى التربوى :

يرتد السياق إلى مثل ما بدأ به فى مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول ﷺ وما معه من الوحى ، واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك ، ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول ، واستعجالهم بالعذاب ، فيحذرهم ما يستعجلون به وينذرهم عاقبة والاستهزاء بالرسول ﷺ ، ويعرض لهم مشهداً من تقلص ظلال الغالبين المسيطرين فى الدنيا .

وهؤلاء الكفار يكفرون بالرحمن ، خالق الكون ومدبره ليستنكرون على الرسول ﷺ أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء ، بينما هم يكفرون بالرحمن دون أن يتحرجوا أو يتلوموا ، وهو أمر

عجيب جد عجيب ! وإنهم ليلقون رسول الله ﷺ بالهزء ، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك ، ولا يستكثرون على أنفسهم ـ وهم عبيد من عبيد الله ـ أن يكفروا به ، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن ، وهى مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذى أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور.

ثم هم يستعجلون بما ينذرهم به الرسول ﷺ من عذاب ، ويحذرهم من عاقبته ، والإنسان بطبعه عجول ، فالعجلة فى طبعه وتكوينه ، وهو يمد ببصره دائما إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان فى ذلك ضرره وإيذاؤه ، ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد ، الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا ، فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا ، لو يعلمون ما سيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم ، فلينظروا ماذا سيكون ، ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون فى حركة مخبلة يرسمها التعبير من وراء السطور أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون ، وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب فلا هم يستطيعون ردها ، ولاهم يؤخرون عنها ، ولاهم يمهلون إلى أجل قريب .

وهذه المباغتة جزاء الاستعجال ولقد كانوا يستعجلون العذاب أيضا فكان الرد هو هذه البغتة التى تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنكار والتأجيل ، وذلك عذاب الآخرة فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم ، فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع ، وليحذروا الاستهزاء برسولهم ، وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف ، جرت به السنة التى لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمن ، ويمنعهم من العذاب فى الدنيا أو الآخرة من دون الله ، فالله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار ، وصفته هى الرحمة الكبرى وليس من دونه راع ولا حام ، فاسألهم : هل لهم حارس سواه ؟

وهو سؤال للإنكار وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذى يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعى لهم سواه ، ومع هذا لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته

وآلائه ، ثم يعيد عليهم السؤال فى صورة أخرى فهل هناك آلهة تمنعهم وتكلؤهم من دوننا ؟ فتكون هى التى تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة التى استندوا إليها لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم ، وهؤلاء لا يصحبون من الله بخير ، فيستمدون القوة من صحبة القدرة لهم كما استمدها هارون وموسى من قبل .

إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ، وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة ، فهى عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهكمى الذى يكشف عن سخف ما يعتقده المشركون وخوائه من المنطق والدليل ، يضرب السياق عن مجادلتهم ويكشف عن علة لجاجتهم ، ثم يلمس وجدانهم لمسة تهز القلوب وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهى تطوى رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيزٍ منها منزوٍ صغير بعد السعة والمنعة والسلطان .

ثم يبين السياق أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ، ونعموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد ، لا تأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون ، فهو المتاع الطويل الموروث الذى أفسد فطرتهم ، والمتاع ترف ، والترف يفسد القلب ويبلد الحس ، وينتهى إلى ضعف الحساسية بالله وانطماس البصيرة دون تأمل آياته ، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائما بالله فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذى يقع كل يوم فى جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقلص ، فإذا هى دويلات صغيرة ، وكانت إمبراطوريات فإذا هى مغلوبة على أمرها وكانت غالبة ، وإذا هى قليلة العدد وكانت كثيرة ، قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات ، والتعبير يرسم يد القدرة وهى تطوى الرقعة وتنقص الأطراف وتزوى الأبعاد ، فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة وفيه الهبة المخيفة ، ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فلا يجرى عليهم ما يجرى على الآخرين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أهل الباطل يتبعون ما لا ينفع ويستهزئون بالحق ، وعلى المسلم الصمود والثبات .

٢ ـ الله يمهل الظالمين حتى إذا أخذهم لم يفلتهم .

٣ ـ المتاع الزائد والترف المفرط يفسد القلب ، ويبلد الحس ويبعد عن سبيل الهداية .

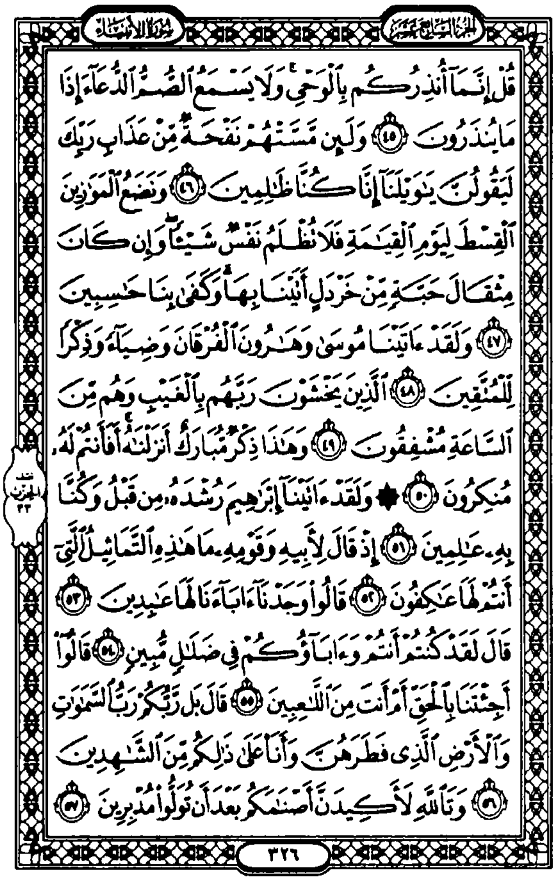
الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا
ما ينذرون ﴿٤٥﴾ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك
ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿٤٦﴾ ونضع الموازين
القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان
مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين
﴿٤٧﴾ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا
للمتقين ﴿٤٨﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من
الساعة مشفقون ﴿٤٩﴾ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له
منكرون ﴿٥٠﴾ ۞ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا
به عالمين ﴿٥١﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي
أنتم لها عاكفون ﴿٥٢﴾ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴿٥٣﴾
قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴿٥٤﴾ قالوا
أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴿٥٥﴾ قال بل ربكم رب السماوات
والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين
﴿٥٦﴾ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴿٥٧﴾

الحزب ٣٣

٣٢٦

معانى الكلمات :

أنذركم : أخوفكم .

نفحة : دفعة قليلة .

نضع : نقيم .

يخشون : يخافون .

مشفقون : خائفون .

منكرون : مكذبون .

عاكفون : مقيمون .

فطرهن : خلقهن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ضعف الإنسان ، وأنه لا يتحمل العذاب .

٢ ـ أن نقف على صفات المتقين .

٣ ـ أن نتعرف على خطورة التقليد وأنه سبب لفساد كبير .

المحتوى التربوى :

يؤمر الرسول ﷺ أن يلقى كلمة الإنذار فى هذا السياق ؛ ليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون ، فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتقص يد القدرة أطرافهم ، وتتحيفهم وما هم فيه من متاع .

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر فى القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب ؛ وإن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف ، ولكن حيث لا يجدى الاعتراف ، فلقد سبق فى سياق السورة مشهد القرى التى أخذها بأس الله ، فنادى أهلها أنهم كانوا ظالمين

لأنفسهم ، وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان ، ولخير منه أن يسمعوا تدبير الوحى ، وفى الوقت متسع قبل أن تمسهم نفحة من العذاب .

ويختم الشوط بالإيقاع الأخير من مشاهد يوم الحساب ، فيتم وضع الموازين العدل ليوم القيامة لتوزن بها صحائف الأعمال ، هذه الموازين لا تترك أصغر ما تراه العيون ، وأخفه فى الميزان يوم الحساب ولا تضيع ، والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل .

فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، وليصغ قلب إلى النذير ، وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير فى الدنيا أو فى الآخرة ، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا ، فهناك عذاب الآخرة الذى تعد موازينه ، فلا تظلم نفس شيئا ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل ، وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة بنواميس الكون الدقيقة بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس ، وتلتقى كلها متناسقة موحدة فى يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد ، وهى محور السورة الأصيل .

ويستعرض السياق أمة الرسل لا على وجه الحصر ، يشير إلى بعضهم مجرد إشارة ، ويفصل ذكر بعضهم تفصيلا مطولا ومختصرا ، وتتجلى فى هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات ، كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضر ، كيف اجتازوا الابتلاء ، وكذلك تتجلى سنة الله فى إرسال الرسل من البشر ووحدة العقيدة والطريق لجماعة الرسل على مدار الزمان ، حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان ، وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذى يربط سنن الله فى الكون ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعا وجهة واحدة إلى معبود واحد .

ويكشف السياق للمشركين أن إرسال الرسل من البشر هى السنة المطردة ، ويذكر نماذج لها من قبل ، وأن إنزال الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة ، فها هما ذان موسى وهارون آتاهما الله كتابا ، ويسمى هذا الكتاب الفرقان ، وهى صفة القرآن ، فهناك وحدة حتى فى الاسم ، ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين منهج فى الحياة ومنهج، واتجاه فى الحياة واتجاه ، فهى فى عمومها فرقان ، وفى هذه الصفة تلتقى التوراة والقرآن .

وجعل التوراة ضياء يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل ، وجعل التوراة كالقرآن فهى تذكر المتقين بالله ، وتبقى لهم ذكرا فى الناس ، ويخص المتقين الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ، ولم يروه ويخافون ساعة فيعملون لها ويستعدون هؤلاء ، هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسيرون على هداه ، فيكون كتاب الله لهم ذكراً يذكرهم بالله ، ويرفع لهم ذكرا فى

الناس ، وذلك شأن موسى وهارون والقرآن ذكر مبارك أنزله الله فليس بدعا ولا عجبا ، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة ، فماذا تنكرون منه ، وقد سبقت به الرسالات ؟

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وتبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد ، ويعنى به الهداية إلى التوحيد ، فهذا هو الرشد الأكبر الذى تنصرف إليه لفظة الرشد فى هذا المقام ، وكان الله عالما بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التى يحملها المرسلون ، وكانت قولته لأبيه وقومه دليل رشده ، فقد استنكر أن يعكفوا على حجارة وخشب بالعبادة ، وكلمة عاكفون تفيد الانكباب الدائم المستمر ، وهم لا يقضون وقتهم كله فى عبادتها ، ولكنهم يتعلقون بها .

وكان جوابهم وحجتهم تدل على التحجر العقلى والنفسى داخل قوالب التقليد الميتة فى مقابل حرية الإيمان ، وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، فالقيم تنبع من التقويم المتحرر الطليق ، وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة فى التقدير والصراحة فى الحكم ، راحوا يسألونه : ما جئت به حق أم أنت تلعب بنا ؟

أما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له فى خاطره وفكره ، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه ؛ فهو رب واحد ، رب الناس ورب السموات والأرض ، ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق فهما صفتان لا تنفكان ، إنه واثق وثوق الذى يشهد على واقع لا شك فيه ، وإبراهيم ﷺ لم يشهد خلق السموات والأرض ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه ، ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين ، إن كل ما فى الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر وإن كل ما فى كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر ، وبوحدة الناموس الذى يدبر الكون ويصرفه .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار ، أنه قد اعتزم فى شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه ، ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهمًا لا يفصح عنه ، ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه ، ولعلهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيداً فتركوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ حب الشيء يعمى ويصم صاحبه فلا يرى إلا ما أحب ولا يسمع إلا ما أهوى ، فليحذر المسلم أن يكون حبه على ضلال .

٢ ـ الرسل رسالتهم واحدة ، والمؤمنون أصحاب طريق واحدة .

٣ ـ الإيجابية صفة المصلحين والعاقل من يرى مواطن الخلل ويحاول علاجها .

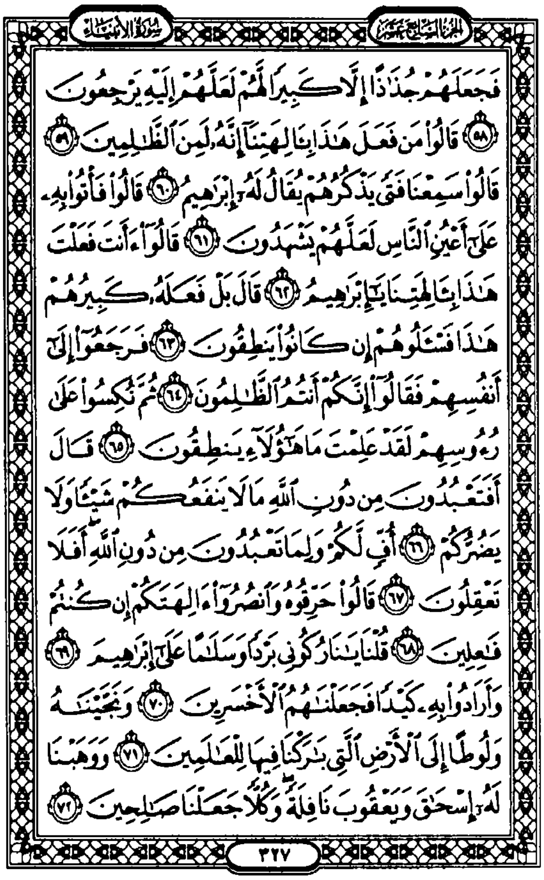
الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون
﴿٥٨﴾ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴿٥٩﴾
قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴿٦٠﴾ قالوا فأتوا به
على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴿٦١﴾ قالوا أأنت فعلت
هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴿٦٢﴾ قال بل فعله كبيرهم
هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴿٦٣﴾ فرجعوا إلى
أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴿٦٤﴾ ثم نكسوا على
رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴿٦٥﴾ قال
أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا
يضركم ﴿٦٦﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا
تعقلون ﴿٦٧﴾ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم
فاعلين ﴿٦٨﴾ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴿٦٩﴾
وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴿٧٠﴾ ونجيناه
ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴿٧١﴾ ووهبنا
له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ﴿٧٢﴾

٣٢٧

معانى الكلمات :

جذاذاً : قطعا .

يذكرهم : يعيبهم .

فأتوا : أحضروا .

على أعين الناس : أمامهم .

نكسوا : رجعوا .

أف : كلمة غضب .

نافلة : زيادة عما سأل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التغيير له مراتب أولها التغيير الفعلى الذى يعتمد على الإصلاح .

٢ ـ أن نقف على قوة حجة إبراهيم عليه السلام .

٣ ـ أن نتعلم أن باب الفرج قوة اليقين .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن إبراهيم عليه السلام حطم الآلهة المعبودة وحولها إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام ، فقد تركه إبراهيم لعلهم إذا رجعوا إليه يسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر ، فلم يدفع عن صغار الآلهة ، ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما فى عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ، ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها إن كانت هذه آلهة ، فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئا ، وهذا كبيرها لم يدفع عنها ؟ ولكنهم لم يسألوا أنفسهم لأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر ، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعى لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع .

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها ، وكان فتى حديث السن فى ذلك الحين وقد قصدوا إلى التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد ، فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة ، فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم ، وهو فرد وحده وهم كثير ؛ ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلى الدون : فهذه التماثيل المحطمة لا تدرى من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذى لا يملك مثلها حراكا ، فهى جماد لا إدراك له أصلا ، واسألوهم إن كان ينطقون .

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر ، وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما فى موقفهم من سخف ، وما فى عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذى يأخذون به أنفسهم ، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود ونكسوا على رؤوسهم، وكان قولهم الأخير حجة عليهم ، وأى حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم ؛ لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم ، فكيف يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، لما يعبدونها أفلا يتدبرون ما هم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ؟ !

عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجؤون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ ، وقالوا : لتنصروا الآلهة التى تعبدون فأحرقوه، ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد ذلك أنها الكلمة العليا التى لا ترد ، فكانت النار التى أشعلوها بردا وسلاما على إبراهيم ، فكانوا هم المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيدا فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

وهكذا عندما يقف الباطل حاسرا أمام حجة الحق يلتفت يمنة ويسرة فلا يمسك إلا بجبروته الخائر وقوة شيطانه الضعيف لا ليقارع الحجة بالحجة والبيان بالبيان ، بل ليكمم الأفواه التى انطلقت من ألسنتها قذائف الحق ، ويقضى على جسم احتوى بين جنباته روحا ترفرف فى ساحة الصدق ، وما كان لأهل الباطل أن تضيق صدورهم وتغتاظ نفوسهم ، وتأخذهم عزتهم بالإثم إلا لأنهم يفتقدون حجتهم المدحضة بقذيفة الحق الدامغة .

وأهل الحق رجال استخلصهم الله لنفسه ، فسرى الحق واختلط بدمائهم وهوائهم ، فارتقت نفوسهم على شوائب الدنيا وسخافة الأهواء ، فنطقوا بلسان الحق وهم يعلمون ضجة الألسنة التى أمسكت بسيوف ظنت أنها تخيف ، نطقوا بلسان اتصلت كلمته بكلمة الله القاهر القادر ، وما كان لله أن يدع لكلمة اتصلت بكلمته ولا صاحبها أن تستذل أو تهان أو تمس بأقل سوء .

وقوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ **يعلق عليه الشيخ أبو زهرة قائلا :** « ومساق الكلام لا يدل على أنها أطفئت بريح شديدة ، ولا مطر انهمر عليها ، ولكنها المعجزة أنها بقيت متوهجة ولم تحرقه، فالله تعالى أزال عنها خاصة الحرق بالنسبة لإبراهيم، ومنعت من أن يصل أذاها إليه، كأن بجسمه موانع ما نعة وحائلا يحول بينه وبينها .

نجا إبراهيم ﷺ بهذه الكعجزة الباهرة ، وكان فيها معنى التحدى ؛ للأنهم أرادوا الغلب والانتصار لآلهتهم فلم يؤذ ولا ها بها ، وكان ذلك إعجازًا ، وكان حقا عليهم من قبل ومن بعد أن يذعنوا ، ولكن غلبت عليهم شقوتهم » .

وكانت نجاة الله لإبراهيم ﷺ من الكيد الذى أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة وخروجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام ، وكان معه ابن أخيه لوط ﷺ فكانت مهبط الوحى فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم ، وفيها الأرض المقدسة ، وأولى القبلتين وثانى الحرمين ، وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل .

لقد ترك إبراهيم ﷺ وطنا وأهلا وقومًا ، فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيراً من وطنه ، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيراً من قومه .

وهكذا تأتى السعة من حيث يتيقن الضيق ، وكثيرًا ما يغفل الغافلون فيقيسون أمورهم بمقاييس حياتهم ، فيسيرون فى الحياة بالحياة فإذا بها تنكسهم على رؤوسهم وتقلبهم على ظهورهم ، وتجبههم على وجوههم ، يتخبطون خبط عشواء فأمسوا إرادة من إرادات الحياة الخاسرة ، وما كانت الحياة لتترك يوما غفلا من إرادة الله القاهر فوق عباده ، فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية ، وإن هى إلا لفتة صغيرة فإذا هى تحيى ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهى الشر المستطير ، ولكن أنى يعلم هذا من كان فى إيمانه قصور، وفى قلبه ضعف ، ومن كان صغير النفس، أصم الأذن عمى العين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ تغيير المنكر باليد مقدم على تغييره باللسان والجمع بينهما أفضل .

٢ ـ العاقبة تلحق الحق وأتباعه وعلينا أن نستمسك به .

٣ ـ قوة التوكل على الله تفرج الكربات وتيسر الأمور .

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾

٣٢٨

معانى الكلمات :

حكما : نبوة .

الخبائث : الأعمال القبيحة .

فى رحمتنا : فى الجنة .

الكرب العظيم : الطوفان .

نفشت : انتشرت .

سخرنا : ذللنا .

لبوس : دروع .

لتحصنكم : لتحميكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف القائمين بها .

٢ ـ أن نعلم أن الخبث إذا كثر فى الأمة استوجبت الهلاك والدمار .

٣ ـ أن نتعرف على بعض نعم الله على أنبيائه وخلقه .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن الله جعل من نسل إبراهيم عليه السلام أئمة يهدون الناس بأمر الله ، وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة طائعين لله عابدين ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التى قسمها الله لإبراهيم لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

وتأتى قصة لوط مشارا إليها مجرد إشارة ، وقد صحب عمه إبراهيم من العراق إلى الشام ، وأقام فى قرية سدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، وهى إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء

أو تحرج ، فأهلك الله القرية وأهلها ، فقد كانوا أهل فساد وشر ، وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته ، وأدخله فى رحمته وكأنما الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

ويشير إلى نوح إشارة سريعة لا تفصيل فيها ، وهى إشارة لإثبات استجابة الله لنوح ﷺ حين ناداه من قبل ، وهو سابق لإبراهيم ولوط ، ولقد أنجاه الله وأهله كذلك إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو الكرب العظيم .

ثم يفصل بعض الشىء فى قصة داود وسليمان ، ويذكر قصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان ، تقول الرواية فى تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أى حقل ، وقيل : حديقة كرم ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى ـ أى انطلقت فيه ليلا ـ فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل حرثه ، ومر صاحب الغنم بسليمان ، فأخبره بقضاء داود فدخل سليمان على أبيه فقال : يا نبى الله ، إن القضاء غير ما قضيت فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى حكم سليمان .

وكان حكم داود وسليمان فى القضية اجتهادا منهما ، وكان الله حاضراً حكمهما ، فألهم سليمان حكما أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب ، ولقد اتجه داود فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث وهذا عدل فحسب، ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، ولقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم .

قال القاسمى : « استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له » .

ثم يعرض السياق ما اختص به كلاً منهما ، فيبدأ بالوالد ، وقد عرف داود ﷺ بمزاميره ، وهى تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتتجاوب أصداؤها حوله ، وترجع معه الجبال والطير .

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ، وينبض قلب الوجود معه ، وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التى تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها فى ضمير الكون وحقيقته ، وفى لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها فى الكل، واحتوائها على الكل ، فكل ما حولها مندمج فيها وهى مندمجة فيه .

ومن النص القرآنى نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة المتحيزة ، وتهيم روحه فى ظلال الله فى هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء ، فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه ، وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده ، وما يفقهه إلا من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها إلى الله ، فما هنالك شيء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد ، يستوى أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف .

والله يمن على الناس أن علم داود صناعة الدروع حلقا متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة ، والزرد المتداخل أيسر استعمالا وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذى ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله لوقايتهم فى الحرب ، وهو يسألهم سؤال توجيه وتخصيص هل يشكرون ؟

ذلك شأن داود ، فأما شأن سليمان فهو أعظم ، والنص القرآنى هنا يقرر تسخير الريح وهى عاصفة لسليمان ، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وهى فى الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة فى قصة إبراهيم فكيف كان هذا التسخير ؟

الأسلم أن تفسير تسخير الريح بتوجيهها بأمر الله إلى الأرض المباركة فى دورة تستغرق شهراً طرداً وعكسا ... كيف ؟ سؤال لا يجب أن يرد فالقدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟ وكلمة ﴿ وَكُنَّا ﴾ هى الكلمة الواحدة التى تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول مألوفا للبشر أو غير مألوف ، والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل ، ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور ، فالمسيطر على الوجود كله صاحب قدرة طليقة لا تخضع لحدود أو مقاييس .

وما يرد من قصة بساط الريح الذى قيل : إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام فى فترة وجيزة ، وهى مسافة كانت تقطع فى شهر على الجمال ثم يعود كذلك ، ولكن القرآن لم يذكر شيئا عن بساط الريح ذاك ، ولم يرد ذكره كذلك فى أى أثر مستيقن وأولى بنا أن نعيش فى ظل النص القرآنى ولا نتعداه إلا إلى أثر قد ثبت .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ثناء الله تعالى على الدعاة إلى الله فيه حث للمسلم أن يكون فى صفوفهم .

٢ ـ البعد عن المعاصى ، فالشر إذا استفحل أنذر بالعذاب .

٣ ـ إذا أخطأ المجتهد فهو مغفور له ، مأجور على اجتهاده .

ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا
دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴿٨٢﴾ وأيوب إذ
نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴿٨٣﴾
فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله
ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴿٨٤﴾
وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين
﴿٨٥﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين
﴿٨٦﴾ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه
فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين ﴿٨٧﴾ فاستجبنا له ونجيناه
من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿٨٨﴾ وزكريا
إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين
﴿٨٩﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا
له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات
ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴿٩٠﴾

٣٢٩

معانى الكلمات :

حافظين : راعين مراقبين .

نادى : دعا .

مسنى الضر : أصابنى المرض .

مغاضبا : غضبان .

نقدر : نضيق .

تذرنى : تتركنى .

رغباً ورهبا : رجاء فى الثواب وخوفا من العقاب .

خاشعين : خاضعين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على مقامى الصبر والشكر وعاقبتهما .

٢ ـ أن نتعلم من سير الصالحين المواعظ والعبر .

٣ ـ أن نعلم أن الأعمال الصالحة سبيل النجاة فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

ويتابع السياق ذكر ما أنعم الله تعالى على سليمان عليه السلام من تسخير الجن له ليغوصوا فى أعماق البحر أو أعماق اليابسة ، ويستخرجوا كنوزها المخبوءه لسليمان ، أو ليعملوا له أعمالا غير هذا وذاك ، فالجن كل ما خفى ، وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقًا يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ، وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده ، وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وتجىء إلى الابتلاء بالضراء فى قصة أيوب عليه السلام ، وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء ، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل ، وهى فى هذا الموضوع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء ؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم فى الابتلاء .

وأيوب فى دعائه لا يزيد على وصف حاله أنه مسه الضر ، ووصف ربه بصفته فهو أرحم الراحمين ، ثم لا يدعو بتغيير حاله صبراً على بلائه ، ولا يقترح شيئا على ربه تأدبا معه وتوقيراً ، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضر الذى تضرب به الأمثال فى جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

وفى اللحظة التى توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء ؛ فإذا هو معافى صحيح ، وعوضه عمن فقد من أهله ورزقه مثلهم ، وكل نعمة فهى رحمة من عند الله ومنة ، وذكرى تذكرهم بالله وبلائه .

يقول صاحب الظلال : « والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها ، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء ، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان ، والأمر جد لا لعب ، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء ، ولابد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء » .

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل ، ويشير إلى عنصر الصبر فى قصص هؤلاء الرسل ، ولنعلم أنهم كانوا من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذى يستحق التسجيل فى كتاب الله الباقى ، والنص القرآنى يكفى فى هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لهم وأن الله تعالى أدخلهم فى رحمته لصلاحهم .

ثم تجىء قصة يونس عليه السلام وهو ذو النون ، وسمى ذا النون لأن الحوت التقمه ثم نبذه ، وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدراً وغادرهم مغاضبا لهم ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ، ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض فهى فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون ، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه إلى قوم آخرين ، وقاده غضبه الجامح إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها ، حتى إذا كانت فى اللجة ثقلت ، وكان لابد من إلقاء أحد ركابها فى البحر ، فساهموا فجاء السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه فالتقمه الحوت ، فلما كان فى الظلمات ظلمة الليل والبحر وجوف الحوت نادى ربه ودعاه ، فنجاه الله من الغم ، ولفظه الحوت على الساحل .

يقول صاحب الظلال : « أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا .

ولكن بعض تكاليف الرسالة ، فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدؤوا فيها ويعيدوا ، إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ،

فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة ، وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .

إن طريق الدعوات ليس هينا لينا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، ومن السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدئ الأعصاب ، ولكن أين هى الدعوة وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ ! إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية ، فليضق صدره ، ولكن ليكظم ويمض ، وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون ، إن الداعية أداة فى يد القدرة والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو والبقية على الله ، والهدى هدى الله ، وإن فى قصة ذى النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه ، وفى رجوعه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها ، وفى رحمة الله له واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين .

ثم أشار إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام،واستجابة الله لزكريا عندما دعاه أن يهب الولد، ولا ينسى زكريا ﷺ أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال ، فهو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله ، وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة ، وكانت هبة الله مع كون الزوج عقيما لا تصلح للنسل ، وسارع الله فى استجابة الدعاء لأنهم كانوا بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها ، وفى رحمة الله له واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين » .

ثم أشار إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، واستجابة الله لزكريا عندما دعاه أن يهبه الولد ، ولا ينسى زكريا عليه السلام أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال ، فهو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله ، وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة ، وكانت هبة الله مع كون الزوج عقيما لا تصلح للنسل ، وسارع الله فى استجابة الدعاء لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعون رغبة فى الرضوان ورهبة للغضب ولم يكونوا متكبرين ولا متجبرين بل خاشعين ، فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من أسباب الفرج دعاؤه تعالى والابتهال إليه والتضرع له .

٢ ـ أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها وأن يصبروا عليها .

٣ ـ الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية .

٤ ـ قوة الصلة مع الله قوة لصاحبها .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

٣٣٠

معانى الكلمات :

أحصنت فرجها : صانت عرضها .

تقطعوا أمرهم : تفرقوا فى دينهم .

حرام : ممتنع .

حدب : مرتفع .

ينسلون : يأتون مسرعين .

شاخصة : مرتفعة لا تطرف .

ويلنا : هلاكنا .

حصب جهنم : وقودها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن أمتنا أمة واحدة يجب الحفاظ على وحدتها .

٢ ـ أن نعلم أن ما حدث للبشرية هو من تمزيق الدين بينها بحسب الأهواء والأطماع والأغراض .

٣ ـ أن نعلم وعد الله لأهل الإيمان والعمل الصالح بالجزاء الحسن وهو الجنة .

المحتوى التربوى :

يختم السياق بذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عيسى ﷺ ، ولا يذكر هنا اسم مريم ؛ لأن المقصود فى سلسلة الأنبياء هو ابنها ﷺ ، وقد جاءت هى تبعا له فى السياق ، إنما يذكر صفتها المتعلِّقة بولدها وقد أحصنت فرجها فصانته من كل مباشرة ، والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ؛ لأن الزواج يحصن من الوقوع فى الفاحشة ، أما هنا فيذكر فى معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية ، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به

اليهود مع يوسف النجار الذى كان معها فى خدمة الهيكل والذى تقول عنه الأناجيل المتداولة : إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

وما حدث آية غير مسبوقة ولا ملحوقة ، آية فذة واحدة فى تاريخ البشرية جميعا تكفى لتتأملها البشرية فى أجيالها جميعا، وتدرك يد القدرة الطليقة التى تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

وفى نهاية الاستعراض الذى شمل نماذج من الرسل ونماذج من الابتلاء ونماذج من رحمة الله ، ويعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض ، وهو أن أمتكم ، أمة الأنبياء ، أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة ، وتنهج نهجا واحدا هو الاتجاه إلى الله دون سواه ، أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء لا إله غيره ولا معبود بحق إلا إياه ، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء .

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التى تقوم عليها الرسالات ، فقد تقطع أتباعه أمرهم بينهم ، كلما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها ، وثار بينهم الجدل وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء ، وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضا باسم العقيدة والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة .

لقد تقطعوا أمرهم بينهم فى الدنيا ، ولكنهم جميعا سيرجعون إلى الله فى الآخرة ، وهو الذى يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال ، ولا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان ، وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شئ ولا يغيب ، وهذا هو قانون العمل والجزاء،ولابد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته بل ليثبت للعمل الصالح وجوده ، ولابد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته بل لتثبت للإيمان حقيقته ، فالإيمان هو قاعدة الحياة ؛ لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التى تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، ولابد من القاعدة ليقوم البناء ، والعمل الصالح هو هذا البناء .

يقول صاحب الظلال : « يقرن القرآن دائما بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر ، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان ، والعمل الطيب الذى لايصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ؛ لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم » .

والجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه قسط فى الدنيا ، فالقرى التى هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتما لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة فهى راجعة

بكل تأكيد ، ويفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : إن الكل سيرجع إلى الله ؛ لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها فى الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها ، فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفى عدم الرجعة نفيا قاطعا فى صورة التحريم لوقوعه .

ثم يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يبدؤه بالعلامة التى تدل على قرب الموعد وهو فتح يأجوج ومأجوج ، والمقصود هنا وصف ذلك اليوم حين يجىء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هى تدفق يأجوج ومأجوج ، هى تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب فى سرعة واضطراب على طريقة القرآن الكريم فى الاستعانة بمشاهدات البشر والترقى بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية .

وفى المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التى تبهت المفجوئين ، فالذين كفروا لا تطرف من الهول أبصارهم الذى فوجئوا به ، ويقدم فى التعبير كلمة شاخصة لترسم المشهد وتبرزه ، ثم يميل السياق ، عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون ، وبذلك يحيى المشهد ويستحضره ، فيفجع المفجوء ، الذى تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ؛ فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ولكن بعد فوات الأوان .

وحين يصدر هذا الاعتراف فى ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذى لا مرد له ، وكأنما هم اللحظة فى ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ، وكأنما هم يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولا أناة ، وكأنما تحصب بهم حصبا كما تحصب بالنواة ، وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع المشهود .

هذا البرهان برهان وجدانى ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم فى الدنيا ، وكأنما هو واقع فى الآخرة ، ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلا ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور حالهم هناك وهى حال المكروب المذهوب بإدراكه من هول ما هو فيه ، فلهم زفير تنتقع منه الضلوع ، ولا يسمعون من الهول وشدة العذاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على المسلم الحفاظ وسيلة على وحدة الصف المسلم .

٢ ـ لابد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، ولابد من العمل الصالح حتى يكون للإيمان ثمرته .

٣ ـ الجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه جزء فى الدنيا .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا
لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ
رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الْحَجِّ

معانى الكلمات :

حسيسها : صوت لهيبها .

تتلقاهم : تستقبلهم .

السجل : الصحيفة .

الزبور : من الكتب المنزلة .

الذكر : اللوح المحفوظ .

بلاغا : كفاية .

آذنتكم : أعلمتكم .

فتنة : امتحان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن وراثة الأرض لعباد الله الصالحين .

٢ ـ أن نقف على حكمة إرسال الرسول ﷺ .

٣ ـ أن نتعلم كيفية المفاصلة بين أهل الشرك وأهل التوحيد .

المحتوى التربوى :

يدع السياق حال الكافرين لنجد المؤمنين فى نجوة من هذا كله قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة من سماع صوت النار وهى تسرى وتحرق فضلا على معاناته ، نجوا من الفزع الأكبر الذى يذهل المشركين ، وعاشوا فيما تشتهى أنفسهم من أمن ونعيم ، وتتولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم فى جو الفزع المرهوب .

ويختم المشهد بمنظر الكون الذى آل إليه، وهو يشارك فى تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها فى ذلك اليوم العصيب ، فإذا السماء مطوية كما يطوى خازن الصحائف

صحائفه ، وقد قضى الأمر وانتهى العرض ، وطوى الكون الذى كان يألفه الإنسان ، وإذا عالم جديد وكون جديد ، يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديداً كما بدأهم وهو القادر على ذلك .

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء فى الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله فى وراثة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عباده فى الحياة الذين جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة حتى ولو تملكها إلى حين بعض الطغاة والظالمون .

يقول صاحب الظلال : « لقد استخلف الله آدم فى الأرض لعمارتها وإصلاحها وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها فى علم الله ، ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا للعمل على وفقه فى هذه الأرض ، منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح ، فى هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود ، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ؛ ليبلغ للإنسان كماله المقدر له فى هذه الحياة .

وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة ، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة ، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلال ماديا ، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق ، والوراثة الأخيرة هى للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح ، فلا يفترق فى كيانهم هذان العنصران ولا فى حياتهم ، وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل فى أمة فهى الوارثة للأرض فى أية فترة من فترات التاريخ » .

وتختم السورة بأن فى هذا القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة ، ومن مصائر الناس فى الدنيا والآخرة ، ومن قواعد العمل والجزاء .. إن فى هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله ، ويسميهم عابدين ؛ لأن العابد خاشع القلب طائع متهيئ للتلقى والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدى إلا أولئك المتهيئون المستعدون ، وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين وغير المؤمنين ، ولقد جاءت هذه الرسالات للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلى ، جاءت كتابا مفتوحا للعقول فى مقبل الأجيال شاملا لأصول الحياة البشرية التى لا تتبدل ، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التى يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضح هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة ، وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق ، لا يعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد ، ولا يقيد

طاقات الفرد ، ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذى حياة الجماعة أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

ولقد كانت رسالة محمد ﷺ رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده ، فقد جاء الإسلام لينادى بإنسانية واحدة ، وسوى بين جميع الناس أمام القضاء والقانون ، وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية ، وأن محمداً ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين من آمن به، ومن لم يؤمن به، على السواء ، فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذى جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة ، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية فى هجير الأرض المحرق وبخاصة فى هذه الأيام .

وبعد إبراز معنى الرحمة يؤمر الرسول ﷺ بأن يواجه المكذبين المستهزئين بخلاصة رسالته ، وهو التوحيد المطلق الذى ينقذ البشرية ويكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحنى الرؤوس إلا لله الواحد القهار ، فهل بعد هذا تسلمون ؟ وهذا هو السؤال الواحد الملقى عليهم ، ويعلنهم أنه قد نفض يده منهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم إن تولوا ، وليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون ، وليس يدرى متى يحل بهم ما يوعدون فهو غيب من غيب الله لا يعلمه إلا الله ، فهو يعلم سركم وجهركم وأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه ، وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله ، فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء فيمتعكم إلى أجل ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

وإن القلب البشرى ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع فينسى الإنسان وهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة ، ويعذر إليها بين يدى الله قبل فوات الأوان .

وهنا يتوجه الرسول إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ويستعين على كيدهم وتكذيبهم وهو وحده المستعان ، والكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لبلوغ الوراثة للأرض لابد من الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

٢ ـ فى القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة كفاية لمن أراد التأثير فى الحياة .

٣ ـ جاءت الرسالة الخاتمة لتنادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية لتلتقى فى عقيدة واحدة ، ونظام اجتماعى واحد .

الجزء السابع عشر — سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ
سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ
﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ
وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي
رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ
وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلٗا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ
بَعْدِ عِلْمٖ شَيْـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

٣٣٢

سورة الحج

معانى الكلمات :

زلزلة الساعة : أهوال القيامة .

تذهل : تغفل .

سكارى : مدهوشين .

مريد : طاغ .

كتب عليه : قدر عليه .

علقة : دم متجمد .

مضغة : قطعة لحم كالممضوغة .

هامدة : لا زرع فيها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حرمة الجدال بالباطل لإدحاض الحق وإبطاله .

٢ ـ أن نعلم أن موالاة الشياطين واتباعهم يفضى بالمتابع إلى عذاب السعير .

٣ ـ أن نقف على أطوار خلق الإنسان ودلالتها على قدرة الله وعلمه وحكمته .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بالنداء العام ، نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ووصف الهول المصاحب لها فى مطلع عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف لهوله القلوب ، فهو يدعو الناس جميعا إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب ، وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذى يلقى ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة ، وإن الزلزلة شىء عظيم من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ فى التفصيل فإذا هو أشد رهبة من التهويل ، مشهد حافل لكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعى ، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر فى نظرتهم الذاهلة ، وفى خطواتهم المترنحة ، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، فالعذاب شديد ، والمطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب .

فى ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتطاول فيجادل فى الله ، ولا يستشعر تقواه ، فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار ترابا ، ونحو ذلك من الأباطيل ، ويتبع فى جداله كل عاتٍ متمرد ، كرؤساء الكفار الصادين عن الحق ، والشيطان مقدور عليه أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة .

أم إن الناس فى ريب من البعث ؟ وفى شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون فى إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا فى أنفسهم ، وفى الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل فى أنفسهم وفى الأرض غافلين ، والبعث إعادة لحياة كانت ، فهو فى تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة ، وإن لم يكن ـ بالقياس إلى قدرة الله ـ شىء أيسر ولا شىء أصعب ، فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة ، ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم كل لحظة ويمر بهم فى كل برهة .

فما هؤلاء الناس ؟ وما هم ؟ من أين جاؤوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفى أى الأطوار مروا ؟ ! والإنسان ابن هذه الأرض ، من ترابها نشأ وتكون وعاش ، والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر فى طياتها السر الأعظم ، سر الحياة ، السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئا يذكر .

فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل ، والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ملايين الحيوانات المنوية ، وحيوان واحد منها هو الذى يلقح البويضة من ماء المرأة فى الرحم ، ويتحد بها فتعلق فى جدار الرحم ، وفى هذه النطفة العالقة بجدار الرحم تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل وصفاته الوراثية ، ومن العلقة إلى المضغة ، وهى قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا ، ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمى يكسى باللحم ، أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدرا لها التمام ، وهذا كله دلائل قدرة طليقة .

ثم يمضى السياق مع أطوار الجنين ، وما شاء الله أن يتم تمامه أقره فى الأرحام حتى يحين أجل الوضع ويصير الجنين طفلا ، ويمضى السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق المكمن الذى تمت فيه تلك الخوارق الضخام فى خفية عن الأنظار ، ثم يبلغ هذا الطفل أشده ، وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات فى المميزات أبعد من مسافات الزمان ، ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التى أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ، وكل الاستعدادات الكائنة التى تتبدى فيه وتتكشف فى أوانها ، كما أودعت النطفة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهى ماء مهين .

فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حى ، وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة لتدبر ما تزال ، فبعد العلم وبعد الرشد وبعد الوعى وبعد الاكتمال إذا هو يرتد طفلا ، طفلا فى عواطفه وانفعالاته ، طفلا فى وعيه ومعلوماته ، طفلا فى تقديره وتدبيره ، طفلا أقل شىء يرضيه وأقل شىء يبكيه ، طفلا فى حافظته فلا تمسك شيئا ، وفى ذاكرته فلا تستحضر شيئا ، طفلا فى أخذه الحوادث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدى فى حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى على آخرها .

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات ، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الإنسان ، فنشاهد الأرض هامدة ، والهمود درجة بين الحياة والموت ، وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، فإذا نزل عليها الماء وهى تربة جافة تتحرك حركة اهتزاز وهى تتشرب الماء وتتفتح فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ألوانا وفنونًا ؛ من ثمار وزروع .

وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها ، وأنبتت حسن المنظر طيب الريح .

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعا ، فيسلكهم فى آية واحدة من آياته ، وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة ، وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة دافعة لها هنا وهناك فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أهوال القيامة شديدة مفزعة مخيفة مرعبة لن ينجى منها إلا تقوى الله والخشية منه .

٢ ـ دعوة الإسلام عامة للناس جميعا .

٣ ـ الشيطان عدو للناس يضلهم عن الحق ويقودهم إلى عذاب النار .

ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شىء قدير
﴿٦﴾ وأن الساعة ءاتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى
القبور ﴿٧﴾ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى
ولا كتب منير ﴿٨﴾ ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى
الدنيا خزى ونذيقه يوم القيمة عذاب الحريق ﴿٩﴾ ذلك
بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلم للعبيد ﴿١٠﴾ ومن الناس
من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته
فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة ذلك هو
الخسران المبين ﴿١١﴾ يدعوا من دون الله ما لا يضره
وما لا ينفعه ذلك هو الضلل البعيد ﴿١٢﴾ يدعوا لمن
ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴿١٣﴾
إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جنت
تجرى من تحتها الأنهر إن الله يفعل ما يريد ﴿١٤﴾ من كان
يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والأخرة فليمدد بسبب إلى
السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴿١٥﴾

معانى الكلمات :

ريب : شك .

ثانى عطفه : يثنى رقبته استكباراً .

خزى : ذل .

على حرف : على شك .

انقلب على وجهه : ارتد كافرا .

العشير : المعاشر .

بسبب : بحبل .

ليقطع : ليختنق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله لايدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين .

٢ ـ أن نعلم أن العقيدة هى الركيزة الثانية فى حياة المؤمن .

٣ ـ أن نعلم أنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن الإنسان من التراب وتطور الجنين فى مراحل تكونه ، وتطور الطفل فى مراحل حياته ، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود ، ذلك متعلق بأن الله هو الحق ، فهو من السنن المطردة التى تنشأ من أن خالقها هو الحق الذى لا تختل سننه ولا تتخلف ، وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه فى هذه الأطوار ليدل على الإرادة التى تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها ، فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذى لا يحيد ، وإحياء الموتى هو إعادة الحياة ، والذى أنشأ الحياة الأولى هو الذى ينشئها للمرة الآخرة ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء ، فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير .

ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل فى الله ، والجدال فى الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا ، فكيف إذا كان جدالا بغير علم لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ويهدى إلى اليقين ، والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس ، صورة فيها الكبر المتعجرف وهو مستكبر عن الحق إذا دعى إليه مائلاً مزورًا بجنبه ، ولا يكتفى بأن يضل إنما يحمل غيره على الضلال ، وهذا الكبر الضال المضل لابد أن يقمع ولابد أن يحطم ، والله لا يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين ، إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزى أعظم والتحقير أوقع ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع ، وفى لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود بلفتة صغيرة فى السياق من الحكاية إلى الخطاب ، وما حصل له بما قدمت يداه والله ليس بظالم لأحد ، يلقى التقريع والتبكيت مع العذاب والحريق .

ويمضى السياق إلى نموذج آخر من الناس ، ذلك الذى يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ، ويظنها صفقة فى سوق التجارة ، والعقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع ، فيتشبث هو بالصخرة التى لا تزعزع ، وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التى لا تحول ولا تزول .

أما ذلك الصنف من الناس الذى يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة فى سوق التجارة، فإن أصابه خير قال : إن الإيمان خير ، فها هو ذا يجلب النفع ويدر الضرع ، وينمى الزرع ، ويربح التجارة ويكفل الرواج ، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ فسدت عليه دنياه وخسر الدنيا بالبلاء الذى أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذى كان ميسرا له .

يقول صاحب الظلال : « إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ولكنه لا يصلح للعقيدة ، فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، والعقيدة تحمل جزاءها فى ذاتها بما فيها من طمأنينة وراحة ورضا ، فهى لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها ، والمؤمن لا يجرب إلهه ، فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه راضٍ ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء ، وليست هى صفقة فى السوق بين بائع وشار ، إنما هى إسلام المخلوق للخالق صاحب الأمر فيه ومصدر وجوده من الأساس » .

والذى ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التى لا شبهة فيها ولا ريب ، يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضا إلى جوار خسارة المال أو الولد أو الصحة أو أعراض الحياة

الأخرى التى يفتن الله بها عباده ، وإلى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيداً عن الله ؟

إنه يدعو من دون الله صنمًا أو وثنًا ، ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة ، إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذى يجدى فيه الدعاء ، وذلك هو البعد عن الهدى والاهتداء ، والذى يدعوه لا يملك ضراً ولا نفعا ، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر ، وضره أقرب من نفعه ؛ ضره فى عالم الضمير بتوزيع القلب ، وضره فى عالم الواقع وكفى بما يعقبه فى الآخرة من ضلال وخسران ، ولبئس ذلك المولى الضعيف الذى لا سلطان له فى ضرٍ أو نفع ، ولبئس المعاشر الذى ينشأ عنه الخسران .

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله فى الفتنة والابتلاء ، فمن مسه الضر فى فتنة من الفتن ، وفى ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته فى نصر الله فى الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له فى المحنة حين تشتد المحنة فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ، وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شىء من ذلك بمبدل ما به من البلاء ، وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يجسم هذه الحالة التى يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عندما ينزل بها الضر وهى على غير اتصال بالله ، والذى ييأس فى الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل رجاء فى الفرج ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .

فمن كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق ، ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه .

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله ، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله ، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن صاحب عقيدة لا يتلجلج فيها ولا ينتظر عليها جزاء .

٢ ـ المؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ (الحزب ٣٤ سجدة)
فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

معانى الكلمات :

بينات : واضحات .

الصابئين : عبدة الملائكة .

المجوس : عبدة النيران .

يفصل : يحكم .

قطعت : فصلت .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يصهر : يذاب .

مقامع : مضارب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن من طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته وفق سنته .

٢ ـ أن نعلم أن الكون كله يتجه بفطرته إلى خالقه يخضع لناموسه ويسجد لوجهه .

٣- أن نعلم أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان .

المحتوى التربوى :

يوضح السياق أنه بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولنماذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدى به من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية ، وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال ، فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال ، إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر بمناسبة ما فى الآيات من بيان يقتضى الهدى فى القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة فى الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل ما فى عقائدها من حق أو باطل ، ومن هدى أو ضلال ، والله يهدى من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه فى النهاية وهو على كل شىء شهيد .

وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله فيما عداهم يتجه بفطرته إلى خالقه ، يخضع لناموسه ويسجد لوجهه ، ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك ، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم ، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب فى هذه الأرض التى يعيش عليها الإنسان ، إذا بتلك الحشود كلها فى موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه ، تتجه إليه وحده فى وحدة واتساق إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذى يتفرق فيبدو هذا الإنسان عجيبا فى ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان ، فلا كرامة إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله ، وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

يقول صاحب الأساس : « يأتى هذا الخطاب الذى يقرر خضوع خلق الله جميعا لله فى سياق الإنكار على من ييأس من نصر الله ، وفى سياق الإنكار على من يعبد الله على حرف ، ليبين أن الأمر أمره والملك ملكه ، وكل شىء خاضع له ، وأن من يفر من عبادته أمامه ما أمامه ، وأن الذى ييأس من نصره لا يعرف حقيقة الأمر من كون كل شىء خاضعا له خضوع اختيار أو اضطرار .. ومحور السورة يأمر بالعبادة كطريق للتقوى ، ويأتى هذا السياق ليقرر أن السجود الذى هو أرقى درجات العبادة هو سمة الكون كله بما فيه ومن فيه ، وأن الذين لا يسجدون من البشر معذَّبون ، وأن الذين يسجدون منسجمون مع سجود الخلق كلهم » .

ثم يأتى مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، فى صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان ، فهو مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذى يبعثه فى النفس نسق التعبير ، فلا يكاد الخيال ينتهى من تتبعه فى تجدده .. هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ، وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما فى البطون والجلود عند صبه على الرؤوس ، وهذه سياط من حديد أحمته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا الغم ، وها هم أولاء يردون بعنف ويسمعون التأنيب ، ويهانون بالعذاب قولا وفعلا .

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها ، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف ليبدأ فى العرض من جديد .

يقول صاحب الأساس : « دلت هذه الآيات على ما أعد الله للخصوم فيه فعرفنا بذلك أن نصرة الله فى الآخرة لأوليائه ما بعدها نصرة ، وأن خذلان الله لأوليائه ما بعده خذلان ، فلتتذكر كيف سارت الآيات : فقد أنكرت على من ييأس من النصر ، ثم بينت أن النصر الحقيقى يوم القيامة ، ثم بينت أن كل شىء خاضع لله ، ثم بينت عاقبة المتخاصمين فيه فى الآخرة ، وهكذا عرفتنا أن النصر الحقيقى هو النصر فى الآخرة » .

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر ، الذى يمضى السياق إلى عرضه ، فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا فى ربهم ، فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة .

وأما الذين آمنوا فهم هنالك فى الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وملابسهم لم تقطع من النار ، إنما فصلت من الحرير ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ،وقد هداهم الله إلى الطيب من القول، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر فى مشهد النعيم ، نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وهذه مشاهد تنحنى أمامها الرأس إكبارا ، وتتزلزل عندها النفس إشفاقا ، ويضطرب لها القلب إجلالا ، وليذهب الخيال مذهبه وهو يرى الكون كله يزهر نُجومه فيستشعر ومضات النجوم آيات تسبيح وتمجيد ، والشمس وقد انتعل كل شىء ظله تقف وقفة رهبة وإشفاق ، والنبات فى لحظة اخضراره وكأنه فى اهتزازه وجدان مفعم بذكر الله ، وفى لحظة جفافه وسقوط أوراقه وكان فرط العشق أحاله إلى عروق بينها قلب دقاته على باب محبوبه ، والجبال أمام هذا كله قد استطالت وكأنها سابق حاز الفوز فرفع رأسا فى موكب كله يسير إلى الله ، والأرض تحت كل هذا تترجم مشاعر الخوف والرجاء .

ويأتى الإنسان وبعضه قد أعلن النشاز، وانفصل عما كان به أولى ، فإذا هو فى نيران مستعرة، وحميم ساخن وسياط من حديد، وآلام تتجاوز حد الطاقة، وله إهانة فى الدنيا والآخرة لا تبرح ، ويتجلى الإكرام لبعضه الآخر وقد أتى إلى ربه يقود كونا تحت قدميه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الكون كله خاضع لله فأولى بالإنسان أن يكون أول الخاضعين .

٢ ـ المهان هو البعيد عن طاعة الله فالكرامة فى عبادته .

٣ ـ شدة العذاب تجعل العاقل يفكر فى عاقبة أمره .

٤ ـ عظم النعيم تجعل المسلم يقبل على طاعة ربه .

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ
﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى
شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

معانى الكلمات :

هدوا : أرشدوا .

العاكف : المقيم .

الباد : غير المقيم .

بإلحاد بظلم : بميل عن الحق إلى الباطل .

ضامر : الجمل الهزيل .

فج عميق : طريق بعيد .

تفثهم : وسخهم .

الرجس : القذر والمقصود الأوثان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم موقف الكافرين فى مواجهة الدعوة الإسلامية .

٢ ـ أن نعلم أن الغرض من بناء البيت الحرام هو عبادة الله الواحد .

٣ ـ أن نقف على بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافه المذكورة .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فى درس جديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية فى مكة ، فيصدون الناس عنها ، ويواجهون الرسول ﷺ والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذى أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم عليه السلام فى بنائه ، والأذان فى الناس بالحج إليه ، ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا ، سواء المقيم فيه والطارئ عليه لا يمنع عنه أحد ولا يملكه أحد .

ولقد كان هذا المنهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى إيجاد منطقة حرام ، يلقى فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ويجد كل أحد فيها مأواه لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيداً بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ، والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم ، والتعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد .

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام الذى يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله المتطهرين من الشرك ، يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم ﷺ ، وقد عرف الله له مكانه ، وملكه أمره ليقيمه على أساس التوحيد ، فهو بيت الله وحده دون سواه وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر إبراهيم ﷺ إذا فرغ من إقامة البيت على الأساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ويدعوهم إلى البيت الحرام ، ووعده أن يلبى الناس دعوته من كل فج ؛ رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوبا على كل ضامر من الإبل جهده السير فضمر من الجهد والجوع .

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته ؛ والمنافع التى يشهدها الحجيج كثيرة ، فالحج موسم ومؤتمر ، والحج موسم تجارة وموسم عبادة ، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ومؤتمر تنسيق وتعاون ، وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة ، أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شىء .

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة ، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ، ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا إليه : هذه القبلة التى يتوجهون إليها جميعا ، ويلتقون عليها ، ويجدون رايتهم التى يفيئون إليها : راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان ، ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حينا : قوة التجمع والتوحد والترابط الذى يضم الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التى لا تتعدد . راية العقيدة والتوحيد ، وهذا من منافع الحج كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته .

ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها ، والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ؛لأن الجو جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله ، ومن ثم فإن أظهر ما يبرز فى عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة ، وكأنها هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته ، وبهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز ، وهى صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء، وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره، ونتف شعر الإبط، وقص الأظافر والاستحمام مما كان ممنوعا عليه فى فترة الإحرام ، فيزيلون الشعث والوسخ الذى لازمهم طيلة مدة الإحرام ، وليوفوا نذورهم التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج ، وليطوفوا طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعائر الحج ، وهو غير طواف الوداع .

هذا وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها وذلك خير عند الله ، خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع ، فالضمير الذى يتحرج هو الضمير الذى يتطهر والحياة التى ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن وواحة سلام ومنطقة اطمئنان .

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام ـ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ـ فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله ـ فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها ـ كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وذلك كى لا تكون هنالك حرمات إلا لله ، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ، ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان ، وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس والرجس دنس النفس ، والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ؛ ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة ، ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك ، وهكذا روى الإمام أحمد بإسناده عن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فلما انصرف قام قائما فقال :«عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم عليه أن يسعى إلى تطهير الدنيا وإقامتها على توحيد الله .

٢ ـ لو فاءت الأمة المسلمة إلى راية العقيدة لا يقف لها أحد .

٣ ـ قول الزور جريمة كبيرة فهى مقرونة بالشرك بالله .

الجزء السابع عشر — سورة الحج

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ
(٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ
(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ
ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ
ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

الحزب ٣٤

٣٣٦

معانى الكلمات :

خر : سقط .

تهوى به الريح : تلقيه .

سحيق : بعيد مهلك .

شعائر الله : مطلوباته .

منسكا : عبادة .

المخبتين : المتواضعين لله .

وجلت : خافت .

القانع والمعتر : العفيف عن سؤال الناس والمتعرض له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب .

٢ ـ أن نعلم أن فى إراقة الدماء نفعًا للفقير والحصول على مرتبة التقوى .

٣ ـ أن نعلم أن العبرة ليست بتقديم اللحم وإراقة الدماء بقدر ما تكون بالإخلاص لله وتقواه فى جميع الأمور .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن الله يريد من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص ، ثم يرسم النص مشهداً عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد فيهوى إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً ، إنه مشهد الهوى من شاهق فكأنما خر من السماء ، وفى مثل لمح البصر يتمزق فتخطفه الطير أو تقذف به الريح فى هوة ليس لها قرار .

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها ، إلى تعظيم شعائر الله وهى ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها ، ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ إن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره ، وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته ، وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه ، وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة ، فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها حتى تبلغ محلها وهو البيت العتيق ثم تنحر هناك ليأكل منها ويطعم البائس الفقير ، وهذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة فى شتى الأمم إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله ، ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة والحركة والعادة إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة ، وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل به لغير الله به ، وحتم ذكر الله عليها حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، ويعقب بتقرير الوحدانية ، وبالأمر بالإسلام له وحده ، وبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائر المؤمنين ومشاعرهم ، فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم، فهم يعبدون الله حق عبادته، ولا يضنون على الله بما فى أيديهم .

ويستطرد السياق فى تقرير أن الشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها ، وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن فيقرر أن الله أراد الخير لهم فجعل فيها خيراً وهى حية تركب وتحلب وهى ذبيحة تهدى وتطعم ، فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها ، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ، فإذا سقطت واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحبابا ، وأطعموا القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال ، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة .

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ، فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه ، إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها ، وقد هداكم الله إلى توحيده والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه ، والبشرى لمن يحسن التصور ، ويحسن الشعور ، ويحسن العبادة ، ويحسن الصلة بالله فى كل نشاط الحياة ، وهكذا لا يخطو المسلم فى حياته خطوة ، ولا يتحرك فى ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله .

تلك الشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله ، وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة العابد وحرمة الشعائر ، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب الظلال : « إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان ، والشر جامح والباطل مسلح ، وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخيرات إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له ، فلابد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر ، وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهى إليه ، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ، ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيؤون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد ، وعندئذ أذن لهم فى القتال لرد العدوان ، وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم فى حمايته ، وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما» .

فالحق لابد له من قوة تحميه وتنتصر له ، وتخيف كل من تسول له نفسه أن يهجم عليه ، فإن كان الحق يملك قوة ذاتية فى نفسه ، فهذه القوة تحفظ عليه كيانه وتجدد له الحياة كلما تكاثر عليه الباطل وأراد أن يمحوه ، لكنه يطلب إلى هذا سربالا من قوة أهله حتى يزيح من طريقه الشرك وأهل الضلال ، ويظهر نوره على الدنيا من جديد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من الإيمان بالله عز وجل هو القاعدة الثابتة فى حياة الإنسان ، فإذا فقدها فقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه ، وتقاذفته الأهواء فى أودية الضلال .

٢ ـ ينبغى على المسلم أن تصطبغ حياته بصبغة العقيدة فلا يخطو خطوة إلا وهو ينظر فيها إلى الله تعالى .

٣ ـ الله يتولى الدفاع عن عباده المؤمنين .

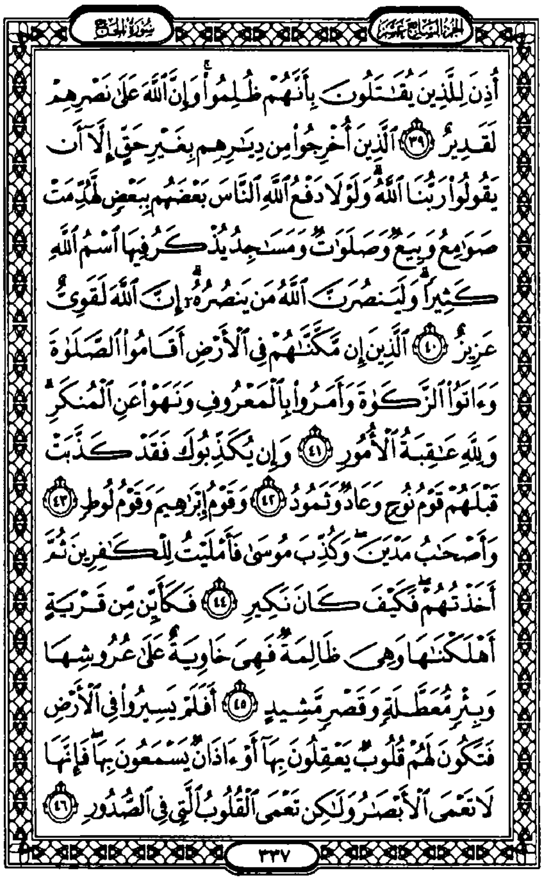
الجزء السابع عشر — سورة الحج

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٣٧

معانى الكلمات :

أذن : سمح لهم بالقتال .

صوامع : المعابد الصغار للرهبان .

بيع : كنائس النصارى.

صلوات : كنائس اليهود .

أمليت : أخرت عقوبتهم .

خاوية على عروشها : ساقطة حيطانها على سقوفها المتهدمة .

معطلة : متروكة لا يستقى منها .

مشيد : مرفوع البنيان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حاجة العقيدة إلى الدفع عنها .

٢ ـ أن نعلم أن للنصر تكاليفه وأعباءه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه .

٣ ـ أن نقف على آثار يد القدرة وهى تتدخل فى سير الدعوة .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية ، فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين ، وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم ، وأن لهم ما يبرز خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ، وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة ، وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أنهم قالوا الله ربنا ، وهى أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال ، ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم ، فهو البغى المطلق الذى لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . .

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة ، حاجة العقيدة إلى الدفع عنها ، والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى والصلوات أماكن العبادة لليهود ، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين ، وهى كلها معرضة للهدم ، ولا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، فلا يكفى الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لابد من قوة تحميه وتدفع عنه ، وهى قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان .

يقول صاحب الظلال : « لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كى يتم نموها ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذى لا يكلف عناء ، والذى يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ؛ لأنه لا يحفزها ، ولا يدعوها ، وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه ، أولا : لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، ، وثانيا : لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه ، فهى لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه » .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء ، والإسلام مع هذا يعد القتال غاية لذاته ، وقد يبطئ النصر ، فلتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم فى النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه، فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره ، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوى العزيز الذى لا يهزم من يتولاه ؟

إنهم هؤلاء الذين إن مكنوا فى الأرض فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر ، أقاموا الصلاة فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين ، وأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحى ، فدعوا إلى الخير والصلاح ودفعوا إليه الناس ، وقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه .

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أراد للناس فى الحياة معتزين بالله وحده دون سواه ، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين ، فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته ، المشروط بتكاليفه وأعبائه ، والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء .

وأنشأ السياق يطمئن الرسول ﷺ إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره ولخذلان أعدائه كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل عليهم السلام ، وأخذ المكذبين على مدار الأجيال ، وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر .

وهى سنة مطردة فى الرسالات كلها قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجىء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون ، فليس الرسول ﷺ بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون ، والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة ، فقد كذبت قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، ويفرد موسى بفقرة خاصة ، أولا :لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملئه، وثانيا : لوضوح الآيات التى جاء بها موسى وتعددها وضخامة الأحداث التى صاحبتها، وفى جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حينا من الزمان ثم أخذهم أخذاً شديداً ، وهو نكير مخيف، نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع .

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعمم فى عرض مصارع الغابرين ، وهى كثيرة تلك القرى المهلكة بظلمها ، وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها الآبار معطلة المهجورة تذكر بالورد والورّاد، وإلى جوارها القصور المشيدة وهى خالية من السكان موحشة من الأحياء.

يعرض السياق هذه المشاهد ويسأل فى استنكار عن آثارها فى نفوس المشركين الكفار ، أفلم يسيروا وتكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة فى مصارع الغابرين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ قد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما فى طوقها من قوة ولا بد للحق من قوة تحميه .

٢ ـ الذين ينصرهم الله هم الذين ينصرون نهجه الذى أراده للناس فى الحياة .

٣ ـ مصارع الغابرين تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات وهى أداة مؤثرة فى قلوب العاقلين .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

معانى الكلمات :

أمليت : أخرت عقوبتها .

أخذتها : عذبتها .

معاجزين : جادين فى إبطالها .

ينسخ : يزيل وساوسه .

يحكم : يثبت .

شقاق : بعد عن الحق .

تخبت : تطمئن .

بغتة : فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن وعد الله لا يتخلف .

٢ ـ أن نعلم أن الله يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين .

٣ ـ أن نقف على شأن الكافرين مع القرآن كله .

المحتوى التربوى :

بدلا من تأمل الكافرين فى مصارع الغابرين والجنوح إلى الإيمان والتقوى من العذاب ، راحوا يستعجلون بالعذاب الذى أخره الله عنهم إلى أجل معلوم ، ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ، فلم يكن هذا الإملاء منجيًا لها من المصير المحتوم والسنة المطردة فى هلاك الظالمين ، فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزؤون بالوعيد ، بسبب إملاء الله لهم حينا من الزمان إلى أجل معلوم ؟

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله فى المكذبين ، يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم من مصير ، ويمحض السياق

وظيفة الرسول ﷺ فى هذا المقام للإنذار لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار ، ثم يأخذ فى تفصيل المصير ، فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بثمرته التى تدل على تحققه ، فجزاؤهم مغفرة من ربهم لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم ورزق كريم غير متهم ولا مهين ، وأما الذين بذلوا غاية جهدهم فى تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتتحقق فى حياة الناس ، فهؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم ـ ويالسوئها من ملكية ـ فى مقابل الرزق الكريم .

والله الذى يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية ،وهم معصومون من الشيطان ، ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانىّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارهم وإزالة العقبات من طريقها ، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها ، فيبطل الله كيد الشيطان، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة فى قيم الدعوة ووسائلها .

والنص يقرر أن هذه القاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم ، فلابد أن يكون المقصود أمرًا عاما يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعا ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة ، فالرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس يكون أحب شىء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاؤوهم به من عند الله فيتبعوه ، ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثيرة ، والرسل بشر محدودو الأجل وهم يحسون هذا ويعلمونه ، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق .. ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات ، فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، وإلقاء الشبهات حولها فى النفوس ، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وبذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته فلا تبقى هنالك شبهة فى الوجه الصواب ، والله عليم حكيم ، فأما الذين فى قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ، فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق ، وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل ، وتخضع وتذل ، والله يرشدهم فى الدنيا إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفى الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

يقول صاحب الظلال : « ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات بعد الرسل والرغبة الملحة فى انتشار الدعوات وانتصارها ، تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء فى أول الأمر عن شىء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هم ليس أصيلا فيها ، ومجاراتهم فى بعض أمرهم كى لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها .

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم ، وذلك حرصا على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها ، واجتهادا فى تحقيق مصلحة الدعوة ، ومصلحة الدعوة الحقيقية فى استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثيرٍ ، أما النتائج فهى غيب لا يعلمه إلا الله ، فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج .

إن كلمة مصلحة الدعوة يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ؛ لأنها مذلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ، ولقد تتحول مصلحة الدعوة إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوات وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ، إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحرى من نتائج ، والله أعلم منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين ».

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الذين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين ، ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقى الشيطان فى أمنيات الأنبياء والرسل ؛ لما بين الشأنين من تشابه واتصال ، فهم لا يزالون فى ريبة من القرآن وشك ، من منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق ، ويظل هذا حالهم حتى تأتيهم الساعة فجأة أو يأتيهم يوم القيامة لا ليلة فيه ، فى هذا اليوم الملك لله وحده ، فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهرى الذى كان يظنه الناس ملكا والحكم يومئذ لله وحده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا تعجل فإن وعد الله لا يتخلف وهو حاصل فى وقته فاطمئن إليه .

٢ ـ من فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته أنه يقبل توبة من تاب إليه ، ولا يعجل بالعقوبة للظالمين .

٣ ـ الشيطان يبذل جهده فى إغواء الناس،والعاقل من يتخذ الشيطان عدوا ولا يتبع خطواته.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ
﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ
مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

نصف الحزب ٣٤

معانى الكلمات :

مهين : يذلهم فى النار .

حسنا : طيبا .

مدخلا : الجنة .

بغى عليه : ظلم بعد ذلك .

يولج : يدخل .

مخضرة : بالنبات .

لطيف : يدبر الأمور بدقة .

خبير : يعلم حقائق الأشياء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الحكم لله وحده وهو يقضى بالجزاء المقسوم لكل واحد .

٢ ـ أن نتعرف على معنى الهجرة إلى الله تعالى .

٣ ـ أن نستيقن أن الله هو الحق المسيطر على نظام هذا الكون .

المحتوى التربوى :

بعد ما أعلن السياق أن الملك لله وحده وهى يقضى لكل فريق بجزائه المقسوم ، وأن المؤمنين من عباده ثوابهم جنات النعيم ، وأن الكافرين المكذبين بآيات الله لهم عذاب شديد مهين جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البينات ، وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم ـ يبدأ بالحديث عن المهاجرين ، بعد ما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعا عن عقيدتهم وعن عبادتهم ، ودفعا للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعده لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال .

يقول صاحب الظلال : « والهجرة فى سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه: الأهل والديار والوطن والذكريات والمال وسائر أعراض الحياة ، وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعا إلى ما عنده وهو خير مما فى الأرض جميعا ، والهجرة كانت قبل الفتح وقيام الدولة الإسلامية ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة ولكن جهاد وعمل كما قال رسول الله ﷺ ، فمن جاهد فى سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة وكان له ثوابها ».

فمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وطلب لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلاّن ، وفارق بلاده فى الله ورسوله ونصرة لدين الله ، ثم قُتل فى جهاده أو مات من غير قتال على فراشه ، فقد حصل على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، فليجرين الله عليه من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ، والله خير الرازقين ، وقد تعهد لهم بأن يدخلهم مدخلا يرضونه ، وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوفى ما يرضونه فيحققه لهم وهم عباده ، عليهم بما وقع عليهم من ظلم وأذى ، وبما يرضى نفوسهم ويعوضها ، وهو عليم يمهل ثم يوفى الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى.

وأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى ، فإن لم يكف المعتدون وعادوا البغى على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين ، ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله هو الذى يملك العفو والمغفرة، أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون،وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان، وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من عند الله .

وينتقل السياق إلى ظاهرة طبيعية تشهد بقدرته على تحقيق وعده ، فالليل يدخل فى النهار عند المغيب ، والنهار يدخل فى الليل عند الشروق ، والليل يدخل فى النهار وهو يطول فى مدخل الشتاء ، والنهار يدخل فى الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف ، ويرى البشر هذه الظاهرة فينسيهم طول رؤيتهم لها وطول ألفتها ماوراءها من دقة النواميس واطرادها ؛ فلا تختل مرة ولا تتوقف مرة ، وهى تشهد بالقدرة الحكيمة التى تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

يقول صاحب الظلال : « والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التى يمر عليها الناس غافلين ؛ ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهى تطوى النهار من جانب، وتسدل الليل من جانب ، وهى تطوى الليل من جانب، وتنشر النهار من جانب ، فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف ، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يدفع عن نفسه العدوان » .

وما يحدث فى الكون مرتبط بأن الله هو الحق ، فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون ، وكل ما دون الله باطل يخل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم ، والله هو الحق تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغى ، وهو كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها وعدم تخلخلها أو تخلفها ، ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى ، والله أعلى من الطغاة وأكبر من الجبارين فلن يدع البغى يستعلى والظلم يستطيل .

ويستطرد السياق فى استعراض دلائل القدرة فى مشاهد الكون المعروضة للناس فى كل حين ، ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح ظاهرة واقعة مكرورة ، قد تذهب الألفة بجدتها فى النفوس ، فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد فى الأرض يستجيش فى القلب شتى المشاعر والأحاسيس ، وإن القلب ليحس أحيانا أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين بخضرته وغضارته ، أطفال صغار تبسم فى غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكادس فرحتها بالنور تطير .

والذى يحس على هذا النمو يستطيع أن يدرك ما فى التعقيب من أن الله لطيف خبير ، من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته ، فمن اللطف الإلهى ذلك الدبيب اللطيف ، دبيب النبتة الصغيرة من فوق الثرى ، وهى نحيلة ضئيلة ويد القدرة تمدها فى الهواء ، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين .

وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر فى إنزال الماء بقدر فى الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وبخلايا النبات المتطلعة إلى الانطلاق والنور ، والماء وينزل من سماء الأرض إلى أرضه فينشئ فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء ، والله المالك لما فى السماء والأرض ، غنى عما فى السماء والأرض ، وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغنى عنهم وعما يرزقون .

فالله سبحانه هو الغنى ما به من حاجة إلى من فى السماء والأرض ، أو ما فى السماء والأرض فهو الغنى عن الجميع، وهو المحمود على آلائه، المشكور على نعمائه المستحق للحمد من الجميع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغى .

٢ ـ القرآن يوجه النظر إلى الكون وما فيه ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة الإلهية .

٣ ـ الله ـ سبحانه ـ ما به من حاجة إلى من فى السماء والأرض ، فهو الغنى ونحن فقراء إليه .

معانى الكلمات :

الفلك : السفن .

يمسك السماء : يحفظها .

كفور : منكر للنعمة .

منسكا : شريعة .

ناسكوه : عاملون به .

الأمر : الدين .

سلطانا : برهانا .

يسطون : يبطشون .

الجزء السابع عشر — سورة الحج

ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر
بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن
الله بالناس لرءوف رحيم ﴿٦٥﴾ وهو الذي أحياكم
ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴿٦٦﴾
لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك
في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴿٦٧﴾
وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴿٦٨﴾ الله يحكم
بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴿٦٩﴾
ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك
في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴿٧٠﴾ ويعبدون من دون
الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين
من نصير ﴿٧١﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في
وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون
بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من
ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴿٧٢﴾

٣٤٠

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على مظاهر قدرة الله تعالى فى إمساك السماء أن تقع على الأرض وفى الإحياء والإماتة والبعث .

٢ - أن نعلم أن الله يعلم كل خفى وجلى وصغير وكبير فى السموات والأرض .

٣ - أن نقف على ما فى منهج المشركين من عوج وضعف ، وجهل بعض .

المحتوى التربوى :

يستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس فى كل حين ، وفى هذه الأرض كم من قوة ، وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان وهو غافل عن يد الله ونعمته التى يتقلب فيها بالليل والنهار ؛ لقد سخر الله ما فى الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته ، ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلا على الانتفاع بها وبما فيها لو اختلف تركيبه الجسدى عن الدرجة التى يحتمل فيها جو هذه الأرض واستنشاق هوائها ، والتغذى بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة ، ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء ، أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق

هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذى سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان ، وهو من أمر الله .

ولقد سخر له الله ما فى الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ، يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة ، وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزاً جديدة ، وكلما خشى أن ينفد رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد .

وهو الذى خلق النواميس التى تسمح بجريان الفلك فى البحر ، وعلم الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع بها هذا الانتفاع ، ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك ، أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان ، ما كان شيء من هذا الكون كان .

وهو الذى خلق الكون وفق هذا النظام الذى اختاره له ، وحكم فيه تلك النواميس التى تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا ، وكل تفسير فلكى للنظام الكونى ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذى أنشأة خالق هذا النظام ، وإن كان بعضهم ينشئ هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه حين يفسر النظام الكونى بنفى يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ، وهذا وهم عجيب وانحراف فى التفكير غريب،فإن الاهتداء إلى تفسير القانون لا ينفى وجود واضع القانون وأثره فى إعمال هذا القانون، والله سبحانه يمسك بالسماء حتى لا تقع على الأرض بفعل ذلك الناموس الذى يعمل فيها وهو من صنعه ، فلا تقع الأرض إلا بإذنه ، وذلك يوم يعطل الناموس الذى يُعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة .

وينتهى السياق فى استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الكون إلى النفس ، وعرض سنن الحياة والموت فى عالم الإنسان ، والحياة الأولى معجزة ، تتجدد فى كل حياة تنشأ آناء الليل وأطراف النهار ، وسرها اللطيف ما يزال غيبا يحار العقل البشرى فى تصور كنهه ، وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ، والموت سر آخر يعجز العقل البشرى عن تصور كنهه ، وهو يتم فى لحظة خاطفة ، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ، والحياة بعد الموت ، وهى غيب من الغيب ، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر ، ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار ، فهو يجحد بنعمة الله تعالى .

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها فى معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد عن نفسه العدوان ، ثم يتوجه السياق بالخطاب إلى الرسول ﷺ

ليمضى فى طريقه غير ملتفت إلى المشركين وجدالهم له ، فلا يمكنهم من نزاعه فى منهجه الذى اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه ، فلكل أمة منهج وطريقة فى الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد هم سالكوه ، فلا داعى إذن لأن يشغل الرسول ﷺ بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهوى ، ويمنعون فى منسك الضلال ، والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه فى أمره ويجادلوه فى منهجه ، كما يأمره أن يمضى على منهجه لا يتلفت ولا ينشغل بجدل المجادلين فهو منهج مستقيم .

وإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول ، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد ، فإنما يجدى الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التى تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل لا مع القلوب المصرة على الضلال ، فليكلهم إلى الله فهو الذى يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير ، وهو الحكم الذى لا يجادل فيه أحد لأنه لا جدال فى ذلك اليوم ولا نزاع فى الحكم الأخير .

والله يحكم بعلم كامل لا يند عنه سبب ولا دليل ، وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التى تنسى وتمحو ، فهو كتاب يضم علم كل شىء ويحتويه ، وهذا كله بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شىء يسير .

ثم يكشف عما فى منهج المشركين من عوج وعما فيه من ضعف ، وعما فيه من جهل وظلم للحق ، ويقرر أنهم محرمون من عونه تعالى ونصرته ، وهم بذلك محرومون من النصير ، وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله ، وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان ، أو من الناس أو الشيطان ، وهذه كلها لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهى محرومة من القوة ، ويعبدون ما ليس لهم به علم، وهم لا يناهضون الحجة بالحجة، إنما يلجئون إلى العنف والبطش ، فيواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد بالنار فهى الرد المناسب والمنكر الذى تنطوون عليه وبئس المآل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يتأمل ما حوله من دلائل القدرة الإلهية ويعرف نعمة الله عليه .

٢ ـ على المسلم أن يمضى على منهجه ولا ينشغل بجدل المجادلين حتى لا يضيع الوقت والجهد .

٣ ـ الكفار محرومون من عونه الله تعالى ونصرته ، والمؤمن نصيره الله .

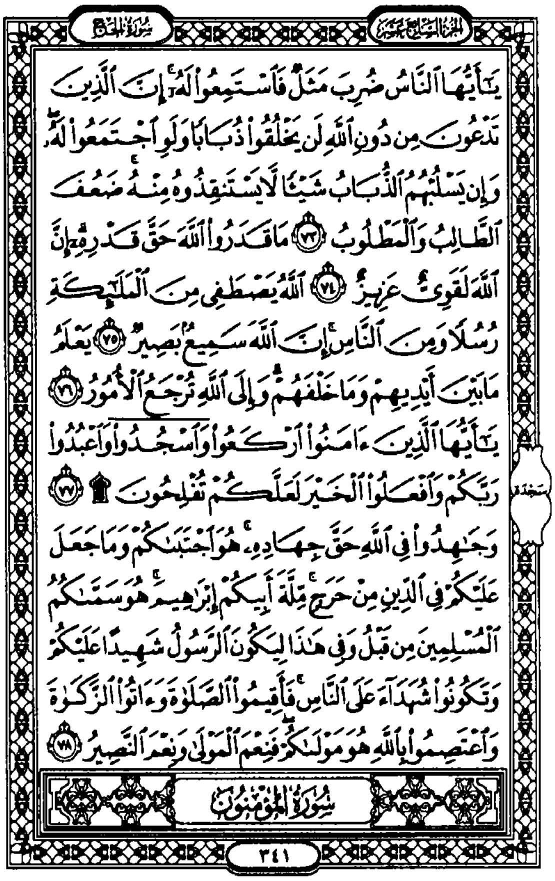

معانى الكلمات :

ضرب : بُيِّن ووُضح .

يستنقذوه : يستردوه .

اجتباكم : اختاركم .

حرج : ضيق .

ملة : شريعة .

اعتصموا : استعينوا .

مولاكم : ناصركم ومتولى أموركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الآلهة المدعاة من الأصنام والأوثان وغيرها .

٢ ـ أن نستشعر مهمتنا فى هذه الحياة .

٣ ـ أن نعلم العدة التى تجعلنا ننهض بمهمتنا فى الحياة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق فى الآفاق وعلى الناس جميعا إعلانا مدويا عاما،يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الألهة كلها التى يتخذها الناس من دون الله ، ومن بينها تلك الألهة التى يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون، يعلن عن هذا الضعف فى صورة مثَل معروض للأسماع والأبصار ، يصور فى مشهد شاخص متحرك تتملاه العيون والقلوب ، مشهد يرسم الضعف المزرى ويمثله أبرع تمثيل .

فيبدأ السياق بالنداء العام والنفير البعيد الصدى بالنداء على الناس جميعا ، فإذا تجمع الناس أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة ، هذا المثل يضع قاعدة

ويقرر حقيقة ؛ أن كل من تدعون من دون الله آلهة مدعاة من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وهؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير !

ثم يخطو خطوة أوسع فى إبراز الضعف المزرى ، فهذه الآلهة لا تملك استنفاذ شىء من الذباب حين يسلبها إياه ، وقد اختير الذباب وهو ضعيف حقير ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال الضعف التى تسيطر على الآلهة المدعاة .

وفى أنسب الظروف ، والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله ، فما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنفاذ ما يسلبها إياه الذباب ويدعون الله القوى العزيز ، إنه تقرير وتقريع فى أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع .

وهنا يذكر أن الله القوى العزيز يختار رسله من الملائكة والأنبياء ، ويختار رسله من البشر إلى الناس وذلك عن علم وخبرة وقدرة ، فعن صاحب القوة العزيز الجناب يصدر الاختيار للملائكة والرسل ، وهو يسمع ويرى ويعلم علما شاملا كاملا ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، وهو الحكم الأخير له السيطرة والتدبير .

ثم يتوجه الخطاب إلى الأمة المسلمة لتنهض بتكاليف دعوتها وتستقيم على نهجها العريق القويم ، ويجمع لها المنهاج الذى رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التى ناطها بها ، ويقرر مكانها الذى قدره لها ، ويثبت جذورها فى الماضى والحاضر والمستقبل متى استقامت على النهج الذى أراده لها الله ، إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود وهما ركنا الصلاة البارزان .

ويثنى بالأمر العام بالعبادة ، وهى أشمل من الصلاة ، فكل نشاط الإنسان فى الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب إلى الله حتى لذائذه التى ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات، ويختم بفعل الخير عامة ، فى التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة .

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح ، فهذه أسباب الفلاح ، فالعبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل ، وفعل الخير يؤدى إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه ، فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها نهضت بالتبعة الشاقة وهى الجهاد فى الله ، وهو تعبير شامل دقيق يصور تكليفًا ضخما ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد .

والجهاد فى سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد كلها سواء ، وقد اختار الله هذه الأمة فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من بين عباده ، وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلى عنها أو الفرار ، وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغى أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء .

وهو تكليف محفوف برحمة الله ، وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته ، ملحوظ فيه تلبية تلك الفطرة ، وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء ، وهو منهج عريق أصيل فى ماضى البشرية ، موصول الماضى بالحاضر ، وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم ﷺ فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة .

وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين ، سماها كذلك من قبل وسماها كذلك فى القرآن ، والرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها ، وهى تشهد على الناس بمثل هذا ، فهى القوَّامة على البشرية بعد نبيها ، وهى الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة ، وهذا الأمر يقتضى الاحتشاد له والاستعداد ، ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ، وبهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التى اجتباها لها الله ، وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التى تعارف الناس على أنها مصادر القوة فى الأرض ، والقرآن لا يغفل من شانها بل يدعو إلى إعدادها ، ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذى لا ينفد ، والذى لا يملكه إلا المؤمنون بالله فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء .

يقول صاحب الظلال : « إن قيمة المنهج الإلهى للبشرية أنه يمضى بها قدمًا إلى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض ، ولا يكتفى بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام ، وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى ، وكذلك يريدها الإسلام فى كنف الوصاية الرشيدة المستقيمة على منهج الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يخص الله بالعبادة وأن يجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين .

٢ ـ التكاليف الشرعية التى فرضها الله على الناس لا مشقة فيها ولا تضيق ، فلا عذر لأحد فى التقصير فى أمر الدين.

٣ ـ أن نتوجه دائما إلى الله ونتوكل عليه ، ونستمد منه العون فهو نعم المعين ونعم النصير .

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

٣٤٢

سورة المؤمنون

معانى الكلمات :

أفلح : فاز .

خاشع : خائف .

اللغو : ما لا فائدة فيه .

سلالة : خلاصة .

نطفة : منيا .

قرار مكين : هو الرحم .

علقة : دم جامد معلق .

مضغة : كأنها ممضوغة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على صفات المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح .

٢ ـ أن نتعرف على أصل النشأة الإنسانية .

٣ ـ أن نتيقن أن الموت نهاية الحياة الأرضية وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة

المحتوى التربوى :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين ، إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، وقرار الله لا يملك أحد رده ، الفلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، فلاح الفرد والمؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة ، الفلاح الذى يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه فى واقع حياته ، والذى يشمل ما يعرفه الناس من معانى الفلاح ، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين فمن هم المؤمنون الذين كتب لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟ من هم المؤمنون الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح :

فهم الخاشعون الخائفون الساكنون فى صلاتهم ، وعن الباطل من الشرك والمعاصى وما لا فائدة من الأقوال والأفعال معرضون ، وهم لزكاة أموالهم وأنفسهم يؤدون ، والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ، فمن ابتغى وراء ذلك غير الأزواج والإماء فأولئك المعتدون ، وهم الذين إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها ، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، وهم الذين يواظبون على صلاتهم فى مواقيتها .

وتلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح ، وهى خصائص ذات أثر حاسم فى تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التى تحياها ، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله ، وأراد له التدرج فى مدارج الكمال ، ولم يرد أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة فى هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبنى الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا فى الطريق إلى الغاية المقدرة لهم هنالك فى الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال ، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال .

ومن صفات المؤمنين ينتقل إلى دلائل الإيمان فى حياة الإنسان ذاته ، وفى أطوار وجوده ونموه مبتدئًا بأصل النشأة الإنسانية ، منتهيا إلى البعث فى الآخرة مع الربط بين الحياتين فى السياق ، وفى أطوار هذه النشأة الإنسانية ، وتتابعها بهذا النظام ، وبهذا الاطراد ما يشهد بوجود المنشئ أولا ، وما يشهد بالقصد والتدبير فى تلك النشأة وفى اتجاهها أخيراً ، فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، وعرض تلك الأطوار بهذا التتابع ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة فى الحياتين : الدنيا والآخرة ، وهذا هو المحور الذى يجمع بين المقطعين فى سياق السورة .

والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله ، فيخبر عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام ، خلقه من صلصال من حمأ مسنون ، ذلك أصل نشأة الجنس الإنسانى من سلالة من طين، فأما نشأة الفرد الإنسانى بعد ذلك فتمضى فى طريق آخر معروف ، فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل فتستقر فى رحم امرأة .

والتعبير القرآنى يجعل النطفة طوراً من أطوار النشأة الإنسانية تاليا فى وجوده لوجود الإنسان ، وهى حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل ؛ فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل

عناصره وبكل خصائصه فى تلك النطفة ، كما يعاد من جديد فى الجنين وكى يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب ، ومن النطفة إلى العلقة حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى ، وتعلق هذه بجدار الرحم تتغذى بدم الأم ، ومن العلقة إلى المضغة حينما تكبر العلقة وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط ، وتأتى مرحلة العظام فمرحلة كسوة العظام باللحم .

ثم كانت النشأة الأخرى ، فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان فى أطواره الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر ، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء ، وليس هناك من يخلق سوى الله، فتبارك الله الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير فى هذه الأطوار ، وفق السنة التى لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف على أدق ما يكون النظام .

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة وأطوار النشأة ، فالحياة الإنسانية التى نشأت من الأرض لا تنتهى فى الأرض ؛ لأن عنصراً غير أرضى قد امتزج بها ، ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيوانى ، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة ، وجعلت كمالها الحقيقى لا يتم فى هذه الأرض ولا فى هذه الحياة الدنيا ، إنما يتم هنالك فى مرحلة جديدة وفى الحياة الأخرى ، والموت نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار ، ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة ، وبعده تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان، ذلك لمن يسلك طريق الكمال .

ومن دلائل الإيمان فى الأنفس ينتقل إلى دلائل الإيمان فى الآفاق مما يشهده الناس ويعرفونه ، ثم يمرون عليه غافلين ، ويربط السياق بين المشاهدة الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية بوصفها من دلائل القدرة ، وبوصفها من دلائل التدبير فلقد خلق الله سبع سموات طبقات بعضها فوق بعض أو وراء بعض ، خلقها الله بتدبير وحكمة وحفظها بناموس ملحوظ ، وهو يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا قبول للأعمال الصالحة بدون الإيمان ، وأنه يزداد بكثرة الأعمال الصالحة .

٢ ـ من صفات المؤمنين خشوعهم فى الصلاة مع المحافظة عليها فى أوقاتها ، والإعراض عما لا خير فيه من قول أو عمل وأداء فريضة الزكاة لما لها من توثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين.

٣ ـ من صفات المؤمنين أنهم يحافظون على كل ما ائتمنوه عليه .

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

٣٤٣

معانى الكلمات :

الدهن : الزيت الخام .

صبغ للآكلين : غذاء .

الفلك : السفن .

الملأ : أشراف القوم .

تربصوا : انتظروا .

فار التنور : نبع الماء من النار .

اسلك : أدخل .

سبق : وجب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على دلائل الإيمان فى الآفاق بوصفها من دلائل القدرة .

٢ ـ أن نعلم حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا .

٣ ـ أن نعلم كيف كان استقبال الناس لحقيقة الإيمان على مدار الزمان .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى استعراض دلائل الإيمان فى الآفاق ، وهو يربط بينها جميعا ، يربط بينها بوصفها من دلائل القدرة ، ويربط بينها كذلك بوصفها من دلائل التدبير ، فهنا تتصل تلك الطرائق السبع بالأرض ، فالماء نازل من السماء ، فجعل الله الماء إذا نزل يخلد فى الأرض ، وجعلنا فى الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ولو شاء الله لجعله يغور فى طبقات الأرض البعيدة ، فالذى أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته ، إنما هو فضل الله على الناس ونعمته ، ومن الماء تنشأ الحياة ، والنخيل والأعناب نموذجان من الحياة التى تنشأ بالماء فى عالم النبات ، ويخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون ، وهى من أكثر الشجر فائدة بزيتها وخشبها ، وهى تنبت من الماء الذى أسكن فى الأرض وعليه تعيش .

ويعرج من عالم النبات إلى عالم الحيوان ، فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتدبيره وتوزيعه للوظائف والخصائص فى هذا الكون الكبير فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير ، ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير ، ويرى أن اللبن السائغ اللطيف الذى يشربه الناس منها خارج من بطونها ، فهو مستخلص من الغذاء الذى تهضمه وتمثله فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائغ اللطيف ، ويحمل السياق منافعها ثم يخصص منها منفعتين ؛ فقد أحل للإنسان أكل الأنعام والحمل عليها .

ويربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحملها على الفلك بوصفها مسخرين بنظام الله الكونى ، الذى ينظم وظائف الخلائق جميعا ، كما ينسق بين وجودها جميعا ، وكل هذا من دلائل الإيمان الكونية ، لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك .

وينتقل السياق من دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا ، ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التى لا تتبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ، وتتابع الرسل ، من لدن نوح عليه السلام ، فإذا نحن نشهد موكب الرسل أو أمة الرسل وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة ذات المدلول الواحد والاتجاه الواحد ، فإذا الكلمة التى قالها نوح عليه السلام هى ذاتها بنصها بقولها كل من جاء بعده من المرسلين ، فتجيب البشرية جوابا واحدا تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون .

وتأتى كلمة الحق على لسان نوح عليه السلام كما جاءت على لسان من جاء بعده من الرسل ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئا ، وهذه كلمة الحق التى لا تتبدل ، يقوم عليها الوجود ويشهد بها كل ما فى الوجود ، أفلا تخافون عاقبة الإنكار للعبادة الحقة وتستشعرون مافى إنكارها من تجن على الحق الباهر ، وما يعقب التجنى من استحقاق للعذاب الأليم ؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة ، ولا يتدبرون شواهدها ، فإذا هم يتركون حقيقة الكلمة التى يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود ليتحدثوا عن شخص نوح ، فالقضية كلها فى نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق فى شىء عنهم ، يريد أن يتفضل عليهم وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم ، وهم فى اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التى يتوهمون أنه يعمل لها ، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة فى اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده ، بل يردون فضل الإنسانية التى هم منها ، ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل رسولا من البشر ، إن يكن لابد مرسلا ، فلو أراد أن يرسل رسولا لكان من الملائكة ، ويحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر ، ومثل هذا يقع دائما عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب فلا يتدبر الناس ما بين أيديهم من القضايا .

ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون ، إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون ، وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر ، والتخلية بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة فى الوجود ، فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاتهام لنوح ﷺ بالجنون ، وأن ينتظروا حتى يأخذه الموت ، ويريحكم منه ومن دعوته ، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد .

عندئذ لم يجد نوح ﷺ منفذًا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، ولم يجد موئلا من السخرية والأذى إلا أن يتوجه إلى ربه يطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب ، وشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق ، وكان العلاج هو الطوفان الذى يجتثُّ كل شىء ، ويجرف كل شىء ، ويغسل التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد فتنشأ على نظافة فتمتد وتكبر حتى حين ، وقد شاء الله أن يصنع نوح ﷺ الفلك بيده ؛ لأنه لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما فى طوقه ليستحق المدد من ربه ، فالمدد لا يأتى للقاعدين المستريحين المسترخين الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار .

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤذن ، فإذا جاء الأمر وفار الموقد أو الفرن وانجبس منه الماء ، فتلك هى العلامة ليسارع نوح ، فيحمل فى السفينة بذور الحياة ، فيدخل فيها السفينة من أنواع الحيوان والطيور والنبات زوجين اثنين ، وأن يحمل فيها أهله إلا الذين كفروا وكذبوا فاستحقوا كلمة الله السابقة ، وسننه النافذة ، وهى الهلاك للمكذبين بآيات الله .

وصدر الأمر الأخير لنوح ألا يجادل فى أمر أحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد ولو كان أقرب الأقربين إليه ممن سبق عليهم القول ، وسنة الله لا تحابى ، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم ، من أجل خاطر ولى ولا قريب ، ولا يفصل هنا ما حدث للقوم بعد هذا الأمر ، فقد قضى الأمر وتقرر إغراقهم ، وهذا جزاء الكافرين الذين لم يستمعوا إلى كلمة الحق ولم يهتدوا إلى سواء السبيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة التفكر فى الكون ، وما فيه من بدائع صنع الله تعالى .

٢ ـ حقيقة الإيمان الذى جاء به الرسل جميعا واحدة مع اختلاف الزمان والمكان واللغات .

٣ ـ لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل أقصى ما فى وسعه .

٤ ـ لا محاباة ولا مجاملة فى الدين من أجل خاطر قريب أو صديق .

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

الحزب ٣٥

معانى الكلمات :

استويت : تمكنت من الركوب .

منزلا : مكان نزول .

أنشأنا : خلقنا .

أترفناهم : نعمناهم ووسعنا عليهم .

مخرجون : مبعوثون للسؤال .

افترى : اختلق من عند نفسه وادعى .

غثاء : هالكين .

بعدا : هلاكا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الأنبياء هم المثل الأعلى للبشر ، والقدوة الصالحة التى يجب أن يقتدوا بها .

٢ ـ أن نعرف أن أهل الكفر لا يصدر عنهم إلا ما هو شر وباطل لفساد قلوبهم .

٣ ـ أن نستشعر أن الترف يسبب كثيراً من المفاسد والشرود .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى تعليم نوح عليه السلام كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله ، وكيف يستهديه طريقه ، فعلمه أن يحمد الله الذى نجاه من القوم الظالمين ، وأن ينزله مكانا مباركا ، وأن يعترف له بآياته ، وهكذا يتأدب فى حق العباد وفى طليعتهم النبيون ، ليكونوا أسوة للآخرين ، ثم يعقب على القصة كلها ، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة ، والله تعالى فاعل لما يشاء ، وقادر على كل شيء عليم بكل شيء وهو مختبر للعباد بإرسال الرسل ، والابتلاء ألوان : ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص ، وابتلاء للتقويم ، وفى قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين .

ويمضى السياق يعرض مشهداً آخر من مشاهد الرسالة الواحد والتكذيب المكرور ، واستعراض قصص الرسل فى هذه السورة ليس للتقصى والتفصيل ؛ إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التى جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذى لقوه من الجميع ، ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء ، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة ، ولم يذكر الأسماء فى وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية ، إنما ذكر الكلمة الواحدة فى كل حلقة والاستقبال الواحد ؛ لأن هذا هو المقصود .

ثم أنشأ أمما وخلائق لم يحدد من هم ، وهم على الأرجح عاد قوم هود ، هؤلاء يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفًا بعد سلف ، ثم أرسل إليهم رسولا فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ذات الكلمة الواحدة التى قالها من قبله نوح ، يحكيها بالألفاظ ذاتها ، مع اختلاف اللغات التى كانت تتخاطب بها القرون ، فماذا كان الجواب ؟

إنه الجواب ذاته على وجه التقريب ، فالاعتراض المكرور هو الاعتراض على بشرية الرسول ، وهو الاعتراض الناشئ عن انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة العلوية التى تصل الإنسان بخالقه الكريم، والترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب ، ومن هنا يحارب الإسلام الترف ويقيم الدين،ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود فى الجماعة المسلمة؛ لأنهم كالعفن يفسد ما حوله حتى لينخر فيه السوس ، ويسبح فيه الدود .

ثم يزيد المترفون هنا إنكار البعث بعد الموت والبلى ، ويعجبون من هذا الرسول الذى ينبئهم بهذا الأمر الغريب، ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير فى أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التى لا تتحق بكمالها فى هذه الأرض ، فالخير لا يلقى جزاء الكامل فى الحياة الدنيا والشر كذلك ، فهؤلاء لا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون ، لذلك هم يستعجلون ويعجبون من ذلك الذى يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون فى جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون فى تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد ، يموت جيل ويحيا بعد جيل ، فأما الذين ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، فهيهات هيهات الحياة لهم ، وهيهات هيهات البعث الذى يعدهم به ، وقد صاروا عظاما ورفاتا .

ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة ، والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التى تكشف عنها أطوارها الأولى ، لا يقفون عند هذه الجهالة إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله ، ولا يعرفون الله إلا فى هذه اللحظة ولهذا الغرض من اتهام الرسول ، عندئذ لم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصره من قبله نوح ، وبالعبارة ذاتها التى توجه بها إلى ربه نوح .

وعندئذ وقعت الاستجابة بعد أن استوفى القوم أجلهم ، ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب، وليصبحن فى حسرة وندامة بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ، ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدى المتاب ، فقد اجتمعت عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم ، فأمسوا غثاء ، والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة ، لا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها .

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التى كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم فى الحياة الدنيا ، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى ، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ، فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وذلك من فرائد التعبير القرآنى الدقيق ، ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله للقوم الظالمين ، والبعد عن اهتمام الناس فبعدا فى الحياة وفى الذكرى ، فى عالم الواقع وفى عالم الضمير .

ويمضى السياق بعد ذلك فى استعراض القرون أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل .

هكذا فى إجمال بين طياته فحوى التكذيب من قلوب سيطر عليها الترف والتيه بين زينة حياة قصيرة فى أنفاسها غير أصيلة فى روعة منظرها، ولا تدوم غضارتها ، فخضرتها هى إعلان وفاتها، ولكنه القلب البشرى والنفس الدنية ترى اللحظة عمراً ، والدنيا غاية أهدافها ، ومادرت هذه النفس أن دنياها تلبس سربال القدر ، سارية فى أخاديد الفناء ، تخوض فى مياه آسنة عفنة ولكنه الزكام الذى يأخذ بالأنوف والعمى الذى يغشى العيون ، والران الذى يسيطر على القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التأدب مع الله تعالى والاعتراف بفضله وحمده وشكره على نعمه .

٢ ـ لم يحرم الإسلام التمتع بالطيبات من الرزق ، وإنما حث على أن يأخذ نصيبه منها ويشكر ربه عليها ، ويجعلها وسيلة للسعادة فى الآخرة باستخدامها فى طاعة الله .

٣ ـ الحث على العمل والدعوة إليه فقد اشتغل نوح ﷺ بالنجارة .

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٣٤٥

معانى الكلمات :

أجلها : الوقت المحدد لهلاكها .

يستأخرون : يتأخرون .

تترى : متتابعين .

عالين : متكبرين .

ربوة : مكان مرتفع .

تقطعوا : تفرقوا .

غمرتهم : ضلالهم .

نمدهم : نعطيهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته فى إرسال الرسل بالآيات فى هلاك المكذبين .

٢ ـ أن نقف على آية ولادة عيسى من غير أب .

٣ ـ أن نعلم أنه إن انحرفت الأمة عن دين الله ورزقت سعة العيش كان ذلك استدراجا لها .

المحتوى التربوى :

يلخص السياق تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية فى الأمد الطويل بين نوح وهود فى أول السلسلة وموسى وعيسى فى أواخرها ، كل قرن يستوفى أجله ويمضى ، وكلهم يكذبون ، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله ، وبقيت العبرة ماثلة فى مصارعهم لمن يعتبرون ، تتناقلها القرون،ويختم هذا الاستعراض الخاطف المجمل باللعنة والطرد والاستبعاد من العيون القلوب.

ثم يجمل قصة موسى فى الرسالة والتكذيب لتتمشى مع نسق العرض وهدفه المقصود ، ويبرز فى هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل ، ويزيد عليه تلك الملابسة الخاصة

بوضع بنى إسرائيل فى مصر وهم مسخرون خاضعون ، وهى أدعى فى اعتبار فرعون وملئه إلى الاستهانة بموسى وهارون ، فأما آيات الله التى معهما وسلطانه الذى بأيدهما ، فكل هذا لا إيقاع له فى مثل تلك القلوب المطموسة المستغرقة فى ملابسات هذه الأرض وأوضاعها الباطلة وقيمها الرخيصة .

وإشارة مجملة إلى عيسى ابن مريم وأمه والآية البارزة فى خلفه ، وهى كآيات موسى كذب بها المكذبون ، وتختلف الروايات فى تحديد الربوة المشار إليها أين هى ؟ أكانت فى مصر أم فى دمشق أم فى بيت المقدس ، وهى الأماكن التى ذهبت إليها مريم بابنها فى طفولته وصباه كما تذكر فى كتبهم ـ وليس المهم تحديد موضعها ، إنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما فى مكان طيب ينضر فيه النبت ويسيل فيه الماء ، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

وعندما يصل إلى هذه الحلقة ممن سلسلة الرسالات يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ، كأنما هم متجمعون فى صعيد واحد فى وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التى تربط بينهم جميعا، فيأتى النداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون ؛ فالأكل من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا ، وغاية موصولة بالملأ الأعلى ، وهو نداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض ، فالعمل هو من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا وغاية موصولة بالملأ الأعلى .

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، إنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه إلى أفقها الكريم الوضيء الذى أراده الله لها ، وجعل الأنبياء روادا لهذا الأفق ومثلا أعلى ، والله هو الذى يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق ، وتتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة التى جاء بها الرسل ، ووحدة الطبيعة التى تميزهم ووحدة الخالق الذى أرسلهم ، ووحدة الاتجاه الذى يتجهونه أجمعين ، فأمتهم أمة واحدة ؛ هدفا وغاية وفكرا وشعوراً وسلوكا.

ويمضى السياق فيصور حال الناس بعد أمة الرسل ، تلك الحال التى جاء الرسول الأخيرفوجدهم عليها مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التى جاءهم بها الرسل من قبل جميعا ، ويصور غفلتهم عن الحق الذى جاءهم به خاتم المرسلين ﷺ والغمرة التى تذهلهم عن عاقبة ما هم فيه،بينما المؤمنون يعبدون الله ويعملون الصالحات وهم مع هذا خائفون من العاقبة.

فلقد مضى الرسل صلوات الله عليهم أمة واحدة ، ذات كلمة واحدة ، وعبادة واحدة ، ووجهة واحدة ، فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقى على منهج ولا طريق ، ويخرج

التعبير القرآنى المبدع هذا التنازع فى صورة حسية عنيفة ؛ لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقا ، وقطعوه فى أيديهم قطعا ، ثم مضى كل حزب بالمزقة التى خرجت فى يده ، مضى فرحا لا يفكر فى شىء ، ولا يلتفت إلى شىء مضى ، وأغلق على حسه جميع المنافذ التى تأتيه منها أية نسمة طليقة ، أو يدخل إليه منها أى شعاع مضىء ، وعاش الجميع فى هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه ، مشغولين بما هم فيه ، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة محيية ولا شعاع منير .

وحين يرسم لهم السياق هذه الصورة يتوجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ إلى أن يدعهم فى هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه ، حتى يفجأهم المصير حين يجىء موعده المحتوم ، ويأخذ فى التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم ، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت ، وإمدادهم بالأموال والبنين فى فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم فى الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء، وإنما هى الفتنة ، وإنما هو الابتلاء وهم لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قائم ومن شر مستطير .

وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه الله لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون ، وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال ، إعطاءهم المزيد من المال والبنين هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير ، وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزى والرهق والتعذيب .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ورحمة ، والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله وعدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير ، وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم فقد كشف القناع ووضحت الأمور ، إنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قدرها بمشيئته .

وإلى جانب صورة الغفلة فى القلوب الضالة يبرز صورة اليقظة الحذر فى القلوب المؤمنة ومن هنا يبدو أثر الإيمان فى القلب من الحساسية والإرهاف والتحرج ؛ والتطلع إلى الكمال ، وحساب العواقب مهما ينهض بالواجبات والتكاليف، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به ، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب الأكل من الحلال ، ووجوب الشكر بالطاعة لله ورسوله .

٢ ـ حرمة الاختلاف فى الدين وأنه سبب الكوارث والفتن والمحن .

٣ ـ الغنيمة الحقيقية للناس ليست بأموالهم وأولادهم ، ولكن بإيمانهم وأعمالهم الصالحة .

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٣٤٦

معانى الكلمات :

وجلة : خائفة .

وسعها : طاقتها .

غمرة : غفلة .

مترفيهم : المنعمون منهم .

يجأرون : يصرخون .

تنكصون : تعرضون عن سماعها .

خرجا : أجراً .

لناكبون : منحرفون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على صفات المؤمنين المسارعين فى الخيرات .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن الكريم نعمة عظيمة يجب أن تقابل بشكر المنعم تعالى كما يجب أن نتفهم آياته ونتدبر معانيه ونعمل بمقتضاه .

٣ ـ أن نستشعر الخوف من معاينة العذاب بمواقعه أسبابه التى فعلها مترفو مكة .

المحتوى التربوى :

يكمل السياق صفات المؤمنين ، فهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ولكنهم بعد هذا كله يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم ، يخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

يقول صاحب الظلال : « إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحس آلاءه فى كل نفس وكل نبضة ، ومن يستصغر كل عباداته ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله ونعمائه ، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله فى كل شئ من حوله ،

ومن ثم يشعر بالهيبة ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر فى حقه لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً .

وهؤلاء هم الذين يسارعون فى الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها فى الطليعة بهذه اليقظة ، وبهذا التطلع وبهذا العمل وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون فى غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغرى ، ومثل هذا الطير فى الناس كثير يغمرهم الرخاء وتشغلهم النعمة ويطغيهم الغنى ويلهيهم الغرور حتى يلاقوا المصير » .

تلك اليقظة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم ، والتى يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره فى القلوب ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة ، إنما هى الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته فى السر والعلن ، ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه فى حدود الطاقة ، وكل ما يعملونه محسوب فى سجل ينطق بالحق ، ويبرز ، ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين .

وإنما يغفل الغافلون لأن قلوبهم فى غفلة وضلالة عن القرآن ، ولهم أعمال سيئة من دون ذلك فهم مندفعون فى طريق آخر غير النهج الذى جاء به ، ثم يرسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغتة المفاجئة فهؤلاء يفاجأون بالعذاب الذى يأخذهم أخذا ، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار ، مستغيثين مسترحمين ، ثم هاهم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب ، والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير ، والتذكير بما كان منهم وهم فى غمرتهم مستغرقون من سرهم الفاحش وهجرهم القبيح ، وقد كانوا عندما تتلى عليهم آيات القرآن يتراجعون على أعقابهم مستكبرين عن الإذعان للحق .

ويعود السياق ليسأل ويعجب من موقفهم ذاك الغريب : ما الذى يصدهم عن الإيمان بما جاءهم به رسولهم الأمين ؟ ما الشبهات التى تحيك فى صدورهم فتصدهم عن الهدى ؟ ما حجتهم فى الإعراض عنه ، والسمر فى مجالسهم ، بقالة السوء فيه وهم الحق الخالص والطريق المستقيم ؟

إن مثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه ، ففيه من الجمال ، وفيه من الكمال، وفيه من التناسق وفيه من الجاذبية ، وفيه من موافقة الفطرة ، وفيه من الإيحاءات الوجدانية ، وفيه من غذاء القلب ، وفيه من زاد الفكر ، وفيه من عظمة الاتجاهات وفيه من قويم المناهج وفيه من محكم التشريع ، وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها ، ويأتى السياق بسر الإعراض أنهم لم يتدبروه .

ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم ؟ ! أم يقولون أنه افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول ، وما من شبهة يمكن أن يكون لها أصل ، إنما هى كراهية أكثرهم للحق ، ولو خضع الحق للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد الكون كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، لذا فقد جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكونى تتولاه اليد التى تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا .

وهذه الأمة التى جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذى يتمثل فيه ، ففوق أنه الحق هو كذلك مجدها وذكر، وما كان لها من ذكر لولاه فى العالمين ، وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها فى تاريخ العالم حتى جاءها الإسلام ، وقد ظل ذكرها يدوى فى آذان القرون طالما كانت به مستمسكة ، وقد تضاءل ذكرها عندها تخلت عنه فلم تعد فى العير ولا النفير ، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفىء إلى عنوانها الكبير .

ويعود السياق إلى استنكار موقفهم ، وإلى مناقشة الشبهات التى يمكن أن تصدهم عما جاءهم به الرسول الأمين : فى صيغة سؤال استنكارى : أطلبت منهم أجراً فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية والتعليم ، فإنك لا تطلب إليهم شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، فما عند ربك خير مما عندهم .

وماذا يطمع نبى أن ينال من البشر الضعاف الفقراء المحاويج وهو متصل بالفيض اللدنى الذى لا ينضب ولا يغيض ، بل ماذا يطمع أتباع نبى أن ينالوا من عرض هذه الأرض وهم معلقو الأنظار والقلوب بما عند الله الذى يرزق بالكثير وبالقليل ؟ ألا إنه يوم يتصل القلب بالله يتضاءل هذا الكون كله بما فيه وكل من فيه .

ألا إنما تتطلب هدايتهم إلى المنهج القويم ، وإنهم ككل من لا يؤمنون بالآخرة حائدون عن النهج ضالون عن الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المسلم دوما يشعر بالتقصير مع إحسانه العمل .

٢ ـ قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ويحس آلاءه كل نَفَس وكل نبضة .

٣ ـ لولا القرآن ما كان للعرب ذكر فى العالمين .

الحزب ٣٥

۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

معانى الكلمات :

لجوا : تمادوا .

يعمهون : يتحيرون .

استكانوا : خضعوا

يتضرعون : يتذللون

مبلسون : آيسون .

ذرأكم : خلقكم بالتناسل .

يجير : يحمى من يشاء .

يجار عليه : ولا يغاث أحد منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الكبر والعناد والجهل أسباب للكفر وأضداد للإيمان .

٢ ـ أن نستشعر نعم الله علينا ونشكره عليها .

٣ ـ أن نقف على تسليم الكافرين بأن الله هو الخالق الفاعل المختار لما يشاء .

المحتوى التربوى :

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والذين تنكبوا الطريق لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة ، فإن أصابتهم النعمة حسبوا أنها مسارعة منالهم فى الخيرات ، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم ، ولم تستيقظ ضمائرهم ، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر ، ويظلون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة فإذا هم حائرون يائسون ، وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة ، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله ﷺ .

والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأ والملاذ والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان ، واستيقظ وتذكر ، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء ، فأما حين يسدر فى غيه ويعمه فى ضلاله فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح ، وهو متروك لعذاب الآخرة الذى يفاجئه ، فيسقط فى يده ، ويبلس ويحتار وييأس من الخلاص .

ثم يجول معهم السياق جولة أخرى علها توقظ وجدانهم إلى دلائل الإيمان فى أنفسهم وفى الآفاق من حولهم ؛ فهذا السمع وحده وكيف يعمل ؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟ وهذا البصر وحده وكيف يبصر ؟ وكيف يلتقط الأضواء والأشكال ؟ وهذا الفؤاد ما هو ؟ وكيف يدرك ؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال والمعانى والقيم والمشاعر والمدركات ؟

إن مجرد معرفة طبيعة الحواس وطريقة عملها يعد كشف معجزا فى عالم البشر ، فكيف بخلفها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ، غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة ، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، وهو الواحد الذى تشهد بوحدانيته آثاره فى صنعته ، ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات فى تذوق الحياة والمتاع بها بحس العابد لله فى كل نشاط وكل متاع .

والله تعالى هو الذى خلقكم واستخلفكم فى الأرض بعد ما زودكم بالسمع والأبصار والأفئدة ، وأمدكم بالاستعدادات والطاقات الضرورية لهذه الخلافة وإليه المرجع فيحاسبكم على ما أحدثتم فى هذه الخلافة من خير وشر ، والحياة والموت حادثان يقعان فى كل لحظة ، وليس إلا الله يملك الموت والحياة ، فالبشر ـ أرقى الخلائق ـ أعجز من بث الحياة فى خلية واحدة ، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلبا حقيقيا من حى من الأحياء ، إنما الله هو الذى يحيى ويميت وحده دون سواه .

وهو الذى يملك الليل والنهار ويصرفهما وهو سنة كونية كسنة الموت ، هذه فى النفوس والأجساد ، وهذه فى الكون والأفلاك ، وكما يسلب الحياة من الحى فيعتم جسده ويهمد ، كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن ، ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا عن ذاك بلا فتور وانقطاع إلا أن يشاء الله ، ولكن كثيراً من الناس لا يعقلون ما فى هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصريف الكون والحياة ؟

ويمضى السياق ليحكى مقولاتهم عن البعث والحساب بعد كل هذه الدلائل والآيات ؛ فإذا هم يسخرون مما يوعدون من البعث والجزاء ، أن كان هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل ولم يقع بعد ، والبعث متروك لموعده الذى ضربه الله له وفق تدبيره وحكمته ، ولقد كان مشركو

العرب مضطربى العقيدة لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السموات مدبر السموات والأرض ، المسيطر على السموات والأرض ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله وينسبون له البنات ؛ سبحانه وتعالى عما يصفون .

وهو هنا يأخذ بمسلماتهم التى يقرون بها ؛ ليصحح ذلك الاضطراب فى العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذى تقود إليه مسلماتهم لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون ، وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذى لا يفىء إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل ، ويكشف عن مدى الفساد الذى كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه فى الجزيرة عند مولد الإسلام .

وترد الأسئلة عن ملكية الأرض ومن فيها ، ويعترفون بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله فلا يتذكرون أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره .

ويأتى سؤال عن الربوبية المدبرة المصرفة للسموات السبع والعرش العظيم ، والسموات السبع قد تكون أفلاكا سبعة ، أو مجموعات نجمية سبعة أو سُدما سبعة ، أو عوالم سبعة ، أو أية خلائق فلكية سبعة ، والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود ، فمن هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم ويعترفون أنه لله ، فيجيب السياق بأنه إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه وأنتم تشركون معه أصناما مهينة ، ملقاة على الأرض لا تريم ؟!

ثم يرد سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان ، سؤال عمن بيده ملكية كل شىء ملكية استعلاء وسيطرة ، ومن هو الذى يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد ، ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وأن ينقذ من يريد بسوء من عباده من ؟ فيعترفون بأنه لله ، فما لهم يصرفون عن عبادة الله ؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذى مسه السحر ، ألا إنه الاضطراب والتخبط الذى يصاب به المسحورون .

ما ترشدنا إليه إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأوالملاذ .

٢ ـ الشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة وتمجيده ثم عبادته وحده .

٣ ـ لسنا بمخلوقين عبثا ولا متروكين سدى ، ونحن محاسبون بما أحدثنا من صلاح أوفساد .

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥)
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ
فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

معانى الكلمات :

أعوذ : أعتصم وأحتمى .

همزات : وساوس .

ارجعون : ردونى .

من ورائهم : أمامهم .

برزخ : مانع هو القبر .

أنساب : قرابة .

تلفح : تحرق .

كالحون : عابسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن منهج الإسلام دفع السيئة بالحسنة والصبر حتى يأتى أمر الله .

٢ ـ أن نتحصن بالله من همزات الشياطين فى كل حين .

٣ ـ أن نتعرف على نهاية الظالمين .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك ، وفى اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل ، يجيء هذا التقرير فى أساليب شتى بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكبر ، ثم يفصل فيما هم كاذبون : بأنه تعالى ينزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك ، ثم يأتى بالدليل الذى ينفى دعواهم ، ويصور ما فى عقيدة الشرك من سخف واستحالة ، فلو قدر تعدد الآلهة ؛ لانفرد كل منهم بما خلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض

فى غاية الكمال ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذى لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها فى الكون الذى تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبرة ، وكل جزء فيه وكل شىء يبدو متناسقا مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب ، تعالى الله عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيرا ، فهو يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون ، فليس لغيرة من خلق يستقل به ، ويعلم من دون الله أمره .

وعند هذا الحد يلتفت السياق عن خطابهم وجدلهم وحكاية حالهم إلى الرسول ﷺ يأمره أن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله مع هؤلاء القوم إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ما وعدهم به من العذاب ، وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تثور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون .

ورسول الله ﷺ فى منجاة من أن الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ، ويتحقق ما يوعدون ، ولكن هذا الدعاء زيادة فى التوقى ، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلوا أبداً أيقاظا ، وأن يلوذوا دائما بحماه .

والله قادر على أن يحقق ما وعد به الظالمين فى حياة الرسول ﷺ ، ولقد أراه بعض ما وعدهم فى غزوة بدر ثم فى الفتح العظيم ، فأما حين نزول هذه السورة وهى مكية فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتى هى أحسن ، والصبر حتى يأتى أمر الله ، وتفويض الأمر لله ، واستعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفاعاتهم وهو معصوم منها ، زيادة كذلك فى التوقى وزيادة فى الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من مجرد قرب الشياطين لا من همزاتهم ودفعاتهم ، ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم إياه ساعة الوفاة .

يقول ابن القيم فى (بدائع الفوائد) : « المستعاذ به هو الله وحده الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر ما استعاذوا به من شره ، وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا ، فقال حكاية عن مؤمنى الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾ ، جاء فى التفسير : إنه كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفز قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح ، فزاد الإنس الجنَّ باستعاذتهم بسادتهم طغيانا وإثما وشراً ، يقولون : سدنا الإنس والجن » .

ويأتى السياق بالدرس الأخير فى السورة فيستطرد فى الحديث عن نهاية المشركين ، فيبرزها فى مشهد من مشاهد القيامة ، يبدأ بمشهد الاحتضار فى الدنيا ، وينتهى هنالك بعد النفخ فى الصور فيأتى مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار ، مشهود كالعيان فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغى العناية بها أو بقائلها ، إنها كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب ، كلمة تقال فى لحظة الضيق ليس لها فى القلب من رصيد .

وبهذا ينتهى مشهد الاحتضار ، وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعا ، فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب وأسدلت الأستار فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة ، إنما هم فى ذلك البرزخ بين بين إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك إليوم يصوره ويعرضه للأنظار ، ففيه تنقطع الروابط ، وسقطت القيم التى كانوا يتعارفون عليها فى الدنيا ، ويشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ، ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن فى سرعة واختصار ، فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة فأولئك الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة . فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا .

أما من ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خابوا وهلكوا ، وباؤوا بالصفقة الخاسرة فى جهنم مقيمون لا يظعنون ، النار تلفح وجوههم ، ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح ، وتشوه هيئتها ويكدر لونها ، مشهد مؤذ أليم ، وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شىء ، فقد خسروا أنفسهم ، وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذى يتبقى له .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يظل يقظا ، ويلوذ بحمى الله دائما .

٢ ـ على المسلم أن يفوض أمره إلى الله ويدفع السيئة بالحسنة .

٣ ـ من يخف ميزانه يوم القيامة يخسر كل شىء .

٤ ـ وجوب الاستعاذة من الشياطين وهمزاتهم .

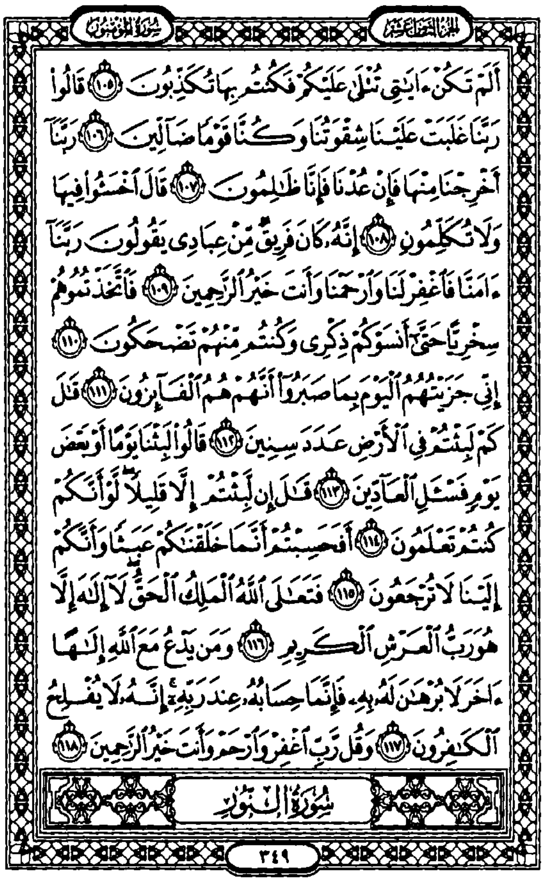

معانى الكلمات :

شقوتنا : شقاوتنا .

ضالين : منحرفين عن الهدى .

اخسؤوا : اسكتوا سكوت الذلة والهوان .

سخريا : مهزوءاً بهم .

العادين : الحاسبين .

عبثا : لعبا بلا ثواب ولا عقاب .

برهان : حجة .

يفلح : ينجو .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه .

٢ ـ أن نقف على حسرة أهل النار .

٣ ـ أن نستشعر هول يوم القيامة وشدة الفزع فيه .

المحتوى التربوى :

يعدل السياق عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسى على فظاعته أهون من التأنيب والخزى الذى يصاحبه ، وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهد فى حوار ممضٍ طويل ، وكأنما يخيل إليهم وقد سمعوا هذا السؤال أنهم مأذونون فى الكلام ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف بالذنب قد يجدى فى قبول الرجاء ، فاعترفوا بأنهم قد غلبت عليهم الحجة وكانوا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها ، فضللنا عنها ولم نُرْزَقها .

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة ، ولكن كأنما هم تجاوزوا حدهم وأساؤوا أدبهم ، فلم يكن مأذونًا لهم فى غير الإجابة على قدر السؤال ، بل لعله كان سؤالا للتبكيت لا يطلب عليه

منهم جواب فهم يزجرون زجراً عنيفا قاسيا بأن يخرسوا ويسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين.

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا ، ووراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته ، وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبير والتفكر فى دلائل الإيمان المبثوثة فى صفحات الوجود ، فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون فقد جزاهم الله على أذاكم لهم واستهزائكم منهم بالسعادة والسلامة والجنة ، والنجاة من النار .

وبعد هذا الرد القاسى المهين وبيان أسبابه ، وما فى هذا البيان من ترذيل وتبكيت ، يبدأ استجواب جديد عن مقدار لبثهم فى الأرض ، وأن الله سبحانه ليعلم ، ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض ، واستقصار أيامهم فيها ، وقد باعوا بها حياة الخلود ، وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها ، وإنهم ليائسون ضيقو الصدر ، لا يعنيهم حسابها وعدتها ، وهى إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط .

والرد : إنكم لم تلبثوا إلا قليلا بالقياس إلى ما أنتم عليه مقبلون لو كنتم تحسنون التقدير أثم عودة إلى الترذيل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق ، فحكمة البعث من حكمة الخلق ، محسوب حسابها ، ومقدر وقوعها ، ومدبر غايتها ، وما البعث إلا حلقة فى سلسلة النشأة ، تبلغ بها كمالها ويتم فيها تمامها ، ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون ، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى ، وهى متجلية فى صفحات الكون ، مبثوثة فى أطواء الوجود .

وتنتهى بسورة الإيمان بتقرير القاعدة الأولى للإيمان .. التوحيد ، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله ، فى مقابل الفلاح فى أول السورة للمؤمنين ، وبالتوجه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين ، وهذا التعقيب يجىء بعد مشهد القيامة السابق ، وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبينات ، يجىء نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة ، وهو يشهد بتنزيه الله ـ سبحانه ـ عما يقولون ويصفون ، ويشهد بأنه الملك الحق والمسيطر على الحق ، الذى لا إله إلا هو صاحب السلطان والسيطرة فهو رب العرش صاحب الكرم.

وكل دعوى بألوهية أحد مع الله فهو دعوى ليس معها برهان ، لا من الدلائل الكونية ، ولا من منطق الفطرة ، ولا من حجة العقل ، وحساب مدعيها عند ربه ، والعاقبة معروفة ، فالكافرون لا يفلحون ، وهذه سنة نافذة لا تتخلف ، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير .

وكل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع ، وقوة وسلطان فى بعض الأحيان ، فليس فلاحا فى ميزان القيم الحقيقية ؛ إنما هو فتنة واستدراج ينتهى بالوبال فى الدنيا ، فإن ذهب بعضهم ناجين فى الدنيا ، فهناك فى الآخرة يتم الحساب ، والآخرة هى الشوط الأخير فى مراحل النشأة ، وليست شيئا منفصلا فى تقدير الله وتدبيره ، ومن ثم هى ضرورة لابد منها فى النظرة البعيدة .

وآخر آية فى سورة «المؤمنون » ، هى اتجاه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران ، وهنا يلتقى مطلع السورة وختامها فى تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، وفى تقرير صفة الخشوع فى الصلاة فى مطلعها والتوجه إلى الله بالخشوع فى ختامها ، فيتناسق المطلع والختام فى ظلال الإيمان .

إنها طرقات متوالية على الحس ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنَّوة غارقين فى يبات عميق، فالسورة بشير ونذير، بشير لمن سلك الطريق القويم إلى ربه، ونهج فى حياته نهج الإيمان، السورة تشير لمن أبصر فتبصر ، وأخذ بيده عقبات السير فى سبيل الرشاد فقذف بها خلف ظهره وقلبه وعقله وشعوره وسلوكه ، إنها بشارة الأمل إن حاولت غيوم اليأس أن تستبد .

والسورة نذير لتنهض الهمم وتستيقظ المشاعر ، وتفزع النفوس حتى لا تصرع العيون بصيرة الفوارق بين هذا وهذا ، وهذه وتلك ، فهى عدسة مكبرة لأشياء ربما تبدو صغيرة متناهية ، ولعلها سبب من أهم الأسباب التى تفلح وتخسر ، وقد أثبت منهج التجربة والاستقراء فعالية فى قرارة النفوس حتى تطمئن ، وفى النتائج حتى تصح، وسورة المؤمنين تعلن كيف يكون الإيمان ؟ وعلى أى صفة يكون المؤمنون ؛ أنها تعلن من أين يبدأ المؤمن وإلى أين ينتهى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ العذاب لا يكون يوم القيامة بالحرق فقط وإنما هناك عذاب التأنيب واللوم والحسرة .

٢ ـ فضيلة الصبر عظيمة والجزاء عليها عند الله عظيم .

٣ ـ استحباب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين والمؤمنات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(١) ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥) وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ
فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٦)
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا۟
عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
(٨) وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٩)
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سورة النور

معانى الكلمات :

فرضناها : أوجبنا أحكامها .

بينات : واضحات .

رأفة : عطف وحنان .

المحصنات : العفيفات .

يرمون : يتهمون .

لعنة الله : الطرد من رحمته .

يدرأ : يدفع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التشريع لله وحده خالق البشر والكون كله والعالم بما يصلحه ، والحكيم فى شرعه .

٢ ـ أن نعلم أن الحدود شرعت لصيانة الأنساب ولحفظ الأموال والأنفس .

٣ ـ أن نقف على عقوبة الزنا ، وطريقة اللعان .

المحتوى التربوى :

بإعلان قوى حاسم تبدأ هذه السورة بكل مافيها من حدود وتكاليف من آداب وأخلاق ، ويدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقى فى الحياة ، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية .

ومطلع السورة مطلع فريد فى القرآن كله ، الجديد فيه كلمة فرضناها ، والمقصود بها ـ فيما نعلم ـ توكيد الأخذ بكل مافى السورة على درجة سواء ، ففرضية الآداب والأخلاق كفرضية الحدود والعقوبات هذه الآداب والأخلاق المذكورة فى الفطرة ، والتى ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات ، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات ، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين .

ويتبع هذا المطلع القوى الصريح الجازم ببيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعلة التى تقطع ما بين فاعليها وبين الأمة المسلمة من وشائج وارتباطات ، والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء ، وهو الذى لم يحصن بالزواج ، ويوقع عليه متى كان مسلما بالغاً عاقلاً حراً ، فأما المحصن وهو من سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم بالغ فحده الرجم ، وقد ثبت الرجم بالسنة وثبت الجلد بالقرآن ، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم .

ونمضى مع حكمة التشريع فنرى أن عقوبة البكر هى الجلد ، وعقوبة المحصن هى الرجم ؛ ذلك أن الذى سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ قد عرف الطريق النظيف وجربه ، فعدوله عنه إلى الزنا يشى بفساد فطرته وانحرافها ، فهو جدير بتشديد العقوبة ، بخلاف البكر الغفل الغر الذى قد يندفع تحت ضغط الميل ، وهناك فارق آخر فى طبيعة الفعل، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر فهو حرى بعقوبة كذلك أشد .

والقرآن يذكر هنا حد البكر وحده فيشدد فى الأخذ به دون تسامح ولا هوادة ، فهى الصرامة فى إقامة الحد ، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته تراخيا فى دين وحقه ، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين فيكون أرجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

ثم يزيد فى تفظيع الفعلة وتبشيعها فيقطع ما بين فاعليها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة ، والذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون ، إنما يكون فى حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان ، وبعد ارتكابها لا ترضى النفس المؤمنة أن ترتبط فى نكاح مع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة ؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز ، والآية تفيد استبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد ، وتحرم نكاح المؤمن للزانية ما لم تتب ونكاح المؤمنة للزانى كذلك وهو ما أخذ به الإمام أحمد .

والإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ويرقيها حتى تصبح المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية ، والإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة ، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ فى الوحل طائعا غير مضطر ، فالإسلام لا يقيم بناءه على العقوبة بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ، وعلى تهذيب النفوس وتطهير الضمائر وعلى الحساسية التى يثيرها فى القلوب ، والرأفة بالزناة الجناة هو قسوة على الجماعة وعلى الآداب الإنسانية وعلى الضمير البشرى ، وهى رأفة مصطنعة فالله أرأف بعباده وقد اختار لهم .

وكما قلنا إن الإسلام لا يغنى وحده فى صيانة حياة الجماعة بل يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير الحياة كلها من رائحة الجريمة ، لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة ، ثم يمضى فى الطريق خطوة أخرى فى استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة

فيعاقب على قذف المحصنات واتهامن دون دليل أكيد ، وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التى تصب عليهم ، شدد القرآن الكريم فى عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ؛ ثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق ، ويكفى أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشى بينهم متهما لا يوثق له بكلام ، فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم ، وتظل العقوبات التى توقع على القاذف بعد الحد مصلتة فوق رأسه إلا أن يتوب .

ذلك حكم القذف العام ، ولكن استثنى منه أن يقذف الرجل امرأته مطالبته بأن يأتى بأربعة شهداء فيه إرهاق له وإعنات ، والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقا لما فى ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه ؛ لذلك جعل لهذا النوع من القذف حكم خاص .

وفى هذه النصوص تيسير على الأزواج يناسب دقة الحال وحرج الموقف ، ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته وليس له من شاهد إلا نفسه ، فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق فى دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد ، فإذا فعل أعطاها قدر مهرها وطلقت منه طلقة بائنة ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم ، ذلك إلا أن ترغب فى درء الحد عنها ، فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات أنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يمينا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقا وهى كاذبة ، بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ، ولا ينسب ولدها إن كانت حاملا إليه بل إليها ، ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد .

قال السيوطى فى الإكليل : « فى الآية تحريم القذف، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أى عفيفة ، ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنا ، لا يحد للقذف ، ويصرح بذلك قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ وفيه أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ولا أقل ولا نساء ، وسواء شهداء مجتمعين أو متفرقين .. » .

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ومراعاة الأحوال والظروف بأنه لولا فضل الله ورحمته ، يمثل هذه التيسيرات ، والتوبة بعد مقارفة الذنوب ، ولم يبين ما الذى كان ويكون لولا هذا الفضل ليبقى مرهوبا يتقيه المتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الأحكام الشرعية يجب تنفيذها بدقة وتطبيقها على الوجه الأكمل مع عدم المجاملة أو المحاباة .

٢ ـ يجب أن تنفذ الحدود على مرأى من الناس حتى يخاف أهل الفجور ، ويكفوا عن ارتكاب الجرائم .

٣ ـ تحريم رمى المحصنات بالفاحشة ، ويجب الستر على المسلمين والمسلمات .

الجزء الثامن عشر — سورة النور

إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو
خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى
كبره منهم له عذاب عظيم ﴿١١﴾ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون
والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴿١٢﴾ لولا
جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك
عند الله هم الكاذبون ﴿١٣﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته
فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴿١٤﴾
إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم
وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴿١٥﴾ ولولا إذ سمعتموه
قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم
﴿١٦﴾ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴿١٧﴾
ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿١٨﴾ إن الذين
يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم
فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١٩﴾ ولولا
فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴿٢٠﴾

٣٥١

معانى الكلمات :

الإفك : أقبح الكذب .

عصبة : جماعة .

كبره : معظمه .

مسكم : أصابكم .

أفضتم فيه : تكلمتم فيه بغير علم .

أفواهكم : ألسنتكم .

بهتان : كذب محير .

تشيع : تنتشر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على شناعة وبشاعة جريمة القذف وعقوبته فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ أن نتعرف على طهارة زوجات النبى ﷺ وشرفهن ، ومكانة السيدة عائشة عند الله وعند رسوله ﷺ .

٣ ـ أن نعلم كراهة اليهود والمنافقين للإسلام والمسلمين ، وكيدهم للدعوة .

المحتوى التربوى :

بعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ، وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبى بكر ﷺ ، أكرم إنسان على رسول الله ﷺ ، وعرض رجل من الصحابة ـ صفوان بن المعطل ﷺ ـ يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه إلا خيراً ، وهو يشغل المسلمين فى المدينة شهراً من الزمان .

ذلك هو حديث الإفك الذى تطاول إلى المرتقى السامى الرفيع ، وحادث الإفك هذا قد كلف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من

أشق التجارب فى تاريخها الطويل ، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التى يحبها ، وقلب أبى بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل شهراً كاملا ، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذى لا يطاق .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها يتعطف الله تعالى على رسوله ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع،ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم ، ولقد تجاوز هذا الأمر السيدة عائشة إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته فى الجماعة يومها ، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها ، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة فى شخص نبيها وبانيها ، من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل فى القضية المبتدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ويكشف الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله .

والذى جاء بالإفك لم يكن عبد الله بن أبى ابن سلول وحده الذى أطلق ذلك الإفك ، إنما هو الذى تولى معظمه وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية ، وكان حادث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون، فخاض منهم من خاض فى حديث الإفك كحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة وعلى رأسها ابن سلول الحذر الماكر .

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث وعمق جذوره ، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم ، ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد ، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام ، ويكشف عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله ، وهو خير أن يكشف للجماعة المسلمة عن المنهج القويم فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

والذين خاضوا الإفك فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة ، ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله ، وبئس ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم ، ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه ، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج فى مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة فى الحكم عليها ، وكان الأولى أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وهذه هى الخطوة الأولى ، أما الثانية ، فهى طلب الدليل الخارجى والبرهان الواقعى بالإتيان بأربعة شهداء وإلا كان القذف كذبا وفرية .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفسار الضمير ، وخطوة التثبيت بالبينة والدليل غفل عنهما المؤمنون فى حادث الإفك ،وتركوا الخائضين يخوضون فى عرض رسول الله ﷺ ، وهذا أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم ، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم ، فيأخذوا الكلام بالألسنة بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر ، فيقولوا ما ليس لكم به علم ويحسبوا قذف عرض الرسول ﷺ لا ذنب فيه وهو عظيم عند الله ، وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذى تزلزله الرواسى ، وتضج منه الأرض والسماء.

وكان الأولى أن تنكر القلوب مجرد سماعه ، وتتحرج من مجرد النطق به ، وأن تتوجه إلى الله تنزها عن أن يدع نبيه لمثل هذا ، ويأتى أسلوب التربية المؤثر بالتحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم ، مع تعليق الإيمان على الانتفاع بتلك العظة ، والله يكشف الأمور ويعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب وهو حكيم فى علاجها وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التى تصلح بها .

ثم يمضى السياق فى التعقيب على حديث الإفك ، وما تخلف عنه من آثار ، مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، والذين يرمون المحصنات إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها ، بذلك تشيع الفاحشة فى النفوس لتشيع بعد ذلك فى الواقع .

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وذلك جانب من منهج التربية وإجراء من إجراءات الوقاية ، يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها ، ومن ذا الذى يعلم أمر هذه النفس إلا الذى خلقها ؟ ومن ذا الذى يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذى برأها ؟ ومن الذى يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على علمه شىء إلا العليم الخبير .

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته ، فالشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء ، ولكن فضل الله ورحمته ورأفته ورعايته ، ذلك ما وقاهم السوء ، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التى شملت حياة المسلمين.

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ابتلاء الرسول ﷺ واختباره فى أعز الناس لديه ، ليكون قدوة فى الصبر وتحمل الأذى وحسن التصرف .

٢ ـ العقاب على قدر الجريمة ، والجزاء على قدر العمل .

٣ ـ مجتمع المسلم نظيف طاهر وعلى المسلم ألا يفرط فى طهارته ويشيع الفاحشة فيه .

الجزء الثامن عشر — سورة النور — الحزب ٣٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ
وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)

٣٥٢

معانى الكلمات :

الفحشاء : ما عظم قبحه من الذنوب .

المنكر : ما لا يحبه الله .

زكى : تطهر من الذنوب والآثام .

يأتل : يقصر .

المحصنات : العفيفات .

الغافلات : النقيات القلوب .

لعنوا : طردوا من رحمة الله .

تستأنسوا : تستأذنوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الشيطان عدو ظاهر العداوة للإنسان .

٢ ـ أن نتعلم أن الأخلاق الكريمة لا تكون إلا من النفوس الكبيرة .

٣ ـ أن نعرف استحقاق الخبث أهله والطيب أهله .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيحذر من اتباع الشيطان ، وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان ، فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان ، وأن يسلكوا غير طريقه المشؤوم ، صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ، ورسم هذه الصورة ، ومواجهة المؤمنين بها يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية . وإن الإنسان لضعيف ، معرض للنزاعات ، عرضة للتلوث إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إلى الله ، ويسير على نهجه ، فنور الله الذى يشرق فى القلب يطهره ويزكيه ، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر ، والله يسمع ويعلم ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد فهو سميع عليم .

وعلى ذكر التزكية والطهارة تأتى الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب ، فقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه ، وهو قريبه ، وهو من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر ﷺ ينفق عليه ، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحا بنافعة أبداً ، فذكّر قول الله أبا بكر والمؤمنين بأنهم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم ، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذى يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه إن كانوا قد أخطؤوا وأساءوا .

وهنا تطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية التى تطهر بنور الله ، أفق يشرق فى نفس أبى بكر الصديق ﷺ ، أبى بكر الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ويرتفع على منطق البيئة ، فإذا هو يلبى داعى الله فى طمأنينة وصدق يقول : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ويعيد إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبداً ذلك فى مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبداً ، بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ويغسله من أوضار المعركة ؛ ليبقى أبداً نظيفا طاهراً زكيا مشرقا بالنور .

ذلك الغفران الذى يذكر الله المؤمنين به ؛ إنما لمن تاب عن خطيئة رمى المحصنات وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث ، وعن إصرار فلا سماحة ولا عفو ، ولو أفلتوا من الحد فى الدنيا ؛ لأن الشهود لم يشهدوا ، فإن عذاب الله ينتظرهم فى الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود ، ويجسم التعبير جريمة رمى المحصنات المؤمنات ، وهن غافلات غارّات تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة ، ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، ويوم القيامة تتهم جوارحه بعضها بعضا ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ، ويجزيهم الله الجزاء العدل ، ويؤدى لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « هذه الآية عامة فى كل من يرمى محصنة ، وهى التى عرفت بالتقوى والبعد عن الخنا ... ، ومن يكون لسانه غير منضبط ، يرسل القول إرسالا بين المؤمنين فى المحصنات ، فهى تعم كل من ليس عفيف اللسان ، يرمى النساء بالفحش لأدنى شبهة ، وإن الكامل يعف لسانه عن النطق بالهجر » .

ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة ، وحققه فى واقع الناس ، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة ، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج ، وما كان يمكن أن تكون عائشة رضى الله عنها كما رموها ، وهى مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض ، والطيبون والطيبات بفطرتهم

وطبيعتهم لا يلتبس بهم شىء مما قيل ، ولهم مغفرة عما يقع منهم من أخطاء ورزق كريم، دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم ، وقد جعل الله هذه المحنة معرضا لتربية الجماعة المسلمة حتى تشف وترق وترتفع إلى آفاق النور .

والإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء مجتمعه النظيف ـ كما أسلفنا ـ إنما يعتمد قبل كل شىء على الوقاية ، وهو لا يحارب الدوافع الفطرية ، ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالى من المثيرات المصطنعة ، ومنهج التربية الإسلامية فى هذه الناحية هو تضييق فرص الغواية وإبعاد عوامل الفتنة وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة.

ومن هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها ، فلا يفاجأ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، وعلى عورات أهلها وهم غافلون ، ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات .

ولقد جعل الله للبيوت سكنا يفىء إليها الناس ، فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما أمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا عليها الناس ، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ، وتلتقى بمفاتن تثير الشهوات وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالى ، أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول ، ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس ، وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التى يجىء بها الطارق ، فتحدث فى نفوس أهل البيت أنسا به ، واستعدادا لاستقباله ، وهى لفتة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس فى بيوتهم ، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ، ويحرجوا أمام الطارقين فى ليل أو نهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على المسلم أن يخالف طرق الشيطان المنحرفة عن الحق .

٢ ـ الله سبحانه وتعالى واسع الرحمة يقبل توبة التائبين إذا ندموا ، ولم يعودوا إلى معصية .

٣ ـ ضرورة التثبت والتأكد بالدليل القاطع من آية شائعة قبل تناقلها وروايتها .

٤ ـ على المسلم أن يستأذن قبل الدخول لمن أراد أن يدخل بيتا .

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

معانى الكلمات :

أزكى : أطهر .

جناح : إثم .

متاع لكم : مصلحة لكم .

يغضوا : يكفوا .

وليضربن : وليغطين .

التابعين : أشباه الأقارب .

أولى الإربة : الذين يشتهون النساء .

يظهروا : يطلعوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية .

١ ـ أن نتعلم آداب الاستئذان .

٢ ـ أن نتعرف على فوائد غض البصر .

٣ ـ أن تقف المرأة على حرمة إظهار زينتها لغير المحارم ، وتعرف درجات المحارم .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق بعد الأمر بالاستئذان فيذكر أن البيوت إما أن يكون فيها أحد أو لا يكون ، فإن لم يكن فيها فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ؛ لأنه لا دخول بغير إذن ، وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب للإذن ، فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك ، ويجب الانصراف دون تلكؤ ولا انتظار .

وإن كانت الإجابة على إذنكم بأن ترجعوا فارجعوا دون أن تجدوا فى أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم أو النفرة منكم ،فللناس أسرارهم وأعذارهم ، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم فى كل حين ، والله هو المطلع على خفايا القلوب وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب : **أولها** : أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس . **وثانيها** : احترام الملكية ، سواء

أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه ، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرًا ، **وثالثها** : إزالة وحشة المفاجأة » .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج فى الدخول إليها فى غير استئذان دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية ، فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ، ورقابته لكم فى سركم وعلانيتكم ، وفى هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامتثالها لذلك الأدب العالى ، الذى يأخذها الله به فى كتابه الذى يرسم للبشرية نهجها الكامل فى كل اتجاه ، فالقرآن منهج حياة ، فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كليا وجزئيا ، والاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التى تجعل منها مثابة وسكنا ، ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغتة والتأذى بانكشاف العورات وهى عورات كثيرة تعنى غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة ، إنها ليست عورات البدن وحدها ؛ إنما تضاف إليها عورات الطعام وعورات اللباس وعورات الأثاث التى قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد ، وهى عورات المشاعر والحالات النفسية ، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو فى حالة ضعف يبكى لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء ؟ !

وبعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت ـ وهو إجراء وقائى فى طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة يأخذ على الفتنة الطريق كى لا تنطلق من عقالها ، بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة وبدافع الحركة المعبرة الداعية إلى الغواية ، فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين ، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفئ ولا يرتوى ، وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة .

وفى الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين ، فغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة فى الاطلاع على المحاسن والمفاتن فى الوجوه والأجسام كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية ، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة فى مراحلها الأولى ، ومن ثم يجمع بينها فى آية واحدة بوصفها سببا ونتيجة أو خطوتين متواليتين .

وهذا أطهر للمشاعر وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية فى غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيوانى الهابط ، وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها وجوها الذى تتنفس فيه ، والله هو الذى يأخذهم بهذه الوقاية ، وهو العليم بتركيبهم النفسى وتكوينهم الفطرى ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم .

وغض البصر للمؤمنات فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة فى صدور الرجال ، ولا يبحن فروجهن إلا فى حلال طيب ، يلبى داعى الفطرة فى جانب نظيف ، لا تخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة .

والزينة حلال للمرأة تلبية لفطرتها ، والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة ؛ يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه ، ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها المحارمُ المذكورة فى الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع ، وما ظهر من الزينة فى الوجه واليدين فيجوز كشفه ، والمؤمنات قد أمرت بالخمار، وهو غطاء الرأس والنحر والصدر ليدارى مفاتنهن، فلا يعرضها للعيون الجائعة، ولا حتى لنظرة الفجاءة التى ينفى المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد تترك كمينا فى أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة ، والله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة أو الابتلاء فى هذا النوع من البلاء .

وهذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة ، ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة ، فيستثنى المحارم الذين لا تتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم : الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبناؤهم ، والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، كما يستثنى النساء المؤمنات ، فأما غير المسلمات فلا ؛ لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخواتهن وأبناء ملتهن ، أما المسلمات فهن أمينات .

ويستثنى كذلك ملك اليمين ـ قيل من الإناث فقط ، وقيل من الذكور كذلك ـ لأن الرقيق لا تمتد شهوته إلى سيدته والأول أولى ، ويستثنى الذين لا يشتهون النساء لسبب من الأسباب كالجب والعتة والبلاهة والجنون وسائر ما يمنع الرجل أن تشتهى نفسه المرأة ، ويستثنى الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس ، فإذا ميزوا وثار فيهم هذا الشعور ، فهم غير داخلين فى هذا الاستثناء ، وهؤلاء كلهم عدا الأزواج ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها إلا ما تحت السرة إلى تحت الركبة لانتفاء الفتنة .

ولما كانت الوقاية هى المقصودة نهت الآية المؤمنات عن الحركات التى تعلن عن الزينة المستورة ، ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة ، وفى النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ، ويفتح لها باب التوبة مما ألمت به قبل نزول القرآن .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الرخصة فى عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة للعبد فيها غرض .

٢ ـ وجوب غض البصر وحفظ الفرج .

٣ ـ وجوب ستر المرأة زينتها ومواضع ذلك ما عدا ما يتعذر ستره . للضرورة ، وذلك عدا الأزواج ، والمحارم .

٤ ـ وجوب التوجه من كل ذنب وعلى النور للحصول على الفلاح العاجل والآجل .

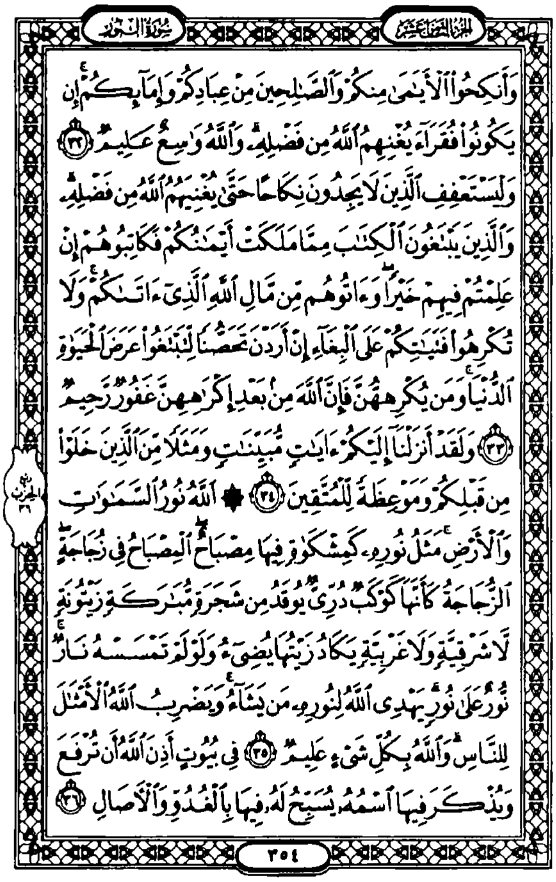
الجزء الثامن عشر — سورة النور

وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن
يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴿٣٢﴾
وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله
والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن
علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا
تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة
الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم
﴿٣٣﴾ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا
من قبلكم وموعظة للمتقين ﴿٣٤﴾ ۞ الله نور السماوات
والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة
الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة
لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار
نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال
للناس والله بكل شيء عليم ﴿٣٥﴾ في بيوت أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴿٣٦﴾

٣٥٤

معانى الكلمات :

الأيامى : من لا زوج له .

عبادكم : المملوكين لكم .

الكتاب : عقد المكاتبة .

فتياتكم : إمائكم .

البغاء : الزنا .

تحصنا : تعففا .

درى : متلألئ .

ترفع : تعظم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الحلول الواقعية فى مواجهة الميول الجنسية الفطرية .

٢ ـ انتداب المسلمين إلى التكافل فى أمر الزواج حرصا على نظافة المجتمع .

٣ ـ أن نستشعر فيض النور الإلهى ، ومحل هذا النور .

المحتوى التربوى :

إلى هنا كان علاج المسألة علاجا نفسيا وقائيا ، ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة ، لابد من مواجهتها بحلول واقعية إيجابية ، هذه الحلول الواقعة هى تيسير الزواج والمعاونة عليه ، مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقها نهائيا ، فالزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة ، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها ، والعقبة المالية هى العاقبة الأولى فى طريق بناء البيوت وتحصين النفوس ، والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال ، وطالب بإنكاح الأيامى وهم الذين لا أزواج لهم من الجنسين من الأحرار ، وأفرد الرقيق بالذكر ، وكلهم

ينقصهم المال ، فعلى الجماعة أن تعين الراغبين منهم فى الزواج وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة ، وهو واجب ووسيلة الواجب واجبة .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالا ونساء ، فالرزق بيد الله ، وقد تكفل الله بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف .

وفى انتظار قيام الجماعة المسلمة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج، والله لا يضيق على من ينبغى العفة ، وهو يعلم بنيته وصلاحه .

ولما كان وجود الرقيق ضرورة إذا ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين ، لما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلها واتت الفرصة ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته ، وذلك فى مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته ، وهذا يتمشى مع خط الإسلام الرئيسى فى الحرية ، وفى كرامة الإنسانية ، ومنذ المكاتبة يصبح مال الرقيق له وأجر عمله له ، ليوفى منه ما كاتب عليه ، ويجب له نصيب فى الزكاة ، ذلك على شرط أن يعلم المولى فى الرقيق خيراً ، والخير هو الإسلام أولا ، ثم هو القدرة على الكسب فلا يتركه كلاًّ على الناس بعد تحرره .

ويمضى السياق فينهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث ، ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة بعد الإكراه الذى لا يد لهن فيه ، ويعقب السياق على هذا الشوط بصفة القرآن التى تناسب موضوعه وجوه ، فهو آيات مبينات لا تدع مجالا للغموض والتأويل والانحراف عن المنهج القويم ، وهو عرض لمصائر الغابرين وكان مصيرهم النكال ، وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى وتستقيم .

بهذا التعليم وهذا التهذيب وهذا التوجيه عالج الكيان البشرى حتى أشرق بالنور ، واستشرف النور الكبير الذى فى السموات والأرض ، وهو على استعداد لتلقى الفيض الشامل الغامر فى عالم كله إشراق وكله نور ، ويفيض النور الهادئ الوضىء نور رب العالمين ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب فى الحنايا والجوانح .

يقول ابن القيم فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية) : « سمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه نوراً ، وجعل كتابة نورا ، ورسوله ﷺ نوراً ، ودينه نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ ، فهو منوّر السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض ،

فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض وهذا إنما هو فعله ، وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .

ومثل نور الله سبحانه فى قلب عبده ، وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسول الله ﷺ ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادى لنوره من يشاء ، والقابل : العبد المؤمن ، والمحل : قلبه ، والحامل : همته وعزيمته وإرادته ، والمادة : قوله وعمله » .

فمثل نوره تعالى فى قلب عبده المؤمن كمثل مصباح صافٍ لامع لمعان كوكب مشرق يتلألأ كالدر ، ويستمد هذا المصباح وقوده من شجرة كثيرة البركات طيبة التربة والموقع ، وهى شجرة الزيتون المغروسة فى مكان معتدل متوسط فى الفضاء بحيث تفيد من الشمس فى جميع أجزاء النهار، ويكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضىء ولو لم تمسسه نار ، فكيف إذا مسته نار ؟! كل هذه العوامل تزيد المصباح إضاءة ونوراً على نور، والله يوفق من يشاء إلى اتباع نوره ، والإيمان به وبقرآنه، وقد أتى ـ سبحانه ـ بهذه الأمثلة المحسوسة ؛ ليسهل إدراك الأمور المعقولة ، وهو سبحانه وتعالى واسع العلم .

ويأتى السياق فيعقد صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية فى عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب ، وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور فى المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور فى بيوت الله ، تلك البيوت أذن الله فى رفعها ، فهى مرفوعة قائمة ، وهى مطهرة رفيعة ، يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق فى السموات والأرض ، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنى الوضىء ، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهية ، قلوب الرجال مع تعاطيهم التجارة ، لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة ، ويؤدون حق العباد فى الزكاة ، فهم يخشون يوما تتقلب فيه القلوب فلا تثبت على شىء من الهول والكرب والاضطراب،وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله، ورجاؤهم لن يخيب فى فضل الله، ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة) من فضله الذى لا حدود له ولا قيود .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحث على تيسير أسباب الزواج لما فيه من حكم سامية ، وغايات نبيلة ،وفوائد جليلة .

٢ ـ الإسلام لم يشرع الرق،وإنما فتح أبواب التحرر أمام العبيد والإماء بما شرعه من المكاتبة.

٣ ـ الإيمان نور والكفر ظلمات ، والمؤمن دائما بين الخوف والرجاء يخشى عقاب الله ويرجو رحمته .

معانى الكلمات :

تلههم : تشغلهم .

سراب : الماء الوهمى .

بقيعة : أرض مستوية .

لجى : عميق .

يغشاه : يعلوه .

صافات : باسطات .

يزجى : يسوق .

الودق : المطر .

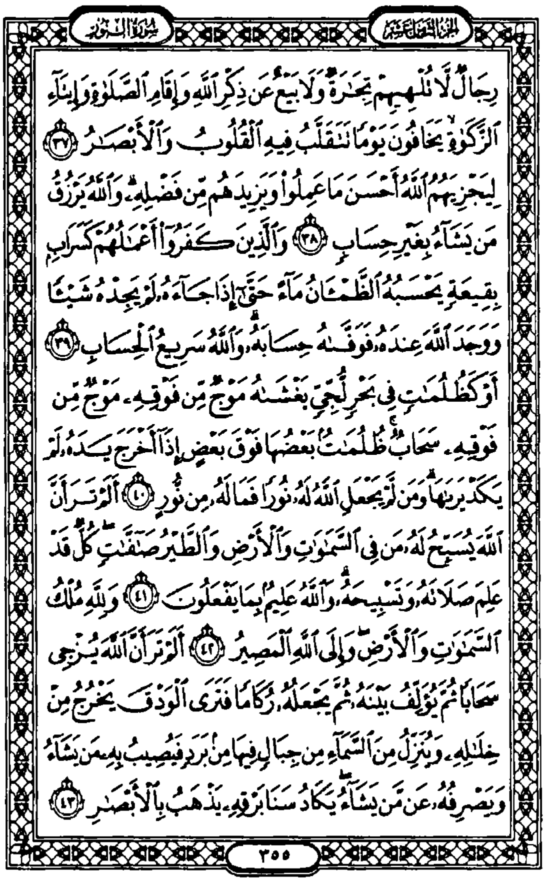
الجزء الثامن عشر — سورة النور

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء
الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴿٣٧﴾
ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق
من يشاء بغير حساب ﴿٣٨﴾ والذين كفروا أعمالهم كسراب
بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا
ووجد الله عنده فوفىه حسابه والله سريع الحساب ﴿٣٩﴾
أو كظلمت فى بحر لجى يغشىه موج من فوقه موج من
فوقه سحاب ظلمت بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم
يكد يرىها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴿٤٠﴾ ألم تر أن
الله يسبح له من فى السموت والأرض والطير صفت كل قد
علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴿٤١﴾ ولله ملك
السموت والأرض وإلى الله المصير ﴿٤٢﴾ ألم تر أن الله يزجى
سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من
خلله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء
ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصر ﴿٤٣﴾

٣٥٥

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ثواب الأعمال متعلق بالإيمان أولا ، ثم الإخلاص وموافقة الشرع ثانية .

٢ ـ أن نتعرف على مشاهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح .

٣ ـ أن نتعلم كيفية النظر فيما حولنا من صنع الله .

المحتوى التربوى :

فى مقابل النور المتجلى فى السموات والأرض، المتبلور فى بيوت الله المشرق فى قلوب الإيمان ، يعرض السياق مجالا آخر ، مجالاً مظلما لا نور فيه ، مخيفا لا أمن فيه ، ضائعا لا خير فيه ، ذلك هو مجال الكفر الذى يعيش فيه الكفار.

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة ، فى المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعا كاذبا ، فيتبع صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة ، فهذا السائر وراء السراء ، الظامئ الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك ، يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له ببال ، المرعبة التى تقطع الأوصال وتورث الخبال ،

ووجد الله الذى كفره به وجحده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ، ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار .

وفى سرعة عاجلة تتناسق مع بغتة المفاجأة يوفيه الله حسابه وهو سريع الحساب .

وفى المشهد الثانى: تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب، ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى، موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون ، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار ، فنور الله هدى فى القلب ، وتفتح فى البصيرة ، واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السموات والأرض ، والتقاء بها على الله نور السموات والأرض ، فمن لم يتصل بهذا النور ، فهو فى ظلمة لا انكشاف لها ، وفى مخافة لا أمن فيها ، وفى ضلال لا رجعة منه ، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور .

قال ابن كثير : « هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول البقرة مثلين ناريا ومائيا ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة الرعد مثلين : مائيا وناريا ، ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شىء فمثلهم كالسراب ، والثانى لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون ، فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدرى أين يذهب ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين تذهبون ؟ قال : لا أدرى » .

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام فى عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح ، مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه شاخصًا يسبح لله : إنسه وجنه ، أملاكه وأفلاكه ، أحياؤه وجماده ، وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه فى مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه ، فالإنسان ليس مفرداً فى هذا الكون الفسيح ، فإن من حوله وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ، وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال ؛ إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى وصور شتى ، وأشكال شتى، ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون فى الله ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده ، والله مطلع على أفعالهم .

ويوجه القرآن الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله فى السموات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد فى كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه ؛ ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهى طائرة فى الفضاء تسبح بحمد الله ، والكل يعلم كيف يسبح ويصلى ، والإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو فى هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه ، مسبحا بحمده قائما بصلاته ، وإنه لكذلك فى فطرته ، وفى طاعته لمشيئة خالقه الممثلة فى نواميسه ، وإن الإنسان ليدرك ـ حين يشف ـ هذا المشهد ممثلا فى حسه كأنه يراه ، وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله ، وإنه ليشارك كل كائن فى هذا الوجود صلاته ونجواه ، وكذلك كان محمد بن عبد الله ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ إذا مشى سمع تسبيح الحصا تحت قدميه ، وكذلك كان داود ﷺ يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير ، ولله ملك السموات والأرض فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التى يمر عليها الناس غافلين ، وفيها متعة للنظر وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل فى صنع الله وآياته ، وفى دلائل النور والهدى والإيمان ، والمشهد يعرض على مهل وفى إطالة ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقى وتتجمع ، كل أولئك لتؤدى الغرض من عرضها فى لمس القلب وإيقاظه وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله ، فيد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ، ثم تؤلف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض فإذا تفل خرج منه الماء ، والوابل الهاطل ، وهو فى هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات.

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله وفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، وتكملة المشهد الضخم يكاد لمعان برقه ـ يخطف الأبصار لشدته وقوته ، ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير فى الكون العريض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن قلبه معلق بين الخوف والرجاء ، ورجاؤه لا يخيب فى فضل الله .

٢ ـ من لم يتصل قلبه بنور الله تعالى فهو فى ظلمه لا انكشاف لها .

٣ ـ الإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن
يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ
وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ
يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ
أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل
لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾

الحزب ٣٦

٣٥٦

معانى الكلمات :

مبينات : واضحات .

يتولى : يعرض .

مذعنين : راضين .

مرض : نفاق .

ارتابوا : شكوا فى الدين .

يحيف : يظلم .

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن فى القرآن ما يهدى إلى الحق .

٢ - أن نستشعر خطورة النفاق والمنافقين .

٣ ـ أن نعلم أن المؤمنين ينتهجون منهج الله ولا يحيدون عنه .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق لفت الانتباه فى مشاهد الكون ، مشهد الليل والنهار ، والتأمل فى تقلب الليل والنهار بهذا النظام الذى لا يختل ولا يفتر يوقظ فى القلب الحساسية ، والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التى ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائما بحس جديد ، وانفعال جديد .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن يجدد حسنا الخامد ويوقظ حواسنا الملول ، ويلمس قلبنا البارد ، ويثير وجداننا الكليل ، لترتاد هذا الكون دائما كما ارتدناه أول مرة ، نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون ، ونرقب يد الله تفعل فعلها فى كل شىء من حولنا ، ونتدبر حكمته فى صنعته ، ونعتبر بآياته المبثوثة فى تضاعيف الوجود ، والله

سبحانه ، يريد أن يمن علينا بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ، فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة ، فنظل نجد الكون مرات لا تحصى ، وكأننا فى كل مرة نوهبه من جديد ، ونستمع به من جديد » .

ويمضى السياق فى عرض مشاهد الكون ، فيعرض نشأة الحياة من أصل واحد وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة ؛ فالله خلق الأحياء كلها من الماء فهى ذات أصل واحد ثم هى ـ كما ترى العين ـ متنوعة الأشكال ، منها الزواحف تمشى على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشى على قدمين ، ومنها الحيوان يدب على أربع، كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة ، فالله قادر على خلق ما يشاء غير مقيد بشكل ولا هيئة ، فكل ما يجرى فى الكون تحت قدرته .

ويعود السياق إلى موضوع الآداب التى يربى عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتطهر قلوبها وتشرق وتتصل بنور الله فى السموات والأرض ، فيتحدث عن المنافقين ، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا يهتدون ، فهم يظهرون الإسلام ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين فى طاعة رسول الله ﷺ ، وفى الرضا بحكمه والطمأنينة إليه .

فآيات الله مبينة كاشفة تجلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هذه ، وتحدد الخير والشر والطيب والخبيث والله هو الذى يهدى من نفسه إلى طريق الرشاد ، ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الطريق من الناس فريق المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام .

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان الصحيح متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية ، فهى بمجرد تحققها فى عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها فى الخارج ، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل فى عالم الواقع ، ومنهج الإسلام الواضح فى التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعورى الأول فى كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل » .

وهؤلاء كانوا يقولون الإيمان بأفواههم ، ولكن مدلوله لا يتحقق فى سلوكهم ، وما هذا بفعل أهل الإيمان ، ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على شريعة الله التى جاء بها ، ولقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن ، وهذا الفريق الذى كان يدعى الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوى ، إنما هو نموذج للمنافقين فى كل زمان ومكان ، والرضا بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق ، وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله ، وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيئ الأدب .

ومن ثم يعقب على فعلة هؤلاء المنافقين بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ريبتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب ، والسؤال الأول للإثبات ، فمرض القلب جديرٌ بأن ينشئ مثل هذا الأثر ، وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة ، والسؤال الثانى للتعجب ، فهل هم يشكون فى حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون فى مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون فى صلاحيته لإقامة العدل ، على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين ؟ والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب ، فهل هم يخافون أن يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟ وحكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ؛ لأن الله هو العادل الذى لا يظلم أحداً ، وكل خلقه أمامه سواء .

ومن أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، أم المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ، ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هو القول الذى يليق بالمؤمنين ، وينبع عن إشراق قلوبهم بالنور ، هو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، وأولئك هم المفلحون لأن الله هو الذى يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلابد أن يكونوا خيراً ممن يدبر أمورهم ، وهم المفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد لا عوج فيه ولا التواء ، ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه وخاف الله فيما مضى من ذنوبه ، واتقاه فيما يستقبل ، وهؤلاء هم الذين فازوا بكل خير ، وآمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب الظلال : « وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه أدب رفيع ، ينبع عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به وشعوره بهيبته ، كما ينبع عن عزة القلب المؤمن واستعلائه ،فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ولا تستمد منها ، هى ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ويستعلى عليها ضميره،فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار».

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين يعود السياق لاستكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين ، فقد كانوا يقسمون لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، فهو يرد عليهم متهكما لا تحلفوا فطاعتكم معروفة ، فالله يعلم أنكم لا تخرجون ولا تطيعون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شريعة الله واضحة مضبوطة ، لا يخشى صاحب الحق منها على حقه ، ولا يلتبس فيها حلال بحرام .

٢ ـ الإيمان متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية .

٣ ـ السمع والطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله من صفات المؤمنين الصادقين .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

٣٥٧

معانى الكلمات :

تولوا : أعرضوا .

حمل : ما أمر به بتبليغ الرسالة .

حملتم : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

ليستخلفنهم : ليجعلنهم أئمة الناس .

ليمكنن لهم دينهم : يجعله منتشرا بين الناس .

معجزين : فائتين من عذاب الله .

جناح : حرج .

طوافون : جمع طواف ، وهو الذى يدور على أهل البيت للخدمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على حقيقة الإيمان الذى يؤهل للاستخلاف ، ويحقق وعد الله للمؤمنين .

٢ ـ أن نستشعر خطورة الوعيد الشديد لمن أنعم الله بنعمة السيادة والكرامة فلم يشكرها .

٣ ـ أن نعلم أن الإسلام منهج حياة يتناول كل صغيرة وكبيرة فيها .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن المنافقين فيأمرهم بالطاعة ، الطاعة الحقيقية لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة ، فإن تعرضوا أو تنافقوا ولا تنفذوا فما على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد قام به وأداه ، وعليكم أن تطيعوا وتخلصوا ، وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه ، وإن تطيعوه تكون الهداية إلى المنهج القويم ، والرسول ليس مسؤولًا عن إيمانكم وليس مقصرا إن توليتم ، إنما أنتم المسؤولون المعاقبون ، فما عليه إلا البلاغ المبين .

ويلتفت السياق إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة والإيمان العامل فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير ، ويبين لهم الوعد بالاستخلاف ، وأن يمكن لهم دينهم الذى

ارتضى لهم ، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ذلك وعد الله ، ووعد الله واقع ، ووعد الله حق ، ولن يخلف الله وعده ، فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

يقول صاحب الظلال : « إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله، فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله ، وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى فى النفس ولا شهوة فى القلب ، ولا ميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ، ذلك الإيمان منهج حياة كامل يتضمن إعداد العدة والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض .. أمانة الاستخلاف ، فحقيقة الاستخلاف ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم ، إنما هى هذا كله على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق المنهج الذى رسمه الله للبشرية كى تسير عليه ، وتصل على طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض اللائق بخليقة أكرمها الله ، فالاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد ، وهذا الاستخلاف هو الذى وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ولقد كانوا خائفين لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة ، أما من كفر بعد ذلك فهو الخارجون على شرط الله ووعد الله وعهد لله .

ويعقب الله على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبالا يحسب الرسول ﷺ وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذى ارتضى لهم ، فهذه هى العدة .. الاتصال بالله ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة والاستعلاء على الشح بإيثار الزكاة ، وطاعة الرسول والرضا بحكمه ، ولا شك من فعل ذلك فأولئك سيرحمهم الله ، فإذا استقمتم على النهج فلا عليكم من قوة الكافرين فما هم بمعجزين فى الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم فى أى طريق وأنتم أقوياء بإيمانكم ، ومأواهم فى الدار الآخرة النار وبئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار بئس المهاد .

ويمضى السياق ليعلن أن الإسلام منهج حياة كامل ، فهو ينظم حياة الإنسان فى كل أطوارها ومراحلها وفى كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفى كل حركاتها وسكناتها ، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ، وينسق بينها جميعا ، ويتجه بها إلى الله فى النهاية ، وها هو السياق يعود إلى آداب الاستئذان فى داخل البيوت ، ولقد سبقت أحكام الاستئذان على البيوت ، فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا

استئذان ، إلا فى ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، هذه الأوقات هى : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج ، ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم فى العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة ، وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ، ويرتدون ثياب الليل ، وسماها عورات لانكشاف العورات فيها .

قال القاسمى : « فى الآية إقرار ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ، ووقت الظهيرة ، وقد يستدل بها على أن كشف العورة فى الخلوة جائز » .

وقال الرازى : « الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين أحدهما يقول : ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ والثانى : بالتنبيه على الفريق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ما عداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات » .

وفى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار والمميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم ، وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة وأن الصغار قبل البلوغ لا يتنبهون لهذه المناظر ، بينما يقرر النفسيون اليوم بعد تقدم العلوم النفسية ـ أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذا الآداب ، وهو يريد أن يبنى أمة سليمة الأعصاب سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات ، ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها ؛ لأنها مظنة انكشاف العورات ، ولا يجعل استئذان الخدم والصغار فى كل حين منعا للحرج ، فهم كثير والدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة ، وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله .

٢ ـ الاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد .

٣ ـ ضرورة استئذان الخدم والأطفال قبل الدخول على الكبار فى أوقات الخلوات والراحات .

الجزء الثامن عشر — سورة النور

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟
مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ
أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ
تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

معانى الكلمات :

القواعد : العجائز .

متبرجات بزينة : مظهرات للزينة الخفية .

حرج : إثم .

ما ملكتم مفاتحه : ما كان فى تصرفكم .

جميعا أو أشتاتا : مجتمعين أو متفرقين .

مباركة : بالأجر والثواب .

طيبة : حسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم تنظيم العلاقات بين الأسرة وأفرادها حين يدرك الصغار سن البلوغ .

٢ ـ أن نتعرف على تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء .

٣ ـ أن نستشعر قوة ارتباط قلوب المؤمنين بربهم فى الصغيرة والكبيرة .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن العلاقات الأسرية من حيث الاستئذان ، فينبه حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون فى حكم الأجانب الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت حسب النص العام ، الذى مضت به آية الاستئذان، ويعقب على الآية بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ؛ لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ، ومقام حكمته كذلك فى علاج النفوس والقلوب .

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعا لإثارة الفتن والشهوات ، فعاد هنا يستثنى من النساء القواعد اللواتى فرغت نفوسهن من معاشرة الرجال ، وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات ، فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية على ألا تتكشف

عوراتهن ولا يكشفن عن زينة ، وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة ، وسمى هذا استعفافا أى طلبا للعفة وإيثارا لها لما بين التبرج والفتنة من صلة ، وبين التحجب والعفة من صلة ، وذلك حسب نظرية الإسلام فى أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس ، والله يسمع ويعلم ويطلع على ما يقوله اللسان ، وما يوسوس فى الجنان والأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير .

يقول الإمام محمد أبو زهرة على هذه الآية : « هى للأهل الذين يسكنون فى دار واحدة ، وهم مختلطون يدخل بعضهم بيوت البيتوتة من غير حرج أو استئذان ، فالآية تعلم الناس أدب الاختلاط ، سواء أكانوا ذوى أرحام أم لم يكونوا ... » .

ثم يمضى فى تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء ، فقد روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة دون استئذان ، ويستصحبون معهم العمى والعرج والمرضى ليطعموا الفقراء منهم ، فتحرجوا أن يطعموا ، وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن ، فقد كانت حساسيتهم مرهفة ، فكانوا يحذرون دائما أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد ، فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج وعن القريب أن يأكل من بيت قريبة ، وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج ، وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به ،استنادًا إلى القواعد العامة فى أنه لا ضرر ولا ضرار ، وإلى أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظى والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالا للشك والغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القرابات ، فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول : ﴿ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات، ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه ويلحق بها بيوت الأصدقاء ، ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذى والضرر ، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان .

فإذا انتهى من بيان البيوت التى يجوز الأكل منها ، بين الحالة التى يجوز عليها الأكل ، فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ، فرفع الله هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر الى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفراداً أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التى يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التى يؤكل فيها حتى إذا كانت خالية من أفرادها ، وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين فى الآية ، فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه ، والتحية التى يلقيها عليه هى تحية من عند الله تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر ، وتربط بينهم بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وهكذا ترتبط القلوب المؤمنة بربهم فى الصغيرة والكبيرة ، والله يبين هذه الآيات لعلكم تعقلون ، وتدركون ما فى المنهج الإلهى من حكمة وتقدير .

قال القاسمى : « قيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة فى ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ، وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، فقيل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعنى عليكم ، وعلى مَنْ فى مثل حالكم من المؤمنين حرج فى ذلك .

وقيل كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم ، لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم ؛ ولأن الأعمى بما سبقت يده الى ما سبقت عن أكيله إليه وهو يشعر ، والأعرج يتفسح فى مجلسه ، ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتحرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكروه ، ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفى الحرج عنه كله ، ولا يستلزم نفى الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح فى غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه ، بل يراد حضوره مع الصحيح على مائدة، واختصاصه بقصعة على حدة ، وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء فى الاجتماع » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ النساء العجائز اللاتى لا يطمع فيهن الرجال لكبرهن لا يجب عليهن المبالغة فى التستر، والتستر وهو خير لهن .

٢ ـ إباحة الأكل من بيوت الأقارب للمؤانسة والمباسطة التى تكون فى العادة بينهم .

٣ ـ إفشاء السلام من الآداب الإسلامية العظيمة التى تشيع المحبة بين الناس .

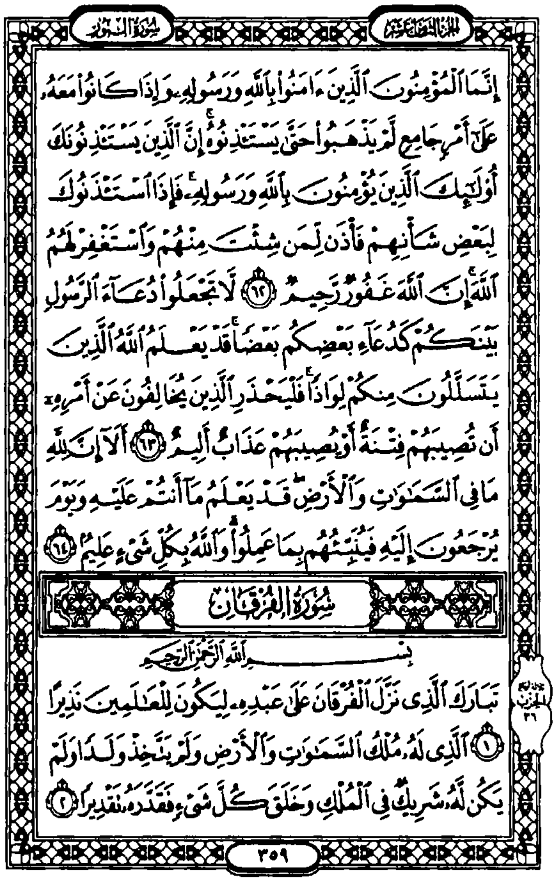
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

معانى الكلمات :

آمنوا : صدقوا بقلوبهم .

جامع : مهم .

دعاء الرسول : نداءكم له .

يتسللون : ينصرفون خفية .

لواذا : يستر بعضهم بعضا .

يخالفون : يعرضون .

تبارك : تعالت صفات الله .

قدّره : هيأه لما يصلح له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تنظيم العلاقات بين أسرة المسلمين وقائدها محمد ﷺ .

٢ ـ أن نعلم عاقبة المنافقين الذين يتبعون نهجا غير نهج الإسلام .

٣ ـ أن نتعرف على مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة أسرة المسلمين ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ﷺ ، وإلى آداب المسلمين فى مجلس الرسول ، وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهى تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التى لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ، ثم تستقر فى حياتها فتصبح تقليداً متبعا وقانونا نافذاً ، وإلا فهى الفوضى التى لا حدود لها ، فالمؤمنون يؤمنون بالله ورسوله لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ـ ولا يطيعون الله ورسوله ، وإذا كانوا معه على الأمر الجامع الهام الذى يقتضى اشتراك الجماعة فيه ،

لرأى أو حزب أو عمل من الأعمال العامة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ، فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له،ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول ﷺ رئيس الجماعة ، بعد أن يبيح له حرية الإذن ، يدع له الرأى فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ، ويستبقى حرمة التقدير لقائد الجماعة ؛ ليوازن بين المصلحة فى الانصراف ، ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يديرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى ، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى ﷺ للمعتذرين ، وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن ، وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت السياق إلى توقير الرسول ﷺ عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال ، فلا يدعى باسمه : يا محمد ، أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا ، إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله ، يا رسول الله ، فلابد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه ، وهى لفتة ضرورية ، فلابد للمربى من وقار ، ولابد للقائد من هيبة ، وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض ، يجب أن تبقى منزلته فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض ، فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ، وهو تعبير يصور حركة التخلى والتسلل بحذر من المجلس ، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس، وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعيب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهى فترة شقاء للجميع فى الدين أو فى الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختم هذا التحذير ، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه ، وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير ، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهى ، وهذه الأخلاق والآداب التى فرضها الله فى هذه السورة ، وجعلها كلها سواء .

سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية وتطمين له ، وتقوية وهو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن من عنده ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا ، ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير ، وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون ، والتبادل تفاعل من البركة يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا .

يقول صاحب الظلال : « وسماه فرقانا بما فيه من فارقٍ بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد ، فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها الممثلة فى الواقع » .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده ، وأنه رسالة للعالمين وطبيعة هذه الرسالة طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ، ونهايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج على نهج عن طريق هذا الفرقان الذى نزله صاحب السيطرة المطلقة على السموات والأرض ، فهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج إلى ولد أو شريك فى الملك ، والكل شاهد وعلى وحدة التصميم ووحدة الناموس ووحدة التصريف ، وقد قدر سبحانه قدر كل شىء وحجمه وشكله ، وقدر وظيفته وعمله ، وقدر زمان ومكانه ، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وحرمة مخالفة أمره ونهيه ، وتوقيره فى حياته وبعد مماته .

٢ ـ المتجرئ على الاستهانة بسنة رسول الله ﷺ يخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة .

٣ ـ ضرورة التفكير والبحث فى مختلف العلوم للتعرف على حكمة الله تعالى وبديع صنعه .

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ
افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

معانى الكلمات :

نشورا : بعثا بعد الموت .

زورا : كذبا عظيما .

أساطير : أكاذيب .

تملى : تقرأ .

مسحورا : مغلوبا على عقله بالسحر .

يستطيعون : يهتدون .

اعتدنا : أعددنا .

سعيراً : نار شديدة الاشتعال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على تطاول المشركين على مقام الخالق ـ جل وعلا .

٢ ـ أن نقف على تطاول المشركين على رسول الله ﷺ .

٣ ـ أن نتعرف على تفاهة ما يقترحه المشركون من أعراض الحياة الدنيا .

المحتوى التربوى :

مع ما ينكشف للعلم البشرى يوما بعد يوم من تقدير الله العجيب فى الخلق ، وتدبيره الدقيق فى الكون ، فإن المشركين لم يدركوا شيئا من هذا كله ، واتخذوا آلهة مجردة من خصائص الألوهية فهم لا يخلقون شيئا ، والله خلق كل شىء ، وتلك الآلهة تصنعها عُبَّادُها إن كانوا أصناما ويخلقهم ويوجدهم الله إن كانوا ملائكة أو جنا أو بشراً أو شجراً أو حجراً ، ولا يملكون لأنفسهم فضلا عن أن يملكوا لعبادهم ضراً ولا نفعا .

والذى لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه ، ولا يملكون إماتة حى ، ولا إنشاء حياة ، ولا إعادتها داخل فى مقدورهم ، فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين فى اتخاذهم آلهة ؟ !

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله ﷺ ويرد عليه عقب عوضه بما يظهر سخفه وكذبه ، فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد ﷺ شىء آخر غير كلام البشر ، وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم فى الكلام ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن ، ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يخون ، فكيف به يكذب على الله ، وينسب قولا لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها فى وسط جمهور العرب بأن ما يقوله محمد كذب وافتراء ، واستعان على جمعه بقوم آخرين ، وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل ، ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم فى هذا القول المتهافت إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت وأن ما قالوه زور واضح الكذب ظاهر البطلان .

ثم يمضى السياق فى استعراض مقولاتهم عن الرسول ﷺ وعن القرآن ، ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التى يسوقها للعبرة والعظمة وللتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : أساطير الأولين وزعموا أن الرسول ﷺ طلب أن تكتب له لتقرأ عليه فى الصباح والمساء إذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ـ ثم يقولها هو بدوره وينسبها إلى الله ، ويجاب عليهم بأن الذى يمليها على محمد أعلم من كل عليم ، فهو الذى يعلم الأسرار جميعاً ، ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين ، فأين علم حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر فى السموات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذى لا ساحل له ولا قرار ؟

ثم يستطرد السياق فى عرض مقولاتهم عن رسول الله ﷺ واعتراضاتهم الجاهلة على بشريته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته ، ويأتى الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول، كيف يمكن أن يكون فلان بن فلان ، المعروف لهم ، المألوف فى حياتهم ، الذى يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون ، كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم ، وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحى لواحد منهم لا يتميز فى شىء عنهم .

وهم لا يعلمون أنها الحكمة الإلهية تبدو فى رسالة واحدة من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعانى تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم ، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو فى قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ؛ لأنه فى النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحى من الله وعون منه على وعثاء الطريق .

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشى فى الأسواق ليكسب رزقه ، فهلا كفاه الله ذلك ، وحباه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل ، والله لم يرد لرسوله ﷺ أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة ؛ لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ، ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو فى الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته ، فهو هو ذا رسول الله ﷺ يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة .

وما المال؟ وما الكنوز؟ وما الجنان؟ حين يتصل الإنسان الفانى الضعيف بالله الباقى القوى؟ وما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شىء ، وواهبه الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون ، فاعترضوا بأنه رجل مغلوب على عقله ، وهى كلمة ظالمة فاحشة ، والرد عليهم يوحى بالتعجيب من أمرهم : فقد شبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك ببرودة الأساطير مرة وكله ضلال ، وبعد إدراك الحق ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدى ، ولو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع ، ولكنه شاء أن يجعل له خيراً من الجنات والقصور ، الاتصال بواهب الجنات والقصور ، والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوفيقه ، وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذى لا تقاربه به نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون .

يقول الإمام محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير : « إن هذا بلا ريب نظرات ناس ماديين لا يؤمنون بالروح ، ولا بالمعانى الإنسانية العالية ، إنما يؤمنون بالمادة وحدها ، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة ، إما بملك قاهر ، أو بمتع يلقيها إليهم ملوك قاهرون » .

ويكشف السياق عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم ، فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء، ولا يخشون يوما يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء، ثم يكشف عن الهول الذى ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، وهو مشهد يزلزل القلوب الصلدة ، ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن ينهض بنصيبه من تكاليف هذه الرسالة .

٢ ـ ألا نحتقر الفقير لفقره ، وألا نسخر ممن هو أقل منا فى شىء ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب .

٣ ـ الاتصال بواهب الجنات والقصور وتذوق حلاوة هذا الاتصال لا تقاربه نعمة من النعم.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي
هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

معانى الكلمات :

تغيظًا : صوت غليان كصوت المتغيظ .

ثبورا : هلاكا .

ضلوا : زاغوا ، وتاهوا عن الطريق الصحيح .

نسوا : غفلوا .

بوراً : هلاكا .

صرفًا : منعا للعذاب .

نصرا : انتصارا لأنفسهم .

فتنة : ابتلاء وامتحانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر رهبة العذاب فى الدار الآخرة .

٢ ـ أن نعلم أن فى ثواب الآخرة تعويضًا كبيرًا عما يصيب الإنسان المؤمن فى الدنيا من آلام .

٣ ـ أن نقف على خطورة طول العمر وسعة الرزق فى مقابل نسيان ذكر الله تعالى .

المحتوى التربوى :

يقف بنا السياق أمام مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ، فإذا هى تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة ، تراهم من بعيد ، فإذا هى تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهى تتحرق عليهم وتصعد الزفرات غيظا منهم ، وهى تتميز من النقمة وهم إليها فى الطريق ، مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب ، فعن ابن عباس : « إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه يستجير منى ، فيقول : أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار ، فيقول : يا رب ؛ ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول: أن تسعنى رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدى، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف » وهذا إسناد صحيح .

وها هم هؤلاء قد وصلوا ، فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء ، يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم بل ألقوا إليها إلقاء ، ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم فى السلاسل ، وألقوا فى مكان منها ضيق، يزيدهم كربة وضيقا ، ويعجزهم عن التفلت والتململ، ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء ، يسمعون تهكما ساخراً مريراً : فلا تدعوا هلاكا واحدا فهو لا يجدى شيئا ، ولا يكفى شيئاً .

يقول الإمام **محمد أبو زهرة** : « وإنى أرى أن السعير شبهت بالإنسان الذى يرمى ويتغيظ ويزفر ، ويحس ويشعر ، إذا رأى شخصا يريد عقابه ، فإنه يتغيظ ويزفر ، والمعنى أن السعير تستعد وتتهيأ هائجة ؛ لمجيء العصاة إليها ، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفير من مكان بعيد » .

وفى هذا الموقف المكروب الرعيب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة ، يعرض فى أسلوب متهكم كذلك ساخر: أذلك الكرب الفظيع خير؟ أم جنة الخلود التى وعدها الله للمتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذى لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها ما يشاؤون ؟ وهل هناك وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم .

ثم يمضى مستطرداً يعرض مشهد آخر من مشاهد الساعة التى كذب بها المكذبون ، مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التى كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عبادًا ومعبودين أمام الديان يسألون ويجيبون ، وما يعبدون من دون الله ، قد يكونون هم الأصنام ، وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون الله ، وإن الله ليعلم ، ولكن الاستجواب هكذا فى الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ، والجواب هو الإنابة من هؤلاء الآلهة ، الإنابة إلى الله الواحد القهار ، وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون الله ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال ، فهذا المتاع الطويل الموروث على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر ـ قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار ، كالأرض البور لا حياة فيها ، ولا زرع ولا ثمار والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحى كذلك بالجدب والخواء ؛ جدب القلوب وخوار الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزى المهين : فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قربانا يقربونكم إلينا زلفى ، وقالوا : بأنه ما ينبغى لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك، ولا يقدرون على صرف العذاب ولا الانتصار .

وبينما المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد فى الأرض ، ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تتهيأ فيها للاستجابة ، وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب .

والآن وقد شهدوا وشهد الرسول ﷺ نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء ، ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه فى الأسواق ، الآن يعود إلى الرسول ﷺ يسلبه ويؤسيه ؛ بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء ، فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه ، إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله ، سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة ، وهى اختبار بعضكم ببعض ، وابتلاء بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ومن هو الصابر والذى لا يقوى على الصبر .

قال الزمخشرى: « هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوا واستبدعوه من أكله الطعام ، ومشيه فى الأسواق بعدما احتج عليهم سائر الرسل ، يقول : وجرت عادتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم ـ أيها الناس ـ ببعض ، والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل » .

ولو شاء الله أن يجعل الدنيا مع رسله فلا يخالفون لفعل ، ولكن أراد أن يبتلى العباد بهم ويبتليهم به » ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إنى مبتليك ومبتل بك » ، وفى الصحيح : أنه خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

وزيادة فى التسلية فى مجال طعن الكافرين يخبر الله تعالى بأنه عالم فيما يبتلى به وغيره ، بصير بالطبائع والقلوب والمصائر والغايات ، ولهذه الإضافة هنا ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ ﴾ ايحاؤها وظلها ونسمتها الرخية على قلب الرسول ﷺ فى مقام التأسيه والتسلية والإيواء والتقريب والله بصير بمداخل القلوب .

وهى لمحة تصور الإيناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله ، وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحًا رفيقا ، ويهدد قلبه ، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة ، فى مواجهة المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة ، وهى تجادل فى عنف وتشرد فى جموح ، وتتطاول فى وقاحة ما وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القيمة الحقيقية للإنسان ليست فيما يملك من مال من أهمها تمسكه بدينه وسلامة عقله وحسن تفكيره .

٢ ـ الدنيا دار ابتلاء والفلاح بالصبر والتحمل .

٣ ـ العاقل من يصبر على ما يصيبه ، ويثبت على إيمانه ، ليفوز بحسن الثواب فى الآخرة .

الجزء ١٩ الحزب ٣٧

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ
يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)

معانى الكلمات :

عتوا عتواً : تجاوزوا حد الظلم .

منثوراً : متفرقاً ذاهباً .

أحسن مقيلا : أحسن منزلاً ومأوى .

يا ويلنا : يا هلاكنا .

لنثبت به فؤادك : لتقوى به قلبك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن قبح الكفر وأهله .

٢ ـ أن يستشعر المؤمن مشاهد يوم القيامة .

٣ ـ أن يستمر المؤمن فى دعوته مخلصا واثقا نشيطا مضحيا .

المحتوى التربوى :

تبدأ هذه الآيات بذكر تطاولات المشركين وسفاهاتهم ، فهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا تستشعر قلوبهم الخشية من الله وهم يستبعدون أن يكون الرسول بشراً بل ملكا ، وهم يطلبون رؤية الله . عز وجل . وهذا شأن الكفار دائماً ، فبالرغم من أنهم كالذرة التافهة .. التائهة فى ملك الله وخلقه إلا أنهم عظم شأنهم فى أنفسهم ، فاستكبروا وطغوا حتى عجزوا عن تقديرها تقديراً حقيقياً .

وتأتى الآيات بعد ذلك لتُعلم الكفار بوزنهم الحقيقىّ على طريقة السخرية كما كانوا يتعاملون، فالملائكة تعذبهم لا تبشرهم فيلجؤون للدعاء ، فلا يعصمهم ولا يمنعهم ، وحتى

أعمالهم الصالحة لا تنفعهم ؛ لأنه لا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

ثم تلفت الآيات لجانب آخر وهم أصحاب الجنة وهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال ، والاستقرار يقابل خفة الهباء المنثور ، والاطمئنان يقابل الفزع ، وهذه المقابلات لطمأنة المؤمنين الذين جاهدوا فنعموا بالظلال ، أما الكفار فطغوا فعذبوا ، حتى استغاثوا ولا مجير لهم .

ويواصل النص القرآنى زلزلة قلوب المشركين ، وتجسيم مصيرهم المخيف بأن النهاية ستكون مروعة ، فالسماء تتشقق بالغمام نتيجة الانفجارات المروعة ، وتنزل الملائكة ـ ملائكة العذاب إليهم ، ويعلم الجميع أن الملك لله الواحد القهار ، ويتحسر الكفار حتى يعض الظالم على يديه ؛ لأن يداً واحدة لا تكفيه ، فيداول بين هذه وتلك لأنه فى أشد حالات الندم ، وقمة التحسر أن يتبرأ من كل خليل خذله ، لأنه كان شيطانا يضله ، أو كان عوناً للشيطان ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾ وهذا السياق يعرض لأهوال يوم القيامة ، ومشهد الأسى والندم والأسف الذى يسيطر على الظالم نفسه ، أما المؤمنون فهم أصحاب الجنة يرون حسن مقيلهم وطيب مستقرهم ، فالدعاة يتحملون الآلام والتضحيات ، ويخافون ربهم فى دنياهم فأمنهم الله فى أخراهم ، الظالمون بغوا وطغوا وركنوا إلى الظل الزائل فأفزعهم وأخافهم ؛ لأن الله لا يجمع على عبده بين أمنين وخوفين .

وبعد هذه الجولة فى اليوم العسير يعود النص القرآنى لمشهد الرسول مع قومه ، وهو يشكوهم بشكاية واحدة ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ دعاء للبث والإنابة ، لأن ربه يعلم ، يشهد به لربه أنه لم يأل جهداً ، ولكن قومه لم يتدبروا ذلك ، وهذا شأن الدعاة يبذلون أقصى الوسع والطاقة ، وعندما يشكون لا يشكون إلا لربهم ليثبتهم وليعينهم على ما نزل بهم من الملمات .. وأى ملمة أشد وأنكى من هجر القرآن لا هجر قراءته فحسب ، بل هجر تدبره وهجر تطبيق أحكامه وتعاليمه ، والعمل به ، فلا يكفينا طبع المصاحف بالأغلفة اللامعة والأوراق المصقولة ، ووضعه بتنسيق فى مكان أنيق بل جاء القرآن ليكون منهاج حياة ليقودها إلى أقوم طريق .

وتأتى التسلية الربانية إزاء الدعاء النبوى بأن سنة الله فى جميع الرسالات بأن لكل نبىّ أعداء يهجرون دعوته ، ويصدون عن سبيل الله . حتى يقوى عود الرسالات ، وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها ـ مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق ـ هو الذى يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة .

يقول صاحب الظلال : « لو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها فى الطريق خصوم ومعارضون ... لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة ، ولكن

بروز الخصوم والأعداء للدعوات هو الذى يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودًا ، فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذى يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا ، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا فى سبيلها ، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودًا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس إن بروز المجرمين فى طريق الأنبياء أمر طبيعى ، فدعوة الحق تأتى لعلاج فساد ، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئونه ويستغلونه ، فطبيعى أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، وطبيعى أيضا أن تنتصر دعوة الحق فى النهاية لأنها تسير مع خط النهاية » .

ثم يأتى النص القرآنى باستعراض مقولة أخرى ، ويرد عليها وهو تمنى الكفار أن ينزل القرآن مرة واحدة وهذه المقولة نتيجة لتخبط تفكيرهم وقبحه ، فإن القرآن منهج حياة يتعود المرء على تحمل تكاليفه شيئا فشيئاً ، ومن جانب آخر لتثبيت قلب الرسول ، وإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل .

يقول صاحب **الظلال** : « لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، وينشىء مجتمعا ، ويقيم نظاما ، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع ، والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد ، إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتتدرج فى مراقيه رويدا رويدًا ، وتعتاد على تكاليفه شيئا فشيئا .. وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالى أكثر استعدادًا للانتفاع بالوجبة التالية ، وأشد قابلية لها والتذاذا بها » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن أعداء الدعوات الحقة لا ينفكون فى إلقاء الشبهات ، وأن على أصحاب الدعوة الرد عليها وتفنيدها .

٢ ـ بث الثقة والطمأنينة فى نفوس العاملين فى الدعوة فى أن لهم أجراً عند الله لا يقدره البشر: إن أجرى إلا على الله .

٣ ـ الحذر من بطانة السوء وشياطين الإنس والجن .

٤ ـ اتخاذ القرآن منهجا ودستورا والوقوف عنده بقراءته وتدبره وتحكيمه واتباع أوامره وتعاليمه .

٥ ـ أن يثق الداعية فى دعوته ، وألا ترهبه كثرة الأعداء وسطوتهم .

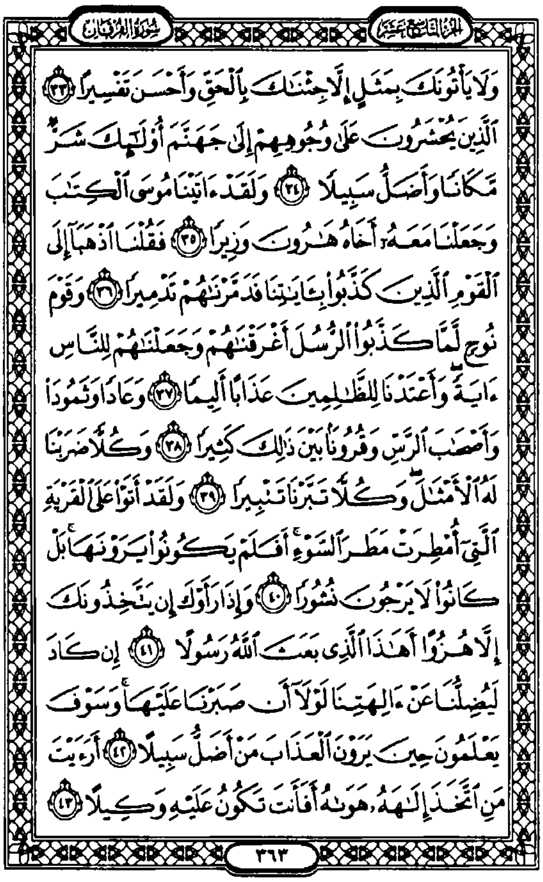
الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا
وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٣

معانى الكلمات :

آية : عبرة .

تبرنا تتبيراً : أهلكنا إهلاكا .

هزوا : مهزوءا به .

اتخذ إلهه هواه : اتبع هواه وميوله الشخصية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن أمانه تبليغ الدعوة .

٢ ـ أن يعرف الداعية بعض نماذج للدعوات السابقة .

٣ ـ أن يدافع الداعية عن دعوته وقادتها .

المحتوى التربوى :

تتابع الآيات طمأنة قلب الرسول وتثبيته بأن الكفار الذين يجادلون الباطل ، فالله يرد عليهم باطلهم بالحق الذى يدمغه ، وهذه سنة الله فى أنه لا يترك الدعاة بل يمدهم بالعون والتأييد لنصرة الحق القوى بنفسه ، ليس لمجرد الانتصار فى الجدل ، ولا الغلب فى المحاجة .

يقول القاسمى : « إن تفريق الوحى وتمديد مدته بديهى الثبوت لمقدار مكث النبى ؛ إذ مادام بين ظهرانى قومه ، فالوحى يتوارد تنزله ضرورة ، ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحا لا مرية فيه ، وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك ، وما كل كلام معرّض به ، وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعنت متفنن فيه » .

وتنتهى هذه الجولة بمشهد الكفار يوم القيامة ، وأنهم يحشرون يوم القيامة جزاء تأبيهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم فى جدلهم العقيم ، وهذا العقاب وما فيه من الإهانة والتحقير تعزية للرسول عما يلقاه منهم فإن كانت آذان الخلق قد سدت عن سماع دعوته ، فإن أبواب السماء قد فتحت لتلبية دعائه.

وتأتى الآيات بعد ذلك بأمثلة سريعة ترسم مصير المكذبين الذين عاندوا رسلهم ، لكن سنة الله فى نصرة الحق قائمة ؛ فموسى ﷺ أرسل لفرعون وملئه ، وكان مع موسى أخوه هارون وزيرا ، فلم يرهبا فرعون وقوته وطغيانه ؛ لأن الله معهما يسمع ويرى ، ونصر الله الحق ودعوته ، وأدال الباطل وشيعته وأغرق فرعون ، وأغرق قوم نوح ، وأهلكت عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون أخرى كثيرة .

وهذا عقاب الدنيا عياناً أمام أصحاب الدعوات ؛ ليثبتوا على الطريق أمام الجاحدين والظالمين ، وتنتهى الآيات بمصرع قوم لوط ، وهم يمرون عليه فى سدوم فى رحلة الصيف إلى الشام ، وقد أهلكها الله بمطرٍ بركانى من الأبخرة وذكر سبب هلاكهم أنهم لا يرجون نشوراً، وهذا سبب قساوة تلك القلوب وانطماسها ، فإن الإيمان بالبعث والنشور يحرك القلوب نحو الخشية لله والعمل له .

ثم تتابع الآيات بذكر استهزائهم بالرسول رغم أن محمداً ﷺ ملء السمع البصر منهم ، وهو من ذروة بنى هاشم وهم ذروة قريش ، ولقب بالصادق الأمين ، وقالوا له وهو على جبل الصفا: أنت عندنا غير متهم ، فلما جاء هذا الاستهزاء ؟ ! **يقول صاحب الظلال فى ذلك** : « كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ، ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقام ، وكانت وسيلة من وسائل المقاومة للدعوة التى تهدد مراكزهم ، وكل ذلك للحط من شأنه من نفوس أتباعه » .

إن شأن قريش فى هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعاتها فى كل زمان وفى كل مكان ، يكيلون الاتهامات والانتقاصات لرموز الدعوات وقادتها .

كل هذا والظالمون يعلمون كذب دعواهم وزيف أقاويلهم حتى يستبقوا لأنفسهم المنافع ، فتارة يرمونهم بخلط الدين بالسياسة ، ويتهمون الدعوة بالرجعية والتحجر ، ويعتبرون الالتزام تزمتا ، والاحتشام قيداً وتحجرا ، أما الدعاة فيصبرون ويصابرون لأنهم يطلبون الأجر من الله .

ولا تتركنا الآيات دون أن تورد لنا اعترافاً من الكافرين بأثر الدعوة فيهم إلا أنه فى سبيل الاحتفاظ بالمراكز والمغانم قاوموا تأثرهم بالدعوة وبشخصية النبى ﷺ وبالقرآن وهديه ، وهم

فى ضلالهم يسمون هداية الرسول لهم إضلالا ، والصد عن الدعوة صبراً ، وهذا يزيد فى حماسة الدعاة ، فإن دعوتهم تصل لقلوب المستعدين للإيمان ، وتزلزل قلوب الظالمين ؛ حتى إنهم يعترفون بذلك مع تظاهرهم بالاستخفاف بشخصه ودعوته إصرارا وعنادا ، ولا ينتهى هذا الموقف دون أن نرى جزاء الصدد عن دعوة الله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

كل ذلك ليرى الدعاة أن طريق الحق نهايته النجاة والفوز برضوان الله ، وأن طريق الصد هو طريق الشيطان الذى يتبرأ منهم فيعلمون حينئذ أنه طريق الضلال ولكن حين لا ينفع العلم .

ثم يأتى التعبير العجيب الذى يخفف عن الدعاة من جهة ، ويرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية من جهة أخرى ، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ ، فهو يخفف عن الدعاة فإنهم ليسوا بمسيطرين على المدعوين فهم يدعون ويذكرون ، أما من اتخذ إلهه هواه واتبع شهواته ، فالدعاة ليسوا بوكلاء عليهم ، ومن جهة ترسم نموذجا لحالة نفسية بارزة كما **يقول صاحب الظلال** : « حين تنقلب النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعل منه إلها يعبد ويطاع » .

يقول الزمخشرى : « من كان فى طاعة الهوى فى دينه ، يتبعه فى كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلا ، ولا يصغى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبودًا إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام ؟ وتقول لا بد أن تسلم ، شئت أو أبيت ، ولا إكراه فى الدين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ إن الظالمين لهم عقوبات فى الدنيا ، وأعد لهم عذاب أليم فى الآخرة ، وعلى الداعية أن يتتبع تدريجيا هذا الأمر ، ويضرب للمدعوين أمثلة لذلك .

٢ ـ إن أشد الناس ابتلاء هم القادة بما يلقى عليهم من الشبهات،وبما يحاك لهم من المؤامرات، وعلى العاملين الثقة بقادتهم وإعانتهم فى الحق الذى يرمون إليه .

٣ ـ إن تخاطب الدعوة كل الفئات ؛ لأن الحق دولته قائمة إلى قيام الساعة .

٤ ـ ألا يشق الدعاة على أنفسهم إذا دعوا ولم يستجب لهم ، فالدعوة مهمتهم وليس إيمان الناس ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٣) .

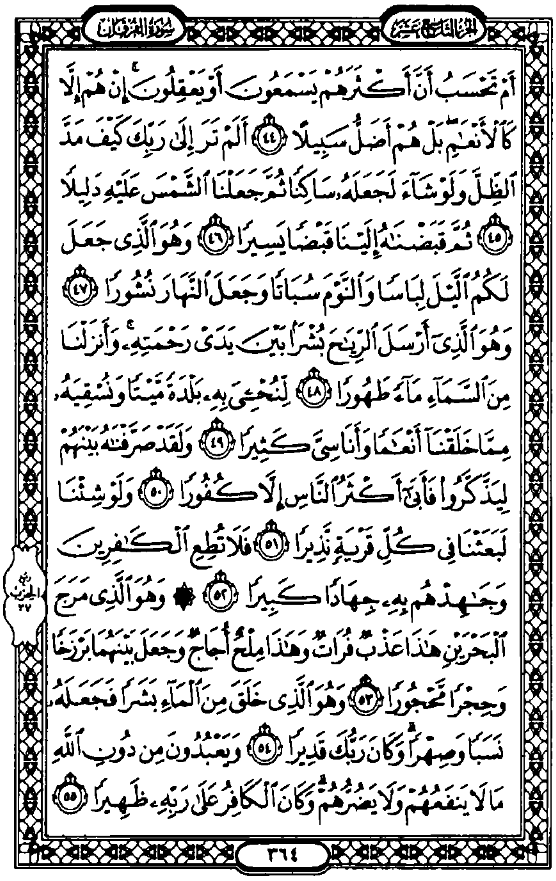

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا
كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴿٤٤﴾ ألم تر إلى ربك كيف مد
الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا
﴿٤٥﴾ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴿٤٦﴾ وهو الذي جعل
لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴿٤٧﴾
وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا
من السماء ماء طهورا ﴿٤٨﴾ لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه
مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ﴿٤٩﴾ ولقد صرفناه بينهم
ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴿٥٠﴾ ولو شئنا
لبعثنا في كل قرية نذيرا ﴿٥١﴾ فلا تطع الكافرين
وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴿٥٢﴾ ۞ وهو الذي مرج
البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا
وحجرا محجورا ﴿٥٣﴾ وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله
نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴿٥٤﴾ ويعبدون من دون الله
ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴿٥٥﴾

٣٦٤

معانى الكلمات :

سباتا : راحة .

صرفناه : كررنا فيه العبر أو أنزلناه على أماكن متنوعة .

مرج البحرين : أجراهما متجاورين .

ملح أجاج : شديد الملوحة .

حجراً محجوراً : حراماً محرماً .

ظهيراً : معينا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن بعض نعم الله فى الكون .

٢ ـ أن يعرف الداعية الحكمة من نزول القرآن

٣ ـ أن يسلك الداعية مسلك القرآن فى كل أموره .

المحتوى التربوى :

تأتى هذه الآيات ، وفى بدايتها احتراز من جمع الكل فى سلة واحدة ، فالتعبير القرآنى فيه التحرز والإنصاف ؛ لأن قلة من الكفار تجنح إلى الهدى ، وفى هذا تعزية للدعاة بأن هذا واجبهم، لأن الله لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً .

يقول صاحب الأساس : « دلت الآية على أن من أطاع هواه فيما يأتى ويذر ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، ومن ثم بين الله لرسوله ﷺ هذا الذى لا يرى معبودًا إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى » .

والكفار حين يبعدون عن الهدى ينحطون لدرجة البهائم ، وما الفرق بين الإنسان والبهيمة إلا بالتدبر والإدراك الذى أودعه الله إياه ، وإن الأمانة التى أبت الجبال والسموات والأرض أن يحملنها وقبلها الإنسان كان سلاحه فيها العقل والإدراك فهم عندما ينفقون عقولهم ، فقد تساووا بالأنعام والجمادات بل أضل سبيلا وطريقا ، وفى هذا عبرة للدعاة والعاملين أنهم يتبعون منهج العقول المستنيرة ، والبصائر الوضيئة .

ثم تترك مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول ، لنبدأ جولة فى الكون وآفاقه الواسعة حيث مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمده ثم تقبضه فى يسر ولطف إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث إلى مشهد البحرين الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها الماء المحيى للموات إلى مشهد الفرات والأجاج ، وبينهما برزخ يمنعهما ويحجز بينهما فلا يختلطان ، ومن السماء إلى ماء النطفة .

يقول صاحب الظلال فى تعليقه على ذلك : « فى خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب ، وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيها ، ويذكر بقدرته وتدبيره ، ويعجب معه إشراك المشركين فى عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، فهو تصرف عجيب فى وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، وهذا تنوع فى عرض الدعوة تارة بالخطاب العقلانى ، تارة بذكر العذاب الأليم للأمم السابقة ، وتارة بذكر مشاهد الكون البديع وقدرة الله فيها ـ فمشهد الظل الوريف يقع كاليد الآسية الرحيمة على الرسول فى مكة ، ومع قلة من المؤمنين يواجه كثرة من الكفار خاصة أنه لم يؤذن له بعد فى مقابلة الاعتداء بالاعتداء .

ثم يأتى مشهد الليل السائر والنوم الساكن ، والنهار ما فيه من حركة ونشور ، فالنوم هو الموت الصغير ، فالبشر ينتبهون وينامون والله لا يغفل ولا ينام ، ومشهد نزول الأمطار يلقى على الحياة ظلا خاصاً ظل الطهارة ، فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية ، وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذى ينشئ الحياة فى الموات ويسقى الأناسى والأنعام والمتجبرون الذين يهددون الدعاة بقطع أرزاقهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، هم أنفسهم لا يملكون شيئاً وهم يعيشون فى فيض النعيم الإلهى ولكن لم يذكروا ، وعلى الدعاة ألا يقنطوا ؛ لأن سنة الله : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ .

والتعقيب القرآنى بعد ذلك يبين ضخامة المهام التى كلف بها الرسول ، فلأن الكثرة ضالة مع أن دلائل الإيمان حاضرة ، ولو شاء الله لبعث فى كل قرية نذيرا ، لكنه عز وجل . اختار لها عبدا واحدا ، وكلفه بإنذار القرى جميعاً ، لتتوحد الرسالة الأخيرة ، فلا تتفرق على ألسنة الرسل فى القرى ، والمعين على هذه المشقة هو القرآن بما فيه من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ،

فالقرآن هو سلاح الداعية يطبقه ويجعله خلقه ، والجهاد بالقرآن ينبغى أن يكون جهاداً كبيرا ؛ لأنه الحق أمام شهوات النفس ، وفساد المجتمعات فهو قوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو مجال .

قال أبو السعود : « وهذه الآية من أصرح الأدلة فى وجوب مجادلة المبطلين، ودعوتهم إلى الحق بقوة، والتفنن فى محاجتهم بأفانين الأدلة ، فإن الحق يتضح بالأدلة ، كما أن الشهور تشتهر بالأهلة » .

ثم يأتى السياق القرآنى ، فبعد مشهد الرياح يأتى مشهد البحار العذبة والملحة ، وما فيه من التقدير الحكيم والصنع البديع ، فالبحران الفرات العذب والملح الأجاج يلتقيان ولا يختلطان، ومستوى مياه الأنهار أعلى من مستوى سطح البحر للحفاظ على حياة الناس والأنعام والنبات، وهى ليست مصادفة بل أنشأ الكون لغاية ، ومن ماء السماء وماء البحر وماء النهر ينتقل إلى ماء النطفة الذى تنشأ منه الحياة البشرية ؛ لأن كل ما ذكر من الآيات مسخرة للإنسان ليقوم بأعباء الرسالة وتكاليف الدعوة .

ويأتى التعبير القرآنى بعد ذلك باستنكار الكفر الذى يتنافر مع الفطرة ، فالكافر وهو صغير تافه يعلن حرباً على مولاه وربه ، وهنا يظهر قبح جحود النعمة وكفرانها وتسلية للدعاة ، فالظالمون حاربوا الله ورسوله ، فليس بدعاً أن يحاربوا الدعاة ويبارزوهم العداوة ويلصقوا بهم التهم الباطلة ويظاهروا الشيطان على معصية الله ويعينه .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام التى لا تملك لهم ضرّا ولا نفعا ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عرض الأدلة الحسية بتنسيق فى مكانها وزمانها بالتدبر قد يكون أفضل من المواعظ والدروس .

٢ ـ الجهاد بالقرآن يشمل جهاد السنان واللسان ، فالقرآن هو العدة والعتاد لكل مؤمن وداعية .

٣ ـ عدم موالاة الكفار وطاعتهم والركون إليهم ؛ لأنهم لا يضمرون إلا كل الشر ، وأن يحذر الدعاة منهم ويحذروا المدعوين منهم ومن أذنابهم وخططهم ووسائلهم ونشراتهم ودورهم وأنديتهم ، والحذر من تقليدهم .

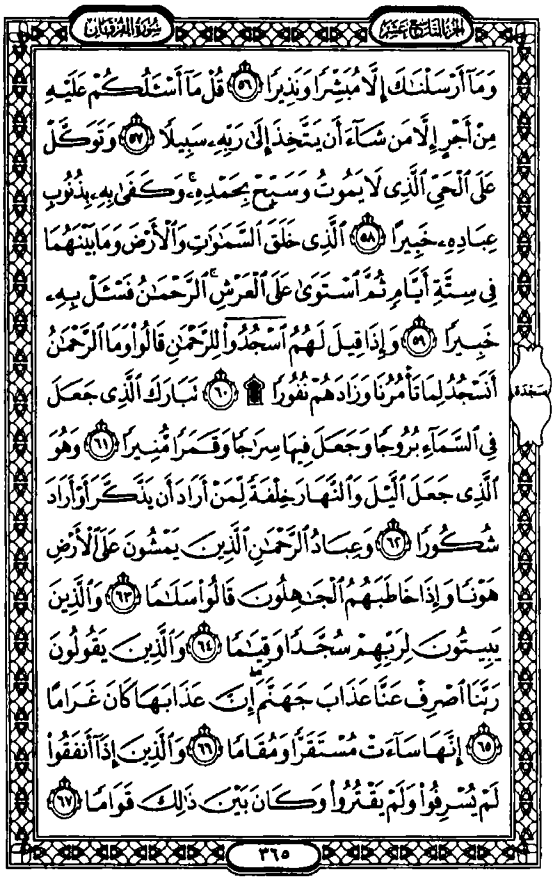
الجزء التاسع عشر سورة الفرقان
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
سجدة
٣٦٥

معانى الكلمات :

نفوراً : تباعداً عن الإيمان .

تبارك : تعالى وتمجده .

بروجاً : منازل للكواكب السيارة .

منيراً : مضيئاً بالليل .

خلفه : يتعاقبان .

غراماً : موجعا .

لم يقتروا : لم يبخلوا .

قواماً : وسطا وعدلا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن دائما بقيمة الركون إلى الله والتوكل عليه .

٢ ـ أن يعرف المؤمن صفات عباد الرحمن .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى العبادة لله بمفهومها الشامل .

المحتوى التربوى :

تورد الآيات واجب الرسول هو التبشير والإنذار . كان هذا فى المرحلة المكية ، أما فى المرحلة المدنية فقد شُرع القتال فى المرحلة الأولى لابد من إعداء الرجال المخلصين حتى يكونوا للمجتمع المسلم الذى يحكمه الإسلام ، ثم بعد ذلك لابد من القتال لإزالة الموانع ، أمام حرية انتشار الدعوة ولحماية المؤمنين كى لا يكون فتنة ، وكى يكون الدين كله لله .

أما ثواب الدعوة فلا ينال من البشر ؛ لأن البشر لا يستطيعون ذلك فالثواب من الله ، فالدعاة يطلبون الأجر من ربهم ، ويتوكلون عليه ، ويصبرون على لأواء الدعوة فهم عاملون مخلصون عابدون مسبحون أوابون .

قال الإمام الشوكانى : « خص صفة الحياة إشارة إلى أن الحىّ هو الذى يوثق به ، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور » .

ثم تأتى الآيات لبيان عظمة المتوكل عليه من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ومع هذا يقابل الكفار ذلك برفض السجود لله استكبارا ، بل ويسألون : ما الرحمن ؟ ويقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة يعنون به مسيلمة الكذاب ، فهذه صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول ؛ تذكر للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول والدعاة ، فلا يضجر الدعاة من ذلك، فمن تجرأ على الذات العلية ، فلا يبعد أن يتجرأ على السائرين فى ركاب الدعوة . ويكون التعليم الإلهى بعد ذلك للرد على تطاولهم بتمجيد الله سبحانه وذكر نعمه فى جعل السماء مزينة بالنجوم وبالقمر المضىء وتعاقب الليل والنهار ، وهذا التعليم هو قمة الرد ، وذروة سنام الجدال بالحسنى ، ومقابلة التطاولات والسفاهات بالتوجيه للتأمل فى خلق الله وبديع صنعه .

ثم ينتقل السياق القرآنى بتناغم عجيب لذكر صفات عباد الرحمن ، وهم خلاصة البشرية فى كفاحها الطويل بين الهدى والضلال ، ولولاهم لهلكت الأرض ، فالبشر أهون على الله من أن يعبأ بهم . .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهر التفاسير : « هذه الآيات الكريمات تصور صفات المؤمنين التى يتكون منها المؤمن الصادق وهى تجمع بين أمور ثلاثة من الصفات : **أولها** : الصفات الموجبة المكونة معنى الإيمان ، والتى هى خلال أهل الإيمان الذين تعلو الإنسانية بهم ، ولا يستعلون عليها ، وهى من أول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ .

وثانيها : صفات سلبية ، وهى التى تبتدئ من هذه الآية الأخيرة .

وثالثها : الذين يبتغون الحياة الزوجية بالطهر والعفاف ، وختم سبحانه الآية ببيان الجزاء الأوفى .

ومن صفات عباد الرحمن نهارًا :

ـ أنهم يمشون على الأرض هوناً . أى مشية سهلة ليس فيها تكلف .

ـ لا خيلاء ولا تماوت ، فالمشية تعبر عن الشخصية ، كان رسول الله إذا مشى تكفَّأ تكيفًا ، وكان أحسن الناس مشية ، وأسكنها ، وهذه مشية أولى العزم والهمة والشجاعة .

ـ وهؤلاء الدعاة فى جدلهم ووقارهم وقصدهم وقد شغلت نفوسهم باهتمامات كبيرة ، ولا يشغلون بالهم بحماقات الحمقى يصونون أوقاتهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ .. لما يشغلون هذا الوقت بما هو أهم وأرفع وأكرم من المهاترات .

أما ليلا : فعباد الرحمن فى عبادة مستمرة ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يقومون لله وحده ، وهذا هو زادهم ؛ زاد التقوى الخشية من الله ، وتبلغ قمة الخشية أنهم مع عباداتهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله فى صرف العذاب عنهم ، وهذه العبادة حتى يتم التمهيد لتقبل القرآن ووعظه وإرشاده والعمل به كما جاء فى سورة المزمل:﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ .

قال القاسمى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ ..... ﴿ غَرَامًا ﴾ المراد من قولهم ذلك : فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى لا مجرد قلقلة اللسان بلا تأثر من الجنان ، فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ويتعوذوا به من سعيرها إلا بعلمهم بسوء حالها ، ومقتضى العلم بالشيء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه ، أما الانطلاق فى الدعوة بدون زاد العبادة والتضرع فصاحبه كالدجاجة المذبوحة فهى نشاط ما قبل الموت .. موت الروح .

ـ ومن صفات عباد الرحمن أن حياتهم نموذج للقصد والاعتدال فلا إسراف ولا تقتير ، وكل منهما يحدثان خللا اجتماعيا أو فحبس الأموال يحدث أزمات ، ومثله إطلاقها بغير حساب .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « النص الكريم يفهم منه يأمران : **أحدهما** : ألا ينفق فى حرام قط ، وألا يضن عن حلال موجود إلا تربية للنفس وتهذيبا ، وفطما لها عن الشهوات ؛ ولذا كان عمر ﷺ يعد من يطلب كل ما يشتهى مسرفا .

الأمر الثانى : إن الإنفاق بين الإسراف والقتر يختلف باختلاف أحوال الأشخاص ، فإذا كان الرجل كسوبا عليه أن ينفق فى الحلال والجهاد بمقدار كسبه وطاقته مادام ينفق فى مطلوب ، ومادام كسبه واسعا ، ولقد قبل النبى ﷺ من أبى بكر كل موفور ماله ؛ لأنه تاجر كسوب ، يعرف مواضع الكسب والخسارة ، ولم يقبله من غيره » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ألا ينتظر الداعية أجراً من دعوته بل يتوقع دائما الإيذاء والصد .

٢ ـ أن يستعين الداعية دائما بالله عن طريق الرحمن من التواضع والسكينة ، وقيام الليل ، والخوف من عذاب الله ، والاعتدال فى النفقة ؛ ليكون قدوة لمن يدعوه .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

معانى الكلمات :

أثاما : جزاء الإثم الذى ارتكبه .

اللغو : الكلام القبيح .

قرة أعين : ما تقر به الأعين .

يعبأ : يهتم ويبالى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يكره المؤمن الفواحش .

٢ ـ أن يعلم الداعية عقوبة مرتكبى الفواحش .

٣ ـ أن يتبع المسلم كل أمر يوصله لرضوان الله .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق القرآنى ذكر صفات لعباد الرحمن هى مفرق الطريق بين الحياة للإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الهابطة لدرك الحيوان وهى كونهم يوحدون الله لا يشركون به شيئاً .

فهم يتحرجون فتوحيد الله أساس العقيدة ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة فى الاعتقاد ، والغموض والالتواء والتعقيد ، الذى لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس ـ إلا بالحق ـ مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التى تحرم فيها الحياة الإنسانية ، ويقام لها وزن ، وحياة الغابات والكهوف التى لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاع عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفا أسمى من إرواء سعار اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة ، التى لا هم للذكران والإناث فيها لا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان ، من أجل ذلك ذكرها الله فى سمات عباد الرحمن ، أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله ، وعقب عليها بالتهديد الشديد ، والعذاب الوبيل ، وليس العذاب المضاعف وحده ، وإنما هى المهانة كذلك ، وهى أشد وأنكى .

قال الإمام محمد أبو زهرة : « إن الله تعالى عدل ، يجازى السيئة بمثلها ، ورحيم يجازى الحسنة بعشرة أمثالها ، فكيف يجعل العقاب ضعف الذنب ، أجاب عن ذلك صاحب الكشاف بأن المضاعفة لأنه عقاب الشرك ، وعقاب الذنب الذى ارتكب من قتل نفس وزنى ، ونقول حينئذ لا مضاعفة .

والذى يبدو لى ـ غير متطاول على مقام الزمخشرى : أن العذاب شديد عنيف حتى إنه ليبدو لدى المعاقب ، كأنه مضاعف للذنب ، وإن المذنب دائما يحس بالجزاء كأنه أكثر من الذنب ، فالله تعالى يصور له العقاب كأنه مضاعف ؛ ولأنه يتجدد آنا بعد آن ، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودًا غيرها ، فهو عذاب بعد عذاب ، وبهذا التكرار الدائم يكون الدائم يكون كأنه مضاعف » .

ومع العقاب الشديد لمن يفعل هذه المنكرات ، فإن باب التوبة مفتوح دائما ليدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب ، **ويوضح صاحب الظلال** كيفية التوبة فيقول : « التوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهى بالعمل الصالح الذى يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية ، وهو فى الوقت ذاته ينشىء التعويض الإيجابى فى النفس للاع عن المعصية ، فالمعصية عمل وحركة يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذى تحسه بعد الإقلاع » .

ويعود البيان القرآنى لذكر صفة أخرى من صفات عباد الرحمن وهى أنهم لا يشهدون الزور لما فى ذلك من تضييع الحقوق والإعانة على الظلم وجعل الحق باطلا والباطل حقا .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ فهم يتجنبون حضور هذه المجالس .

يقول صاحب الظلال : « وقد يكون معناها الفرار من مجرد فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعا منهم عن شهود مثل هذه المجالس، والمجالات .. وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر .. لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤية بله المشاركة فيه ، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها فى نفسه وفى الحياة كلها فى شغل شاغل » .

ثم يستمر القرآن فى ذكر سمات عباد الرحمن أنهم إذا سمعوا آيات ربهم آمنوا به ، ولم يكونوا كالصم والعميان؛ بل إنهم فى تحمسهم لعقيدتهم تحمس العارف المدرك البصير، لا تعصبا أعمى، ولا انكبابا على الوجوه هم ـ كما قال قتادة ـ قوم عقلوا عن الله ، وانتفعوا بما سمعوا عن كتابه .

وإزاء الشعور بحلاوة الإيمان يتمنى عباد الرحمن أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم فتقر بهم عيونهم **ويقول صاحب الظلال** : « هذا هو الشعور الإيمانى العميق : شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين إلى الله وفى أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة ، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال » .

﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى : هداة دعاة إلى الخير ، فينبغى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون فى الله ، وليس فى هذا من أثرة ولا استعلاء ، فالركب كله فى الطريق إلى الله .

ثم تصل الآيات لبيان جزاء عباد الرحمن الذين أخلصوا مع الله فى الجنة فى أجمل أماكنها، فهؤلاء هم الكرام يستقبلون بالتحية والسلام جزاء على ما صبروا ، لأن هذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ومغريات الحياة ودوافع السقوط ، فجزاه الله بالجنة خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً لهم .

وتختتم السورة بختام يناسب موضوعها للتسرية عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهى أن البشرية لا تزن شيئاً لولا دعاء عباد الرحمن له ، فهم صفوة أهل الله وخاصته ، **ويقول صاحب الظلال** : «إن الإنسان لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا،ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه! وهو هين هين .. ضعيف ضعيف .. قاصر قاصر إلا أن يتصل بالله ، فيستمدّ منه القوة والرشاد . وعندئذ فقط يكون شيئاً فى ميزان الله ؛ لذا فإن الكفار هم حطب جهنم ووقودها ، والمؤمنون ينتصرون وهم قلة ؛ لأن الإيمان أثقل قدرهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ إن باب التوبة مفتوح لكل تائب راجع إلى الله ، ويجب المسارعة إليها .

٢ ـ حرمة شهادة الزور وبيان آثارها الخطيرة ، وحرمة حضور محافل المنكر ، وأندية الرذيلة ، واجتماعات اللغو والباطل .

٣ ـ وجوب تدبر آيات الله دائما ، والعمل بها والتجاوب معها .

٤ ـ قيمة الصبر وفضيلته فى نيل رضوان الله وجزاءه من ربه .

٥ ـ إن علاقة الإنسان بربه وعبادته لله هى شرفه وعزه وقيمته الحقيقة ، أما الكافر والمعرض عن ربه فلا وزن له .

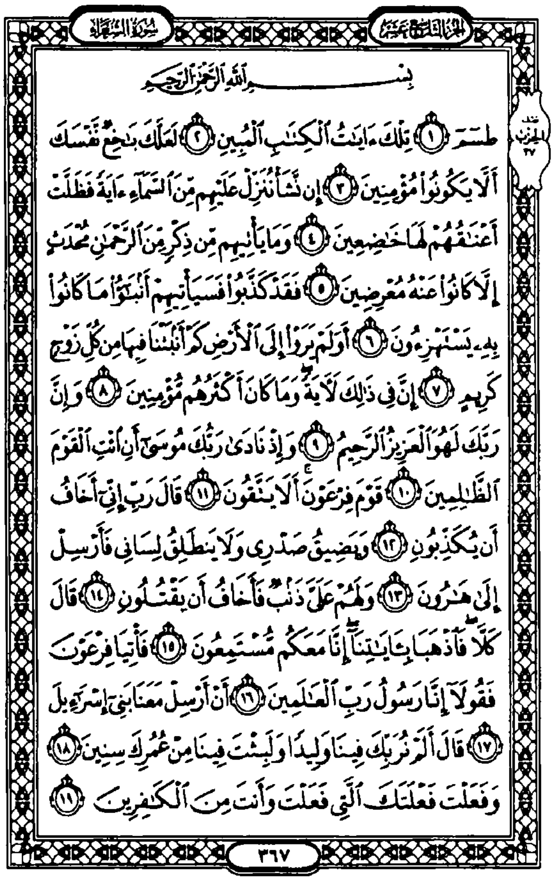
الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) لعلك باخع نفسك
ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت
أعناقهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث
إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا
به يستهزئون (٦) أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج
كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن
ربك لهو العزيز الرحيم (٩) وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم
الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون (١١) قال رب إني أخاف
أن يكذبون (١٢) ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل
إلى هارون (١٣) ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون (١٤) قال
كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون (١٥) فأتيا فرعون
فقولا إنا رسول رب العالمين (١٦) أن أرسل معنا بني إسرائيل
(١٧) قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨)
وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩)

٣٦٧

سورة الشعراء

معانى الكلمات :

باخع نفسك : مهلكها حسرة .

آية : دلالة واضحة .

أعناقهم : جماعاتهم .

محدث : مجدد .

زوج كريم : صنف حسن من النبات .

لا ينطلق لسانى : لا أستطيع التوضيح .

ذنب : عقاب على ذنب سابق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة التكاليف الربانية .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على قدراته الحقيقة فى دعوته .

٣ ـ أن يؤدى المؤمن دوره فى دعوته بدون إفراط ولا تفريط .

المحتوى التربوى :

شأن هذه السورة كشأن السور المكية موضوعها العقيدة ، فتتحدث السورة عن توحيد الله والخوف من الآخرة، والتصديق بالوحى المنزل على محمد ، ثم التخويف من عاقبة التكذيب ، ثم تسلية الرسول وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن ، وطمأنة قلوب المؤمنين ، وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا فى سبيلها ، وجسم السورة هو القصص القرآنى ، يغلب عليه جو الإنذار والتكذيب .

ثم تبدأ السورة بذكر أحرف مقطعة للتنبيه إلى أن آيات الله مؤلفة من مثل هذه الأحرف ، والكفار لا يستطيعون أن يصوغوا من هذه الأحرف مثل هذا الكتاب المبين فهؤلاء ضعاف أمام قوة الإيمان وقوة القرآن .

وبعد ذلك يخاطب الرسول ألا يؤذيه قول المشركين وتكذيبهم له وللقرآن ، فلو شاء الله لأهلك الكافرين بآية من عنده ، ولكن شاء الله أن يجعل القرآن هو معجزة هذه الرسالة ، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوى الأصناف فى أمة بعينها ، بل هى رسالة مفتوحة لجميع الأمم فى كل زمان ومكان ، يعطى كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد بل يتجدد .

لكن الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق يعرض عن ذكر ربه ، بل يقابل ذلك بالاستهزاء ، فيأتى التهديد اللازم المقابل لاستهزائهم أنهم سيذوقون العذاب ، فهم يطلبون آية خارقة ، ويغفلون عن آيات الله فيما حولهم ، وفيه الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير ، وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

ومعجزة إخراج النبات الحى من الأرض ، وجعله ذكرًا وأنثى ، إما منفصلين كما فى بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين . كما هو الغالب فى عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء اتأنيث فى عود واحد ، هذه المعجزة تتكرر فى الأرض حولهم فى كل لحظة ، والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية .

واللفظ يوحى إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال ، ولا بالاستهانة والغفلة والإغفال والإغفال ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ﴾ وهو يطلبون الآيات ، ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية .

ويأتى التذييل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عزيز فى إظهار إبداع الآيات ، ورحمته أن يمهل المكذبين فلا يعذب الكفار حتى يأتيهم نذير ، فيبعث الرسل بالتبصير والتنوير والتبشير والتحذير ، وهذا ما يفرضه الواقع الآن أن ينشط الدعاة ، ويبذلوا كل الوسع والطاقة ، لا يروا الواقع أسود ، بل يبددوا هذا بعزائمهم القوية، وبالنور الذى أمدهم به ، وهو كتاب ربهم وسنة نبيهم .

يقول صاحب الأساس : « تحدثت المقدمة عن كفاية هذه الآيات للإيمان ، وعن موقف أكثر الخلق منها ، وعن الحكمة فى عدم إنزال آيات غير ما أنزل ، ثم لفتت النظر إلى آية دالة على وجود الله ، وهى أصناف النبات ، ومع ذلك فإن الخلق لا يؤمنون ، فالعلة فيهم ومنهم ، وعلى الرسول أن يدرك ذلك وألا يحزن » .

ثم تأتى قصة موسى ﷺ ، وفى المشهد الأول منها المناجاة بين موسى وربه عندما كلفه الله ـ عز وجل ـ بالرسالة ، وأن يذهب إلى فرعون ، فشكا موسى ضعفه ، وطلب إعانته بهارون وأن يكون رسولا معه، وهذا ليس نكوصًا لا اعتذارًا عن الرسالة بل التقاء للتقصير فى أداء التكليف، ولأن هارون أفصح منه لسانا وأهدأ انفعالًا ، وهكذا علمنا الكليم أن يعرف نفسه ، وكيف ننهض بالدعوة ، وأن يكون كلٌّ فى موقعه الصحيح .

ويتابع موسى المناجاة ، ونتابع معه خوفه على الرسالة فى قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فإن ذكره لهذا ليس للخوف من المواجهة والتخلى عن التكليف ، ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون ، فإذا قتلوه قام هارون بالرسالة من بعده ، **يقول صاحب الظلال فى ذلك** : « هو الاحتياط للدعوة لا الداعية ، يحتاط فى أن يحتبس لسانه فى الأولى المشافهة ، والاحتياط فى أن يقتلوه فى الثانية ، فتتوقف دعوة ربه ، وهو على إبلاغها واطرادها حريص ، وهذا يليق بموسى عليه السلام الذى صنعه الله على عينه ـ واصطنعه لنفسه » .

ومع حرص الداعية ـ موسى ـ وإشفاقه واحتياطه يطمئنه الله أن معية الله تحوطه فهو يسمع ويرى للتعبير عن دقة الرعاية وحضور المعونة بالنصر والتأييد والغلبة فى كل موقف .

ثم يعقب ذلك مشهد المواجهة مع فرعون بأن واجه موسى فرعون بمضمون الرسالة، وأشدها على فرعون الذى ادعى الألوهية ـ بقوله أنه رسول من رب العالمين ، أى مواجهة صريحة مع أعتى العتاة ، ثم طلب تحرير قومه من العبودية والإذلال بإخراجهم من مصر،يطلب ذلك الطلب الضخم،وآخر عهده بموسى أن كان ربيبًا فى قصره منذ أن كان من حاشية فرعون ، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ، ونظر إليه بعين الإزدراء والفحص ، أما أنت الذى ربيناه فينا ، وفى بيتنا وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ، والملاحظ أن موسى حدد مطلبا رئيسيا من فرعون، وهو الإذن لبنى إسرائيل فى الخروج من مصر، وهو مطلب سياسى ، .. والملاحظ أن فرعون فرَّ من الجواب على هذا المطلب الرئيسى بتذكير موسى بنعمته عليه . وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلا ، خاصة حكاية القتل وما فيها من تهديد ، وما يعقبها من قصاص ، فتغافل الطاغية عن الحقائق ؛ لأنه يعلم ضعفه وضعف حجته ولجأ لكل ما يلجأ إليه الضعفاء ، وظهر هذا الضعف فيما تلا هذه الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التنبيه لبلاغة القرآن وإعجازه وتدبره ودراسته .

٢ ـ السعى فى الدعوة إلى الله بنشاط دون كسل ودون إفراط فى الأسى على عدم استجابة المدعوين .

٣ ـ أن يعلم الإنسان ويرى مقداره الحقيقىّ فلا يظلمها بتعظيمها وإلا يبخسها حقها ، ولا يتحرج من طلب الإعانة فى الأمور الشاقة .

٤ ـ البعد عن الامتنان بالمعروف لأنه محبط للعمل الصالح .

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

معانى الكلمات :

حكماً : بنوة وعلماً .

عبدت بنى إسرائيل : اتخذتهم عبيداً لك .

بيضاء : تتلألأ كالشمس دون برص أو بهق .

أرجه : أخره .

المدائن : أطراف مملكتك .

لميقات : للموعد المحدد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن قيمة المعية الربانية .

٢ ـ أن يعرف المسلم العون الإلهى فى حوار موسى مع فرعون .

٣ ـ أن يستعين المؤمن بربه فى كل أموره الدعوية والحياتية والجهادية .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات لبيان معية الله ، فانطلق لسان موسى يجيب على فرعون : أنه فعل ما فعل بدافع العصبية لا العقيدة التى تعطينى الحكمة الآن ، وما تربيتى إلا فى بيتك إلا أنك اضطهدت قومى وقتلت أبناءهم ، فقذفتنى أمى فى التابوت ، فلم أرب فى بيت أبى وأمى وفى كنفها وحنانها ، فبهت فرعون من الجدال فى تلك المسألة ، فالله يعين أولياءه أمام الظالمين والعتاة عند الجدال والمحاجاة .

قال ابن كثير فى تفسير : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أى : « أحسنت إلى وربيتنى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماً ، أفيبقى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم وكان رداً فى غاية القوة ، وفيه درس للمشتغلين بقضايا تحرير

أقوامهم من ظالميهم وجلاديهم ، فلا يغفر سرقة الشعوب وإفساد المجتمعات وانتهاك الحرمات بنايةُ تشيد أو ما يشابه ذلك » .

وتتابع الردود الحجة بالحجة والكلمة بالكلمة ؛ لأن الصمت فى مقام التبليغ عجز وتوان وإخلال بالإمانة ، ففرعون ـ قبحه الله ـ يسأل : ما يارب العالمين ؟ افكان الجواب : إنه رب السموات والأرض وما بينهما الذى لا يبلغ فيه سلطان فرعون ذرة أو هباءة ، ويستمر ضعف الظالم فى نقل الخطاب لمن حوله ، ويستمر الرد المتصل بالمدد الربانى بأن رب السموات والأرض هو رب آبائهم ، فهو نفى للألوهية عن فرعون فى حضور بطانة السوء من حوله .

ولا يبالى الدعاة باتهامات المعرضين التى تكرر مع كل رسالة ، فيتهم موسى بالجنون فيستمر العون الإلهى ، بقول موسى إنه رب المشرق والمغرب وما فيهما من العظمة فهما يدلان على الشروق والغروب وكل منهما له مكان ، ولا يجادل فرعون فى ذلك ؛ حتى لا يكون مصيره كمصير النمرود .

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ، ولا ينغم على أحد كما ينغم على من يهزون الضمائر الغافية ، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور .

ويتتابع الحوار الذى فقد فيه فرعون القدرة على الجدال ، ولأنه إزاء الدعوة القوية الصريحة التى تكاد تهز أوتار القلوب يلجأ لأسلوب الطغاة عندما تنتهى حججهم بتهديد موسى بأن مصيره السجن ، والدعاة يتوقعون ذلك دائما السجن والاعتقال والتشريد والتجويع ، فلم يُفقد التهديدُ الداعيةَ موسى رباطةَ جأشه بل هو الذى يمسك بالحوار بإحراج فرعون أمام ملئه بإظهار المعجزتين أمامه وأمام الملأ ، فأحس فرعون بضخامة المعجزة ، فأسرع يقاومها ، ويتملق القوم بقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « حمل فرعون حماية لطغيانه أمرين :

الأمر الأول : إنه بهذا لا يريد هداية وتعليما وإرشادًا وإصلاحا ، ولكن يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، والإخراج يكون لكم سلطان فى الأرض ، بل يكون الأمر لغيركم وتكونون عبيدًا تعيشون على هامش الحياة فيها .

الأمر الثانى : أن يكون له سلطان عليكم ، وذلك ذهاب لسلطانكم ، وإخراجه لكم من دياركم ، وإن ذلك كله بسحره ، وهذا ينبئ عن الفزع ، ولكنه فزع يتصور الويل والثبور وعظائم الأمور ، وإلا ما كان السحر ذاته مزيلا للملك ، ومخرجا من الديار .

وإنه فى هذا يستحث قومه على معاندة موسى ، وألا يميلوا كل الميل له ؛ لأنه عدو الديار ، ويكل الأمر إليهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ، يطلب استشارتهم متطامنا خاضعا وقد أحس أن الأمر يخرج عن سلطانه ، فيقول فى استشارتهم فماذا تأمرون ، أى ما الذى تأمرون به ، وإنى أنفذه.. » .

ويعقب صاحب **الظلال** على ذلك بقوله : « تلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر يلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام ، ويتظاهرون بالشورى إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون ، وأشار عليه الملأ ، وقد خدعتم مكيدته ، وهم شركاء فرعون فى باطله ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع التى تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ، وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتى موسى وتسمع إلى ما يقول » .

وتأتى نتيجة خديعته لقومه ولأنه استخف قومه فأطاعوه ، فأشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثلِه ، ويأتوا السحرة المساحرين ، ولو فطن هؤلاء ما طلبوا ذلك ؛ لأن موسى وأخاه ليسا من السحرة المعروفين بالسحر ، فكيف يصدقون أنه ساحر ؛ وأنه عليم بالسحر والسحرة لهم مقصد وهو المال وما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا وهم لم يرغبوا فى ذلك ، بل هم لم يطلبوا إلا إظهار الحقيقة الربانية بإفراد الألوهية لله ، وتحرير بنى إسرائيل من الظلم والاسترقاق ، ولكن المحاجاة تستمر ، لإبطال كيد فرعون وتدبيره ، وفراعين اليوم نستطيع أن نبطل تدبيرهم ومكرهم باللجوء إلى الله ، وطلب المعية الربانية .

قال صاحب **الظلال** فى قوله تعالى : « ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ » تظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير ، والجماهير تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليشغلها عما تعانى من ظلم وكبت وبؤس » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الشجاعة ورباطة الجأش فى مواجهة الظالم ومرتكبى المنكرات مع الكياسة والحكمة .

٢ ـ لا مساومة فى قضية التوحيد ، وإنها هى الحقيقة الأولى فى الحوار والجدال .

٣ ـ أن يتوقع الداعية دائما كل اضطهاد وعنت ، وأن دعوة الله لا تلتقى ودعوة الشيطان .

٤ ـ الاستعانة بالأدلة الحسية من فنون وأساليب الدعوة إلى الله .

٥ ـ مشروعية الشورى فى كل من الأمور .

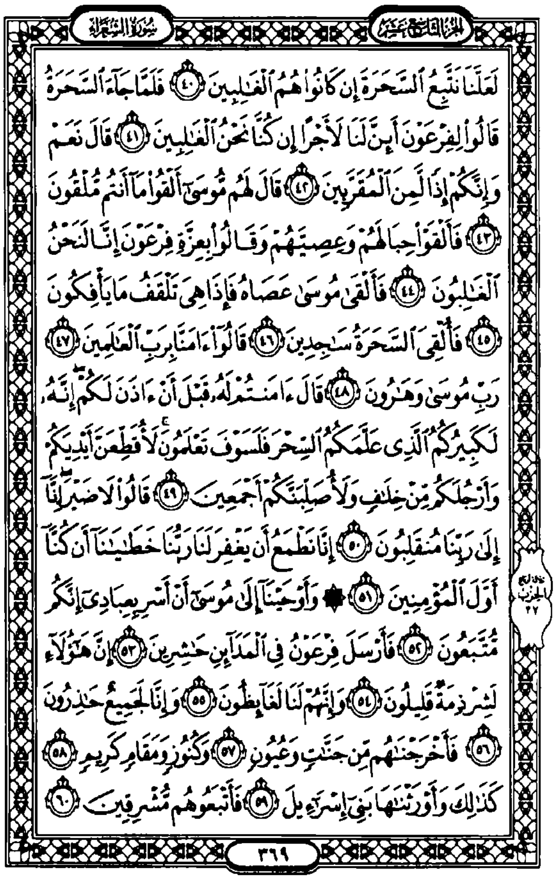
الجزء التاسع عشر سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٣٦٩

عانى الكلمات :

بعزة فرعون : أى تقسم بعظمة فرعون .

لا ضير : لا ضرر علينا فيما يصيبنا .

شرذمة : طائفة قليلة .

مقام كريم : منازل حسنة .

مشرقين : وقت شروق الشمس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله ومنته على المؤمنين .

٢ ـ أن يعرف المؤمن جوانب معية الله لموسى عليه السلام ومن معه .

٣ ـ أن يخطط المؤمن لكل أمور دعوته وحياته .

تفسير الآيات :

ويأتى مشهد جديد وهو مشهد السحرة بحضرة فرعون ، وهم يطلبون منه الأجر والمكافأة ، وهنا يظهر الفرق ، فموسى رسول من رب العالمين يأتى بمعجزات باهرة ، والسحرة جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية تبذل مهاراتها فى مقابل الأجر والقرب من عرش الطاغية ، لا علاقة لتلك الجماعة بعقيدة ، وهؤلاء يتخذهم الطغاة دائما .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « أقر فرعون طلبهم أولا ، بقوله : (نعم) الدالة على استحقاقهم ، وعدالة طلبهم ، وقرر جزاءين :

الجزء الأول : الأجر ، وقال : إن لكم لأجرًا مؤكدًا الأجر بأنه لهم ، واستحقاقهم ، وإنه أجر كبير لتنكير أجرا ـ أى أجرًا عظيما لا يقادر قدره .

والجزاء الثانى : الذى يعد جزاء كبيرا عند الملوك والطغاة ، وهو أن يكونوا مقربين ، وهذا التقريب إليه ، يتضمن مزايا معنوية فى نظرهم ، وهو الرضا السامى ، كما كنا نسمع من عبارات الثناء على المقربين عند الملوك ، والذين كانوا يقلدون فرعون فى طغوانه ، وإن كانوا فى معاملة الرعية شرًا منه ، ويتضمن مزايا أخرى بأنهم ينالون جزاء مما يسلط على العباد بتسليطهم ، ويتضمن مكاسب مادية من السعاية والإفساد ... » .

ثم يأتى مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام، والتحول العظيم عندما جمع السحرة أمرهم، وألقوا حبالهم مستعينين بعزة واهية هى عزة فرعون ، ويلقى موسى عصاه فتلقف حبالهم ، ولا يبقى لها أثر فهزتهم المفاجأة ، وأزالت عنهم ركام الضلال ، فألقوا ساجدين ناطقين بكلمة الإيمان لا بموسى وهارون بل بربهما ، ويتحول القلب البشرى الذى هو كما قال رسول الله ﷺ: « ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » لأنهم علموا أن القضية ليست سحرا ، وأنهم أمام معجزات تجاوز قدرات البشر ، فالقضية هى العقيدة وأنهم ليسوا أمام ساحرين بل رسولين .

ولا زلنا نتابع التأييد الإلهى بالمعجزات لموسى وهارون وتثبيت قلبيهما ، وفطانة الكليم فى إظهار عجز فرعون وملته أمام الجماهير المحتشدة ، يتحول السحرة المأجورون إلى مؤمنين من خيار المؤمنين بعد أن عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلى ساحر .

هنا نستطيع أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة وذعر أتباعه من الظلمة حين يرون أن العروش تهدد، فيلجؤون للتهديد والعقاب ، ويرمون المؤمنين بالتآمر وقلب الأنظمة باستخفاف الشعوب وإلباس الحق بالباطل ، فيتهم موسى الذى ربى فى بيته بأنه كبير السحرة .

ثم تتواصل ملحمة الإيمان فى هذا المشهد العظيم بقول المؤمنين : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ فلا خوف ولا هلع من تقطيع الأيدى والأجل من خلاف ، لا ضير فى التصليب والعذاب ؛ لأن مطمع المؤمنين غفران ذنوبهم ، وما يشفع لهم أنهم من السابقين إلى الإيمان . ومن هنا نلمح لما كان المسابقون إلى الدعوات الربانية هم أكثر الناس صبرا وتحملا للبلاء ، وأشد الناس حماسة لدعوة ربهم .

وتستمر العناية الإلهية ، والمعية الربانية بالوحى لموسى أن يخرج بقومه ليلا ، ويعلمه ربه بالسبب ، وهنا يجول الذهن ، ويقف عند الهجرة النبوية ، وأمر الله لرسوله بالخروج سرا ،

وقبلها أمرُه ـ عز وجل ـ لنبيه لوط ﷺ بأن يخرج بأهله ليلا ، ولا يلتفت إليه أحد من القوم ، يلمح فى ذلك كله التخطيط الدقيق ، والهجرة من ديار الكفر والسرية ، وتقدير قوة العدو .

ولا يزال الهلع يسيطر على فرعون مدعى الألوهية ، فيأمر بحشود الجموع ، وتجييش الجيوش لموسى ومن معه الذين قاموا بالإعداد للخروج خلسة ، فأراد أن يقضى على الفئة المؤمنة التى إن خرجت ستزلزل عرشه وشخصه ، ويستدعى الذهن مؤامرات المشركين لقتل الرسول ورفض نفيه ، ومحاولات الظلمة والجبابرة منع الدعاة من الخروج خارج أوطانهم بل تعقبهم بكل السبل .

ويأتى موقف البطانة بطانة السوء فى صلفهم واستكبارهم بتهوين شأن موسى ـ ﷺ ـ ومن معه بأن يتبعوا أمرهم ويحزموا مكائدهم ، كل ذلك للحفاظ على مراكزهم ولإظهار القوة والقرب من فرعون .

يقول صاحب الأساس : « وهكذا لخص الله لنا بأربع آيات تدبير فرعون ضد بنى إسرائيل ، وهو التدبير المستمر للطغاة فى كل العصور ضد أهل الحق : يحشرون الناس ، ويجمعونهم بسلطة السلطان ، فيعقدون الاجتماعات والندوات ، ويسيّرون المسيرات للتوعية ـ فى زعمهم ـ ويقولون عن أهل الحق: إنهم فئة قليلة منحرفة عن إرادة الشعب، وخارجة على إرادة الجماهير، وأنهم يقومون بأعمال إجرامية ضد السلطة ، وأن على جميع الشعب أن يكون حذراً وواعيا ، إن مثل هذا التسجيل الخالد لفعل فرعون ، والذى ينطبق على كل زمان ومكان ، لهو وحده معجزة، ومن هنا نفهم سرّا من أسرار القصص القرآنى ، وخصيصة من خصائصه إن القصة القرآنية نموذج خالد مستمر متكرر فيه عبرة وعظة ودروس لكل إنسان ، وفى كل زمان » .

ولكن منة الله تظهر سريعاً بوراثة موسى وبنى إسرائيل أموالهم وكنوزهم ، ولقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ، فكانت خرجتهم هذه هى الأخيرة ، وكانت إخراجا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ، وهذا أول العذاب للظالمين بتجريدهم من النعيم الذى يرتعون فيه ، فعقاب الله للظالمين واقع بسلب النعم وجلب النقم ، وثوابه ـ عز وجل للمؤمنين شامل بالسكينة ، ومنع العذاب ، ومنح الخيرات ، وكل ذلك لزيادة الدرجات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تنوع فنون الدعوة ، ومخاطبة كل فئة بما يناسبها .

٢ ـ فضل التسابق للإيمان ولعمل الخير ، والترغيب فى ذلك دائما .

٣ ـ التخطيط الجيد ، وأخذ الحذر لمؤامرات الأعداء .

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

٣٧٠

معانى الكلمات :

مدركون : ملحقون .

الطود العظيم : الجبل الشامخ الثابت .

أزلفنا : قربنا .

عاكفين : قائمين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقبح الكفر وأهله .

٢ ـ أن يعرف المؤمن قصة إبراهيم وشجاعته مع قومه .

٣ ـ أن تكسو المسلم الشجاعة والقوة مع الحلم والأناة مع مرتكبى المنكرات .

المحتوى التربوى :

تصل المعركة بين موسى وفرعون لنهايتها بوصول الفئة المؤمنة إلى البحر وليس معهم سفن ، ومن خلفهم فرعون ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم ، وتظهر النفس الإنسانية جزعها بقولها : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ولكن ثقة الداعية بربه أكبر ، واليقين بربه آت ، والنجاة كائنة بمعجزة ربانية بانقلاب البحر إلى فرقين ، وعبر بنو إسرائيل بينهما ، فقد وقعت المعجزة ، وتحقق الذى يقول عنه الناس : مستحيل ؛ لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور ، والله الذى خلق السنن قادر أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

لكن الظالمين لا يعلمون سنة الله فى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة : ١١٧) وغرق الطغاة فكان الهلاك لهم والنجاة للمؤمنين الذين جاهدوا فى سبيله ، واستقاموا على الطريقة ، ولاحظتهم عيون العناية

الإلهية ، كل ذلك ليستبشر المؤمنون المستضعفون وليثقوا بوعد الله ، فإن الله مع الصابرين ، وهو يدافع عن الذين آمنوا .

يقول صاحب الظلال : « ومضت آية فى الزمان ، تتحدث عنها القرون ، فهل آمن بها الكثيرون ؟ ... فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما ، وإن خضع لها الناس قسرًا ، إنما الإيمان هدى فى القلوب » .

وتستمر قضية العقيدة فى حلقة أخرى من القصة القرآنية لا تستلزم النهج التاريخى ، فالعبرة هى المقصودة من دعوة إبراهيم لقومه بأن يتركوا أصنامهم التى لا تضر ولا تنفع ، وهنا نلحظ تصور الفطرة البشرية عبادة غير الله ، فى مقابل الفطرة المرتكسة التى انحط أصحابها ، وهذا الواجب على الداعية أن يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، وأن يبصر المجتمع من حوله بضلاله، فأخذ إبراهيم يوقظ القلوب الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة إلى هذه السخف الذى يزاولونه ، بلا وعى وبلا تفكير .

وأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذى يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ، وهذه الأصنام لا تسمع عبادها ، وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر ، فإن كانت صماء لا تسمع ، فهل هى تملك النفع والضر ؟ ولم يجب القوم بشىء ، إلا أنهم وجدوا آباءهم يعكفون عليها فعكفوا مثل ما عكفوا .

ثم يأتى جواب الظالمين ليتأكد أن حجة الكفار هينة ، وردهم مخجل ، ولكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه ، وقاله كفار مكة بأنهم يتبعون آباءهم فى كفرهم ، وهنا يظهر التحجر العقلى والانحراف عن الهدى فى هؤلاء المشركين أو من المبتدعة الذين يصرون على بدعهم الفاسدة وقوانينهم الباطلة التى تطفح ضلالا وزيغاً وعندما يرشدونه فلا يسترشدون بل يرمون غيرهم بالرجعية والجمود ثم التآمر ثم يهددونهم .

ولم يكن أمام داعى الحق إلى أن يجاهرهم العقيدة الصحيحة وبعداء آلهتهم ، وعادى آباءهم الأقدمين وهكذا يعلم القرآن المؤمنين كما **يقول صاحب الظلال** : « أن لا مجاملة فى العقيدة لوالد ولا لقوم ، وأن الرابطة الأولى هى رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هى قيمة الإيمان ، وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون » .

ولبيان سبب العبودية لله أمام الصورة القبيحة للكفار ، وهم يعبدون الأصنام ، يأتى الخليل بصفات الله عز وجل يعلن نبيه كمال الإقرار بالفضل الإلهى ، فهو يطعم ويسقى ، فهى الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، ثم إذا مرض ، فهو يشفى ، وكمال الأدب النبوى يظهر فى عدم نسبة المرض لله ، كما لم ينسب موسى ، النسيان لله بل نسبه للشيطان ، فالله ينفع أما الأصنام فلا تنفع

ولا تضر ، والله بيده الموت والحياة كل ذلك فى استسلام ورضا عميق ، وليطمئن الدعاةُ السالكون فى طريق الرسالات النبوية ، ولا يجزعوا من اتهامات التجويع والتنكيل والمصادرة والفصل والسجن والقتل ؛ لأن الأمور بقدر الله .

ويستمر الإقناع النبوى المستمد من الثقة من عون الله ، فالأصنام لا تسمع الكفار حين يدعون ، أما إبراهيم الأواه المنيب يعرف ربه الذى يسمع الدعاء وهو يطلب غفران ذنوبه ، وكما **يقول صاحب الظلال** : « وهكذا يجمع إبراهيم فى صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين ، والإقرار بتصريفه للبشر فى أدق شؤون حياتهم على الأرض ، والبعث والحساب بعد الموت ، وفضل الله وتقصير العباد » .

قال أبو السعود : « ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه ﷺ من الصغائر ، وتنبيهالأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم ، فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله ﷺ ، مع كونه فى طاعة الله ـ تعالى ـ وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة ، فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر ، وفنون المعاصى والخطايا ؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها إنما تغفر فى الدنيا ؛ لأن أثرها يومئذ يتبين » .

وتظهر قيمة الحرص على الدعوة والتواضع ؛ الأولى فى طلب الحكمة كى يستمر فى الدعوة لله على بصيرة وهدى،والثانية فى أن يلحق خليل الرحمن أبو الأنبياء بالصالحين!فشرف المؤمن وعزه وسؤدده فى قربه من ربه ، وذله إليه هو فخره بين العباد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ظهور فضل الله على من يتمسكون برسالته ، وينبغى التذكير دائما فى كل مجتمع للناس ندوة ـ محاضرة ـ خطبة .

٢ ـ الشجاعة أمام الظالمين والمبتدعين ومرتكبى المنكرات ، وتغيير المنكرات ، وتغيير المنكر كلٌ حسب استطاعته .

٣ ـ دوام الدعاء والاستغفار لله عز وجل .

٤ ـ أن يسلك المؤمن سبيل الله والتواضع لله فى كل أموره .

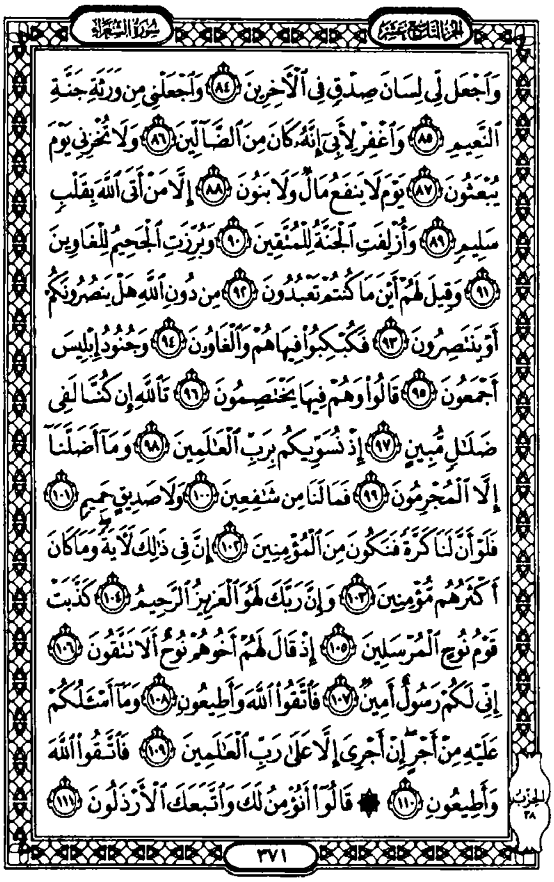

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
الحزب ٣٨

معانى الكلمات :

لسان صدق : ثناء حسناً .

أزلفت الجنة : قربت .

برزت : أظهرت .

الغاوين : الضالين .

كرة : رجعة .

الأرذلون : السفلة المذنبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بقيمة دعوته وقيمة استمرارها .

٢ ـ أن يعرف الداعية بعض نماذج حرص الدعاة على استمرار دعوتهم .

٣ ـ أن يستمر الداعية فى دعوة أولاده وعشيرته الأقربين .

المحتوى التربوى :

يستمر الخليل فى دعائه وابتهاله الذى يبين ارتباط الدعاة بالعقيدة لا بالنسب بأن يكون له فى نسله ألسنة صادقة تدعو كما يدعو بالحق وبالحنيفية السمحة ، وبأن يسلكوا مسلك الصالحين بالعمل الصالح كى يصلوا لجنة النعيم ، لأنه لا واسطة ولا قربى إلى الله إلا بالقلب السليم فلا ينفع الأبناء الطالحين آباؤهم الصالحون ، والعكس لا يصح، فاستغفار إبراهيم وما فيه من دلالة البرِّ بَيّن القرآن فيما بعد أنه لا تجوز ، لأن الرابطة هى رابطة العقيدة ، فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ، وكانت البعدى التى لا تبقى معها صلة أو شيجة .

ثم يأتى المشهد الذى يبقى المؤمن دائما على أهبة الاستعداد للعمل لله والإخلاص ، وهو تصور يوم القيامة وعدم الخزى فيه ، وأهل الجنة ينعمون ، والجنة تقترب منهم .

يقول صاحب الأساس : « وبهذا عرفنا المطالب العليا للمسلم الكريم : الحكم ، والصلاح ، وحسن الذكر فى الله ، والجنة ، والمغفرة للآباء ، وعدم الذلة يوم القيامة » .

وأما الكفار الظالمون ، فالنار تظهر لهم ، ويحشر الكفار فيها ويتخاصمون ويتمنون أن يرجعوا فيؤمنوا ولات ساعة ندم ، وتلك نهاية فى الآخرة كما أشارت القصة السابقة لنهاية فى الدنيا ، وتلك نهاية الكفر، وهى موضع العبرة تُعرض فى القرآن كأنها واقعة تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر .

قصة سيدنا إبراهيم هى التى أمر الرسول محمد ﷺ بأن يلقيها على قومه – لأن الدعوة أكثر تشابها والكفار فى زمن الرسول عباد صنام ، والعقاب فيها فى الآخرة ، وهذا يجب التفطن إليه فى الدعوة بأن تستدعى الأسئلة فى مواضعها للترغيب فى الانضمام فى الدعوة وركابها ، وللترهيب من النكوص إلى الضالين المجرمين ، ومن توبة الأصنام برب العالمين ومن اتخاذ رؤوس الكفار أربابا من دون الله .

ثم يرجع السياق القرآنى تاريخيا لقصة لنوح عليه السلام وبدأنا نتيجة دعوة نوح مع قومه ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحا ، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين .فالرسالة فى أصلها واحدة وهى الدعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له ، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين فهذه دعوتهم أجمعين .

يقول صاحب الظلال : « ينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هى أمته ، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير ، وإذا الصف الآخر هم الكفار فى كل ملة وفى كل دين ، وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعا ، ويحترم الرسل جميعا ؛ لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هى رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم فى تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان ، إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل ، وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل فى كل زمان وفى كل مكان ، وهكذا يتوحد الميزان فى يد المسلم على مدار التاريخ كله ، وترتفع القيم فى شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن ، والقرابات الحاضرة أو الموغلة فى بطن التاريخ ترتفع فتصبح قيمة واحدة ، هى قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع ، ويقوّم بها الجميع » .

وتأتى الآيات بالقصة من بدايتها بأمره لقومه بالتقوى والطاعة وهو ترتيب لازم فلا طاعة مقبولة بلا تقوى ، والتقوى تحرك صاحبها نحو العمل لا الخمود والركون والدعوة لله .

ثم يطمئن من يدعوهم لشفافية الدعوة وأنه لا يطلب بها أجرا لأن العباد لا يقدرون الأجر، ولا يستطيعون الوفاء به إن قدروا ، ولأن الله الذى كلفه بالدعوة ، ولتمييز دعوة الله عن دعاوى

الكهان ورجال الدين المنحرفين الذين استغلوا الدين لابتزاز الأموال ، لكن دعوة الله الحقة دعاتها متجردون لله لا يطلبون مقابلا فى الدنيا ، بل يتوقعون الإيذاء والتعذيب فضلا عن التكذيب ، أما أجرهم فعلى رب العالمين . فى تكرار قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

قال النسفى « كرره ليقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منها بعلة ، فعلة الأول : كونه أمينا فيها بينهم ، وعلة الثانى : حسم طمعه منهم ، كأنه قال : إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا الله ، ثم إذا عرفتم احترازى من الأجر فاتقوا الله » .

قال صاحب الأساس : « وبشكل عام فإن كل رسول طالب قومه بالتقوى والطاعة ، وأعلن أنه لا يريد على دعوته أجرًا دنيويا ، مما يدل على أن الطاعة التى يريدها الرسل هى من أجل كمال الإنسان ، وليست من أجل مقصد دنيوى ، كما يطلبها أهل الدنيا استزادة للجاه ، أو رغبة فى تحقيق هدف دنيوى من ورائها ، وهذا أدب عظيم يجب أن يلاحظه وارث الأنبياء ، وطلاب الوصول إلى رضوان الله ... ، ثم إنه لا بد أن يلاحظ الدعاة ألا يطلبوا أجرًا فى مقابل الدعوة إلى الله ، وهذه قضية مهمة جدًا ، قل من يلاحظ خفاياها فى نفسه ، وندر من يعطيها تطبيقاتها العملية ..» .

ثم يبين السياق أن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب ، وهو اعتراض مكرور فى البشرية مع كل رسول : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ ، وهم يعنون بالأرذلين الفقراء ، وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة ، ومن ثم فهم الملبون السابقون .

فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم،وتقعد بهم مصالحهم القائمة على الأوضاع المزيفة. المستمدة من الأوهام والأساطير التى تلبس ثوب الدين ، ثم هم فى النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة ، قيمة الإيمان والعمل الصالح ، قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين ، بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحرص على استمرار الدعوة ، وتوريثها للأبناء .

٢ ـ الاستغفار للآباء إن لم يموتوا مشركين .

٣ ـ تصور يوم القيامة والجنة والنار وما فيهما .

٤ ـ أن يتعود الداعية على البذل والعطاء فى الدعوة ، ولا ينتظر أجراً أو مقابلا فى دعوته .

قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴿١١٢﴾ إن حسابهم إلا على ربي
لو تشعرون ﴿١١٣﴾ وما أنا بطارد المؤمنين ﴿١١٤﴾ إن أنا إلا نذير مبين
﴿١١٥﴾ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴿١١٦﴾ قال
رب إن قومي كذبون ﴿١١٧﴾ فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن
معي من المؤمنين ﴿١١٨﴾ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون
﴿١١٩﴾ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴿١٢٠﴾ إن في ذلك لآية وما كان
أكثرهم مؤمنين ﴿١٢١﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١٢٢﴾ كذبت
عاد المرسلين ﴿١٢٣﴾ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ﴿١٢٤﴾ إني لكم
رسول أمين ﴿١٢٥﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٢٦﴾ وما أسألكم عليه
من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٢٧﴾ أتبنون بكل ريع
آية تعبثون ﴿١٢٨﴾ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴿١٢٩﴾
وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴿١٣٠﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٣١﴾
واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ﴿١٣٢﴾ أمدكم بأنعام وبنين ﴿١٣٣﴾
وجنات وعيون ﴿١٣٤﴾ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم
﴿١٣٥﴾ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴿١٣٦﴾

معانى الكلمات :

المرجومين : المقتولين بالحجارة .

الفلك المشحون : السفينة المملوءة .

ريع : مكان مشهور .

مصانع : قصورا أو حصونا .

بطشتم : اعتديتم .

أوعظت : أنصحت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بهوان الدنيا ، وقبح من يجعلها شغله .

٢ ـ أن يعرف الداعية عاقبة الانهماك فى ملذات الدنيا .

٣ ـ أن يستخدم المؤمن نعم الله مع شكر المنعم .

المحتوى التربوى :

يأتى العون الإلهى لنوح عليه السلام فى جداله مع قومه بأن عملهم موكول إلى الله لأنه نذير من الله ، لا يطلب من الناس سوى الإيمان ؛ ولأن الرسالات للناس جميعًا غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم .

قال صاحب الأساس : « وفى ذلك كله دروس بليغة للدعاة إلى الله ، فإن كثيرين يحرصون أن ينفض الناس عن الدعاة من خلال إيجاد هوة بين الداعية والمستجيبين له ، وإن كثيرين يطالبون أن يعرض الدعاة عن الأتباع الفقراء ، أو الضعفاء جسما أو عقلا أو سلوكا ، وواجب الأتباع ألا يخدعوا ، وواجب الدعاة ألا يفعلوا ، فمهما كانت ظواهر الخلق إليهم منقادة فعليهم قبولها ، ومحاولة تزكيتهم ، وهذا شىء وأن يخدع الداعية شىء آخر » .

ولأن الباطل حجته واهية،فلجأ قومه إلى مسلك الطغاة وهو التهديد عندما أعوزتهم الحجة، وأعجزهم البرهان وتلك عادة أعداء الله : أنهم يلجؤون إلى التهديد فى النهاية لثنى الدعاة إلى الله عن دعوتهم .

ثم يأتى اللجوء إلى الله عندما يبذل الدعاة كل جهدهم ، ولا يلاقون من المدعوين إلا الصد والإعراض والتكذيب ، ويطلبون النجاة لهم ولمن يدعونهم فنُجىّ المؤمنون بالدعاة ، فلولا الدعاة لهلكوا ، ثم كان العقاب الشديد للظالمين بالإغراق للذين كذبوا الداعى إليهم ـ وأعرضوا عنه فترة طويلة من الزمان ، وفى هذا ليتعظ السالكون فى الدعوة بأن يؤوبوا إلى ربهم فى كل أمر؛ حتى يكونوا آهلين للمعية الإلهية .

ثم حلقة أخرى من حلقات الدعوة إلى الله والانتصار لقضية العقيدة ، وهى دعوة نبى الله هود عليه السلام ـ لقوم عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، جاء إليهم أخوهم هود يدعوهم لما فيه رشادهم وصلاحهم ونجاتهم بأن يتقوا الله ويلتزموا أوامره ، وشأنه كشأن الدعاة لا يطلب أجراً من الناس ، لأن الله هو الذى كلفهم ، وهو الذى يأجرهم .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير عن آيات قصة عاد : « وهى تدل أولا : على أن الكافرين بالرسل لا يعارضون الآيات وينكرونها ، إنما هم لجحودهم ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى البشر ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ؛ إذ لا يؤمنون بالغيب ، وإنما يؤمنون بالأمور المحسوسة فقط ، والإيمان بالغيب هو التدين .

وتدل ثانيا : على أن الرسل أمناء الله تعالى على خلقه وإرشادهم وتقويمهم .. وتدل ثالثا: على أن رسل الله لا مطمع لهم فى أمر دنيوى ، وإنما يريدون الهداية والتقوى والإيمان .. وتدل رابعا: على أن التقوى مطلب النبيين أجمعين .. وتدل خامسا : على أن طاعة الرسول واجبة لأنها طاعة لله تعالى .. » .

وقوله تعالى : ﴿ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ فيها ملمح أن الداعية يجب أن يكون من جنس قومه ، يعرفون نسبه وسيرته، وعندما كذبوا كان تكذيبهم لأسباب واهية، وقال بعدها : « أنا رسول الله، فلا يدعوهم لنفسه بل لله ، و ﴿ أَمِينٌ ﴾ فيهم » لا يريد لهم إلا الخير .

ولابد من مجاهرة الظالم بظلمه وكشفه ، وينكر نبى الله عليهم الترف فى البنيان لمجرد التباهى بالقدرة ، وينكر عليهم الثراء والاستزادة منه والاستطالة فى البناء ، لأن هذا يجعلهم فى غفلة عن تقوى الله ووقايته ، ولأن الركون إلى الدنيا، والغرق فى ملذاتها يعمى البصائر عن رؤية الحق واستجلائه .

وهنا يلمح تقدير قيمة المال ودوره فإنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظرين من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول ، ومن ثم سماه عبثا ، ولو كان هداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضرورى ونافع لا فى الترف والزينة ، ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

وتسوق لنا الآيات نتيجة الركون للثراء والترف فى أن يغشى القلبَ الضلالاتُ حتى يظن المترفُ أنه سيخلد ، ومظنة الخلود البخل والكفر والعناد ، بل ينتقل ذلك إلى البطش بالآخرين وعدم التحرز من القسوة ظنًا منه أنّ الدنيا باقية، لذا كان التحذير من الدنيا وصية الرسول ﷺ ، وأن أشد ما يخاف على الدعاة هو أن تفتنهم الدنيا بزخرفها ، فيستخفهم أعداؤهم .

ثم تتواصل ملحمة الدفاع عن العقيدة وإثبات نعم الله بأنه كان الواجب عليهم تقوى الله وطاعته؛ لأن ما يتمتعون به هو من فيض النعيم الإلهى، وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا ، إن من أعطى هذه النعم ويسرها قادر على أن يذهبها .

نرى هنا أن شكر النعم هو أداء حقوقها ، وأولها إخلاص العبادة للمنعم ، أما جحود النعمة والاستكبار ، وجحود فضل المنعم هو المستلزم للعذاب العظيم وهو تحذير لعادٍ من أخيهم ، وهو واحد منهم أمين فى إخلاصه ونصحه ، داعية يؤمله أن يرزقهم الله ، ولا يشكر بل يجحد وينكر ، ويعبد سواه ، يتبعهم بكل سبيل بأن يهديهم الله سبيل الرشاد ، ويخوفهم من عذاب عظيم فى الآخرة .

لكن هذه التذكرة وهذا التخويف لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة ، فاستوى الأمران الوعظ أو عدمه ، فالقلوب أصابها الجمود والتحجر بسبب الركون للدنيا والاغترار بها .

وهذا يطمئن الدعاة فى كل وقت ، لا يصيبهم القنوط عندما يرون إعراض من يدعونهم بأن ذلك ديدنهم إلا من هداه الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قيمة الإنسان بعمله لا بنسبه وماله وسلطانه .

٢ ـ وجوب استثمار المال فيما يفيد المؤمن فى دنياه وأخراه .

٣ ـ ذم المغالاة فى الاستكثار من المال والأبنية ، وإن التواضع يزين صاحبه .

٤ ـ وجوب التفكر فى نعم الله التى تكتنفنا وتلفنا .

٥ ـ اتباع كل سبيل يرقق القلوب بالذكر والدعاء ، والحذر من غلظة القلب وقساوته .

إن هذا إلا خلق الأولين ﴿١٣٧﴾ وما نحن بمعذبين ﴿١٣٨﴾ فكذبوه
فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٣٩﴾ وإن
ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١٤٠﴾ كذبت ثمود المرسلين ﴿١٤١﴾ إذ قال
لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴿١٤٢﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٤٣﴾
فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٤٤﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري
إلا على رب العالمين ﴿١٤٥﴾ أتتركون في ما هاهنا آمنين ﴿١٤٦﴾
في جنات وعيون ﴿١٤٧﴾ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴿١٤٨﴾
وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴿١٤٩﴾ فاتقوا الله وأطيعون
﴿١٥٠﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴿١٥١﴾ الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون ﴿١٥٢﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿١٥٣﴾ ما أنت
إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴿١٥٤﴾ قال
هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿١٥٥﴾ ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴿١٥٦﴾ فعقروها فأصبحوا
نادمين ﴿١٥٧﴾ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان
أكثرهم مؤمنين ﴿١٥٨﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١٥٩﴾

معانى الكلمات :

آمنين : مخلدين .

هضيم : رطب نضج .

فارهين : مستعلين .

فعقروها : فقتلوها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بقيمة الطاعة الحقيقية .

٢ ـ أن يعرف الداعية جزاء العاصين لأمر الله ورسوله .

٣ ـ أن يلتزم الداعية فى دعوته بالطاعة الكاملة لله وللرسول ، ولأمراء المسلمين بالضوابط الشرعية .

المحتوى التربوى :

تستمر الآيات تعرض ما ترتب على ظنهم أنهم مخلدون فبعد البطش والجحود ظنوا أنهم لن يعذبوا .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « وإن ذلك النفى يتضمن ثلاثة أمور :

أولها : إنهم لغرورهم يقررون أنهم لا يعذبون ، وليس من شأنهم أن يعذبوا ، ويتضمن **ثانيا :** إنكار البعث وتلك خلة الكافرين، ويتضمن **ثالثا :** أنه إن كان بعث فلن يكون العذاب نصيبهم، بل تكون حالهم فى الآخرة هى حالهم فى الدنيا ، ذلك ما يأفكون به ، وهم الضالون » .

ولم يكن عجبا أن يهلكوا لتطوى صفحة من صفحات المكذبين تكررت وتتكرر ، ويقول فى ذلك صاحب **الظلال** : « وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن الله كلما تقدمت فى الحضارة ، وتحسب أن الإنسان قد أصبح فى غنية عن الله ! وهى تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ما تحسبه وإقبالها من أعدائها ، ثم تصبح وتمسى ، فإذا العذاب يصب من فوقها ، ومن تحتها عن أى طريق » .

ثم تتواصل ملحمة إثبات التوحيد بحلقة أخرى من حلقات الدفاع عن العقيدة مع قوم ثمود وأخيهم صالح ، وهؤلاء كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، ومر النبى ﷺ بدورهم المدمرة فى غزوة تبوك فرأوا آثارهم للاعتبار لا للانبهار ـ فأتاهم رسول من رب العالمين أمين فى نصحه لهم لايطلبون مغنما إلا من عند الله ، وهو من جنسهم رفيق بهم ، أتاهم صالح ليحذرهم سلب النعمة التى أقحمتهم ، فأصمت آذانهم عن سماع الهدى وأعمت عيونهم عن رؤية الردى الذى ينتظر المستكبرين كل هذا ؛ لأن الدنيا قد سكنت قلوبهم ، فظنوا أنهم خالدون فيها ،فعمروها وخربوا آخرتهم .

ويذكرهم صالح ﷺ بنعم الله التى أتوا إلى الدنيا وهى باقية ، وما فنيت وفنوا من سكنوها ، وأن هذه الجنات والزروع وثمارها تتجدد كل يوم ، وتأتى إليهم طيعة ، وما غير ذلك من الجبال من الرواسى الشامخات التى سخرها الله لهم فظنوا بيوتا تخلدهم ، وهنا يظهر الفارق بين المؤمنين الذين يستقبلون نعم الله فيؤدون شكرها قولا وعملا ، أما ديدن الظالمين ، فالبطر والاستكبار والتعالى بما لا يملكون .

ويتحدد سلوك الظالمين عندما يدعون إلى التقوى والطاعة فلا يلبون ، وألا يتبعوا سبل المفسدين الذين أسرفوا وغووا ، لكنهم يستكبرون عندما تموت القلوب التى فى الصدور ، فيرون من يرمونهم بالسحر ، وهم يعلمون السحرة وتعاويذهم ، ويرمونه بالقدح ـ فى ظنهم ـ لأنه بشر ، وما علموا أن البشرية مع الرسالة هى عين التشريف والتعظيم ، فإنه مثلهم ينام ، ويقوم ، ويأكل ، ويشرب ، ويتزوج ، ولكن الله وهبه الرسالة وما يتبع ذلك من الاتصال بالملأ الأعلى ، وعلى الدعاة أن يتوقعوا من الطغاة كل جريمة ، وكل تهمة تلصق به ؛ لأن فى بقاء فساد المجتمعات إبقاء لأنفسهم ومطالبهم ، وفى صلاح المجتمعات هدمٌ لهم وإزالةٌ لسلطانهم .

يقول صاحب **الأساس** : « إن قول الله تعالى على لسان صالح ﷺ :﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ يفيد أن الطاعة ينبغى أن تكون للرسول ﷺ كاملة وألا تعطى لكل مسرف مفسد غير مصلح ، وموضوع الطاعة من أخطر مواضيع العصر ، فنادرًا ما تجد مسلما يضع الطاعة فى محلها ، فهو إما متمرد على كل شىء ،

أو مطيع لمسرف ، أو يرفض الطاعة لأى أحد ، أولا يعرف لمن يعطى الطاعة ... ولا يجوز لمسلم أن يعطى طاعته لكل صاد عن سبيل الله غير ملتزم بالإسلام » .

يقول الإمام محمد أبو زهرة « المسرفون هم الذين يخرجون بطبيعتهم البشرية عن حد الاعتدال إلى حد الإسراف فيسرفون فى شهواتهم حتى يصيروا عبيدًا للشهوات ، ويسرفون فى أوهامهم فيحسبون ما تدفع إليه الأوهام حقيقة ، وليست إلا وهما باطلا ، ويسرفون فى طلب السلطان فلا يحسبون أنه لإقامة العدل والقسطاس المستقيم ، ويسرقون فى القوة فلا يحسبونها لحماية الضعفاء ، بل يظنونها للاستعلاء والاستكبار عليهم ، وليجعلوهم عبيدًا أذلاء ، وهكذا كان المسرفون مفسدين لنفوسهم ولمجتمعهم » .

ونتابع المعية الربانية بإمداد رسوله بمعجزة حتى يقيم الحجة عليهم ولكن أنى لمن سكنت الدنيا قلبه أن يهتدى؟ ! وكيف لمن عمى عن رؤية نعم الله الذى يعيش فى ظلالها أن يؤمن بمعجزة من خالق الجنات والزروع الهضيم والعيون والجبال ، ثم كيف أن يطيعوا أمر الرسول فى شأن الناقة وقد كفروا بالتوحيد الخالص ، فلم ينسكب الإيمان فى القلوب الجاسية ، ولم يحفظوا العهد ، ولم يفوا بالشرط .

ويأتى تحذير نبى الله لهم لما رأى من خبث نيتهم وسوء طويتهم ، وتحقق ما توقعه فعقروها وعذبوا ، ورغم أن العاقر واحد والمؤتمرين تسعة إلا أن الجميع كانوا راضين فنسب العقر لهم جميعًا ، فليحذر الدعاة الناس من الركون إلى الذين ظلموا حتى لا يمسهم العذاب ، وإن الكفر يستشرى ، والبدع تشيع لسكوت الناس عنها ؛ ولأنهم لا تتمعر وجوههم من رؤية المنكر، فأخذوا بالعذاب مع الظالمين وهم كثرة ، والمؤمنون العالمون قلة ، وتلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير .

ويأتى التعقيب المتكرر بأن الله سبحانه هو العزيز القوى القادر على إبداع الآيات ، وأخذ المكذبين بالعذاب ، الرحيم الذى يكشف عن آياته ، فيؤمن بها من يهتدى قلبه ، ويمهل المكذبين فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ذم التقليد وعرض كل الأمور على كتاب الله وسنة الرسول وتحكيمهما .

٢ ـ أن يكون الداعية بكل الصفات الطيبة التى تجعل كلامه مقبولا لمن يدعوه .

٣ ـ الحذر من الذنوب وعواقبها .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا الحزب ٣٨
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

معانى الكلمات :

تذرون : تتركون .

المخرجين : المطرودين .

القالين : الكارهين .

الغابرين : المعذبين .

الأيكة : الشجر الكثيف .

القسطاس المستقيم : العدل .

تبخسوا : تنقصوا .

لا تعثوا : لا تفسدوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة السلوك الاجتماعى للداعية .

٢ ـ أن يتعرف الداعية على بعض جوانب السلوك للأمم فى قصص الأمم الظالمة .

٣ ـ أن يكون الداعية إيجابيا مع من حوله .

المحتوى التربوى :

يستمر النسق القرآنى فى عرض حلقة أخرى وهى قصة لوط وهى مع قصة إبراهيم تاريخيا ، ولكن الترتيب التاريخى ليس مقصودًا ، بل العظة والعبرة من عاقبة وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين الأطهار الذين طهرت قلوب وأجسامهم ولم ترتكس فطرتهم .

هنا كان التكذيب من قوم لوط من نوع آخر ، فقد استنكر لوط عليه السلام عليهم قلب الناموس الربانى ، واعوجاج الفطرة السليمة بأن يأتى الذكورُ الذكورَ وهى فعلة تشمئز منها الفطر السليمة ، وتنفر منها النفوس المطمئنة ، فأنكر عليهم الداعية بأن يعتدوا على سنة الله فى خلقه

وقد منحهم الفطرة السليمة باجتماع الذكر والأنثى ، وكان شديدًا فى نهيه لهم ، فالجرم شنيع، والذنب فادح .

قال صاحب الظلال : « والخطيئةالمنكرة التى عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن) هى الشذوذ الجنسى بإتيان الذكور وترك النساء ، وهو انحراف فى الفطرة شنيع ، فقد برأ الله الذكر والأنثى ، وفطر كلاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى فكان هذا الميل طرفا عن الناموس الكونى العام ، الذى يجعل كل من فى الكون ، وكل ما فى الكون فى حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود ، فأما إتيان الذكورُ الذكورَ فلا يرمى إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه .

وعجيب أن يجد فيه أحد لذة ، واللذة التى يجدها الذكر والأنثى فى التقائهما إن هى إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة ، فالانحراف عن ناموس الكون واضح فى فعل قوم لوط ، ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ... » .

ولم يفت فى عضده تهديدهم له بإخراجه من بينهم ، وما نقموا منه إلا طهارته ، فأعلن الولاء لله والبراء من عملهم الفاسد وبعض ضلالهم ، وطلب الهجرة من دار الإثم والفجور والنجاة إلى أرض صالح أهلها ، فتنزل العناية الربانية على لوط وأهله بالنجاة ، ولأنه لا نسب موصول إلا الإيمان ، ولا رابطة إلا العقيدة ، فقد هلكت زوجة لوط دون أهله جميعًا ؛ لأنها كانت ترضى بما يفعل قومه ، وتنتصر رابطة الإيمان على عاطفة المصاهرة ، كما انتصرت على عاطفة الأبوة مع نوح عليه السلام ، والبنوة مع إبراهيم عليه السلام .

وكان عقاب الله واقع بقرية سدوم فدمر الظالمون ، ونزل المطر الذى كان هلاكا لهم ولغسل الأرض من أفعالهم المرذولة المشينة ، ولتظل قراهم أمام الرسول والمؤمنين شاهدًا على هوان الظالمين ، ونصر الله للمؤمنين مهما بدا الكفر عزيزا كبيرا فإن الإيمان أعز ، وصلتهم بالله ، أكبر وبالمعية أكثر ناصرا وعددًا .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ فى قصة موسى أن الخطيئة البارزة التى جاء موسى عليه السلام لعلاجها هى الظلم المتمثل بادعاء فرعون الربوبية ، وظلمه لبنى إسرائيل ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء إبراهيم لعلاجها هى شرك قومه وعبادتهم للأصنام ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء نوح عليه السلام لعلاجها هى الشرك ، وأن الخطيئة البارزة التى جاء هو وصالح يعالجانها هى الشرك مع البطر ، وأن الخطيئة الارزة التى جاء لوط عليه السلام يعالجها هى إتيان الذكور مع الشرك ، فالشرك

هو العلة التى تنبع عنها كل الخطايا ، وكما أن مهمة الرسل هى هداية الناس إلى الله رب العالمين ، فإن مهمتهم أن يبعدوا الناس عن الخطايا كلها » .

وحلقة أخرى من ملحمة الدفاع عن العقيدة ومعالجة الخلل الأخلاقى فى قصة شعيب عليه السلام مع أهل مدين يدعوهم ، وهو رسول من رب العالمين أمين فى خوفه عليهم ودعوته لهم بأمرهم بقاعدة الرسالة ، وهى إخلاص العبادة لله بتقواه ، والتقوى تتبعها الطاعة ، ولأن الرسالات منهج حياة للإصلاح فى الأرض ، ولتقرير قواعد التعامل بين الناس ، ولإيصال مفهوم العبادة بمعناها الشامل .

يقول صاحب الظلال :« إن المعاملات لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة، هذه هى نظرة الإسلام ، وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوصافهم ومصالحهم الظاهرة لهم » .

إن فساد العقيدة يتبعه فساد السلوك وسيطرة الهوى ، وكان للداعية ـ شعيب ـ دور بأن دعاهم لإيفاء الكيل ، وألا يأخذوا حقا زائدًا عن حقهم ، وألا يأخذوا حقوق الناس بشرائها بثمن بخس وبيعها بثمن مرتفع ؛ لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تفصيل فسادهم ظهر فى سياق القصة فى سورة الأعراف بأنهم كانوا يقطعون الطريق على من سواهم ، ويفتنون الذين يؤمنون ، ويصدونهم عن سبيل الله .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « والعثى أو العثو ، الفساد النفسى أو المادى ، ونميل إلى العثى النفسى ، والمعنى القصد إلى العثو مفسدين حال مؤكدة لمعنى العثو ؛ لأن العثو يؤدى إلى الفساد فى الجماعة ، فيتقاطعون ، ويتدابرون » .

تظهر هنا العاقبة الوخيمة لغياب التربية والعقيدة ، وما يتبع ذلك من حب الدنيا ، وسيطرة سلطان المال وما يتبعه من سلك كل طريقة مرذولة لجمعه من بخس الناس أشياءهم ، فيعذب أبدانهم الحرام فلا يتورعون عن ارتكاب الحرمات ، وقطع الطرق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن يكون للمؤمن دور فى علاج الخلل الاجتماعى ، والانحرافات السلوكية .

٢ ـ هجر أماكن السوء ، ومواضع المنكر وتحذير الآخرين منها .

٣ ـ إدراك قيمة المال فى الحياة ، ونزع كل حب للدنيا من القلب .

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ
مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ
عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ
فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٣٧٥

معانى الكلمات :

الجبلة الأولين : الخلائق السابقة .

كسفا : قطع عذاب .

زبر الأولين : كتب الرسل السابقين .

بغتة : فجأة .

منظرون : مهملون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن عظمة معجزة القرآن .

٢ ـ أن يعلم المؤمن موقف المشركين واليهود من دعوة الرسول والقرآن .

٣ ـ أن يداوم الداعية مدارسة القرآن وسيرة الرسول ﷺ .

المحتوى التربوى :

تتواصل الدعوة (لمَدْين) حين يدعوهم أخوهم شعيب بأن يتقوا الله قولا وعملا ، فالله هو خالقنا فيجب إقرار العبودية له عز شأنه ، وخلق من قبلنا الذين فنوا وما أغنى عنهم مالهم وما جمعوا وحشدوا ، وهو تنوع فى الدعوة من داعى القوم ؛ ليفكروا فى خلقهم والأمم السابقة قبلهم .

هزت الدعوة قوم شعيب ، وخاف الظالمون على أوضاعهم الباطلة فاتهموه بأنه مسحور يخلط ويهذى ، ولم يكتفوا بتلك التهمة ، بل استنكروا استكبارًا أن يكون الرسول بشرًا ، واستمروا فى طغيانهم وضلالهم حتى عموا عن رؤية الحق الجلىّ فاتهموه بالكذب ، وكيف يكون

مسحورًا قد عراه السحر ، والكذب وهمٌ مقصود ، وهذه هى الأباطيل التى قالها الضالون مع كل نبى ورسول ؛ ليتأكد للرسول ﷺ والدعاة من بعده أن سنة الدعاة أن يواجهوا بالتكذيب والإعراض .

وتتواصل الإحاطة الربانية بأهل مدين حين طلبوا آية من شعيب ، واستفتحوا العذاب على أنفسهم بضلالة الشيطان لهم ، فأظلتهم سحابة كان فيها هلاكهم ، أما المؤمنون فكان توكلهم على ربهم كما جاء فى سياق القصة فى سورة الأعراف : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف : ٨٩) ، **ويقول صاحب الظلال فى ذلك** : « إنه ـ أى شعيب ـ يعرف مصدر القوة وملجأ الأمان ، ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق والطغيان ، ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، فالله مولى المؤمنين والظالمون لا مولى لهم » .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « إن السحابة إذا كانت حارة فيها نار يكون العذاب شديدًا ، والألم مريرًا ؛ لأنه تكون النار حيث يرجى الظل لا الحرور ، وقالوا : إنه فى يوم الظلة أحسوا بالحر ، فلجؤوا إلى ظل سحابة ، فكانت الظلة القاتلة وراءها الدمار ، فأصبحوا فى عذاب ، وبذلك كان العذاب الساحق الماحق من جنس ما طلبوا وهو كسفا من السماء .

وكانت هذه آية من الله مرشدة هادية لمن يعيشون مثل عيشهم ظلما وعدوانا ، وأكلا لمال الناس بالباطل والعدوان ، والعثو فى الأرض فسادًا ، وهى دالة على أن شعيبا كان يدعوهم بالحق ، وهم المبطلون » .

ويعود السياق القرآنى فى الخطاب للرسول محمد ﷺ بعد قصة الرسالة الإلهية وقواعدها ، والتكذيب من الأقوام وإنجاء الله للمؤمنين وعقاب الله للظالمين ، وكان لكل نبىّ آية مع قومه انتهت معه ، لكن آية هذه الأمة هى القرآن هى آية باقية فالمعجزة باقية ، والانتفاع بها مستمر والتكذيب لها مستمر ، وعقاب المنكرين بها مطرد ، نزل بلسان عربى بلغتهم ، لكنه بنظمه ومعانيه وبمنهجه ، وبتناسقه يشى بأنه من مصدر غير بشرى .

يقول الإمام أبو زهرة : « وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بثلاث صفات معلية له ، مشرفة بنسبته فوق شرفه الذاتى من بلاغة وشمول الشرع :

الأولى : أنه تنزيل من رب العالمين ، والتنزيل النزول جزءًا بعد جزء منجما مقطعا ، ليسهل حفظه ، وليرتل ترتيلا ، وليعلم النبى قراءته وتلاوته ، ويتعلمها منه أصحابه ...

الثانية : أنه نزل بالوحى نزل به الروح الأمين على قلبك الروح الأمين هو جبريل ... لتكون من المنذرين أهل الضلالة عن غوايتهم ، ودعوتهم إلى التوحيد ...

الثالثة : أنه باللغة العربية .. فترجمة القرآن إن كانت ممكنة (وهى ليست ممكنة) ليست قرآنا .

الرابعة : أن أكثر ما فيه من معان وقصص ، وشرائع فى زبر الأولين ، أى إن القرآن الكريم بعضه فى كتب الأولين ... » .

ويستمر تكابر المشركين والظالمين من أهل الكتاب الذين يعرفون الرسول وصدق رسالته ، وتستمر المعية الربانية فى تسرية قلب الرسول بأن العناد يلازمهم ، أنه لو نزل هذا القرآن على أعجمى ما آمنوا ؛ لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل .

ويقول صاحب **الظلال** فى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ : « والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب ، فيقول : إنه على هذه الهيئة ، هيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن ، على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه ، فهو لا يجرى فيها إلا مكذبا به ، ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم ، حتى يعاينوا الوعيد ، وذلك عند الموت ، وفى هذه الحالة يكون الإيمان إيمان يأس فلا ينفعهم ، أو المراد به العذاب الربانى فى الدنيا فيأتيهم فجأة ، وهم لا يشعرون بإتيانه ، ووقتها يسألون النظرة ، والإمهال طرفه عين ، فلا يجابوا إليها » .

وكان دأب قريش دأب الأمم هو استعجال العذاب ، وكان التعليل القرآنى بصورة الخطاب أنهم قد يتمتعون سنين ، ثم يأتيهم هذا العذاب كأن النفس الضعيفة تظن أن النفوس الضعيفة والفطر الفاسدة عندما تركن لمتاع الدنيا تجحد النعمة وهى ترتع فى النعمة تستعجل بالعذاب استهزاء واستهتارًا ؛ ويستبعدون الانتقال من النعيم للعذاب ، شأنهم شأن ذوى النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ، ثم يأتيهم العذاب ، وستكرر الحادثة فى كل زمان ومكان بأن الدعاة إلى الله هم الغالبون ، وإن المجرمين فى ضلال وسعر ، لأن الله ينصر رسله ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب التفكر فى خلق الإنسان .

٢ ـ وجوب مدارسة القرآن وتدبره .

٣ ـ مدارسة سيرة الرسول ﷺ ومعرفة جهاده وتتناول مواقف المشركين معه .

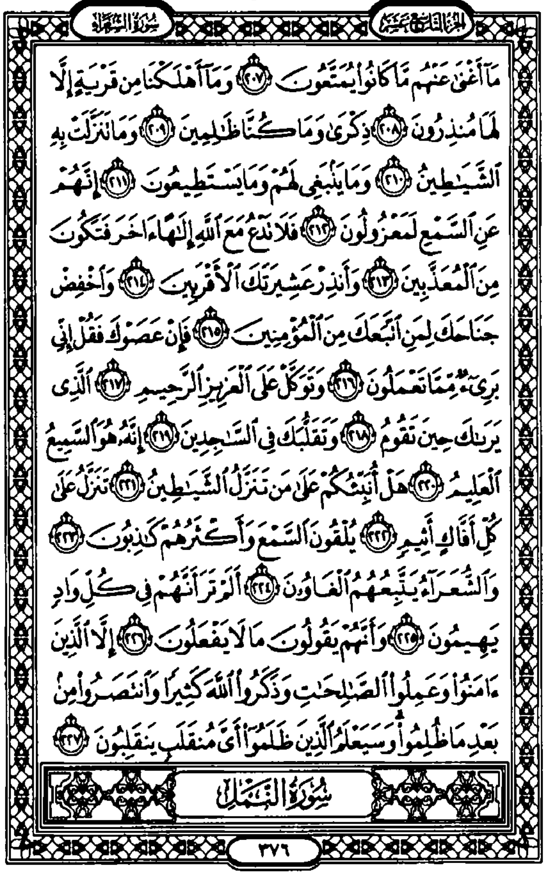

معانى الكلمات :

ذكرى : تذكرة وعبرة .

اخفض جناحك : تواضع .

أفاك أثيم : كثير الذنب .

الغاوون : الضالون .

منقلب : مرجع ومصير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الشعر الإسلامى .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على فضل الرفق فى الدعوة .

٣ ـ أن يسلك المؤمن مسلك الرحمة واللين فى دعوته .

المحتوى التربوى :

وتواصل الآيات عرض مصير المكذبين للداعى إلى الله ، وما متعوا به لم يغنهم شيئاً ، ولم يخفف عنهم عذابهم ، والعذاب لم يقع بهؤلاء القوم ولا وقع بكل القرى إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجج ، وأرسل إليهم الرسل ليذكروا الناسين ، ويوقظوا الغافلين ؛ لأن فطرة الله بالإيمان فى كل نفس ، وعلى الدعاة أن يبلغوا رسالات ربهم ، وهذه صفة الله العادل بين العباد؛ لأن الله لا يظلم الناس شيئًا .

والملاحظ أنه يأتى هذا الموضوع فى الخاتمة ، بعد أن عرض الله علينا فى السور ستة نماذج على إهلاكه قرى أُنذرت فكذّبت ... وبعد أن أثبت الله أنه هو الذى أنزل هذا القرآن ، وأقام الحجة

على ذلك ، وعرض لموقف المجرمين ، وسبب هذا الموقف ، وردّ على استعجالهم العذاب ، يأتى الآن نفيه القاطع أن يكون للشياطين صلة بموضوع إنزال هذا القرآن ، ومجىء هذا النفى يشير إلى الشبة الكافرة الجاحدة التى لا زال الكافرون يثيرونها ، وهى أن محمدًا ﷺ ـ وحاشاه بأبى هو وأمى ـ كانت له حالات غير صحية تحدث له تخيلات وأوهام ، هى أثر عن وسوسات وصراعات ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وتأتى الآيات لتدمغ تهمة أخرى للكفار فتجعلها زاهقة وهى أن هذا القرآن من وحى الشيطان ، وكبرت كلمة من أفواههم إن يقولون إلا إفكا وزورا فالقرآن للهدى والصلاح ، والشياطين تدعو للضلال والفساد والكفر ، وما هم بمستطعين أن يأتوا به ، فهم معزولون عن سماع الوحى به من الله ، إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين ، وليس هذا بميسور للشياطين ، وهل تستوى مناهج الأمم التى ضلت وأضلت مع مناهج الإسلام الناهلة من معين القرآن ، وكيف يهتدى الظالمون وهم بعيدون عن الوحى الإلهى ، فكان التحذير للمؤمنين بعد ذلك ممن سلكوا مسلك الكافرين من اتخاذ مناهج الكافرين فيكون مصيرنا كمصيرهم .

قال ابن كثير : « ذكر سبحانه أنه يمتنع عنهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ... ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك ... ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل حين استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدًا وشبها فى مدة نزول القرآن على رسول الله ﷺ .. » .

يقول صاحب الظلال : « الخطاب لرسول الله ﷺ يحذره من الشرك ـ وهو أبعد من يكون عنه ـ ليكون غيره أولى بالحذر .

وتحدد الآيات بعد ذلك منهج الدعوة لله كى تصل للغاية المأمولة ، وهى دعوة العشيرة والأقربين لتقوية الدعوة ؛ ولأن قرابتهم من صاحب الرسالة لا تنفعهم فهى دعوة الله الخالصة؛ ولأنه إن آمنت عشيرة الداعى كان تأثيره فيمن يدعوه من غير عشيرته أكثر ، وأسلوب الدعوة بخفض الجناح للمؤمنين ؛ لأنه لو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله ، أما الكفار فيجب إظهار العزة أمامهم ، والعصاة يجب التبرء من أعمالهم بعد نصحهم .

ثم توضح الآيات من الذى يستحق نزول رحمة الله من الدعاة ، ومن الذى تحيط العناية الربانية هو من أخلص العبادة لله ، ودوامه على السجود ، وهو قمة الخضوع والقرب من الله،

ويقول صاحب الظلال فى هذا : « يشعر الرسول ﷺ أنه فى كنف ربه وفى جواره وقربه ، وفى جو هذا الأنس العلوى كان يعيش » .

ويأتى الدفاع القرآنى عن الرسل ومناهجهم بأن مناهج الشيطان تنزل على الضالين الذى يسعون وراء الأوهام والخيالات ، أما القرآن فهو منهج قويم نزل على النبى الكريم ليهديها لأقوم طريق ، والرسل ما ينبغى لهم أن يكونوا شعراء ، فللشعراء أوهام وأهواء وانفعالات متقلبة ، ويحلقون فى عوالم لهم ، أما صاحب الدعوة المحددة له هدف ومنهج وطريق .

يقول صاحب الظلال : « إن طبيعة الإسلام ـ وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ فى واقع الحياة ، وهو حركة ضخمة فى الضمائر المكنونة ، وهذه طبيعة لا تلائم طبيعة الشاعر الذى يخلق حلماً ثم يقع به ، أما الإسلام فيريد تحقيق الحلم » .

وفى نهاية السورة كان استثناء لبعض الشعراء من الغواية ، وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات قولا وعملا ونصروا عقيدتهم ، وسخروا بيانهم لدعوة الله كحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

ويوضح صاحب الظلال ما نقصده بالشعر الإسلامى : « ليس من الضرورى أن يكون دفاعًا ولا دفعا ، ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ، ولا تمجيدًا له أو لأيام الإسلام ورجاله ، وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ممزوجة بشعور المسلم الذى يربط هذه المشاهد بالله فى حسه هى الشعر الإسلامى فى صميمه ، وإن لحظة إشراق واتصال بالله لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام » .

وتختم السورة بهذا التهديد المخيف للظالمين يوم يرون العذاب فى جهنم ، وقد ظلموا أولا بالشرك ، وثانيا بتكذيب الرسل ، وثالثا بإنكارهم للقرآن ، ورميهم له بأنه تنزل به الشياطين ، وقد أضافوا إلى ذلك ظلم العباد والصد عن سبيل الله ، والمنقلب هو انقلابهم من الطغيان إلى المهانة ونن رغد العيش إلى شدته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب استشعار أمانة تبليغ دعوة الإسلام والاهتمام بها .

٢ ـ الانفراد فى العبادة بعمل الصالحات .

٣ ـ تنوع وسائل الدعوة من خطبة وندوة ومقال وقصيدة شعر .

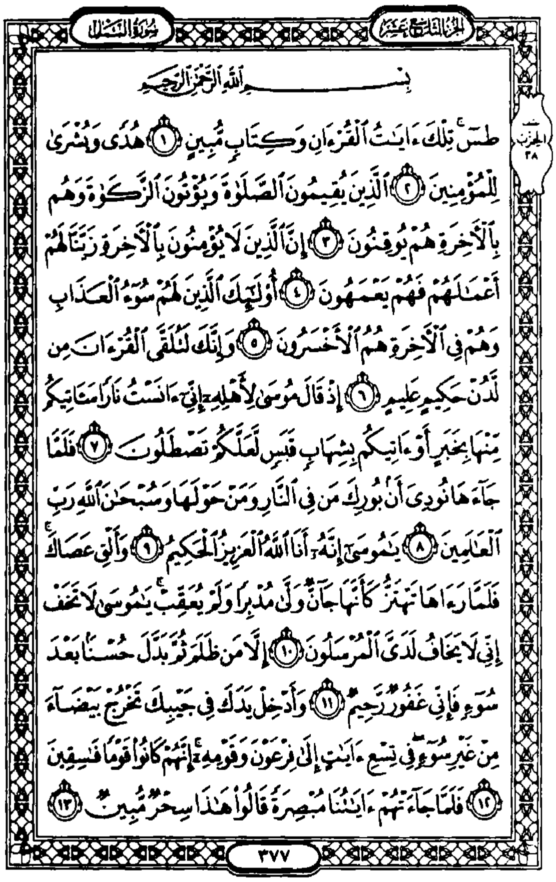
الجزء التاسع عشر — سورة النمل — الحزب ٣٨
بسم الله الرحمن الرحيم
طسٓ تلك ءايٰت القرءان وكتاب مبين ﴿١﴾ هدى وبشرى
للمؤمنين ﴿٢﴾ الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة وهم
بالأخرة هم يوقنون ﴿٣﴾ إن الذين لا يؤمنون بالأخرة زينا لهم
أعمٰلهم فهم يعمهون ﴿٤﴾ أولئك الذين لهم سوء العذاب
وهم في الأخرة هم الأخسرون ﴿٥﴾ وإنك لتلقى القرءان من
لدن حكيم عليم ﴿٦﴾ إذ قال موسى لأهله إني ءانست نارا سـَٔاتيكم
منها بخبر أو ءاتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴿٧﴾ فلما
جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحٰن الله رب
العٰلمين ﴿٨﴾ يٰموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴿٩﴾ وألق عصاك
فلما رءاها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يٰموسى لا تخف
إني لا يخاف لدي المرسلون ﴿١٠﴾ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد
سوء فإني غفور رحيم ﴿١١﴾ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء
من غير سوء في تسع ءايٰت إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فٰسقين
﴿١٢﴾ فلما جاءتهم ءايٰتنا مبصرة قالوا هٰذا سحر مبين ﴿١٣﴾
٣٧٧

سورة النمل

معانى الكلمات :

يعمهون : يتجبرون أو يعمون عن الرشد .

أنست ناراً : رأيتها .

بشهاب قبس : بشعلة نار .

تصطلون : تستدفئون .

لم يعقب : لم يلتفت .

جيبك : فتحة الثوب الذى يدخل منه الإنسان رأسه .

مبصرة : واضحة ظاهرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر بقيمة القرب من الله .

٢ ـ أن يتعرف الداعية على شروط الإيمان الصحيح،وعلاقة ذلك بقصة الكليم موسى عليه السلام .

٣ ـ أن يستكمل المؤمن إيمانه بزيادة العبادات بأنواعها : بدنية ومالية .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بإثبات إعجاز القرآن بحروفه التى من جنس كلام العرب ، ولا يستطيعون أن يؤلفوا كتابا مثله ،ويلى ذلك التنبيه ذكر القرآن ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ والكتاب هو نفسه القرآن ، وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ، واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذى أرسله إليهم سليمان ، وهو عبد من عباد الله .

ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والتعبير القرآنى على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين ، والقرآن يمنح المؤمنين هدى فى كل فج ، وهدى فى كل طريق .

وفى تخصيص المؤمنين بالهدى ، وتكمن حقيقة ضخمة فيقول فى ذلك **صاحب الظلال** : « إن القرآن ليس كتاب علم نظرى أو تطبيقى ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه،إنما القرآن كتاب يخاطب القلب أول ما يخاطب، ويسكب نوره وعطره فى القلب المفتوح ، الذى يتلقاه بالإيمان واليقين ، وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ، وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ، واهتدى بنوره إلى مالا يهتدى إليه الجاحد الصادف ، وانتفع بصحبته مالا ينتفع القارئ المطموس .

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة ، وهو غافل أو عجول فلا تفضى له بشىء ، وفجأة يشرق النور فى قلبه ، فتتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال ، وتصنع فى حياته صنع المعجزة فى تحويله من منهج إلى منهج ، ومن طريق إلى طريق .

وكل النظم والشرائع والآداب التى يتضمنها هذا القرآن إنما تقوم قبل كل شىء على الإيمان ، فالذى لا يؤمن قلبه بالله ، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحى من عند الله ، وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذى يريده الله ، الذى لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدى بالقرآن كما ينبغى ، ولا يستبشر بما فيه من بشارات » .

ثم يعرض القرآن لصفات المؤمنين الذين يستأهلون البشرى والهدى ، وهى العبادة البدنية التى تنهى عن الفحشاء والمنكر والعبادة المالية التى تطهر النفس من الشح ، ثم هم بعد ذلك يؤمنون بالقضية المحركة للخشية من الله وهى الإيمان بالآخرة ، أما المنكرون ليوم الآخرة فهم فى الضلال يهيمون ؛ لأنه لا يحركهم هدف أو خشية من الله عز وجل ، ولأن التغافل عن الآخرة يدفع للموبقات والشهوات ، فيكون الجزاء سوء العقاب والنكال من الله عز وجل .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « إن اليقين باليوم الآخر خلة المؤمن الدافعة إلى الخير ، والتى تجعله يتحمل متاعب هذه الحياة راجيا ما وراءها ، فإن فقد الإيمان باليوم الآخر ينسى الإنسان نفسه ، فيعتقد أن هذه الحياة هى وحدها الحياة ولا حياة بعدها ، ويحسب أنه خلق عبثا ، ولذا قال سبحانه : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ ، أى حسَّن الله لهم أعمالهم ، فحسبوها وحدها الخير ، ولا يحسبون أن أعمالهم كلها زينة وأمر حسن ، فهم دائما ممن زين لهم أعمالهم فرأوه حسنا ، فكل أعمالهم لا ينظرون إليها إلا من وراء نفوسهم غير المستقيمة ، ولا يعترفون بإرشاد مرشد ، ولا هداية هاد ، واعظ أو زاجر ، فهم فى لهو دائم عن الحق ، وإن من كانت حاله كذلك قد ضرب على آذانه ، فلا يسمع الحق ، ولا يهتدى بهدية ، قد أهمل عقله وتفكيره ، وما أعطاه الله تعالى من مواهب ، وفطرة مستقيمة ... ذلك أنهم يعمهون » .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء سواء كان سوء العذاب لهم فى الدنيا أو فى الآخرة ، فالخسارة المطلقة فى الآخرة ، محققة جزاء وفاقا على الاندفاع فى سوء الأعمال .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : « ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ لفظ ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ يلقى ظل الهداية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم ، يصنع كل شىء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم ، وتتجلى حكمته وعلمه فى هذا القرآن فى منهجه وتكاليفه وتوجيهاته ، وطريقته ، وفى تنزيله فى إبانة ، وفى توالى أجزائه وتناسق موضوعاته » .

وتأتى هنا حلقة من حلقات العقيدة لطمأنة قلب الرسول ، وتثبيت فؤاده فى مشهد من مشاهد قصة الكليم موسى ﷺ ، وترى رعاية الزوج لأسرته وخروجه لخدمة أهله بين الناس وحدبه وعطفه عليهم ، واستحقاق موسى ﷺ لهذا التلقى ؛ لأنه استكمل شروط الطاعة فاستحق الاصطفاء بالرسالة ، فبعد ذهابه للإتيان بنار للاهتداء وللاستدفاء بها خوطب من قبل رب العزة ، وأمره بإلقاء عصاه فتحولت حية فخاف ، فكان النداء المطمئن إنه ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ؛ فالدعاة لا يخافون لتعلقهم بالله الذى بيده النفع والضر، والأخذ والعطاء، أما الذين يخافون عند ربهم فهم الظالمون لأنفسهم ؛ لأنهم لم يقدموا فى دنياهم طاعة تشفع لهم .

ثم يفتح الله باب التوبة لمن ظلم بأن يتوب ، والله يعد بالمغفرة للذنوب ، ثم الرحمة ، وهاهنا جاءت المغفرة والرحمة فى مقام الاطمئنان ، وصفات الربوبية ، والعزة ، والحكمة قبل ذلك؛ ليتنوع الخطاب الربانى للمكلف بالدعوة لتعليمه بأن يتنوع خطابه ؛ ليصل كلامه ولتتم رسالته .

وتأتى الآيات بدلائل ومعجزات لفرعون ولبنى إسرائيل حتى يؤمنوا ، ولكن الجحود والاستكبار منعهم من الإيمان ، وذلك حفاظًا على الأوضاع التى تسندهم ، والمغانم التى تتوافد عليهم ، فلجؤوا إلى ما يلجأ إليه الظلمة من اتهام الدعاة ، بالتهم الباطلة بكون موسى ساحرا، وهم يعلمون كذب حديثهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن المستحقين لهداية وبشرى القرآن هم القريبون من الله المستكملون لشروط الإيمان .

٢ ـ باب التوبة مفتوح لمن لجأ إلى الله ،وإن كان قد أسرف على نفسه قبل ذلك ـ والأخذ بيد التائبين إلى النجاة .

٣ ـ تنوع وسائل الدعوة إلى الله ، وتنوع الخطاب فى الدعوة .

وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف
كان عاقبة المفسدين ﴿١٤﴾ ولقد ءاتينا داود وسليمن علما
وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴿١٥﴾
وورث سليمن داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير
وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ﴿١٦﴾ وحشر
لسليمن جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴿١٧﴾
حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا
مسكنكم لا يحطمنكم سليمن وجنوده وهم لا يشعرون
﴿١٨﴾ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر
نعمتك التى أنعمت على وعلى ولدى وأن أعمل صلحا
ترضه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصلحين ﴿١٩﴾
وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من
الغائبين ﴿٢٠﴾ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأاذبحنه
أو ليأتينى بسلطن مبين ﴿٢١﴾ فمكث غير بعيد فقال
أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴿٢٢﴾

معانى الكلمات :

منطق الطير : لغة الطير .

يوزعون : يمنعون من التقدم .

لا يحطمنكم : لا يهلكنكم .

أوزعنى : ألهمنى .

بسلطان مبين : بحجة واضحة .

أحطت : اطلعت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بفضل قيمة الشكر .

٢ ـ أن يتعرف المسلم على سلوك الأنبياء إزاء نعم الله .

٣ ـ أن يتعود المسلم شكر نعمة الله قولًا وعملًا .

المحتوى التربوى :

وهنا تأتى نهاية الظالمين الذين رأوا الآيات أمامهم ، وتيقنوا منها ، ومن صدق من يدعونهم، فاستحقوا العقاب ؛ لأنهم جحدوا بنعمة الله .

ثم تتواصل ملحمة الدفاع عن العقيدة بذكر قصة داود وسليمان عليهما السلام ، وتُستهل بإقرار الفضل لله ، وهو فضل العلم ، وحمد الله على تعليم سليمان لغة الطير ، فكان العلم هنا مقرناً إلى الله ؛ ذلك لأن المنعم عليه أدرك فضل النعمة بشكر المنعم باللسان والجوارح ، وليس تعلم الذين لا يخشون الله ، فاستخدموه فى الهلاك والدمار .

يقول الإمام الفخر الرازى : « وأما قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ففيه أبحاث :

أحدها : إن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير .

ثانيها : فى الآية دليل على علو مرتبة العلم ؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم .

وثالثها : أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل ، وذلك يدل على حسن التواضع .

ورابعها : إن الظاهر يقتضى أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم ، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره ، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم ، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين ، فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين .

فإذن هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شىء من الشبهات ، ولا يغفل القلب عنه فى حين من الأحيان ، ولا ساعة من الساعات » .

وقال صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ « المفهوم إنها وراثة العلم ؛ لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر ، ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس ..فيظهر ما علمه من منطق الطير، ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير، وليس هو داود، فهو لم يرث هذا عن أبيه،وكذلك ما أوتيه من كل شىء ، إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم».

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدًا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان ، أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء .

ثم تسوق الآيات خروج سليمان وموكبه المهيب ، وتنظيمه الدقيق ثم يشعر بنعمة الله ويتواضع له ، فلا تطغيه ضخامة جيشه ، بل أدرك نعمة الله عليه بخطاب النملة ، وهى أمة منظمة ، فتوجه بالشكر إلى الله على نعمه عليه وعلى آبائه ، ويدعو ربه أن يوفقه للعمل الصالح ، وأن يكون هو ـ سليمان ـ من الصالحين ، إن قيم التواضع ، وحسن التدبر ، والذكر والخشية تظهر فى الآيات،وتشير إلى أن فضل الله يجب أن يقابل بالشكر وأن العمل الصالح توفيق من الله.

قيمة المعجزة ليس فى إدراك سليمان للغة النملة فحسب ، ولا إدراك النمل للخطر فقط ، بل تظهر أكثر فى إدراك النملة أن هذا هو سليمان وجنوده ، وأن إهلاكه لمملكة النمل إن حدث لن يكون عمداً ، لأن رسالة الأنبياء الإصلاح لا الإفساد ؛ لذا فقد تبسم سليمان .

قال الإمام الفخر الرازى : « اعلم أن سليمان ﷺ طلب ما يكون وسيلة إلى ثواب الآخرة أولا ، ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا ، أما وسيلة الثواب فهى أمران :

أحدهما : شكر النعمة السالفة . **والثانى** : الاشتغال بسائر أنواع الخدمة .. وأما طلب ثواب الآخرة فقوله : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .. والصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ، ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية » .

ثم مشهد آخر من مشاهد نعمة الله لنبيه سليمان ﷺ وترى فيها صفات الحاكم المسلم ، وكل من له رعية ، فتفقد الطير ، ولم يجد فرداً من الرعية ، ويقول فى ذلك **صاحب الظلال** : « ندرك من افتقاده لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم ، فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى لا يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث » .

وسمة أخرى من سمات الحاكم العادل هى الشدة والحزم مع من تخلف عن مكانه ، ثم هو مع ذلك عادل لا يعاقب من يأتى بحجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة .

ولم تمنع شدة الحاكم وهيبته أحد أفراد رعيته أن يقول أنه أحاط علماً لم يعلمه حتى لو كان هذا الحاكم نبيا مرسلا، علم منطق الطير ، وحشرت له الإنس والجن والطير ، وهذا نموذج مثالى للجندية الصحيحة أمام القيادة الراشدة ، فالجندى ـ الهدهد ـ تصرف بذاتية وليس تصرفا فوضويا ، وذهب لوقت قصير لهيبته من الحاكم ولإنهائه المهمة، ثم شجاعته فى مواجهة الحاكم، وذكائه ببدء حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الحاكم له ، ثم مخاطبة الحاكم أن الخبر يقين وصادق لا أقاويل مرسلة ، وليست تخرصات أو تكهنات أو إشاعات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً:

١ ـ أن يتعود المسلم على شكر نعمة الله عز وجل عليه ،وأن نمارس الشكر قولا وعملا .

٢ ـ فضل الشكر قولا وعملا .

٣ ـ الاحتياط والتبصر فى الحكم على الأمور .

٤ ـ الذاتية فى العمل للإسلام .

٥ ـ الاستيثاق من الأخبار ، ونقل الأخبار لمن تعنيه .

الجزء التاسع عشر — سورة النمل

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ (٢٨) قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ (٣١)
قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ
تَشۡهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ
فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ (٣٣) قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً
أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٣٤)
وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣٥)

٣٧٩

معانى الكلمات :

امرأة : اسمها بلقيس .

أوتيت : أعطيت .

زين : حسن وحبب .

صدهم : منعهم .

الخبء : المستور من الأرزاق .

تول عنهم : تنح عنهم .

الملأ : أشراف قومها .

قاطعة أمرا : قاضية أمراً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الشكر .

٢ ـ أن يتعرف الداعية على دور الشورى فى قصة بلقيس ملكة سبأ .

٣ ـ أن يستشير المؤمن إخوانه فى كل أمر معين له .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق وقد أتى الهدهد ولم يقض وقتا طويلا مديدًا فى مكثه ، بل جاء فور التهديد الذى هدد به نبى الله سليمان ﷺ ، وهو يقول له : علمت إحاطة ومعاينة لأمر لم تحط به ولم تعلم به علم معاينة ، وهكذا كان حظ الطير الضعيف أن يخاطب العظيم الذى أوتى كل شىء بالحرية وبالحق ، ليعلم الحكام الجهلة أن من واجبهم أن يواجهوا الحاكم بكل ما يعلمون وفيه مصلحة الدولة ، وأن عليهم أن يتقبلوا شديد القول كما يتقبلون لينه .

يتتابع المشهد بعد ذكر كلمة ﴿ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ كأن ما يقال بعد ذاك هو غريب أن يصدقه عقل مؤمن فى أن تكون الولاية الكبرى لامرأة ، وقال : إنها ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ وهو ما قاله

سليمان ﷺ : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وأن عرشها ضخم فخم ، وكانت المفاجأة الكبرى أن النعمة لم تقابل بالشكر ، بل بالجحود والنكران ، وعبادة خلق من خلق الله ، وهي الشمس .

كان إدراك الجندى ـ الهدهد ـ لقضية العقيدة إدراكًا بالغًا ، فاستنكر عبادة الشمس ، وأرجع ذلك للشيطان الذى يغوى ويضل ويزين الضلال لبلقيس والقوم ، وهو يعلم أن كيد الشيطان ضعيف، ويعلن أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج ما تخفيه الأرض، وما يراه الهدهد بنفسه، ويعلم السر والعلن ، فهى دعوة للتفكر فى خلق الإنسان وخلق السموات والأرض ، أو هى مقابلة للخبء فى السموات والأرض .

وعرش سليمان ، وعرش بلقيس ، وعروش ملوك الأرض لا تقاس بجانب عرش الله ، فهو رب العرش العظيم .

قال الإمام محمد أبو زهرة : « وصف الله ـ تعالى ـ المعبود بحق بثلاث صفات هى أعلى الصفات لواجب الوجود ، وكل صفاته عليا :

الصفة الأولى: أنه هو الذى يخرج خبأ السموات بالمطر الذى ينبت الزرع والنخيل والأعناب، ويخرج به خبأ الأرض بغلق الحب والنوى ، وإخراج المتراكب الذى يكون به غذاء الأحياء .

الصفة الثانية : أنه يعلم ما يسر وما يعلن الإنسان ، فهو عليم بحاله فى حركاته وسكناته ، وما يفعل من خير وشر ، ومجازيه على كل ما يفعل ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وفيها تبشير بالجزاء ، وإنذار بالعقاب .

الصفة الثالثة : أن لا إله إلا هو ، فهو وحده المتصف بصفات الكمال التى توجب عبادته ، وهو صاحب السلطان رب العرش العظيم ، صاحب السلطان الكامل فى هذا الوجود » .

ويضبط الحاكم نفسه ، ويستوثق من خبر الهدهد ، لأنه نبى عادل وحاكم حازم ، وليس كالحكام الظلمة الذين يعاقبون بالذم ويسيرون أسرى الإشاعات الكاذبة والأقاويل المغرضة .

يواصل السياق عرض مشهد الدعوة من بدايتها ، ومنها الاستفادة من الجندى الذى عايش القصة من أولها، وهنا يبدو ملمح استعلاء سلاح الإيمان على أى سلاح ، فكانت البسملة هى افتتاح الكتاب إلى الملكة ، فكأنه عرض للدعوة بقوة من مقدمتها ، وعدم المهادنة ، كان سمت الخطاب إسلاميا ، وذم الاستكبار والاستعلاء ، لأنه من غواية الشيطان .

ويعرض النص القرآنى سمة الملكة الأريبة بعد هذه الدعوة أنها تلجأ للشورى ، وهذا سبب استمرارها كملكة لها عرش عظيم ، لكن من حولها يعرفون مقدارهم وقوتهم أنهم للقوة والبأس ، وتركوا أمر التصريف فى الحكم لها .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « أجابوا بثلاثة أمو مطمئنة ملقية فى نفسها روح الاطمئنان على حكمها وسلطانها :

أول هذه الأمور: ﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾ أى أصحاب قوة فى استعدادنا من حيث العدد والذخيرة، وكل ما يحتاج إليه الجند القوى المستعد .

وثانى هذه الأمور : أنهم ﴿ وَأُوْلُوا بَأْسٍ﴾ أى أهل همة ونجدة وشجاعة لا تفرط فى الدفاع أو الجهاد إذا دعا داعيه ، وإن بأسنا شديد ، لا نتخاذل فى حرب .

الأمر الثالث: أن القيادة كلها (الأمر إليها) ... أى إذا كان الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين..؛ لأن الاستعداد كامل تنفيذ الذى تأمرين به كاملا غير منقوص » .

وأبرز القرآن حصافتها فى فهم طبيعة ملوك الدنيا الذين يفسدون القرى ويهلكون الحرث والنسل ، لكن نص رسالة سليمان مختلف عن طبيعة الملوك ، فلجأت للملاينة ، وبعثت بهدية وفى ذهنها كما يقول **صاحب الظلال** : « إن الهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح فى دفع القتال ، وهى تجربة ، فإن قبلها سليمان ؛ فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدى، وإن لم يقبلها، فهو إذن أمر العقيدة ، الذى لا يصرفه عنه مال . ولا عرض من أعراض هذه الأرض » .

يقول صاحب الأساس : « لا شك أن فكرة الهدية فكرة سياسية رائعة ، إذ من خلالها تستطيع التعرف على قوة سليمان وجيشه ، كما أن للهدية العظيمة أثراً فى تليين نفوس الملوك فهى رشوة قد تفعل فعلها » .

ومن ثم قال قتادة رحمه الله : « ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من غواية الشيطان وإضلاله بدوام الذكر والاستعاذة .

٢ ـ التحقق من صدق الأخبار .

٣ ـ الاستعانة بالشورى فى كل موقف .

٤ ـ معرفة كل إنسان قدره وقدراته .

٥ ـ صبغ كل أمر من أمور حياتنا بصبغة إسلامية .

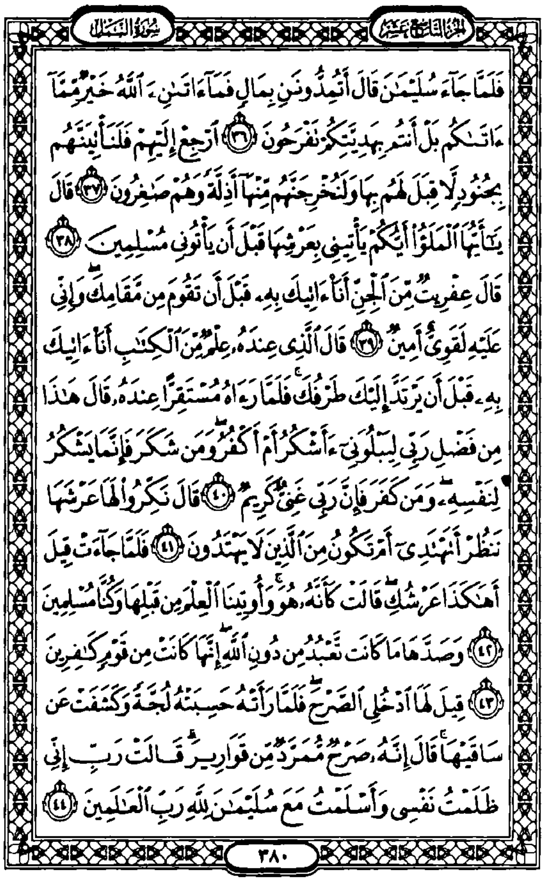
الجزء التاسع عشر سورة النمل

فلما جاء سليمن قال أتمدونن بمال فما ءاتىن الله خير مما
ءاتىكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴿٣٦﴾ ارجع إليهم فلنأتينهم
بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صغرون ﴿٣٧﴾ قال
يأيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿٣٨﴾
قال عفريت من الجن أنا ءاتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني
عليه لقوي أمين ﴿٣٩﴾ قال الذي عنده علم من الكتب أنا ءاتيك
به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رءاه مستقرا عنده قال هذا
من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر
لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿٤٠﴾ قال نكروا لها عرشها
ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٤١﴾ فلما جاءت قيل
أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين
﴿٤٢﴾ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كفرين
﴿٤٣﴾ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن
ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني
ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمن لله رب العلمين ﴿٤٤﴾

٣٨٠

معانى الكلمات :

لا قبل لهم : لا طاقة لهم .

صاغرون : أذلاء .

عفريت : مارد من الجن .

نكروا لها عرشها : غيروا ملامحه .

الصرح : قصر عظيم .

ممرد : مملس مسوى .

قوارير : زجاج شفاف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة القرب من الله .

٢ ـ أن يتعرف المسلم على قصة إسلام بلقيس ملكة سبأ .

٣ ـ أن ينوع المسلم وسائل دعوته لغيره حسب حال الدعوة وظروف الدعوة .

المحتوى التربوى :

ترسم الآيات صورة للداعى إلى الله فى رده على الرشوة ، وهو يستنكر ذلك من أنه لا يريد المال ؛ لأن الأمر أمر عقيدة ، والله منّ عليهم بالملك والعلم وغير ذلك وقبل ذلك بالنبوة ، فكيف يقبل التخلى عن دعوته بمال ، وسليمان يدرك أن هذا الرد سينهى الأمر مع ملكة لا تريد العداء ـ كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية ! ويرجح أنها ستجيب دعوته ، أو يؤكد وقد كان .

قال النسفى : « إن ما عندى خير مما عندكم، وذلك أن الله آتانى الدين الذى فيه الحظ الأوفر، والغنى الأوسع ، وآتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلى بأن يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى إليكم ؛ لأن ذلك

مبلغ همتكم ، وحالى خلاف حالكم ، وما أرضى منك بشىء ، ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية » .

ثم يعرض القرآن حصافة نبى الله سليمان بعد عرض ذكاء الملكة بلقيس فى مشهد سابق ، فبعد عرض الإسلام ، ومشهد الهدية والرشوة كانت الشدة فى الرد بالإنذار بجنود لا قدرة لملكة سبأ بهم ، وإخراجهم من مملكتهم مدحورين مهزومين ، وذلك لإخافة من قالوا : إنهم أولو قوة وأولو بأس شديد ، أما الملكة فكان لابد من سوقها للإيمان بوسيلة أخرى وهى عرض مظهر من مظاهر القوة الخارقة لتقاد إلى الإيمان بالله ، ولأن فى إيمانها وسيلة لإيمان من يأتمرون بأمرها .

ويظهر السياق هنا قيمة القرب من الله أنها تعطى قوة تفوق قوة الإنس ومردة الجن ، فعرض عفريت من الجن أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، وعرض مؤهلات القيام بالأمور وهى القوة والأمانة ، لكن رجل مؤمن على اتصال بالله أتى به قبل أن يرتد إليه طرفه ، وهكذا أجرى سليمان سباقا بين رعيته فكان القرب من الله هو الأقرب .

وفى قول الله تعالى على لسان نبيه سليمان ﷺ : ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ ، **يقول صاحب الظلال فى ذلك** : « استشعر أن النعمة على هذا النحو ابتلاء ضخم يحتاج إلى يقظة ليجتازه ، وإلى عون الله ليجتازه ، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه ، والله غنى عن شكر الشاكرين » .

قال النسفى : « وفى كلام بعضهم إن كفران النعمة بوار ـ وقلما أقشعت نافرة رجعت فى نصابها فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنها بكرم الجوار ، واعلم أن سبوغ ستر الله ـ تعالى ـ متقلص عما قريب إذا أنت لم ترجُ لله وقارا ، أى لم نشكر لله نعمة » .

وفى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانو على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أن أو لكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وبعد إحضار العرش كان اختبارًا لذكائها وقدراتها؛ ليعلم كيف استحقت أن تتملك قومها، فأمر بتغيير ملامح العرش ورأت الملكة ، وعندما سئلت عن تشابه عرشها بذلك العرش ردت بذكاء ولباقة الملوك ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ وأخذ النص القرآنى يؤكد سلامة فطرتها أنها ما صدت عن سبيل الله ، أنها نشأت بين قوم كافرين ، وحين جاءتها الدعوة لمست شغفاف قلبها وبدأت الحجب تزال ، وأن الشيطان هو الذى صدها عن السبيل لكن هاتف الإيمان بدأ يخاطبها..

ولم يبق إلا معجزة أخرى لتمزق نياط الكفر ، ودخلت الصرح وهو قصر من البللور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة ، فلما قيل لها : ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها فقيل : إنه صرح ممرد ، وحدثت المعجزة ، وظهر ذكاء الملكة فى إدراكها أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها فيما سلف من عبادة غيره .

قال ابن كثير : « عن يزيد بن رومان : ثم قال لها ادخلى الصرح ؛ ليريها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ... » .

ويقول صاحب الأساس : « وهذا الدرس العظيم الذى نأخذه من سليمان يفيد أن المدينة الإسلامية يجب أن تكون أرقى المدنيات ؛ لأن فى ذلك إخضاعا نفسيا لبقية المدنيات ، وأهلها ، ومن المعروف أن من أسباب الردة المعاصرة تفوّق الكافرين على المسلمين مدنيا ، مما أدى إلى وجود عقدة نقص عند المسلمين ، ومما جعل الكافرين يستغلون ذلك ليهاجموا الإسلام وأهله ، ويتفاخروا بالكفر وأنظمته » .

هكذا يلفت النص القرآنى قضية المساواة ، فبلقيس أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبى الملك صاحب هذه المعجزات ، إنما الإسلام لله رب العالمين ، ومصاحبة المؤمنين ، وهكذا ضُرِب مثل للمعاندين الذين يأبون الهداية استكبارا فها هى امرأة ترى أن العزة فى الإيمان بالله الذى يسوى بين الغالب والمغلوب ، بين القائد والتابعين .

يقول صاحب الأساس : « هذا الدرس العظيم الذى نأخذه من سليمان أن المدنية الإسلامية يجب أن تكون أرقى المدنيات ، لأن فى ذلك إخضاعًا نفسيا لباقى المدنيات وأهلها ، ومن المعروف أن من أسباب الردة المعاصرة هو تفوق الكافرين على المسلمين مدنيا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تعظيم نعمة الله على الإنسان ، وعدم المساومة فى مسألة العقيدة .

٢ ـ فضل الاتصال بالله عظيم ، والقرب منه .

٣ ـ تنوع وسائل الدعوة إلى الله .

٤ ـ فضل الشكر فى استنزال نعمة الله واستزادتها .

٥ ـ الحذر من غواية الشيطان بالذكر والدعاء .

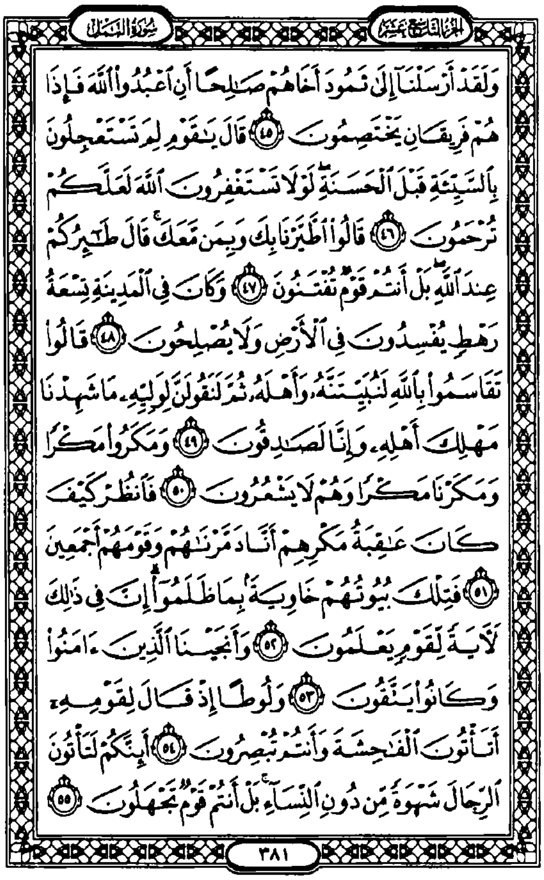
الجزء التاسع عشر — سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٣٨١

معانى الكلمات :

يختصمون : يختلفون .

اطيرنا : تشاءمنا .

طائركم : حظكم المكتوب عليكم .

لنبيتنه : لنقتلنه فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الشجاعة فى مواجهة المنكرات ومرتكبيها .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على جهاد صالح ولوط عليهما السلام ضد فساد قومهما .

٣ ـ أن يمارس المؤمن فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات قصة سيدنا صالح ﷺ ، وتبرز موقف العقيدة بين فريقين ؛ فريق يدعو إليها، وفريق يصد عن سبيل الله ، رغم أن الداعى لا يدعو إلا إلى عبادة الله وهى أصل الرسالات السماوية لكن الكفار والمعاندين أعرضوا عن ذلك ؛ لأنهم يعرفون أن لها تكاليف وتبعات وتخلى عن مطامعهم ومصالحهم الدنيوية وهو الفريق الأكثر عددا .

يقول صاحب الظلال : « يلخص رسالة صالح ﷺ فى حقيقة واحدة : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ فهذه هى القاعدة التى تركز عليها رسالة السماء إلى الأرض فى كل جيل ، ومع كل رسول ، ومع أن كل ما حول البشر فى هذا الكون ، وكل ما يمكن فيهم أنفسهم ، يهتف بهم إلى الإيمان بهذه

الحقيقة الواحدة ، فقد أمضت البشرية أجيالا وأزمانا لا يعلمها إلا الله ، وهى تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفه الإنكار والجحود ، أو وقفة الهزء والتكذيب ، وما تزال إلى اليوم تزوغ عن هذه الحقيقة الخالدة ، وتجنح إلى شتى السبل التى تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم » .

لكن الكفار وهم فى الطريق للغرق يرفضون الأيدى التى تنقذهم ، وهم رسل الله ، رسل الهداية ، دعاة إلى الخير لكن يواجهون بالاستهزاء ، والداعية مع ذلك رحيم بهم يدعوهم للاستغفار ؛ لأن رحمة الله تنزل على المستغفرين ، ولا يقتصر الداعية على ذلك فحسب ، بل يصحح لهم المفاهيم بأن تشاؤمهم به وبالمؤمنين ، وإنه من خرافاتهم التى أوصلهم إليها الجهل والضلال والكفر وجحود نعمة الله .

والتطير : التشاؤم مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التى تجرى وراء الخرافات والأوهام ؛ لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان ، فقد كان الواحد منهم إذا هم بأمر لجأ إلى طائر فزجره أى أشار إليه مطاردًا ، فإذا مر سانحا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى فى الأمر ، وإن مرّ بارحًا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ، وما تدرى الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شىء من المجهول .

ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه ، وما لا تقدر عليه ، فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التى لا تقف عند حد ، ولا تخضع لعقل ، ولا تنتهى إلى اطمئنان ويقين .

فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة الضالة فى تيه الوهم والخرافة ، ردهم صالح إلى نور اليقين ، وإلى حقيقته الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام ، وقال : إن حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله، والله قد سن سننا وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير، فمن اتبع سنة الله ، وسار على هداه ، فهناك الخير بدون حاجة إلى زجر الطير ، ومن انحرف عن السنة ، وحاد عن السواء فهناك الشر بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير ، والظاهر أيها القوم أنكم قوم تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

يقول صاحب الظلال : « هكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة فى تقدير الأمور ، وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم ، وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله . وأن هذا الكون تدبيره وحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم » .

وكما أن الإيمان يحرك صاحبه نحو الهدى والعمل للإسلام ، فإن الكفر والصد عن سبيل الله يدعو للفساد والإفساد فأفسدوا فسادًا كبيرا ، وأى جريمة أشد من القتل قتل الأنبياء والمؤمنين

فى الظلام وللهرب من أولياء دم صالح وأهله ، والعجب أنهم قالوا : ﴿ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ فلا يخدع المرء بالأعمال الفاسدة التى قد تغطيها أقاويل تجمل مقصدها ، والأشد عجبا تذييل الآية بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ فهم يبررون كذبهم ؛ لأن النفس الإنسانية تمتلئ بالانحرافات والالتواءات حين لا تهتدى بنور الإيمان .

ولكن المعية الربانية للمؤمنين تظهر فى إبطال كيد الظالمين ، وكم يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من حيلة ، ويجهلون أن قوة الله تباغتهم فى أى وقت من حيث لا يشعرون ، فدمر الله هؤلاء الأقوام بظلمهم وصدهم ، وكانت النجاة للمؤمنين وللذين يتقون بالله ؛ لأن الله يدافع عن الذين آمنوا وينصر رسله والمؤمنين الذين سلكوا طريقهم غير هيابين غير خائفين إلا من الله فيؤمنه الله من المخاوف دائما .

وتستمر قصة الدفاع عن العقيدة فى حلقة أخرى وهى قصة لوط مع قومه ، وهى ملحمة فى وقوف الداعية أمام فساد القوم وارتكاس الفطرة ، ومخالفة سنة الله فى الكون ، فوبخهم على هذا الفعل الشائن ؛ لأنه حدث فى مجتمع كامل، وفيه نساء فانحراف الفطرة كان انحرافا جماعيا .

يقول صاحب **الظلال** فى تذييل الآية : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أى يبصرون الحياة فى جميع أنواعها وأجناسها تجرى على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ فى وسط الحياة والأحياء والفطرة السليمة ميل الجنس للجنس الآخر ؛ لأنه جعل الحياة تقوم على قاعدة التزاوج ، والأحياء يجدون لذتهم فى تحقيق مطالب الفطرة ، والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة فى كيانهم بلا وعى منهم ، ولا توجيه من غيرهم ».

وكان فى تكرار ذكر الفاحشة بإبراز طبيعتها لإبراز شذوذها ومخالفتها لمألوف البشرية ومألوف الفطرة ،لإظهار تقزز الداعية ونفوره من ذلك الفعل المشين ، ولم يكن عجبا أن يدمغهم بالجهل بمعنييه ؛ سواء فقدان العلم أو السفه والحمق، وكلا المعنيين متحقق فى هذا الانحراف البغيض ، فالذى لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شىء ، ولا يعلم شيئًا أصلا ، والذى يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عدم الانخداع بالشعارات الكاذبة ، فقد تكون الدعاوى المشبوهة الباطلة محلاة بزينة تزين مقصدها .

٢ ـ الثقة فى تدبير الله وتقديره ومعيته للمؤمنين .

٣ ـ الشجاعة فى مواجهة الفواحش ومرتكبيها .

سورة النمل — الجزء العشرون

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل
لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه
وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا
عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥٨) قل الحمد لله وسلام
على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)
أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء
ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم
أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون (٦٠)
أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها
رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل
أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه
ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله
مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في
ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي
رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣)

٣٨٢

معانى الكلمات :

الغابرين : المهلكين .

ذات بهجة : ذات جمال .

خلالها : شعابها .

رواسى : جبالًا ثوابت .

حاجزًا : فاصلا .

تعالى : تنزه وتقدس وتعظم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الاعتبار والتفكر فى خلق الله .

٢ ـ أن يتعرف المؤمن على بعض مظاهر نعمة الله فى الكون وإعجازها .

٣ ـ أن يعتاد المؤمن الاعتبار والتفكر فى خلق الله .

المحتوى التربوى :

ويتواصل النص القرآنى فى عرض مواقف الكافرين وانتكاس وارتكاس فطرتهم ، وقد اعتبروا صفاء الفطرة واستقامتها خروجا من تقاليدهم ، وهو نفس ما تحاوله مجتمعات معاصرة من تقنين هذا الشذوذ ومساواة مرتكبيه بمن يسيرعلى سواء السبيل .

وما كان جواب قوم لوط إلا أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته ، وهم أهل بيته ـ إلا امرأته ـ بحجة أنهم أناس يتطهرون ، وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر ، وقد يكون إنكارًا عليه أن يسمى هذا تطهرًا ، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما فى ميلهم المنحرف من قذارة ، وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ .

على آية حال لقد هموا همهم ، وحزموا أمرهم ، وأراد الله غير ما كانوا يريدون ، وكان المطر الذى أنزل عليهم إهلاكًا لهم وغسل الأرض من فسادهم .

ويقول صاحب الظلال : « لكننا نلمح فى اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيى المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة ماء النطف فى غير ما جعل له ، وهو أن يكون مادة حياة وخصب ، والله أعلم بقوله ومراده » .

وأنجى الله لوطا وأهله إلا امرأته قدر الله أنها من الهالكين فلم ينفعها أنها زوجة نبى أن تنجو من عذاب الله ؛ لأنها كانت تدل القوم على مكانه ؛ لأن القرابة قرابة الإيمان ، والنسب مقطوع إلا نسب العقيدة .

قال الزمخشرى : « أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده ، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، ووإصفائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسمع .

ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون ، فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى ، وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن » .

وقال ابن كثير : « والقصد أن الله ـ تعالى ـ أمر رسوله ، ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعله بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار » .

وكان لابد من هذا القصص القرآنى من ذكر نعم الله وإثبات قدرة الله ونعمة الله فى اصطفائه عبادًا يهدون للحق وإلى طريق مستقيم، وحمد الله على إرساله هؤلاء الرسل فهم صفوة خلق الله، ومصابيح البشرية لطريق الهدى ومنعها من طريق الردى ، لكن المجتمعات الفاسدة لا تخرج لنا إلا من يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ومع العظمة والجلال والعظة والاعتبار ، يستمر السياق القرآنى فى خلق الله المقترن بالرحمة من خلقه للسموات والأرض ، وأنزل لنا مطرا ، ومن المطر أنبت لنا حدائق وبساتين ذات بهجة وزينة ، وإن المرء يبقى مشدوها مشدودًا لهذا الإعجاز ، ولا يملك إلا أن ينطق لسانه بتوحيد الله والإقرار له بالخضوع والإذعان ، ويمتلئ المر غيظاً وتقززا من الذين يساوون مع الله معبودات أخرى .

قال النسفى : « ولا خير فيها أشركوه أصلا حتى يوازن بينه ، وبين ما هو خالق كل شىء ، وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ، ولا يؤثر عاقل شيئا على شىءإلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ، ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثا ؛ لينبهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط ، وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد » .

ويستمر السياق القرآنى فى عرض الإعجاز القرآنى فى جعله الأرض دون سواها من الكواكب مقرّا للإنسان وذللها له بالأنهار ، وثبت فيه الرواسى التى تحفظ الأرض ، وفصل بين العذب الفرات ، والملح الأجاج بفاصل يجعل منسوب النهر أكبر من منسوب البحر ، وإن عين الاعتبار والاتعاظ من هذا ، ذلك هو التأمل فى خلق السموات والأرض .

ثم ينتقل السياق للتأمل فى النفس حين ضعفها واضطرارها أنها بالفطرة السليمة لا تلجأ إلا لله بقوته ؛ كى ينجدها مما هى فيه ، ويتجه الإنسان إلى الله ، ولو كان قد نسيه من قبل فى ساعات الرخاء ، فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويزيل الضرَّ ، وهو الذى جعلنا خلفاء فى الأرض ، ولو علم الإنسان تبعات هذا الاستخلاف ما ضل عن السبيل ، بل أن الكون وما فيه من نعم أعد لهذا الإنسان ، فأقبح بالجحود والنكران ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله ، ولكن الناس ينسون ويغفلون .

وما زالت الدعوة للتأمل والاتعاظ مستمرة ، فالناس يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم ، ويسيرون أسرار البر والبحر فى تجاربهم ، ويهتدون ، فمن يهديهم ؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاعة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟ ثم هذا المطر من قدره وبعثه رياحا تسير سحبه ؟

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ صلة الإيمان هى أقوى الصلات التى تربط بين المؤمن وإخوانه وأقاربه .

٢ ـ ملازمة التفكر والتدبر فى السموات والأرض .

٣ ـ ملازمة التفكر فى خلق الإنسان وبديع صنع خلق الله .

٤ ـ اللجوء إلى الله فى الرخاء والشدة .

الجزء العشرون — سورة النمل

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ
أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا
هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٣٨٣

معانى الكلمات :

ادارك علمهم : عجز علمهم عن معرفة وقتها .

عاقبة : مصير ونهاية .

المجرمين : المكذبين بالرسل .

ردف : قرب .

ضيق : حرج وضيق بالصدر .

ما تكن صدورهم : ما تخفى وتستر .

غائبة : شىء يغيب ويخفى عن الخلق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الإيمان بالبعث والنشور .

٢ ـ أن يعلم المؤمن مواقف الكفار من قضية البعث والنشور .

٣ ـ أن يتفكر المؤمن دائما فى البعث والنشور وما بعدهما .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات عرض الإعجاز الإلهى المرتبط بحياة الإنسان ؛ ليكون أسهل الى الإقناع ، وأقرب إلى الإقرار بوجود الله ، فالذى بدأ الخلق قادر على إعادته ، وهذا يقود للإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار ، وهو الذى يرزق ؛ لأنه بيده السموات والأرض .

وقال **صاحب الظلال** : « وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة ؛ لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة ، فعلاقة رزق الله بالبدء معروفة فهو الذى يعيش عليه العباد ، وعلاقة الإعادة أن الناس يجزون فى الآخرة على تصرفهم فى هذا الرزق الذى أعطوه فى الدنيا » .

ثم ينتقل السياق القرآنى بعد هذه الجولة فى الآفاق وفى أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفى الشرك ، ويأخذ معهم جولة أخرى عن الغيب المستور الذى لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وفى هذا خير للإنسان ، فلو علم الله أن فى كشف هذا الستر المسبل خيرًا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه ، كذلك يجب الإيمان بالبعث وما بعده ، **وكما يقول صاحب الظلال** : « والإيمان بالبعث والحشر وبالحساب وبالجزاء عنصر أصيل فى العقيدة لا يستقيم منهجها فى الحياة إلا به ، فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه فى هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك » .

وهنا يقرر السياق أن الغيب من الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود ، ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ إليه علمه ، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب ، وكان الخير فى هذا الذى أراده الله ، ولقد منح الله هذا لإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة فى الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم ولا زيادة ، وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعنيه فى هذه المهمة .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ولكن كل من فى السموات والأرض من خلق الله من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله ، وبعد هذا التعميم فى أمر الغيب يخصص فى أمر الآخرة ؛ لأنها القضية التى عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد ، وينفى عنهم العلم بموعد البعث فى أغمض صوره وهو الشعور ، فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعورا .

ثم يضرب عن هذا ليتحدث فى موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتنا ، فأسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون .

وكما أن نقطة الإيمان بالبعث والنشور نقطة حاسمة فاصلة فى قضية الإيمان ، كانت هى العقدة التى يقف أمامها الذين كفروا دائما فهم لا يصدقون أن أجسادهم إذا فنيت ستعاد مرة أخرى هى وأجساد آبائهم ، رغم أنهم سمعوا هذا التذكر قبل ذلك ، وهذا يعنى أن رسالات الله لا تنقطع ، وأن الرسل والدعاة لا ينقطعون عن الدعوة إلى الله ، ويواجهون انحراف العقيدة

وفساد الأخلاق ؛ وهذا الأمر يتكرر ويتكرر مع الدعوة للمعاندين والجاحدين حتى يأخذوا عبرة ممن سبقهم .

ولمسة حانية يأتى بها النص القرآنى على الدعاة بألا يحزنوا لما يصيبهم ، ولا يضايقهم مكر الكفار ، فهم دعاة إلى الله ، لا يريدون إلا الخير لأقوامهم ، فلم يضيقون من مكرهم والله خير الماكرين ؟

وتستمر الآيات فى سرد ضلالات المكذبين ، وغواية الشيطان لهم باستهزائهم من رسل الله واستعجالهم العذاب الذى يهددون به ، ثم كانت ثقة الداعية بربه ، ورده القوى عليهم بأن العذاب قد يحيق بهم، فقد يكون وراءهم ـ رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة ـ وهم لا يشعرون ، وهم فى غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ، ويا لها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال ، وهم يستهزئون ويستهترون .

وهنا يظهر فضل نعمة الله فى إرساله للرسل ، وفضله عليهم فى تبشيرهم بالجنّة ، وتخويفهم من النار لكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وتأخير العذاب عليهم رغم أن الله يعلم ما تكن صدورهم ، وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم ، فإمهال الله لهم عن علم وفضل ، ولأنه لا شىء فى السماء والأرض يغيب عن علم الله وفضله .

ثم يأتى النسق القرآنى يؤكد وحدة مصدر التشريع فى الأمة الإسلامية ، وأن هذه الأمة قد ميزت عن الأمم السابقة بعدم اختلافها فى دينها ، وليست كالأمم الأخرى الذين فرقوا دينهم شيعًا فلسنا منهم ، لكن القرآن أتى بالحقائق الثابتة والقصص الصحيحة من غير تحويل ولا اختلاف ، فلم تختلف اختلاف النصارى فى أمر المسيح وقصه صلبه ، ولم نختلف اختلاف اليهود فى تشريعاتهم وحكاياتهم عن أنبياء الله ، بل جاء القرآن مطهرا لصفحات هؤلاء الرسل الكرام التى لوثتها الأساطير الإسرائيلية .

ما ترشدنا إليه الايات تربويًا :

١ ـ تنوع الخطاب فى الدعوة إلى الله حسب فئات المدعوين وأعمارهم وأحوالهم .

٢ ـ وجوب التفكر والاعتبار فى البعث والنشور .

٣ ـ ألا ييأس الداعى إلى الله من هجر وصد الناس له .

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا
وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

الحزب ٣٩

معانى الكلمات :

يقضى بينهم : يحكم بينهم .

مدبرين : معرضين .

وقع القول : اقتربت الساعة .

نحشر : نجمع للحساب .

فوجا : جماعة .

داخرين : أذلاء صاغرين .

جامدة : ثابتة لا تتحرك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بهول يوم القيامة وما يسبقه من أشراط الساعة .

٢ ـ أن يعرف المؤمن بعض مشاهد يوم القيامة وبعض علامات الساعة .

٣ ـ أن تزداد عبادات وطاعات المؤمن لربه ، ويزداد انطلاقه فى الدعوة .

المحتوى التربوى :

ويأتى النسق القرآنى بذكر صورة مقابلة لاختلاف بنى إسرائيل بذكر المؤمنين وما فيه من هدى يقى هؤلاء المؤمنين من الاختلاف والضلال ، ورحمة تحميهم من الشك والقلق ، إنما غير المؤمنين فمناهجهم متخبطة مختلفة ، وقصصهم حول الأنبياء فيها الاختلاف والافتراء ، وأمرهم إلى الله عز وجل يقضى بينهم بحكمه .

ثم يتواصل النسق القرآنى فى تأكيد انتصار الحق وإن استبطأه المؤمنون ، لكن سنة الله لا تتخلف بانتصار هذا الحق ، ولا يتم الإيمان بالله إلا باعتقاد صدق المنهج الربانى والعمل به ، ولا يضر الرسل والدعاة صدّ الكفار وإعراضهم ويصورهم القرآن بالموتى تارة لجمود قلبهم ،

وجمود روحهم، وبلادة حسهم ،وهمود شعورهم، بل هم صم مدبرون عن الداعى لا يسمعون ، وعُمى عن الحق يتخبطون فى ضلالاتهم ، وذلك شأن من اتخذ دستورًا غير القرآن ، ومنهاجًا غيره ، وكذب وأعرض عن الحق إذ جاءه .

لكن الفائز فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو من تهيأت نفسه لتلقى آيات الله بالسمع والبصر ، فتصل آيات الله للمؤمن فينتفع بحياته وسمعه وبصره .

يقول صاحب الظلال : « إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ، فما يكاد القلب السليم ، يعرفه حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه ، وهكذا يصور القرآن تلك القلوب القابلة للهدى المستعدة للإيمان ، التى لا تجادل ولا تمارى بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب » .

ثم تأتى جولة أخرى فى أشراط الساعة عند حديث القرآن عن الدابة لتذكير الكفار بأن موعد التوبة قد ينتهى أجله قبل أن يرجع الظالمون عن غيهم ، وحسبنا النص القرآنى والحديث الصحيح الذى يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذى تنفع فيه التوبة ، وحق القول على الباقين ، فيقضى عليهم بما هم عليه ، عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم ، والدواب لا تتكلم أو يفهم الناس عنها ـ ولكنهم اليوم يفهمون ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة ، وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

ويأتى التذكير بيوم الحشر ليرى عاقبة من صد عن سبيل الله ، ومن اتخذ آيات الله هزوا ، ومن كان يستعجل العذاب ، وقامت الحجة على الكافرين فما ينطقون ، وكانوا قد ملؤوا الدنيا صياحًا بالتكذيب وآيات الله تدعو للاعتبار ، والاعتبار بآية واحدة تعود إلى الإيمان بالله ، فنشهد الليل الساكن والراحة فيه ، والنهار المبصر والكدّ فيه،وهما خليقان أن يوقظا فى الإنسان وجدانا دينيا يجنح إلى الاتصال بالله .

ومن تأملات **صاحب الظلال** فى الليل والنهار: « ولو لم يكن هناك ليل لكان الدهر كله نهارا ولانعدمت الحياة على وجه الأرض ، وكذلك لو كان الدهر كله ليلا ، بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس فى النهار كل نبات ، ولتجمد فى الليل كل نبات ، وعندئذ تستحيل الحياة ففى الليل والنهار بحالتها الموافقة للحياة آيات ، ولكنهم لا يؤمنون » .

ثم كان موقف التهديد للكفار بذكر مشهد نفخ الصور وفزع أهل السموات والأرض إلا من أخلص العبادة لله ، فيؤمنه الله بعدم الفزع بل تلك كانت نفسا مطمئنة فى الدنيا ، فكان

الاطمئنان فى الآخرة ، ويأتى الناس أذلاء بين يدى الملك الجبار ؛ ليجزى الله الصادقين بصدقهم والظالمين بظلمهم .

والصور البوق ينفخ فيه ، وهذا هى نفخة الفزع يشمل كل من فى السموات ومن فى الأرض ـ إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر ، وقد ثبت الله قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وقيل : الشهداء ، وقيل: الحور ، وخزنة النار ، وحملة العرش، وفى هذه النفخة يصعق كل حى فى السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم تكون نفخة البعث ، ثم نفخة الحشر ، وفى هذه يحشر الجميع أذلاء مستسلمين .

ويصاحب الفزع الانقلاب الكونى العام الذى تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها ، ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية، وتمر كأنها السحاب فى خفته وسرعته وتناثره، ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ، وكأنها الجبال مذعورة مع المذعورين مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا جهة ولا قرار ، والآية تشير إلى دوران الأرض على رأى .

ثم يستمر التلاحم بذكر مشاهد من الآخرة ثم ذكر آيات من الدنيا تدعو للعبرة والعظة وهو مشهد الجبال ونحن نراها ثابتة راسخة وهى تمر وتسير كالسحاب ؛ لأن كل شىء فى الكون فى حركة مستمرة ، فليتأمل من يتنكر لهذا الصنع العجيب ، وأن من أعرض عن آية فليواجه بآية أخرى تدعو للتأمل فى صنع الله ـ سبحانه ـ يتجلى إتقان صنعته فى كل شىء فى هذا الوجود ، فلا فلتة ولا مصادفة ، ولا ثغرة ولا نقص ، ولا تفاوت ولا نسيان ، فكل شىء بتدبير وتقدير ، يدير الرؤوس التى تتابعه وتتملاه .

وهذا يوم الحساب عما تفعلون ، قدره الله الذى أتقن كل شىء وجاء به فى موعده لا يستقدم ساعة ، ولا يستأخر ؛ ليؤدى دوره فى سنة الخلق عن حكمة وتدبير ، وليحقق التناسق بين العمل والجزاء فى الحياتين المتصلتين المتكاملتين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ التوكل إلى الله فى كل أمر بعد القيام بالتكاليف وأخذ الأسباب .

٢ ـ التفكر والتدبر فى خلق السموات والأرض .

٣ ـ تذكر علامات الساعة واستحضار مشاهدة يوم القيامة لزيادة الإيمان .

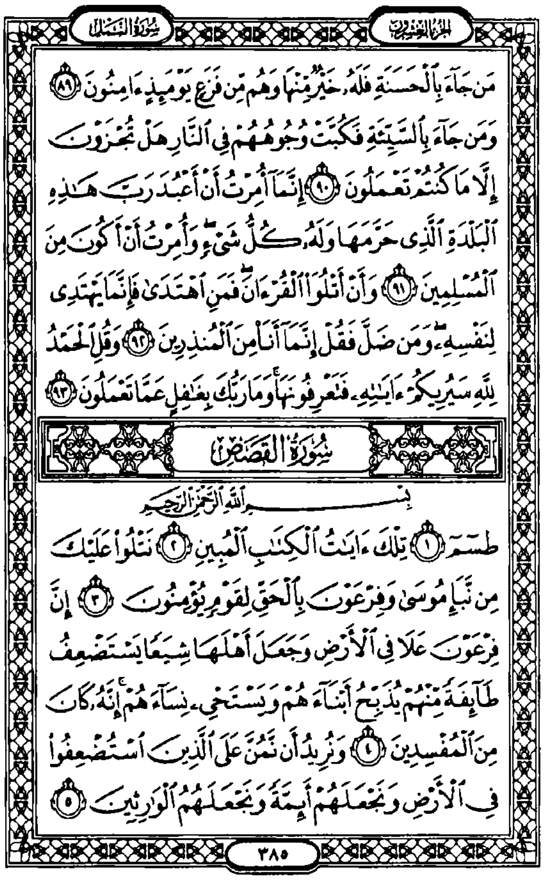
مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ
إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي
لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ ٱلۡقَصَصِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
٣٨٥

معانى الكلمات

كبت وجوههم : أبقوا فى النار منكسين .

هذه البلدة : مكة المكرمة .

شيعاً : فرقاً وأصنافا .

يستحيى نساءهم: يستبقى بناتهم للخدمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر الداعية بأن نصر الله للمؤمنين قريب ، وإن إهلاكه ـ عز وجل ـ للظالمين واقع لا محالة .

٢ ـ أن يعلم المؤمن جوانب من طغيان فرعون وظلمه .

٣ ـ أن يسعى المؤمن فى الأرض عابدًا لله غير هيّاب من الظالمين .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات لتوضح نتيجة الطاعة والعبادة ، ولتقرير العدل الإلهى الذى لا ميل فيها ولا محاباة ، فى أن من يعمل صالحًا فى الدنيا فجزاء الله عليه واقع بجزاء فى الجنة وهو خالد فيها ، ويؤمن من الفزع جزاء ورحمة من ربهم لأوليائه وعباده ، والأمن من الفزع هو وحده جزاء ، وما بعده فضل من الله ومنة ، ولقد خافوا الله فى الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة ، بل أمنهم يوم يفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله ، وأن من أعرض عن ذكره ، فيكب على وجهه فى النار بمجمع الحواس ، فالجزاء من جنس العمل .

وقال **الفخر الرازى** : « اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ، ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب ـ وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال : قل يا محمد إنى أمرت بأشياء :

الأول : إنى أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكا ، وأن الله ـ تعالى ـ لما قدم دلائل التوحيد ، فكأنه أمر محمدًا بأن يقول لهم هذه الدلائل التى ذكرتها لكم إن لم تفد لكم القول بالتوحيد ، فقد أفادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها ؛ فإنى مصر عليها غير مرتاب فيها .

ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين : **أحدهما** : إنه رب هذه البلدة ، والمراد مكة ، وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها ؛ لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه .

ويلخص الرسول ﷺ دعوته ومنهجه فى الدعوة ، وهو فى خطابه لمشركى مكة يذكرهم تبعة الله عليهم بأن تلك البلدة صارت بلدة حراماً ، وهم يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ، ثم لا يوحدون الله الذى حرمه ، وأقام حياتهم كلها عليه ويقول **صاحب الظلال** : « فالرسول ﷺ يُقوِّم العقيدة كما ينبغى أن تُقوَّم ، فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، لا شريك له ، ويكمل التصور الإسلامى للألوهية الواحدة، فرب هذه البلدة هو رب كل شىء ، ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين الموحدين لله » .

وعند خطاب الكفار لابد من وسيلة وهو القرآن ، وهو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك ، وقد أمر أنه يجاهد به الكفار وهو هدى وبشرى ورحمة للمؤمنين الذين اهتدوا به ، ولكن من ضل وزاغ ، واتخذ القرآن مهجورا ، فقد أورد نفسه موارد التهلكة ؛ وفى ذلك تأكيد لمعنى فردية الله .

يظهر فى الآيات فردية التبعة فى ميزان الله فيما يختص بالهدى والضلال فمن آمن فلنفسه ، ومن ضل فعليها ، وفى فردية التبعة تتمثل كرامة هذا الإنسان التى يضمنها الإسلام ..

وكان ختام السورة يناسب موضوعاتها فى حمد الله على نعمة فى الكون التى آمن بها المهتدون ، وكفر بها الطاغون ، وسيرون فى القيامة جزاء إنكارهم وجحودهم؛ لأن الله لا يغفل ظلم الظالمين؛ ولا يصلح عمل المفسدين .

سورة القصص

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف فى لغة البشر الفانين ، فهذا الكتاب ليس إذن من عمل البشر وهم لا يستطيعونه ، إنما هو الوحى الذى يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة فى الكبير والصغير .

وإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ، يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق ، وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقى ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ، والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم .

ثم ينتقل السياق القرآنى لقصة موسى مع فرعون وما فيها من إيحاءات للرسول محمد ﷺ ؛ لتذكر قصة طغيان فرعون ، واستعلائه ، واضطهاد بنى إسرائيل وتعذيبهم ـ بذبح أطفالهم ، واستبقاء نسائهم للخدمة فكان يقتل أبناءهم ؛ لأنه أحس أن هناك خطرًا على عرشه وملكه ، ولكن الله يريد غير ما يريد الطاغية ، ولأن الطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، وينسون إرادة الله وتقديره ، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاؤون ، ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون .

والله يعلن إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ، فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية فى شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد ، وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدًا ولا تابعين ، وأن يورثهم الأرض المباركة .

يقول صاحب الظلال : « لقد كانت قصة موسى عليه السلام تبدأ غالبا فى السور الأخرى من حلقة الرسالة ـ لا من حلقة الميلاد ـ حيث يقف الإيمان القوى فى وجه الطغيان الباغى ، ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان فى النهاية ، فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود ، إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه فى ذاته ، والبغى حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر ، بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الجزاء من جنس العمل ، وعلى المؤمن إخلاص العمل لله .

٢ ـ تلاوة القرآن ومدارسته وتدبره والعمل به .

٣ ـ الإيمان بفضل الله ورحمته للمؤمنين ، وإن تكالب عليهم الظالمون .

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ
رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الحزب ٣٩

معانى الكلمات :

أوحينا : ألهمنا .

ليكون لهم عدوًا وحزنا : ليصير نهاية الأمر لهم عدوًا وسبب حزن .

اليم : البحر . **قرة عين :** سعادة .

فارغا : خاليا .

لتبدى به : تكشف أمره .

ربطنا على قلبها : ثبتها الله .

قصيه : اتبعى أثره .

جنب : بعد.

يكفلونه : يقومون بتربيته .

تقر عينها : تسعد وتطمئن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله ومعية الله للمؤمنين .

٢ ـ أن يعلم المؤمن قصة ولادة موسى وتربيته فى قصر فرعون وفضل الله فى ذلك .

٣ ـ أن يستمر المؤمن فى دعوته لله على بصيرة وثقة فى نصرة الله .

المحتوى التربوى :

ونتابع ذكر المغزى من قصة موسى وفرعون وهى نصرة الله للمؤمنين ، وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخى الأقدام مطمئنين ، وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما ، وما يتخذون الحيطة دونه ، وهم لا يشعرون .

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ فى عرض القصة ذاتها ، يعلن واقع الحال ، وما هو مقدر فى المآل ، ليقف القوتين وجها لوجه : قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التى تبدو للناس قادرة على الكثير ، وقوة الله الحقيقية الهائلة التى تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التى ترهب الناس، والله هو الذى يدبر أمر العالم ، وكان تدبيره بأن أوحى إلى أم موسى بأن ترضعه ، فإذا خافت عليه تلقيه فى اليم وقبل أن تذهل من الأمر تأتى كلمات إذهاب المخاوف وإبعاد الحزن ، بل يظهر

الكرم والفضل بأن هذا الولد سيرد إليها سيكون نبيا مرسلا من قبل الله ، تلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

ويسمى العلماء اللام فى قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لام العاقبة ؛لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، بل أرادوا أن يكون ولدا لهم ، ولكن نظر إلى المصير الذى أصبحوا عليه فى آخر الأمر .

وجاءت القدرة الإلهية تبطل كيد فرعون ، فهم التقطوا موسى ، ليكون ولدًا لهم لكن مشيئة الله قضت أن يكون موسى سببا فى إهلاك فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا أقواماً يكفرون بالله ، وكانت الوسيلة قلب امرأة فرعون ، فكان موسى والتقاطه رحمة للمرأة ـ زوجةَ فرعون المؤمنة فى اتخاذه ولداً ونفعه لها وللمؤمنين جميعًا ؛لأنها كانت امرأة تكتم إيمانها .

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال ، حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة ، وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف .

والقدرة تتحدى ، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة ، تتحدى فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم ليتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفًا على ملكهم وعرشهم وذواتهم ، ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كى لا يفلت منهم طفل ذكر .. فها هى ذى يد القدرة تلقى فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر ، وأى طفل ؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هى ذى تلقيه فى أيديهم مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزًا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هى ذى تقتحم به على فرعون حصته وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتبعه فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل ، وفى أحضان نسائهم الوالدات !

وتتلاحم معانى القدرة الربانية وشعور الأمومة ، والثقة بالله فى لهفة أم موسى على ولدها وكادت أن تصرح بما حدث ، لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء ، ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها : كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذف بها فى اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أُمٌ ؟ كيف طلبت له السلامة فى هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآنى يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية : « فارغًا » ... لا عقل فيه ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصريف !

ولكن القدرة الربانية والثقة بالله تظهر فى تثبيت قلبها ، ولتيقنها من وعد الله أمرت ابنتها بأن تتبع أثره ، وتعرف خبره ، فوجدته بين أيدى خدم فرعون ، وهو يرفض أى ثدى لإرضاعه ،

فتخبرهم أنها تعرف بيتا يرضع الطفل لهم ؛لأن القدرة التى تعرف تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله .

إن القدرة التى ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ، لتدعهم يحتارون به ؛ وهو يرفض الثدى كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فيتلقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهى المشهد الرابع ، فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير فى هذه الحلقة ، وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة ، معافى فى بدنه ، مرموقًا فى مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير .

إن أعلى مراتب الإيمان أن يؤمن المسلم بوعد الله ، فقال الله لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ ﴾ ، ثم كان قوله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ ﴾ ، وقرت عينها بولدها فى حاضرها ، وطوت صفحة الحزن فى ماضيها ، ولتثق ببقية البشارة أن هذا الولد سيشب ويكبر ، ويكون نبيا مرسلا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيجحدون وينكرون ولا يستحقون نزول رحمات الله لهم .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ من سياق القصة أن الله ـ عز وجل ـ إذا أراد إنقاذ أمة هيأ لها المنقذ ، ومن ثم فإن وجود الرسول ، أو المجدد ، أو الوارث ، أو الخليفة ، أو القائد ، له دوره الكامل فى نقل الأمة من حال إلى حال، كما نلاحظ أن الله ـ عز وجل ـ إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، وأن كل معاندة مهما كان شأنها لا يمكن أن تخدم إلا مراد الله ... وفى هذه السورة دروس كثيرة لهذه الأمة فى التعريف على أهمية القيادة ، وفى الاطمئنان إلى فعل الله بعباده المؤمنين ، وفى التدليل على صحة الإلهام ، وفى ضرورة التوكل مع الأخذ بالأسباب ، وغير ذلك من الدروس » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ السعى فى إخلاص العبادة لله ، والسعى فى الدعوة إلى الله مع التيقن من معية الله للمؤمنين .

٢ ـ وجوب اتخاذ الحذر فى كل أمر مع الإيمان بقضاء الله .

٣ ـ تقدير عاطفة الأمومة والعمل إزاء ذلك من بر الأمهات وإكرامهن .

الجزء العشرون — سورة القصص

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

٣٨٧

معانى الكلمات :

أشده : قوة بدنه .

شيعته : بنو إسرائيل .

وكزه : ضربه فى صدره بمجمع كفه .

ظهيرًا : معينا .

يترقب : يتوقع .

غوى مبين : واضح الضلال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يستشعر المؤمن قيمة اللجوء إلى الله والتضرع إليه .

٢ ـ أن يعلم الداعية جوانب من قصة موسى عليه السلام والمعية الربانية له .

٣ ـ أن يداوم المؤمن على الاستغفار واللجوء والتضرع إلى الله .

المحتوى التربوى :

ويأتى السياق القرآنى فى الحديث عن نضوج موسى وبلوغ القوة فى الجسم والعقل ، واستحقاق اصطفاء الله له ، واختياره له بإتيانه حكما وعلما ، وختام الآية يشى بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم ، ودخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان ، أحدهما قبطى قال : إنه من حاشية فرعون ، ويقال : إنه طباخ بالقصر ، والآخر إسرائيلى ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجدًا به على عدوهما القبطى ، وهذا لايقع إلا إذا كان الإسرائيلى على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بنى إسرائيل ، وأنه ناقم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين ، وكانت عنده حمية المؤمن عندما يرى الظلم فتحركت هذه الحمية

فوكز المصرى فقضى عليه ، وهو لم يقصد ذلك فأرجع الغواية للشيطان، واستغفر ربه، وكانت الاستجابة الربانية لدعاء المحسنين .

يقول صاحب الظلال : « وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز فى حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له ، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء فور الدعاء ، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى ، فبادر بشكر النعمة علمًا بأنه لن يكون معينا للظالمين حتى لو كان تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغى » .

من المشهد السابق نرى صفات للداعية إلى الله يجب أن تكون حتى يمضى فى دعوته منها؛ نفوره من الظلم والمنكر، وإرجاعه كل عمل سوء إلى الشيطان الذى يغوى بنى آدم ، ثم الإقرار بالذنب والاعتراف به ، ثم المبادرة بالاستغفار إلى الله ، والإخلاص فيه بإعلان تبرئه من سلوك الظالمين وعدم السير فى ركابهم .

تبدو فى شخصية نبى الله موسى ﷺ السمة الانفعالية ، فكان فى حالة قلق يتوقع الشر ويتوجسه ، والشخص الذى استصرخه قبل ذلك استصرخه مرة أخرى فى اليوم التالى ، فلم يتمالك موسى ﷺ نفسه عندما رأى الظلم فاشيا ، وهذا التجاوز فى الغضب يقع عند شيوع الطغيان .

ويقول صاحب الظلال : « وإنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ، ويفسد الفطرة العامة ، حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغى ، فلا تجيش نفوسهم لدفعه ، بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ، ويقاوم ، ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره ﴿ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كما قال القبطى لموسى ؛ ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ؛ حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هذا هو الفضل ، وأن هذا هو الأدب ، وأن هذا هو الخلق : وأن هذا هو الصلاح فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن نفسه ، فيحطم السياج الذى أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التى يقوم عليها ، إذا رأوا مظلوما يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا ، وسموا هذا المظلوم الذى يدفع الظلم سفاكا أو جبارًا ، وصبوا عليه لومهم ونقمتهم ، ولم ينل الظالم الطاغى من نقمتهم ولومهم إلا القليل » .

ولقد طال الظلم ببنى إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى ﷺ حتى رأيناه يندفع فى المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع فى المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذى هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه بل رعاه واستجاب له ، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حدًا فى الاحتمال ، وأن الظلم حين يشتد ، وتغلق أبواب النصفة ، يندفع المضطهد إلى الهجوم والاقتحام .

يقول صاحب الظلال : « وهذه هى العبرة التى تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاها ، فهو لا يبرر الفعلة ، ولكنه كذلك لا يضخمها ، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية ، وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله ، أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التى قضاها ، حيث لا تجدى تلك الاشتباكات الفردية الجانبية فى تغيير الأوضاع » .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى ، فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الثانى واجهه هذا بالتهمة .

ويقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ : « تلهم الآية أن موسى كان قد اتخذ له فى الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغى والتجبر ، فهذا القبطى يذكره بذلك ، ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه » .

ثم تحوط العناية الربانية نبى الله موسى ﷺ بتسخير رجل مؤمن ـ على الراجح يحذر موسى من ترصد ملأ فرعون له ، فخرج خائفاً يدعو ربه أن ينجيه من الظالمين ، وهنا نلحظ قوة الإيمان، فإن الإيمان ملأ قلبه ودفعه لينصح موسى ، وقد أصبح مقصد الملأ من حاشية فرعون ، وأبى أن يكونفى موقف الكثرة المتفرجة.

وكان موقف موسى من خروجه خوفاً من فرعون وملئه موافقا لطبيعته الانفعالية ، ونلمح فى ذلك التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته والالتجاء إلى حماه فى المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحكمة والعلم معيار للتفاضل بين الأشخاص ، وأن من أوتى الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا .

٢ ـ مواجهة المحن والشدائد بالاستغفار لله .

٣ ـ الشجاعة فى مواجهة الظلم والمنكر .

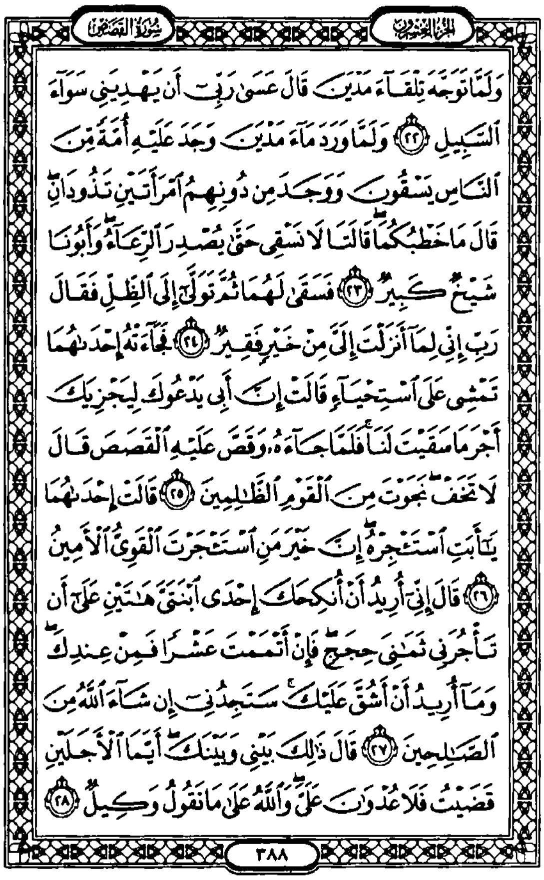
الجزء العشرون — سورة القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

معانى الكلمات :

ورد : أتياء

تذودان : تكفان أغنامهما ، وتمنعانها من الماء .

يصدر الرعاء : ينصرف الرعاة .

حجج : سنين .

أشق : أصعب .

وكيل : شاهد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الحياء والعفة .

٢ ـ أن يعلم المؤمن جوانب من العظات من قصة موسى مع شيخ مدين وابنتيه .

٣ ـ أن يسلك المؤمن سبل العفة فى كل أعماله وأقواله .

المحتوى التربوى :

ولا يزال الدعاء والتضرع سلاح موسى عليه السلام وقد خرج خائفًا فى الطرق الصحراوية ، فى اتجاه مدين فى جنوبى الشام وشمال الحجاز ، مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ، ولم ولم يتخذ دليلا ، ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه مستسلمة له ، متطلعة إلى هداه ، ترجوه أن يهديها طريق النجاة .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين ، وصل إليه وهو مجهود مكدود ، وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى عليه السلام وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود

الماء ، والأولى عند ذوى المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف المنكر المخالف للمعروف ، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾..

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود ، إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال ، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى عليه السلام وفطرته السليمة ، فتقدم لإقرار الأمر فى نصابه ، تقدم ليسقى للمرأتين أولاً ، كما ينبغى أن يفعل الرجال ذوو الشهامة ، وهو غريب فى أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير ، وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد ، وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون ، ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعى المروءة والنجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعى الذى نعرفه النفوس : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

مما يشهد بنبل هذه النفس التى صنعت على عين الله ، كما يشى بقوته التى ترهب حتى وهو إعياء السفر الطويل ، ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمة ، فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة اللأرواح والقلوب ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ ..

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفرة كانت فى ذلك القيظ والحر .

يقول صاحب الظلال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ : « إنه يأوى إلى الظل المادى البليل بجسمه ، يأوى إلى الظل العريض الممدود ، ظل الله الكريم المنان بروحه وقلبه ، رب إنى فى الهاجرة ، رب إنى فقير ، رب إنى وحيد ، رب إنى إلى فضلك ومنك وكرسك فقير محووج ، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن والركن الركين ، والظل الظليل نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق » .

واستمعت السماء للقلب الضارع الباكى ، وجاء فرج الله وغوثه بدعوة الشيخ الكبير ؛ ليأجره ثم تزوج ابنته وعمل عنده عشر سنوات ، وهذا المشهد على وجازته يشى بمعانٍ عميقة :

ـ خجل الفتاة وحياؤها ، ودعوة نبى الله موسى فى أقصر لفظ وأقل ، فالفتاة القويمة تستحى بنظرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكن لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب ، الاضطراب الذى يطمع ويغرى ويهيج إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

ـ إن حاجة الإنسان إلى الأمن قد تكون أشد من حاجة الجسم إلى الزاد ، فكانت كلمة ﴿ لَا تَخَفْ﴾ مبعث الطمأنينة والأمان .

ـ ثم رؤية الأنوثة المستقيمة السليمة للرجال فى طلبها من أبيها أن يستأجره ؛ حتى تظل عفيفة مستورة عن مزاحمة الرجال ، وكانت معايير اختيار الرجال الصالحين وهى القوة والأمانة ، والقوة من إفساح الرجال له وهو غريب ، والغريب ضعيف مهما اشتد ، والأمانة من عفة لسانه ونظره حين توجهت لدعوته .

ـ واستجابة الشيخ لابنته يشى بحسن التربية ، ولإحساسه بأن بينهما ميلا فطريا سليما يصلح لبناء أسرة سليمة، والقوة والأمانة حين تجتمعان فى رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة .

ـ فى عرض الرجل الصالح ابنته الصالحة على الرجل الصالح هدمًا لما يحدث فى المجتمعات التى تتنكب طريق الفطرة السليمة عندما يأبى الأب أن يعرض ابنته على الرجل الصالح ، ويُسمح للفتاة والفتى بالاختلاط والتحدث ، ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ .

ـ فى العقد الذى عرضه الشيخ الكبير على موسى بيان وعبرة لما يجب أن تكون مواضع العقد وشروط التعاقد فلا غموض ولا التواء ، وكان التساهل من طرف الشيخ فى قوله : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ ، وكان حسن الوفاء والقضاء كما جاء عن رسول الله : « قضى أكثرهما وأطيبهما » .

ـ لم يشهد على هذا العقد أحد من الناس وكل منهما قدم ما يضمن حق الآخر ، فقال الشيخ الكبير : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، وقال موسى عليه السلام : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

وما زلنا نلمح المعية الربانية التى تكتنف موسى عليه السلام بأن نجاه ربه من القوم الظالمين ، وسار إلى القوم الصالحين ، وتزوج وعمل وأمن معهم .

وقال صاحب الظلال : « وهكذا اطمأن بموسى عليه السلام المقام فى بيت حميه ، وقد أمن من فرعون وكيده ، ولحكمة مقدرة فى علم الله كان هذا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مساعدة الضعفاء فى المجتمع .

٢ ـ أن يكون الحياء خلق المؤمنين والمؤمنات .

٣ ـ الوضوح وعدم الغموض فى العقود بين المؤمنين ، والوفاء بها .

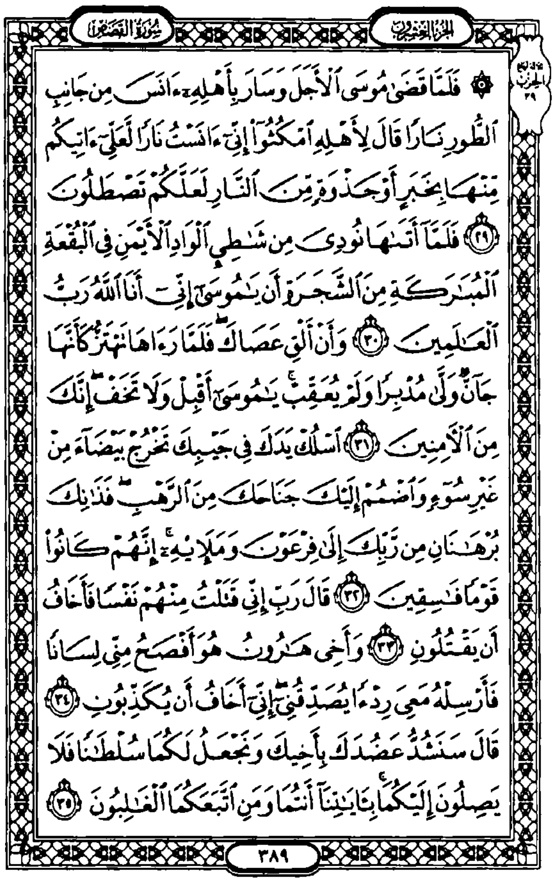

معانى الكلمات :

الأجل : المدة .

آنس : أبصر بوضوح .

جذوة من النار : عود فيه نار .

جان : نوع من الحيات .

مدبرا : انصرف هاربا .

لم يعقب : لم يلتفت .

ردءا : عونا .

سنشد عضدك : سنقويك ونعينك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة التكليف الربانى والتبعة فيه .

٢ ـ أن يعلم المؤمن جوانب من شأن الرسالة التى كلف بها موسى عليه السلام .

٣ ـ أن يستعين المسلم فى كل أموره بالله عز وجل .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات حلقة أخرى من قصة موسى وهى بعد ما قضى الأجل وعاد إلى مصر ، وفى طريق العودة تلقى التكليف بالرسالة ، ونلمح فى كل ما عايشه الكليم كيف صنعه الله على عينه ، وحياته خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب قبل النداء وقبل التكليف ، فلقى تجارب عديدة الرعاية والحب والاندفاع والغربة والجوع ، عاش فى حياة القصور وحياة الفقراء ، وما تخلل ذلك من تجارب صغيرة ، ومشاعر متباينة بجانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

يقول صاحب الظلال : « ونقف قليلاً أمام تدبير الله لموسى عليه السلام فى هذه السنوات العشر ، وفى هذه الرحلة ذهابًا وجيئة ، فى هذا الطريق .

لقد نقلت يد القدرة خطا موسى عليه السلام خطوة خطوة، منذ أن كان رضيعًا فى المهد حتى الحلقة، ألقت به فى اليم ليلتقطه آل فرعون ، وألقت عليه المحبة فى قلب امرأته لينشأ فى كنف عدوه ، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفسًا ، وأرسلت إليه الرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها ، وصاحبته فى الطريق الصحراوى من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر ، ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب ، قبل النداء وقبل التكليف .. تجربة الرعاية والحب والتدليل ، وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار ، وتجربة الخوف والمطاردة والفزع ، وتجربة الغربة والوحدة والجوع ، وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور ، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجرب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والادراك والمعرفة .. إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق فى واقع الحياة العملى ، إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير » .

كل ما سبق كان تمهيدًا للمهمة الكبرى والشاقة التى كلف بها ، ولأنها أشق رسالة تلقاها بشر ـ عدا رسالة محمد ﷺ ،لأنه مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا كؤوس الذل حتى استمرؤوا مذاقه ، مرسل إلى قوم لهم عقيدة قويمة ، انحرفوا عنها ، مرسل لإعادة بناء أمة ، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلا ، له حياة خاصة ، تحكمها رسالة ، وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

يقول صاحب الظلال عن تجربة العشر سنوات : « جاءت لتفصل بين حياة القصور التى نشأ فيها موسى عليه السلام ، وحياة الجهد الشاق فى الدعوة وتكاليفها العسيرة، ولحياة القصور جو خاص، وتقاليد خاصة مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية ، والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغنى والفقير ، كما أن للرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد ، وقلوب أهل القصور ـ مهما تكن مستعدة للتضحية لا تصبر طويلا على المشقة والحرمان والثقة عند معاناتها فى واقع الحياة ، فشاءت القدرة أن تزج بموسى عليه السلام فى مجتمع الدعاة ، وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم ».

كانت رحلة العودة مرحلة جديدة فنزل عليه التكليف الربانى ، ويلمح خوف رب الأهل عليهم ، فعندما أبصر النار خاف على أهله ، وذهب ليأتى بعود فيه نار يستدفئون به ، وعندما ذهب لم يجد نارًا بل نورًا إلهيا ، كان النداء الإلهى بإثبات الألوهية ؛ لأنها أول كلمات الرسالة السماوية .

بالرغم من الخوف المسيطر على موسى ﷺ إلا أنه أطاع أمر مولاه فى إلقاء العصا ، وفى إخراج يده التى أصبحت بيضاء لامعة مشعة من غير مرض بالرغم من أنه ﷺ كان أسمر اللون، وهاتان المعجزتان سلاحه أمام فرعون لإقناعه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ يزيد فى اطمئنان موسى ﷺ بربه ، وأن الله منجز له وعده ، وقد قاله شيخ مدين له الذى حكاه القرآن عنه : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وهنا يخاف موسى على الرسالة أن تقف بذنب ارتكبه موسى ، يقول ذلك لا ليعتذر ، ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ، ولكن ليحتاط للدعوة .

ثم يستمر القص القرآنى الرائع لهذه القصة فى طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه هارون؛ لأنه أفصح لسانا ، وهو ردء له ومعين ، يقوى دعواه ، ويخلفه إن قتلوه ، وهنا نلحظ خوف المؤمن على الدعوة ، وفضل الناصر والمعين فى طريق الرسالات ، ومن جهة أخرى نلحظ أن الدعوة كانت بفردين لا بكثرة كاثرة .

وهنا تأتى الاستجابة الإلهية وزيدت عليها البشارة والتطمين ، فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار ، وإنما يذهبان إليه مزودين بسلطان من الله فلن يصل إليهما الظالمون ، ولا تقف البشارة عند هذا الحد ، ولكنها الغلبة للحق ، الغلبة لآيات الله التى يجابهان بها الطغاة ، فإذا هى وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة ، فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ، وتؤدى دوراً مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى والقيم ، إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرص رب البيت على أهله وحدبه عليهم .

٢ ـ طاعة المسلم لأوامر الله ، والثقة بوعده عز وجل .

٣ ـ اعتراف الداعية بقدراته الحقيقية .

٤ ـ اللجوء والتضرع إلى الله فى كل وقت .

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ
لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ
لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا
لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي
ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

معانى الكلمات :

مفترى : مكذوب مختلق .

صرحاً : قصراً عظيما .

أطلع : أرى .

المقبوحين : المبعدين أو المشوهين .

بصائر للناس : شواهد صدق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بسوء عاقبة الظلم والاستكبار .

٢ ـ أن يعلم المؤمن جزاء وعاقبة الظالمين .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى العبادات والدعوة إلى الله ؛ ليكون من أئمة الخير .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات موقف المكذبين من فرعون وملئه ، وتعجل بالضربة القاضية لهم ، ويختصر حديث السحرة الذى ذكر فى آيات أخرى ، وقالوا عن حديث موسى : سحر مختلق ، وأنهم لم يسمعوا من آبائهم هذا الأقوال ، فالمكذب هنا لا يناقش بالحجة ولا يدلى ببرهان ، وهذا تسلية للرسول ﷺ فهو نفى رد المشركين عليه ، أما موقف الداعية موسى فإنه يحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله ، فالاختصار أولى والإعراض أكرم ، فهو رد مهذب للداعية يلمح فيه الثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل .

ويأتى رد الظالمين البعيد عن الإقناع بل رد ملؤه الادعاء والتطاول والمداورة والاستكبار والصلف والتهكم فيرد عدو الله فرعون بأنه لا يعلم إلهاً غير نفسه ، وكان يعتمد على الموروثات

من نسبة الألوهية للملوك ، ثم يتظاهر الكاذب بالجد فى معرفة الحقيقة والبحث عن إله موسى، وفى خلال ذلك يلهو ويسخر ويكذب .

يتهكم فيتظاهر بأن شاك فى صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة ، واستكبر فرعون ، واستكبر جنوده مفسدين فى الأرض بغير حق ، وذلك لما توهموا عدم الرجعة إلى الله ، وأنكروا البعث والنشور .

وكان النهاية عظة وعبرة للمعتبرين ، فاليم الذى كان نجاة ومأمنا لموسى كان هلاكا لفرعون وملئه ، وهى عاقبة مشهودة معروضة للعالمين ، هذه هى عقوبة الدنيا أما عقوبة الآخرة أنهم غير منصورين بل مهانين يوم الحشر ، وتستمر العقوبات باستمرار اللفتة عليهم إلى يوم القيامة جزاء تطاولهم واستكبارهم وادعاء فرعون الألوهية .

وفى لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ، ويقف بفرعون وجنوده فى مشهد عجيب .. يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار ، فيابئساها دعوة ، ويابئساها إمامة ! ، فما هى إلا الهزيمة فى الدنيا ، وهى الهزيمة فى الآخرة ، جزاء البغى والاستطالة ، وليست الهزيمة وحدها ، إنما هى اللعنة فى هذه الأرض ، والتقبيح فى يوم القيامة .

يقول صاحب الظلال فى تناوله للفظة ﴿ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ : « ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقزز والاشمئزاز ، ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض وفتنة الناس بالمظهر والجاه ، والتطاول على الله وعلى عباد الله » .

والصورة المقابلة هى الدعاة إلى الله الذين يهتدى بهم من شُرح صدره للإيمان ، فأعمالهم تنمو وتربو عند الله بكل نصيحة أسدرها ، وكل صدقة جارية أنفقوها ، ووراء ذلك أن أجورهم عند الله يوفيهم إياها يوم القيامة ، فهم أئمة الخير فى الدنيا وهم معروفون يوم القيامة ، وينادون للدخول من أبواب الجنة .

ثم تأتى الآيات لتعرض نصيب موسى ، وهو نصيب عظيم ، وهذه عاقبة موسى وهى عاقبة كريمة ، كتاب من الله يبصر الناس كأنه بصائرهم التى بها يهتدون .

توضح الآيات أن كتب الله التى أنزلها لعباده هى طريق رشدهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، ففيها العبرة والعظة ، ويتذكر مصير الأمم السابقة التى عتت عن أمر ربها ، كما أن كتب الله هدى للفئة المؤمنة تنير لهم الطريق ، وهى لمسة الحنو على الدعاة حين يواجهون الطغاة والمعاندين .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى المعجزة الكبرى القرآن :

« انتهى أمر فرعون بهذا الاغراق ، ولكنه لما أوشك على الغرق جاء إليه الإيمان متأخرا ، فكانت المعجزة أن الله أبقاه مثلا للآخرين وأن الله سبحانه يقول مفصلا مهلكه من غير تكرار ، وأن ذكر المقدمات مفصلا ، قال سبحانه : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ

بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (يونس) .

انتهى فرعون ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائما يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه فى طغيانه ، ويمالئونه فى عدوانه ، وينصرونه ، والشعب لا يذكر فى مقام المناصرة لفرعون .

وثانيها : أن الذين آمنوا من الشعب عدد لا يكون كثرة تهز ملك فرعون وإذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى ، وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم أن خالفوا الحق نافق منهم من ينافق، وتملق من يتملق، والشعب وقف موقف النظارة، ولذلك كانت الهجرة إذ قل النصير المؤيد ، وكثر العدو المناهض .

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تتصل بمصر الزراعية كما ذكر فى سورة الأعراف ، ولقد ذكر فى السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كما ذكرت فى غيره العصا والسحرة ، وكررت لأنها المعجزة الكبرى التى تحدى بها ، كما كان القرآن الكريم يذكر كثيرا فى القرآن لأنه المعجزة الكبرى التى جاء بها محمد ﷺ » .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تنتهى قصة موسى وفرعون فى هذه السورة شاهدة بأن الأمن لايكون إلا فى جانب الله ، وأن المخافة لا تكون إلا فى البعد عن الله ، ذلك إلى تدخل يد القدرة سافرة متحدية للطغيان والطغاة ، حين تصبح القوة فتنة يعجز عن صداها الهداة .

وهى المعانى التى كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى الاطمئنان إليها ، وكان المشركون المستكبرون فى حاجة إلى تدبرها ، وهى المعانى المتجددة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى ، وحيثما كان طغيان يقف فى وجه الهدى .

وهكذا يجىء القصص فى القرآن مادة تربية للنفوس ، وتقرير لحقائق وسنن فى الوجود » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الصبر على كل ما يواجه المؤمن فى طريقه .

٢ ـ أخذ العظة والعبرة من هلاك الطغاة والظالمين .

٣ ـ رد كل الأمور إلى الله الذى بيده الأمر كله .

٤ ـ الاسترشاد بهدى كتب الله عز وجل ، ووجوب مدارسة القرآن وتدبره .

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

٣٩١

معانى الكلمات :

قضينا : عهدنا

جانب الغربى : المكان الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام .

قرونًا : أممًا وأجيالاً .

العمر : طالت الفترة الزمنية بينهم وبين رسالة موسى .

ثاويا : مقيما

أهواءهم : ميولهم ورغباتهم .

تظاهرا : تعاونا

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ – أن يشعر المؤمن بقيمة إرسال الله للرسل والأنبياء .

٢ – أن يعرف المؤمن موقف الكفار من الأنبياء ووجوه التكذيب .

٣ – أن يصبر المؤمن فى دعوته على المعاندين .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات دلائل صدق نبوة الرسول محمد ﷺ فى أن الله أعلم نبيه بقصص الأنبياء ومنها قصة موسى عليه السلام بنزول التوراة عليه فى الجانب الغربى من جبل الطور ، وقصة مكوثه فى أهل مدين ، وهذه الآيات وما فيها من قصص رحمة للمؤمنين ، ودليل إعجاز للقرآن الكريم ، وهى تخويف بالعذاب للكافرين ليروا عاقبة الظلم والعتو والصد عن سبيل الله .

ويقول **صاحب الظلال :** « فهى رحمة الله بالقوم ، وهى حجته كذلك عليهم ، كى لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم ـ وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب ـ فأراد الله أن يقطع حجتهم ـ وأن يعذر إليهم ، وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان » .

ورحمة الله بعباده تمثل جانبا أساسيا من تصور حقيقة الألوهية وعلاقة العباد بها ، فرحمة الله تفيض على عباده جميعا ، وتسعهم جميعا ، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم ، وهى تتجلى فى كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات ، فأما فى حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها فى كل مواضعها ومظاهرها .

يقول **صاحب الظلال** : « إن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب لقلب المؤمن فيتصل به ويعرفه ، ويطمئن إليه ـ سبحانه ـ ويأمن فى كنفه ، ويستروح فى ظله .. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها ، فضلا على وصفها والتعبير عنها ..

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب فى قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه ـ حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التى تزيغ فيها القلوب والأبصار ـ فهو يستقين أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه ، أو طرده من رحمته ، فإن الله لا يطرد من رحمته أحدًا يرجوها ، إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها » .

وتستمر الآيات فى توضيح منهاج الدعوة للمؤمنين والتحذير من المشركين ، وكان ديدنهم أنهم عندما كانوا يستشعرون نزول المصائب ، فيلجؤون إلى الله ضارعين بأنهم سيتبعون الرسل إذا جاؤوا إليهم ، ولكن لخبث نفوسهم يكذبون ويعرضون ، وقد جاءهم الرسول محمد بالآيات واستمر العناد والصلف ، وتستمر المحاجة مطلبهم أن تكون الرسالة مثل رسالة موسى ، كان الرد عليهم أن المشركين من قبل كذبوا بموسى وأخيه ، وقالوا : إنهما ساحران ، وكفروا والكفار فى عهد الرسول مثل الكفار فى أى وقت ينكرون الحق من أجل الحفاظ على مصالحهم الدنيوية ، ويعتبرون كتب الله كالتوراة والقرآن سحراً .

وهكذا لم يذعنوا للحق واستمسكوا بالتعلات الباطنة ، وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى من الخوارق المادية أو الألواح التى نزلت عليه جملة وفيها التوراة كاملة ، ولكنهم لم يكونوا صادقين فى حجتهم ولا مخلصين فى اعتراضهم .

وتتابع الآيات بتحدى الكافرين ومحاجتهم ، بأن يأتوا بكتاب مثل القرآن والتوراة ، وهذا هو التحدى ، والمحاجة فى أنه لو أتوا بهذا الكتاب سيتبعه الرسول ، ويقول **صاحب الظلال** :« وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر الذى لا يستند إلى دليل » .

فى الآيات تنبيه للدعاة أن يلتزموا القرآن تدبراً ومدارسة ، وأن يطبقوه فى حياتهم ، وأن يتحدوا به أمم الأرض ، لأنه الإعجاز المطلق من عند الله ، والزيغ عن القرآن تخبط وانحراف عن طريق الحق ، وإن من ينحرف عن القرآن فقد اتبع هواه .

يقول صاحب الظلال : « إن الحق فى هذا القرآن لبين ، وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد بعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذى يصده ، وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص للحق ، وخلوص من الهوى ، وعندئذ لابد من الإيمان والتسليم ، وإما مماراة فى الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق ، ولا حجة من غموض فى العقيدة ، أو ضعف فى الحجة ، أو نقص فى الدليل ، كما يدعى أصحاب الهوى المعرضون » .

فإن لم يستجيبوا للإيمان ، هكذا جزما وقطعا كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها ، إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين مغرضون غير معذورين ، متجنون لا حجة لهم ولا معذرة متبعون للهوى معرضون عن الحق الواضح .

وحين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقشع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعلت منه إلها يعبد ويطاع .

والله سبحانه يخاطب عبده فى رفق ومودة وإيناس فى أمر هذا النموذج من الناس ، ويرسم له هذه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذى لا جدوى من المنطق معه، ولا وزن للحجة، ولا قيمة للحقيقة ؛ ليطيب خاطره من مرارة الإخفاق فى هدايته ، فهو غير قابل للهدى .

ويخطو السياق خطوة أخرى فى تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة .

وتشير الآيات لمفهوم الظلم ، ومعنى الظلم وضع الأمر فى غير محله ، فالكفار ظلموا أنفسهم واتبعوا الهوى المضل، وأعرضوا عن القرآن بما فيه من بشرى وهدى ورحمة لمن آمن بالله .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ولم يحيطوا علما بهذا الدين ، فما هو إلا أن يصل إليهم ويعرض عليهم حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة ، فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ، ولا يستحق هدى الله ، ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ استشعار نعمة الله علينا بإرساله أنبياء يهدون الناس إلى سبيل الرشاد .

٢ ـ أن يتحلى المسلم بفضيلة الصبر فى كل أحواله ومواقفه .

٣ ـ الحذر من اتباع الهوى وضلالات النفس .

٤ ـ أن يستلهم المؤمن العظات والعبر من القرآن دائما .

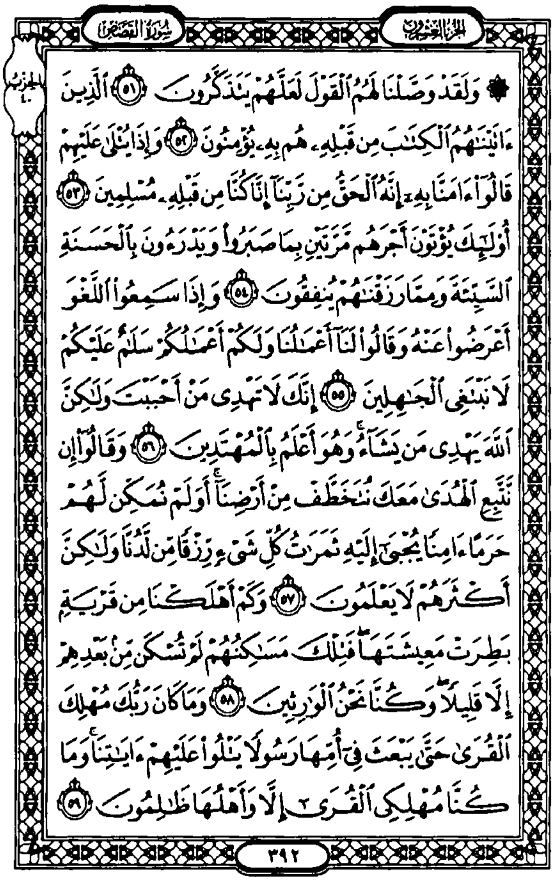
الجزء ٢٠ — سورة القصص

۞ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (٥١) الذين
آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون (٥٢) وإذا يتلى عليهم
قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين (٥٣)
أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة
السيئة ومما رزقناهم ينفقون (٥٤) وإذا سمعوا اللغو
أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم
لا نبتغي الجاهلين (٥٥) إنك لا تهدي من أحببت ولكن
الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (٥٦) وقالوا إن
نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم
حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن
أكثرهم لا يعلمون (٥٧) وكم أهلكنا من قرية
بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم
إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٥٨) وما كان ربك مهلك
القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما
كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (٥٩)

٣٩٢

معانى الكلمات :

وصلنا لهم القول : أنزلنا القرآن متتابعاً .

يدرؤون : يردون .

أعرضوا عنه : لم يلتفتوا إليه .

لا نبتغى الجاهلين : لا نريد مخالطتهم .

نتخطف : نُخرج .

لم تسكن : بقيت خالية .

أمها : أصلها وعاصمتها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يحس المؤمن بقيمة الأخلاق الطيبة وأثرها فى الدعوة .

٢ ـ أن يعرف المؤمن بعض الصفات الواجب توافرها فى المؤمنين .

٣ ـ أن يتجنب المسلم أماكن اللهو واللغو .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات صورة مقابلة لصورة اعوجاج الفطرة رغم تتابع الرسل ، تعرض صورة من استقامة الطبع وخلوص النية ، وهم الذين آمنوا بالكتاب ، وآمنوا بأن الرسول هو الحق ؛ ذلك لأن أنفسهم قد طهرت من الخبث ، وغدوا مستحقين لتنزلات وفيوضات الرحمن ، فهو فضل الله ، وهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته ، فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذى لا يكذب ، والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين .

هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه يؤتون أجرهم مرتين بفضل صبرهم على الإسلام ، إسلام القلب والوجه ، ومغالبة الهوى والشهوة ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف ، وهؤلاء صبوا عليها جميعا ، وصبروا على السخرية والإيذاء ، وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم فى المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة فى كل زمان ومكان .

ثم زاد هؤلاء درجة فوق الصبر ، وهى الاستعلاء على كبرياء النفس وحب الانتقام وهى درجة السماحة الراضية ، وهى رد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ، وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه ، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين .

ويذكر السياق سماحة نفوسهم بالمال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان ، وهما من منبع واحد : منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض ، الأولى فى النفس ، والثانية فى المال ، وكثيرًا ما يردان متلازمين فلا القرآن .

وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة ، فهى قلوب مؤمنة لا تغلو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذلك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء ، ولا يدخلون مع أهل اللغو فى جدل حوله ، لأن الجدلمع أهل اللغو لغو ، إنما يشركونهم فى موادعة وسلام ، هكذا فى أدب ، وفى دعاء بالخير ، وفى رغبة فى الهداية مع عدم الرغبة فى المشاركة .

يقول صاحب الظلال : « إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها تفيض بالترفع عن اللغو ، كما تفيض بالسماحة والود ، وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحاً لا لبس فيه ، فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم ، إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء » .

ثم تلفت الآيات الانتباه إلى دور الداعين ، ودورهم هو النصيحة ، والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد ، واستعدادهم للهدى والضلال، وهذا مما يخفف العبء على الدعاة فإن إبلاغ الدعوة هو مهمتهم والهداية تكون من الله ، وأبو طالب عم الرسول ﷺ لم يسلم رغم استمرار دعوة الرسول له .

ويأتى السياق إلى قولتهم التى قالوها معتذرين عن أتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التى تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل ، فيبين لهم أين يكون الأمن ، وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخى ، ومن حاضرهم الذى يشهدونه.

يقول صاحب الظلال : « إنها النظرة السطحية القريبة ، والتصور الأرضى المحدود ، وهو الذى أوحى لقريش ، وهو الذى يوحى للناس أن أتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغرى بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار ».

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس ، وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامى ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم فى حمى الله ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذ خذلهم الله ، ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، تقديرهم للأمور ، أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا فى البعد عن هداه، وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة.

وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة ففى نهاية المطاف ، بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة ، أمانة الخلافة فى الأرض وتصريف الحياة » .

وتوجه الآيات النظر إلى الاعتبار من هلاك الأمم ، فالأمم التى آمنت واستقامت كتب لها النصر والتمكين ، والأمم التى كذبت وجحدت نعمة ربها أهلكها الله بعذاب من عند الله ، وخلت بيوتهم من ساكنيها ،وفى ذلك خطاب لمن يخاف من الفرد والإخراج من الأرض إن آمن .

إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها هو سبب هلاك القرى ، وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ، فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقوى التى يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية ، لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وبقيت شاخصة تتحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قصة البطر بالنعمة ، وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدًا ، ولم يرثها بعدهم أحد .

وهنا يظهر العدل الإلهى فى أن الله عز وجل لم يهلك أمة من الأمم إلا بعد إرسال الرسول إليهم ، ويأتى هذا الإهلاك بعد تكذيبهم وإعراضهم ، وهذا يقتضى من المؤمن أن يسرع فى طريق الدعاة ، وليواصل مهمة الرسل والأنبياء ولا يتسرع فى الحكم على الناس بل يتروى ، ويثبت قبل إصدار الحكم على المدعوين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحلى بمحاسن الأخلاق من الصبر ، والعفو .

٢ ـ البعد عن أماكن اللهو وتجنب السفهاء وعدم الخوض مع ضلالتهم .

٣ ـ الثقة فى نصر الله للمؤمنين ، وبث هذه الثقة فى المؤمنين .

٤ ـ الاعتبار والاتعاظ من هلاك الأمم السابقة .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

معانى الكلمات :

حق عليهم القول: وجب عليهم العذاب .

أغويناهم : ضللناهم .

عميت عليهم الأنباء : خفيت عليهم الإجابة .

الخيرة : الاختيار

ما تكن : ما تخفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة ثواب الله للمؤمنين .

٢ ـ أن يعلم المؤمن بعض مشاهد يوم القيامة .

٣ ـ أن يبادر المؤمن بالتوبة لله عز وجل .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات إقناع الكفار بعدم الاغترار بالحياة الدنيا ، وأن ما فى الأرض كله إن هو إلا شىء زهيد إذا قيس بما عند الله ، وهذا هو التقويم الأخير ، لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ، ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ، ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده ، إنما هو التقويم الأخير لكل ما فى هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ ، وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار ، إنه كله متاع هذه الحياة وزينتها ، والذى عند الله خير وأبقى خير فى طبيعته وأبقى فى مدته ، والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك ، ومن ثم يجىء التعقيب فى هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل فى الاختيار .

وتوضح الآيات أن الثقة يوعد الله من أعلى درجات الإيمان ، أما الجاحد والمنكر لوعد الله ينتظره عذاب أليم ، والثقة بهذا الوعد تستلزم الصبر وتحمل التكاليف الربانية وإقامة الشعائر ، والجهاد فى سبيله .

يقول صاحب الظلال : « وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتى الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار .. فهذه صفحة من وعده الله وعدًا حسنا فوجده فى الآخرة حقا وهو لا بد لاقيه ، وهذه صفحة من نال متاع الدنيا القصير الزهيد،ثم ها هو ذا فى الآخرة محضر إحضارًا للحساب، والتعبير يوحى بالإكراه ﴿ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد .

وتلك نهاية المطاف فى الرد على مقالتهم :﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ فحتى لو كان ذلك كذلك فو خير من أن يكونوا فى الآخرة من المحضرين ، فكيف واتباع هدى الله معه الأمن فى الدنيا والتمكين ، ومعه العطاء فى الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لايترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى فى هذا الكون ولا يعرفون أين تكون المخافة ، وأين يكون الأمن ، وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار ولأنفسهم ولا يتقون البوار » .

ثم تسوق الآيات مشهد الكفار يوم القيامة ، والتوبيخ لهم باتخاذهم معبوداً من دون الله ، والله يعلم ألا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا ، ولا يستطيعون إليهم سبيلا ، ولكنه الخزى والفضيحة على رؤوس الأشهاد .

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ، إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصدهم عن هدى الله ، ولا يتعللون إلا باتباعهم لرؤوس الكفران أنهم أقروا بأنهم لم يعقلوا فى اتباعهم الهوى والكفر ورؤوس الكفر ، ويتبرأ رؤوس الكفر من التابعين لهم ، ربنا إننا لم نغوهم قسرًا ، فما كان لنا سلطان على قلوبهم ، إنما هم وقعوا فى الغواية عن رضى منهم واختيار ، كما وقعنا نحن فى الغواية دون إجبار ، ويتبرؤون من جريمة إغوائهم ، إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقا من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا لإلينا نحن بالعبادة ، ويقال لهم ادعوا شركاءكم ولا تهربوا عن سيرتهم ، ادعوهم لينقذوكم ، ومن إذلالهم عدم الاستجابة ، والعذاب ماثل أمامهم وهكذا لا ينفع فى هذا اليوم إلا من صدق مع الله وأحسن الظن بالله ، ووثق بوعد الله .

وهنا تظهر صورتان متقابلتان ، صورة الكفار فى صورة الذل والهوان يوم القيامة ، وقد أجبروا أن ينادوا آلهتهم المزعومة لتنجدهم وأريد بذلك إعناتهم وإذلالهم ، ثم يسألهم الله كيف

كانت إجابتهم المرسلين ، والله يعلم وهو تقرير لفداحة ذنوبهم ، ثم كان الجزاء الأليم جزاء الصد والاستكبار .

ثم تأتى صورة مقابلة لمن تاب من اتباع الكافرين ، وعمل صالحًا ، واتبع طريق الله ، وبعد عن طريق الصلف والصد والاستكبار فهو من المفلحين الناجين ، وفى ذلك رحمة من الله بعباده .

ثم تأتى الآيات بالحقيقة التى لو تذكرها الخلق دائمًا لاستقامة الحياة ، وهى حقيقة أن الله يخلق ما يشاء ، وليس لأحد من خلقه أن يبدل أو يغير .

ويقول صاحب الظلال فى ذلك : « إنها الحقيقة التى كثيرًا ما ينساها الناس أو ينسون بعض جوانبها ، إن الله يخلق ما يشاء ، لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئًا ، ولا أن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئًا ، ولا أن يعدل أو يبدل فى خلقه شيئًا ، وإنه هو الذى يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لمن يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ، ولا يملك أحدٌ أن يقترح عليه شخصًا ولا حادثًا ولا حركة ولا قوة ، ولا فعلاً .

هذه الحقيقة لو استقرت فى الأخلاد والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شىء ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شىء يفوتهم أو يفلت منهم ، فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذى يختار ، وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم ونشاطهم ، ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع ، بعد أن يبذلوا ما فى وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار بالرضا والتسليم والقبول ، فإن عليهم ما فى وسعهم ، والأمر بعد ذلك لله ».

وتأتى الآيات إلى التذكير بقيمة العبودية والاستسلام لله والخضوع له ، وبالإيمان بأن كل ما فى الوجود لله عز وجل فلا شريك له فى خلق ولا اختيار ، ويعقب الاستسلام لله والانقياد له مقتضى العبودية لله وهو حمد الله على نعمه وآلائه ، وهو يقضى بين عباده لا راد له ولا مبدل لحكمه ، وإليه البعث والرجوع فيقضى بين عباده قضاءه الأخير ، فى هذا كله إقامة حجة جديدة على وجوب الدخول فى الإسلام ، وترك المغلات المبعدة من الدخول فيه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الثقة بوعد الله عز وجل ، وأن يخلص المسلم فى العبادة لله .

٢ ـ بث الأمل فى نفوس الناس بأن باب التوبة مفتوح لكل عبد مهما كانت ذنوب العبد .

٣ ـ استحضار موقف يوم القيامة ، وموقف الكفار وموقف المؤمنين .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ
عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ
﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

معانى الكلمات :

سرمداً : دائماً .

لتسكنوا : لتستريحوا .

لتبتغوا من فضله : لتطلبوا الرزق .

برهانكم : حجتكم .

بغى عليهم : تكبر عليهم .

لتنوء : تميل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الوسطية والاعتدال .

٢ ـ أن يعلم المؤمن سبب إهلاك قارون .

٣ ـ أن يستعمل المسلم المال ونعم الله الأخرى ؛ لما فيه صلاحه واستقامته .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات بالظواهر الكونية الماثلة أمام أعين الكافرين لتقيم الحجة عليهم ، وتبث فيهم قيمة التفكر والاعتبار فى الكون ؛ لأن الناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون حدتها المتكررة التى لا تبلى .

ويقول صاحب الظلال : « والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملى الكون من حولهم ومشاهده العظيمة وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدًا أو النهار أبدًا وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك ، وما يشعر الإنسان بقيمة الشىء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان ».

يظهر قبح الكفر فيمن يعيش فى نعم الله ، ويتقلب فى رحمته فخلف له الليل نسكن فيه ونستريح من مشقة العمل، وخلق له النهار ليكتسب فيه الرزق ، وهذا يقتضى من العبد أن يشكر نعمة الله علينا باللسان والجوارح .

وتسوق الآيات مشهدًا من مشاهد يوم القيامة ، وهو مشهد النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء وتأنيب وتوبيخ الكافرين الذين تغافلوا عن نعم الله فى الكون ، وفق هذا المشهد العدل الإلهى بإقرار الكافرين بذنوبهم وآثامهم .

وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، يعاد هنا لتوكيده ، وتثبيته على مشهد نزع شهيد من كل أمة ، وهو نبيها الذى يشهد بما أجابته ، وما استقبلت به رسالته ، والنزع حركة شديدة ، والمقصود إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا ، وليشهد قومه جميعا ، وفى مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا ، وليس لديهم برهان ، ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة ، فقد علموا أن الحق كله لله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة ، وضل الشرك والشركاء وما كانوا يفترون، فما هو بواجدهم ، وما هم بواجديه فى وقت حاجتهم إليهم.

ثم تأتى قصة أخرى هى قصة قارون وهى تعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهى بالبوار مع البغى والبطر ، والاستكبار على الخلق ، وجحود نعمة الخالق ، وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ، مع الاعتدال والتوازن فى الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو ولا فساد .

قال صاحب الأساس : « وهكذا أقام الله الحجة على توحيده وكمال علمه وكمال حكمته وكمال إنعامه وأن يجب له الحمد والشكر ، وأن له الحكم وفى ذلك حجة جديدة على من لم يهتد أو يضع التعلات للفرار من الإسلام » .

قصة قارون هى نموذج لتوضيح دور المال فى الحياة ، فطغاة المال عندما يؤتون المال يظلمون به الناس ، ويبغون عليهم بحرمان الأجراء من أجرهم ، وحرمان الفقراء من حقهم ويستأثرون بهذا المال ، ويدفعهم هذا إلى سلوك كل ذريعة للمحافظة عليه من احتكار وغصب ، والمفاخرة مما يكسر قلوب الفقراء .

لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرًا ، يصور كثرته بأنه كنوز ـ والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول ـ وبأن مفاتح هذه الكنوز تعين المجموعة من أقوياء الرجال ، ومن أجل هذا بغى قارون على قومه ، ولا يذكر فيم البغى ؛ ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور ، فربما عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم ـ كما يصنع طغاة المال فى كثير من الأحيان ـ وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم فى ذلك المال ، حق الفقراء فى أموال

الأغنياء ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شىء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة ، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب .

لكن فى كل وقت يظهر فيه فساد أو انحراف لابد أن توجد فئة تنبه الظالم ، وتوجه إليه كلمة الحق لترده عن هذا البغى ، وتوجهه إلى النهج القويم للتصرف فى هذا الثراء ، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ، ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ، وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب .

ويأتى النص القرآنى ليعرض الوسطية والاعتدال فى المنهج الإلهى القويم المنهج الذى يعلق قلب صاحب المال بالآخرة ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة، بل يحضه على هذا، ويكلفه إياه تكليفًا ، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها .

يقول صاحب الظلال : « لقد خلق الله طيبات الحياة ؛ ليتمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق علاقة الإنسان فى هذه الأرض ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع من تكاليفها ، والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم » .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التى لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

وهذا المال هبة من الله وإحسان، فليقابل بالإحسان فيه ، إحسان التقبل ، وإحسان التصرف، والإحسان به إلى اخلق وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران .

﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفساد بالبغى والظلم ، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة ، والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء ، والفساد بإنفاق المال فى غير وجهه ، أو إمساكه عن وجهه على كل حال ، والله لا يحب المفسدين كما أن لا يحب الفرحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفكر والاعتبار فى نعم الله عز وجل فى الكون ، وشكر الله باللسان والجوارح .

٢ ـ أن يديم المسلم تذكر مواقف يوم القيامة .

٣ ـ معرفة دور المال فى الحياة وعدم الوقوع فى فتنته .

٤ ـ مدارسة سير الناجين ، وسير الهالكين كى يصل المؤمن لعفو الله ورضوانه .

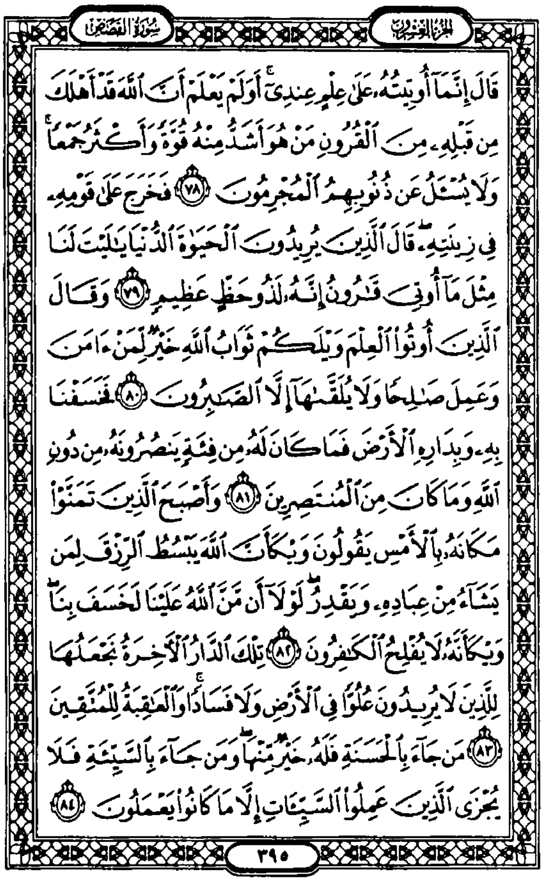
الجزء العشرون — سورة القصص

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ
وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٣٩٥

معانى الكلمات :

زينته : ترفه .

خسفنا به وبداره الأرض : جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه .

فئة : جماعة معينة .

ويكأن الله : صيغة تعجب .

يبسط الرزق : يوسعه .

من الله علينا : تفضل علينا .

علوا : تكبرا وطغيانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقلة متاع الدنيا أمام ثواب الله .

٢ ـ أن يعرف نهاية قصة قارون .

٣ ـ أن يقوم المؤمن بدوره فى مجتمعه بالنصح للعصاة والضالين .

المحتوى التربوى :

تعرض قضية الكفر بالنعمة بنموذج يتكرر فى البشرية ، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما سبب غناه ، ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه وهكذا قال قارون : إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمى الذى طوع لى جمعه وتحصيله ، فما لكم تملون علىَّ طريقة خاصة فى التصرف فيه ، وتتحكمون فى ملكيتى الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدى الخاص ، واستحققته بعملى الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء، وهو نموذج مكرر فى البشرية .

والإسلام فى تعامله مع المال كما **يقول صاحب الظلال** : « يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردى الذى بذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ، ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه ، ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ولا فى إمساكه حتى التقتير ، ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال ، ورقابتها على طرق تحصيله ، وطرق تنميته وطرق إنفاقه والاستمتاع به ، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات » .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القويم ، وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم وفى بطر ذميم ، ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية ، ردًا على قولته الفاجرة المغرورة ، فإن كان ذا قوه وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا ، وكان عليه أن يعلم هذا ، فهذا هو العلم المنجى ، فليعلم ، وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم ، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد .

ثم تتابع الآيات بذكر مشهد آخر يعرض اختلاف موازين الناس فى القيم ، فالمحبون للدنيا تستهويهم زينة المال ، ويعجبون به دون البحث عن مصادره ، أما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفسًا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد ، وهؤلاء هم الذين أتوا العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم ، ويعرفون أن ثواب الله خير من هذه الزينة ، والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون .

تظهر الآيات قيمة المؤمنين ودورهم بـأنهم ليسوا مكتوفى الأيدى قابعين فى صوامعهم ، بل يخرجون وينبهون الناس ، ويحذرونهم دونهم من الاغترار بالقيم الفاسدة ، بل إن ثواب الله خير من هذه الزينة ، والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون ، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم ، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها .

ثم تمضى الآيات لتظهر يد القدرة وهى تضع حداً للفتنة ، وتحطم الغرور والكبرياء بأن خسف بقارون وبداره فابتلعتهم الأرض ، ولم ينفع الكفار والظالمين قوتهم .

وفى هذا الوقت يرى الناس المقاييس الحقيقية ، ويعلمون أن الثراء ليس آية على رضا الله ، فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب.

وفى لمحة خاطفة ابتلعته داره ، وهوى قارون فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا ، وذهب صعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال ، وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ، وردتهم الضربة إلى الله ، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال .

من هنا يلمح المؤمن أن الرضا بقضاء الله هو سبيل الفلاح ، فطريق النار مُعبَّد بالشهوات وزخارف الدنيا ، فقد يعيش المسلم معدما ، ولكن الله قدر ذلك ليكون مكرما فى الحياة الدنيا؛ لأن الله جعل الآخرة للمؤمنين الذين لا يريدون علوا ولا فسادا ، الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ويختم هذا المشهد ببيان القضاء الإلهى وما فيه من عدل وفضل ، فيظهر تفضل الله جل شأنه على عباده بأن من عمل الحسنة فثوابه عظيم أكبر من جزاء الحسنة وأن الله بعدله يحاسب من اقترفوا السيئات بأعمالهم.

يقول صاحب الظلال : « تلك الآخرة التى تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية ، تلك الدار الآخرة الرتبة البعيدة الآفاق ، تلك الدار الآخرة ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم،ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، ومنهجه فى الحياة ، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً ، ولا يبغون فيها كذلك ، أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة ، تلك الدار العالية السامية » .

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يخشون الله ، ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه ، وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه ، الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها ، والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسرا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحذر من الغرور والاستكبار ، ووجوب تواضع الإنسان لله .

٢ ـ ضرورة تقديم النصيحة لمن يحتاج إليها فى رفق وهدوء قبل أن يقع فى الخطأ ولا يستطيع النجاة .

٣ ـ الإيمان بأن الرزق مقدر من الله ، وأن الله يبسطه لحكمة ، ويمسكه لحكمة .

معانى الكلمات :

فرض عليك : أى أنزل إليك القرآن .

لرادك إلى معاد : المقصود إلى مكة .

ظهيرا : معينا .

يصدنك : يمنعنّك .

له الحكم : القضاء النافذ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بالثقة فى نصر الله .

٢ ـ أن يعلم المسلم صفة طريق الإيمان بالله .

٣ ـ أن يصبر المؤمن على كل بلاء وشدة .

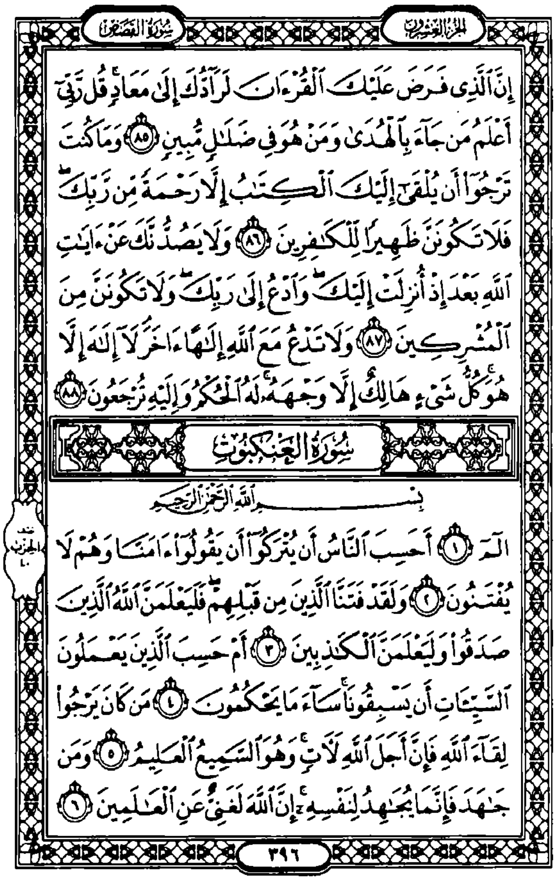

الجزء العشرون — سورة القصص

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي
أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

٣٩٦

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات لتقرر أن وعد الله قائم لكل السالكين فى الطريق ، وإنه ما من أحد يؤذى فى سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله فى وجه الطغيان فى النهاية ، فقد خرج الرسول من مكة وهى أعز وأحب بلاد الله إليه ووطن صباه ، فجاء الخطاب بالقسم بأن الذى فرض عليه القرآن سينصره فى الموعد الذى قدره ، وهذا الأمر له شاهد فقد رد الله موسى من قبل إلى الأرض التى خرج منها هاربا مطارداً ، رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، وكانت العاقبة للمتقين .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد فى ذلك الظرف والكرب ليمضى ﷺ فى طريقه آمنا واثقا ، مطمئناً إلى وعد الله الذى يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه » .

ثم تمضى الآيات فى تبيان أن الرسالة نزلت رحمة للرسول وهو لم يتطلع إليها ، وترسم الآيات بعد ذلك الطريق للرسول والدعاة ، فهى رحمة إذن بالرغم من التكاليف الشاقة والمهام الجمة العسيرة التى يواجهها هؤلاء الدعاة ، فلابد من جعل دعوتهم بيضاء بأن تبعد عن طريق الكفار، أهل الزيغ والضلال بأن تكون دعوة خالصة لا لبس فيها ولا غموض دعوة إلى الله لا لمصلحة ولا لهوى ، بل يجب التسليم لله لتفرده عز وجل ـ بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء ، ليمضى أصحاب الدعوات فى طريقهم على هدى ويقين .

سورة العنكبوت

تبدأ السورة بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان ، والفتنة التى يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ، وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء ، ويساق الحديث فى صورة استفهام استنكارى لمفهوم الإيمان .

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفى أن يقول الناس : آمنا .وهو لا يتركون لهذه الدعوة ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوة وله دلالته وظله وإيحاؤه ـ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب . هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، فى ميزان الله سبحانه :

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه !

يقول صاحب الظلال : « ونعود إلى سنة الله فى ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . إن الإيمان أمانة الله فى الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة . وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة فى الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته فى عالم الحياة . فهى أمانة كريمة ؛ وهى أمانة ثقيلة ؛ وهى من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعًا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليتسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله فى الرحم التى يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أشير فى هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم فى طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ، ولا يحامى عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذى معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئًا .

وهنالك فتنة الغرابة فى البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله غارقًا فى تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة فى هذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أممًا ودولاً غارقة فى الرذيلة ، وهى مع ذلك راقية فى مجتمعها ، متحضرة فى حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهى مشاقة !

وهنالك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض . وثقلة اللحم والدم ، والرغبة فى المتاع والسلطان ، أو فى الدعة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس » .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . فهما انتفخ باطلهم وانتفش، وبدا عليه الانتصار والفلاح. وعد الله كذلك وسنته فى نهاية المطاف، ولا يحسين مفسد أنه ملفت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تَّدبيره ، واختل تصوره فإن الله الذى جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذى جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد .

وإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجىء .

ويأتى التطمين للذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به فى ثقة وفى يقين .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

فلتقر القلوب الراجية فى لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء فى شوق ولكن فى يقين .

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجى المشتاق ، الموصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها فى تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ويواجه السياق : القلوب التى تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها، ولإصلاح أمرها وحياتها؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد، وإنه لغنى عن كل أحد ، فلا يقفن أحد فى وسط الطريق ، وقد مضى فى الجهاد شوطا ، يطلب من الله ثمن جهاده ، ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطئ المكافأة على ما ناله ، فإن الله لا يناله من جهاده شىء ، وليس فى حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل ، فالله غنى عن العالمين ، وإنما هو فضل من الله أن يعينه فى جهاده ، وأن يستخلفه فى الأرض به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ السعى فى دعوة الله مع الثقة بنصر الله المؤمنين .

٢ ـ الصبر على أذى المعاندين والمناوئين للدعوة .

٣ ـ إخلاص العبادة لله .

معانى الكلمات :

حسنا : برا .

أنبئكم : أخبركم وأجازيكم .

خطايكم : ذنوبكم .

ليسألن : ليحاسبن ويعاقبن .

يفترون : يختلقون الأكاذيب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بثقل التبعة الملقاة عليه وهى الدعوة إلى الله .

٢ ـ أن يتعرف المسلم على أنواع الابتلاء .

٣ ـ أن يصبر المسلم على الابتلاء والأذى .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات بفاصل بين أنواع الابتلاء بطمأنة المؤمنين بثواب الله لهم من تكفير السيئات ، ومجازاتهم بالحسنات ، ثم تنتقل إلى لون آخر من ألوان الفتنة وهى فتنة الأهل والأحياء ، فإن للوالدين فضلا ورحمًا ، وإن لهما واجبا مفروضا ، واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة ، ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله ؛ لأن الصلة فى الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى .

ويقول صاحب الأساس: « من أصعب الامتحانات التى يمر بها المؤمن المجاهد موقف والديه منه ، ومن أصعب الأمور أن يتصرف التصرف المناسب فى مثل هذا الموطن ، ومن ثم ألزم الله المؤمن هنا بشيئين : الإحسان وعدم الطاعة فى المعصية ، وهما أمران لا يستطيعهما معًا إلا موفق ، ومن ثم ذكر الله عز وجل فى هذا السياق ما أعده لمن آمن وعمل صالحًا ، وعلى هذا فإن السياق حتى الآن يعرض علينا علامات الصدق فى الإيمان ، وهى الصبر على الامتحان ، ورجاء ثواب الله ، والجهاد ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى الوالدين ، مع الرفض لكل أمر فيه معصية، وإذا كان هذا الشأن مع الوالد ، فمن باب أولى أن يكون الأمر كذلك مع غيرهما » .

ويقول صاحب الظلال : « إن الوالدين لأقرب الأقرباء ، وإن لهما لفضلاً ، وإن لهما لرحمًا ؛ وإن لهما لواجبًا مفروضًا : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة ، ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله ، وهذا هو الصراط : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ .

إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى ؛ فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا طاعة ولا الاتباع ، وإن هى إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله . ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين فإذا المؤمنون أهل ورفاق ولو لم يعقد بينهما نسب ولا صهر : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ، وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، وتنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، فهى روابط عارضة لا أصيلة ، لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها » .

ثم تأتى الآيات تذكر نموذجا من النفوس عند استقبال الابتلاء ، ذلك النموذج يتحدث عنه صاحب **الظلال** قائلا :

« يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تكلف إلا نطقها باللسان ، فإذا أوذى فى الله .. بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى ، جعل فتنة الناس كعذاب الله فاستقبلها فى جزع ، واختلت فى نفسه القيم ، واهتزت فى ضميره العقيدة ، وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذى يلقاه حتى عذاب الله ، أما موقفهم وقت الرخاء ، فيدعون الانتساب للفئة الصابرة وينتفش المنزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون: إنّا كنا معكم » .

قال الفخر الرازى : « قوله ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ **قال الزمخشرى** : جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل : جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم ، حتى ترددوا فى الأمر وقالوا : إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديدًا ولا يكون مديدًا ، لأن العذاب إن كان شديدًا كعذاب النار وغيره يموت الإنسان فى الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديدًا كالحبس والحصر لا يكون شديدًا وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ما له من دافع ، وأيضًا عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابًا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابًا » .

وعلق الفخر الرازى على قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ قائلا : ما الفائدة فى ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبى ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحًا لبث ألف سنة تقريبًا فى الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل وصبر وماضجر ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضًا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغى أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم .

وقال صاحب الظلال : « والراجح أن فترة رسالته التى دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من

الطوفان غير محددة ، وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعى ولا مألوف فى أعمار الأفراد ، ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر فى هذا الوجود ـ وهذا وحده برهان صدقه ـ فإذا أردنا له تفسيرًا فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدودًا ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة ، حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار ، وهذه الظاهرة ملحوظة فى أعمار كثير من الأحياء ، فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما فى النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة ، حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام ، بينما الذباب الذى يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين ، والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخًا وأم الصقر مقلاة نزور

ومن ثم يطول عمر الصقر، وتقل أعمار بغاث ولله الحكمة البالغة ، وكل شىء عنده بمقدار، ولم ألف سنة ـ إلا خمسين عامًا ـ غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح ، وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم الظلمة بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة ، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفر ومضت قصة الطوفان والسفينة « آية لعالمين » تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون » .

ويقول صاحب **الظلال** : « إن الخطأ ليس فى ضعف احتمالهم للعذاب ، فهذا يقع للمؤمنين فى بعض اللحظات ، ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة بين ما يملكه البشر ، وبين عذاب الله العظيم ، وإنما الخطأ فى مساواتهم عذاب الله بعذاب الناس » .

ثم فتنة أخرى تعرضها الآيات هى فتنة الإغواء والإغراء ، ويعرض معها فساد وتصور الذين كفروا للتبعية والجزاء ، ويقرر فردية التبعية وشخصية الجزاء ، فالكفار تمشيًا مع تصورهم القبلى فى احتمال العشيرة للديات المشتركة ، والتبعات المشتركة يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها .

ثم يبتدأ شوط جديد فى السورة بذكر نماذج من الفتن التى اعترضت دعوة الإيمان فى تاريخ البشرية الطويل وأولها قصة نوح ﷺ الذى تتبدى فيها ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، وقصة نوح تحفيز للدعاة أن يستمروا فى دعوتهم ولا يصدنهم عنها قلة الناصرين مع طول فترة الدعوة ، وفيها بث الثقة فى معية الله للمؤمنين أن الله ناصرهم ومؤيدهم ومخذل عدوهم بظلمه وصده واستكباره .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإحسان للوالدين والبر بهما ومعرفة حقهما مع تقديم حق الله .

٢ ـ الصبر فى حال الرخاء والشدة .

٣ ـ السعى فى دعوة الله دائماً دون الالتفات لكثرة المستجيبين للدعوة أو قلتهم .

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

٣٩٨

معانى الكلمات :

إفكا : كذبا وباطلا .

ابتغوا : اطلبوا .

النشأة الأخرى : البعث بعد الموت .

تقلبون : ترجعون .

نصير : معين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة السعى والسير للتفكر فى خلق الله .

٢ ـ أن يعرف المؤمن كيفية جدال المنكرين .

٣ ـ أن يكثر المؤمن التفكر والاعتبار والاتعاظ .

المحتوى التربوى :

ويستمر القصص القرآنى بذكر أنواع الابتلاء ، وإنجاء الله للمؤمنين ، فأنجى الله نوحا وأصحاب السفينة .

ثم يأتى القرآن بقصة إبراهيم عليه السلام وما فيها من العظة والعبرة بذكر خطوط الدعوة الرئيسية وهى الدعوة إلى العبادة لله مع تقواه ثم لا يقتصر دوره على الدعوة بل الاعتراض ومجابهة الظالمين وتصحيح المفاهيم من عدة وجوه :

١ ـ أنهم يعبدون أوثانًا من دون الله .

٢ ـ وأنهم لا يستندون بهذه العبادة إلى برهان أو دليل .

٣ ـ أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعًا ولا ترزقهم شيئًا .

ثم تنتقل الآيات لقضية شغلت النفوس بخاصة التى لم يستغرقها الإيمان ، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استشارة للميول الكامنة فى النفوس ، ولو آمن بهذا الضالون لانتهوا عن ضلالتهم وعبدوا الله حق العبادة وشكروا له نعمه ، بل وثمة قضية أخرى هى قضية الإيمان بالبعث والنشور لو استقرت فى القلوب لعدل المشركون عن اتخاذ الأوثان آلهة من دون الله .

وتصل الآيات إلى ما يطمئن الدعاة إلى الله أن البلاغ مهمتهم ، وألا يحزنهم التكذيب ، وأن ذلك كان فى الأمم التى كانت قبلنا ، فهذا سرد لقصص السابقين حتى لا يقنط السائرون إلى الله أن دعوة الله لا تقاس بالكثرة ؛ لأن أكثر الناس لا يؤمنون .

ويأتى النص القرآنى بما يرشد المؤمنين حين يدعون الكافرين أن يتفكروا فى الكون من حولهم ، ليبحثوا عن آيات الله ، ويروا دلائل وجوده **يقول صاحب الظلال** :

« إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه خطاب دليله هذا الكون ؛ ومجاله السماء والأرض ؛ على طريقة القرآن فى اتخاذ الكون كله معرضًا لآيات الإيمان ودلائله ، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب ، تبحث فيها عن آيات الله وترى دلائل وجوده ووحدانيته ، وصدق وعده ووعيده ، ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبدًا لا تغيب عن إنسان ، ولكنها تفقد جدتها فى نفوس الناس بطول الألفة ؛ ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار ، فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة ، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه احى ، المحيى للمشاهد والظواهر فى القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها ، ويجعل منها دلائله وبراهينه التى تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر ، ولا يتخذ طرائق الجدل الذهنى البارد والقضايا المنطقية التى لا حياة فيها ولا حركة تلك التى وفدت على التفكير الإسلامى من خارجه فظلت غريبة عليه ، وفى القرآن المثل والمنهج والطريق .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

« وأنهم ليرون كيف يُبدئ الله الخلق ، يرونه فى النبتة النامية ، وفى البيضة والجنين ، وفى كل ما لم يكن ثم يكون ، مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم خالقوه ، وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ، معجز فى معرفة منشئه ، وكيف جاء » .

ثم يتتابع الأمر القرآنى بالسير فى الأرض ؛ لأن الإنسان قد يعيش فى مكان واحد يألفه فلا يكاد ينتبه إلى شىء من مشاهده أو عجائبه ، ولكنه إذا سافر وتنقل استيقظ حسه لمشاهد الكون ، وربما عاد لموطنه بحس جديد وروح جديد يتأمل فى الكون بعد أن كان غافلا عنها ، فتتأمل فى قدرة الله وتعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ؛ لأن العذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله ، من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ، وخلق الإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بعد ذلك ، ما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ، ورغبته إلى الله ورغبته فى هداه ، تنتهى به إلى عون الله .

وعلق الفخر الرازى على قوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ قائلا : « قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال ﷺ حاكيًا عنه: «سبقت رحمتى غضبى» فنقول ذلك لوجهين . أحدهما : أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، وكما ذكر ـ بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد ـ التهديد بقوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الأخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعًا لئلا يكون العذاب مذكورًا وحده وهذا يحقق قوله « سبقت رحمتى غضبى » وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه » .

وتأتى الآيتان بخطاب مع الكفار الذين لا يملكون شيئا فى هذا الوجود ، وليس لهم نصير ولا معين من المعبودات التى يعبدونها ، وهذا يؤدى إلى بأسهم يوم القيامة ، حين يرون أنفسهم مبعدين عن رحمة الله .

وقال صاحب الأساس : « لفتت هذه الآيات النظر إلى رؤية البداية والنهاية ؛ فمن رأى البداية والنهاية عَبَد الله وشكره ، ولم يطلب الرزق إلا منه ، وهى الدعوة التى ركز عليها إبراهيم ﷺ ، كما لفتت الآيات النظر إلى طلاقة المشيئة الإلهية فى الرحمة والعذاب ، وهذا يقتضى عبادة وشكرًا ، وطلبًا منه وحده ، كما لفتت الآيات النظر إلى عدم فوات الإنسان الله فى السماء والأرض ، وفى ذلك دفع للعبادة والشكر ، وطلب الرزق من الله وحده ، وختمت الآيات بإيئاس الكافرين من رحمة الله ، واستحقاقهم العذاب ، وفى ذلك دفع نحو العبادة والشكر ، فارتباط الآيات فيما مضى من قصة إبراهيم ﷺ واضح ، كما أن فى الآيات ردًا على الكافرين فى قولهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فلو أن الكافرين رأوا البداية والنهاية ، وعرفوا طلاقة المشيئة الإلهية فى الرحمة والعذاب ، وعرفوا عدم فواتهم لله ، وعرفوا أن رحمته لا ينالها كافر ، وأن العذاب آتٍ ، لو عرفوا هذا ، ما تجرّؤوا على الكفر والتكفير ، ثم يعودُ السياق إلى قصة إبراهيم ﷺ : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ أى قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان إلا أن قالوا : ﴿ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ فاتفقوا على تحريقه بعد أن قامت عليهم الحجة ، ولزمهم البرهان فعدلوا ، شأن الطغاة إلى استعمال عزّ السلطان ضد الإيمان ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ حين قذفوه فيها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى فعلهم وفعل الله ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أما الكافرون فإنهم لا ينتفعون بآية أبدًا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ السعى فى طلب الرزق من الله ، والإيمان بأن الله هو بيده الأمر كله .

٢ ـ الصبر فى الدعوة إلى الله عز وجل .

٣ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل .

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨)
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
(٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠)

٣٩٩

معانى الكلمات :

مأواكم : مصيركم .

مهاجر إلى ربى : تارك وطنى .

الفاحشة : الفعلة القبيحة .

تقطعون السبيل : تقفون فى طريق الناس .

ناديكم : مجلسكم الذى تجتمعون فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقبح الذنب ، وسوء ضرره فى المجتمع .

٢ ـ أن يعرف المؤمن جوانب من قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام .

٣ ـ أن يأمر المؤمن بالمعروف وينهى عن المنكر حسب استطاعته .

المحتوى التربوى :

يعود السياق القرآنى لقصة إبراهيم ليبرز الطغيان ، وقد أسفر عن وجهه الكالح ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام يملك له دفعًا ، ولا يستطيع منه وقاية ، وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول ، فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك ، تتدخل بالمعجزة الخارقة المألوفة للبشر بآيات وهذه الآيات يذكرها صاحب **الظلال** : « الآية الأولى : هى تلك النجاة من النار ، والآية الثانية : هى عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة ، والآية الثالثة : هى أن الخارقة لا تهدى القلوب الجاحدة ، ذلك لمن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب وعوامل الهدى والضلال ».

وذكر صاحب الأساس :« بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ **قال ابن كثير**: (وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار،

فارتفع لها لهب إل عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتّفوه ، وألقوه فى كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، وخرج مها سالمًا بعد ما مكث فيها أيامًا ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إمامًا ، فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان) .

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ قال ابن كثير : (وهذا حال الكافرين وأما المؤمنون فبخلاف ذلك ، روى ابن أبى حاتم عن أم هانىء أخت على بن أبى طالب قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفين ؟ قالت : قلت : الله ورسوله أعلم ـ ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبُّون ـ قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم ـ ثم ينادى يا أهل التوحيد ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم ـ قال ـ فيقول الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى الظلمات الدنيا ـ يعنى المظالم ـ ثم ينادى يا أهل التوحيد ليعفُ بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب » .

ثم يعرض النص القرآنى مشهد الظالمين مع بعضهم البعض يوم القيامة من تكفير بعضهم البعض ، ولعن بعضهم بعضا ، وأن هذا ليقع فى الجماعات التى لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد فيسترضى الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ، ثم يكشف عن صفحتهم فى الآخرة فهم فى عداء ولعن وانفصام ، فى يوم يتنكر التابعون المتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوى صاحبه الذى أغواه .

ونقل القاسمى عن العلامة القاشانى تفسير المودة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ فقال : « والمعنى أن المودة قسمان : مودة دنيوية ، ومودة أخروية . والدنيوية منشؤها النفس ، والأخروية منشؤها الروح ، فكل ما يحب ويوّد من دون الله ، لا لله ولا بمحبة الله ، فهو محبوب بالمودة النفسية ، وهو هوى زائل ، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات ، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج ، فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج ، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند ، بمقتضى الطبائع ، لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ الآية ، ولهذا شبهها ببيت العنكبوت فى الوهن .

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية ، وتلك المودة هى التى تكون بين الأصفياء والأولياء ، لتناسب الصفات ، وتجانس الذوات ، لا تتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب ، فيصير يوم القيامة محبة صرفة الهيئة ، بخلاف تلك ، انتهى » .

ثم جاء النص القرآنى بدعوة لوط والإعراض عنه ويقول صاحب الظلال فى تعليقه على قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ إنه لم يهاجر للنجاة، ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة ،

إنما هاجر إلى ربه ، هاجر متقربا له ملتجئا إلى حماه ، هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ».

وكان عطاء الله الجزيل لإبراهيم وذريته ، فقد عوضه الله عن وطنه وعن قومه وأهله بذرية تمضى فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم يأتى النص القرآنى بعرض بالغ التأثير لدعوة لوط ﷺ مع قومه ، فقد فشا فى قومه شذوذ غريب وهو إتيان الذكور من دون النساء ، وهى كما يقول **صاحب الظلال**: « فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة ، فالفطرة قد تتجاوز حدّ الاعتدال مع المرأة ، فتكون جريمة فاحشة ، ولكنها داخلة فى نطاق الفطرة ومنطقها ، أما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعًا ، فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية متناسقة مع خط الحياة الأكبر، وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة نفسيا وعضويا ، فأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها ، وإذا وجد فيها أحد لذة ، فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيا من حظ الفطرة ، وعاد مسخا لا يرتبط بخط الحياة » .

والفاحشة حين تسود تجرئ النفس على المعصية ، واستشرت جرائم قوم لوط فهم يقطعون السبيل ، وينهبون المال ، ويروعون المارة ، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرها ، وهى درجة أبعد فى الفحش ، وفساد الفطرة ، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح .

وإزاء هذا التبجح والصد والتكذيب والإعراض لا يجد الداعى إلى الله بدا إلا اللجوء إلى الله ؛ كى ينصره على القوم المفسدين الظالمين ، فقد بذل الوسع والطاقة معهم ، ولكن فسادهم قطع كل محاولات إصلاحهم .

قال الفخر الرازى : « واعلم أن نبيا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (نوح) يعنى المصلحة إما فيهم حالاً أو بسببهم مآلاً ولا مصلحة فيهم ، ، فإنهم يضلون فى الحال وفى المآل فأنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الأتباع ، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالاً ومآلاً ، فعدمهم صار خيرًا ، فطلب العذاب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ معية الله قريبة من المؤمنين مهما اشتدت بهم المحن ، وعظمت عليهم البلايا .

٢ ـ تسلية الرسول ﷺ أن إبراهيم لم يؤمن به إلا لوط ﷺ.

٣ ـ محاربة الرذيلة والفواحش بجميع أنواعها .

الجزء العشرون سورة العنكبوت

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا
أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ
وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا
أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ
هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

٤٠٠

معانى الكلمات :

الغابرين : الباقين من العذاب .

ضاق بهم ذرعاً : ضعفت طاقته .

آية بينة : علامة واضحة .

لا تعثوا : لا تفسدوا .

الرجفة : الزلزلة الشديدة .

جاثمين : باركين .

مستبصرين : عقلاء واعين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المسلم بمعية الله للمؤمنين .

٢ ـ أن يتعرف المسلم على جوانب وعبر من إهلاك الله للأمم الظالمة .

٣ ـ أن يمضى المسلم فى دعوته لله عز وجل بمصابرة ومثابرة .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات مشهد ذهاب الملائكة لإهلاك قرية قوم لوط ، وقبلها تبشير إبراهيم بولادة إسحاق ، وتظهر رقة إبراهيم ورأفته بأن تلك القرية فيها لوط ، فتعلمه الملائكة بما يطمئنه بأن عدل الله واقع بنجاة لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته .

كان هلاك امرأة لوط ؛ لأن هواها مع القوم ، تقر جرائمهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب . وهنا يلمح أمران هما :

قال الفخر الرازى : « القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وأمرأة لوط لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول : الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما

أن الدال على الخير كفاعله ، وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم » .

ـ إن علاقات الزوجية والقرابة والمصاهرة لا تنفع من العذاب ، وأن الإيمان بالله أوثق صلة ، وأشد علاقة .

ـ إن الإقرار والرضا بارتكاب المنكر وموافقة الآخرين على ارتكابه حتى لو لم يقترفه العبد نفسه قد يستوجب العذاب والنكال من الله .

ويمضى السياق القرآنى داعيًا للتأمل فى مصير قوم لوط ، وقد أصاب التدمير تلك القرية ، وكان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين ، وما زالت آثار هذا التدمير آثاره باقية إلى الآن ، وكان هذا هو المصير الطبيعى لهذه الشجرة الخبيثة التى فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة ، ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والتحطيم .

وقد تقدمت قصة شعيب فى سورة هود فقال تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (هود) **وعلق الشيخ أبو زهرة** فى زهرة التفاسير قائلا : والصيحة تبعتها رجفة فى الأرض ماتوا بها ؛ ولذا قال : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ أى ميتين وجاثمون ملازمون أماكنهم لا يستطيعون حراكًا ؛ لأن الموت الداهم أفقدهم الحركة » .

وحلقة أخرى تعرضها الآيات فى عرض قصة العقيدة ، ولباب هذه هى العقيدة : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ .

* عبادة الله هى قاعدة العقيدة .

* ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه فى هذه الحياة الدنيا من الكسب المادى الحرام بالتطفيف فى الكيل والميزان وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم .

وتواصل الآيات لتنبه المؤمنين إلى وجوب التبصر بمصير وهلاك الأمم الكافرة مثل قوم شعيب الذين أهلكهم الله بالرجفة التى زلزلت بلادهم فأصبحوا جاثمين ، وكذلك قوم عاد وثمود الذين أهلكوا وبقيت آثارهم إلى الآن تنطق بأمر الله الواقع بالكافرين وأن رحمة الله قريب من المحسنين .

وقال الشيخ أبو زهرة : وفى القصة التى جمعت بين إبراهيم ولوط عبر نذكر منها :

منها أن الفواحش تفتك بالجماعات وتذهب قوتها وتعدها للفناء ، كما فى شأن قوم لوط إذ أن فاحشتهم قطعت نسلهم وأسلمتهم إلى الدمار ، ومنها أن كل امرئ بما كسب رهين ومعاقب

بعمله ، فلم يعف امرأة لوط من العذاب أنها امرأته ، ولأنها كانت من المفسدين حق عليها ما نزل بهم من العذاب .

ومنها أن آل لوط لم يكونوا عبدة أوثان فقط بل كانوا مع ذلك يأتون الفاحشة التى ما سبقهم بها أحد ، يأتون الرجال شهوة من دون النساء حتى أصبحوا لا يخرجون من شر إلا إلى شر ، فهم فى دائرة الفساد المطلق والفاحشة الشنعاء التى هى كرؤوس الشياطين من المخنثين ومن يتشبهون بالإناث فى ملابسهم وشعورهم بل وفى أفعالهم ، ووَجدَت جماعة تنطلق انطلاقا إلى كل موبق باسم حرية الإرادة وما هى إلا الوقوع فى أسر الشهوة ومن ورائها ذلها .

ومنها أن الانطلاق إلى الهوى لا يرده عقل ولا تدبير ولا حياء بل ولا أى مروءة إنسانية ، حتى أنهم عندما رأوا الملائكة ، جاؤوا إلى لوط عليه السلام يهرعون وإنه ليعرض بناته للزواج ، فيقولون فى تبجح : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ (هود :٧٩) وهكذا نرى ممن يشبهونهم فى عصرنا .

وفى الآيات إشارة للكفار الذين أضلهم الشيطان وزين لهم أعمالهم ، فظن الضالون أن ما يفعلونه هو عين الصواب ، فهم الأخسرون أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

يقول صاحب الأساس : « قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أى : عقلاء متمكنين من النظر ، وتمييز الحق من الباطل ، ولكنهم لم يفعلوا ، أو كانوا مستبصرين بالمعنى الذى يطلقه الكفرة على أنفسهم بأنهم مستنيرون ، إلا أن استبصارهم لم يكن إلا فى أمر ظواهر الدنيا فقط » .

يقول صاحب الظلال : « وعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بالقرب من حضر موت ، وثمود كانت تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة بالقرب من وادى القرى وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة ، وبقيت مساكنها معروفة للعرب ، يمرون عليها فى رحلتى الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار هذا التدمير بعد العز والتمكين » .

كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ، ولكن الشيطان استهواهم ، وزين لهم أعمالهم وأتاهم من هذا الثغرة المكشوفة وهى غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من أعمال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفكر فى معية الله للمؤمنين ، وإخراجهم من بين الأمم التى حق عليها العذاب .

٢ ـ الإيمان بأن علاقة الإيمان هى العلاقة المنجية ، وأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

٣ ـ الحذر من غواية الشيطان ، وأن يكون المسلم موصولا بالله .

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠١

معانى الكلمات :

سابقين : فائتين من العذاب .

حاصباً : ريحا عاصفا ترميهم بالحجارة .

الصيحة : صوت مهلك .

أوهن : أضعف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بدور العبادات وذكر الله وتلاوة القرآن فى حياته .

٢ ـ أن يعرف المسلم الزاد الذى ينفعه فى حياته ودعوته .

٣ ـ أن يواصل المؤمن عباداته بخشوع ، وأن يستزيد منها ما أمكنه ذلك .

المحتوى التربوى :

تأتى الآيات هنا بذكر الأفراد الذين ظلموا وطغوا ، وأغرتهم قوتهم ، فقارون أغراه المال ، وظن أنه أوتيه على علم عنده ، والمال مال الله ، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان ، ومن البشر من تغريه قوة الحكم والسلطان فيصير طاغية غشومًا ، ويرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، وهامان كان المدبر لمكائد فرعون والمعين له على ظلمه وبطشه ، وأهلك الله هؤلاء الآحاد كما أهلك الأمم بسبب صدهم لموسى عليه السلام لما جاءهم بالبينات .

وهنا تكررت قصة قارون وفرعون وهامان ، **ويقول الشيخ أبو زهرة** : « إن قصص القرآن لا مكرر فيه ، وإن كان يبدو ظاهر الأمر أن فيه تكرارًا ؛ لأن الذكر يكون على قدر العبرة وهنا فى هذا الموضع يذكر أحوال الأمم الذين يُبعث النبيون إليهم ؛ ولذا ذكر قوم فرعون ، وما حل بهم

من اتباعهم فرعون ولم يفصل الآيات المتوالية التى كانت تجرى على يدى موسى آية بعد آية ، وهم لم يرتدعوا حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق كما ذكر سبحانه ذلك فى سورة الأعراف ، وكما ذكر حال فرعون وقد أصابه الغرق ، وآمن فى آخر رمق فى حياته إيمانًا لا يقبله الله تعالى » .

قال الفخر الرازى : « ذكر الله أربعة أشياء : العذاب بالحاصب ، وقيل : إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متوج ، فإن الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذى على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس،والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب،والعذاب بالإغراق وهو بالماء، فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببًا لعدمه ، وما به بقاؤه سببًا لفنائه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يعنى لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أى ما كان يضعهم فى غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته » .

وتدعو الآيات للتأمل فى قدرة الله وخلقه كما يقول **صاحب الظلال** : « إن هناك قوة واحدة هى قوة الله ، وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمى ببيت من خيوط واهية ، فهى وما تحتمى به سواء .

فالذين تخدعهم قوة الحكم والسلطان أو قوة المال ينسون أصل سائر القوى ، وينخدعون بالقوى الظاهرة ، فيدورون حولها كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار ، رغم أنه ليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى الركين » .

وقال الفخر الرازى : « مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتًا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين ، **أحدهما** : أن نسجه فيه فائدة له لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت ، **الوجه الثانى** : هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتًا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتًا وكلاهما باطل .

كما أن هذا المثل صحيح فى الأول فهو صحيح فى الآخر ، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورًا ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان) .

قال : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفى أيضًا ، فإن من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ وليًا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتًا » .

ويتابع صاحب الظلال تأملاته فيقول : « إن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء ، لجديرون أن يفقهوا الحقيقة الضخمة ، ولا ينسون لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة ، هذه تضربهم ، وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم ، وتحاول أن تشتريهم ، وكلها خيوط العنكبوت فى حساب الله ، وفى حساب العقيدة حين تصح العقيدة ، وحين تعرف حقيقة القوى . وتحسن التقويم والتقدير » .

ثم تشير الآيات لقيمة العقل ، وعقد موازنة بين المؤمنين والكافرين فى هذا الأمر ، فالضالون لا يعقلون الأمثال التى يضربها الله لهم ، بل ويتخذونها مادة للسخرية والتهكم ، وقالوا : إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت ، ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب ، لكن المؤمنين بقلوبهم المتفتحة ، وعقولهم الراجحة يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، وفى هذا الكون بتنسيقه ، وتنظيمه .

ولكى تتفتح القلوب للدعوة ، وتستطيع العقول التدبر لابد من الزاد الذى يعينها على ذلك وهو :

ـ القرآن الكريم ، وهو الحق المرتبط بالحق الكامن فى خلق السموات والأرض ، وهو وسيلة الدعوة ومنهاج المسلم فى دعوته لربه .

ـ إقامة الصلاة وهى حين تقام تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهى اتصال بالله يخجل صاحبه ، ويستحى أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها .

ـ ذكر الله والديمومة على ذلك ، وذكر الله أكبر على رد كل اندفاع ومن كل نزوع ، وأكبر من كل تعبد وخشوع ، وقد أخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل ، قال : ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع ، لأن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعانى من الأفهام .

٢ ـ فضل العلماء على غيرهم ، العلماء بالله ، بصفاته وأسمائه وآياته .

٣ ـ وجوب تلاوة القرآن ، وإقامة الصلاة ، وذكر الله ؛ أذ هى غذاء الروح ، وزاد العروج إلى الملكوت الأعلى .

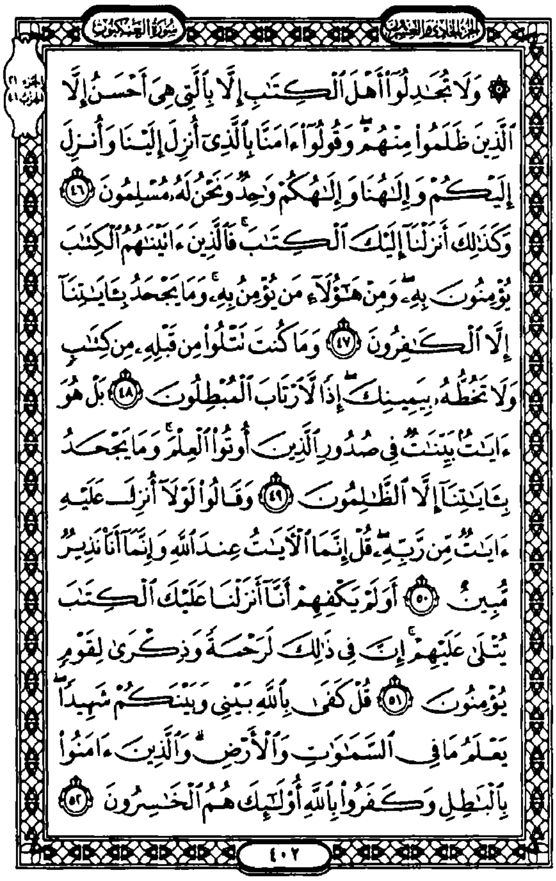

الجزء الحادي والعشرون — سورة العنكبوت

ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا
الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل
إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴿٤٦﴾
وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب
يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا
إلا الكافرون ﴿٤٧﴾ وما كنت تتلو من قبله من كتاب
ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴿٤٨﴾ بل هو
آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد
بآياتنا إلا الظالمون ﴿٤٩﴾ وقالوا لولا أنزل عليه
آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير
مبين ﴿٥٠﴾ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب
يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم
يؤمنون ﴿٥١﴾ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا
يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا
بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿٥٢﴾

٤٠٢

معانى الكلمات

لا تخطه : لا تعرف الكتابة .

المبطلون : الكافرون .

آيات : معجزات مادية .

ذكرى : تذكرة بليغة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الرفق فى الدعوة .

٢ ـ أن يعلم المؤمن طريقة مجادلة أهل الكتاب والمشركين .

٣ ـ أن يكون المسلم رفيقا فى دعوته .

المحتوى التربوى :

تكشف الآيات عن الواجب اتباعه فى مجادلة أهل الكتاب ، أن تكون بالحكمة والإقناع ، ذلك أن دعوة الله التى حملها نوح عليه السلام والرسل من بعده إلى خاتم النبين ذات هدف واحد هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وإن المؤمنين بكل رسالة لأخوة المؤمنين بسائر الرسالات .

ويقول صاحب الظلال : « إن دعوة الله التى حملها نوح عليه السلام والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ﷺ لهى دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد ، هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وهدايتها إلى طريقه ، وترتيبها بمنهاجه ، وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة ، تعبد إلهًا واحدًا ، وإن البشرية فى جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله ، وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان ، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان ، وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة فى تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون ».

وهذه هى الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التى يقوم عليها الإسلام ، هذه الحقيقة التى ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب ، أو وطن ، أو تبادل أو تجارة عن هذا كله ؛ لتصلها بالله ، ممثلة فى عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان ، وتختفى فيها القوميات والأوطان،ويتلاشى فيها الزمان والمكان ولا تبقى إلا العروة الوثقى فى الخالق الديان.

ومن ثم يكشف للمسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجىء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة ، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فانحرفوا عن التوحيد الذى هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه فى الحياة ، فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة ، وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة فى المدينة .

وإن بعضهم ليفترى على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو فى مكة مطارد من المشركين ، فلما أن صارت له قوة فى المدينة حاربهم ، مخالفًا كل ما قاله فيهم وهو فى مكة ! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكى عليه ، فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم ، ولم ينحرف عن دين الله ، وعن التوحيد الخالص الذى جاءت به جميع الرسالات .

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة) .

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع ، والجدل والنقاش ، وكلهم يؤمنون بإله واحد ، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم ، وهو فى صميمه واحد ، والمنهج الإلهى متصل الحلقات .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ .

وإلى قيام الساعة ينقسم أهل الكتاب مع التعامل مع دعوة الإيمان إلى قسمين :

١ ـ قسم يؤمن ويرى أن ما جاء القرآن هو الحق .

٢ ـ قسم يجحد وينكر مع أن فى الآيات دلائل على الصدق والوضوح .

ولا ينفك الظالمون يثيرون الشبهات على الرسول والقرآن والمؤمنين ، فيقولون إن الرسول كتب القرآن عن أعجمى ، وتلك فرية كاذبة فقد كان الرسول لا يقرأ ولا يكتب ، وكان الأولى الإيمان ؛ لأنه أتى لهم بكتاب معجز ، ولكن هذا الكتاب لا يدرك إعجازه ولا يعى آياته إلا من أوتى دقة الفهم ، ورقة الشعور ومن تعلق قلبه بالله ، فتنفتح جوارحه صدره وقلبه وعقله لتلقى هذا الفيض الإلهى ، فهذا الكتاب هدى وبشرى ورحمة للمؤمنين .

قال القاسمى : « **قال السيوطى فى** (الإكليل) : فى هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، وفيها ردّ على من زعم أنه كتب » .

وهكذا يتبع السياق مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها ، فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئا كاتبا ، ما جازلهم أن يرتابوا ، فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر ، فهو أكبر جدًا من طاقة البشر ومعرفة البشر ، وآفاق البشر ، والحق الذى فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذى فى هذا الكون ، وكل وقفة أمام نصوصه توحى القلب بأن وراءه قوة ، وبأن فى عباراته سلطانا ، لا يصدران عن بشر .

فهو دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ارتياب ، دلائل يجدونها بينة فى صدروهم ، تطمئن إليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلا وهى الدليل ، والعلم الذى يستحق هذا الاسم ، هو الذى تجده الصدور فى قراراتها ، مستقرّا فيها ، منبعثا ، يكشف لها الطريق ، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ، وما ينكر آيات الله إلا الظالمون الذين لا يعدلون فى تقدير الحقائق وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم والإيمان بالله كسب ، كسب فى ذاته ، والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله .

إن الحق أبلج ظاهر ، وإن الباطل مظلم زاهق ، ولا يحتاج إلى آيات ظاهرة ، ولا يطلب خوارق ومعجزات ليؤمن إلا من سدت مسامعه بل وجوارحه عن الحق ، وإن معجزة واحدة كالقرآن تكفى للإذعان للحق ، وتزيل كل شبهة .

وتنبه الآيات الدعاة بنسبة الأمر كله لله بأن الآيات والمعجزات من الله ، فالرسول ينذر ويحذر ، ويؤدى ما كلف به وفى ذلك **يقول صاحب الظلال** :

« إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة ، وإيضاح حدود الرسول وهو بشر مختار ، فلا تتلبس بصفات الله الواحد القهار ، ولا تغيم حولها الشبهات التى غامت على الرسالات حين برزت فيها الخوارق المادية ، حتى اختلطت فى حس الناس ، والتبست الأوهام بالخرافات ، ونشأت عنها الانحرافات » .

وهؤلاء الذين يطلبون الخوارق يغفلون عن تقدير فضل الله عليهم بتنزيل هذا القرآن ، أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء بهذا القرآن ؟ وهو يتنزل عليهم ، يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويكشف لهم عما حولهم ، والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم ، ثم هم لا يكتفون ، والذين آمنوا هم الذين يجدون مس هذه الرحمة فى نفوسهم ، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل ، ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلى الكبير .

وأما الذين لا يشعرون بهذا كله ، فيطلبون آية يصدقون بها هذا القرآن ، وهؤلاء لا جدوى من المحاولة معهم ، وليترك أم الفصل بينه وبينهم إلى الله ، وشهادة من يعلم ما فى السموات والأرض أعظم شهادة ، وهو الذى يعلم أنهم على الباطل الخاسرون على الإطلاق ، الخاسرون لكل شىء ، الخاسرون للدنيا والآخرة ، الخاسرون لأنفسهم وللهدى والاستقامة والطمأنينة والحق والنور .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الرفق فى الدعوة ولين الجانب مع المدعوين .

٢ ـ الحذر من شبهات الأعداء ، وردها بما يدمغها .

٣ ـ أخذ العبرة والعظة من القرآن ، ومدارسة آياته ، وتدبره .

٤ ـ الثقة فى وعد الله عز وجل بالنصر للمؤمنين .

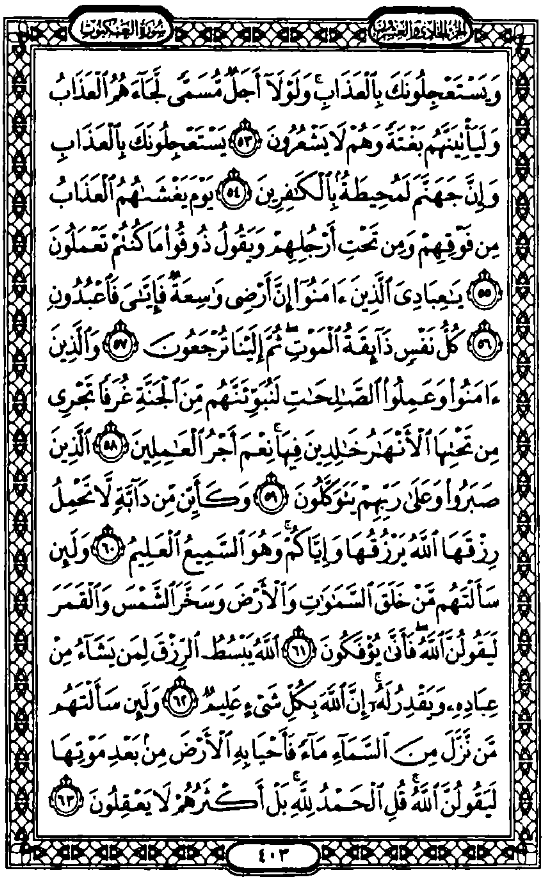
الجزء الحادى والعشرون — سورة العنكبوت

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٤٠٣

معانى الكلمات :

أجل مسمى : وقت محدد . **بغتة** : فجأة .

لنبوئنهم : لنسكننَّهم دائماً . **غرفاً** : منازل عالية . **كأين** : كثير . **لا تحمل رزقها**:لا تقدر على كسب رزقها . **يبسط** : يوسع .

يقدر : يضيق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن برحمة الله للناس فى تقسيم الأرزاق بينهم .

٢ ـ أن يعلم المسلم الحكمة من بسط الرزق لمن يشاء من عباده وقدره على آخرين .

٣ ـ أن يسعى المسلم فى دعوته واثقًا من معين الله له .

المحتوى التربوى :

تظهر الآيات حكمة تأجيل العذاب ويقول صاحب **الظلال** : « كثيرًا ما يكون إمهال الله استدراجًا للظالمين ليزدادوا عتوًّا وفسادًا ، أو امتحانا للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا وثباتًا ، وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات أو استبقاء لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيرًا أولئك المنحرفين ؛ حتى يتبين لهم الرشد من الغىّ فيثوبوا إلى الهدى ، أو استخراجًا لذرية صالحة من ظهورهم تعبد الله ، وتنحاز إلى حزبه ولو كان آباؤهم من الضالين ، أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور» .

ثم يأتى خطاب تعليم وإرشاد لرسم منهج التمكين للدعوة وهو الخروج من أرض الضيق ودفع خطرين يعترضان طريق الهجرة وهما :

ـ خاطر الأسى لمفارقة الوطن بكون الأرض كلها ملكا لله ، وأرض الله واسعة ، فأحب بقعة منها إذن هى التى يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه .

ـ والخاطر الثانى هو الخوف من خطر الهجرة ، خطر الموت الكامن فى محاولة الخروج فيأتى الإقناع الربانى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ . فالموت حتم فى كل مكان .

وتأتى الآيات بما يطمئن المؤمنين ويثبتهم من الخوف من خطر الرزق بعد مغادرة الوطن والمال ومجال العمل ، والنشاط المألوف ، وأسباب الرزق المعلومة ، وتدعو للتأمل فى رحمة الله بأن الدابة التى لا تستطيع اكتساب رزقها الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعًا، فهذه هى الدواب ، وكذلك يرزق الله من الناس المؤمن والكافر ، والبر والفاجر؛ لذا فليعلم المؤمنون أن رحمة الله تحوطهم ، وأن الضيق لرفع منزلتهم والسمو بمكانتهم .

ويمضى السياق القرآنى ليظهر اعتراف الكافرين بالله عز وجل ، وأن الله خالق السموات والأرض ، ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل السماء ومحيى الأرض بعد موتها ، وهذا الاعتراف يفضى إلى الاعتراف بأن الرزق بيد الله ، وقد أبان ذلك **صاحب الظلال** بقوله : « والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك ، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات ، وبسط الرزق وتضييقه بيد الله ، وفق الأوضاع والظواهر العامة ، فموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجرى وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر ، ومن معادن فى جوف الأرض ، كلها تتبع نواميس الكون ، ولو تغيرت تلك النواميس عما هى عليه أدنى تغيير لظهر أثر هذا فى الحياة كلها على سطح الأرض ، وفى المخبوء فيها من الثروات الطبيعية الأخرى سواء بسواء ، فحتى هذا المخبوء فى جوف الأرض ، إنما يتم تكوينه وتخزينه واختلافه من مكان إلى مكان وفق أسباب طبيعة الأرض وتأثراتها بالشمس والقمر .

إن الكون بحال النظر والتدبر للحق الذى جاء به ، ويقف القلب أمام هذا الكون وقفة المتفكر المتدبر اليقظ لعجائبه ، الشاعر بيد الصانع وقدرته ، المدرك لنواميسه الهائلة ، بلفتة هادئة يسيرة ، لا تحتاج إلى علم شاق عسير ، إنما نحتاج إلى حس يقظ وقلب بصير ، وكلما جلا آية من آيات الله فى الكون وقف أمامها يسبح بحمد الله ويربط القلوب بالله .

قال صاحب الأساس : « بمناسبة قوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ **قال ابن كثير** : هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ روى الإمام أحمد .. عن أبى يحيى مولى الزبير ابن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرًا فاقم » ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ؛ ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى ، فآواهم وأيّدهم بنصره ، وجعلهم سيومًا ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة » .

ويشير صاحب الظلال إلى أن السياق القرآنى يمضى : « فى معالجة النفوس البشرية ، التى تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها ، وتشفق من التعرض لها ، وقد عالجها فى الآيات

السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معًا ، فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة ـ سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات فى طريقه ـ فى حالة الهجرة فى سبيل الله ؛ وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجرًا فى سبيله ووعده بالسعة والمتنفس فى الأرض والمنطلق ، فلا تضيق به الشعاب والفجاج :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النساء) .

إن المنهج الربانى القرآنى يعالج فى هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهى تواجه مخاطر الهجرة ؛ فى مثل تلك الظروف التى كانت قائمة ؛ والتى قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف فى كل حين .

وهو يعالج هذه النفس فى وضوح وفصاحة ، فلا يكتم عنها شيئًا من المخاوف ، ولا يدارى عنها شيئًا من الأخطار ـ بما فى ذلك خطر الموت ـ ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى .

فهو أولاً يحدد الهجرة بأنها ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .. وهذه هى الهجرة المعتبرة فى الإسلام ، فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأى عرض من أعراض الحياة ، ومن يهاجر هذه الهجرة ـ فى سبيل الله ـ يجد فى الأرض فسحة ومنطلقًا فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة ، للنجاة وللرزق والحياة :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (النساء: ١٠٠) :

وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها ، يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق ، مرهونة بأرض ومقيدة بظروف ، ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلاً .

وهذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ؛ هو الذى يجعل النفوس تقبل الذل والضيم ، وتسكت على الفتنة فى الدين ؛ ثم تتعرض لذلك المصير البائس ، مصير الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر فى سبيل الله ، إنه سيجد فى أرض الله منطلقًا وسيجد فيها سعة ، وسيجد الله فى كل مكان يذهب إليه ، يحييه ويرزقه وينجيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الثقة بأن عقاب الله واقع بالكافرين ، وأن تأخيره لاستدراج الكافرين ورفع شأن المؤمنين .

٢ ـ أن يسلك المؤمن كل الطرق ؛ ليستمر فى طريق الدعوة لله حتى لو ترك وطنه .

٣ ـ ألا يشغل المؤمن قلبه بالرزق ؛ لأنه مقدر من الله .

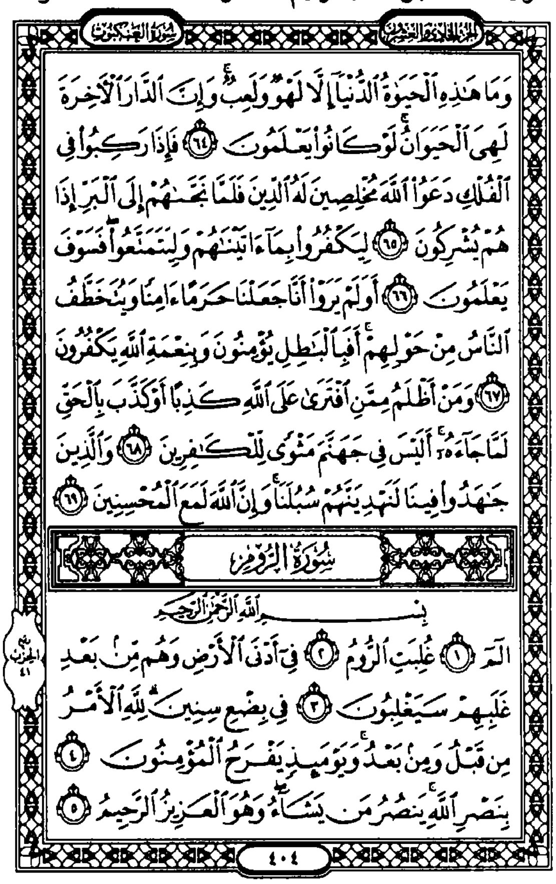
سورة العنكبوت — الجزء الحادي والعشرون

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٤٠٤

معانى الكلمات :

لهو ولعب : لذائذ وعبث باطل .

الفلك : السفن .

حرماً آمنا: المراد مكة .

مثوى : مكان يقيمون فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بعظم رابطة الإيمان ، وأنها تعلو ما سواها .

٢ ـ أن يعرف المؤمن مواقف تزيد من إيمانه بربه .

٣ ـ أن يمضى المؤمن فى دعوته واثقًا من نصر الله للمؤمنين .

المحتوى التربوى :

تقرر الآيات أن الحياة الدنيا لعب ولهو حين لا ينظر فيها إلى الآخرة ، ويصحح صاحب **الظلال** خطأ قد يفهم من الآية بقوله : « والقرآن لا يعنى بهذا أن يحض على الزهد فى متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيدًا ، إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه ، بل المقصود هو استعلاء النفس ، وسموها حتى لا تصبح أسيرة لهذا المتاع » .

ثم يعرض النص القرآنى بما يبكت الكافرين بإظهار تناقضهم واضطرابهم بأنهم إذا ركبوا فى الفلك ، وتعرضت سفينتهم للغرق لم يلجؤوا إلى الله ، لينجدهم وينجيهم ، وهذا نداء الفطرة التى تنادى بأن القوة هى قوة الله .

سورة الروم

بدأت السورة بالأحرف المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن ـ ومنه هذه السورة ، مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التى يعرفها العرب ، وهو مع هذا معجز لهم لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم .

ثم جاءت النبوءة الخاصة بغلبة الروم فى بضع سنين ، وكانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم .

تأتى هذه الآيات تطالعنا بالكشف عن مدى ارتباط الشرك بالكفر فى كل وقت وحين ، فكفار مكة سعدوا بانتصار الفرس المشركين على الروم وهم أهل كتاب ، وهذا كان قبل أربعة عشر قرنا والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن فى العصر الحاضر .

يقول صاحب **الظلال** عن إيحاءات السورة : « ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان ومع أن الدول قديمًا لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر ، مع هذا فإن المشركين فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون فى أى مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست فى عزلة عما يجرى فى أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثر فى قضية الكفر والإيمان .

وهذه الحقيقة البارزة هى التى يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ، ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون فى عصر رسول الله ﷺ منذ حوالى أربعة عشر قرنًا ، ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية فى حقيقتها هى قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة فى صميمها هى المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم فى جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة ، وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التى تتستر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوعت العلل والأسباب » .

فالقضية إذن هى قضية عقيدة ، هو صراع بين الكفر والإيمان ، وعلى المسلمين أن ينتبهوا لذلك كما انتبهوا فى عصر الرسول ﷺ ، ولا ينحصروا داخل حدود جغرافية أو جنسية .

وكما يقول صاحب **الظلال** : « وما أحوج المسلمين اليوم فى جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة، وحقيقة القضية ، فلا تلهيهم عنها الأعلام الزائفة التى تتستر بها أحزاب الكفر ؛ فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة مهما تنوعت الأسباب والعلل » .

إيحاء يؤخذ من قول الله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ قضية تقرير للحقيقة الكلية التى هى ميزان كل موقف فى النصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها .

ويعلق صاحب **الظلال** على قوله تعالى : ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فيقول : « فالأمر له من قبل ومن بعد وهو ينصر من يشاء ، لا مقيد لمشيئته سبحانه ، والمشيئة التى تريد النتيجة هى ذاتها التى تيسر الأسباب ، فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب ، والنواميس التى تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة ، وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات ، والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التى اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية فى هذا المجال ، فهى ترد الأمر كله إلى الله ، ولكنها لا تعفى البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التى من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع ، أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً فى التكليف ، لأن مرد ذلك فى النهاية إلى تدبير الله ، ولقد ترك الأعرابى ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله ﷺ ـ ودخل يصلى قائلاً : « توكلت على الله » فقال له رسول الله ﷺ : « اعقلها وتوكل » ، فالتوكل فى العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله .

﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ..

فهذا النصر محفوف بظلال القدرة القادرة التى تنشئة وتظهره فى عالم الواقع ؛ وبظلال الرحمة التى تحقق به مصالح الناس ؛ وتجعل منه رحمة للمنصورين والمغلوبين سواء ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) وصلاح الأرض رحمة للمنتصرين والمهزومين فى نهاية المطاف » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ بيان أنه لا منجاة إلا باللجوء إلى الله.

٢ ـ أن يتذكر المؤمن دائمًا رحمة الله بعباده المؤمنين .

٣ ـ الإيمان بقدر الله وقضائه ، وأن الأمور تجرى بتقديره وعلمه .

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ
أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ
شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
٤٠٥

معانى الكلمات :

عاقبة : نهاية ومصير .

أثاروا الأرض: أثروا فيها زراعة وصناعة .

البينات : المعجزات .

السوأى : أسوأ عاقبة .

الساعة : القيامة .

يبلس المجرمون : ييأس المجرمون .

روضة : بستان حسن .

يحبرون : يسرون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة التفكر فى الكون ، وأحوال الأمم التى أهلكها الله .

٢ ـ أن يعرف مظاهر إعجاز الله فى الكون ، وقصص الأقوام التى أهلكت بظلمها وكفرها .

٣ ـ أن يكثر من التفكر والتدبر .

المحتوى التربوى :

تشير الآيات لقدرة الله المطلقة وارتباط ذلك بالإيمان ، فالمؤمن بالله يطلعه الله على ظواهر فى الكون ، ذلك أن الإنسان خلق ضعيفاً ، وعلمه سطحى ، فالكون تحكمه نواميس وسنن مستكنة فى كيان هذا الوجود وتركيبه ، **ويقول صاحب الظلال** : « والذى لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ، ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التى تصرفه ، يظل فينظر وكأنه لا يرى ، ويبصر الشكل الظاهر والحركة والدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذى يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ، والمؤمنون هذا الإيمان قلة من الناس ، ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية » .

وإدراك الآخرة كما تسوق الآيات مبنى على نظرة الإنسان الصحيحة لكل ما على الأرض ، فالآخرة حلقة فى سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة ، والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة فى خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقًا ولا تحيد .

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل وتؤرجح فى أكفهم ميزان القيم ؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورًا صحيحًا، ويظل علمهم بها ظاهرًا سطحيًا ناقصًا، لأن حساب الآخرة فى ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع فى هذه الأرض فحياته على الأرض إن هى إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة فى الكون ، ونصيبه فى هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم فى الوجود ، والأحداث والأحوال التى تتم فى هذه الأرض إن هى إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة ، ولا ينبغى أن يبنى الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

ومن ثم لا يلتقى إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها ، لا يلتقى هذا وذاك فى تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتفقان فى حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون ، فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال .. هذا يرى ظاهرًا من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضى والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذى يشمل الأحياء وغير الأحياء .. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذى ينقل الإسلام البشرية إليه ، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان ، الخليفة فى الأرض ، المستخلف بحكم ما فى كيانه من روح الله .

ويعطى القرآن الوسيلة المثلى لإدراك حقائقه ونواميسه ، وهو التفكر فى الكون ؛ ذلك لأن طبيعة هذا الكون قائمة على الحق ، وميزانه ثابت لا يضطرب ، وكل شىء فيه له أجل مسمى مرسوم ، وكل شىء يأتى فى موعده ، وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة ، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ! ولكن تأجيلها يغرى الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ويخدعهم : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ .

ثم ينتقل النص القرآنى من الدعوة للتفكر فى المكان إلى التفكر فى الزمان بالتأمل فى مصير الغابرين ، وهم ناس من الناس ، وخلق من خلق الله تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية ، فسنة الله هى سنة الله فى الجميع ، **ويقول صاحب الظلال** : « والقرآن الكريم يدعو المكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا فى الأرض ، فلا ينعزلوا فى مكانهم كالقوقعة ، وأن يتدبروا عاقبة أولئك المكذبين المستهزئين ، ويتوقعوا مثلها ، وأن يدركوا أن سنة الله واحدة ، وأنها لا تحابى أحدًا ، وأن يوسعوا آفاق تفكيرهم فيدركوا وحدة البشرية ووحدة الدعوة ، ووحدة العاقبة فى أجيال البشرية جميعًا ، وهذا هو التصور الذى يحرص الإسلام أن يطبع به قلب المؤمن وعقله » .

يقول الإمام الشهيد حسن البنا صاحب مقاصد القرآن الكريم عن الغاية من التفكر : « هذا النظام المعجز والخلق البديع والتكوين الكامل والتصرف العجيب هو تدبير الله وصنعه ، وكذلك يدبر الله أمر الخلق ويذكر لهم الآيات القرآنية لعل ذلك يكشف عن قلوبهم حجب الغفلة ، ويزيل غشاوة الشك والريب ، فإذا أدركوا بعض مظاهر العظمة الربانية اعتقدوا وأيقنوا أن هذه الخالق قادر على إعادتهم وأنهم سيلقونه فيحاسبهم على ما قدموا من الأعمال فى حياتهم الدنيا » .

وبعد هاتين الجولتين فى أغوار الكون وأغوار التاريخ يردهم القرآن إلى الحقيقة التى يغفل عنها الغافلون .. حقيقة البعث والمآب ، وهى طرف من الحق الأكبر الذى يقوم عليه الوجود .

وهى حقيقة ـ البعث والمآب ـ بسيطة واضحة لمن يتفكر فى سنن الله فى خلقه ، ثم الانتقال إلى حقيقة الساعة التى يغفل عنها الغافلون ، ويكذب بها المكذبون ، ها هى ذى تجىء ، ويكون المجرمون فيها حائرين يائسين ، لا أمل لهم فى نجاة ، ولا رجاء لهم فى خلاص ، ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم فى الحياة ضالين مخدوعين ، ويأتى يوم القيامة ولا تبقى إلا رابطة الإيمان، وتنفصم كل الروابط من دون الإيمان، والأخلاء من الكفار يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ، أما المؤمنون الذين تفكروا وتدبروا فهم فى النعيم المقيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الثقة بوعد الله ، وأن يمضى المؤمن فى دعوته رابط الجأش ، ثابت القلب .

٢ ـ التفكر فى الكون يقود إلى الإيمان بالله .

٣ ـ وجوب التفكر فى سنن الماضين والعقاب الذى حل بهم .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

٤٠٦

معانى الكلمات :

عشياً : آخر النهار .

تظهرون : تدخلون وقت الظهيرة .

تنتشرون : تتفرقون .

لتسكنوا إليها : لتستريحوا .

البرق : نور يلمع فى السماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المسلم بعظمة خلق الله عز وجل .

٢ ـ أن يعرف بعض جوانب القدرة الإلهية .

٣ ـ أن يزداد المسلم شكراً لله على نعمه الكثيرة .

المحتوى التربوى :

يأتى التعقيب بالتسبيح والحمد بعد مشهد القيامة فى الفقرة السابقة ، ليتعلق المؤمن بالله ، وفى ذلك **يقول صاحب الظلال** : « والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات ، الإمساء والإصباح والعشى والإظهار ، كما يربطهم بآفاق السموات والأرض ، فينقضى بها الزمان والمكان ، ويربط القلب البشرى بالله فى كل بقعة وفى كل أوان ، ويشعر بتلك الرابطة فى الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك ، وظواهر الليل والنهار والعشى والإظهار » .

ثم يأتى الإقناع القرآنى بوجود الله وقدرته بذكر خروج الحىّ من الميت وخروج الميت من الحىّ كما **قال صاحب الظلال** : « بتلك العملية الدائبة التى لا تكاد تكف ولا تنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان على سطح الأرض ، وفى أجواء الفضاء ، وفى أعماق البحر، ففى كل لحظة يتم هذا التحول ، ولطول الألفة والتكرار لا يتنبه أحد لهذه المعجزة ، وفى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حية أو نواة ، إنها دورة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعى والقلب البصير.إن الآيات رد قاطع يزهق الباطل وأهله الذين ينكرون البعث والحساب والمآب » .

وتطوف الآيات فى مواضع مختلفة لتحرك الذهن لدلائل وجود الله وقدرته وإثبات حقيقة الإيمان بالله ، ومنها التفكر فى خلق الإنسان وانتقاله من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة

المتحرك الجليل القدر ، نقلة تثير التأمل فى صنع الله ، وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله ، وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم .

ثم ينتقل السياق القرآنى من مجال الحلقة الأولى لنوع البشر إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسى البشر ، فالناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتدفع تلك المشاعر خطاهم نحو أنماط من الاتجاهات المختلفة بين الرجل والمرأة ، ولكن الناس قلما يتذكرون أن يد الله هى التى خلقت لهم من أنفسهم أزواجًا ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت من تلك الصلة راحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة والمعاش .

ويقول صاحب **الظلال** عن خلق السموات والأرض : « إن خلق السموات والأرض معناه: إنشاء هذا العدد الضخم من الخلق من أفلاك ومدارات ونجوم وكواكب وسُدم ومجرات ، ومع هذه الضخامة الهائلة نجد التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والأفلاك ، ثم يأتى بعض التائهين الضالين المنحرفين ويزعم أن هذا الكون الهائل المنظم الدقيق العجيب وجد واستمر بدون خالق مدبر ، ويجد من يستطيع من يسمع بهذا الهراء من العلماء » .

وقليل من يتنبه لآية اختلاف الناس فى الألسنة والألوان وأقل منهم من يربط ذلك بخلق السموات والأرض ، فإن اختلاف الأجواء على سطح الأرض ، واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض والفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان ، مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان .

ويستمر النص القرآنى فى ربط الظواهر الكونية بعضها ببعض لوصل القلب البشرى بالوجود وخالق الوجود فى الإشارة لخلق الليل والنهار ، ونوم البشر ليلا من عناء الكدّ والكدح الذى يذلوه نهارًا .

ثم يربط القرآن بين الظواهر الكونية والمشاعر والرغبات البشرية من خلال ظاهرة البرق وهذه الظاهرة تثير فى النفس شعورين متضادين هما الخوف من الصواعق ، والطمع فيما يصاحب هذه الصواعق من مطر الذى يبحث فى الأرض حياة ، وفى ذلك كله دعوة للتفكر فى خلق الله .

فى ختام هذا العرض يحسن بنا أن نذكر **ما قاله الإمام الشهيد حسن البنا صاحب مقاصد القرآن الكريم** عن مقصد القرآن فى ذكر المظاهر الكونية فيقول :

جاء القرآن الكريم ذكر السماوات والأرضين والشمس والقمر والسُّحب والأمطار والنبات والحيوان وعجائب الخلق وغرائب المكونات فى كثير من المواطن ، فهل يريد القرآن بهذا أن يتناول هذه النواحى بالتحليل العلمى فيوضح للقارئين ما هيتها وعناصرها ويبين لهم وخواصها ويكشف لهم عن أسرار ؟ أم أن القرآن الكريم يعرض لكل هذه الظواهر الكونية لغرض آخر غير هذا التحليل العلمى ؟

لا شك أن القرآن الكريم لم يجيء ليكون كتاب فلك ولا هيئة ولا كيمياء ولا هندسة ولا لغير ذلك من الشوون التى تتناولها العلوم الكونية البحتة ، وإنما جاء ليكون كتاب هداية وإرشاد وتطهير للنفس البشرية وسمو بها إلى الكمال الممكن اللائق ، وإن أشار فى كثير من الأحيان إلى دقائق العلوم الكونية وعجائب النواميس التى تسير عليها المخلوقات ، وإنما جاء القرآن كذلك لحكم جليلة :

منها : أنه إذا تناول حقائق العلوم والمعارف الكونية بالشرح والبيان فقد قطع على العقل البشرى سبيل الرقى وحرمه لذة الجهاد العلمى وقضى على استقلاله وحريته بالجمود والخمود ولم يبق للعلماء فضل على الجهلاء وكان الناس فى المواهب سواء فلن تشهد الإنسانية إلا جيلا واحدا ثم يقضى عليها بعد ذلك بالفناء .

ومنها : أن طبيعة العقل البشرى فى نشوئه وتكوينه لا تقبل هذه الطفرة ولا تحتملها وإنما يسلك العقل البشرى فى النوع الإنسانى مسلكه فى الفرد ، والواحد له أطوار وأدوار ، فهو ينشأ ضعيفا لا يكاد يدرك ما حوله ثم تتسع أمامه آفاق الإدراك وحدوده .

ومنها : أن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشؤون كلها واستوعب حقائقها وتفصيلاتها لصعب على الناس حفظه ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولا أو معرفة ولنسى الناس هديه وإرشاده فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا ، ولقد يسره الله تعالى وسهله ليكون ذلك أدعى إلى تذكره وأقرب للوصول إلى مقاصده والعمل بما فيه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر) .

ومن ذلك نستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس فى كثير من المواضع لغرض واحد هو :

العبرة والعظة ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة ورقة وإعجاز وإبداع ، لا يكون إلا عن صانع حكيم متصف بالكمالات كلها لا يلحقه نقص ولا يناله قصور جلَّ ربنا عن ذلك وتعالى علوا كبيرًا ، يسوق القرآن كل ذلك ليكون سبيلا إلى معرفة الخالق والإيمان بالله ، وفى الوقت الذى يقصد فيه إلى هذا المعنى نجد أن فى ذكر هذه المخلوقات ولفت الأنظار إليها ومطالبة الناس بالتفكير فيها والتصريح بعلو منزلة العلماء بها دفعًا بكل مؤمن أن يتعلم وأن يحيط بأسرار هذا الكون العجيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كثرة التسبيح والحمد لله فى كل مكان وآن .

٢ ـ التفكر فى خلق الله دائمًا .

٣ ـ وجوب شكر الله على هذا النعم قولًا وفعلًا .

الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

الحزب ٤١

٤٠٧

معانى الكلمات :

قانتون : مطيعون . **له المثل الأعلى** : له الصفات العليا . **أهواءهم** : رغبات نفوسهم . **فاقم وجهك للدين** : اثبت على الدين . **حنيفاً** : مائلا عن الباطل للحق .

فطرة الله : دين الله . **منيبين إليه** : راجعين إليه . **شيعًا** : فرقًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بقيمة الاتباع لأوامر الله ، وأن يحذر من شهوات النفس وملذاتها .

٢ ـ أن يعرف المؤمن ثمار اتباع أوامر الله فى كل أموره .

٣ ـ أن يبتعد المؤمن عن الشهوات والأهواء ، وأن يكون محافظًا على عباداته .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات لإثبات البعث والنشور بأن هذا الكون من سمواته وأراضيه قام بأمر الله عز وجل ، وأنه عز وجل قادر على إخراج البشر يوم القيامة للعرض عليه والوقوف أمامه ، ولا يملك أحد ردًا ولا دفعًا لهذا الأمر ، فالكل فى الكون محكوم بالسنة الكونية فى العصاة الذين تعصى قلوبهم ، وتكفر قلوبهم لكن يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه ، وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت .

وفى كتاب **مقاصد القرآن الكريم** تناول الإمام الشهيد حسن البنا خواطر البعث نذكر منها بتصرف : « فى القرآن الكريم كثير من الآيات المطهرة تؤكد هذه المعانى معانى البعث ، وقد جاءت السنة المطهرة بينة كذلك :

وروى أحمد ورزين بسندهما عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك ؟ قال : **« أما مررت بوادى قومك جدبا ثم مررت به يهتز خَضِرًا »** قلت: نعم قال : **« فتلك آية الله فى خلقه كذلك يحيى الله الموتى »** .

بهذا الأسلوب البديع يقرر القرآن الكريم والسنة المطهرة عقيدة البعث فى نفوس الناس وهى أمر مركوز فى هذه النفوس مستقر فيها لا يعجبها عن التسليم به والإذعان له إلا هوى جامح أو شهوة غالبة أو مادية كثيفة أو خَبَلٌ فى التصور والإدراك ، وما أحسن ما قرره الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد فى هذا المعنى إذ يقول : « اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ، مِلّيين وفلاسفة ـ إلا قليلا لا يقام لهم وزن ـ على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها وحشيِّها وإنسيِّها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لايمكن أن يعدّ ضلَّةً عقليةً أو نزعةً وهمية ، وإنما هو إلهام من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع .

قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيًا باقيًا فى طور آخر، وإن لم يدرك كنهه ، ذلك إلهامٌ يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء » . أهـ .

وثَمّ برهانٌ آخر غير هذا البرهان الفطرى ألفتك إليه وأوجه نظرك نحوه ، ذلك أن نظام هذا الكون وما فيه ومنزلة الإنسان منه يدلك أوضح الدلالة على أن هذه الحياة القصيرة الأمد ـ التى تحسب بأعوام قلائل مهما طالت فهى مدة محدودة وفترة معدودة ـ لا تتناسب أبدا مع الحكمة فى تكوين هذا الإنسان وإبداعه هذا الإبداع وتمييزه بهذا العقل المفكر والفكر المدبر الذى سخر الله له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا، فإذا انتهت سعادة الحيوان بحصوله على مطالب جسمه، وانتهت سعادة النبات ببلوغه حد نموه ، فإن نفس هذا الإنسان قد خلقت مستعدةً لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات .

وللقرآن وسائل شتى لإظهار الوحدانية لله ، ومنها أسلوب ضرب الأمثال ، فالعباد يأبون أن يشاركهم عبيدهم فى مالهم ، وهو ليس مالهم بل المال مال الله ، وهم فى الوقت نفسه يتخذون شركاء من دون الله جنًا أو ملائكة أو أصنامًا أو أشجارًا ، وهو تناقض عجيب من أولئك الكافرين .

وإن العلة الرئيسية فى الشرك لدى هؤلاء الكافرين وهو الهوى الذى لا يستند إلى عقل أو تفكير .

ويقول صاحب الظلال : « والهوى لا ضابط له ولا مقياس ، إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة،ورغباتها ومخاوفها وآمالها ومطامعها التى لا تستند إلى حق، ولا تقف عند حد، ولا تزن بميزان » . ومعظم الكفر الذى بليت به البشرية كان بسبب شهوات النفس من مال وسيطرة ونفوذ ، ولكنه الضلال الذى لا يرجى معه هدى، والشرود الذى لا ترجى معه أوبة .

وكان التعقيب القرآنى للتحذير من الأهواء ، وهو إقامة الدين الخالص لله عز وجل ، فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق ، ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات بغير ضابط ولا دليل .

إن فطرة النفس البشرية تتوافق مع طبيعة هذا الدين ، وكلاهما من صنع الله ، وكلاهما موافق لناموس الوجود ، وكلاهما متناسق مع الآخر ، فإذا انحرف عن الفطرة لم يردها إلا الدين . وهو الإنابة إلى الله للنجاة من كل انحراف .

وتسوق الآيات الأوامر الربانية بتقوى الله فى كل أمر من أموره ، وإقامة الصلاة وهى صلة بين العبد وربه تكفل له لو أدى أركانه ألا يزيغ عن الفطرة ، وألا يرتكس فى مهاوى الضلال . وهى علامة التوحيد الخالص لله عز وجل، وهو أساس الفطرة السليمة وحماية لها من الأهواء التى تجرفها إلى تيارات الشرك بالله .

ويعرض **صاحب الظلال** أنماط الشرك وألوانه :«منهم من يشركون الجن،ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء ، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين ، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار ، ومنهم من يشركون الليل والنهار ، ومنهم من يشركون القيم الزائفة . والرغائب والأطماع ، ولا تنتهى أنماط الشرك وأشكاله » .

ولا يغرنّ المؤمنين فرح أهل الشرك بشركهم،وجدهم فى باطلهم ذلك بأنهم اتبعوا أهواءهم ، وهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أما المؤمنون فلهم الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق لا يقود أهله إلا إلى الله الواحد ، الذى تقوم السموات والأرض بأمره ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ العاقلون وحدهم الذين ينظرون ويفكرون فى مخلوقات الله وتنوعها ، وفوائدها .

٢ ـ الدين الإسلامى هو دين الفطرة السلبية .

٣ ـ الحذر من اتباع الأهواء والمطامع والشهوات .

٤ ـ الحرص على إقامة العبادات من فرائض ونوافل .

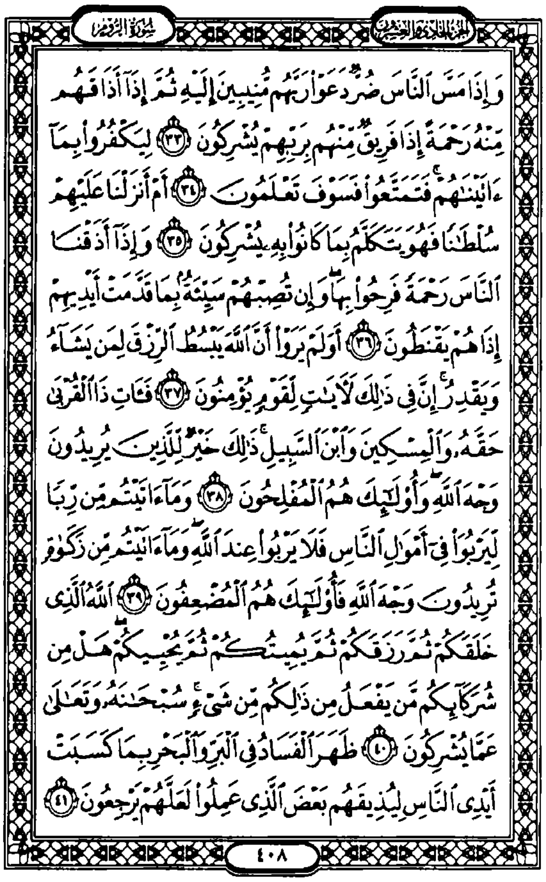
الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ
حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٤٠٨

معانى الكلمات :

منيبين إليه : راجعين إليه . **رحمة** : خيرًا وخلاصًا من الضر . **يقنطون** : ييأسون . **يقدر** : يضيق . **آيات** : عظات ودلائل . **فلا يربو عند الله** : لا يباركه . **المضعفون** : الذين يضاعف الله حسناتهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله عز وجل دائمًا ، واطلاعه عليه .

٢ ـ أن يعرف المؤمن كيف يقابل ويشكر نعم الله التى أفاءها علينا .

٣ ـ أن يكثر المسلم من الإنفاق فى سبيل الله .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات صورة لتقلب الأهواء البشرية أمام ثبات السنن ، ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم ، ونرى فيها نفوس البشر فى السراء والضراء عند بسط الرزق وقبضته أن النفوس البشرية تضطرب فى تقديراتها ، وتصوراتها ما لم تستند إلى ميزان الله الذى لا يضطرب أبدًا .

وها هى الآيات تأتى بالدليل على وجود فطرة الإيمان بالله فى كونه بأنه عند كل شدة ومحنة تدعو الله عز وجل ، ولكن ما إن تنكشف الغمة وتنفرج الشدة تستولى الأهواء على أصحاب النفوس ، وتنحرف عن طريق الفطرة وتتبع الشرك وأهله .

موقف آخر يعرض ضعف النفس البشرية البعيدة عن الله التى لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها ، فهى تفرح بالرحمة فرح البطر الذى ينسيها مصدرها وحكمتها ، ولا تشكر المنعم ثم إذا شاءت إرادة الله بسلب النعمة قنطت تلك النفس من رحمة الله ولا تعرف حكمته .

أما القلب المؤمن فلا يبطر عند البسط ، ولا يقنط عند القبض ، بل يعلم أنها أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله ، وفيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله .

وإذا كان الله هو الباسط فهو الذى يوضح للناس السبيل الأقوم لتربو أموالهم بأن يعطوا قسمًا منها لفئات من الناس وهم ذو القربى والمساكين وابن السبيل ـ كانت لم تكن فرضت حينئذ، وذلك كله فى إطار الفهم العام للنظرية الاقتصادية فى الإسلام ، وأساس هذه النظرية أن المال مال الله بما أنه الرازق به، وأن لفئات من المحتاجين حقًا فيه مقررًا لهم من صاحب المال الحقيقى، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذه المال ، فالوسيلة المضمونة لمضاعفة المال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس ، إنما هى إرادة وجه الله ، فالله هو الذى يعطى ويمنع وهو الذى يضاعف للمنفقين ابتغاء وجهه ، وهو الذى ينقص المال للمرابين الذين يبتغون وجوه الناس .

وعن مقصد الإسلام فى الإنفاق نورد هنا ما ذكره الإمام الشهيد حسن البنا فى مقاصد القرآن: ولا شك أن القرآن بسياسته هذه فى الإنفاق قد أقام الاقتصاد الاجتماعى على المزج بين أصلين أساسيين أولهما : الاعتراف بمواهب الفرد وحقه فى ثمرات كسبه وعدم الحد من جهوده فى هذه السبيل ما دام يكتسب من حلال طيب لا إثم فيه ولا عدوان ، وهذا هو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر (بالرأسمالية) وهو وحده لا يؤدى إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور بين الناس على وفاق وصفاء فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الثانى وهو : تقرير حق المجتمع فى كسب الفرد ووجوب التكافل بين أبناء الأمة الواحدة وهو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر (بالشيوعية) وهو وحده لا يؤدى كذلك إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور فيه بين الناس على وفاق وصفاء فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الأول.

فجاء نظام القرآن بهذا المزج بين أفضل ما فى النظامين .

كما لاحظ الإسلام بأوضاعه الاقتصادية الدقيقة فى الكسب والإنفاق التقريب بين الطبقات بحيث ضاقت الشُّقَّةُ بين الثروة والفقراء إلى أقصى حد .

فمن حيث الأغنياء : حدد أمامهم أبواب الكسب ، وفتح لهم أبواب الإنفاق ، وفرض عليهم الزكاة وحرم الربا وحيل بينهم وبين مظاهر التلاف ولم تعتبر ثروتهم فى عرف المجتمع الإسلامى مظهرًا من مظاهر التميز والاستعلاء ، وأنذروا بأشد الوعيد فى الدنيا والآخرة إذا لم يؤدوا حق الله والناس فى المال .

ومن حيث الفقراء : رفع عنهم معنى النقص الاجتماعى بسبب الفقر وفرض عليهم العمل وفتح أمامهم أبوابهم وجُعِلُوا عند العجز فى ضمان الأقرباء أولاً والأغنياء من الأمة ثانيًا ، وبيت

مال الدولة ثالثًا ، وتقرر بالتشريع حقهم المعلوم فى أموال الأثرياء ، ثم ألزمت الدولة بعد ذلك بملاحظة هذا التوازن والمبادرة إلى المحافظة عليه كلما عرضت له عوارض الاختلال ، ووضعت فى يدها كل السلطات التشريعية والتنفيذية اللائقة لإصلاح الحال ، وليس بعد ذلك زيادة لمستزيد ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا .

ثم ينتقل السياق لمعالجة قضية الشرك وهو إقناع بوجوب الإيمان بالله ، **فيقول صاحب الظلال** : « يواجههم بأن الله هو الذى خلقهم ، وأنه هو الذى رزقهم ، وأنه هو يميتهم ، وأنه هو يحييهم ، فأما الخلق فهم يقرون به ، وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئاً » .

يقول صاحب الأساس : « بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ **قال ابن كثير**: روى الإمام أحمد ، عن حبة وسواء ابنى خالد قال : دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما،فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة،ثم يرزقه الله عز وجل».

وتكشف الآيات عن ارتباط الإيمان بأعمال الناس ، وارتباط ذلك بالرزق ، وأن كثيرًا من الرزق قد حُرمه البعض لفسادهم ، وكثيرًا من العذاب قد وقع على الناس بسبب تماديهم فى الغى والضلال .

ويقول صاحب الأساس فى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ « أن فى الآية اتجاهين :

الأول : أن المراد بالفساد هنا هو ما يترتب على المعاصى والشرك من آثار سيئة ثمرتها العذاب والحياة النكد .

الثانى : أن المراد به نقص البركات فى البر والبحر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ معرفة الله عز وجل فى الرخاء والشدة .

٢ ـ الإيمان بأن الله هو الرازق لعباده دائماً .

٣ ـ الإنفاق فى سبيل الله دائما هو الذى يربى الأموال ويزيدها .

٤ ـ الامتناع عن المعاصى والإقبال على الطاعات هو السبيل لجلب الرحمة ودفع الغضب .

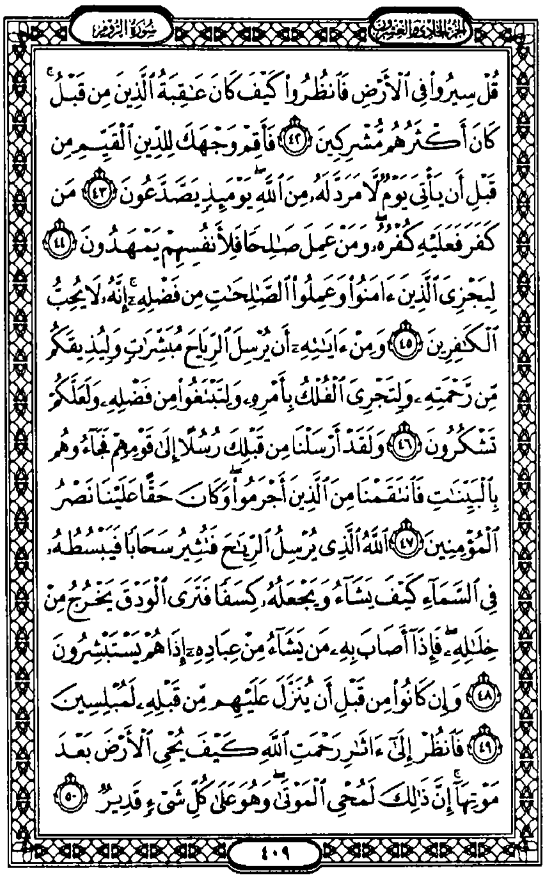
الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل
كان أكثرهم مشركين (٤٢) فأقم وجهك للدين القيم من
قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون (٤٣) من
كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون (٤٤)
ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب
الكافرين (٤٥) ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم
من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون (٤٦) ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم
بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر
المؤمنين (٤٧) الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه
في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من
خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون
(٤٨) وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين
(٤٩) فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد
موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥٠)

٤٠٩

معانى الكلمات :

عاقبة : مصير ونهاية .

لا مرد له: لا يقدر أحد على رده .

يصدعون : يتفرقون .

تثير سحابا : تحرك سحابا .

فيبسطه : ينشره .

كسفًا : قطعا متفرقة .

الودق : المطر .

مبلسين : يائسين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم جوانب رحمة الله لعباده .

٢ ـ أن يشعر المسلم بمعية الله لعباده المؤمنين .

٣ ـ أن يجتهد المسلم فى عبادته لربه .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق القرآنى لينبه الناس بما حل بالماضين الذين اتبعوا أهواءهم بغير علم ، فأباد الله قراهم ، ونزل بساحتهم العذاب وأضحت أثرًا بعد عين ، كما أن بالآيات صبرًا وعزاء للمؤمنين بأن يثبتوا على الحق وإن كانوا قلة ، فأكثر الناس مشركون .

ولأن النفوس البشرية تستلفتها الأشياء المادية ، يحسون بها فى محيط حياتهم ، فجاء القرآن بآيات تربط هذه النفوس بالخالق عز وجل ويبين جزاء الآخرة ، ونصيب المؤمنين والكافرين فيها ، ويحذرهم من يوم لا مرد له من الله ، يوم يتفرقون فريقين : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ فالذى يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيئ أسباب الراحة فى ذات اللحظة التى يقوم فيها بالعمل الصالح لا بعدها ، وما يستحق أحد من بنى آدم الجنة بعمله ، وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله ، إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين ،

وكراهيته سبحانه للكافرين ، ودلائل قدرته فى الكون مثل إرسال الله للرياح مبشرات بهبوط الغيث إليهم ولتسير سفنهم ، وليبتغوا من فضل الله وخيره ، وكما أن إرسال الرياح رحمة ، كذلك إرسال الرسل رحمة لهم بل هى رحمة أعظم وأجل ، لكن الناس تجاه هذه الرحمة غافلون تستلفتهم المنافع الدنيوية .

ـ كما يقول **صاحب الظلال** : « وقفوا فريقين : مجرمين لا يؤمنون ، ولا يتدبرون ، ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله، ومؤمنين يدركون آيات الله، ويشكرون رحمته ويثقون بوعده، ويحتملون من المجرمين ما يحتملون ، ثم كانت العاقبة التى تتفق مع عذاب الله ووعده الوثيق ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ » .

ويمتلئ القرآن بآيات البشارة بنصرة المؤمنين لكن ولماذا يبطئ هذا النصر أحياناً ؟ ، **يقول صاحب الظلال** : « هذا .. فى تقدير البشر لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله ، والله هو الحكيم الخبير ، يصدق وعده فى الوقت الذى يريده ويعلمه، وفق مشيئته وسنته ، وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر، وقد لا تتكشف ، ولكن إرادته هى الخير وتوقيته هو الصحيح » .

ثم يأتى القرآن بالدليل على أن نصر الله قادم ـ وإن تأخر عند البشر فقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ بعدها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ .

إن الآية الأولى والثالثة واضحة ، ولكن لم وجدت الآية الوسطى بينهما ؟

يقول صاحب الأساس : « إن الآيتين تضيئان على الآية التى وجدت بينهما ، فنفهم من ذلك أنه كما أن المطر تسبقه رياح مبشرات . وقد يأتى بعد احتباس ـ فكذلك نصر الله يأتى بعد ترقب واحتباس ، وإذ أخذ الله على اليائسين من رحمته يأسهم فى موضوع المطر ، فقد أعطى الله درساً للمؤمنين بألا ييأسوا من النصر دون أن يخاطبهم بذلك مباشرة ، وعلى هذا فما ذكره الله عز وجل فى سورة البقرة ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) صراحة قد ذكر الله به المؤمنين هنا بشكل ضمنى » .

وفى هذا المقام يذكر الإمام الشهيد حسن البنا بعض مقاصد القرآن فى ذكر الآيات الكونية فيما يلى :

١ ـ ليست مهمة القرآن شرح بحوث هذه العلوم تفصيليا ، وإنما ترك ذلك للعقل الإنسانى يكشف فى كل طور من أطوار رقيه وكماله جزءا منه يتناسب مع مقدرته وما أتيح له من وسائل البحث والإدراك السليم .

٢ ـ إنما عرض القرآن لما عرض له من هذه البحوث تنبيها لما فيها من دقة الصنع وجمال الإبداع ليكون ذلك حافزا إلى معرفة الله وصدق الإيمان به كما يكون حافزا إلى دوام البحث والنظر كذلك .

٣ ـ إن هذا لم يمنع القرآن الكريم من أن يتعرض لكثير من النواميس الدقيقة فى هذه العلوم إرشادًا للخاصة من الناس وإثباتًا لنسبة هذا الكتاب الكريم إلى العليم الحكيم .

٤ ـ كان أسلوب القرآن فى التكلم عن هذه المظاهر الكونية أسلوبا معجزا حقا ..فيه جمال وفيه دقة وفيه وضوح إلى جانبهما فهو يرضى النفس الفطرية كما يشبع نهمة الفكرة العلمية كما لا يمكن أبدًا أن يصطدم فى مرونته وسعة معانى ألفاظه بنتائج البحث العلمى أيا كان فى أى عصر من العصور وهذا من أبلغ وجوه إعجاز القرآن .

ويذكر الإمام الشهيد حسن البنا فى مقاصد القرآن الكريم ملمحًا آخر فى ذكر الآيات فيقول :

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن ورود هذه الآيات بهذا الأسلوب فى القرآن أكبر دافع للمسلمين إلى أن يدرسوا هذه العلوم ويستبْحروا فى دراستها فهى وسيلتهم إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، وقد اعتبر الإسلام التفكر والتبحر فى دراسة أسرار الكون عبادة لا تَعدلُها عبادة ، وهم بذلك يستطيعون أن يدفعوا عن دينهم شبهات بعض الذين عرفوا قشورا من هذه المعارف ثم راحوا يهاجمون بها العقائد مخادعين بأن العلم يناقض الدين وهو كلام كاذب لا حجة عليه ، بل إن معرفة الكون هى الوسيلة الصحيحة لمعرفة الله فى إن القرآن بهذا الأسلوب البديع الفريد قد ربط بين القلب المؤمن والعقل المفكر وآخى بذلك بين الدين والعلم ، وهذا أقصى ما وصل إليه الاجتماعيون والمدربون من سمو الغاية ونبل المقصد قد سبقهم به الإسلام بعدد عظيم من الأجيال يتبرم كثير من الشبان العصريين بالطقوس . ويرى هذا الفريق من الشبان أن هذا الوجود هو أقدسُ سفْر يتلو فيه الإنسان آيات عظمة الله تبارك وتعالى وهم لذلك يرددون آثار شعراء الغرب الذين تناولوا الكون بالوصف الرائع البديع هذا الفريق من الشباب لو قرأوا القرآن الكريم ودرسوا الدين الإسلامى الحنيف لوجدوا فيه فوق ما يتصورون من تغذية العقول والأرواح بالتأمل فى خلق الله تبارك وتعالى والتفكر فى كونه ومخلوقاته ، ولوجدوا فى ذلك حياة أرواحهم وسعادة أنفسهم ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ؟ إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب التفكر فى سير الماضين وما حل بهم ، ومعرفة أسباب ذلك .

٢ ـ التمتع بنعم الله فى الكون وشكر الله عليها .

٣ ـ ترك اليأس والقنوط ، والتفكر فى خلق الله عز وجل .

ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون
(٥١) فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا
مدبرين (٥٢) وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا
من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (٥٣) ۞ الله الذي خلقكم
من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد
قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير (٥٤)
ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة
كذلك كانوا يؤفكون (٥٥) وقال الذين أوتوا العلم والإيمان
لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث
ولكنكم كنتم لا تعلمون (٥٦) فيومئذ لا ينفع الذين
ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون (٥٧) ولقد ضربنا
للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية
ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك
يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر إن
وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)

معانى الكلمات :

مدبرين : منصرفين .

شيبة : نهاية الكبر .

ما لبثوا : ما مكثوا .

يستعتبون : لا يرجعون إلى الدنيا ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل .

ضربنا : بينا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بعظمة قدرة الله فى نفسه وبدنه .

٢ ـ أن يعرف المؤمن إعجاز القدرة لله فى تغير البدن من الضعف للقوة ثم للضعف .

٣ ـ أن يكثر المسلم من العبادة ، ويؤدى شكر نعم ربه .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات لتصور حال الكفار ، وقد انخلعت قلوبهم هلعًا فيكفرون سخطًا ويأسًا ؛ لأن الكافر قد رين على قلبه ، ولا يؤمن بقدر الله ، ولا يهتدى ببصيرته إلى حكمة الله فى تدبيره ، لا يرى من وراء الأحداث يد الله التى تنسق هذا الكون كله ، وتقدر كل أمر ، وكل حادث .

وإن من لا يرون آيات الله فى خلقه هم موتى لا حياة فيهم ، صم لا سمع لهم ، عمى لا يهتدون للطريق ، والذى ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لا حياة فيه ، إنما هى حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدىّ بفطرته التى قلما تخونه ، والذى لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ فى القلوب أصم ، ولو كانت له أذنان

تسمعان ذبذبة الأصوات ، والذى لا يبصر آيات الله المبثوثة فى صفحات الوجود أعمى ولو كانت عينان كالحيوان .

ثم ينتقل السياق القرآنى لجولة جديدة لا فى الكون المشاهد بل فى النفس البشرية ، وتأمل أحوالها وانتقالها من حالة ، إلى حالة من حالة الضعف ، ثم للقوة ثم للضعف مرة أخرى ، إنها جولة مريرة ، يرون أوائلها فى شهود حياتهم، وهى جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ويقول صاحب الظلال : « الشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها ، وقد يصاحبها انحدار نفسى ناشئ عن ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحياناً كما يهفو الطفل ، وإن هذه الأطوار لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، ولا تبطئ مرة فلا تجيء غير فى موعدها المضروب ، إن هذه الأطوار التى تتعاور تلك الخلية البشرية لتشهد بأنها فى قبضة مدبرة ، تخلق ما تشاء ، وتقدر ما تشاء ، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله ، وأطواره ، وفق علم وثيق ، وتقدير دقيق » .

والسياق القرآنى يعرض موقفين متقابلين ، موقف المجرمين بين يدى الله وهم يقسمون أنهم ما لبثوا فى الحياة الدنيا غير ساعة وبطلت حساباتهم ، واختلت موازينهم ، أما المؤمنون أولو العلم الذين فهموا آيات الله فى الكون وتقدير الله للأشياء ، فآمنوا بيوم البعث واستجابوا لكل داع ونذير .

يوم القيامة يوم الحساب ، لا يقبل من الكفار اعتذارهم ، فإن الله ضرب لهم الأمثال فى القرآن ، خاطبهم بكل نمط من أنماط الخطاب ، وفيه كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول ، وفيه شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير ، فهو يخاطب كل عقل ، وكل بيئة ، وكل محيط ، يضرب الأمثلة للنفس البشرية فى كل حالة من حالاتها ، ينوع وينقل الطرف فى العالم الأكبر والعالم الأصغر وكان رد الكافرين على هذا هو التكذيب والتطاول ، وصدهم عن السبيل بهذا أطمس قلوبهم وأعمى بصائرهم عن رؤية الحق .

ويمضى السياق يتحدث عن القرآن ، فهو حجة الله البالغة على العباد .

يقول صاحب مقاصد القرآن الكريم : « وأعتقد أن أهم الأغراض التى تجب على الأمة الإسلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد :

أولها : الإكثار من تلاوته ، والتعبد بقراءته ، والتقرب إلى الله تبارك وتعالى .

ثانيها : جعله مصدرًا لأحكام الدين شرائعه ، منه تؤخذ وتستنبط وتستقى وتتعلم .

ثالثها : جعله أساسًا لأحكام الدنيا ؛ منه تستمد وعلى مواده الحكيمة تطبق .

وتلك أهم المقاصد والأغراض التى أنزل الله لها كتابه وأرسل به نبيه ، وتركه فينا من بعده واعظًا مذكرا وحكمًا عدلا وقسطاسًا مستقيما،ولقد فهم السلف رضوان الله عليهم هذه المقاصد، ولقد كان بعضهم إذا شغل عن ورده من القرآن نظر فى المصحف وقرأ بعض الآيات الكريمة ، وقال : حتى لا أكون من اتخذ القرآن مهجورًا ، فكان القرآن ربيع قلوبهم وورد عبادتهم يتلونه آناء الليل وأطراف النهار » .

فلا يجزعن الدعاة إلى الله من وعورة الطريق فكان الأمر من الله عز وجل بالصبر .. **ويقول صاحب الظلال** : « إن الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحياناً بل نهاية ! والثقة بوعد الله الحق والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك ، الصبر والثقة على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله ، ذلك أنهم محجوبون عن العلم ، محرومون من أسباب اليقين ، فأما المؤمنون الواصلون المسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين » .

والصبر يكون على أشياء كثيرة ، الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من قريب ! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم ، وانحراف طباعهم ، وأثرتهم ، وغرورهم ، والتوائهم ، واستعجالهم للثمار ! والصبر على تنفج الباطل ، ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة ، وتصعير الغرور والخيلاء ! والصبر على قلة الناصر ، وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعات الكرب والضيق ! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره فى النفس من انفعالات متنوعة ، من الألم والغيظ ، والحنق ، والضيق ، وضعف الثقة أحيانًا فى الخير ، وقلة الرجاء أحيانًا فى الفطرة البشرية ، والملل والسأم واليأس أحيانًا والقنوط ! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس فى ساعة القدرة والانتصار والغلبة ، واستقبال الرخاء فى تواضع وشكر ، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام ، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء ! والبقاء فى السراء والضراء على صلة بالله ، واستسلام لقدره ، ورد الأمر إليه كله فى طمأنينة وثقة وخشوع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ثبات المؤمن مع الله فى السراء والضراء .

٢ ـ التأمل فى النفس البشرية وأحوالها والإيمان لله عز وجل .

٣ ـ استحضار موقف القيامة فى النفس والعمل له .

٤ ـ الصبر فى الدعوة إلى الله دائمًا .

فهرس الموضوعات

السورة	الصفحة
يونس	٥
هود	٤٥
يوسف	٨٧
الرعد	١٢٨
إبراهيم	١٤٦
الحجر	١٦٧
النحل	١٨٣
الإسراء	٢٢٧
الكهف	٢٦٢
مريم	٢٩٦
طه	٣١٨
الأنبياء	٣٤٧
الحج	٣٧٧
المؤمنون	٤٠٧
النور	٤٣١
الفرقان	٤٦٠
الشعراء	٤٨٢
النمل	٥١٢
القصص	٥٣٨
العنكبوت	٥٧٠
الروم	٥٩٤

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://www.facebook.com/books4all.net